جان بول سارتر

وقف التنفيذ

ترجمة: سهيل إدريس



رواية

دار الآداب

جان بول سارتر

دروب الحرّية - II -

وقف التنفيذ

ترجمة د. سهيل إدريس

رواية

دار الآداب ـ بيروت

وقف التنفيذ

دروب الحرّيّة ـ II

جان بول سارتر / روائيّ وفيلسوف فرنسي

طبعة عام 2015

ISBN 978-9953-89-497-3

Jean-Paul Sartre

LE SURSIS

Les Chemins de la liberté, II

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير ـ بناية بيهم

ص.ب. 4123 ـ 11

بيروت ـ لبنان

هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)

فاكس: 009611861633

e-mail: rana@daraladab.com

info@daraladab.com

/Dar.Al.Adaab @DarAlAdab daraladab.com

الجمعة ٢٣ أيلول

الساعة السادسة عشرة والنصف في برلين، الخامسة عشرة والنصف في لندن. كان الفندق يُشعر بالضجر فوق رابية، خاليًا مزهوًّا وفي داخله شيخ. كانوا يفكّرون في أنغوليم، وفي مارسيليا، وفي غاند، وفي دوفر: «ماذا تراه يفعل؟ لقد تجاوزت الساعة الثالثة، فلماذا لا يهبط؟» وكان جالسًا في الصالة ذات الشبابيك نصف المغلقة، وعيناه ثابتتان تحت حاجبيه الكثيفين، وفمه مفترّ بعض الافترار، كما لو أنّه كان يبتعث ذكرى قديمة جدًّا. وقد كفَّ عن القراءة، وكانت يده الهرمة المبقّعة التي ما تزال تمسك بالأوراق، تتدلّى على ركبتيه. التفت نحو هوراس ويلسون وسأل: «كم هي الساعة؟» فقال هوراس ويلسون: «الرابعة والنصف تقريبًا». رفع الشيخ عينيه الكبيرتين، وضحك ضحكة صغيرة محبَّبة، وقال: «إنَّ الطقس حارّ». وكان حرّ أحمر زافر مليء بنثار مذهّب قد سقط على أوروبا، فكان الناس يشعرون به على أيديهم، وفي أعماق عيونهم، وفي شُعابهم، وكانوا ينتظرون مشمئزّين من الحرّ والغبار والقلق. وفي باحة الفندق، كان الصحافيّون ينتظرون؛ وفي الساحة الخارجيّة، ثلاثة سائقين ينتظرون،

جامدين إزاء مقاود سيّاراتهم؛ وعلى الجانب الآخر من الرين، كان پروسيّون فارعو القامة، بثياب سود، ينتظرون جامدين في باحة فندق دريسن، ولم يكن ميلان هلينكا ينتظر بعدُ. إنّه لم يكن ينتظر بعد منذ أمس الأوَّل. فقد حلَّ ذلك النهار الطويل الأسود الذي تخلّله يقين ساطع: «لقد تخلّوا عنَّا!» ثم عاد الزمن يجري، لحسن الحظّ، ولم تكن الأيَّام تعيش نفسها لنفسها بعدُ أبدًا إلَّا أيّامًا تالية.

وفي الساعة الخامسة عشرة والنصف، كان ماتيو ما يزال ينتظر، على حافَّة مستقبل مريع، وفي اللحظة نفسها، الساعة السادسة عشرة والنصف، لم يكن لميلان بعدُ من مستقبل. ونهض الشيخ، فاجتاز القاعة، متصلّب الركبتين، بخطوة مزهوّة واثبة، وقال «أيّها السادة!» وابتسم بخفاوة. وضع الوثيقة على الطاولة وملَّس أوراقها بقبضته المضمومة؛ وكان ميلان قد انزرع أمام الطاولة، وكانت الجريدة المنشورة تغطّي مساحة القماشة المشمّعة كلّها. وقرأ ميلان للمرَّة السابعة:

«لم يستطع رئيس الجمهوريّة، ومعه الحكومة، أن يفعلا شيئًا غير أن يقبلا عروض الدولتين الكبيرتين، حول أساس موقف يُتّخذ في المستقبل. ولم يكن باقيًا علينا أن نفعل شيئًا آخر ما دمنا قد بقينا وحدنا». وكان نفيل هندرسون وهوراس ويلسون قد اقتربا من الطاولة، فالتفت الشيخ نحوهما، وكان يبدو أنّه وديع مستسلم، فقال: «أيّها السادة، هذا ما بقي علينا أن نفعله». وكان ميلان يفكّر: «لم يكن ثمّة شيء آخر يُفعل». وكانت تدخل من النافذة ضجّة مختلطة، وميلان يفكّر: «لقد بقينا وحدنا».

ارتفع من الشارع صوتٌ فأريّ صغير: «ليعش هتلر!».

فركض ميلان إلى النافذة وصاح:

ـ انتظر قليلاً، انتظر ريثما أهبط.

وحدث فرار مجنون واصطفاق نعال؛ وفي نهاية الشارع التفت الشقيّ

وفتّش في وزرته، ثم أخذ يدير ذراعه حول رأسه. وانبعث صوت نقرتين جافّتين على الجدار. فقال ميلان: ـ إنّه ليبكنشت الصغير يقوم بدورته.

وانحنى: كان الشارع خاليًا، كأيّام الآحاد. وكانت أسرة شونهوف قد علّقت على شرفة بيتها أعلامًا حمرًا وبيضًا مع صلبان معقوفة. وكانت جميع مصاريع البيت الأخضر مغلقة. وفكّر ميلان: «ليس لنا مصاريع». وقال:

ـ يجب أن نفتح جميع النوافذ.

فسألت أنّا: ـ لماذا؟

ـ حين تكون النوافذ مغلقة، فهم يصوِّبون إلى الزجاج.

فهزّت أنّا كتفيها، وقالت: ـ مهما يكن من أمر..

كانت أغانيهم وصرخاتهم تصل في موجات كبيرة مبهمة. وقال ميلان: ـ إنّهم ما يزالون في الساحة.

كان قد وضع يديه على قضيب الاستناد، وهو يفكّر: «لقد انتهى كلّ شيء». وبرز في زاوية الشارع رجلٌ ضخم، يرتدي «روكساكًا» ويعتمد على عصا. وكان يبدو عليه التعب، تتبعه امرأتان أحنت ظهريهما حزمٌ كبيرة.

قال ميلان من غير أن يلوي: ـ لقد عادت أسرة جاغرشميت.

وكان أفرادها قد هربوا مساء الاثنين، ولا بدَّ أنّهم اجتازوا الحدود ليلة الثلاثاء. أمّا الآن، فهم يعودون مرفوعيّ الرأس. واقترب جاغرشميت من البيت الأخضر ورقي الدرجات المسطّحة. وكان وجهه رماديًّا من الغبار، وعليه بسمة غريبة. أخذ يبحث في جيوب سترته حتى أخرج مفتاحًا. وكانت المرأتان قد وضعتا حزمهما على الأرض، وراحتا تنظران إليه. صاح به ميلان قائلاً: ـ إنّك تعود إذ يزول الخطر!

فقالت أنّا بحيويّة: ـ ميلان!

وكان جاغرشميت قد رفع رأسه، فرأى ميلان والتمعت عيناه الصافيتان.

ـ إنّك تعود إذ يزول الخطر!

فصاح جاغرشميت: ـ نعم، أعود. أمّا أنت، فسوف ترحل!

وأدار المفتاح في القفل ودفع الباب، فدخلت المرأة على إثره. والتفت ميلان، وقال: ـ جبناء قذرون!

قالت أنّا: ـ إنّك تستثيرهم.

قال ميلان: ـ إنَّهم جبناء، من عِرْق الألمان القذر. لقد كانوا منذ عامين يلحسون نعالنا.

ـ هذا لا يمنع. إنَّ عليك ألّا تستثيرهم.

كفّ الشيخ عن الكلام؛ وظلّ فمه منفرجًا كما لو أنّه كان يتابع في صمت الإدلاء بآرائه عن الموقف. وكانت عيناه الكبيرتان المستديرتان قد غامتا بالدمع، وقد رفع حاجبيه، وهو ينظر إلى هوراس ونفيل في هيئة استفهام. وصمتوا.. تحرّك هوراس حركة مفاجئة ثم أدار رأسه؛ ومشى نفيل حتى الطاولة، فتناول الوثيقة، وتأمّلها لحظة، ثم دفعها في استياء. وبدأت على الشيخ هيئة التململ، فباعد ذراعيه علامة العجز والاستسلام. وقال للمرّة الخامسة: «لقد وجدتني بإزاء موقف غير متوقّع على الإطلاق؛ وكنت أظنّ أنّنا سنناقش بهدوء العروض التي كنت أحملها..» وفكّر هوراس: «يا للثعلب القديم! من أين تراه يجيء بهذا الصوت، صوت الجدّ العجوز؟» وقال: «حسنًا يا سيِّدي الرئيس: سنكون في فندق دريسن بعد عشر دقائق».

قالت أنّا: ـ لقد جاءت «لرخن». إنّ زوجها في براغ، وهي ليست مطمئنّة.

ـ ليس لها إلّا أن تنزل عندنا.

فقالت أنّا في ضحكة مقتضبة: ـ أتظنّ أنّها ستكون أكثر اطمئنانًا.. مع مجنون مثلك يقف على النافذة ليشتم الناس في الشارع؟

فنظر إلى رأسها الصغير الرقيق الهادئ ذي الملامح المشدودة، وإلى كتفيها الضيّقتين وإلى بطنها الهائل. وقال:

ـ اجلسي. إنّني لا أحبّ أن أراك واقفة.

فجلست وشبكت يديها على بطنها، وسحب الرجل بعض الصحف وهو يتمتم: «باري ـ سوار الأخيرة. بقي لديّ نسختان، فاشترهما». وكان قد صاح حتى بُحّ صوته. وأخذ موريس الصحيفة. وقرأ: «وجّه رئيس الوزارة شمبرلن إلى المستشار هتلر رسالةً سيُجيب عليها هذا الأخير، كما يتوقّع في الأوساط البريطانيّة. وعلى هذا، فإنَّ اللقاء الذي كان منتظرًا أن يتمّ هذا الصباح قد أُجِّل إلى ساعة أُخرى».

كانت زيزيت تنظر إلى الصحيفة من فوق كتف موريس. وسألت:

ـ هل من جديد؟

ـ لا. لا يزال الوضع كما هو.

وقلب الصفحة، فرأيا صورة مظلمة تمثّل ما يشبه قصرًا من قصور القرون الوسطى، في قمّة رابية، ذا بروج وقببٍ صغيرة ومئات من النوافذ. قال موريس: ـ إنّه غودسبرغ.

فسألت زيزيت: إنَّ شمبرلن إذن هناك؟

ـ يبدو أنّهم أرسلوا نجدة من رجال الشرطة.

قال ميلان: ـ نعم. دركيّان. وقد أصبحوا الآن ستّة. وهم متمترسون في مخفر الدرك.

وانصبّت شحنة من الصراخ في الغرفة. فارتعشت أنّا، ولكن وجهها ظلَّ هادئًا. وقالت: ـ ما رأيك بأن نتلفن؟

ـ نتلفن؟

ـ نعم. نتلفن لبريسكنيس.

فأراها ميلان الجريدة من غير أن يجيب: «تقول برقيّة لوكالة

د .ن .ب. بتاريخ الخميس أنّ السكّان الألمان في مناطق السوديت قد استولوا على الحكم حتى الحدود اللغويّة».

قالت أنّا: ـ ربَّما كان ذلك غير صحيح. لقد قيل لي إنّ هذا لم يقع إلَّا في «إيجر».

فضرب ميلان الطاولة بقبضته: ـ تفه! يطلبون مزيدًا من النجدة!

وبسط يديه، وكانتا ضخمتين معقّدتين، مع بقع سمراء وندوب: لقد كان حطّابًا قبل ذلك الحادث. وكان ينظر إليهما وهو يباعد أصابعه. فقال:

ـ بوسعهم أن يجيئوا. اثنين أو ثلاثة. وأؤكّد لك أنّنا سنتسلّى خمس دقائق.

قالت أنّا: ـ بل هم سيأتون وعددهم ستمئة.

وخفض ميلان رأسه، كان يحسّ أنّه وحيد.

وقالت أنّا: ـ إسمع!

وأصغى: كانوا يُسمعون بوضوح أكثر، ولا بدّ أنّهم قد بدأوا المسير. كان يرتجف من الغضب، فقد التبست عليه الأمور وأخذه الصداع. اقترب من الطاولة وأخذ يلهث، فسألته أنّا:

ـ ماذا تفعل؟

وكان قد مال على دُرج الطاولة وهو يلهث. انحنى أكثر وهمهم من غير أن يجيب. قالت له: ـ يجب ألَّا تفعل ذلك.

ـ ماذا؟

ـ يجب ألَّا تفعل.. أعطني هذا.

والتفت: كانت أنّا قد نهضت، وهي تستند إلى الكرسيّ، والجدّ باد على وجهها. فكّر في بطنها، ومدّ لها المسدّس، وقال:

ـ كما تريدين، سأتلفن لبريسكنيس.

وهبط إلى الطابق الأرضي. وفي باحة المدرسة، فتح النوافذ ثم تناول التلفون.

ـ أعطني المخفر، في بريسكنيس. آلو؟

وكانت أذنه اليمنى تسمع خشخشة جافّة. وأذنه اليسرى تسمعهم «هم». وضحكت أوديت ضحكة غامضة: «لم أعرف قطّ أين تقع تشيكوسلوفاكيا بالضبط». قالت ذلك، وهي تغرز أصابعها في الرمل. وبعد لحظة، حدثت خربشة، وقال صوت: ـ نا؟

وفكّر ميلان: «إنّني أطلب نجدة!» وكان يضمّ السمّاعة بكلّ قواه. وقال: ـ هنا برافنيتز، أنا المعلّم. نحن عشرون تشيكيًّا، وهناك ثلاثة ألمان ديموقراطيين يختبئون في جوف كهف، والباقي في «هنلين»، وهم محاطون بخمسين شخصًا من «الفرقة» الحرّة اجتازوا الحدود مساء أمس وجمعوهم في الساحة. وإنَّ المختار معهم.

وساد صمت، ثم قال الصوت في وقاحة: ـ بت! دوتش سبريشن.

فصاح ميلان: ـ شوينكوبف!

وأعاد السمَّاعة، ثم عاد يرقى السلّم وهو يعرج. وكانت ساقه تؤلمه. دخل الغرفة فجلس.

وقال: ـ إنّهم هنا.

وأقبلت عليه أنّا. فوضعت يديها على كتفيه، وقالت: ـ حبيبي الغالي.

قال ميلان: ـ القذرون! كانوا يفهمون كلّ شيء، وكانوا يتضاحكون في الطرف الآخر من الخطّ.

وجذبها بين ركبتيه. وكان البطن الضخم يلامس بطنه. وقال: ـ ها نحن الآن وحيدان.

ـ لا أستطيع أن أصدِّق ذلك.

ورفع رأسه على مهل، ونظر إليها من تحت إلى فوق. كانت جادّة وقاسية في العمل. ولكن كان فيها من النساء هذا: ينبغي دائمًا أن تثق بأحد. وقالت أنّا: ـ ها هم أولاء!

وكانت الأصوات تبدو كأنّها أقرب: لا بدّ أنّهم يسيرون في عرض في «الغراندرو». ومن بعيد كانت صيحات الجماهير الفرحة تشبه صرخات ذعر.

ـ هل الباب محصّن؟

قال ميلان: ـ نعم. ولكن بوسعهم أن يدخلوا من النوافذ، أو أن يتجاوزوا الحديقة.

قالت أنّا: ـ وإذا صعدوا؟..

ـ لا حاجة بك إلى الخوف. بوسعهم أن يحطّموا كلّ شيء من غير أن أرفع إصبعًا واحدًا.

وأحسّ فجأة شفتيّ أنّا الحارّتين على خدّه:

ـ يا حبيبي الغالي. أعرف أنّك إنّما تفعل ذلك من أجلي أنا.

ـ ليس من أجلك. فأنتِ أنا. وإنّما من أجل الطفل.

وانتفضا: لقد دُقَّ الباب. وصاحت أنّا: ـ لا تذهب إلى النافذة.

ونهض، فتوجّه إلى النافذة. كانت أسرة جاغر شميت قد فتحت كلّ نوافذها. وكان العَلَم الهتلريّ متدلّيًا فوق الباب. وحين انحنى، رأى طيفًا صغيرًا، فصاح: ـ أنا هابط.

واجتاز القاعة، وقال: إنّها ماريكا.

وهبط السلّم، وراح يفتح الباب. مفرقعات، صراخ، موسيقى من فوق السطوح: كان ذلك يوم عيد. ونظر إلى الشارع المقفر، فانقبض قلبه. وسأل: ـ ماذا أتيتِ تفعلين هنا؟ هل هو يوم عطلة في المدرسة؟

قالت ماريكا: ـ أمّي هي التي أرسلتني.

وكانت تحمل سلّة صغيرة فيها تفّاح وحلوى.

ـ إنّ أمّك مجنونة. لا بدَّ أن تعودي إلى البيت.

ـ هي تقول بأنّكم لن تصرفوني.

وبسطت له ورقة مطويّة أربع طيّات. ففتحها وقرأ: «لقد فقد الأب وجورج رشدهما. فأرجوكم أن تحتفظوا بماريكا حتى المساء».

فسألها ميلان: ـ أين أبوك؟

ـ لقد وقف خلف الباب مع جورج. وهما يحملان فأسين وبندقيّتين. (وأضافت في شيء من الاهتمام) وقد أخرجتني أمّي من الحديقة، وقالت إنّني سأكون في وضع أفضل عندكم، لأنّكم متعقِّلون.

قال ميلان: ـ نعم. نعم. إنّني متعقِّل. هيّا، إصعدي.

الساعة السابعة عشرة والنصف في برلين، السادسة عشرة والنصف في باريس. انخفاض خفيف في شمال اسكتلندا. ظهر السيِّد فون دورنبرغ على درج الـ «غران أوتيل»، فأحاط به الصحافيّون، وسأل بياريل: «أتراه سوف يهبط؟» كان السيّد فون دورنبرغ يمسك ورقة في يده اليمنى؛ رفع يده اليسرى وقال: «لم يتقرّر بعد ما إذا كان السيِّد شمبرلن سيرى الفوهرر في المساء».

قالت زيزيت: ـ هنا. كنت أبيع زهورًا هنا، في عربة صغيرة خضراء.

فقال موريس: ـ كنت في موضع طيِّب.

وكان ينظر بوداعة إلى الرصيف والطريق، وكان هذا هو ما جاؤوا ينظرون إليه منذ بدأت تتحدّث عنه. ولكن ذلك لم يكن يعني له شيئًا. وكانت زيزيت قد تركت ذراعها. كانت تضحك وحدها، بلا ضجّة، وهي تنظر إلى السيّارات تجري. سأل موريس:

ـ وهل كان معك كرسيّ؟

قالت زيزيت: ـ أحيانًا. كرسيّ يُطوى.

ـ لا بدّ أنّ ذلك لم يكن شيئًا طريفًا دائمًا.

قالت زيزيت: ـ كان ذلك طيّبًا في الربيع.

كانت تحدِّثه بصوت منخفض، من غير أن تلتفت إليه، كما لو كان ذلك في غرفة مريض؛ وكانت منذ لحظة قد أخذت تقوم بحركات لافتة بكتفيها وظهرها، ولم تكن تبدو طبيعيّة. وكان موريس متضايقًا؛ فقد كان ثمّة عشرون شخصًا على الأقلّ أمام واجهة، فاقترب وأخذ ينظر من فوق رؤوسهم. ظلّت زيزيت في نشوتها على حافّة الرصيف، ثم لحقت به بعد برهة وأخذت ذراعه من جديد. كان على صفيحة زجاجيّة ذات حافّة مائلة طرفان من جلد أحمر، وحولهما زبدٌ أحمر شبيه بمنفضة للمسحوق. أخذ موريس يضحك، فهمست زيزيت:

ـ تضحك؟

فقال موريس وهو يقهقه: ـ إنّها أحذية.

التفت رأسان أو ثلاثة، فقالت له زيزيت: «هسّ» وسحبته. قال موريس: ـ ماذا؟ لا أظنّ أنّنا في قدّاس!

ولكنَّه مع ذلك خفض صوته: كان الناس يتقدّمون وهم يسترقُّون الخطى بعضهم خلف بعض، يبدو عليهم أنّهم متعارفون، ولكن أحدًا لم يكن ليتكلّم. وهمس:

ـ لقد مضى خمسة أعوام تقريبًا من غير أن أجيء إلى هنا.

وأرته زيزيت مطعم «مكسيم» بافتخار، وقالت له في جوف أذنه:

ـ إنّه «المكسيم».

ونظر موريس إلى المكسيم، وصرف رأسه بحيويّة: لقد سبق أن حدّثوه عنه، وكان عبارة عن قذارة، فهنالك كان البورجوازيّون يعبّون الشمبانيا عام ١٩١٤، بينما كان العمّال يقاتلون. وهمهم بين أسنانه:

ـ أيّة نتانة!

ولكنّه كان يشعر بالانزعاج، من غير أن يدري السبب، ويمشي بخطا صغيرة، وهو يتهادى؛ وكان الناس يبدون له رخاص العود، وقد خشي أن يصدمهم.

قالت زيزيت: ـ هذا ممكن، غير أنّه مع ذلك شارع جميل، ألا ترى ذلك؟

قال موريس: ـ إنّه لا يسحرني، وهو بحاجة إلى هواء.

فهزّت زيزيت كتفيها، وأخذ موريس يفكّر في مستقبل جادّة سانت أوان: حين كان يغادر الفندق في الصباح، كان بعض الأشخاص يتجاوزونه وهم يصفّرون وعلى ظهورهم أكياس، وهم منحنون على مقاود درّاجاتهم. كان يشعر بالسعادة: وكان بعضهم يتوقّفون في سانت دنيس، بينما يتابع آخرون طريقهم، والجميع يتّجهون وجهة واحدة، كانت الطبقة العاملة تسير. وقال لزيزيت:

ـ أمّا هنا، فالمرء موجود بين البورجوازيين.

وخطوا بضع خطوات في رائحة ورق مجلوب من أرمينيا، ثم توقّف موريس وطلب المعذرة، فسألته زيزيت:

ـ ماذا تقول؟

فقال موريس منزعجًا: ـ لا شيء. لا أقول شيئًا.

وكان قد اصطدم بشخص آخر، وبالرّغم من أنّ الآخرين كانوا يسيرون خافضيّ النظر، فقد كانوا يتدبّرون أمرهم دائمًا لتجنّب الصدمة في آخر لحظة، ولا بدّ أنّ هذه القضيّة عادة.

ـ هل تأخذني؟

إلّا أنّه لم يكن راغبًا في أن يتابع سيره، خشية أن يحطّم شيئًا ما، ثمّ إنّ هذا الطريق لم يكن يؤدّي إلى أيّ مكان، فلم يكن له اتّجاه، وكان ثمّة أشخاص يصعدون ثانية نحو الجادّات، بينما يهبط آخرون نحو السين،

ويظلّ غيرهم ملتصقيّ الأنوف بالواجهات. لقد كان ذلك يُحدث اندفاعات محلِّيَّة، ولكنّه لم يكن يُحدث حركات جماعيّة، وكان المرء يحسّ نفسه وحيدًا. ومدّ يده فوضعها على كتف زيزيت، وأخذ يضغط بقوّة على اللحم الريّان عبر القماش. ابتسمت له زيزيت، منبسطة النفس، تنظر إلى كلّ شيء بنهم من غير أن تفقد هيئتها اليقظة، وكانت تحرِّك بلطف إليتيها الصغيرتين. دغدغ عنقها، فضحكت، وقالت:

ـ كفى يا موريس!

كان يحبّ كثيرًا الألوان القويّة التي تضعها على وجهها، الأبيض الذي يشبه السكّر، والأحمر الجميل على الوجنتين. وكانت تنبعث منها عن قرب رائحة حلوى العسل. وسألها بصوت منخفض:

ـ هل أنت مسرورة؟

قالت زيزيت وعيناها تلتمعان: ـ إنّني أذكر كلّ ما أراه.

ترك كتفها وعادا يسيران في صمت: لقد عرفت بعض البورجوازيين الذين كانوا يأتون ليشتروا زهورها، وكانت تبتسم لهم، بل كان فيهم من حاول أن يلامسها. وكان ينظر إلى رقبتها البيضاء فيحسّ أنّه طريف، وتأخذه الرغبة في أن يضحك وأن يغضب.

وصاح صوت: ـ باري ـ سوار.

فسألت زيزيت: ـ هل نشتريها؟

ـ إنّها النسخة نفسها التي اطّلعنا عليها منذ حين.

وكان الناس يحيطون بالبائع ويتنازعون الصحف في صمت. وخرجت من الجمع امرأة ذات كعبين عاليين وقبّعة منتصبة في أعلى الرأس يتلوّى المرء ضحكًا لمرآها. وقد فتحت الجريدة وأخذت تقرأ وهي تنطنط. واسترخت جميع ملامحها، وأرسلت تنهّدة طويلة.

قال موريس: ـ انظري إلى المرأة..

فنظرت إليها زيزيت، وقالت: ـ لعلّ رَجُلَها سيرحل.

فهزّ موريس كتفيه: لقد كانت تبدو من الغرابة بحيث توحي بأنّها قد تكون حقًّا شقيّة بهذه القبّعة وهذا الحذاء السمّكي. وقال:

ـ وإذن؟ إنَّ رَجُلها ضابط.

قالت زيزيت: ـ حتى ولو كان ضابطًا، فقد يفقد جلده كسائر الرفاق.

نظر إليها موريس شزرًا:

ـ إنّك تضحكينني بضبّاطك. لا عليك إلَّا أن تتذكّري حرب ١٩١٤، وما إذا كانوا قد فقدوا فيها جلودهم.

قالت زيزيت: ـ تمامًا. كنت أحسب أنّ كثيرًا منهم قد ماتوا فيها.

فقال موريس: ـ إنّما مات الفلّاحون، ثم نحن.

فالتصقت زيزيت به، وقالت: ـ أوه! موريس، أتعتقد حقًّا بأنّ الحرب ستنشب؟

قال موريس: ـ ما يدريني أنا؟

في ذلك الصباح بالذات، كان واثقًا من ذلك، وكان الرفاق واثقين مثله، كانوا على شاطئ السين، ينظرون إلى صفّ الآلات الرافعة ومجارف الرمل، وكان ثمّة فتيان بقمصان قصيرة الأكمام، وشباب أشدّاء من جينفيليه يحفرون خندقًا لسلك كهربائي، وكان واضحًا أنّ الحرب ستنفجر. ومهما يكن من أمر، فإنّ ذلك لم يكن ليغيّر فتيان جينفيليه تغييرًا كبيرًا: فإنّهم سيكونون في مكانٍ ما من الشمال ليحفروا الخنادق تحت الشمس، تهدّدهم القنابل والرصاص، كما تهدّدهم اليوم الانهيارات والسقطات وجميع حوادث العمل، وسوف ينتظرون نهاية الحرب كما كانوا ينتظرون نهاية بؤسهم. كان ساندر قد قال: «إنّنا سنخوضها، ولكن حين نعود، سنحتفظ ببنادقنا».

أمّا الآن، فهو ليس واثقًا من شيء بعد، ففي سانت ـ أوان كانت

الحرب قائمة بلا انقطاع، ولكن ليس هنا. كان السلام قائمًا هنا: فهنا واجهات، وأشياء مترفة معروضة، وأقمشة ملوّنة، ومرايا ينظر فيها الناس، وكلّ الترف والراحة. صحيح أنّ هيئة الناس كانت حزينة، ولكن ذلك قائم منذ ولادتهم. لماذا تراهم يقاتلون؟ إنّهم لا ينتظرون بعد شيئًا، كانوا يملكون كلّ شيء. إنّه لا بدّ مشؤوم ألّا يأمل المرء شيئًا آخر غير أن تستمرّ الحياة إلى ما لانهاية كما بدأت! وقال موريس فجأة موضِّحًا:

ـ إنّ البورجوازيّة لا تريد الحرب. إنّها تخشى النصر، لأنّه سيكون نصر الطبقة العاملة.

ونهض الشيخ، فصحب نفيل هندرسون وهوراس ويلسون حتى الباب. ونظر إليهما لحظة بهيئة تأثّر، وكان يشبه جميع الشيوخ ذوي الوجوه المتهدِّمة الذين كانوا يحيطون ببائع الصحف في شارع رويال، وبأكشاك الصحف في بال مال ستريت، والذين لم يكونوا يطلبون شيئًا آخر غير أن تنتهي حياتهم كما ابتدأت. وكان يفكِّر بهؤلاء الشيوخ، وبأولاد هؤلاء الشيوخ، وقال:

ـ وبالإضافة إلى ذلك، أرجو أن تسأل السيِّد فان ريبنتروب عمّا إذا كان المستشار هتلر يجد مفيدًا أن نُجري بيننا محادثة أخيرة قبل سفري، لافتًا انتباهه إلى أنّ قبولاً مبدئيًا يؤدِّي بالنسبة للسيِّد هتلر إلى ضرورة إطلاعنا على اقتراحات جديدة. وأرجو أن تلحّ بصورة خاصّة على أنِّي مصمِّم أن أفعل كلّ ما هو ممكن إنسانيًا لتسوية النزاع عن طريق المفاوضات، لأنّه يبدو لي غير معقول أن تغرق شعوب أوروبا التي لا تريد الحرب في نزاعٍ دام من أجل قضيّة تحقَّق الاتّفاق بشأنها إلى حدّ بعيد. حظًّا طيّبًا.

وانحنى هوراس ونفيل، وهبطا السلّم، وكان الصوت الفخم، الخائف، المنكسر، المتمدِّن، ما يزال يرنّ في مسمعهما.. وكان موريس ينظر إلى بشرات الشيوخ والنساء العذبة، المتهدِّمة، المتمدِّنة، ويفكِّر في

اشمئزاز بأنّه لا بدّ من فصدها.

لا بدّ من فصدها، وسيكون ذلك أبعث على الاشمئزاز من سحق البزّاق. ولكن لا بدَّ من الانتهاء إلى ذلك. سوف تصطفّ الرشّاشات في شارع رويال، ثم يظلّ الشارع بضعة أيّام متروكًا، مع زجاج محطَّم، وواجهات مثقوبة بشكل أنجم، وطاولات مقلوبة عند أرصفة المقاهي، بين شظايا الكؤوس، وستدور طائرات في السماء فوق الجثث، ثم يُرفع الأموات، وتوقّف الطاولات، ويُستبدل الزجاج، وتستعيد الحياة سيرها، فيعمِّر الشارع رجال أشدّاء ذوو رقاب حمر ضخمة وسترات جلديّة وقبّعات. ومع ذلك، فإنّ الأمر كان هكذا في روسيا، وقد سبق لموريس أن رأى صورًا لجادّة نوفسكي، وكان العمّال وقد استولوا على هذه الجادّة المترفة، يتنزّهون فيها، ولم تكن القصور والجسور الكبيرة لتدهشهم بعد.

وقال موريس في انفعال: ـ أطلب المعذرة.

كان قد أرسل ضربة مرفق في ظهر سيِّدة عجوز نظرت إليه نظرة مغيظة. وأحسّ بالتعب والانحطاط: فتحْتَ أعمدة الإعلانات الكبيرة، وتحت الأحرف الذهبيّة المسودَّة المعلَّقة بالشرفة، وبين دكاكين الحلويات وحوانيت الأحذية، وأمام أعمدة كنيسة المادلين، لم يكن من الممكن تصوّر جمع غير هذا الجمع، يضمّ كثيرًا من السيِّدات العجائز المكردحة، ومن الأولاد في ثيابهم الكحليّة. كان النور الحزين المذهَّب، ورائحة البخور، والأبنية الساحقة والأصوات العسليّة، والوجوه القلقة المستنيمة، وحفيف النعال الذي لا أمل له بالزفت، كلّ ذلك كان يجري معًا، وكلّ ذلك كان واقعيًّا، أمّا «الثورة» فلم تكن إلّا حلمًا. وفكّر موريس وهو يرسل نظرة حاقدة إلى زيزيت: «ما كان ينبغي لي أن أجيء. فليس هذا مكان عامل».

ولمست يدٌ كتفه، فاحمرّ وجهه سرورًا إذ رأى برونيه. وقال برونيه وهو يبتسم: ـ مرحبًا يا صغيري العزيز.

قال موريس: ـ مرحبًا، رفيق.

وكانت قبضة برونيه شديدة كانبةً كقبضته، تشدّ بقوّة. نظر موريس إلى برونيه وأخذ يضحك في غبطة. واستيقظ، كان يُحسّ بالرفاق حوله، في سانت ـ أوان، في إيفري، في مونتروي، في باريس نفسها، في بلفيل، في مونتروج، في لافيلات، يتماسكون بالذراع ويهيِّئون أنفسهم للضربة القاسية. وسأل برونيه:

ـ ماذا تفعل هنا؟ هل أنت عاطل عن العمل؟

فشرح موريس في شيء من الضيق: بل هي عطلتي بأجرها. لقد أرادت زيزيت أن تأتي لأنّها كانت تعمل هنا في الماضي.

قال برونيه: مرحبًا أيّتها الرفيقة زيزيت.

وأضاف موريس: ـ إنّه برونيه. لقد قرأتِ مقاله هذا الصباح في «الأومانيته».

فنظرت زيزيت إلى برونيه بشجاعة ومدّت له يدها. إنّها لم تكن تخشى الرجال حتى ولو كانوا بورجوازيين أو زعماء الحزب. وقال برونيه وهو يشير إلى موريس: ـ لقد عرفته منذ كان صغيرًا. وكان في «الفوكون» الحمر، في الجوقة، ولم أعرف أحدًا قطّ ناشز الصوت مثله. وأخيرًا اتّفقنا على أن يتظاهر فقط بالغناء في أثناء الاستعراضات.

فضحكوا. وقالت زيزيت: ـ وبعد؟ هل ستنشب الحرب؟ لا بدّ أنّك تعرف ذلك، أنت. فإنّ مركزك يخوِّلك ذلك.

وكان سؤالاً بليدًا، سؤال امرأة، ولكنّ موريس حمد لها أن تطرحه. وكان برونيه قد أصبح جادًّا، فقال: ـ لا أدري إن كانت الحرب ستقوم. ولكن ينبغي خصوصًا ألّا نخاف منها: فعلى الطبقة العاملة أن تعرف أنَّ إمكان تجنّبها لا يكون بقبول التنازلات.

وكان يتحدّث جيِّدًا. وكانت زيزيت قد رمقته بعينين مليئتين بالثقة،

وكانت تبتسم بعذوبة وهي تصغي إليه. ولكنّ موريس شعر بالانزعاج. لقد كان برونيه يتحدّث كالجريدة، ولم يكن يضيف شيئًا على ذلك. وسألته زيزيت:

ـ أتعتقد أنّ هتلر سوف يخاف إذا كشفوا له عن أنيابهم؟

وكان برونيه قد تلبّس هيئة رسميّة، ولم يكن يبدو عليه أنّه فهم أنّ المطلوب هو رأيه الشخصي، وقال: ـ هذا ممكن جدًّا. ومهما يكن من أمر، فإنّ الاتّحاد السوڤياتي إلى جانبنا.

وفكّر موريس: «طبعًا، فإنّ زعماء الحزب لا يمكن أن يتصرّفوا هكذا، ببساطة، للتعبير عن آرائهم أمام عامل صغير من عمّال سانت ـ أوان». غير أنّه كان مع ذلك خائبًا. وقد نظر إلى برونيه، فتلاشت فرحته تمامًا: كان لبرونيه يدان فلّاحيّتان قويّتان وفكّ قاسٍ وعينان تعرفان ما تريدان؛ ولكنّه كان يضع ياقة وربطة عنق، ويرتدي بذلة من الفلانيل، ويبدو مرتاحًا وسط البورجوازيين.

وكانت واجهة مظلمة تعكس صورتهم: وقد رأى موريس امرأة ذات شعر منفوش ورجلاً قويّ البأس، قبّعته إلى خلف، يكاد يتفجّر في قميصه، وهما يتحدّثان إلى سيِّد. ومع ذلك، فإنّه ظلّ هناك، ويداه في جيبه، ولم يكن يعزم على ترك برونيه.

وسأله برونيه: ـ ألا تزال في «سانت ـ مانديه»؟

فأجاب موريس: ـ لا، بل في «سانت ـ أوان». إنّني أشتغل عند فلايف».

ـ آه، كنت أحسبك في مانديه. مُحكِّم؟

ـ بل ميكانيكي.

قال برونيه: ـ حسنًا. حسنًا. وإذن! إلى اللقاء، يا رفيق.

فقال موريس: ـ إلى اللقاء، يا رفيق.

وكان يحسّ الضيق، وخيبة غامضة. وقالت زيزيت وهي تفترّ عن كلّ أسنانها: ـ إلى اللقاء يا رفيق.

نظر إليهما برونيه وهما يبتعدان. كان الجمع قد انغلق عليهما من جديد، إلّا أنّ كتفي موريس الهائلتين كانتا تعومان فوق القبّعات. ولا بدّ أنّه كان يمسك زيزيت من قامتها: فقد كانت قبّعته تلامس شعرها، وكانا يتهاديان بين المارّة، ورأسه إلى رأسها. وفكّر برونيه: «إنّه فتى طيِّب. ولكنِّي لا أحبّ انفجاراته». واستعاد سيره، وكان رصينًا، يشعر بندم يقف له شعره. وفكّر: «ما كان عساي أن أجيبه»؟ لقد كانوا في سانت ـ دنيس، وفي سانت أوان، وفي سوشو، وفي كروزو، مئات ألوف ينتظرون وفي عيونهم القلق نفسه والثقة نفسها. مئات ألوف من الرؤوس الشبيهة بهذا الرأس، رؤوس طيِّبة مستديرة قاسية، مقدودة في غير اتّساق، رؤوس من القطع الكبير، رؤوس حقيقيّة لرجال كانوا يتّجهون نحو الشرق، نحو غودسبرغ، نحو براغ، نحو موسكو. وبِمَ كان يمكن إجابتهم؟ كلّ ما كان ممكنًا عمله الآن، هو أن يُحموا. أن تُحمى فكرتهم البطيئة الصلبة من جميع القذرين الذين يحاولون أن يضلِّلوها. فاليوم الأمّ بونينغ، وغدًا دوتين أمين سرّ نقابة المعلِّمين، وبعد غد «البيفرتيون»: ذلك كان نصيبه؛ وهو سينقل من شخص إلى آخر، وسيحاول أن يسكتهم، سوف تنظر إليه الأمّ بونينغ نظرة مخمليّة، وستحدِّثه عن «فظاعة إراقة الدماء» وهي تحرِّك يديها المثاليّتين. لقد كانت امرأة ضخمة في حوالى الخمسين من عمرها، ذات وجه أحمر، مع زغب أبيض على الوجنتين، وشعر قصير، ونظرة ناعمة تشبه نظرة كاهن وراء نظّارتيه؛ وكانت ترتدي سترة رجل مزيّنة القفا بشريط وسام الشرف. «سأقول لها: لن تبدأ النساء بارتكاب الحماقات؛ ففي حرب ١٩١٤، كنّ يدفعن ذكورهنّ من أكتافهم إلى الحافلات، بينما كان ينبغي لهنّ أن يستلقين على خطوط السكّة ليمنعن القطار من الذهاب. واليوم، إذ يمكن أن يكون للقتال معنى، فهأنتنّ تنظِّمن جمعيّات للسلام،

وتعملن لتخريب معنويّات الرجال!» وظهر وجه موريس مرّة أخرى، فهزّ برونيه كتفيه في ضيق: كلمة، كلمة واحدة تنير لهم الطريق أحيانًا، ولكنّي لم أعرف أن أجدها». وفكّر في ضغينة: «إنّها غلطة امرأته، فإنّ النساء يملكن فنّ طرح أسئلة بليدة». خدّا زيزيت الطحينيّان، وعيناها الصغيرتان الفاجرتان، وعطرها اللئيم؛ سوف يذهبن لجمع تواقيع وتواقيع، ملحّات عذبات، تلك اليمامات الراديكاليّات الضخمات، واليهوديّات التروتسكيّات، والمعارضات التابعات لحزب المستقلّين؛ سيدخلن كلّ مكان.. بوقاحتهنّ الملعونة، فيهبطن على فلّاحة تحلب بقرتها، ويضعن في يدها الضخمة المبتلّة قلم حبر: «وقّعي هنا إن كنت ضدّ الحرب». لا حرب بعد الآن، بل مفاوضات دائمًا. السلام أوّلاً. وماذا تراها ستفعل، «زيزيت» هذه، إذا بُسط لها قلم حبر بصورة مفاجئة؟ أتراها قد احتفظت بردود فعل من طبقتها هي من السلامة والصفاء بحيث تتيح لها أن تضحك على هاتيك السيّدات اللطيفات؟ لقد جرّته في الأحياء الجميلة، وكانت تنظر إلى الحوانيت في انتعاش، وهي تلصق على وجنتيها طرفًا من الحمرة.. مسكين أنت أيّها الفتى الصغير، لن يكون الأمر حلوًا إذا تعلّقتْ بعنقه لتمنعه من الذهاب؛ إنّهم ليسوا بحاجة إلى هذا.. «مثقّف. بورجوازي!» إنّني لا أستطيع أن أطيقها، لأنّ على وجهها جصًا، ولأنّ يديها متآكلتان. ومع ذلك، فلا يستطيع جميع الرفاق أن يكونوا عازبين. وكان يشعر بالتعب والثقل؛ وفكّر فجأة: «إنّني ألومها أن تضع الأحمر، لأنّي لا أحبّ الأحمر الرخيص». «مثقّف. بورجوازي». يُحَبّون جميعهم وجميعهنّ، كلّ واحد وكلّ واحدة، من غير تمييز. وفكّر: «ليس عليّ حتى أن أريد أن أحبّهم، فإنّ ذلك ينبغي أن يتمّ هكذا، بالضرورة، كما يتنفّس الإنسان». «مثقّف. بورجوازي. معزول إلى الأبد». فمهما عملت، فلن تكون لنا الذكريات نفسها أبدًا. كان جوزيف مرسيه، البالغ من العمر ثلاثة وثلاثين عامًا المصاب بسفلس وراثيّ، أستاذ التاريخ الطبيعي في «ليسيه

بوفون» وفي كلّيّة سيفينيه، يصعد شارع الرويال وهو يلهث ويلوي فمه بانتظام مع فرقعة رطبة؛ وكان وجعه في جنبه الأيسر، ويشعر بأنّه بائس ويفكِّر بين الفينة والفينة: «أتراهم سيدفعون راتب الموظّفين المجنَّدين؟» وكان ينظر إلى قدميه حتى لا يرى جميع هذه الوجوه القاسية، فصدم رجلاً طويلاً أحمر يرتدي بذلة من الفلانيل الرمادي، دفعه فاصطدم بواجهة؛ ورفع جوزيف مرسيه عينيه وفكّر: «أيّة خزانة!» وكان خزانة، جدارًا، وحشًا من هذه الوحوش القاسية التي لا تحسّ، يشبه «شاميرليه» معلِّم الرياضيّات الابتدائيّة الذي كان يهزأ به في الصفّ، وكان أحد أولئك الأشخاص الذين لا يشكّون قطّ في شيء ولا في أنفسهم، والذين لم يكونوا يومًا مرضى، والذين لا عاهات لهم، والذين يتلقّون النساء والحياة بملء أيديهم ويمشون باستقامة نحو أهدافهم وهم يدفعونك لتصطدم بالواجهات. وكان شارع رويال يسيل بعذوبة نحو السين، وبرونيه يسيل معه، وكان أحدهم قد صدمه، وقد رأى حشرةً نحيلة ذات أنف متآكل تفرّ منه، وهي ترتدي طاقيّة وياقة بورسلانيّة زائفة. وكان يفكِّر في زيزيت وموريس، وقد وجد من جديد ضيقه القديم المألوف، وخجله أمام هذه الذكريات التي لا تُغتفر، والبيت الأبيض على حافّة المارن، ومكتبة الأب، ويديّ الأمّ الطويلتين المعطَّرتين اللتين كانتا تعزلانه عنهما إلى الأبد.

كان مساءً جميلاً مذهَّبًا، ثمرة من ثمرات أيلول. وكان ستيفان هارتلي منحنيًا على الشرفة يتمتم: «الاندفاعات الواسعة البطيئة للجموع المسائيّة». جميع هذه القبّعات، هذا البحر من اللبّاد، وبضع رؤوس عارية كانت تطفو بين الموجات البشريّة، وفكّر: «كأنّها زمّج الماء». وفكّر في أنّه سيكتب: «كأنّها زُمّج الماء». رأسان أشقران ورأس رمادي، جمجمة جميلة حمراء، فوق الرؤوس الأخرى، أدركها الصلع، وكان ستيفان يفكِّر: «الجموع الفرنسيّة» فيتأثّر لذلك. جمعٌ صغير من رجال قصار، بطوليين ومسنِّين. سوف يكتب: «إنّ الجموع الفرنسيّة تنتظر الأحداث في هدوء وجدارة».

وفي الصفحة الأولى من «نيويورك هيرالد» بأحرف ضخمة: «لقد استمعت إلى الجموع الفرنسيّة» رجال قصار لا يبدو عليهم أبدًا أنّهم مغتسلون جيّدًا، قبّعات نسائيّة كبيرة، جمع صامت، هادئ ومتّسخ، تذهّبه ساعة هادئة لمساء باريسيّ بين المادلين والكونكورد، لدى الغروب. سوف يكتب: «وجه فرنسا». وسوف يكتب: «وجه فرنسا الخالد» تجمّعات منسربة، وتمتمات يخيّل أنّها جادّة ومندهشة، سيكون مبالغًا فيه أن يكتب «مندهشة». فرنسيّ طويل أحمر، أصلع بعض الشيء، هادئ كغروب شمس، بعض انعكاسات شمسيَّة على واجهات السيّارات، وبعض صرخات، فكّر ستيفان: «التماعات أصوات» ثم فكّر: «لقد كُتب مقالي». قالت سيلڤيا من وراء ظهره: ـ ستيفان!

فقال ستيفان بجفاء، ومن غير أن يلتفت: ـ إنّني أعمل.

قالت سيلڤيا: ـ ولكن ينبغي أن تجيبني يا عزيزي. فإنّه لم يبقَ على الباخرة «لافاييت» إلّا أماكن من الدرجة الأولى.

قال ستيفان: ـ خذي في الدرجة الأولى، خذي غرفًا ممتازة. فقد تكون «لافاييت» آخر باخرة تسافر إلى أميركا حتى تاريخ بعيد.

وكان برونيه يسير بهدوء، ويستنشق رائحة ورق مجلوب من أرمينيا. رفع رأسه، فنظر إلى أحرف ذهبيّة مسودّة معلّقة بشرفة، وانفجرت الحرب: كانت هنا، في أعماق هذا الميْع المضيء، مسطورة كأنّها بديهة على جدران المدينة الجميلة القابلة للكسر، كان ذلك انفجارًا ثابتًا يمزّق شارع رويال إلى قسمين، وكان الناس يمرّون خلاله من غير أن يروه. وكان برونيه يراه. لقد كان موجودًا هنا دائمًا. ولكنّ الناس لم يكونوا يعرفون ذلك بعد. وكان برونيه قد فكّر: «ستسقط السماء على رؤوسنا». وقد أخذ كلّ شيء يسقط، وكان قد رأى البيوت كما كانت حقًّا: سقوطًا موقّفًا. كان هذا الحانوت الجميل يحمل أطنانًا من الحجارة، وكان كلّ حجر، وهو مشدود إلى الأحجار الأخرى، يسقط في المكان نفسه، بعناد، منذ خمسين سنة.

بضعة كيلوات أخرى بعد، ويُستأنف السقوط. وسوف تستدير الأعمدة وهي تصطكّ فتصاب بكسور مريعة ذات شظايا، وستنفجر الواجهة، وستنهار حمولات من الحجارة في الكهف وهي تسحق رزم البضائع. إنّهم يملكون قنابل زنتها أربعة آلاف كيلو. وانقبض صدر برونيه. منذ لحظات فقط كانت على هذه الواجهات المنتظمة بسمةٌ إنسانيّة، ممزوجة بمنثور المساء الذهبيّ. ولكنّها انطفأت: مئة ألف كيلو من الحجارة، وكان رجال يسيرون تائهين بين ركامٍ جُرْفيّ مجمّد. جنود بين الأنقاض، وربّما قُتل هو. ورأى أثلامًا مسودّة علٍى وجنتيْ زيزيت المجصّصتين. جدران مغبرّة، وشقوق جدران ذات ثقوب فاغرة، ومربّعات من ورق زرق وصفر، هنا وهناك، وصفائح من برص، بلاطات حمر بين الردوم، وبلاطات محطّمة يتخلّلها العشب الطفيليّ. ثم أكواخ من خشب ومعسكرات. وستبنى بعد ذلك ثكنات كبيرة رتيبة كالتي تقوم على الجادّات الخارجيّة. وانقبض صدر برونيه وفكّر في ضيق: «أحبّ باريس». وانطفأت البديهة دفعة واحدة، وتشكّلت المدينة من جديد حوله. توقّف برونيه، وأحسّ أنّه مسكًّر بعذوبة مائعة وفكّر: «حبّذا لو لم تكن هناك حرب! حبّذا لو أمكن أن لا تكون حرب!» وكان ينظر بنهم إلى أبواب كبيرة، وإلى واجهة «دريسكول» التي تبعث بالشرر، وإلى بُسُط معمل «ويبر» الزرقاء للجعّة. شعر بالخجل بعد برهة، واستعاد سيره وفكّر: «أحبّ باريس أكثر ممّا ينبغي». مثل بيلنياك، في موسكو، الذي كان يحبّ الكنائس القديمة أكثر ممّا ينبغي. إن «الحزب» على حقّ في أن يحذَر المثقّفين. إنّ الموت مكتوب في الناس، والدمار مكتوب في الأشياء، وسيأتي رجال آخرون يبنون باريس من جديد، يبنون العالم من جديد. سأقول لها: «تريدين السلم إذن بأيّ ثمن؟» وسأحدّثها برقّة وأنا أحدّق إليها، وسأقول لها: «يجب على النساء أن يتركننا وشأننا، فليس هذا الوقت مناسبًا لكي يأتين فيزعجن الرجال بحماقتهنّ».

قالت أوديت: ـ أودّ لو أكون رجلاً.

ونهض ماتيو معتمدًا على مرفقه. وكان قد اسمرّ الآن تمامًا، فسألها باسمًا:

ـ لكي تمثّلي دور الجنديّ؟

واحمرّ وجه أوديت، وقالت بحيويّة: ـ أوه لا! وإنّما أجد من الحماقة أن تكون المرأة امرأة في هذه الفترة.

فقال موافقًا: ـ لا بدّ أنّ ذلك ليس مناسبًا جدًّا!

وكانت قد اتّخذت هيئة الببغاء، مرّة أخرى؛ وكانت الكلمات التي تستعملها ترتدّ ضدّها دائمًا. وقد خُيّل إليها مع ذلك أنّ ماتيو ما كان يستطيع أن يلومها، لو أنّها عرفت كيف تجعل الناس يفهمونها؛ كان ينبغي أن تقول له إنّ الرجال يزعجونها حين يتحدّثون عن الحرب أمامها، فإنّهم لم يكونوا طبيعيين، وكانوا يُبدون من اليقين أكثر ممّا ينبغي، كما لو أنّهم كانوا يريدون أن يُفهموها أنّ هذه قضيّة رجال، وكان يبدو عليهم مع ذلك أنّهم كانوا دائمًا ينتظرون منها شيئًا ما: نوعًا من التحكيم، لأنّها امرأة ولأنّها لن تذهب، ولأنّها فوق المعترك. وماذا كان بوسعها أن تقول لهم؟ إبقوا؟ ارحلوا؟ ما كان لها أن تقرّر، لأنّها لن تذهب حقًّا. أو أنّه كان عليها أن تقول لهم: «افعلوا ما تريدون». ولكن، إذا لم يكونوا يريدون شيئًا؟ كانت تمّحي، وتتظاهر بأنّها لا تسمعهم، وكانت تقدِّم لهم القهوة أو المشروب، تحيط بها رنّات أصواتهم العازِمة. وتنهّدت، وأخذت حفنة من الرمل في يدها، فأسالته أبيض حارًّا على ساقها السمراء. وكان الشاطئ خاليًا، والبحر يتلألأ ويصخب. وعلى جسر قارب «بروفنسال» الخشبيّ، كان ثلاث نسوة بلباس البحر يتناولن الشاي. وأغمضت أوديت عينيها. كانت مستلقية على الرمل وسط حرارة لا تاريخ لها ولا عمر: حرارة طفولتها إذ كانت تغمض عينيها، وتستلقي على هذا الرمل نفسه، وتحاول أن تمثّل دور السمندل وسط لهب عظيم أحمر اللون وأزرق. الحرارة نفسها، وحفحفة التبّان الرطب نفسها، كانت تحسب أنّها تحسّه وهو يتبخّر

على مهل تحت الشمس، وحرقة الرمل نفسها تحت رقبتها، وقد كانت في السنوات الخوالي تمتزج بالسماء والبحر والرمل، ولم تكن تميّز بعدُ الحاضر من الماضي، وانتصبت واقفة. وعيناها مفتوحتان على سعتهما: اليوم، هناك حاضر حقيقيّ. كان هناك ذلك الضيق في جوف معدتها، وكان هناك ماتيو، أسمر عاريًا، جالسًا على مئزره الأبيض. كان صامتًا، وما كانت تفضِّل شيئًا آخر على أن تصمت هي أيضًا. ولكنّها حين لم تكن تجبره على أن يوجِّه إليها الحديث مباشرة، كانت تضيِّعه: فيتنبّه مكرهًا لفترة يلقي فيها خطابًا قصيرًا بصوته الواضح الأبحّ بعض الشيء، ثم يذهب تاركًا جسمه رهينة، جسمًا مصقولاً مروَّضًا. حبّذا لو كان بإمكان المرء على الأقلّ أن يتصوّر بأنّه كان مستغرقًا في أفكاره اللذيذة: ولكنّه كان في الحقّ ينظر أمامه باستقامة نظرة تشقّ القلب، بينما كانت يداه الكبيرتان منهمكتين في صنع بناء من الرمل. وكان البناء ينهار، واليدان تعيدان بناءه بلا وهن. ولم يكن ماتيو ينظر قطّ إلى يديه، وكان هذا يثير الأعصاب في آخر المطاف. قالت أوديت:

ـ إنَّ الأبنية لا تُصنع بالرمل الجافّ. والأطفال الصغار يعرفون ذلك!

فأخذ ماتيو يضحك. وسألته أوديت: ـ بِمَ تفكِّر؟

فأجاب: ـ يجب أن أكتب لإيفيش. إنّ هذا يُربكني.

قالت وهي تطلق ضحكة صغيرة: ما كنت لأصدِّق أنّ ذلك يربكك. إنّك ترسل لها كتبًا.

ـ صحيح، ولكنْ هناك سخفاء قد أخافوها. لقد أخذت تقرأ الصحف ولا تفهم منها شيئًا، فهي تريدني أن أشرح لها، وسيكون ذلك يسيرًا: فهي تخلط بين التشيكيين والألبان، وهي تظنّ أنّ براغ واقعة على شاطئ البحر.

فقالت أوديت بخشونة: ـ هذه عقليّة روسيّة جدًّا!

فمطّ ماتيو شفتيه من غير أن يجيب، وأحسّت أوديت بأنّها كريهة. وأضاف وهو يبتسم:

ـ والذي يعقّد كلّ شيء هو أنّها غاضبةٌ عليّ.

فسألت: ـ ولماذا؟

ـ لأنّني فرنسيّ. كانت تعيش بهدوء لدى الفرنسيين، وها هم أولاء يريدون فجأة أن يقاتلوا. فهي تجد ذلك فاضحًا.

قالت أوديت مغتاظة: ـ هذا جميل!

فبدت على ماتيو بساطة لطيفة، وقال برقّة: ـ يجب أن يضع المرء نفسه في وضعها. إنّها حاقدة علينا لأنّنا نعرّض أنفسنا للقتل أو للجرح! وهي تجد أنّ الجرحى يعوزهم الذوق والفطنة، لأنّ الناس مجبرون على أن يفكّروا بأجسامهم، وهي تعتبر ذلك شيئًا فيزيولوجيًا، وتنفر من الفيزيولوجي، لديها ولدى الآخرين.

فتمتمت أوديت: ـ يا للحبيبة الصغيرة!

قال ماتيو: إنّ هذا أمر صادق. وإنّها لتبقى أيّامًا برمّتها من غير أن تأكل، لأنّها تشمئزّ من الأكل. وإن أخذها النعاس ليلاً تناولت القهوة لتستيقظ.

فلم تجب أوديت. وكانت تفكّر: «ضربة على الإليتين، هذا ما تحتاج إليه». وكان ماتيو يحرّك يديه في الرمل بهيئة شاعريّة وبليدة. «إنّها لا تأكل أبدًا، ولكنّي متأكّدة من أنّها تخفي في غرفتها عدّة أوان كبيرة من المربّى. إنّ الرجال حمقى أكثر ممّا ينبغي!» وكان ماتيو قد عاد يبني بيوته. . كان قد رحل من جديد إلى مكان ولمدّة لا يعلمهما إلّا الله. وفكّرت في مرارة: «أمّا أنا، فإنّي آكل لحمًا أحمر وأنام حين يأخذني النعاس». وعلى جسر «البروفنسال» كان الموسيقيّون يعزفون «السيريناد البرتغاليّة». وكانوا ثلاثة إيطاليين. ولم يكن عازف الكمان رديئًا جدًا، فهو يغمض عينيه حين يعزف. وأحسّت أوديت بالتأثّر: كانت الموسيقى في الهواء الطلق شيئًا طريفًا جدًا، ودقيقًا جدًا، وواهيًا جدًا. ولا سيّما في هذه اللحظة: كانت

أطنان من الحرّ ومن الحرب تثقل على البحر وعلى الرمل، وكان ثمّة تلك الصرخة الفأريّة التي تصعد باستقامة نحو السماء. والتفتت إلى ماتيو تريد أن تقول له: «أحبّ كثيرًا هذه الموسيقى». ولكنّها صمتت: فربّما كانت إيفيش تحتقر «السيريناد البرتغاليّة».

وتجمّدت يدا ماتيو، فانهار بناء الرمل، وقال وهو يرفع رأسه:

ـ أحبّ كثيرًا هذه الموسيقى. ما اسم القطعة؟

قالت أوديت: ـ «السيريناد البرتغاليّة».

الساعة الثامنة عشرة وعشر دقائق في غودسبرغ. كان الشيخ ينتظر. وفي أنغوليم، ومارسيليا، وغاند، ودوفر، كانوا يفكّرون: «ماذا يفعل؟ هل هبط؟ هل يتكلّم مع هتلر؟ إنّ من الممكن أن يكونا في هذه اللحظة يعملان لتسوية كلّ شيء» وكانوا ينتظرون. وكان الشيخ ينتظر، هو أيضًا، في الصالة ذات الشبابيك نصف المغلقة. وكان وحيدًا، وقد استدار واقترب من النافذة. كانت الرابية تنحدر نحو النهر، خضراء وبيضاء. وكان الرين أسود كلّه، يشبه طريقًا معبّدة بعد المطر. استدار الشيخ مرّة أخرى، وهو يشعر بمذاق حامض في فمه. وأخذ يدقّ على الزجاج فيتطاير الذباب حوله مذعورًا. كانت حرارة بيضاء، مغبَرَّة، فخمة، مرتابة، باطلة، حرارة ذات طوق، من عهد فريدريك الثاني؛ وفي أعماق هذه الحرارة كان شيخ إنكليزيّ يشعر بالضجر، شيخ قديم من عهد إدوار السابع، وسائر أجزاء العالم كانت في عام ١٩٣٨. وفي جوان ـ ليبان، يوم ٢٣ أيلول ١٩٣٨، في الساعة السابعة عشرة وعشر دقائق، جلست امرأة ضخمة ترتدي ثوبًا من النسيج الأبيض على مقعد يُثنى، ونزعت نظّارتيها الزرقاوين، وأخذت تقرأ الجريدة. وكانت جريدة «لو بيتي نيسوا»، وكانت أوديت ديلورم ترى العنوان ذا الحروف الضخمة: «رباطة جأش»، وجهدت فاستطاعت أن تقرأ تحت العنوان: «مستر شمبرلن يوجّه رسالة إلى هتلر». وتساءلت: «أتراني «حقًّا» أستفظع الحرب؟» وفكّرت: «لا. لا: ليس حتى النهاية». فلو أنّها

استفظعتها حتى النهاية لكانت قد نهضت بقفزة واحدة، وَعدتْ حتى المحطّة، ولصاحت: «لا تذهبوا! ابقوا في بيوتكم!» وهي تبسط ذراعيها. وتمثّلت نفسها ذات لحظة واقفة مستقيمة، مصلّبة الذراعين تصرخ، فأخذها الدوار. ثم أحسّت في عزاء أنّها كانت غير قابلة لارتكاب مثل هذا الطيش الصفيق. ليس حتى النهاية. امرأة جيّدة، فرنسيّة، عاقلة ومتحفّظة، تلتزم ركامًا من الأوامر، ومنها أمر ألّا تفكّر بشيء حتى نهايته. وفي لاون، كانت فتاة صغيرة حاقدة ومذعورة، في غرفة مظلمة، ترفض الحرب بكلّ قواها، رفضًا أعمى عنيدًا. كانت أوديت تقول: «الحرب أمر فظيع!»، كانت تقول: «أفكّر طوال الوقت بأولئك المساكين الذين يذهبون». ولكنّها لم تكن تفكّر بشيء بعد، كانت تنتظر، بلا نفاد صبر: كانت تعلم أنّه سيقال لها عمّا قريب كلّ ما ينبغي أن تفكّر فيه وأن تقوله وأن تفعله. حين قُتل أبوها عام ١٩١٨ قيل لها: حسنًا جدًّا، يجب أن تكوني شجاعة، وتعلّمت بسرعة كيف ترتدي ثياب الحداد بحزن عنيد، وكيف تزرع في عيون الناس نظرة يتيمة حرب. وفي عام ١٩٢٤، جُرح أخوها في مراكش، فعاد أعرج، وقيل لأوديت: حسنًا جدًّا، ينبغي خصوصًا ألّا ترثوا له، وقال لها جاك، بعد بضع سنوات: «عجبًا، كنت أحسب «إتيان» أقوى من ذلك، فهو لم يقبل عاهته قطّ، لقد أصبح سريع الغضب». سيذهب جاك، وسيذهب ماتيو، وسيكون الأمر حسنًا جدًّا، إنّها من ذلك على يقين. أمّا الآن، فما تزال الصحف تتردَّد، وكان جاك يقول: «ستكون حربًا حمقاء»، وكان «كانديد» يقول: «إنّنا لن نقاتل لمجرّد أنّ ألمان السوديت يريدون أن يلبسوا جوارب بيضاء»، ولكنّ البلاد لن تلبث طويلاً حتى تصبح إقرارًا هائلاً، سيقرّ مجلسا الشيوخ والنوّاب سياسة الحكومة بالإجماع، وستحيي صحيفة «لوجور» ذكرى أبطالنا ذوي الشعر الغزير. أمّا جاك، فسوف يقول: «إنّ العمّال يبعثون على الإعجاب»، وسيتبادل المارّة في الشوارع بسمات تقيّة وضالعة: ستكون هي الحرب، وستوافق أوديت أيضًا وهي تحوك قبّعات

صوفيّة للرأس والأذنين. لقد كان هناك، وكان يبدو وكأنّه يصغي للموسيقى، وكان يعلم ما ينبغي التفكير به حقًّا، ولكنّه لم يكن ليقوله. كان يكتب لإيفيش رسائل في عشرين صفحة ليشرح لها الحالة. ولم يكن يشرح لأوديت شيئًا.

ـ بمَ تفكّرين؟

فانتفضت أوديت: ـ إنّني.. لم أكن أفكّر في شيء.

قال ماتيو: ـ أنتِ لست محقّة. فأنا قد أجبتك.

فحنت رأسها وهي تبتسم، ولكنّها لم تكن راغبة في الكلام. وكان يبدو مستيقظًا تمامًا الآن، كان ينظر إليها. وسألته منزعجة:

ـ ماذا هناك؟

ولم يجب، وكان يضحك ضحكة اندهاش. قالت أوديت:

ـ لقد لاحظت أنّي كنت موجودة، فأصابتك من ذلك صدمة؟ أليس كذلك؟

وحين كان ماتيو يضحك، كانت عيناه تتغضّنان فيشبه صبيًّا صينيًّا. وسأل: ـ أتتصوّرين أنّ بالإمكان ألّا يلاحظ الناس وجودك؟

قالت أوديت: ـ إنّني لست كثيرة الحركة.

ـ أجل. ولا كثيرة الحديث أيضًا. وبالإضافة إلى ذلك، تعملين ما بوسعك لينساك الناس. ولكنّك تخفقين: فحتى حين تكونين عاقلة ومحتشمة، وتنظرين إلى البحر وأنت لا تحدثين من الحركة أكثر ممّا تحدثه فأرة، فإنّ المرء يعرف أنّك موجودة هنا. في المسرح يسمّون هذا حضورًا. فهناك ممثّلون ينعمون بمثل هذا الحضور، وآخرون لا ينعمون به. أمّا أنتِ فتنعمين به.

حُرِّت وجنتا أوديت، وقالت بحيويّة: ـ لقد أفسدك الروس. ولا بدّ أنّ الحضور مزية سلافيّة جدًّا. ولكنّي لا أحسب ذلك ممّا يناسبني.

فتأمّلها ماتيو بجدّ، وسألها: ـ وما الذي يناسبك؟

فأحسّت أوديت بعينيها تطيشان قليلاً وتتحرّكان في محجريهما، وضبطت نظرها وأعادته إلى قدميها العاريتين بأظافرهما المصبوغة. إنّها لم تكن تحبّ أن يحدّثها الناس عن نفسها.

وقالت بمرح: ـ إنّني بورجوازيّة، بورجوازيّة فرنسيّة، لا أهمّيّة كبيرة لها.

ولا بدَّ أنّها لم تبدُ له مقتنعة بما فيه الكفاية، فأضافت بقوّة، لكي تختم المناقشة:

ـ إنّني أيّ شخص. فلم يجب ماتيو. ونظرت إليه من طرف عينيها: كانت يداه قد عادتا تجرفان الرمل، وتساءلت أوديت عن الغلطة التي قد تكون ارتكبتها. مهما يكن من أمر، فقد كان بوسعه أن يحتجّ قليلاً، ولو كان بدافع الأدب.

وبعد برهة، سمعت صوته العذب الأبحّ:

ـ إنّه لقاسٍ أن يُحسّ الإنسان بأنّه أيّ شخص، أليس كذلك؟

قالت أوديت: ـ إنّه يعتاد ذلك.

ـ هذا ما افترضته. غير أنّي أنا لم أعتد ذلك بعد!

فقالت بحيويّة: ـ ولكنّك أنت، لست أيّ شخص.

وكان ماتيو يتأمّل البناء الذي أقامه. كان هذه المرّة بناء جميلاً ينتصب وحده في الهواء. كنسه بضربة يد، وقال: ـ إنّ كلّ إنسان أيّ شخص.

وضحك: ـ هذا كلام بليد.

قالت أوديت: كم أنت حزين!

ـ ليس أكثر من الآخرين. إنّنا جميعًا ثائرو الأعصاب قليلاً بتهديدات الحرب هذه.

رفعت عينيها وأرادت أن تتكلّم، ولكنّها التقت بنظره، نظر جميل

هادئ رقيق. وصمتت. أيّ شخص: رجل وامرأة يتبادلان النظر على شاطئ. وقد كانت الحرب هنا، حولهما، وكانت قد هبطت فيهما وجعلتهما شبيهين بالآخرين، بجميع الآخرين. إنّه يحسّ نفسه أيّ شخص، إنّه ينظر إليّ، إنّه يبتسم، ولكنّه لا يبتسم لي، وإنّما لأيّ شخص. ولم يكن يسألها شيئًا، إلّا أن تصمت وتكون بلا هويّة، كالعادة. وكان يجب أن تصمت: فلو أنّها قالت له «أنت لست أيّ شخص، وإنّما أنت جميل، وأنت قويّ، وأنت بطل روائيّ حالم، وأنت لا تشبه أحدًا»، ولو صدّقها، إذن لكان قد انسرب بين أصابعها، ولكان قد مضى مرّة أخرى في أحلامه، وربّما كان قد جرؤ على أن يحبّ امرأة أخرى، مثلاً تلك الروسيّة التي كانت تشرب القهوة حين تشعر بالنعاس. وأخذتها انتفاضة كبرياء، وراحت تتكلّم. وقالت بسرعة: ـ سيكون الأمر مريعًا هذه المرّة.

قال ماتيو: ـ سيكون حماقة بصورة خاصّة. سوف يهدمون كلّ ما يستطيعون بلوغه: باريس، لندن، روما. وسيكون شيئًا جميلاً بعد ذلك!

باريس، روما، لندن، ومقصورة جاك، البيضاء البورجوازيّة على شاطئ الماء. وارتعشت أوديت، ونظرت إلى البحر. ولم يكن البحر بعد إلّا بخارًا متلألئًا، وكان متزلّج مائيّ عارٍ وأسمر، منحنٍ إلى أمام، ينزلق على هذا البخار، يجرّه قارب ذاتيّ. ولم يكن بوسع أيّ رجل أن يهدم هذا اللؤلؤ المضيء. وقالت: ـ سيبقى هذا على الأقلّ.

ـ ماذا؟

ـ هذا، البحر.

وهزّ ماتيو رأسه، وقال: ـ حتى ولا هذا!

فنظرت إليه بدهشة: لم تكن تفهم دائمًا فهمًا صحيحًا ما يعنيه. وفكّرت في أن تسأله. ولكن، كان عليها فجأة أن تذهب. فقفزت على قدميها ولبست صندلها وتجلببت بمئزرها. سألها ماتيو: ـ ماذا تفعلين؟

قالت: ـ يجب أن أذهب.

ـ لقد جاءتك الفكرة فجأة؟

ـ تذكّرت أنّي وعدت جاك بمرَقة مثوَّمة لهذا المساء، ولن تستطيع مادلين تدبير أمرها وحدها.

فقال ماتيو: ـ ثم إنّه يندر خصوصًا أن تبقي طويلاً في المكان نفسه. وإذن، فإنّي سأغطس ثانية في الماء.

ورقيت الدرجات المرملة، حتى إذا بلغت السطيحة التفتت فرأت ماتيو يعدو نحو البحر، وفكّرت: «إنّه على حقّ، فإنّي مصابة بداء التنقّل». الذهاب دائمًا، والفرار دائمًا. فما إن تنشرح قليلاً في مكان ما حتى تضطرب وتشعر بالذنب. وكانت تنظر إلى البحر، وفكّرت: «إنّني أبدًا خائفة» وكانت خلفها، على بعد مئة متر، مقصورة جاك، ومادلين الضخمة، والمَرَقة المثوَّمة التي تنتظر الإعداد، والتبريرات والطعام. واستعادت سيرها. سوف تسأل مادلين: «كيف حال أمّك؟» وستجيب مادلين وهي تنفخ قليلاً: «على حالها». فتقول أوديت: «يجب أن تعدّي لها بعض المرَق ثم تأتيها بصدر دجاجة فتقصّي منه جناحًا قبل أن تقدّميه، وسترين كيف تأكله». فتجيب مادلين: «آه يا سيّدتي العزيزة، إنّها لن تمسّه أبدًا». فتقول أوديت «أعطيني هذه» وتتناول الدجاجة فتقطع بيديها جناحًا، وستشعر بأنّها مبرَّرة «حتى ولا هذا». وألقت نظرة أخيرة على البحر «لقد قال: حتى ولا هذا». لقد كان مع ذلك خفيفًا جدًّا، حتى ليمكن القول إنّه السماء مقلوبة، فماذا بوسعهم أن يفعلوا ضدّه؟ لقد كان عجينيًّا أخضر، بلون القهوة بالحليب، منبسطًا جدًّا، رتيبًا جدًّا، بحر كلّ يوم، وكانت تنبعث منه رائحة اليود والعقاقير، بحرهم «هم» ونسيمهم البحري هم، وسيجعلونهم يدفعون مئة فرنك في اليوم؛ نهض على مرفقيه، ونظر إلى الأولاد الذين كانوا يلعبون فوق الرمل الرماديّ، وكانت الصغيرة سيمون شاسيو تعدو وتضحك وهي تجرّ خلفها ساقها اليسرى المشدودة في حذاء تجبيريّ. وكان بالقرب

من الدرج طفل لم يكن يعرفه، لا بدّ أنّه جديد، فهو هزيل هزالاً يبعث على الخوف، ذو أذنين هائلتين، وكان قد دسّ إصبعه في أنفه وجعل ينظر إلى ثلاث فتيات صغيرات كنّ يبنين بيوتًا من الرمل. كان يقوّس كتفيه الصغيرتين المقرَّنتين ويلوي ركبتيه، ولكن صدره الضخم يظلّ على صلابته الحجريّة. مُشدّ. انحراف سُليّ في العمود الفقري. «ولا بدّ أنّه معتوه فوق كلّ شيء».

قالت جانين: ـ نمْ وتمدّد جيّدًا. ذلك أنّك اليوم مضطرب.

فأطاع ورأى السماء. أربع غيمات صغيرة بيض. وسمع صرير عجلات عربة على الطريق: «إنّهم يعودون به باكرًا، فمن عساه يكون؟» وعلا صوت ضخم: ـ مرحبًا، أيّها الرأس الصغير.

فرفع كلتا ذراعيه بحيويّة، وأدار المرآة فوق رأسه، وكانوا قد مرّوا، ولكنّه عرف ردف الممرِّضة الضخم: كان داريو. وصاح به.

ـ متى تقصّها، لحيتك؟

فأجاب صوت داريو البعيد: ـ حين تقصّ بيضاتك!

وأخذ يضحك مسرورًا: كانت جانين تحتقر الكلمات البذيئة.

ـ متى يعودون بي؟

ورأى يد جانين تبحث في جيب سترتها البيضاء فتخرج منها ساعة.

ـ بعد زهاء ربع ساعة. هل أنت ضجر؟

ـ لا.

لم يكن ليضجر قطّ. إنّ أُصُص الزهور لا تضجر. إنّهم يخرجونها حين تشرق الشمس، ويدخلونها عند هبوط المساء. وهي لا تُسأل قطّ عن رأيها، فليس لها أن تقرِّر شيئًا ولا أن تنتظر شيئًا. إنّ المرء لا يستطيع أن يتصوَّر كم يستغرقه ضخّ الهواء والنور من جميع المسامّ. وأصدت السماء كأنّها صنج، ورأى خمس نقط رماديّة صغيرة بشكل مثلّث تلتمع بين غيمتين، فاسترخى وتحرّكت أصابع رجليه: كان الصوت يأتي في موجات

نحاسيّة كبيرة، وكان ذلك لذيذًا لطيفًا يشبه رائحة المخدِّر حين يضجعونك على الطاولة الكبيرة. وتنهّدت جانين، فنظر إليها من زاوية عينه: كانت قد رفعت رأسها وبدت قلقة، وكان ثمّة بكلّ تأكيد ما يذعرها «آه! صحيح: ستقوم الحرب». وابتسم، وقال وهو يدير عنقه قليلاً:

ـ وإذن، فالواقفون يعزمون على القيام بها، حربهم هذه؟

فأجابت بجفاف: ـ أنت تعلم ما قلته لك. فإذا تكلّمت هكذا، امتنعت عن إجابتك.

وصمت. كان له الوقت بطوله، وكانت الطائرة تشخر في أذنيه، وكان يحسّ بالرضى، إنّ الصمت لا يزعجني أنا. إنّها لم تكن تستطيع أن تقاوم، فالواقفون هم دائمًا قلقون، ويجب أن يتكلّموا أو يتحرّكوا؛ وانتهت إلى القول:

ـ أجل، إنّني خائفة: فإنّ الحرب ستنشب.

قالت ذلك بهيئتها التي تأخذها في أيّام العمليّات، هيئة الطفل المسكين وكبيرة الممرِّضات. حين دخلت في اليوم الأوّل وقالت له: «يجب أن ترفع جسمك فإنّي سأرفع الحوض»، كانت لها هذه الهيئة نفسها. وكان يعرق، ويحسّ رائحته، رائحة الدباغة الفظيعة، وكانت واقفة، بارعة، مجهولة، تمدّ نحوه يدين فارهتين، وكانت لها هذه الهيئة نفسها.

لحس شفتيه على مهل. وانتصر عليها منذ ذلك الحين. وقال لها:

ـ يبدو عليكِ الانفعال الشديد.

ـ أتظنّ ذلك؟

ـ ماذا يمكن للحرب أن تفعله معكِ؟ إنّها لا تعنينا.

فأدارت رأسها، وربّتَ على طرف آلة التثبيت. ما كان لها أن تنشغل بالحرب. فإنّ مهنتها هي أن تعالج المرضى. وقال: ـ إنّني لا أهتمّ بالحرب.

وقالت له: ـ لماذا تتظاهر بأنّك لئيم؟ إنّك لا تحبّ أن تُهزم فرنسا.

ـ الأمر لديّ سواء.

ـ سيِّد شارل! إنّك تخيفني إذ تكون هكذا.

فضحك قائلاً: ـ ليس الذنب ذنبي إن كنت نازيًّا.

فقالت خائبة: ـ نازيّ؟ ماذا تراك ستخترع أيضًا؟ نازيّ! إنّهم يقتلون اليهود وجميع الذين لا يشاركونهم الرأي، وهم يسجنونهم، وكذلك الكهنة، وقد أحرقوا الريخشتاغ، وهم لصوص. هذه أشياء لا يحقّ لك قولها. إنّ شابًّا مثلك لا يحقّ له أن يقول إنّه نازيّ، حتى ولو كان يمزح.

وكان يحتفظ على شفتيه ببسمة صغيرة مدروسة ليحملها على الكلام، ولم يكن يكره النازيين. لقد كانوا عنيفين وغامضين، وكانوا يبدون كأنّهم يريدون التهام كلّ شيء؛ وسنرى إلى أيّ حدّ يمكن أن يصلوا، سنرى. وجاءته فكرة طريفة:

إذا قامت الحرب، أصبحنا جميعًا متوازين.

قالت جانين: ـ آه! إنّه مسرور، فماذا عساه قد وجد؟

قال: ـ إنّ الواقفين قد تعبوا من وقوفهم، فهم ذاهبون ليناموا على بطونهم في حفر. أنا على ظهري، وهم على بطونهم: سنكون جميعًا متوازين.

وكان قد مضى وقت طويل، وهم منحنون فوقه ينظِّفونه ويسدّونه بأيديهم الماهرة، فيظلّ جامدًا أمام جميع هذه الأيدي فوق جسمه، ينظر إلى وجوههم ابتداء من الذقن، وثقوب أنوفهم المتصلِّبة فوق رؤوس شفاههم وخطّ الأهداب الأسود في الأفق: فقد جاء دورهم بأن يتمدّدوا. ولم يبدُ على جانين أيّ ردّ فعل: فقد كانت أقلّ نشاطًا من المألوف. وضعت يدها برقّة على كتفه وقالت: ـ أنت رديء؛ رديء، رديء!

وكانت تلك لحظة المصالحة؛ قال لها: ـ ماذا هناك للعشاء هذا المساء؟

ـ ثريدة بالأرز وحساء من البطاط، ثم إنّك ستكون مسرورًا: سمك نهريّ.

ـ ثم ماذا بعد الطعام؟ خوخ مجفّف؟

ـ لا أدري.

قال: ـ خوخ مجفّف ولا بدّ. فقد أكلنا بالأمس مربّى المشمش.

أكثر من خمس دقائق، وتمدّد وانتفخ ليصيب مزيدًا من المتعة، ونظر إلى طرف عالمه الصغير في عينه الثالثة. عين مغبرّة ثابتة مع بقع سمراء: كان دائمًا يحلّل الحركات قليلاً، وكان هذا مسلّيًا، إذ تصبح الحركات صلبة وآليّة مثل أفلام ما قبل الحرب. وفي تلك اللحظة بالذات، تنسلّ امرأة بالسواد، وهي ممدّدة على آلة تثبيت، تنسلّ وتختفي: كان صبيّ صغير يدفع بالعربة. وسأل جانين: ـ من هذه؟

قالت جانين: ـ لا أعرفها. أعتقد أنّها مقيمة في مقصورة «مونريبو»، البيت الكبير الأحمر على شاطئ البحر.

ـ أهناك أجرى أندريه عمليّته؟

ـ نعم.

وتنفّس بعمق. وكانت شمس رطبة حريريّة تسيل في فمه، وفي منخريه، وفي عينيه. وهذا الجنديّ، ماذا قَدِم يفعل هنا؟ أهو بحاجة إلى أن يتنفّس هواء المرضى؟ ومرّ الجنديّ في المرآة، صلبًا كأنّه صورة فانوس سحريّ، وكان يبدو مهمومًا، فاستقام شارل على مرفقه وتبعه بعينيه في فضول: إنّه يسير، إنّه يُحسّ ساقيه وفخذيه، وجميع جسمه يثقل على قدميه. توقّف الجنديّ وأخذ يتحدّث إلى ممرّضة؛ وفكّر شارل متعزّيًا: «آه! إنّه واحدٌ من هنا». وكان يتكلّم برصانة وهو يهزّ رأسه، من غير أن يفقد هيئته الحزينة؛ إنّه يغتسل ويرتدي ثيابه وحده، وهو يذهب حيث يشاء، ويجب أن يهتمّ بنفسه طوال الوقت، وهو يحسّ نفسه غريبًا لأنّه واقف: لقد عرفت هذا. سيحدث له شيء ما. ستقوم الحرب غدًا وسيحدث لهم جميعًا

شيء ما. لهم، لا لي. أمّا أنا، فإنّي شيء.

قالت جانين: ـ لقد آن الأوان.

وكانت تنظر إليه بحزن، وعيناها مليئتان بالدموع. ما أبشعها! وقال لها: ـ إنّك تحبّينها جيّدًا، لعبتك؟

ـ أوه.. طبعًا.

ـ لا تهزّيني كما حدث في الذهاب.

ـ كلّا.

وتدفّقت الدموع وتدحرجت على الوجنتين الممتقعتين. ونظر إليها في حذر.

ـ ما بكِ؟

فلم تجب، وكانت قد انحنت فوقه وهي تلهث، وكانت ترتّب غطاء سريره، وكان يرى ثقبيْ أنفها.

ـ إنّكِ تخفين عنّي أمرًا.

فظلّت على صمتها.

ـ ماذا تخفين عنّي؟ هل تخاصمتِ مع السيِّدة «غوفرينه»؟ هيّا قولي، فأنا لا أحبّ أن أُعامَل كالأطفال.

واستقامت، فنظرت إليه بحنان يائس. وقالت وهي تبكي:

ـ إنّهم سينقلونكم.

فلم يفهم جيّدًا ما تعني. وقال: ـ أنا؟

ـ جميع مرضى «بيرك». فهذا المكان أقرب إلى الحدود أكثر ممّا ينبغي.

فأخذ يرتعش، وسرق يد جانين وشدّها إليه:

ـ ولكنّي أريد أن أبقى.

فقالت بصوت كئيب: ـ لن يَدَعوا أحدًا هنا.

وشدّ على اليد بكلّ قواه، وقال: ـ لا أريد، لا أريد!

فخلّصت يدها من غير أن تجيب، ومرّت وراء العربة وأخذت في دفعها. استقام شارل وجعل يبرّم بين أصابعه زاوية من الغطاء.

ـ ولكن إلى أين سيرسلوننا؟ ومتى نذهب؟ وهل تذهب الممرّضات معنا؟ قولي شيئا ما.

فظلّت على صمتها، وكان يسمعها تزفر فوق رأسه. ترك نفسه يسقط إلى خلف، وقال بصوت عاصف: ـ وهكذا يكونون قد تغلّبوا عليّ حتى النهاية!

لا أريد أن أنظر في الشارع. ووقف ميلان أمام النافذة، إنّه ينظر، وهو مقطّب. إنّهم ليسوا هنا بعد، ولكنّهم يجرّون أقدامهم حول مجموعة البيوت. إنّني أسمعهم. وأنحني على ماريكا وأقول لها: ـ اجلسي هناك.

ـ أين؟

ـ لصق الجدار، بين النوافذ.

وتقول لي:

ـ لماذا أرسلوني إلى بيتك؟

فلا أجيب، فتقول:

ـ من الذي يصرخ؟

فلا أجيب. الأقدام التي تسحب نفسها. صوتها ينبعث شو شو شو أو شو. وأجلس أرضًا بالقرب منها. إنّني ثقيلة. وآخذها بين ذراعيّ. ميلان على النافذة، يعضّ أظافره بهيئة فارغة. وأقول له:

ـ ميلان؟ تعال بالقرب منّا؛ ولا تبق على النافذة.

إنّه يتمتم، وينحني فوق المتّكأ، يتقصّد أن ينحني. الأقدام التي تسحب نفسها. سيكونون هنا بعد خمس دقائق. وتقطّب ماريكا حاجبيها الصغيرين:

ـ من الذي يمشي؟

ـ الألمان.

فتقول «ها؟» ويستعيد وجهها صفاءه. إنّها تستمع بوداعة إلى الأقدام التي تسحب نفسها، كما تستمع إلى صوتي في الصفّ أو إلى المطر أو إلى الريح في الشجر: لأنّ ذلك هناك. وأنظر إليها فتردّ لي نظرة صافية. حبّذا لو كنت هذه النظرة، لو لم أكن إلّا هذه النظرة التي لا تفهم، ولا تتنبّأ. أودّ لو أكون صمّاء، أودّ لو أسحر نفسي على هاتين العينين. أو أقرأ الضجّة في هاتين العينين، ضجّة عذبة عارية من المعنى، كضجّة أوراق الشجر. إنّني أنا أعرف أنّ هذه أقدام تسحب نفسها. إنّها مائعة، إنّهم سيأتون بميوعة، وسيضربونه حتى يصبح مائعًا كلّه في أطراف أذرعتهم. إنّه هنا، قاسٍ شديد، ينظر من النافذة: سوف يمسكونه بأذرعتهم، وسوف يصبح رخوًا وتبدو على وجهه المسحوق هيئة البلاهة، سوف يضربونه ويقذفونه أرضًا، وغدًا سيشعر أمامي بالخجل.

وترتعش ماريكا بين ذراعي، فأسألها:

ـ هل أنت خائفة؟

فتومئ برأسها نفيًا. إنّها ليست خائفة. إنّها رصينة كما تبدو، إذ أكتب على اللوح الأسود فتتابع يدي بعينيها وهي تفغر فاها. إنّها تجدّ وتجتهد: فقد فهمت الأشجار والماء، ثم الحيوانات التي تسير وحدها، ثم الناس، ثم الأحرف الهجائيّة. أمّا الآن، فإنّ هناك صمت الأشخاص الكبار وتلك الأقدام التي تسحب نفسها في الشارع؛ وهذا ما ينبغي فهمه، لأنّنا بلد صغير. سوف يأتون. وسيُمرُّون دبّاباتهم عبر حقولنا، وسيطلقون نارهم على رجالنا. لأنّنا بلد صغير. يا إلٰهي! إقضِ بأن يأتي الفرنسيّون لنجدتنا، يا إلٰهي، امنعهم من أن يتخلّوا عنّا.

قال ميلان: ـ ها هم أولاء.

لا أريد أن أنظر إلى وجهه. وإنّما أريد أن أنظر إلى وجه ماريكا فقط، لأنّها لا تفهم. إنّهم يتقدّمون في شارعنا، يجرّون أقدامهم في شارعنا، يصرخون باسمنا، فإنّي أسمعهم وإنّني هنا جالسة أرضًا، ثقيلة جامدة، إنّ مسدّس ميلان في جيب وزرتي. إنّه ينظر إلى وجه ماريكا: هي فاغرة الفم. إنّ عينيها صافيتان، وهي لا تفهم.

كان يمشي على الخطّ الحديدي، وينظر إلى الحوانيت ويضحك انشراحًا. كان ينظر إلى الخطوط، وينظر إلى الحوانيت، ينظر باستقامة إلى الشارع الأبيض وهو يطرف بعينه ويفكّر: «أنا في مارسيليا». كانت الحوانيت مغلقة، والستائر الحديديّة مسدلة، والشارع خاليًا، ولكنّه كان في مارسيليا. توقّف ووضع محفظته ونزع سترته الجلديّة فوضعها على ذراعه، ثم مسح جبينه وألقى المحفظة على ظهره. وكانت به رغبة لأن يعقد طرفًا من حديث مع أحد. وقال: «معي اثنا عشر عقب سيكارة، وعقب سيكار واحد في منديلي». كانت خطوط السكّة تلتمع، والشارع الطويل الأبيض يبهره، وقال: «إنّ في محفظتي نبيذًا أحمر». وكان به عطش، وكان بوسعه أن يشربه، ولكنّه كان يؤثر أن يشرب جرعة في حانة، لو لم تكن جميع الحانات مغلقة. وقال: «لم أكن أتوقّع ذلك». وأخذ يمشي بين الخطوط، وكان الشارع يعكس الأشكال كالنهر بين بيوت صغيرة سوداء. وإلى اليسار يقوم كثير من الحوانيت، ولكن لم يكن باستطاعة المرء أن يعرف ما كانت تبيعه، بالنظر إلى أنّ الستائر الحديديّة كانت مسدلة؛ وإلى اليمين تقوم بيوت منفتحة في الهواء الطلق وخالية، تشبه محطّات، وبين وقت وآخر يظهر جدار من قرميد.. ولكنّها كانت مارسيليا.

وسأل غرو ـ لويس:

ـ أين يمكن أن يكونوا؟

وصاح صوت: عودوا بسرعة.

كانت في زاوية زقاق حانة مفتوحة، يقف على عتبتها صبيٌّ سمين ذو شاربين صلبين، يصيح: «عودوا بسرعة».

وخرج فجأة من الأرض أشخاص لم يسبق لغرو ـ لويس أن رآهم، وأخذوا يركضون نحو الحانة. فأخذ غرو ـ لويس يركض هو أيضًا. كان الصبية الآخرون يدخلون وهم يتدافعون، وقد أراد أن يدخل خلفهم، ولكنَّ فتى الباب لكمه بضربة صغيرة جافّة على صدره بظاهر يده، وقال له:

ـ حُلّ عنّي.

وكان ثمّة طفل ذو مريول يحمل بين ذراعيه طاولة صغيرة أكبر منه، وهو يحاول أن يُدخلها إلى المقهى. قال غرو ـ لويس:

ـ حسنًا أيّها السمين، إنّني ذاهب. ولكن أليست لديك جُرعة؟

ـ قلت لك أن تحلّ عنّي!

قال غرو ـ لويس: إنّني ذاهب. فلا حاجة بك لأن تخاف. فلست ذاك الذي يبقى في جماعة لا يرغبون برفقته.

فأولاه الفتى ظهره، ثم نزع بضربة واحدة مزلاج الباب الخارجيّ، ودخل المقهى وهو يغلقه خلفه. نظر غرو ـ لويس إلى الباب: كان باقيًا في مكان المقبض ثقب صغير مستدير ذو أطراف بارزة. وحكّ رقبته وردّد: «إنّني ذاهب، وهو ليس بحاجة لأن يخاف». وقد اقترب مع ذلك من الزجاج، وحاول أن يلقي نظرة في المقهى؛ لكنَّ أحدهم سحب الستائر في الداخل فلم ير بعدُ شيئًا. وفكّر: «لم أكن أتوقّع ذلك». وكان يرى الشارع إلى اليمين والشمال ممتدًّا على مدى النظر، والخطوط تلتمع، وعلى الخطوط حافلة صغيرة سوداء مهجورة. قال غرو ـ لويس: «أودّ لو أدخل إلى مكان ما»، وكان يودّ لو يشرب جرعة صغيرة في حانة، ويعقد طرفًا من حديث مع صاحبها. وأوضح وهو يحكّ صلعته: «ليس سبب ذلك أنّي لم أعتد أن أكون في الخارج». ولكن حين يكون في الخارج، عادة، يكون

الآخرون في الخارج أيضًا. كان هناك الخراف والرعاة، وكان في ذلك نوع من الرفقة، ثم إنّه حين لا يكون ثمّة أحد، لا يكون ثمّة أحد، هذا كلّ ما في الأمر. بينما هو الآن في الخارج، وجميع الآخرين في الداخل، خلف جدرانهم وأبوابهم التي ليس لها مقابض. كان وحيدًا في الخارج مع الحافلة الصغيرة. دقّ على زجاج المقهى وانتظر، فلم يجب أحد. لو لم يرهم بأمّ عينه يدخلون لأقسم بأنّ المقهى كان خاليًا. وقال: «إنّني ذاهب»، وذهب. وبدأ يشعر باشتداد العطش؛ وهو لم يكن يتصوّر مارسيليا هكذا. كان يمشي ويفكّر بأنّ الشارع كانت تنبعث منه رائحة العفونة. وقال: «أين تراني سأجلس؟» وسمع خلفه جلبة، كما لو أنّه قطيع غنم يرعى الكلأ. التفت فرأى في البعد جماعة تحمل الأعلام. وقال: «آه، حسنًا، سأراهم يمرّون»، واستشعر الرضى الغامر. والواقع أنّه كان في الجانب المقابل من الخطوط ساحةٌ ما، مكان لسوق، مع كوخين صغيرين أخضرين يستندان إلى جدار كبير؛ وقال: «سأجلس هناك لأراهم يمرّون». كان أحد الكوخين حانوتًا، إذ كانت رائحة المقانق والبطاطا المقليّة تنبعث منه. وقد رأى غرو ـ لويس شخصًا مسنًّا ذا مئزر أبيض يحرّك مقلاة داخل الحانوت، فقال له:

ـ أعطني بطاطا مقليّة يا بابا.

فالتفت الشيخ وقال: ـ طزّ!

قال غرو ـ لويس: ـ إنّني أملك المال.

ـ طزّ في مالك. إنّني أغلق الحانوت.

وخرج، وأخذ يدير مقبضًا، فهبط ستار حديديّ في صخب.

وصاح غرو ـ لويس ليطغى صوته على الصخب:

ـ لم تبلغ الساعة السابعة!

فلم يجب العجوز. وصاح غرو ـ لويس:

ـ كنت أظنّ أنّك تغلق دكّانك، لأنّ الساعة بلغت السابعة.

وكان الستار الحديديّ قد أُسدل. ونزع العجوز المقبض، ثم استقام وبصق:

ـ ألم ترهم قادمين أيّها الأبله؟ إنّني لست حريصًا على أن أهب بطاطاتي المقليّة مجّانًا!

قال ذلك ودخل كوخه الصغير.

ونظر غرو ـ لويس إلى الباب الأخضر مرَّة أخرى، ثم جلس على الأرض وسط ساحة السوق. وأسند ظهره بمحفظته وتدفّأ بالشمس. وفكّر بأنّه كان يملك كسرة من الخبز، وزجاجة من النبيذ الأحمر، واثني عشر عقبًا من السكاير وعقبًا واحدًا من السيكار، فقال: «وإذن، فإنّي سأكسر الصفرة». وكان الجمع، في الجهة المقابلة من الخطّ الحديدي، قد بدأوا يسيرون وهم يحرّكون أعلامهم ويغنّون ويصيحون؛ وكان غرو ـ لويس قد أخرج سكّينه من جيبه وراح ينظر إليهم يمرّون، وهو يكسر الصفرة. كان فيهم من يرفعون قبضاتهم وآخرون يصيحون به: «تعال معنا!» كان هو يضحك، ويحيّيهم لدى مرورهم. كان يحبّ كثيرًا الجلبة والحركة، فقد كان ذلك يحقّق له تسلية صغيرة.

وسمع وقع خطى فالتفت. كان زنجيّ طويل قادمًا نحوه، وكانت ذراعاه عاريتين، يرتدي قميصًا ذا لون ورديّ حائل؛ وبنطلونًا أزرق يتّسع وينبسط لدى ربلات ساقيه الهزيلتين عند كلّ خطوة. ولم يكن يبدو مستعجلاً. توقّف ولوى تبّان سباحة بين يديه السمراوين الورديَّتين. وكان الماء يقطر على الغبار دوائر صغيرة. طوى الزنجيّ التبّان في منشفة ثم نظر إلى الجمع بلا اكتراث وهو يصفّر. فصاح به غرو ـ لويس: ـ ها!

نظر إليه الزنجيّ وابتسم.

ـ ماذا يفعلون؟

فأقبل الزنجيّ عليه وهو يؤرجح كتفيه، ولم يكن يبدو مستعجلاً.

وقال: ـ إنّهم عمّال المرفأ.

ـ هل هم مضربون؟

فقال الزنجيّ: ـ انتهى الإضراب، ولكن هؤلاء يريدون أن يُستأنف.

قال غرو ـ لويس: ـ آه! من أجل هذا!

فنظر إليه الزنجيّ لحظة من غير أن يقول شيئًا. وكان يبدو عليه كأنّه يبحث عن أفكاره. ثم انتهى إلى الجلوس على الأرض، ووضع تبّانه على ركبتيه وأخذ يلفّ سيكارة. كان يصفِّر. وسأل:

ـ من أين أنت قادم هكذا؟

قال غرو ـ لويس: ـ إنّني قادم من «براد».

قال الزنجيّ: ـ لا أعرف أين تقع.

فقال غرو ـ لويس وهو يضحك: ـ آه! لا تعرف أين تقع؟

وضحك كلاهما، ثم أوضح غرو ـ لويس: ـ لم أكن مسرورًا فيها.

قال الزنجيّ: ـ وأنت قادم تبحث عن عمل؟

فأوضح غرو ـ لويس: ـ كنت راعيًا، وكنت أرعى الخراف على «الكانيغو»، ولكنّي لم أكن مسرورًا فيها.

هزَّ الزنجيّ رأسه، وقال بقسوة: ـ لم يبق ثمّة من عمل.

فقال غرو ـ لويس: ـ أوه! سأجد عملاً ولا شكّ. (وأراه يديه) بوسعي أن أعمل كلّ شيء.

فردّد الزنجيّ: ـ لم يبق من عمل.

وصمتا. وكان غرو ـ لويس ينظر إلى الجمع السائر الذي يصيح. كانوا يصرخون: «إلى المشنقة! سابياني إلى المشنقة». وكان معهم نساء حمراوات مشعّثات، يفغرن أفواههنّ كما لو أنّهنّ يوشكن أن يلتهمن كلّ شيء، ولكن لم يكن يُسمع ما يروينه، فقد كان الرجال يصيحون أكثر منهنّ. وكان غرو ـ لويس مسرورًا. فقد كان ينعم برفاق. وفكّر: إنّ هذا

مضحك. مرّت امرأة ضخمة هناك، مع الأخريات، وكان ثدياها يتمايلان. فكّر غرو ـ لويس بأنّه لن ينزعج إذا مازحها ساعة من زمن، فسوف تمتلئ منها يداه. وأخذ الزنجيّ يضحك. يضحك بشدّة حتى إنّه كاد يختنق بدخان سيكارته. كان يضحك ويسعل في وقت واحد. ربّت غرو ـ لويس على ظهره، وسأله ضاحكًا:

ـ لماذا تضحك؟

وكان الزنجيّ قد استعاد جدّه، فقال: ـ هكذا!

قال غرو ـ لويس: ـ اشرب جرعة.

فتناول الزنجيّ الزجاجة وشرب من عنقها، وشرب غرو ـ لويس أيضًا. كان الشارع قد خلا من جديد.

وسأله الزنجيّ: ـ أين نمت؟

فقال غرو ـ لويس: ـ لا أدري! في ساحة ملأى بالشاحنات، تحت ستارة، كانت تنبعث منها رائحة الفحم.

ـ هل معك مال؟

فقال غرو ـ لويس: ـ قد يكون معي.

فُتح باب المقهى، فخرج جمع من الرجال. وظلّوا برهة في الشارع؛ كانوا ينظرون إلى حيث يسير المضربون، وهم يحمون عيونهم بأيديهم. ثم انسحب بعضهم بخطى بطيئة وهم يشعلون لفافاتهم، وبقي الآخرون في الشارع، زرافات صغيرة. وكان ثمّة شخص أحمر ذو كرش يحرّك ذراعيه. ونهر فتًى لم يكن يبدو نشيطًا:

ـ إنّ الحرب في مؤخّرتنا وتأتي لتحدّثنا عن النقابيّة؟

كان يرشح عرقًا، ولم يكن يلبس سترة، وكان قميصه مفتوحًا وعليه بقعتان عريضتان رطبتان لدى الإبطين. التفت غرو ـ لويس نحو الزنجيّ وسأل: ـ الحرب؟ أيّة حرب؟

قال دانيال: ـ مقعد! هذا ما نحتاجه.

وكان مقعدًا أخضر، يستند إلى جدار المزرعة، تحت النافذة المفتوحة. رفع دانيال الحاجز ودخل إلى الساحة، وعوى كلب واندفع إلى أمام، وهو يشدّ على سلسلته؛ وبدت امرأة عجوز على عتبة البيت، كانت تحمل قِدرًا صغيرة، وقالت وهي تشهر القِدر: ـ هناك! هناك! بر! هل تريد؟

فهمدر الكلب قليلاً ثم اضطّجع على بطنه. وقال دانيال وهو ينزع قبّعته: ـ إنّ امرأتي متعبة بعض الشيء. هل تسمحين لها بأن تجلس على هذا المقعد؟

جعّدت العجوز عينيها بحذر: ربّما كانت لا تعرف الفرنسيّة. وردّد دانيال بصوت مرتفع:

انفتلت العجوز نحو مارسيل التي كانت قد استندت إلى الحاجز، فذاب حذرها.

ـ بكلّ تأكيد تستطيع زوجتك أن تجلس. فالمقاعد إنّما جُعلت لهذا. وليست هي التي ستتلف مقعدنا منذ وُجد هنا. هل أنتما آتيان من «بيرهوراد»؟

فدخلت مارسيل بدورها وأقبلت لتجلس وهي تبتسم، وقالت:

ـ نعم. لقد كنّا نريد أن نمضي حتى مرتفعات الشاطئ، ولكنّي أرى الآن أنّها بعيدة بعض الشيء بالنسبة لي.

فغمزت العجوز بعينها غمزة ضالعة، وقالت:

ـ طبعًا! يجب أن تكون حكيمة، من تكون في وضعك.

فتركت مارسيل نفسها تستند إلى الجدار، وعيناها نصف مغمضتين، وهي تضحك ضحكة صغيرة سعيدة. كانت العجوز تنظر إلى بطنها نظرة العارفة، ثم التفتت إلى دانيال، فهزّت رأسها وابتسمت له بسمة تقدير.

وشنَّج دانيال يده على عصاه وابتسم كذلك. كان الجميع يبتسمون، وكان البطن هنا، واثقًا مطمئنًا. وخرج صبيّ من المزرعة وهو يتعثّر، فتوقّف فجأة وحدّد في مارسيل نظرة قلقة. لم يكن يرتدي سروالاً تحتانيًّا؛ وكانت فخذاه الصغيرتان محمرّتين متصلِّبتي القشرة. قالت مارسيل بلهجة يقظة:

ـ كنت أودّ أن أرى مرتفعات الشاطئ.

فقالت العجوز: ـ ولكنّ هناك سيّارة تاكسي في بيرهوراد. وهي تخصّ «لاميلان» الابن، ومنزله هو آخرِ منزل على شارع بيداس.

قالت مارسيل: ـ أعرف ذلك.

فالتفتت العجوز إلى دانيال وهدّدته بإصبعها:

ـ آه! يا سيِّدي، يجب أن تكون لطيفًا مع السيِّدة، وأن تحقِّق لها كلّ رغباتها.

فابتسمت مارسيل، وقالت: ـ إنّه لطيف. ولكنِّي أنا التي أردت أن أسير.

ومدّت ذراعها فلامست رأس الصبيّ. كانت تهتمّ بالأطفال منذ أسبوعين، وقد جاءها ذلك فجأة.. كانت تلمسهم وتجسّهم كلّما كانوا في متناول يدها.

ـ أهو حفيدك؟

ـ إنّه ابن حفيدتي. وهو في حوالى الرابعة من عمره.

قالت مارسيل: ـ إنّه جميل.

ـ حين يكون هادئًا. (وخفضت العجوز صوتها): أتراه سيكون صبيًّا؟

قالت مارسيل: ـ آه! أودّ ذلك كثيرًا.

فأخذت العجوز تضحك:

ـ يجب أن تردّدي كلّ صباح الصلاة للقدِّيسة مرغريت.

وحدث صمت صريح تعمره الملائكة. كانت جميع العيون قد اتّجهت

إلى دانيال، فانحنى على عصاه وأسبل جفنيه بهيئة تواضع ورجولة. وقال بلطف: ـ سأزعجك مرّة أخرى يا سيِّدتي. فهل أستطيع أن أطلب منك كوب حليب لزوجتي؟ (والتفت إلى مارسيل): هل تأخذين كوب حليب؟

قالت العجوز: ـ سأعطيك إيَّاه.

واختفت في مطبخها. وقالت مارسيل: ـ تعال اجلس بالقرب منِّي.

فجلس، وأخذت يده وهي تقول: ـ كم أنت متنبِّه.

فابتسم. وكانت تنظر إليه بشغف، وظلّ يبتسم وهو يخنق تثاؤبة مطّت شفتيه حتى الأذنين. كان يفكِّر: «يجب ألّا يكون مسموحًا به أن تبدو المرأة حاملاً إلى هذا الحدّ». كان الهواء لزجًا، محمومًا بعض الشيء، وبعض الروائح تخفق فيه كأنّها من نبات الأشنة؛ كان دانيال ينظر إلى اهتزاز دغل أخضر وأحمر، فيما وراء الحاجز، وكان منخراه وفمه قد امتلأت من أوراق الشجر. بعد خمسة عشر يومًا. خمسة عشر يومًا خضراء مهتزّة، خمسة عشر يومًا في الريف. وكان يكره الريف. وكان إصبع خجول يتنزّه على يده، وهو يتردّد تردّد غصنٍ تؤرجحه الرِّيح. أخفض عينيه ونظر إلى الإصبع. كان أبيض، سمينًا بعض الشيء، يحيط به خاتم. وفكّر دانيال: «إنّها تعبدني». معبود. وكانت هذه العبادة المتواضعة المتسلِّلة تسيل فيه كأنّها روائح الحقول الحيّة. أغمض عينيه نصف إغماضة، فسالت عبادة مارسيل مع الأغصان الهامسة، مع رائحة الزبل والبرجيس. وسألته مارسيل: ـ بمَ تفكِّر؟

فأجاب دانيال: ـ بالحرب.

وعادت العجوز بكوب من الحليب المزبّد. فتناولته مارسيل من يديها وشربت جرعات كبيرة. كانت شفتها العليا تبحث عن السائل بعيدًا في الكوب، فتشرقه بصوت خفيف. وكان الحليب يغني وهو يمرّ في حلقها. قالت متنهِّدة: ـ كم هو منعش!

وكان قد ارتسم على شفتها شاربٌ أبيض. والعجوز تنظر إليها نظرة طيّبة، وقالت: ـ حليب طازج: هذا ما تحتاجين إليه، من أجل الصغير.

وضحكتا كلتاهما، ونهضت مارسيل وهي تستند إلى الجدار، وقالت لدانيال: ـ أحسّني مرتاحة جيِّدًا.. وسنذهب متى شئت.

قال دانيال وهو يدسّ في يد العجوز ورقة:

ـ إلى اللقاء يا سيِّدتي. إنّنا نشكر لك ضيافتك الكريمة.

وقالت مارسيل ببسمة حميمة: ـ شكرًا يا سيِّدتي.

قالت العجوز: ـ مع السلامة، ومشيا على مهل، في طريق العودة.

فتح دانيال الحاجز وامّحى أمام مارسيل: فاصطدمت بحجرٍ كبير وتعثّرت، فصاحت العجوز من بعيد: ـ هيه!

قال دانيال: ـ خذي ذراعي.

فقالت مارسيل مضطّربة: ـ كم أنا قليلة الحذق!

وأخذت ذراعه، فأحسّ بها لصقه حارّة وغير متناسقة؛ وفكّر: «لقد وسع ماتيو أن يشتهيها». وقال: ـ احرصي على أن تسيري بخطى صغيرة.

سياجات مظلمة. الصمت. الحقول. خطّ الصنوبر الأسود في الأفق. وكان رجالٌ يعودون إلى المزارع بخطى بطيئة ثقيلة؛ سوف يجلسون إلى الطاولة الطويلة، وسوف يلتهمون حساءهم، من غير أن يقولوا كلمة. وعَبَر الطريق قطيع من البقر. خافت إحداها فأخذت تخب وتقفز. والتصقت مارسيل بدانيال، وقالت.وهي تخفض صوتها:

ـ تصوّر: إنّني أخاف البقر.

فشدّ دانيال ذراعها برقّة، وفكّر: «لتذهب إلى الشيطان!» وتنفّست بعمق وصمتت. نظر إليها مواربة ورأى عينيها الغامضتين، وبسمتها المستنيمة، وهيئتها المغتبطة. وفكّر في رضى: «حسنًا. لقد رحلت من جديد!» وكان ذلك يحدث لها بين الفينة والفينة، حين كان الطفل يتحرّك

في بطنها، أو يعبر بها إحساس مجهول؛ لا بدّ أن يخامرها شعور بأنّها متعدِّدة غزيرة، مَجرّة. ومهما يكن من أمر، فإنّها خمس دقائق طويلة من الربح؛ وفكّر: «إنّني أتنزّه في الريف، وهناك بقرات تمرّ، وهذه المرأة الضخمة هي امرأتي». وأخذته الرغبة في الضحك، إنّه لم يرَ في حياته هذا العدد من البقر. لقد أردت ذلك! أردت ذلك! كنت تتمنّى كارثة، فها إنّ أمنيتك تتحقّق! كانا يسيران على مهل، كأنّهما حبيبان، وذراعها في ذراعه، والذباب يطنّ حولهما. وقد نظر إليهما رجل مسنّ كان يستند إلى مِقْلَب، جامدًا على حافّة حقله، فبسم لهما. وأحسّ دانيال أنّه يحمرّ بعنف. وفي تلك اللحظة، خرجت مارسيل من خَدَرها وسألت فجأة:

ـ وهل تظنّ أنت أنّها واقعة، هذه الحرب؟

كانت حركاتها قد فقدت صلابتها الهجومية، فاستراحت ووهنت. ولكنّها كانت قد احتفظت بصوتها الإيجابيّ الوعر. ونظر دانيال إلى الحقول. حقول ماذا؟ لم يكن يميّز بين حقل ذرة وحقل شمندر. وسمع مارسيل تردِّد:

ـ هل تعتقد بأنّها ستقع؟

وفكّر: «ليت أنّ الحرب تقع!» إنّها ستصبح أرملة. أرملة مع الطفل ومع ستمئة ألف فرنك من العملة النقديّة. بصرف النظر عن بعض ذكريات حول زوج لا مثيل له: فما عساها يمكن أن تطلب أكثر من ذلك؟ وتوقّف فجأة وقد حرّكته الرغبة؛ وشدّ عصاه بكلّ قواه، وفكّر: «يا إلٰهي! المهمّ أن تقع الحرب!» صاعقة وحشيّة تفجّر هذه العذوبة، تحرث هذه الأرياف حرثًا فظيعًا، تحفر هذه السهول أقماعًا، تسوّي هذه الأراضي المنبسطة الرتيبة على شكل بحرٍ هائج! الحرب، مذبحة الرجال ذوي الإرادة الصلبة، ومجزرة الأبرياء. هذه السماء الصافية، سيمزّقونها بأيديهم. وكم سيكره بعضهم بعضًا! وكم سيخافون! وأنا، كم سأهتزّ في بحر الكراهية هذا! وكانت مارسيل تنظر إليه في دهشة. وأخذته الرغبة في الضحك.

ـ لا ، لا أعتقد بذلك.

وكان على الطريق أطفال، بأصواتهم الثاقبة الوديعة وضحكاتهم. السِّلْم. إنّ الشمس ترف على السياجات كالأمس، وكالغد؛ لقد ظهر برج بيرهوراد عند منعطف الشارع، لكلّ شيء في العالم رائحته، وظلّه المسائي الطويل الممتقع، ومستقبله الخاصّ. ومجموع هذه المستقبلات جميعًا هو السلم: فبالإمكان لمسه على خشب هذا الحاجز المنخور، وعلى عنق هذا الصبيّ الرطبة، وبالإمكان قراءته في عينيه النهمتين، وهو يصعد من القرّاص الذي يدفِّئه النهار، وهو يُسمع في رنّة هذه الأجراس. في كلّ مكان، تجمّع رجالٌ حول أواني الحساء التي يتصاعد منها البخار، فهم يكسرون الخبز، ويصبّون الخمر في الكؤوس، ويمسحون سكاكينهم، وتصنع السلام حركاتهم اليوميّة. إنّه هناك، نسجته جميع هذه المستقبلات، وهو يملك عناد الطبيعة المتردِّد، وهو عودة الشمس الخالدة، وجمود الأرياف المرتعش، ومعنى أعمال الرجال. فليس ثمّة حركة لا تدعوه ولا تحقِّقه، وحتى تثاقل مشية مارسيل إلى جانبي، وحتى ضغط أصابعي الرقيق على ذراع مارسيل. ضربات حجارة من النافذة: «اخرجوا من هنا! اخرجوا من هنا!» فلم يملك ميلان من الوقت أكثر من أن يرتدّ إلى خلف. وكان صوت ثاقب يصرخ باسمه: «هلينكا! ميلان هلينكا، اخرج من هنا». وغنّى أحدهم: «إنّ التشيكيين هم كالبراغيث في الفرو الألماني». وكانت الحجارة قد تدحرجت على الأرض، وكسرت بلاطة مرآة المدخنة. وسقطت بلاطة أخرى على الطاولة فسحقت كوبًا مليئًا بالقهوة؛ وسالت القهوة على القماش المشمّع، وأخذت تقطر ببطء على الأرض. استند ميلان إلى الجدار، ونظر إلى المرآة والطاولة والأرض، بينما كانوا يصرخون بالألمانيّة تحت النافذة. وفكّر: «لقد دلقوا قهوتي»، وأمسك بكرسيّ من مسنده، وكان يرشح عرقًا. ورفع الكرسيّ فوق رأسه، فصاحت أنّا: ـ ماذا تفعل؟

ـ سأقذف به رؤوسهم.

ـ ميلان! لا يحقّ لك. فلست وحدك.

فوضع الكرسيّ ونظر إلى الجدران في دهشة. إنّها ليست بعد غرفته؛ فهم قد بقروها. وصعدت في عينيه غمامة حمراء، وغرز يديه في جيبه وردّد: «لست وحدي، لست وحدي». وكان دانيال يفكّر: «إنّني وحدي». وحيد مع أحلامه الدامية في هذا السلام الممتدّ على مدى النظر. فالدبّابات والمدافع والطائرات والحفر الموحلة التي تمزّق الحقول، كلّ ذلك لم يكن إلّا ضجيجًا في رأسه. أبدًا لن تنشقّ هذه السماء؛ كان المستقبل هنا، قد حطّ على هذه الأرياف؛ وكان دانيال في داخله، كدودة في تفّاحة. مستقبل واحد. مستقبل جميع الناس: لقد صنعوه بأيديهم، على مهل، منذ أعوام؛ ولم يَدَعوا لي فيه أدنى مكان، أقلّ حظّ. وصعدت إلى عينيّ ميلان دموع غضب، والتفت دانيال إلى مارسيل: زوجتي، مستقبلي، المستقبل الوحيد الذي يبقى لي، ما دام العالم قد قرّر أمره بشأن السلم.

افعل كالجرذ! وكان قد انتصب على ساعديه وراح ينظر إلى الحوانيت تترى. وقال صوت جانين المبتهل:

ـ عد إلى الاضطجاع! ثم لا تلتفت طوال الوقت هكذا، إلى اليمين وإلى الشمال؛ إنّك تصيبني بالدوار.

ـ أين تراهم سيرسلوننا؟

ـ لقد قلت لك إنّي لا أعرف.

ـ إنّك تعرفين أنّهم سينقلوننا. ولا تعرفين أين سيرسلوننا؟ آه! إنّني أصدّقك كثيرًا!

ـ ولكنّي أقسم لك بأنّهم لم يقولوا لي. لا تعذّبني!

ـ أوّلاً، من قال لكِ ذلك؟ إنّها ليست إشاعة! فبوسعهم أن يجعلوكِ تبتلعين كلّ شيء.

قالت جانين على مضض: ـ إنّه طبيب العيادة.

ـ ولم يقل أين سنذهب؟

كانت العربة تسير في مسمكة «كوزييه»؛ ودخل، رجلاه أوّلاً، في رائحة قذرة، رائحة السمك الطازج الحدَّة.

ـ أسرعوا! إنّها تشبه رائحة الفتاة الصغيرة التي تهمل نفسها!

ـ لا.. لا أستطيع أن أسرع أكثر من ذلك. أبتهل إليك يا لعبتي الصغيرة، لا تتهيّج، وإلّا ارتفعت حرارتك مجدّدًا إلى ٣٩ (وتنهّدت كأنّما تخاطب نفسها) ما كان لي أبدًا أن أقول لك ذلك.

ـ طبعًا! ويوم الرحيل كانوا سيخدِّرونني أو يروون لي أنّهم يأخذونني للنزهة.

وتمدّد من جديد، لأنّهم أوشكوا على المرور أمام مكتبة «ناتيه». وكان يكره مكتبة «ناتيه» بواجهتها ذات الصفرة القذرة. ثم إنّ العجوز كانت دائمًا تقف على عتبة الباب، فتضمّ يديها حين تراه مارًّا.

ـ إنّك تهزّينني! فتنبّهي!

كالجرذ! إنّ في الجرذان من يستطيع أن ينهض ويركض ليختبئ في الكهف أو في المخزن. أمّا أنا، فرزمة. وليس لهم إلّا أن يأتوا فيأخذونني.

ـ أأنتِ التي ستلصقين البطاقات يا جانين؟

ـ أيّة بطاقات؟

ـ بطاقات الانتقال: فوق وتحت، سريع العطب، الرجاء نقله بحذر. ستضعين بطانة على بطني، وأخرى على مؤخِّرتي.

قالت: ـ رديء! رديء! رديء!

ـ حسنًا! سينقلوننا في القطار طبعًا؟

ـ نعم. ماذا تريدهم أن يفعلوا إذن؟

ـ في القطار الصحّي؟

فصاحت جانين: ـ لا أدري، لا أستطيع أن أخترع. أقول لك إنّي لا أعرف.

ـ لا تصرخي! فلست أصمّ.

وتوقّفت العربة فجأة، فسمع أنّها كانت تتمخّط.

ـ ما بكِ؟ إنّك توقفينني في منتصف الطريق؟

وأخذت العجلات تتدحرج على البلاطات غير المستوية. وعاد يقول:

ـ ومع ذلك، فقد قالوا لنا مرارًا بأنّ علينا أن نتجنّب السفر بالقطار. .

وحدث شخير مقلق فوق رأسه، فصمت: كان يخشى أن تأخذ في البكاء. وكانت الشوارع تغصّ بالمرضى في تلك الساعة. سيكون جميلاً ذلك الفتى الذي تدفعه ممرّضة تبكي. ولكنَّ فكرة جاءته، فلم يستطع الامتناع عن أن يدمدم:

ـ إنّني أشمئزّ من المدن الجديدة.

لقد قرّروا كلّ شيء، وقد أرادوا أن يضَّطلعوا بكلّ شيء، وكانوا يملكون الصحّة، والقوّة، والفراغ؛ لقد صوّتوا، واختاروا رؤساءهم، وكانوا واقفين، وكانوا يركضون في كلّ مكان بهيئاتهم المهتمّة المنشغلة، وكانوا يدبّرون فيما بينهم مصير العالم، وخاصّة مصير المساكين المرضى الذين هم صبيان كبار. وهذه هي النتيجة: الحرب، إنّ هذا عظيم. لماذا يجب عليّ أن أدفع ثمن حماقاتهم؟ لقد كنت أنا مريضًا، فلم يسألني أحد رأيي! أمّا الآن، فهم يتذكّرون أنّي موجود وهم يريدون أن يجرّوني في أقذارهم. سيأخذونني من إبطيّ ومن إبضيّ وسيقولون لي: «عفوًا، المعذرة، إنّنا نخوض الحرب». وسيضعونني في مكان يشبه الطين، حتى لا أحاول أن أزعج لعبة مجزرتهم. ونفر فجأة إلى شفتيه السؤال الذي كان يُمسكه منذ نصف ساعة. ستكون به سعيدة جدًّا، ولكن فليكن: فلا بدَّ من

أنْ يخرج السؤال هذه المرّة.

ـ اسمعي.. هل سترافقنا الممرِّضات؟

قالت جانين: ـ نعم. بعضهنّ.

ـ و.. أنتِ؟

قالت جانين: ـ كلّا. أنا لا.

فأخذ يرتجف، وقال بصوت أبحّ: ـ إنّك تتركيننا؟

ـ لقد عيّنوني في مستشفى دنكرك.

قال شارل: ـ حسنًا، حسنًا! جميع الممرِّضات سواء، أليس كذلك؟

فلم تجب جانين، فاستقام ونظر حوله. كان رأسه يتهادى من تلقاء نفسه يسارًا ويمينًا، ويمينًا ويسارًا. وكان هذا متعبًا جدًّا. أحسّ بدغدغة جافّة في أعماق عينيه. وكانت عربة تسير في اتّجاههم يدفعها عجوز طويل أنيق. وعلى آلة التثبيت، كانت امرأة شابّة ذات وجه مجوّف وشعر ذهبيّ، وقد أُلقي على ساقيها معطف رائع من الفرو. نظرت إليه لحظة، ثم ردّت رأسها إلى الخلف، وتمتمت بضع كلمات صعدت في وجه العجوز المنحني فوقها. وسأل شارل:

ـ من هذه؟ إنّي أراها منذ وقت طويل.

ـ لا أدري. أظنّ أنّها فنّانة مسرح. لقد كسرت ساقًا، ثم ذراعًا.

ـ هل تعرف؟

ـ ماذا؟

ـ أعني، هل يعرف المرضى أنّهم سيُنقلون؟

ـ لا أحد يعرف، لقد منع الطبيب ترديد ذلك.

فقال ضاحكًا: ـ هذا مؤسف. فربّما أصبحتْ أقلّ كبرياء.

قال پيار قبل أن يصعد إلى العجلة: ـ ضُخّ هنا ضخّةً من المُبيد. ففيه رائحة حشرات.

فضخّ العربي بوداعة بعض المبيد على أغطية الأريكة البيضاء وعلى وسائدها، وقال: ـ هكذا.

فقطّب پيار حاجبيه: ـ هِمْ!

فوضعت «مود» يدها على فمه، وقالت بلهجة ابتهال:

ـ هس، هس! حسنٌ هكذا.

ـ فليكن. ولكن إذا أصابتكِ براغيث، فلا تأتي لتستغيثي بي!

ومدّ لها يده ليعينها على الصعود، ثم جلس بالقرب منها. وخلّفت أصابع مود الهزيلة حرارة جافّة وحيّة في جوف راحته: كانت لها دائمًا درجة حرارة. وقال بجفاء: ـ سوف تتنزّهنا حول الأسوار.

مهما قيل، فإنّ الفقر يخلِّف الابتذال. وقد كانت «مود» مبتذلة، وكان هو يكره الماسونيّة التي تشدّها إلى الحوذيين والحمّالين والأدلّة وصبيان المقاهي: فقد كانت تعطيهم الحقّ دائمًا، وإذا أُخذوا بذنبهم، تتدبّر أمرها دائمًا لتجد لهم الأعذار.

وساط الحوذي حصانه، فتدحرجت المركبة وهي تصرّ. فقال پيار ضاحكًا: ـ أيّة عجلة دون! إنّني أخشى دائمًا أن ينكسر فيها محور!

وكانت مود تطلّ إلى الخارج، وتنظر إلى كلّ شيء بعينيها الجادّتين المهتمّتين.

ـ إنّها نزهتنا الأخيرة.

فقال: ـ أجل! أجل!

وأحسّت بأنّها شاعريّة، لأنّ هذا هو اليوم الأخير وأنّنا سنستقلّ الباخرة غدًا. وكان ذلك مزعجًا، ولكنّه أكثر احتمالاً لصمتها وتأمّلها منه لجذلها. لم تكن جميلة جدًّا، وحين كانت تريد أن تُظهر دلالاً أو حيويّة، فإنّ ذلك كان ينقلب فورًا إلى كارثة. وفكّر: يكفي تمامًا هكذا. سيكون هناك يوم الغد وأيّام الرحلة الثلاثة في اجتياز البحر حتى إذا بلغا مرسيليا،

مساء الخير، وكلّ يمضي في وجهته. وسُرّ لأنّه حجز سريرًا في الدرجة الأُولى: فإنّ النساء الأربع كنّ يسافرن في الدرجة الثالثة؛ وسوف يدعوها إلى غرفته حين يرغب فيها، ولكنّها، لخجلها، لن تجرؤ على الصعود إلى الدرجة الأولى إذا لم يأتِ لمرافقتها، وسأل:

ـ هل حجزتنّ أمكنتكنّ في الباص؟

فبدا على مود بعض الانزعاج:

ـ قرّرنا أخيرًا ألّا نستقلّ الباص. فسوف ينقلوننا بالسيّارة إلى «كازا».

ـ من؟

ـ أحد معارف «روبي»، وهو سيِّد مسنّ لطيف جدًّا، سينعطف بنا من طريق «فاس».

فقال بأدب: ـ مع الأسف.

كانت المركبة قد غادرت مراكش، وهي تمرّ في وسط المدينة الأوروبيّة. وكانت الأرض الشاسعة أمامهم تفسُد بصفائحها المبقورة ومعلّباتها الفارغة. وكانت المركبة تُسرع بين مكعّبات كبيرة بيضاء ذات زجاج ملتمع؛ ووضعت مود نظّارتها السوداء، وكان وجه بيار يكزّ قليلاً بسبب الشمس. لم تكن المكعّبات المرصوصة بهدوء إلى جانب بعضها بعضًا، لتثقل على الصحراء؛ فلئن هبّت الرِّيح طارت. وكانت قد عُلّقت على إحداها صفيحة مرشدة: «شارع المارشال ليوتي»، ولكن لم يكن ثمّة شارع؛ وإنّما ذراع صغيرة من الصحراء مزفّتة بين الأبنية. وكان ثلاثة من السكّان المحلّيين ينظرون إلى المركبة وهي تمرّ، وكان أصغرهم ذا عين بيضاء. استوى بيار قليلاً ورماهم بنظرة حادّة. على المرء أن يُظهر قوّته حتى لا يكون مضطرًّا لاستعمالها، عبارة لم تكن مفيدة للسلطات العسكريّة فحسب، بل كانت تُملي على المعمِّرين، بل وحتى السائحين العاديين، مسلكهم. ولم يكن ضروريًّا أن يستعرض المرء قوّته استعراضًا كبيرًا: بل

حسبه بكلّ بساطة ألّا يسترخي، وأن يستقيم في جلسته. واختفى الضيق الذي كان يضغط عليه منذ الصباح. لقد شعر، تحت العيون البليدة في وجوه هؤلاء العرب، أنّه كان يمثّل فرنسا. وقالت «مود» فجأة:

ـ ماذا ترانا سنجد حين نعود؟

فشدّ على قبضتيه دون أن يجيب. المعتوهة: لقد ردّت له قلقه دفعة واحدة، وكانت تلحّ:

ـ ربّما كانت الحرب قائمة. فلك الرحيل، ولي البطالة.

وكان يشمئزّ من سماعها وهي تتحدّث عن البطالة بهذه اللهجة الجادّة، كأنّها عامل. ومع ذلك، فقد كانت عازفة الكمان الثانية في جوقة «بابيز» النسائيّة، التي كانت تقوم برحلات في البحر المتوسط والشرق الأدنى: وكان بالإمكان اعتبار ذلك مهنة فنّيّة. وقال بحركة انزعاج:

ـ أرجوك يا «مود»، ليتنا لا نتكلّم على الأحداث لمرّة واحدة، فهل تسمحين، إكرامًا لي؟ إنّ هذه آخر أمسية لنا في مراكش.

فالتصقت به: ـ صحيح. هذه آخر أمسية لنا.

ولامس شعرها؛ ولكنّه ظلّ يحتفظ بهذا المذاق المرّ في فمه. لم يكن ذلك خوفًا، كلّا؛ فقد كان ثمّة من يعتمد عليه، وكان واثقًا من أنّه لن يخاف أبدًا. بل كان ذلك... زوال أوهام.

وكانت المركبة قد بلغت الأسوار. وأرته «مود» بابًا أحمر كانت تُرى فوقه رؤوس نخيل خضراء.

ـ أوه! هل تذكر يا پيار؟

ـ ماذا؟

ـ منذ شهر تمامًا. لقد التقينا هنا.

ـ آه! نعم..

ـ هل تحبّني؟

وكان لها وجه صغير هزيل، ناتئ العظام بعض الشيء، وعينان كبيرتان وفمٌ جميل.

ـ نعم، أحبّك.

ـ قل ذلك بطريقة أفضل.

فانحنى عليها وقبّلها.

وكان الغضب باديًا على العجوز، كان ينظر إليهما وهو يقطّب حاجبيه الكثيفين. وقال بصوت حاسم: «مذكَّرة! هذه نتيجة التنازلات كلّها!» وهزّ هوراس ويلسون رأسه، وكان يفكِّر: «لماذا يمثِّل المهزلة؟» ألم يكن شمبرلن يعرف أنّه ستكون ثمّة مذكَّرة؟ أو لم يُقرِّر كلّ شيء مساء أمس؟ ألم يتّفقا على هذا الإخراج كلّه حين بقيا وحيدين وجهًا لوجه مع هذا المنافق المزيّف الدكتور شميت؟

ـ خذها بين ذراعيك، صغيرتك «مود»، فإنّها تشعر بالكآبة هذا المساء.

وأحاطها بذراعيه، فأخذت تتكلّم بصوت طفولي دقيق.

ـ إنّك لا تخشى الحرب، أنت؟

فأحسّ برعشة مزعجة لدى رقبته: ـ يا صغيرتي المسكينة، لا، لست أخشاها. إنّ الرجل لا يخشى الحرب.

قالت: ـ ولكنّي أؤكّد لك أنّ لوسيان كان يخشاها. بل إنّ هذا ما نفّرني منه؛ فقد كان هلوعًا أكثر ممّا ينبغي.

وانحنى فقبّلها في شعرها: وكان يتساءل لماذا أخذته الرغبة فجأة في أن يصفعها.

وتابعت: ـ أوّلاً، كيف يستطيع رجل أن يحمي امرأة، إذا قضى وقته كلّه وهو خائف؟

قال بلطف: ـ إنّه لم يكن رجلاً. أمّا أنا فإنّي رجل.

وأخذت وجهه بين يديها وأخذت تتكلّم وهي تلامسه:

ـ نعم، كنت رجلاً يا سيِّدي، نعم كنت رجلاً. فبشعرك الأسود ولحيتك السوداء كنت تبدو وكأنّك في الثامنة والعشرين.

وتخلّص؛ وكان يشعر بأنّه رقيق مائع، وكان غثيان يصعد من معدته إلى حلقه، ولم يكن يعرف ما الذي يثير أكثر اشمئزازه من هذه الصحراء الملتمعة وهذه الجدران الطينيّة الحمراء، وهذه المرأة التي كانت تقبع بين ذراعيه. ذلك أنّني مللت المغرب! كان يودّ لو يكون في «تور»، في بيت أسرته، ويودّ لو أنّ الوقت صباح، ولو أنّ أمّه تأتي حاملةً له فطوره إلى السرير. حسنًا، ستهبط إلى صالة الصحافيِّين، هكذا قال لنفيل هندرسون، وستعلن أنّني نزولاً عند طلب المستشار هتلر، سأتوجّه إلى فندق دريسن حوالى الساعة الثانية عشرة والنصف.

وقال: ـ أيّها الحوذيّ! أيّها الحوذيّ! عُد إلى المدينة من هذا الباب.

فسألت «مود» مندهشة: ـ ماذا دهاك؟

فقال لها بعنف: ـ لقد مللت الأسوار، وقد مللت الصحراء، وقد مللت المغرب!

ولكنّه ما لبث أن ضبط أعصابه، فأخذ ذقنها بين أصبعيه، وقال:

ـ إذا كنت عاقلة هادئة، فسوف نشتري لك بابوجًا.

لم تكن الحرب في موسيقى ميدان ترويض الخيل، ولا في الحانات الصاخبة القائمة في شارع روشتوار. ليس ثمّة هبّة ريح. كان موريس يرشح عَرَقًا، ويُحسّ فخذ نينيت الحارّ لصق فخذه. سنلعب لعبة صغيرة بالورق ثم ينتهي الأمر. لم تكن في الحقول، في اهتزاز الهواء الساخن فوق السياج، في زغردة العصافير المستديرة والبيضاء، في ضحكة مارسيل؛ لقد قامت في الصحراء حول جدران المغرب. كانت ريحٌ حارّة حمراء قد هبّت، وكانت تدور حول العربة، وتعدو فوق أمواج البحر الأبيض المتوسّط، وتصفع

ماتيو على وجهه؛ وكان ماتيو يتجفّف على الشاطئ الخالي، ويفكِّر: «حتى ولا هذا!» وكانت ريح الحرب تهبّ عليه.

حتى ولا هذا! كان الطقس باردًا بعض الشيء، ولكنّه لم يكن راغبًا في العودة على التوّ. وكان الناس قد غادروا الشاطئ واحدًا بعد الآخر؛ فقد كانت تلك ساعة العشاء. وحتى البحر كان قد أخلى سكّانه، وكان قابعًا مستقرًّا، مقفرًا ومتوحِّدًا، نورًا كبيرًا منهارًا، وكان المقفز الأسود للتزلّج المائي يثقبه كرأس صخرة.

وكان ماتيو يفكِّر: «حتى ولا هذا!» كانت تشتغل الصوف، وكانت النافذة مفتوحة، وهي بانتظار رسائل جاك. وهي سترفع أنفها بين وقت وآخر، يداعبها أمل غامض؛ كانت تبحث بنظرها عن بحرها. بحرها: عوّامة، مقفز، وبعض الماء الذي يصطدم بالرمل الحارّ. حديقة صغيرة هادئة على قد الرجال، مع بعض الجادات الواسعة والممرّات التي لا تُحصى، وفي كلّ مرّة ستأخذ صوفها من جديد بالخيبة نفسها: لقد غيّروا لها بحرها. لقد جذبت الضاحية الخلفيّة المقنفذة بالحراب والمحمّلة بالمدافع، جذبت الساحل إليها؛ وانحسر الماء والرمل وراح كلّ منهما يتابع على حدة حياة كئيبة. وكانت ثمّة أسلاك شائكة تثلم الحواجز الحجريّة البيضاء بظلالها المنجَّمة، ومدافع في المنتزهات، بين أشجار الصنوبر؛ وحرسٌ أمام المقاصير؛ وسوف يجتاز ضبّاط بلا وعي هذه المدينة المائيّة الحزينة. وسوف يعود البحر إلى وحدته. فالسباحة مستحيلة: وسوف يتّخذ الماء، إذ يحرسه عسكري، مظهرًا إداريًّا عند الشاطئ؛ ولن يكون المقفز والعوّامة بعد على بعدٍ معقول من الأرض؛ وسوف تنمحي جميع الدروب التي رسمتها أوديت على الأمواج منذ طفولتها. ولكنّ البحر، البحر المتلاطم، اللّاإنساني، سيكون ضدّها بمعاركه البحريّة التي تقوم على بُعد خمسين ميلاً من مالطة، وبعناقيده من البواخر المغرقة بالقرب من باليرمو، وبأعماقه التي تحرسها أسماك حديديّة؛ سوف تكتشف

في كلّ مكان من الأمواج حضورها الثلجي. وسيرتفع البحر العالي إلى الأفق كجدار بلا أمل. ونهض ماتيو، كان قد جفّ؛ وأخذ يفرك تبّانه بباطن يده، ففكّر: «لا بدّ أن تكون مزعجة جدًّا، هذه الحرب!» وبعد الحرب؟ سيكون ثمّة أيضًا بحر آخر. بحر المهزومين؟ بحر الهازمين؟ بعد خمس سنوات، أو بعد عشر، ربّما كان هنا، ذات مساء من أيلول، في الساعة نفسها، جالسًا على هذا الرمل نفسه، أمام هذه الكتلة الضخمة من الجلاتين، وستمسح هذه الأشعّة الحمراء نفسها سطح الماء. ولكن ما عساه سوف يرى؟

نهض وتدثّر بمئزره. وكانت أشجار الصنوبر، على الرصيف، قد اسودّت تجاه السماء. ألقى نظرة أخيرة على البحر، إنّ الحرب لم تنفجر بعد؛ كان الناس يتعشّون باطمئنان في مقاصيرهم؛ ليس ثمّة مدفع، ولا جنديّ، ولا أسلاك شائكة.. كان الأسطول في الميناء، في بيزرت وطولون؛ وكان ما يزال مسموحًا بعد برؤية البحر مزدهرًا، بحرُ أمسية من آخر أماسي السلام. ولكنّه ظلّ جامدًا محايدًا: فإنّ مِساحة كبيرة من الماء المالح المتحرِّك قليلاً، لا تعني شيئًا. وهزّ كتفيه ورقي الدرجات الحجريّة: منذ بضعة أيّام، كانت الأشياء تتركه واحدًا بعد الآخر. وكان قد فقد الروائح، جميع روائح «الجنوب» ثم الأذواق. والآن جاء دور البحر. «كالجرذان التي تترك الباخرة الموشكة على الغرق». وحين يجيء يوم الرحيل، سيكون جافًّا كلّه، فلا يبقى له شيء يتحسّر عليه. وعاد بخطى بطيئة إلى المقصورة، وقفز پيار خارج العربة وقال:

ـ تعالي، سنشتري لك بابوجًا.

دخلا السوق. وكان الوقت متأخِّرًا؛ وكان العرب يستعجلون الوصول إلى ساحة جامع الفنا قبل مغيب الشمس. أحسّ پيار بأنّه كان أوفر فرحًا، فقد خلّف ذهاب الناس وإيّابهم أثرًا مريحًا في نفسه. وكان ينظر إلى النساء المحجّبات، وحين كنّ يبادلنه نظرته، كان يتذوّق جماله في عيونهنّ،

وقال: ـ انظري. هذه بوابيج.

كان يوجد كلّ شيء في العرض؛ كان دكّانًا للأقمشة والعقود والأحذية المطرّزة. وقالت مود: ـ ما أجمل ذلك! لنقف هنا.

غمست يديها في هذا الخليط العجيب. فابتعد بيار قليلاً: إنّه لم يكن يريد أن يظهر أمام العرب بمظهر الأوروبي الذي يستغرقه تأمّل الزينة النسويّة. وقال بشرود: ـ اختاري، اختاري ما تشائين.

كانت تُباع على البسطة المجاورة كتب فرنسيّة، فتسلّى بتقليب أوراقها. وكان فيها خليط من الروايات البوليسيّة والقصص السينمائيّة. كان يسمع إلى يمينه صلصلة الخواتم والعقود تحت أصابع مود، فسألها من فوق كتفيها:

ـ هل تجدين طلبك؟

ـ إنّني أبحث، إنّني أبحث. يجب أن أفكّر.

وعاد إلى القراءة. وتحت ركام من «تكساس جاك» و«بيفالوبيل» اكتشف كتابًا ذا صور. وكان مؤلّفًا للكولونيل بيكو عن جرحى الوجه؛ كانت الصفحات الأولى مفقودة، بينما الأخرى مطويّة. وأراد أن يضعه بسرعة، ولكنّ الأوان كان قد فات: فقد انفتح الكتاب من تلقاء نفسه؛ ورأى بيار رأسًا فظيعًا لم يكن من الأنف حتى الذقن إلّا ثقبًا، بلا شفتين ولا أسنان؛ وكانت العين اليمنى مقتلعة، وندبةٌ عريضة تخيط الخدّ الأيمن. وكان الوجه المعذَّب يحتفظ بمعنى إنسانيّ، هيئة ضاحكة بطريقة دنيئة. كان بيار يحسّ حكاكًا مثلوجًا على جلدة رأسه كلّه، ويتساءل: كيف وصل هذا الكتاب إلى هنا؟

قال البائع: ـ كتاب جميل.. وسوف تتسلّى!

وأخذ بيار يقلّب الصفحات، فرأى أشخاصًا بلا أنف أو بلا عينين أو بلا أجفان مع مُقَل جاحظة، كما يبدو ذلك في اللوحات التشريحيّة. كان

مسحورًا، وكان ينظر إلى الصور واحدة واحدة، ويردِّد في نفسه: ولكن كيف وصل إلى هنا؟ وكان أفظعَ ما رأى رأسٌ بلا فكّ أسفل؛ وكان الفكّ الأعلى قد فقد شفته، فكشف عن لثّة وأربعة أسنان. وفكَّر، إنّه يعيش. إنّ هذا الشخص حيّ. ورفع عينيه: فعكست صورتَه مرآةٌ متقطعة في إطارٍ مذهَّب: ونظر إلى صورته في رعب.. قالت مود:

ـ پيار، تعال انظر، لقد وجدت..

تردّد. كان الكتاب يحرق يديه، ولكنّه لم يكن يستطيع أن يقرِّر رميه بين الكتب الأخرى، والابتعاد عنه، وإيلاءه ظهره. وقال: ـ أنا قادم.

وأومأ إصبعه إلى الكتاب، وسأل البائع:

ـ كم ثمنه؟

كان الفتى يتنزّه كالنِّمر في المكتب الصغير. وكانت إيرين تضرب مقالاً هامًّا عن مساوئ النظام العسكريّ. توقّفت ورفعت رأسها:

ـ إنّك تصيبني بالدوار.

قالَ فيليب: ـ لن أذهب، لن أذهب قبل أن يستقبلني...

فأخذت تضحك.

ـ ما أعقدك! هل تريد أن تراه؟ حسنًا. إنّه هناك، خلف الباب؛ فليس لك إلّا أن تدخل فتراه.

قال فيليب: ـ تمامًا.

وخطا خطوة إلى الأمام، ثم توقّف.

ـ إنّني.. سيكون الأمر عديم الحكمة، وسوف أضايقه. أوه! إيرين، أتريدين أن تعودي فتسأليه؟ مرّة أخيرة، أقسم لك أنّها المرّة الأخيرة.

قالت: ـ كم أنت سام! لا تهتمّ بعد بالأمر. فإنّ «بيتو» شخص قذر: أما آن لك أن تفهم أنّ من حظّك أنّه لا يريد بعد أن يراك؟ إنّ ذلك لن يعود عليك بغير الشرّ.

قال هازئًا: ـ آه! بغير الشرّ! هل بالإمكان أن يضرّني أحد؟ الحقّ أنّكِ لا تعرفين أهلي: إنّهم يملكون جميع الفضائل، وهم لم يَدَعوا لي إلَّا جانب «الشرّ».

فنظرت إيرين في عينيه:

ـ وهل تتصوّر أنّني لا أعرف ما الذي يريد منك؟

فاحمرّ وجه الفتى، ولم يجب. فقالت وهي تهزّ كتفيها:

ـ أوه، وبعد...

قال فيليب بصوت مبتهل: ـ اذهبي فاسأليه ثانية يا إيرين، اذهبي فاسأليه ثانية. قولي له إنّني أوشك أن أتّخذ قرارًا حاسمًا.

ـ إنّه لا يكترث بذلك.

ـ اذهبي فقولي له مع ذلك.

ودفعت الباب ودخلت من غير أن تدقّه. فرفع «بيتو» رأسه وكزّ وجهه، وقال بصوت راعد: ـ ماذا هناك؟

ولم يكن يخيفها، فقالت: ـ اسمع، لا حاجة بك إلى الصراخ. إنّه الصبيّ، وقد مللت أن يظلّ بين ذراعيّ: فهل يزعجك أن آتيك به دقيقة؟

قال بيتو: ـ لقد قلت لا.

ـ يقول إنّه سيتّخذ قرارًا حاسمًا.

ـ وما عسى ذلك أن يعنيني، أنا؟

فقالت بنفاد صبر: ـ آه! تدبّر الأمر، فأنا سكرتيرتك، ولست مرضعته.

قال والشرر يتطاير من عينيه: ـ حسنًا، فليدخل! آه، سيتّخذ قرارًا حاسمًا! آه! سيتَّخذ قرارًا حاسمًا! حسنًا، أمّا أنا فسأقوم بعمليّة إعدام حاسم!

فضحكت وعادت إلى فيليب:

ـ ادخل.

فهرع الفتى، ولكنّه توقّف عند عتبة المكتب بهيئة تقى، فوجب عليها أن تدفعه ليدخل. وأغلقت الباب خلفه وعادت تجلس إلى طاولتها. وسرعان ما انبعث الصراخ من الجهة الأخرى للحاجز. فأخذت تضرب على الآلة بغير اكتراث: كانت تعرف أنّ فيليب قد خسر القضيّة. كان يمثّل دور المعْتقين، وكان فاغر الفم أمام بيتو، وقد أراد هذا الأخير أن يفيد منه ليستقدمه لمجرّد اللؤم: فإنّه لم يكن حتى لوطيًّا. وقد أصيب الفتى في آخر لحظة بالرعب. لقد كان كجميع الصبية، يريد أن يحصل على كلّ شيء من غير أن يعطي شيئًا. وكان يبتهل الآن إلى بيتو ليحتفظ بصداقته، ولكنّ بيتو أبعده عنه. وقد سمعته يصيح: «حُلّ عن ظهري، إنّك جبان صغير، بورجوازيٌّ صغير، فتى ثريٌّ يظنّ نفسه أزعر»، فأخذت تضحك وضربت بضعة أسطر من المقال. «هل يمكن أن تتصوّر حيوانات أشأم من الضبّاط الذين أدانوا دريفوس؟» وفكّرت بمرح: ماذا يأخذ عليهم؟

انفتح الباب وانغلق بصخب. وكان فيليب أمامها. كان قد بكى. وانحنى على المكتب وهو يشهر سبّابته في صدر إيرين، وقال بلهجة وحشيّة: ـ لقد دفعني إلى النهاية. ولا يحقّ لأحد أن يدفع الناس إلى النهاية (وارتدّ برأسه إلى خلف وأخذ يضحك) «ستسمعين حديثًا عنّي!».

قالت إيرين وهي تتنهّد: ـ لا تعذّب نفسك.

أغلقت الممرّضة غطاء الصندوق، اثنان وعشرون زوج حذاء، ولا بدّ أنّه لم يكن لديه عمل كثير يعطيه للسكّاف، فحين كان زوجٌ يفسد، كان يقذفه في الصندوق ويشتري غيره، وأكثر من مئة زوج من الجوارب المثقوبة لدى الكعب وعند الإبهام، وستّ بذلات رثّة في الخزانة، وبيته قذر، كوخ عازب حقيقيّ. وكان بوسعها أن تتركه خمس دقائق، فتسلّلت إلى الممرّ، ودخلت بيت الخلاء فرفعت تنّورتها تاركة الباب مفتوحًا على سعته. قضت حاجتها بسرعة، وهي مرهفة الأذن، متنبّهة لأدنى ضجّة: ولكنّ أرمان فيغيه كان

متمدِّدًا بهدوء، وحيدًا في غرفته، ويداه الصفراوان ترتاحان على الغطاء، وقد قلب رأسه الهزيل ذا اللحية الرماديّة القاسية، والعينين الغارقتين، وكان يبتسم بسمة متحفِّظة. كانت ساقاه القصيرتان تتمدّدان تحت الغطاء. وقدماه تشكِّلان بينهما زاوية من ثمانين درجة، وكانت أظافره ناتئة، أظافر أصابعه الرهيبة التي كان يقصّها بالسكّين كلّ ثلاثة أشهر، والتي كانت منذ خمسة وعشرين عامًا تثقب جميع جواربه. وكانت في فخذيه دمامل صلبة، بالرّغم من أنّه كان يستريح على عجلة من المطّاط عند جانبيه، ولكنّ الدمامل كانت قد كفّت عن النزيف: ذلك أنّه كان ميّتًا. وعلى طاولة الليل، وُضعت نظّارته، ووُضع طقم أسنانه في كوب ماء.

ميّت. وقد كانت حياته هنا، في كلّ مكان، ناجزة لا تُدرك باللمس، قاسية ملأى كالبيضة، حتى إنّ جميع قوى العالم لن تبلغ أن تُدخل فيها ذرّة واحدة، وكانت ذات مسامّ غزيرة، حتى إنّ باريس والعالم كلّه كان يمرّ عبرها، وكانت منتشرة في أربعة أركان فرنسا، متخثِّرة كلّها في كلّ نقطة من الفضاء، سوقًا كبيرة جامدة صارخة، وكانت الصرخات هنا، والضحكات، وصفير المحرِّكات، وانفجار قنابل «شرانبل»، يوم السادس من أيّار ١٩١٧، وهذا الطنين الدامي في رأسه، حين يسقط بين الخندقين، وكانت الضجّة هنا مثلجة، ولم تكن الممرِّضة المترصِّدة لتسمع إلّا همسًا تحت تنّورتها. ونهضت ولم تشدّ مضخّة الماء، احترامًا للموت، وعادت تجلس عند رأس أرمان، مخترقة تلك الشمس الكبيرة الجامدة التي تضيء إلى الأبد وجه امرأة في القارب، يوم العشرين من تمّوز ١٩٠٠، في «لا غراند جات»، كان أرمان فيغيه ميّتًا، وكانت حياته تطفو، وهي تحبس آلامًا جامدة، خطًّا كبيرًا يخترق شهر آذار ١٩٢٢، ألمًا في الجنب، جواهر صغيرة لا تُتلف، قوس قزح فوق محطّة «بيرسي» ذات مساء سبت، لقد أمطرت، البلاط يزلق، ويمرّ راكبا درّاجتين وهما يضحكان، صوت المطر على الشرفة، ذات أصيل خانق من شهر آذار، لحنٌ غجريّ يفجّر الدمع في عينيها،

قطرات ندى تلتمع في العشب. تطاير حمام في ساحة سانت مارك. وبسطت الجريدة، وركّزت نظّارتها على أنفها وأخذت تقرأ: آخر ساعة: «لم يجتمع المستر شمبرلن، بعد ظهر اليوم، مع المستشار هتلر». وفكّرت في حفيدها الذي لا شكّ في أنّه سيذهب، ووضعت الجريدة إلى جانبها وتنهّدت. كان السلام هنا، كقوس قزح، كشمس «لا غراند جات»، كالذراع الشقراء التي يجعّدها النور. سلام ١٩٣٩ و١٩٤٠ و١٩٨٠، سلام الناس الأكبر.. وكانت الممرِّضة تضمّ شفتيها وتفكِّر: «إنّها الحرب»، وكانت تنظر إلى بعيد، وعيناها ثابتتان، وبصرها يمرّ عبر السلام. هزّ شمبرلن رأسه وقال: «طبعًا سأفعل ما بوسعي، ولكن ليس لديّ أمل كبير». وأحسّ هوراس ويلسون أنّ رعشة كريهة تسيل في ظهره، فقال في نفسه: «وإذا كان صادقًا؟» وفكّرت الممرِّضة: «زوجي في حرب ١٩١٤، وحفيدي في حرب ١٩٣٨: وهكذا أكون قد عشت بين حربين». ولكن أرمان فيغيه يعرف أنّ السلام قد وُلد، وسأله شانتال، «لماذا قاتلت، وأنت صاحب تلك الأفكار؟» فأجاب: «لتكون هذه آخر حرب». ٢٧ أيّار ١٩١٩. إلى الأبد. إنّه يستمع إلى بريان الذي يتكلّم، بجسمه القصير فوق المنبر، تحت سماء خفيفة. إنّه ضائع في جمع الحجّاج، والسلام قد هبط عليهم، فهم يلمسونه ويرونه ويصرخون «يعيش السلام» إلى الأبد. إنّه جالس في اللوكسمبورغ، على كرسيّ حديديّ، وهو ينظر أبدًا إلى شجر الكستناء المزهر، والحرب قد انغرست في الماضي، ويمدّ ساقيه القصيرتين، وينظر إلى الأطفال الذين يركضون، ويفكِّر بأنّهم لن يعرفوا أبدًا فظائع الحرب. إنّ السنوات المقبلة طريق ملكيّ هادئ، والزمن يتفتّح كالمروحة. وينظر إلى يديه الهرمتين الساخنتين بالشمس، فيبتسم ويفكِّر: «ذلك بفضلنا. لن تقوم حرب بعد. لا في حياتي، ولا بعدي» ٢٢ أيّار ١٩٣٨. إلى الأبد. كان شارل فيغيه قد مات، ولم يكن ثمّة من يستطيع أن يصوّبه أو يخطِّئه. لم يكن ثمّة من يستطيع أن يغيّر مستقبل حياته الميِّتة، ذلك المستقبل الذي هو

غير قابل للهدم. يوم آخر، يوم واحد، وربّما كانت جميع آماله قد انهارت، إذ يكتشف فجأة أنّ حياته قد انسحقت بين حربين، كما بين المطرقة والسندان. ولكنّه مات يوم ٢٣ أيلول ١٩٣٨، في الساعة الرابعة صباحًا، بعد سبعة أيّام من الإغماء. وكان قد حمل السلام معه. السلام، السلام كلّه، سلام العالم، الذي لا يعفو، والذي يتعذّر مأخذه. ودُقّ جرس المدخل فانتفضت، ولا بدّ أنّها ابنة عمّه «أنجرز»، قريبته الوحيدة، فقد أُبلغت مساء أمس برقيًا، وفتحت لامرأة قصيرة سوداء كان لها فم فأريّ وشعرٌ في الوجه.

ـ إنّني السيِّدة فرشو.

ـ آه! حسنًا جدًّا، يا سيِّدتي.

ـ هل يمكن بعدُ أن نراه؟

ـ نعم. إنّه هنا.

واقتربت السيِّدة فرشو من السرير، فنظرت إلى الخدّين المجوّفين، والعينين الغارقتين وقالت: ـ لقد تغيّر كثيرًا.

الساعة العشرون والنصف في جوان ليبان، الحادية والعشرون والنصف في براغ.

ـ لا تتركوا السمع، سيذاع بلاغ هامّ جدًّا على الفور، لا تتركوا السمع، سيذاع. . .

قال ميلان: ـ انتهى الأمر.

وكان واقفًا في فتحة النافذة. فلم تجب أنّا. وانحنت، وبدأت تلمّ شظايا الزجاج، فوضعت أكبرها في مئزرها وقذفتها من النافذة. كان المصباح قد انكسر، وكانت الغرفة مظلمة زرقاء. قالت أنّا:

ـ أمّا الآن، فسأجري ضربة مكنسة.

وردّدت: ضربة مكنسة ـ وأخذت ترتجف، وقالت وهي تبكي:

ـ سيأخذون منّا كلّ شيء، سيحطّمون كلّ شيء، وسيطردوننا.

قال ميلان: ـ اسكتي. بالله عليك لا تبكي!

ومشى إلى جهاز الراديو، وأدار الأزرار، فأضاءت المصابيح، وقال بلهجة راضية: ـ لم يُصب بشيء.

وفجأة ملأ الصوت الآلي الثاقب الغرفة:

ـ لا تتركوا السمع. سيذاع بلاغ هامّ جدًّا على الفور. لا تتركوا السمع، سيذاع بلاغ هامّ..

قال ميلان بصوت متغيِّر: ـ اسمعي، اسمعي!

كان پيار يمشي بخطى واسعة، وكانت مود تركض بجانبه وهي تشدّ بابوجها تحت ذراعها. كانت سعيدة، وقالت له: ـ ما أجمله! ستُجنّ روبي من الغيرة، لقد اشترت بابوجًا في فاس لا يضاهي نصف هذا. ثم إنّه مناسب جدًّا، فبوسعك أن تلبسه إذ تقفز من السرير، وأنت لست بحاجة حتى لأن تضع فيه يديك، في حين أنّ «البانطوفل» قصّة معقّدة جدًّا. غير أنّ هناك ما ينبغي فعله حتى لا يُفقد: يجب تقويس القدمين، على ما أظنّ وجعل الأصابع هكذا. سوف أسأل خادمة الفندق، وهي عربيّة.

وظلّ پيار على صمته. فقذفته بنظرة قلقة، وأضافت:

ـ كان عليك أن تشتري بابوجًا لك أيضًا، أنت الذي تركض دائمًا عاري القدمين في غرفتك، أتعلم أنّ ذلك يناسب الرجال كما يناسب النساء؟

وتوقّف پيار في منتصف الشارع، وقال لها بصوت هائل: ـ كفى!

فتوقّفت أيضًا مبهوتة: ـ ماذا هناك؟

قال پيار وهو يقلِّدها: ـ هذا يناسب الرجال كما يناسب النساء. كفى! كفى! أنت تعرفين جيِّدًا، ما كنت أفكِّر به بينما كنت أنت تثرثرين! وقد كنت تفكِّرين به مثلي.

أضاف العبارة الأخيرة بقوّة، وأمرّ لسانه على شفتيه وابتسم بسخرية.
أرادت مود أن تتكلّم، ولكنّها نظرت وصمتت، مثلَّجة. واستطرد:

ـ إنّ الناس لا يريدون أن يواجهوا الواقع، ولا سيّما النساء: حين يفكِّرن بشيء، فيجب أن يتحدّثن بسرعة عن شيء آخر. أليس كذلك؟

قالت مود وقد جُنّ جنونها: ـ لقد جُننت يا پيار؟ إنّني لا أفهم شيئًا ممّا تقول. فبِمَ تظنّني كنت أفكِّر؟ وبِمَ تفكِّر أنت؟

أخرج بيار كتابًا من جيبه وفتحه ووضعه تحت أنفها، وقال: ـ بهذا.

وكانت صورة وجه محطَّم. وكان صاحبها فاقد الأنف، وعلى عينه عصابة، فسألته في ذعر:

ـ لقد.. اشتريته؟

قال پيار: ـ نعم، وماذا في ذلك؟ إنّني رجل، ولست أخاف. أريد أن أعرف الوجه الذي سيكون لي في العام القادم.

وكان يلوِّح بالصورة أمام عينيّ مود:

ـ أتراكِ تحبّينني حين أصبح هكذا؟

وكانت تخشى أن تفهم، كان بودِّها أن تمنح كلّ شيء مقابل أن يصمت.

ـ أجيبي! هل تحبّينني؟

قالت: ـ اسكت، أبتهل إليك أن تسكت.

قال: ـ هؤلاء الرجال يعيشون في بيت منعزل في «فال غراس»، وهم لا يخرجون إلّا ليلاً، وعلى وجوههم أقنعة.

أرادت أن تأخذ الكتاب من يده، ولكنّه انتزعه منها ووضعه في جيبه.
فنظرت إليه مرتعشة الشفتين، وكانت تخشى أن تنفجر باكية. فقالت بلطف:
ـ أوه، پيار. هل أنت خائف إذن؟

فصمت فجأة، وحدّجها بعينين بلهاوين. وظلّا لحظة جامدين، ثم قال

بصوت ممطوط: ـ إنّ جميع الرجال يخافون، جميعهم. وليس طبيعيًا من لا يخاف؛ إنّ هذا لا علاقة له بالشجاعة، وأنتِ لا يحقّ لكِ أن تدينيني لأنّك لن تذهبي إلى القتال.

واستعادا سيرهما في صمت. كانت تفكّر: «إنّه جبان!» وكانت تنظر إلى جبينه الكبير الملفوح، وأنفه الفلورنسي، وفمه الجميل، وتفكّر: «إنّه جبان، كلوسيان. لا حظّ لي».

كان صدر أوديت ينبعث في النور، وجسمها يغيب في ظلام غرفة الطعام، وهي ترتفق الشرفة، وتنظر إلى البحر، وكان غرو ـ لويس يفكّر: «أيّة حرب؟». كان يسير، ونور المغيب الأحمر يرقص على يديه، وعلى لحيته، وكانت أوديت تُحسُّ على ظهرها الغرفة الطيّبة المظلمة، والمأوى الطيّب، والخوان الأبيض الذي يلتمع التماعًا خفيفًا في الظلام، ولكنّها كانت منتصبة في النور، وكان النور والمعرفة والحرب تدخل من عينيها، وكانت تفكّر بأنّه سيذهب، وكان الضوء الكهربائي يتجمّد رزمًا في ميوعة النهار الغارب. رزمًا من صفار البيض. وكانت جانين قد برمت معكس التيّار، ويدا مارسيل تتحرّكان في الأصفر تحت المصباح. طلبت ملحًا فشكّلت يداها ظلالاً على الخوان، وقال دانيال: إنّ هذا تضليل، فيجب أن نصمد، وسيُنهي لعبته. النور القاسي يَبْشِر العيون كورق الزجاج، هكذا، في الجنوب، حتى آخر دقيقة. إنّه الظهر، ثم يتدحرج الليل فجأة. وكان پيار يهذر، ويريد أن يقنعها بأنّه قد استعاد هدوءه، ولكنّها كانت تمشي إلى جانبه في صمت، وتحدّق فيه في مثل قساوة النور. وحين بلغا الساحة، خشيت أن يعرض عليها أن تقضي الليل معه، ولكنّه نزع قبّعته وقال ببرودة: ما دمنا سننهض باكرًا في الصباح، وما دام عليك أن تُعدّي الحقائب، فأظنّ أنّ من الأفضل أن تعودي لتنامي مع رفيقاتك. فأجابت: أعتقد أنا أيضًا أنّ ذلك أفضل. قال لها: إلى الغد. قالت: إلى الغد، إلى الغد، على الباخرة.

لا تتركوا السمع، سيُذاع بلاغ هامّ جدًّا، وكان متمدّدًا، ويداه تحت

رقبته، يشعر بأنّه ثمل تقريبًا. وقال: هل تحبّين كثيرًا لعبتك الصغيرة؟. ارتعشت، وقالت: نعم. . ـ وكانت خائفة، ككلّ مساء. أجل، أحبّك كثيرًا! كانت تقبل أحيانًا، وتقول «لا» أحيانًا أخرى، ولكنّها لن تجرؤ هذا المساء. «إذن هل تُداعب اللّعبة الصغيرة قليلاً، مداعبة المساء؟» فتنهّدت، وكانت تشعر بالخجل الشديد، وكان ذلك مسلّيًا. قالت: ليس هذا المساء. فلهث قليلاً، وقال: «مسكينة اللعبة الصغيرة، إنّها مهتاجة جدًّا، وسيعود ذلك عليها بالخير. ألا تريدين، لكي تجعليها تنام؟ لا، لا تريدين؟ أنت تعلمين أنّ ذلك يهدّئني دائمًا. . » وتلبّست سحنة كبيرة الممرّضات، كما كانت تفعل إذ تضعه على الحوض، وأصبح رأسها صلبًا على كتفيه، ولم تكن تغمض عينيها، ولكنّ ذلك كان كأنّما تتدبّر أمرها حتى لا ترى شيئًا، وكانت يداها تفكّان أزراره من تحت، بخفّة يدي اختصاصي، ووجهه الذي كان حزينًا جدًّا، كان ذلك مسلّيًا، ودخلت اليد، عذبة، عجينة من اللوز. وانتفضت أوديت وقالت: لقد أخفتني! هل جاك معك؟. . تنهّد شارل، قال ماتيو لا. قال موريس لا، لا بدَّ ممّا ليس منه بدّ. وكان قد أخذ المفتاح عن اللوحة، إنّ رائحة البول والغوط لا تزال. إنّ ذلك مقرف، وقالت زيزيت: «إنّه طفل السيّدة سلفادور، فهي تلقيه خارجًا حين تستقبل أشخاصًا، وعند ذلك يغوّط في كلّ مكان ليتسلّى».

وصعدا السلّم: «لا تتركوا السمع، سيذاع. . . » وكان ميلان وأنّا منحنيين على الجهاز، وكانت ضجّة انتصار تدلف من النوافذ، قالت أنّا: «اخفضه قليلاً، فيجب ألّا تثيرهم»، واليَد الرقيقة العذبة، العذبة كعجينة من لوز، وتبرعم شارل وازدهر، وتفتّحت الثمرة الضخمة، وكادت القشرة تنفجر، ثمرة مستقيمة نحو السماء، ثمرة ذات عصير، ربيع برمّته ذو عذوبة خانقة، الصمت، صرير الشوكات، وتمزّقات القماش الطويلة في الجهاز، ومداعبة الرّيح للثمرة الضخمة المخمليّة المزغبرة، وقفزت أنّا وشدّت ذراع ميلان:

«أيّها المواطنون،

«قرّرت الحكومة التشيكوسلوفاكيّة التعبئة العامّة، فعلى جميع الذين تقلّ أعمارهم عن ٤٠ سنة، وعلى الاختصاصيين مهما بلغت أعمارهم أن يلتحقوا فورًا بمراكزهم. وجميع الضبّاط وصفّ الضبّاط وجنود الاحتياط وفرق الاحتياط الثانية من جميع الدرجات، وجميع المأذونين يجب أن يلتحقوا من غير تأخير بمراكز تجهيزهم. وعلى الجميع أن يرتدوا ثيابًا مدنيّة مستعملة، وأن يحملوا أوراقهم العسكريّة ومؤنهم لمدّة يومين. والحدّ الأقصى لكي يلتحقوا بمراكزهم هو الساعة الرابعة والنصف صباحًا.

«جميع الشاحنات والسيّارات والطائرات مجنَّدة. بيع البنزين مسموح به بإذن تمنحه السلطة العسكريّة.

«أيّها المواطنون! لقد جاءت اللحظة الحاسمة، والانتصار يتوقّف على كلّ إنسان. فليضع كلّ منكم جميع قواه في خدمة الوطن. ولتكونوا أمناء شجعانًا. إنّ كفاحنا هو كفاح من أجل العدالة والحرّيّة! لتعش تشيكوسلوفاكيا!».

ونهض ميلان، وكان ملتهبًا، ووضع يديه على كتفيّ أنّا وقال لها: ـ وأخيرًا، لقد انتهى الأمر يا أنّا. انتهى الأمر.

وكرّر صوت امرأة القرار باللغة السلوفاكيّة، ولم يكونوا يفهمون بعد شيئًا، إلّا كلمات من هنا وهناك، ولكنّ ذلك كان شبيهًا بموسيقى عسكريّة. وردّدت أنّا «وأخيرًا! وأخيرًا!» وسالت دموع على خدّيها. ثم فهموا من جديد: «Die Regierung hat entchlossen» وكان ذلك بالألمانيّة، وبرم ميلان الزرّ إلى آخره، فأخذ الراديو يهدر، وكان الصوت يسحق على الجدار أغانيهم الكريهة، وضجيجهم الاحتفالي، إنّه سيخرج من النوافذ، وسيحطّم زجاج أسرة جاغر شميت، وسيلحق بهم إلى صالونهم الميونيخي في اجتماعهم العائلي الصغير، وسيثلج عظامهم. وكانت رائحة الغوط

والحليب المحمَّض قد انتظرته، فشمّها بعمق، ودخلت فيه كضربة مكنسة، وكانت تطهّره من عطور شارع رويال النظيفة الشقراء. لقد كانت تلك رائحة البؤس، كانت رائحته. وانزرع موريس أمام باب غرفته، بينما كانت زيزيت تضع المفتاح في القفل، وأوديت تقول بفرح «إلى المائدة، إذن! إلى المائدة. ستكون لك مفاجأة يا جاك!» وكان يحسّ نفسه قويًّا قاسيًا، وقد استعار عالم الغضب والتمرّد؛ وفي الطابق الثاني، كان الصبية يبكون لأنّ والدهم قد عاد ثملاً؛ وفي الغرفة المجاورة، كان يُسمع وقع خطى ماريّا التي كان زوجها، بنّاء السطوح، قد سقط في الشهر الماضي من فوق سطح، وكانت الضجّة والألوان والروائح كلّها تبدو حقيقيّة، وكان قد استيقظ فاستعاد عالم الحرب.

التفت العجوز نحو هتلر، وكان ينظر إلى هذا الوجه الطفوليّ الرديء، هذا الوجه الذبابيّ، فيشعر بأنّه مغتمّ ومغتاظ حتى أعماقه. وكان ريبنتروب قد دخل، فقال بضع كلمات بالألمانية، فأومأ هتلر إلى الدكتور شميت، وقال الدكتور شميت بالإنكليزيّة: «لقد علمنا أنّ حكومة السيِّد بنيش قد أعلنت التعبئة العامّة». فبسط هتلر ذراعيه بصمت كرجل يشكو من أنّ الحادث يعطيه الحقّ. وابتسم العجوز بلطف، وأضاء في عينيه شعاع أحمر. شعاع حرب. وما كان عليه إلَّا أن يبدأ العبوس، كالفوهرر، وما كان عليه إلَّا أن يبسط ذراعيه وكأنّه يقول: «وإذن؟ إنّ الأمر كذلك!» حتى تنهار على الأرض كومة الصحون التي كان يوازنها بين يديه منذ سبعة عشر يومًا، وكان الدكتور شميث ينظر إليه بفضول، ويفكِّر أنّ الأمر يمكن أن يستهويه ليبسط ذراعيه عندما تُحمل كومة من الصحون منذ سبعة عشر يومًا، وكان يفكِّر: «هذه هي اللحظة التاريخيّة»، وبأنّ الأمر قد بلغ ملجأه الأخير، حرِّيَّة عارية تمامًا، حرِّيّة تاجر عجوز في لندن. وكان الفوهرر والعجوز إذ ذاك يتبادلان النظر في صمت، فلم يكن ثمّة حاجة إلى أيّ مترجم. وقام الدكتور شميت بخطوة إلى الوراء.

جلس على مقعد حجريّ في ساحة «جيلو» ووضع القيثارة بالقرب منه. كانت السماء مظلمة زرقاء تحت شجر الدلب، وكان ثمّة موسيقى. كان الوقت مساء، وصواري قوارب الصيد تخرج من الأرض مستقيمة سوداء، ومن الجهة الأخرى من المرفأ، كانت النوافذ تلتمع بالمئات. كان صبيّ يُجري ماء النبع، وعلى المقعد المجاور، جاء زنوج آخرون يجلسون، وحيّوه. لم يكن جائعًا، ولا عطشًا، وقد استحمّ خلف الرصيف، وقد التقى شخصًا طويلاً كثيف الشعر يبدو وكأنّه سقط من القمر، وقد عرض عليه أن يشرب كأسًا. كلّ ذلك، كان حسنًا. أخرج القيثار من علبته، وكانت به رغبة للغناء. لحظة، لحظة واحدة، وسعل وتنحنح، سوف يغنّي بعد لحظة، وكان شمبرلن وهتلر وشميت ينتظرون الحرب في صمت، فهي داخلة بعد لحظة، وكانت القدم قد وَرِمَت، وبعد لحظة سيخرجها من الحذاء، وكان موريس جالسًا على السرير يشدّ بكلّ قواه، وبعد لحظة سينتهي جاك من شرب حسائه، ولن تسمع أوديت بعد هذا الهمس الصغير المزعج، الأسهم الناريّة، تحرّك القنابل التي توشك أن تنطلق؛ وبعد لحظة ستتسرّب الشموس في دوّامة نحو السقف، ولعبتها ستنبعث منها بعد لحظة رائحة الأفسنتين، ثم يُغرق صمغٌ غزيرٌ حارٌّ فخذيه المشلولين، وسيرتفع الصوت غنيًّا رقيقًا عبر أوراق الدلب؛ لحظة، وكان ماتيو يأكل، ومارسيل تأكل، ودانيال يأكل، وبوريس يأكل، وكان برونيه يأكل، وكانت لهم نفوس آنية تملأها حتى الشفة شهوات متخثّرة صغيرة. لحظة وستدخل، مصفّحة بالفولاذ، يخشاها بيار، ويقبلها بوريس، ويرغب فيها دانيال، الحرب، حرب الواقفين الكبرى، حرب البيض المجنونة. لحظة: كانت قد انفجرت في غرفة ميلان، وكانت تفرّ من جميع النوافذ، وتصبّ في صخب عند أسرة جاغر شميت، وتطوف بأسوار مراكش، وتهبّ على البحر، وتسحق بنايات شارع رويال، وتملأ منخري موريس برائحتها، رائحة الغوط والحليب المتخثّر، وفي السهول والإسطبلات وساحات المزارع لم تكن

موجودة، وكانوا يتراهنون عليها بين مرآتين، في صالات فندق دريسن الملبّسة. أمرّ العجوز يده على جبينه، وقال بصوت غير واضح: «حسنًا، إذا شئتم ناقشنا بنود مذكَّرتكم بندًا بندًا». فأدرك الدكتور شميت أنّ عهد المترجمين قد عاد.

اقترب هتلر من الطاولة، وصعد الصوت الجميل الأجشّ في الهواء النقيّ. وقد سمعته في الطابق الخامس من فندق ماسيليا، امرأة كانت تستنشق الهواء الطلق على شُرفتها، فقالت: «غوميز، تعال فاسمع الزنجيّ، إنّه رقيق الصوت!» وفكّر ميلان بساقه فانطفأ فرحه، وشدّ بقوّة على كتف أنّا وقال: «إنّهم لا يريدون منّي شيئًا، فأنا لست صالحًا لشيء بعد». وكان الزنجيّ يغنّي، كان شارل فيغيه قد مات، وكانت يداه الصفراوان تتمدّدان على الغطاء، وكانت المرأتان تسهران عليه وهما تتكلّمان على الأحداث، وقد تعاطفتا على التوّ. وأخذت جانين منشفة إسفنجيّة فمسحت يديها، ثم أخذت تدلّك له فخذيه، وكان شمبرلن يقول: «فيما يتعلّق بالبند الأوّل، لي اعتراضان»، وكان الزنجيّ يغنّي: بي مير، بيست دو شون، وهذا يعني: أنتِ في نظري أجمل النساء.

وتوقّفت امرأتان، وكان يعرفهما، أنينا ودولوريس، مومسان من شارع لاسيدون، فقالت له أنينا: «أنت، إنّك تغنّي؟» فلم يجب. كان يغنّي؛ فابتسمت له المرأتان، ونادت سارة بنفاد صبر: «غوميز، بابلو، آن لكما أن تأتيا! فماذا تفعلان؟ إنّ هناك زنجيًا يغنّي، وإنّه رقيق الصوت».

السبت ٢٤ أيلول

في كريفيلي، حين دقّت الساعة السادسة، دخل الأب كرولار إلى مركز الدرك ودقّ باب المكتب. وكان يفكّر: «لقد أيقظوني». ويفكّر في أنّه سيقول لهم: «لماذا تراهم أيقظوني؟» كان هتلر نائمًا، وشمبرلن نائمًا، وأنفهُ يُحدث موسيقى ناي صغيرة، وكان دانيال قد جلس على سريره، والعرق يسيل منه، ويفكّر: «لم يكن ذلك إلّا كابوسًا».

وقال ملازم مركز الدرك: ـ ادخل! آه، أهذا أنت أيّها الأب كرولار؟..

وأنّت إيفيش قليلاً وتقلّبت على جنبها. وقال الأب كرولار:

ـ إنّ الصغير هو الذي أيقظني. (ونظر إلى الملازم في ضغينة) وقال: لا بدّ أنّ الأمر هامّ...

قال الملازم: ـ آه، أيّها الأب كرولار، يجب أن تشحّم جزمتك!

ولم يكن الأب كرولار يحبّ الملازم، فقال:

ـ إنّني لا أعرف الجزمة، ولا ألبس الجزمة، وإنّما ألبس القبقاب.

ردّد الملازم: ـ يجب أن تشحّم جزمتك، يجب أن تشحّم جزمتك..

فإذا فعلت كنت رشيقًا كالميزان!

ولولا شاربه لكان يشبه فتاة. كان يضع نظّارات، وجنتاه ورديّتان كمعلّمة. كان مائلاً إلى الأمام، مبسوط الذراعين، وهو يستند إلى الطاولة بأطراف أصابعه. كان الأب كرولار ينظر إليه ويفكّر: «إنّه هو الذي جعلهم يوقظونني». وقال الملازم:

ـ لقد قال لك بأن تأتي بوعاء الصمغ، أليس كذلك؟

كان الأب كرولار يمسك بوعاء الصمغ وراء ظهره، فأراه إيّاه في صمت. وسأله الملازم:

ـ والفرشاة؟ يجب أن تعجّل! فليس لديك الوقت للعودة إلى بيتك.

قال الأب كرولار في رصانة: ـ إنّ الفرشاة في سترتي. لقد أيقظوني بصورة مفاجئة، ولكن ما كان لي مع ذلك أن أنسى الفرشاة.

ومدّ له الملازم لفيفة الورق:

ـ ضع نشرة منها على واجهة دار البلديّة، واثنتين في الساحة الكبيرة، وواحدة على بيت كاتب العدل.

قال الأب كرولار: ـ بيت المعلّم بيلوم؟ إنّ لصق الإعلانات هناك ممنوع.

قال الملازم: ـ لا يهمّني!

وكان ثائر الأعصاب، ومرحًا، وقال:

ـ إنّني آخذ ذلك على عهدتي. آخذ كلّ شيء على عهدتي.

ـ أهي التعبئة العامّة حقًّا؟

قال الملازم: ـ حبّذا! فسوف تقع الاشتباكات، أيّها الأب كرولار، ستقع الاشتباكات!

فقال الأب كرولار: ـ أوه! أمّا أنت وأنا، فأظنّ أنّنا سنبقى هنا.

طُرق الباب، فنهض الملازم ليفتحه بخفّة. كان رئيس البلديّة، يلبس

القبقاب، ويضع وشاحه على سترته. قال: ـ ماذا طلب منّي الصغير؟

قال الملازم: ـ ها هي المنشورات.

فوضع رئيس البلديّة نظّارتيه وفكّ اللفيفة، وقرأ بصوت منخفض: «تعبئة عامّة»، ثم وضع المنشورات بسرعة على الطاولة، كما لو أنّه كان يخشى أن تحرقه، وقال: ـ كنت في الحقول، ومررت لآخذ وشاحي.

ومدّ الأب كرولار يده، فلفّ المنشورات ووضع المَدْرَج تحت سترته، وقال لرئيس البلديّة: ـ كنت أقول لنفسي أيضًا: ليس طبيعيًّا أن يوقظني في تلك الساعة المبكرة.

قال رئيس البلديّة: ـ لقد مررت لآخذ وشاحي (ونظر إلى الملازم بقلق) ليس هناك ذكرٌ للمصادرة؟

فقال الملازم: ـ هناك منشور آخر.

قال رئيس البلديّة: ـ تفه! تفه! ها نحن عدنا للحرب!

فقال الأب كرولار: ـ لقد خضت الحرب، أنا. اثنان وخمسون شهرًا بلا جراح.

وثنى عينيه وقد أجذلته الذكرى.

وقال رئيس البلديّة:

ـ حسنًا. لقد خضت الحرب الأولى، فلن تخوض هذه. ثم إنّك لا تكترث أنت بالمصادرات.

وضرب الملازم على الطاولة بقوّةٍ، وقال:

ـ يجب أن نعمل شيئًا. يجب أن نثبت وجودنا.

كان رئيس البلديّة يبدو شاردًا، وقد أدخل يديه في وشاحه وقوّس ظهره، وأوضح:

ـ إنّ ضارب الطبل مريض.

فقال الأب كرولار: ـ إنّني أحسن الضرب على الطبل. وبوسعي أن

أحلّ محلّه. وابتسم: إنّه منذ عشرة أعوام يحلم بأن يكون ضارب طبل.

قال الملازم: ـ ضارب الطبل؟ إنّك ستضرب لنا السلام التوسكاني! هذا ما سوف تعمله!

كان شمبرلن نائمًا، وكان ماتيو نائمًا، ووضع القبائليّ السلّم على الباص.. حمل الصندوق على كتفه، وأخذ يصعد من غير أن يمسك بالقضبان؛ كانت إيفيش نائمة، ودانيال يخرج ساقيه من السرير، وثمّة جرس يقرع على مداه في رأسه! وكان پيار ينظر إلى أخمص قدميْ القبائليّ، المتورِّدتين السوداوين، ويفكِّر: «إنّه صندوق مود» ولكنّ مود لم تكن هناك، فهي ستذهب عمّا قليل مع دوست وفرانس وروبي في سيّارة عجوز ثريٍّ جدًّا كان واقعًا في حبّ روبي. وفي باريس ونانت وماكون، كان ثمَّة رجال يُلصقون على الجدران مناشير بيضاء. وكان السلام التوسكاني يضرب في كريفيلي. وكان هتلر نائمًا، وكان هتلر طفلاً صغيرًا، في الرابعة من عمره، وكانوا قد ألبسوه ثوبه الجديد، ومرّ كلب أسود، فأراد أن يقبض عليه بشبكته المعدّة لصيد الفراشات، وكان السلام التوسكانيّ يضرب. أفاقت السيِّدة ريبوليه مذعورة، وقالت:

ـ إنّ شيئًا ما يحترق.

كان هتلر نائمًا، وكان يقطع بنطلون أبيه قِددًا صغيرة بمقصّ للأظافر، ودخل ليني فون ريفنستال، فلمّ قدد الفانيلّا وقال:

ـ سأطعمك إيّاها في السَلَطة.

وكان السلام التوسكانيّ يضرب، ويضرب، ويضرب. قال موبلان لزوجته: ـ أراهن أنّ المنشرة هي التي احترقت.

وخرج إلى الشارع، فرأته السيِّدة ريبوليه من وراء مصراعها وهي بقميصها الورديّ، رأته يمرّ وينادي الساعي الذي كان يركض. صاح موبلان: ـ هيه! يا أنسلم!

فصاح الساعي: ـ إنّها التعبئة.

سألت السيِّدة ريبوليه زوجها الذي لحق بها:

ـ ماذا؟ ماذا هناك؟ أليس هناك ما يحترق؟

ونظر موبلان إلى المنشورين، وقرأهما بصوت منخفض، ثم استدار وعاد إلى بيته. وكانت زوجته على عتبة الباب، فقال لها: «قولي لپول أن يقرن العربة». وسمع ضجّة فالتفت، فإذا هو «شابان» على عربته، فقال له: «إنّك تركض! فلماذا أنت مستعجل إلى هذا الحدّ؟» فنظر إليه شابان من غير أن يجيب. ونظر موبلان خلف العربة: كانت ثمّة بقرتان تسيران ببطء، مربوطتين من الخلف بأرسان. فقال بصوت منخفض: «يا للحيوانين الجميلين!» قال شابان غاضبًا: «بوسعك أن تقول ذلك، بوسعك أن تقول إنّهما حيوانان جميلان». وكان السلام التوسكانيّ يضرب، وكان هتلر نائمًا، وكان فرينيو الشيخ يقول لابنه: «إذا أخذوا منّي الحصانين وأخذوك، فكيف تراني سأشتغل؟». وكانت نانيت تضرب الباب، فقالت لها السيِّدة ريبوليه: «أهذه أنت يا نانيت؟ استفهمي لنا في الساحة لماذا يضربون السلام التوسكانيّ؟» فأجابت نانيت: «ولكنْ، ألم تعرف السيِّدة بعد؟ إنّها التعبئة العامّة».

ككلّ صباح، كان ماتيو يفكِّر «ككلّ صباح». وكان پيار قد اندفع إلى الزجاج، ينظر عبر النافذة إلى العرب الجالسين أرضًا، أو إلى صناديق ملوّنة تنتظر سيّارة «أورزازات». وكان ماتيو قد فتح عينيه، عينيّ طفلٍ وليد ما يزال أعمى، ويفكِّر: «وما الجدوى؟» ككلّ صباح. صباح إرهاب، سهمٌ ناريّ يُطلق على الدار البيضاء، على مارسيليا، وكان الباصّ الكبير يرجّ تحت قدميه، والمحرِّك يدور، وكان السائق، وهو شخص طويل يرتدي قبّعة من القماش البيج ذات طرفٍ من الجلد، يُنهي تدخين سيجارته في الخارج. وكان يفكِّر: إنّ مود تحتقرني. صباح كَكلّ صباح، آسنٌ فارغ، حفلة يوميّة فخمة ذات نحاس وأبواق وشروق شمس علنيّ. لقد كان في الماضي

أصباحٌ أخرى: بداءات؛ كان المنبِّه يدقّ، وماتيو ينهض فجأة، قاسي العينين، نضرًا، كأنّما يستيقظ على نغمة بوق، ولم يكن ثمّة بعد بداءة، لم يكن ثمّة بعد ما يُعمل. ومع ذلك، فقد كان لا بدّ من النهوض والمشاركة في الحفلة، ورسم دروب وممرّات في هذا الحرّ، والقيام بجميع طقوس العبادة، ككاهن فقد إيمانه. أخرج ساقيه من السرير ونهض، فنزع منامته: «ما الجدوى؟» ثم ترك نفسه يسقط مرّة ثانية على ظهره، عاريًا تمامًا، ويداه تحت رقبته، وكان قد بدأ يميّز السقف، عبر غمامة بيضاء. هالك. هالك تمامًا. في الماضي، كنت أحمل الأيّام على ظهري، فأنقلها من ضفّة إلى ضفّة أخرى، أمّا اليوم، فهي التي تحملني! كان الباص الكبير يرجّ، ويخفق، ويهتزّ تحت الأقدام، وكانت الأرض الخشبيّة تحترق، فيُخيّل إليه أنّ نعليه يتفلّعان، وكان قلب بيار الجبان يرجّ، ويخفق، يخفق عند الوسائد الدافئة. كان الزجاج محرقًا، ومع ذلك فقد كان يشعر أنّه مثلّج، وكان يفكّر: «إنّها تبتدئ» وسوف تنتهي في حفرة بالقرب من سيدان أو ڤردان، وهي الآن مبتدئة. وكانت قد قالت له: «أنت إذن جبان» وهي تنظر إليه نظرة احتقار. وتمثّل الوجه الصغير الرصين المحموم، ذا العينين المظلمتين، والشفتين الرقيقتين، فأحسّ بصدمة في صدره. وأقلع الباص الكبير. وكان الجوّ ما يزال رطبًا جدًّا، وخرجت لويزون كورناي، أخت حارسة الحاجز، وكانت قد جاءت من ليزبو لتساعد أختها المريضة في إدارة بيتها، خرجت إلى الطريق لتذهب فترفع حواجز الممرّ إلى مستواها، وقالت: «كم هو جوّ قارص!» وكان مزاجها صافيًا لأنّها كانت مخطوبة. لقد مضى عامان وهي مخطوبة، ولكن كلّما فكّرت بذلك صفا مزاجها. وأخذت تدير المفتاح الكبير، وفجأة توقّفت. كانت متأكّدة من أنّ ثمّة أحدًا في الطريق، خلف ظهرها، ولم تكن قد فكّرت بأن تتطلّع، وهي خارجة من البيت، ولكنّها كانت متأكّدة من ذلك. والتفتت فانقطع نفَسها: كان ثمّة أكثر من مئة عربة ومركبة وعجلة مصطفّة تنتظر بسكون حادّ. وكان الفتيان

جالسين متصلّبين على المقاعد، والأسواط في أيديهم، والاستياء بادٍ عليهم. وكان آخرون يمتطون الخيل، وغيرهم كانوا قد جاؤوا مشيًا على الأقدام وهم يجرّون خلفهم بقرة مربوطة بحبل. بدا منظرًا غريبًا جدًّا، حتى إنّها خافت. وأسرعت تدير المفتاح وترتّد إلى جانب الطريق. وساط الفتيان خيلهم، فأخذت العربات تسير أمامها، والباص يسير وسط أراضٍ بور حمر، وكان العرب يتحرّكون وراء ظهورهم. قال پيار: «يا للعرب الملاعين، إنّني لا أكون مطمئنًّا حين أشعر بهم خلفي، فأنا أتساءل دائمًا ماذا يدبِّرون»، ثم ألقى پيار نظرة إلى جوف السيّارة: كانوا متجمِّعين في صمت، بألوان خضر ورماديّة، مغمضيّ العيون. وكانت ثمَّة امرأة محجّبة قد استسلمت بين الأكياس والرزم، وقد انقلبت على قفاها، وجفناها مسبلين تحت حجابها. وفكّر پيار: «مهما يكن، فهذا شيء بائس. بعد خمس دقائق سيأخذون في الصياح. إنّ هؤلاء الأشخاص ليسوا شجعانًا».

وكانت لويزون تعرفهم لدى مرورهم، كانوا صبيان كريفيلي، جميع صبيان كريفيلي، وكان بوسعها أن تسمّي كلًّا منهم باسمه، ولكنّهم لم يكونوا يومذاك يظهرون بوجوههم المألوفة. كان بينهم الفتى السمين الأحمر ابن شابان، وقد سبق لها أن رقصت معه في السان مارتان. فصاحت به: «هيه، مارسيل! إنّك لفخور جدًّا!» فالتفت ونظر إليها نظرة مُهدِّدة. وقالت: «هل أنت ذاهب إلى العرس؟» فقال: «أنتِ على حقّ، إلى العرس». اجتازت العربة الخطوط الحديديّة وهي تهتزّ، وثمّة بقرتان تتبعانها، حيوانان جميلان. ومرّت عربات أخرى، وكانت تنظر إليها وهي تظلّل عينيها بيدها. رأت موبلان وتورنوس وكوشوا، ولم يكونوا منتبهين لها؛ كانوا يمرّون وهم جالسون باستقامة فوق مقاعدهم، يحملون سياطهم كأنّها صوالجة، وكانوا يشبهون ملوكًا أشرارًا. انقبض قلبها، فصاحت بهم: «أهي الحرب؟» ولكن لم يجبها أحد. ومرّوا وهم في عجلاتهم المهتزّة المرتجّة، وكانت الأبقار تتبعهم في أبّهة تُثير الضحك. واختفت المركبات الواحدة بعد الأخرى،

خلف المنعطف، فبقيت لحظة، ولا تزال يدها تظلّل عينيها، وهي تنظر في الشمس المشرقة. كان الباص يجري كالرِّيح، ويدور وينعطف وهو يهدر، وفكّرت في جان ماترا، خطيبها، الذي كان يؤدِّي خدمته العسكريّة في أنغوليم، في فرقة من الممهِّدين. وعادت المركبات إلى الظهور، ذبابًا على الطريق الأبيض، ملتصقة بجانب الرابية. ونفذ الباص بين الصخور السمر، فدار ودار، وكان العرب لدى كلّ منعطف يتدافعون ويصيحون «هوش» بصوت مؤثِّر. ونهضت المرأة المحجّبة فجأة، فأطلق فمها الذي لم يكن يُرى تحت الموسلين الأبيض لعنات مريعة، وشهرت فوق رأسها ذراعين ضخمتين كأنّهما فخذان، وكانت يداها الخفيفتان السمينتان بأظافرهما المطليّة ترقصان في طرف ذراعيها، وانتهى بها الأمر إلى أن تنتزع حجابها وتطلّ من الباب، ثم تأخذ في التقيّؤ وهي تئنّ. وقال بيار في نفسه: «حسنًا، حسنًا، سوف يغوِّطون علينا». لم تكن المركبات تتقدّم، وإنّما كانت تبدو مدبّقة على الطريق. ونظرت إليها لويزون طويلاً: كانت تتحرّك، كانت تتحرّك مع ذلك، وكانت تبلغ قمّة الرابية واحدة بعد أخرى، ثم لم تعد تُرى. وتركت لويزون يدها تسقط من جديد، وطرفت عيناها المبهورتان، ثم دخلت لتهتمّ بالصغار. كان بيار يفكِّر في مود، وماتيو يفكِّر في أوديت، وكان قد حلم بها، كلّ منهما يمسك بقامة الآخر، وكانا يغنِّيان لحن «حكايات هوفمان» على ظهر سفينة «بروفنسال». وكان الآن عاريًا يرشح عرقًا فوق سريره. وكان ينظر إلى السقف وأوديت تؤنس وحدته: «إذا لم أمت من الضجر، فهذا بفضلها». وكانت رطوبة مبيضَّة ما تزال ترتجف في عينيه، وطرف من حنان ما يزال يرتعش في قلبه.. حنان أبيض، حنان يقظة حزين صغير، ذريعة لكي يبقى مضطَّجعًا على ظهره لحظات أخرى. بعد خمس دقائق، سيسيل الماء البارد على رقبته وفي عينيه، وزبد الصابون سيفرقع في أذنيه، ومنظّف الأسنان سيعجن لثّتيه، ولن يكون له بعدُ أيّ حنان تجاه أحد. ألوان، أنوار، روائح، أصوات، ثم كلمات، كلمات

ودّيّة، كلمات رصينة، كلمات صادقة، كلمات طريفة، كلمات حتى المساء. ماتيو... بفت! إنّ ماتيو كان مستقبلاً. ليس ثمّة بعد من مستقبل. ليس ثمّة بعدُ من ماتيو إلّا في الحلم، بين منتصف الليل والساعة الخامسة صباحًا. وكان شابان يفكّر: «حيوانان جميلان إلى هذا الحدّ!» الحرب: كان لا يكترث بها، فلا بدّ من الانتظار لنرى. أمّا هذان الحيوانان، فقد كان يُعنى بهما منذ خمسة أعوام، وقد خصاهما بنفسه، وكان ذلك يلوي قلبه. وساط حصانه، ومال به نحو اليسار، واجتازت مركبته مركبة سيمونون، وقال سيمونون: «ماذا تعمل؟» فقال شابان: «لقد مللت، وبودّي لو أصل!» قال سيمونون: «ولكنّك ستتعب دابّتيك»، فقال شابان: «طزّ فيهما الآن!» وكان بودّه أن يصدمهم جميعًا، وكان قد نهض، وهو يطقطق لسانه ويصيح: «هوا هوا!». ألمّ بمركبة بوبول. وجاوز مركبة بولاي. وسأله بولاي: «هل تقوم بالسباق؟» فلم يجب شابان، وصاح بولاي خلفه: «حذار الحيوانين! إنّك تتعبهما!» وفكّر شابان: «أودّ لو ماتا»، وطُرق الباب، وكان شابان قد أصبح مجلّيًا، يتبعه الآخرون ويضربون أفراسهم بداعي التسابق. وكان الباب يُطرق، فينهض ماتيو، وهو يفرك عينيه. وكان الباب يُطرق، وتنحّى الباص ليتفادى صدم عربيّ كان يركب درّاجة ويحمل عليها مسلمة سمينة محجّبة. كان الباب يُطرق، وانتفض شامبرلين وقال: «هولا! ما هذا؟؟ من يطرق الباب؟» فأجاب صوت: «إنّها الساعة السابعة، يا صاحب الدولة». وكان على مدخل الثكنة حاجز خشبيّ. وحارس منتصب أمام الحاجز. شدّ شابان على الأعنّة وصاح: «هُوا! هُوا! باسم الربّ!» فقال الحارس: «حسنًا! حسنًا! من أين أنت قادم، هكذا؟» فقال شابان وهو يشير إلى الحاجز: «هيّا، ارفع هذا». فقال الجنديّ: «ليست لديّ أوامر. فمن أين أنت قادم؟» أقول لك: أن ارفع هذا». وخرج نائب ضابط من مركز الحرس. وكانت جميع العربات قد توقّفت، فتأمّلها لحظة ثم صفّر سائلاً: «ماذا أتيتم تفعلون هنا؟» فقال شابان: «إنّنا معبّأون. يبدو

أنّكم لا تريدوننا بعدُ في هذه الساعة؟ فسأله نائب الضابط: «هل معك الكرّاسة؟» فأخذ شابان يفتّش في جيوبه. ونظر نائب الضابط إلى جميع هؤلاء الفتيان الصامتين العابسين، الجامدين على مقاعدهم، الذين كانوا يظهرون وكأنّهم يقدِّمون السلاح، فأحسّ بالاعتزاز من غير أن يدري السبب. وتقدّم خطوة وصاح: «والآخرون؟ هل يحملون الكرّاسة أيضًا؟ أخرجوا دفاتركم». وكان شابان قد وجد دفتره العسكريّ، فتناوله نائب الضابط وقلب صفحاته، ثم قال: «إنّ معك الكرّاسة رقم ٣ أيّها الممحون. فأنت مستعجل أكثر ممّا ينبغي، وهذه الكرّاسة للمرّة القادمة». فقال شابان «قلت لك إنّني مجنَّد». قال نائب ضابط: «أتراك تعرف ذلك خيرًا منّي؟» فقال شابان غاضبًا: «نعم. لقد قرأت ذلك في النشرة». وكان الفتيان قد نفد صبرهم خلفه، وأخذ بولاي يصرخ: «ألم ننتهِ بعد؟ هل ندخل؟» فقال نائب الضابط: «حسب المنشور. خذ، هذا منشورك. وليس عليك إلّا أن تنظر إليه، إن كنت تعرف القراءة». ووضع شابان سوطه، فقفز إلى الأرض واقترب من الجدار. وكان ثمّة ثلاثة منشورات، اثنان منهما ملوّنان: «تجنّدوا، تجنّدوا من جديد في جيش المستعمرات»، وثالث أبيض: «دعوة فوريّة لعدّة فئات من الاحتياطيِّين». وقرأ على مهل، بصوت منخفض، وقال وهو يهزّ رأسه: «ليس هذا هو الذي وضعوه عندنا». وكان موبلان وبولاي وفرينيو قد ترجّلوا من المركبات، وكانوا ينظرون إلى المناشير، وقالوا: «ليس هذا هو منشورنا». فسألهم نائب الضابط: «من أين أنتم؟» فقال بولاي: «من كريفيلي». قال نائب الضابط: «إذن، لا أعرف، ولكن أفكّر الآن أنّ في مركز كريفيلي للشرطة حمارًا كبيرًا! مهما يكن، أعطوني دفاتركم واتبعوني إلى غرفة الملازم». وفي ساحة كريفيلي الكبرى، أمام الكنيسة، كانت النساء يحطْنَ بالسيِّدة ربوليه التي كانت تُحسن كثيرًا للبلدة، وكان ثمّة ماري وستيفاني وامرأة رئيس المكتب الحكومي للدفع وجان فرينيو. كانت ماري تبكي على مهل، والسيِّدة ربوليه ترتدي قبّعتها الكبيرة

السوداء، وتتكلّم وهي تحرّك مظلّتها: «يجب ألّا تبكي يا ماري، بل يجب أن تضبطي أعصابك. نعم، نعم، يجب أن تضبطي أعصابك. سيعيدونه لك، زوجك، سترين، مع مداليّات وامتيازات. ولعلّه لن يكون هو أشقى الجميع، لو تعلمين! لأنّ الجميع هذه المرّة مجنَّدون، النساء كالرجال».

وصوّبت مظلّتها إلى الشرق، فأحسّت أنّها تستردّ عشرين سنة من شبابها. وقالت: «سترين، سترين! لعلّ المدنيين هم الذين سيربحون الحرب». ولكن ماري كانت قد اتّخذت هيئة البلاهة النتنة، وكان بكاؤها يهزّ كتفيها. كانت تنظر إلى مبنى الأموات، عبر دموعها، وهي تلزم سكوتًا مغيظًا. وقال الملازم: «بأمرك» وكان يشدّ السمّاعة على أذنه ويقول: «بأمرك!»، وكان الصوت الرخو الغاضب يسيل بلا انقطاع: «وتقول إنّهم ذهبوا؟ آه، يا صديقي العزيز، لقد عملت عملاً مستنكَرًا! ولست أخفيك، أنّ هذا عمل جدير أن يطيح بك!» وكان الأب كرولار يجتاز الساحة وهو يحمل دلو الصمغ وفراشيه، وتحت ذراعه لفيفة بيضاء. صاحت به ماري: «ما هذا؟ ما هذا؟» فلاحظت السيِّدة ربوليه بنفاد صبر أنّ عينيها كانتا تلتمعان بأمل بليد. وكان الأب كرولار يضحك منشرحًا، فأشار إلى اللفيفة البيضاء، وقال: «لا شيء. لقد أخطأ الملازم بالمنشورات!» وأعاد الملازم السمّاعة وجلس، مرتخي الساقين. وكان الصوت ما يزال يصدي في أذنيه: «هذا عمل جدير أن يُطيح بك!» ونهض ثانية، فاقترب من النافذة المفتوحة: كان المنشور يتفتّح على الجدار المقابل، طريًّا رطبًا ما يزال، أبيض كالثلج: «تعبئة عامّة». وأخذ الغضب بخناقه، وكان يفكِّر: «لقد طلبت منه أن ينزع هذا أوّلاً، ولكنّه سيتقصّد أن ينزعه أخيرًا» وتجاوز فجأة طرف النافذة، وركض إلى المنشور وأخذ في تمزيقه. وغمس الأب كرولار فرشاته في الصمغ، وكانت السيِّدة ربوليه تنظر إليه يفعل ذلك وهي آسفة، وكان الملازم يحكّ، يحكّ الجدار، وتحت أظافره كرات من العجين الأبيض، وكان بلومار وكورمييه قد بقيا في الثكنة، أمّا الآخرون فقد عادوا

إلى أفراسهم وهم يتبادلون النظر في غير ما اطمئنان. كانت بهم رغبة لأن يضحكوا وأن يغضبوا، وكانوا يُحسُّون أنّهم فارغون كما يحدث في اليوم التالي للتبضّع. اقترب شابان من بقراته وربّت عليها بيده، وكانت أخطامها وصدورها ملأى باللعاب، وفكّر بحزن: «لو كنت عرفت، لما أتعبتها إلى هذا الحدّ». وسأل بولاي من وراء ظهره: «ماذا نفعل؟» فقال شابان: «لا نستطيع أن نعود فورًا. يجب أن ندع الحيوانات تستريح». وكان فرينيو ينظر إلى الثكنة، فيعيد له ذلك ذكريات، وقد لكز شابان بمرفقه وقال وهو يضحك بالخفاء: «قل لي! ما رأيك في أن نذهب؟ «فسأله شابان: «إلى أين تريد أن تذهب يا بنيّ؟» فقال فرينيو: «إلى الماخور!» فالتفّ حوله فتيان كريفيلي وراحوا يطبطبون على كتفيه وهم يضحكون: «فرينيو الملعون! يحمل دائمًا أفكارًا جيِّدة!» وسُرِّي عن شابان نفسه، فقال: أنا أعرف المكان، أيّها الفتيان؛ وليس لكم إلَّا أن تعودوا إلى العربة، وسوف أقودكم!».

الساعة ٨,٣٠: كان متزلِّج يطوف حول المقفز، يجرّه قارب آلي، وكان ماتيو يسمع بين لحظة وأخرى هدير المحرِّك، ثم يبتعد القارب، فيصبح المتزلِّج نقطة سوداء، ولا يُسمع شيء بعد. وكان البحر المنبسط، القاسي، الأبيض يبدو حلبة تزلّج مقفرة. وعمّا قليل سيزرقّ ويخفق ويصبح مائعًا وعميقًا، وسيكون إذ ذاك بحر الناس جميعًا، مليئًا بالصراخ، منقّطًا برؤوس صغيرة سوداء. اجتاز ماتيو السطيحة، وحاذى المتنزّه لحظة. وكانت المقاهي ما تزال مغلقة. ومرّت سيّارتان. كان قد خرج على غير هدف محدّد: ليشتري الجريدة، وليشمّ رائحة الفوْقس والأوكالبتوس التي كانت تنتشر في المرفأ، ثم ليقتل الوقت. كانت أوديت ما تزال نائمة، وكان جاك يشتغل حتى الساعة العاشرة. انعطف في شارع تجاريّ كان يصعد نحو المحطّة، فصادفته فتاتان إنكليزيّتان تضحكان، وكان أربعة أشخاص قد تجمّعوا حول منشور، فاقترب ماتيو: إنّ في ذلك إضاعة لبعض

الوقت. وكان رجل قصير ذو لحية يهزّ رأسه. وقرأ ماتيو:

«بأمرٍ من وزير الدفاع الوطني والحرب ووزير الطيران، يُدعى الضبّاط ونوّاب الضبّاط وأفراد فرق الاحتياط، حاملو أمر التجنيد أو كرّاسته البيضاء ذات الرقم «٢»، إلى السير فورًا ودون إبطاء ومن غير أن ينتظروا إشعارًا فرديًا، للالتحاق بمركز الاستدعاء المسجّل على أمر التجنيد أو الكرّاسة في الظروف التي توضحها هذه الوثيقة. السبت ٢٤ أيلول ١٩٣٨، الساعة التاسعة».

وزير الدفاع الوطني والحرب والطيران».

وقال الرجل بلهجة تأنيب: «تت، تت، تت». فابتسم له ماتيو وأعاد قراءة المنشور بانتباه: كان عبارة عن إحدى تلك الوثائق المضجرة، ولكنّ المفيدة، التي كانت منذ حين من الزمن تملأ الصحف باسم «تصريح من وزارة الخارجيّة البريطانيّة» أو «بلاغ من الكي دورسيه». وكان لا بدَّ من قراءتها على دفعتين لإنجازها. قرأ ماتيو: «للالتحاق بمركز الاستدعاء المسجّل»، وفكّر: «ولكن معي الكرّاسة رقم ٢، أنا!» وفجأة، أخذ المنشور يصوِّب إليه نظره، فكان ذلك كما لو أنّ اسمه كان مكتوبًا بالطبشور على الجدار، مع شتائم وإنذارات. مجنَّد: كان ذلك على الجدار، وربّما كان كذلك يمكن قراءته على وجهه. واحمرّ وجهه، وابتعد بسرعة. «الكرّاسة ٢. تلك هي. إنّني بسبيل أن أصبح إنسانًا ذا أهمّيّة» سوف تنظر إليه أوديت بانفعال مكبوت، وسيتّخذ جاك هيئة يوم الأحد، ويقول له «يا عزيزي، ليس عندي ما أقوله لك». ولكنّ ماتيو كان يُحسّ بأنّه متواضع، ولم تكن به رغبة لأن يصبح إنسانًا ذا أهمِّيَّة. انعطف إلى اليسار في أوّل شارع برز له، وحثّ الخطى: كان على الرصيف الأيمن جمعٌ صغيرٌ معتم يضجّ أمام منشور. في فرنسا كلّها. اثنين اثنين. أربعة أربعة. أمام ألوف من المناشير. ولا شكّ أنّه كان في كلّ جمعٍ شخص على الأقلّ يجسّ محفظته ودفتره العسكريّ عبر قماش سترته، ويحسّ بأنّه يصبح شخصًا ذا

أهمّيّة. شارع «لابوست». منشوران. جمعان. كانوا ما يزالون يتحدّثون عنه. ودلف إلى زقاق طويل مظلم. وكان واثقًا من أنّ المناشير الملوّنة قد وفّرت هذا الزقاق على الأقلّ. كان وحيدًا، ويستطيع أن يفكّر في نفسه. وفكّر: «هكذا». كان كذلك. فهذا النهار المستدير الملآن الذي كان يموت من الشيخوخة، دون ريب، هناك على الساحة، في سلام، كان يتمدّد فجأة كالسهم، فينفذ إلى الليل في ضجّة، ويتسلّل في الظلام، في الدخان، في الأرياف المقفرة، عبر خليطٍ من المحاور والمركبات، فينسرب داخلها، كما لو كان داخل مِزْلَقَة ولن يقف إلّا في آخر الليل، في باريس، على رصيف محطّة ليون. وكانت أنوارٌ كاذبة تلفّ النهار: تلك هي الأنوار المقبلة للمحطّات الليليّة. وكان ألمٌ غامض يلفّ أعماق عينيه: ذلك هو ألم السهد الجافّ القادم. ولم يكن ذلك ليضجره: فهذا أو شيء آخر... ولم يكن ذلك يسلّيه أيضًا: «مهما يكن من أمر، فإنّه من نوع الطُرفة والطابع الجذّاب». وفكّر: «يجب أن أسأل عن موعد قطار مرسيليا». وعاد الزقاق يقوده من جديد على طريق الكورنيش، من دون أن يشعر. وأفضى فجأة إلى نورٍ كبير، فجلس على سطيحة مطعم كان يفتح لساعته. «فنجان قهوة والدليل». وأقبل سيِّد ذو شارب فضّيّ يجلس بالقرب منه. وكانت تصحبه امرأة ناضجة. فتح السيِّد «كشّاف نيس»، والتفتت السيِّدة إلى البحر. نظر إليها ماتيو لحظة، وغدا حزينًا. وفكّر: «ينبغي أن أنظِّم أعمالي. استقدام إيفيش إلى باريس، إلى منزلي، وإعطاؤها وكالةً لتستطيع أن تقبض راتبي». عاد رأس السيِّد يظهر فوق جريدته، وقال: «إنّها الحرب». فتنهّدت السيِّدة من غير أن تجيب؛ ونظر ماتيو إلى وجنتيّ السيِّد الملتمعتين الملساوين، وسترته التويديّة، وقميصه ذي الخطوط البنفسجيّة، وفكّر: «إنّها الحرب».

إنّها الحرب. وانفصل شيء ما لم يكن يتّصل به بعد إلّا بخيط، ثم تكوّم وسقط إلى خلف. كانت تلك حياته؛ كانت ميِّتة. ميِّتة. والتفت ونظر إليها. كان فيغييه ميِّتًا، وكان يبسط ذراعيه على الغطاء الأبيض، وثمَّة ذبابة

تعيش على جبينه. وكان مستقبله يمتدّ على مدى النظر، غير محدود، خارج التناول، ثابتًا كنظره الثابت تحت جفنيه الميِّتين. مستقبله: السلام، مستقبل العالم، مستقبل ماتيو. كان مستقبل ماتيو هنا، مكشوفًا، ثابتًا وزجاجيًا، خارج التناول. كان ماتيو جالسًا إلى طاولة في مقهى، وكان يشرب، وكان وراء مستقبله، ينظر إليه ويفكِّر: «السلام». وأرت السيِّدة فيرشو وجه فيغييه للممرِّضة، وكانت مصابة بتشنُّج العنق، وعيناها تؤلمانها، وقالت: «كان رجلاً شجاعًا»، ثم بحثت عن كلمة، كلمة أفخم تصفه بها. كانت أقرب أقربائه، وعليها أن تقرِّر. جاءت كلمة «هادئ» على لسانها، ولكنّها لم تكن حاسمة بما فيه الكفاية. وقالت: «كان رجلاً سلميًّا» ثم صمتت. وفكّر ماتيو: «لقد كان لي مستقبل سلميّ». مستقبل سلميّ: لقد أحبّ، وكره، وتألّم، وكان المستقبل هنا، حوله، فوق رأسه، في كلّ مكان، كأنّه محيط، وكانت كلّ سورة من سورات غضبه، وكلّ مصيبة من مصائبه، وكلّ ضحكة من ضحكاته تتغذّى من هذا المستقبل الحاضر الذي لا يُرى. إنّ البسمة، مجرّد البسمة، كانت رهنًا على سلام الغد، على سلام السنة القادمة، على سلام العصر؛ وإلاّ لما جرؤت قطّ على الابتسام. كانت سنوات وسنوات من سلام المستقبل قد حطّت سلفًا على الأشياء فأنضجتها وذهّبتها؛ فأن يأخذ المرء ساعته، أو مقبض باب، أو يد امرأة، فذلك يعني أنّه يأخذ السلام بين يديه. وفترة ما بعد الحرب كانت بداءة، بداءة السلم. وكان الناس يعيشونها على غير ما استعجال منهم، كما يعيشون صباحًا. وكان «الجاز» بداءة، والسينما التي أحببتها كثيرًا، كانت بداءة. والسيرياليّة. والشيوعيّة. وكنت متردِّدًا، أتخيّر طويلاً، فقد كانت لي سعة من الوقت. الوقت، السلام: كانا أمرًا واحدًا. أمّا الآن، فإنّ هذا المستقبل هنا، ميِّت عند قدميّ. وكان مستقبلاً زائفًا. خدعة. وكان ينظر إلى هذه الأعوام العشرين التي عاشها بطيئة، مشمسة، سهلاً بحريًا، وكان يراها الآن كما كانت: عددًا محدودًا من الأيّام المضغوطة بين جدارين

عاليين بلا أمل، فترةً مفهرسة، ذات مقدِّمة وخاتمة، ستُذكر في كتب التاريخ تحت عنوان «فترة ما بين الحربين». عشرون عامًا: ١٩١٨ ـ ١٩٣٨. عشرون عامًا فقط! بالأمس، كان ذلك يبدو أقصر وأطول في وقت واحد: ومهما يكن، فما كان لامرئ أن يفكِّر بالعدّ، ما دام ذلك لم يكن قد انتهى. أمّا الآن، فقد انتهى. كان مستقبلاً زائفًا. كلّ ما عاشه الناس منذ عشرين عامًا، عاشوه زائفًا. لقد كنّا مجدّين رصينين، وقد حاولنا أن نفهم، وها نحن ذا: كان لتلك الأيّام الجميلة مستقبل خفيّ أسود، لقد كانت تخدعنا، وكانت حربُ اليوم، «الحرب الجديدة الكبرى» تسرقها من تحتنا. كنّا مخدوعين من أن نعرف، كالأزواج المخدوعين. وها هي الحرب هنا الآن، إنّ حياتي ميِّتة، تلك كانت حياتي. يجب أن نبدأ كلّ شيء من جديد. وبحث عن مستقبل، أيّ مستقبل، ذلك الذي يولد من جديد أوّلاً، في تلك الأمسية التي قضاها في «بيروز»، جالسًا على السطيحة، يأكل مثلّجات بالمشمش وينظر بعيدًا إلى تلّة «أسيز» الهادئة، عبر الغبار. إذن، كان ينبغي أن يكتشف الحرب في احمرار الشمس الغاربة. لو أنّي استطعت أن أتبيّن في الشعاعات الحمر التي كانت تذهِّب الطاولة والإفريز، نذير عاصفة ودم، لكانت هذه الشعاعات ملكي الآن، وكان بإمكاني على الأقلّ أن أنقذ هذا. ولكنّي كنت بلا حذر، وكان المرطّب يذوب على لساني، وكنت أفكِّر «ذهبٌ قديم، حبّ، مجدٌ صوفي» وقد فقدت كلّ شيء. كان الخادم يمرّ بين الطاولات، فناداه ماتيو، ودفع ثم نهض من غير أن يعرف تمامًا ما كان يفعله. وخلّف حياته وراءه، لقد تبدّلت. واجتاز السطيحة، وذهب يرتفق الدرابزون، مواجهًا البحر.

وكان يُحسّ أنّه كئيب خفيف: كان عاريًا؛ لقد سرقوا منه كلّ شيء. لم يبق لي شيء بعد، ولا حتى ماضيّ. ولكنّه كان ماضيًا زائفًا، وأنا لست آسفًا عليه، وفكّر: لقد حرّروني من حياتي. وكانت حياة رديئة فاشلة، مارسيل، إيفيش، دانيال، حياة قذرة، ولكنّ الأمر لديّ الآن سواء،

ما دامت قد ماتت. فمنذ هذا الصباح، منذ ألصقوا هذه المناشير البيضاء على الجدران، أصبحت جميع الحيوات فاشلة، جميع الحيوات ميّتة. فلو فعلت ما كنت أريد، لو استطعت مرّة، مرّة واحدة، أن أكون حرًّا فسيكون الأمر على كلّ حال خِداعًا قذرًا، لأنّني سأكون حرًّا من أجل السلام، هذا السلام الخادع، وكنت أكون الآن هنا، مع ذلك، مواجهًا البحر، مستندًا إلى هذا الدرابزون وخلف ظهري جميع المناشير البيضاء؛ جميع هذه المناشير التي تتحدّث عنّي، على جميع جدران فرنسا، والتي تقول إنّ حياتي قد ماتت، وإنّه لم يكن ثمّة سلامٌ قطّ: فما كانت بي حاجةٌ لأن أجهد هذا الجهد كلّه، ما كانت بي حاجة لأن أشعر بهذا الندم كلّه. البحر، الشاطئ، الخيمات، الدرابزون: باردة، ليس فيها دم. كانت قد فقدت مستقبلها القديم، ولم تكن قد أُعطيت بعد مستقبلاً جديدًا، كانت تطفو في الحاضر. كان ماتوران يطفو حيًّا بعد العاصفة، عاريًا فوق شاطئ، وسط الأسمال الممتلئة بالماء، وسط الصناديق المبقورة، والأشياء التي ليس لها استعمالٌ معيّن والتي لفظها البحر. وخرج شابٌ أسمر من خيمة، وكان يبدو هادئًا فارغًا، فنظر إلى البحر متردّدًا: حيّ بعد العاصفة، إنّنا جميعًا أحياء بعد العاصفة، وكان الضبّاط الألمان يبتسمون ويسلّمون، والمحرِّك يدور، والمروحة تدور.. وحيّا شمبرلن وابتسم، ثم استدار ووضع قدمه على السلّم.

المنفى في بابل، اللعنة على إسرائيل وحائط المبكى، لم يكن قد تغيّر شيء على الشعب اليهوديّ منذ كان أبناؤه يمرُّون مقيّدين بين أبراج آشور الحمر، تحت أنظار الفاتحين القساة ذوي اللحى المجعّدة، وكان شالوم ينطنط وسط هؤلاء الرجال ذوي الشعر الأسود والخصلات الواضحة القاسية. وكان يفكّر بأنّه لم يتغيّر شيء. كان شالوم يفكّر بجورج ليفي. كان يفكّر: إنّنا لا نملك بعد حسّ التضامن فيما بين اليهود، تلك هي اللعنة الإلٰهيّة الحقيقيّة، وكان يشعر أنّه سريع التأثّر من غير أن يكون ذا مزاج

رديء جدًّا، لأنّه رأى على الجدران هذه المناشير البيضاء. وكان قد طلب عونًا من جورج ليفي، ولكنّ جورج ليفي كان رجلاً صلبًا، يهوديًّا ألزاسيًّا: فهو قد رفض، لم يرفض تمامًا، وإنّما هو همدر ولوى ذراعيه، وتحدّث عن أمّه العجوز، وعن الأزمة، ولكنّ الناس جميعًا كانوا يعرفون أنّه يحتقر أمّه، وأنّه لم يكن ثمّة أزمة في مبيع الفراء. وقد أخذ شالوم هو أيضًا يهمدر، ورفع ذراعيه المرتعشتين إلى السماء، وكان قد تحدّث عن الهجرة الجديدة وعن اليهود المساكين المهاجرين الذين تألّموا عن جميع الآخرين، تألّموا في أجسامهم، وكان ليفي رجلاً صلبًا، غنيًّا رديئًا، فإذا هو يهمدر أكثر من ذي قبل، ويدفع شالوم إلى الباب، بيده الضخمة، وهو يزفر في أنفه، وكان شالوم يهمدر وهو يتقهقر، وذراعاه في الهواء، وكانت به رغبةٌ لأن يبتسم، لأنّه كان يفكّر في المزاح الذي كان العمّال يتبادلونه ولا شكّ، خلف الباب. وعند زاوية شارع «كاتر سبتمبر»، كانت تقوم ملحمة برّاقةٍ وغنيّة، فتوقّف شالوم مسحورًا، وهو ينظر إلى الأمصرة المجمّدة، وإلى المعجّنات الجافّة وإلى سبحات المقانق ذات اللون النحاسيّ البرّاق وإلى الأمعاء المنتفخة المجعّدة بشروجها الصغيرة المورّدة، ويفكّر في ملاحم قيينّا. وكان يتحاشى ما وسعه ذلك أن يأكل لحم الخنزير، ولكنّ المهاجرين المساكين مضطرّون إلى أن يتغذّوا بما يجدون. وحين خرج من الملحمة كان يحمل بإصبعه خيطًا ورديًّا مربوطًا بعلبة صغيرة يخيّل إلى الناظر أنّها، لشدّة بياضها ودقّتها، علبة حلويات. وكان مستاءً. كان يفكّر: «إنّ جميع الفرنسيين أغنياء لؤماء» أغنى شعب في أوروبا كلّها. ودلف شالوم إلى شارع «كاتر سبتمبر»، وهو يستنزل لعنة السماء على الأغنياء اللؤماء، فرأى بطرف عينه، كما لو أنّ السماء استجابت لدعوته، فريقًا من الفرنسيين الجامدين البكم أمام منشور أبيض. فحاذاهم وهو يخفض نظره ويقرص شفتيه، لأنّه لم يكن مستحبًّا في هذه اللحظة أن يُفاجأ يهوديّ مسكين وهو يبتسم في شوارع باريس. بيرنانشاتز، جوهريّ: كان هنا حانوته. وتردّد

لحظة، وقبل أن يمرّ بالباب الكبير، أدخل علبة المقانق في محفظته. كانت المحرّكات تدور، وتدور وتهدر، وتهدر، وكانت الأرض الخشبيّة تهتزّ، ورائحة أثير وبنزين تتصاعد، وكان الباص يغرق في اللهب، «أوه! إنّك إذن جبان يا بيار!» وكانت الطائرة تسبح في الشمس، وكان دانيال يربّت على المنشور بطرف عصاه ويقول: «إنّني هادئ جدًّا، ولسنا من البلاهة بحيث نذهب للقتال بلا طائرات». كانت الطائرة تمرّ فوق الأشجار، فوقها تمامًا، ورفع الدكتور شميت رأسه، وكان المحرّك يهدر، فرأى الطائرة بين الغصون، لهب ميكةٍ في السماء، وفكّر: «رحلة ميمونة، رحلة ميمونة!» وابتسم، وكان العرب مركومين في قعر السيّارة، مهزومين، مستسلمين، مزرقّين؛ وخرج من الكوخ زنجيّ صغير، فلوّح بيده ونظر طويلاً إلى الباص الراحل. لقد رأيت اليهوديّ، فقد اشترى منّي أوقية مقانق، لا غير، وكنت أظنّ أنّهم لم يكونوا يأكلون لحم الخنزير! وعاد الزنجيّ الصغير والمترجم فدخلا بخطى بطيئة، وما يزال رأساهما ممتلئين بصخب المحرّكات. كان ثمّة طاولة حديديّة مستديرة، مطليّة باللون الأخضر، وفي وسطها ثقب ليستقرّ فيه ساعد المظلّة، وكانت مبقّعة هنا وهناك بلون أسمر، كالإجاصة؛ كانت الجريدة على الطاولة «لو بوتي نيسوا» ولم تكن مفتوحة. وسعل ماتيو، كانت جالسة بالقرب من الطاولة، وقد تناولت فطور الصباح في الحديقة، كيف تراني سأخبرها الخبر؟ لا مجال للمشاكل على الإطلاق، فليتها تستطيع أن تسكت، كلّا، إنّ السكوت هو أيضًا أكثر ممّا ينبغي، ليتها تستطيع أن تنهض وتقول: «إذن، سأعدّ لكم سندويشات للسفر». بكلّ بساطة. كانت ترتدي معطف النوم، وكانت تقرأ بريدها. وقالت له: «إنّ جاك لم يهبط. لقد عمل إلى ساعة متأخّرة هذه الليلة». كلّما كانا يلتقيان من جديد، كانت كلماتها الأولى دائمًا عن جاك، وبعد ذلك يصبح غير وارد إطلاقًا، وابتسم ماتيو وسعل. وقالت: «إجلس، إنّ هناك رسالتين لك». وتناول الرسالتين، وسأل:

ـ هل قرأت الجريدة؟

ـ لم أقرأها بعد. لقد حملتها ماريِيت مع البريد، ولم أقرِّر بعد أن أفتحها. إنّني لم أكن مغرمة قطّ بقراءة الجرائد، أمّا الآن، فإنِّي أشمئزّ منها.

وكان ماتيو يبتسم ويهزّ برأسه موافقًا، ولكن أسنانه ظلّت مضغوطة. وكان قد حلّ بينهما ما حلَّ في المرّة السابقة. كان حسبهما أن يريا إعلانًا على جدار، ليحلّ بينهما ما حلّ في المرّة السابقة: لقد عادت فأصبحت امرأة جاك، ولم يكن يجد بعد ما يقوله لها. وفكّر: «فخذ خنزير نيء، هذا ما أحبّه للسفر».

قالت أوديت بحيويّة: ـ اقرأ، اقرأ رسائلك، ولا تهتمّ بي. والحقّ أنّ عليّ أن أصعد لأرتدي ثيابي.

وتناول ماتيو الرسالة الأولى التي كانت تحمل طابع بياريتز، وكان ذلك في الواقع كسبًا للحظة قصيرة. حتى إذا نهضت سيقول لها: «بالمناسبة، إنّني ذاهب..» لا، إنّ ذلك سيبدو عاريًا أكثر ممّا ينبغي. «إنّني ذاهب». «سأذهب». هذا أفضل. وعرف خطّ بوريس وفكّر في أسف: «مضى أكثر من شهر من غير أن أكتب له». وكان المغلّف يحتوي بطاقة رسالة. وقد كتب بوريس عنوانه الخاصّ ووضع طابعًا على نصف البطاقة الأيسر. أمّا على اليمين، فقد كتب عدّة أسطر:

عزيزي بوريس
إنّني في حالة جيِّدة
سيِّئة[١].

وهذا هو سبب صمتي: غيظ مشروع، غير مشروع، إرادة سيّئة، انقلاب مفاجئ، جنون، مرض، كسل، مجرّد خجل نقيّ وبسيط[٢].

---

(١) احذف الكلمة التي لا لزوم لها.
(٢) انظر الهامش السابق.

سأكتب لك رسالة طويلة بعد. . . أيّام.

وتفضّل بقبول اعتذاراتي العميقة والتعبير عن صداقتي المستغفرة.

التوقيع

قالت أوديت: أراك تضحك وحدك.

قال ماتيو: إنّه بوريس. هو في بياريتز مع لولا.

وبسط لها الرسالة، فأخذت هي أيضًا تضحك، وقالت:

ـ إنّ ذلك الشخص لطيف. هل هو. . . هل هو في سنّ. . .؟

قال ماتيو: ـ إنّه في التاسعة عشرة. ذلك متوقِّف على مدّة الحرب.

ونظرت إليه أوديت في رقّة، وقالت له:

ـ إنّ تلامذتك يتفوَّقون عليك!

كان التحدّث إليها يصعب شيئًا فشيئًا. وفضّ ماتيو الرسالة الأخرى وكانت من غوميز، زوج سارة. لم يكن ماتيو قد رآه مرّة أخرى منذ ذهابه إلى إسبانيا. كان قد أصبح الآن كولونيلاً في الجيش النظامي.

«عزيزي ماتيو.

«جئت في مهمّة إلى مارسيليا حيث لقيتني سارة والطفل. وأنا مسافر ثانية يوم الثلاثاء، ولكنّي أودّ أن أراك. انتظرني في قطار الساعة الرابعة يوم الأحد واحجز لي غرفة في أيّ مكان، وسأتدبّر أمري لأقوم بوثبةٍ إلى «جوان ليبان». إنّ لدينا أشياء كثيرة نريد أن نتبادل الكلام فيها. مع ودّي.

غوميز»

وضع ماتيو الرسالة في جيبه، وكان يفكِّر في تململ «غدًا السبت أكون قد ذهبت». وكانت به رغبة لأن يرى غوميز من جديد؛ فهو في هذه الفترة الصديق الوحيد الذي يرغب في رؤيته: إنّ هذا كان يعرف قليلاً ما عساه تكون الحرب. «ربّما استطعت أن ألقاه مرّة أخرى في مارسيليا، بين قطارين. .» وسحب الرسالة من جيبه وقد غدت مدعوكة: إنّ غوميز لم يكن

قد ترك فيها عنوانه. وهزّ ماتيو كتفيه في انزعاج، وألقى بالرسالة على الطاولة؛ كان غوميز قد ظلّ شبيهًا لنفسه، بالرّغم من أنّه أصبح كولونيلاً: متغطرسًا وعاجزًا. وكانت أوديت قد قرّرت أن تفتح الجريدة، فأمسكت بها في الهواء، في طرف ذراعيها الجميلتين المتباعدتين، وراحت تجيل فيها نظرها بعناية، ثم قالت: ـ أوه!

والتفتت إلى ماتيو وسألته بلهجة خفيفة:

ـ ولكن أنت، لا تملك الكرّاسة ٢؟

فأحسّ ماتيو بأنّ وجهه يحمرّ، وطرف بعينيه وقال مضطربًا: ـ بلى.

كانت أوديت تنظر إليه في قسوة، كما لو أنّه كان مذنبًا. وأضاف بسرعة:

ـ ولكنّي لن أذهب اليوم، فأنا باقٍ ثماني وأربعين ساعة بعد: إنّ هناك صديقًا قادمًا لرؤيتي.

وارتاح لهذا القرار المفاجئ: فقد كان ذلك يؤجّل الأمر إلى اليوم التالي تقريبًا: «إنّ بين «جوان ليبان» و«نانسي» طريقًا قصيرة، وهم لن يحدثوا لي المشاكل بسبب تأخّري بضع ساعات». ولكن نظر أوديت لم يكن ليرقّ، بينما كان هو يتخبّط تحت هذا النظر، ويردّد: «سأبقى ثمانيَ وأربعين ساعة بعد، سأبقى ثمانيَ وأربعين ساعة». وكانت «إيلّا بيرنانشاتز» تعقد ذراعيها الهزيلتين السمراوين حول عنق أبيها. وتقول: ـ كم أنت حبّوب يا بابا الصغير!

نهضت أوديت فجأة، وقالت:

ـ إنّني إذن أتركك. يجب على أيّ حال أن أرتدي ثيابي، وأعتقد أنّ جاك لن يلبث طويلاً حتى يهبط فيجتمع إليك.

ومضت، وهي تشدّ معطف النوم على خاصرتيها المدوّرتين الدقيقتين، وفكّر ماتيو: «لقد كانت متحفّظة، أجل، كانت متحفّظة»، وأحسّ شعورًا

من العرفان بداخله. يا لها من فتاة جميلة، يا لها من طائشة صغيرة جميلة! ودفعها وهو ينظر إليها نظرة توعُّدٍ، وكان «وايس» واقفًا بالقرب من الباب، تبدو عليه بهجة يوم الأحد. قال السيِّد بيرنانشاتز وهو يمسح خدّه:

ـ إنّكِ تلوِّثينني، وتتركين على وجهي آثار الأحمر. أيَّة قبلة كبيرة هذه!

وأخذت تضحك:

ـ أنت تخاف ممّا قد تفكِّر به الضاربات على الآلة الكاتبة عندك! إذن خذ! خذ! خذ!

وقبّلته في أنفه، ثم أحسّ شفتيها الحارّتين على جمجمته. فقبض عليها من كتفها وأبعدها على مدى ذراعيه الطويلتين. وكانت تضحك وتتخبّط، وكان يفكِّر: يا للفتاة الجميلة، الفتاة الصغيرة الجميلة. كانت الأمّ سمينة رخوة ذات عينين واسعتين مذعورتين ومستسلمتين كانتا تشعرانه بالانزعاج، أمّا «إيلّا» فكانت تنتسب إليه، وكانت على الأخصّ لا تنتسب لأحد غيره. فهي قد صنعت نفسها، وفي باريس. إنّني أقول لهم دائمًا: العِرْق، ما هو العِرْق؟ هل تظنّون «إيلّا» يهوديّة إذا التقيتم بها في الطريق؟ إنّها دقيقة كالباريسيّة، ذات بشرة حارّة كفتيات الجنوب، ووجه صغير متعقِّل ومتحمِّس، وجه متوازن، مريح، بلا عاهة، ولا عِرْق، ولا مصير، وجه «فرنسيّ» «حقيقيّ». وتركها، وتناول علبة الجواهر من على المكتب، فمدّها لها وقال: «خذي». وفيما كانت تنظر إلى الجواهر، أضاف:

ـ في العام القادم، ستصبح أضخم مرّتين، ولكنّها ستكون الأخيرة: فإنّ العقد سيكون قد انتهى.

وأرادت مرّة أخرى أن تعانقه، ولكنّه قال لها: «هيّا! عيد سعيد، عيد سعيد! إمضي بسرعة، فسوف تتأخّرين عن ساعة الدرس».

ومضت وهي ترمي ببسمة لـ «وايس»: صبيّة أغلقت الباب، فاجتازت

مكتب السكرتيرات، وذهبت، بينما فكّر شالوم، وهو جالس على أطراف فخذيه، وقبّعته على ركبتيه: يا للفتاة اليهوديّة الجميلة! كان لها رأس قرد صغير، يتجمّع كلّه إلى الأمام، ويمكن إِمساكه في جوف يد، وعينان كبيرتان حسيرتان، جميلتان جدًّا، ولا بدّ أنّها ابنة بيرنانشاتز. وقام شالوم وألقى تحيّة صغيرة لم يبد عليها أنّها لاحظتها. وعاد فجلس وفكّر: يبدو عليها أنّها أذكى ممّا ينبغي، إنّنا هكذا، نحن الآخرين: تعابيرنا مطبوعة بالحديد الأحمر على سحنتنا، كأنّنا نعانيها كعذاب الاستشهاد. وكان السيِّد بيرنانشاتز يفكِّر بالجواهر، ويقول لنفسه: «ليس هذا تثميرًا سيّئًا لها». كانت تساوي مئة ورقة، وفكّر بأنّ «إيلّا» كانت قد قبلتها على غير حماس بالغ، أو لامبالاة: كانت تعرف ثمن الأشياء، ولكنّها كانت تجد من الطبيعي أن تملك المال، وأن تتلقّى هدايا جميلة، وأن تكون سعيدة. يا إلٰهي.. إذا لم أفعل أنا غير هذا، مع المرأة التي عندي، وخلفي جميع عجائز كاركوفيا، إذا لم أنجح إلّا في إنجاب هذه الصبيّة الصغيرة، ابنة يهود بولونيِّين، لا ترهق نفسها أكثر ممّا ينبغي، ولا تتسلّى بأن تعذِّب نفسها. صبيّة، وتجد من الطبيعي أن تكون سعيدة، فأحسب أنِّي لم أَضِع وقتي هدرًا. والتفت إلى وايس وسأله:

ـ أتدري أين هي ذاهبة؟ إنّني أعطيك ألفًا. أهي ذاهبة إلى محاضرة في السوربون؟ إنّ ذلك عجيبة من العجائب!

فابتسم وايس بغموض من غير أن يتخلّى عن هيئته المستعارة، وقال:

ـ لقد جئت أودِّعك يا معلِّم.

فتأمّله السيِّد بيرنانشاتز من فوق نظّارتيه:

ـ هل أنت ذاهب؟

فهزّ وايس رأسه بالإيجاب، ونظر إليه السيِّد بيرناتشاتز بعينين واسعتين:

ـ كنت على يقين من ذلك! أنت من البلاهة بما فيه الكفاية لتكون حاصلاً على الكرّاسة ٢، أليس كذلك؟

فقال وايس مبتسمًا: ـ هذا هو الواقع، أنا من البلاهة بما فيه الكفاية لأكون كذلك.

قال السيِّد بيرناتشاتز وهو يشبك ذراعيه: ـ إنّك إذن تضعني في وضع حرج. فما الذي سأفعله بدونك؟

وردّد بشرود: «ما الذي سأفعله بدونك؟ ما الذي سأفعله بدونك؟» وكان يحاول أن يتذكّر كم كان عدد أطفال وايس. وكان وايس يتطلّع إليه بهيئة قلقة، وقال: ـ ستجد من يحلّ محلّي طبعًا.

ـ آه.. لا! سيكون عليّ أن أدفع لك من غير أن تعمل شيئًا؛ وأنت لا تريديني أن آخذ على عاتقي شخصًا آخر فوق هذا. إنّ مكانك ينتظرك، يا بنيّ.

وكان الانفعال باديًا على وايس. كان يفرك أنفه وهو يحوِّل عينيه، وكان قبيحًا قُبحًا فظيعًا. وقال: ـ يا معلِّم...

فقاطعه السيِّد بيرناتشاتز قائلاً: إنّ عبارات الشكر أمرٌ فاحش. ثم إنّه لم يكن ليكنّ له كثيرًا من الودّ، لأنّه هو، إنّما كان رجلاً يحمل مصيره على وجهه، بعينيه اللمّاحتين، وهذه الشفة السفلى الضخمة التي كانت ترتعش طيبةً ومرارة. وقال: ـ حسنًا، حسنًا. إنّك لن تترك المؤسّسة، بل ستمثِّلها أمام السادة ضبّاط الأرض. أنت ملازم، أليس كذلك؟

فقال وايس: ـ بل أنا نقيب.

فكّر بيرنانشاتز: «نقيب هالك!» وكانت هيئة السعادة بادية على وايس، وكانت أذناه الواسعتان قرمزيّتين. نقيب هالك ـ وتلك هي الحرب، النظام العسكريّ المتسلسل. وقال: ـ أيّة حماقة ملعونة، أليس كذلك؟

فقال وايس: هِمْ!

ـ أليست هي حماقة؟

قال وايس: بكلّ تأكيد. ولكنِّي كنت أعني أنّها بالنسبة إلينا، ليست حماقة إلى هذا الحدّ.

فسأله السيِّد بيرنانشاتز في دهشة:

ـ بالنسبة إلينا؟ بالنسبة إلينا؟ من تقصد؟

فخفض وايس عينيه، وقال: ـ بالنسبة إلينا، نحن اليهود. فبعد الذي صنعوه ليهود ألمانيا، نجد مبرِّرًا لنقاتل.

ومشى السيِّد بيرنانشاتز بضع خطى، وكان منزعجًا، فسأله:

ـ ماذا تعني: نحن اليهود؟ أنا لا أعرف ذلك. إنّني أنا فرنسيّ. فهل تحسّ نفسك يهوديًّا؟

قال وايس: ـ إنّ قريبي من «غراتز» موجود في بيتي منذ يوم الثلاثاء. وقد أراني ذراعيه. لقد حرقوه بسجائرهم من المرفق حتى الإبط.

فتوقّف السيِّد بيرنانشاتز مبهوتًا، وأمسك بمسند كرسيٍّ بين يديه القويّتين، بينما ألهبه غضبٌ غامضٌ حتى أعماق عينيه، وقال:

ـ إنّ الذين فعلوا ذلك، الذين فعلوا ذلك...

وكان وايس يبتسم، فهدأ السيِّد بيرنانشاتز:

ـ ليس ذلك لأنّ قريبك يهوديّ يا وايس. وإنّما لأنّه إنسان. إنّني لا أطيق أن يُضطهد إنسان. ولكن، ما هو اليهوديّ؟ إنّه إنسان يعتبره الناس الآخرون يهوديًّا. خذ «إيلّا» مثلاً. هل تظنّها يهوديّة، إذا لم تكن تعرفها؟

ولم يكن وايس يبدو مقتنعًا، فتقدّم منه السيِّد بيرنانشاتز ولمس صدره بسبّابته الممدودة:

ـ اسمع يا صغيري وايس، هذا ما أستطيع أن أقوله لك: لقد تركت بولونيا عام ١٩١٠، وقدِمت إلى فرنسا، فتقبّلوني فيها قبولاً حسنًا، ووجدتني فيها سعيدًا، فقلت لنفسي: حسنًا، إنّ فرنسا هي بلدي الآن. وفي

عام ١٩١٤ جاءت الحرب. حسنًا، قلت: إنّي أخوض الحرب، لأنّ هذا بلدي. وأنا أعرف ما هي الحرب، فقد كنت في طريق «شومان ديدام». أمّا الآن، فأقول لك: إنّني فرنسيّ، لا يهوديّ فرنسيّ، بل فرنسيّ. يهود برلين وفيينّا، يهود معسكرات الاعتقال، أرثي لهم، ويملأني غضبًا أن أفكّر بأنّ هناك أناسًا يُعذَّبون. ولكنْ أصغ إليّ جيّدًا: إنّ كلّ ما أستطيع أن أفعله لأحول دون أن يُقتل فرنسيّ، فرنسيّ واحد، من أجلهم، سوف أفعله، إنّني أحسّني أقرب إلى أوّل شخص ألقاه الساعة في الشارع منّي إلى أخوالي في «لنز» أو أحفادي في كاركوفيا. إنّ قصص اليهود الألمان أمرٌ لا يعنينا.

وكانت هيئة وايس تبدو غامضة وعنيدة، فقال في بسمة مزرية:

ـ حتى ولو كان هذا صحيحًا يا معلّم، فإنّه يحسن بك ألّا تقوله. ينبغي على الذين يذهبون للقتال أن يجدوا مبرّرات لذهابهم.

فأحسّ السيّد بيرنانشاتز باحمرار الاضطراب يصعد إلى وجنتيه، وفكّر في أسف: «يا له من مسكين!»، وقال له فجأة: ـ أنت على حقّ. إنّني لست إلّا إنسانًا سقيمًا عاجزًا، وليس لديّ ما أقوله عن هذه الحرب ما دمت لا أشارك فيها. متى تذهب؟

قال وايس: ـ في قطار الساعة السادسة عشرة والنصف.

ـ قطار اليوم؟ وإذن؟ ماذا تراك تفعل هنا؟ إذهب، إذهب بسرعة إلى زوجتك. هل أنت بحاجة إلى مال؟

ـ ليس في هذه الفترة، أشكرك.

ـ اذهب، وسوف تُرسل لي امرأتك فأدبّر معها كلّ شيء. هيّا، هيّا. وداعًا.

وفتح الباب ودفعه إلى الخارج. وكان وايس يصافحه ويتمتم بعبارات شكر غير مفهومة. ولمح السيّد بيرنانشاتز، من فوق كتف وايس، رجلاً جالسًا في غرفة الانتظار، وقبّعته على كتفه، فعرف فيه شالوم، وقطّب

حاجبيه: إنّه لم يكن يُحبّ أن يُدعى الملتمسون إلى الانتظار. وقال:

ـ ادخل. هل مضى وقت طويل وأنت تنتظر؟

فقال شالوم وهو يبتسم ابتسامة خضوع:

ـ نصف ساعة صغيرة. ولكن ما هي نصف الساعة؟ إنّك مشغول جدًّا. أمّا أنا، فأملك الوقت كلّه. فما الذي أفعله من الصباح حتى المساء؟ إنّني أنتظر. إنّ الحياة في المنفى ليست إلَّا انتظارًا كما تعلم.

قال السيِّد بيرنانشاتز: ـ ادخل، ادخل. كان عليهم أن يخبروني.

فدخل شالوم، وهو يبتسم ويسلِّم. ودخل السيِّد بيرنانشاتز خلفه وأغلق الباب. وكان يعرف شالوم تمامًا: «لقد كان ذا شأن في الحركة النقابيّة الباڤاريّة». وكان شالوم يزوره بين الفترة والفترة، فيستدين منه ألفين من الفرنكات أو ثلاثة آلاف، ويختفي لبضعة أسابيع.

ـ خذ سيكارًا.

فقال شالوم وهو يقترب قليلاً: «إنّني لا أدخّن». وأخذ السيِّد بيرنانشاتز سيكارًا، فأداره بين أصابعه ثم أعاده إلى العلبة. وقال:

ـ إذن؟ هل الأمور عندك كما تروم؟

وكان شالوم يبحث عن كرسيّ. فقال له السيِّد بيرنانشاتز في عجلة:

ـ اجلس، اجلس.

ـ لا. لم تكن لدى شالوم رغبة بالجلوس. واقترب من الكرسيّ فوضع محفظته على المقعد ليكون في وضع أيسر، ثم التفت إلى السيِّد بيرنانشاتز، وأرسل أنّة طويلة منغّمة وقال:

ـ آه، إنّ الأمور ليست قطّ على ما يرام. إنّه لا يحسن بالإنسان أن يعيش على أرض الآخرين، فهم لا يتحمّلونه إلَّا على مضض، ويأخذون عليه الخبز الذي يأكله. ويا لذلك الاحتراس الذي يقابلوننا به، ذلك الاحتراس الفرنسيّ! حين أعود إلى ڤيينا ستكون هذه هي الصورة التي

أحفظها من فرنسا: سُلّم مظلم يُرقى بمشقّة، وزرّ يُضغط، وباب يُفتح نصف فتحة: «ماذا تريد؟» ثم يُغلق. شرطة الغرف المفروشة، دار البلديّة، الصفّ الطويل في مفوّضيّة الشرطة. وهذا طبيعي إذا تعمّقنا بالموضوع، فنحن في بلدهم. ومع ذلك، فكِّر قليلاً: إنّ بوسعهم أن يشغّلونا. فأنا شخصيًّا لا أطلب إلّا أن أكون نافعًا لشيء. ولكن من يستطيع أن يجد عملاً محتاجٌ إلى بطاقة العمل، ولكي يحصل المرء على بطاقة العمل، فيجب أن يكون مستخدمًا في مكان ما. وهكذا لا أستطيع أن أكسب قوتي، ولو كنت مسلّحًا بأعمق إرادة في العالم. ولعلّ هذا هو ما يشقّ عليّ احتماله أكثر من أيّ شيء آخر: أن أكون عبئًا على الآخرين. ولاسيّما حين يُشعرونك بذلك في مثل هذه القسوة. وكم من وقت ضائع: كنت بدأت في كتابة مذكّراتي، وقد كان من شأن ذلك أن يعود عليّ ببعض المال. ولكن هناك كثيرًا من الأعمال التي ينبغي أن تُعمل في يوم: وهكذا كان لا بدّ لي من أن أترك كلّ شيء.

وكان قصيرًا، شديد الحيويّة، وقد وضع محفظته على الكرسي، بينما كانت يداه المتحرِّرتان تتطايران حول أذنيه الحمراوين: «ما أشدّ ما تبدو عليه هيئة اليهوديّ، ذلك الشخص!»، واقترب السيِّد بيرنانشاتز من المرآة على غير اكتراث، وألقى عليها نظرة سريعة: متر وثمانون، أنفٌ أفطس، رأس ملاكم أميركي تحت نظّارتين سميكتين؛ كلّا، لسنا من جنس واحد. ولكنّه لم يكن يجرؤ على أن ينظر إلى شالوم، فقد كان يُحسّ نفسه مشبوهًا. «ليرحل. ليته يرحل على الفور». ولكنْ كان ينبغي ألّا يعوِّل على ذلك. فإنّ شالوم إنّما كان يتميّز في نظره عن مجرّد الشحّاذ بطول زيارته وانتعاش حديثه الفَكِه. وفكّر السيِّد بيرنانشاتز: «يجب أن أتحدّث» وكان لشالوم الحقّ في ذلك. كان له الحقّ بأوراقه الماليّة الثلاث وبربع ساعة من الحديث. جلس السيِّد بيرنانشاتز على حافّة مكتبه، وكانت يده اليمنى التي أدخلها في جيب سترته تداعب علبة سكائره. قال شالوم بصوت كان يصعد

ويتدحرج بلهجة نبويّة، بينما كان شعاع من المرح يرتعش في عينيه الفاتحتين:

ـ إنّ الفرنسيِّين «ناسٌ قساة. ناسٌ قساة. فالأجنبي هو في نظرهم مشبوه مبدئيًّا، إن لم يكن مذنبًا».

إنّه يحدِّثني كما لو أنّني لم أكن فرنسيًّا. عجبًا: أنا يهوديّ، يهوديّ من بولونيا، وصلت إلى فرنسا يوم ١٩ تمّوز ١٩١٠، ولا يذكر ذلك أحدٌ هنا، أمّا هو، فلم ينس ذلك. يهوديّ كان محظوظًا. والتفت إلى شالوم فتأمّله في غيظ. وكان شالوم يخفض رأسه قليلاً ويقدِّم له جبينه، بدافع الاحترام، ولكنّه كان ينظر إليه، مواجهة، من تحت حاجبيه المقوّسين. وكان ينظر إليه، وعيناه الكبيرتان الممتقعتان تريانه يهوديًّا. يهوديّان، في الظلّ، معزولان جيِّدًا في مكتب بشارع «كاتر سبتمبر». يهوديّان ضالعان؛ وحولهما، في الشوارع وفي البيوت الأخرى، ليس ثمّة إلَّا فرنسيّون. يهوديّان، السمين منهما أصاب النجاح، والقصير السيّئ التغذية لم يكن له حظّ. لوريل وهاردي. وقال شالوم:

ـ إنّهم ناس قساة! ناس لا يعرفون الرحمة!

وهزّ السيِّد بيرنانشاتز كتفيه فجأة، وقال بجفاف: «يجب أن يضع المرء نفسه محلّهم ـ ولم يستطع أن يقول: محلّنا ـ أتدري كم تحوي فرنسا من الأجانب منذ ١٩٣٤؟

قال شالوم: ـ أعرف، أعرف، وأجد ذلك شرفًا كبيرًا لفرنسا، ولكن ما الذي تعمله لتستحقّه؟ انظر: إنّ شبّانها يعبرون الحيّ اللاّتيني، فإذا كان ثمّة من يشبه يهوديًّا، انقضّوا عليه بالقبضات.

فقال السيِّد بيرنانشاتز ملاحظًا:

ـ إنّ وزارة بلوم قد أساءت إلينا كثيرًا.

كان قد قال: إلينا، فأراد مشاركة هذا الأجنبي القصير. نحن. نحن

اليهود، ولكن ذلك كان بدافع الإحسان. كانت عينا شالوم تتأمّلانه في إلحاحٍ مبجَّل. وكان هزيلاً وقصيرًا، وكانوا قد ضربوه وطردوه من باڤاريا، وها هو الآن هنا، ولا بدّ أنّه ينام في فندق قذر ويقضي نهاره في المقهى. وقد أحرقوا قريب وايس بسكائرهم. وكان السيِّد بيرنانشاتز ينظر إلى شالوم فيحسّ بأنّه هو شخصيًّا مدبَّق. ولم يكن ما يشعر به نحوه ودًّا، كلّا: وإنّما كان... كان...

«كانت تنظر إليه، وكانت تفكِّر: «إنّه رجل قاس. إنّهم موسومون، والحروب إنّما تقع بسببهم» ولكنّها كانت تشعر بأنّ حبّها القديم لم يكن ميّتًا».

وكان السيِّد بيرنانشاتز يجسّ محفظته. وقال أخيرًا بصوت حفيّ:

«مهما يكن من أمر، فنأمل ألّا يدوم هذا أطول ممّا ينبغي».

فغمز شالوم شفتيه ورفع رأسه الصغير بحيويّة. فكّر السيِّد بيرنانشاتز: «لقد قمت بالحركة قبل أوانها».

«رجل قاس. يأخذ النساء ويقتل الرجال. يفكِّر بأنّه قويّ. ولكن ذلك غير صحيح. كلّ ما في الأمر أنّه موسوم».

وقال شالوم: ـ إنّ ذلك يتوقّف على الفرنسيِّين. فإذا استعاد الفرنسيّون حسّ رسالتهم التاريخيّة...

فسأله السيِّد بيرنانشاتز ببرودة: ـ أيّة رسالة؟

فالتمعت عينا شالوم بالحقد، وقال بصوت قاسٍ وثاقب:

ـ إنّ ألمانيا تتحدّاهم وتهينهم بمختلف الأشكال، فماذا ينتظرون؟ أتراهم يعتقدون أنّ بإمكانهم إطفاء غضب هتلر؟ إنّ كلّ تراجع جديد من فرنسا يطيل العهد النازيّ عشرة أعوام، وفي هذه الأثناء نكون هنا، نحن الضحايا، ننتظر ونحن نقضم قبضاتنا. لقد رأيت اليوم المناشير البيضاء على الجدران، فداخلني بعض الأمل. ولكنّي كنت حتى الأمس ما أزال

أفكِّر: لم يبق في عروق الفرنسيِّين دمٌ بعد، وسوف أموت في المنفى.

يهوديّان في مكتب بشارع «كاتر سپتمبر». وجهة نظر اليهود في الأحداث العالميّة. سوف تكتب جريدة «جوسوي بارتو» غدًا: «إنّ اليهود هم الذين يدفعون فرنسا إلى الحرب». ونزع السيِّد بيرنانشاتز نظّارتيه فمسحهما بمنديله: كان ثملاً من فرط الغضب. وسأل بلطف:

ـ وإذا وقعت الحرب، هل تخوضها؟

فقال شالوم: ـ سيتطوَّع كثير من المهاجرين، وأنا من ذلك على يقين. (وأضاف وهو يشير إلى جسمه الصغير الهزيل) ولكن انظر إليّ: أيّ مجلس عسكريّ يرغب فيّ؟

فقال السيِّد بيرنانشاتز بصوت هادر: ـ إذن هل ستحلّ عن ظهرنا؟ هل ستحلّ عن ظهرنا؟ ماذا أتيت تفعل عندنا؟ إنّني فرنسيّ، ولست يهوديًّا ألمانيًّا. طزّ باليهود الألمان. اذهب فقُمْ بها في مكان آخر، حربك هذه!

وتأمّله شالوم لحظة في ذعر، ثم استعاد بسمته المتواضعة، ومدّ يده فتناول محفظته، واقترب من الباب وهو يمشي القهقرى. سحب السيِّد بيرنانشاتز محفظة نقوده من جيبه، وقال: ـ انتظر.

وكان شالوم قد أدرك الباب، فقال له:

ـ لست بحاجة لشيء. أحيانًا، أطلب معونة لليهود. ولكنّك على حقّ: أنت لست يهوديًّا، وقد أخطأتُ العنوان.

وخرج، فنظر السيِّد بيرنانشاتز طويلاً إلى الباب من غير أن يأتي بحركة. «إنّه رجل قاسٍ، إنسانٌ متوحِّشٌ. إنّ لهم نجمة، وهم ينجحون في كلّ شيء، ولكنّ الحرب تقع بسببهم. وكذلك الموت والعذاب بسببهم. إنّهم اللَّهب والحريق، إنّهم يؤذون، وقد آذاني، وأنا أحمله كشظيّة خشبيّة تحت أظافري، وكَخَبثٍ محرقة تحت أجفاني، وكشوكة في قلبي». هذا ما تفكِّره بشأني. ولم تكن به حاجة لأن يذهب فيسألها في ذلك، لقد كان

يعرفها، ولو كان بوسعه أن يدخل في هذا الرأس الأسود القَطّ، فإنّه واجدٌ في كلّ لحظة هذه الفكرة الثابتة الصلبة. إنّها قاسية، على شاكلته، إنّها لا تنسى أبدًا. وكان ينحني، وهو في المنامة، فوق ساحة «جيلو»، وكان الطقس ما يزال رطبًا، والسماء زرقاء فاتحة، رماديّة في الأطراف، وكانت تلك هي الساعة التي يسيل فيها الماء على البلاط وعلى الوَضْم الخشبيّ لبائعيّ السمك. كلّ ذلك كان يُشعر بالرحيل والصباح. الصباح، البحر الكبير، وهناك، الحياة بلا ندم، ودخان القنابل الخفيف المستدير على أرض كاتالونيا المشقّقة. ولكن، خلف ظهره، خلف الشبّاك المفتوح، في الغرفة الملأى بالنوم والليل، كانت ثمّة تلك الفكرة الميّتة التي تترصّده، التي تدينه، كان ثمّة ندمه. سوف يرحل غدًا، وسوف يعانقهم على رصيف المحطّة، وسوف تعود هي إلى الفندق مع الصغير، وتهبِط الدرج الضخم وهي تقفز، وسوف تفكّر: لقد رحل مرّة أخرى إلى إسبانيا. إنّها لن تغفر له أبدًا رحيله إلى إسبانيا؛ لقد كان ذلك جَلْدًا ميّتًا على قلبها. كان ينحني مطلًّا على ساحة «جيلو» ليؤخّر لحظة العودة إلى الغرفة: كان بحاجة إلى صُراخ، إلى أغنيات مريرة، وإلى آلام عنيفة وقصيرة، لا إلى هذه العذوبة الفظيعة. وكان الماء يجري في الساحة. الماء وروائح الصباح المبتلّة، وصيحات الصباح الريفيَّة. وتحت شجر الدلب، كانت الساحة زلقة، مائعة، بيضاء خفيفة كسمكة في البحر. وفي هذا الليل، كان زنجيّ قد غنّى، فبدا الليل ثقيلاً جافًّا، ليلاً إسبانيًّا. وأغمض غوميز عينيه، فأحسّ بشوق إسبانيا والحرب يخترقه عنيفًا قاسيًا. إنّها لا تفهم ذلك. لا الليل ولا الصبح ولا الحرب.

كان بابلو يصرخ بأعلى صوته: ـ بان، بان! بان، بان، بان، بان!

والتفت غوميز ودخل إلى الغرفة. كان بابلو قد وضع قبّعته، وأخذ بندقيّته وراح يستعملها كما يستعمل مجموعة من السلاح. وكان يعدو عبر غرفة الفندق وهو يطلق في الفراغ طلقات هائلة كانت تفقده توازنه. كانت

سارة تتبعه بنظرها الميِّت. وقال غوميز: ـ هذه مجزرة.

فأجاب بابلو من غير أن يكفّ: ـ إنّني أقتلهم جميعًا.

ـ من هم، جميعًا؟

كانت سارة جالسة على حافّة السرير، وهي في معطف النوم، تلفق جوربًا. قال بابلو: ـ جميع الفاشيست.

فارتمى غوميز إلى خلف وراح يضحك، ثم قال:

ـ اقتلهم، ولا تدع منهم أحدًا. وذلك الشخص، هناك، لقد نسيته.

فعاد بابلو في الاتّجاه الذي أومأ إليه غوميز وخطّط الهواء ببندقيّته، وقال: ـ بان، بان! بان، بان، بان! ليس من هدنة!

ثم توقّف والتفت إلى غوميز وهو يلهث، والرصانة والحماسة باديتان عليه. وقالت سارة: ـ أوه! أنت ترى يا غوميز! كيف استطعت؟

وكان غوميز قد ابتاع عشيّة الأمس مجموعة أسلحة لبابلو. وقال وهو يداعب رأس الصغير:

ـ يجب أن يتدرّب على القتال، وإلّا لأصبح جبانًا كالفرنسيِّين.

رفعت سارة عينيها إليه، فرأى أنّه قد جرحها جرحًا عميقًا. وقالت:

ـ إنّني لا أفهم كيف يُتّهم الناس بالجبن لأنّهم غير راغبين في القتال!

فقال غوميز: ـ هناك فترات يجب أن يرغب الناس بها في القتال.

قالت سارة: ـ أبدًا. في أيّ حال. ليس ثمّة ما يستحقّ أن أجد نفسي من أجله ذات يوم على الطريق، وبيتي مهدّم إلى جانبي، وطفلي مسحوق بين ذراعيَّ.

فلم يجب غوميز. لم يكن ثمّة ما يُجاب به. كانت سارة على حقّ. من وجهة نظرها، كانت على حقّ. ولكن وجهة نظر سارة كانت من الوجهات التي ينبغي إهمالها مبدئيًّا، وإلّا لما وصلنا أبدًا إلى شيء ما. وضحكت سارة ضحكة خفيفة مريرة:

ـ حين عرفتك يا غوميز، كنت من دعاة السلام. ذلك أنَّ الوقت كان يفرض أن يكون المرء من دُعاة السلام. إنّ الهدف لم يتغيّر، وإنّما اختلفت الوسائل لبلوغ ذلك الهدف.

فصمتت ساره مضطربة. وظلّ فمها مفترًا. كانت شفتها المتدلّية تكشف أسنانها النخرة. وراح بابلو يدير بندقيّته حول رأسه وهو يصرخ:

ـ انتظر قليلاً، أيّها الفرنسيّ القذر، أيّها الفرنسيّ الجبان!

قالت سارة: ـ أترى؟

فقال غوميز بحماسة: ـ بابلو، ينبغي ألّا تُطلق النار على الفرنسيِّين، إنّ الفرنسيِّين ليسوا فاشيست.

فصاح بابلو: ـ إنّ الفرنسيِّين جبناء.

وأخذ يُطلق على ستائر النافذة التي تطايرت متثاقلة. ولم تقل سارة شيئًا، ولكن غوميز كان يؤثر لو لم يرَ النظرة التي رمت بها بابلو. لا، لم تكن نظرة قاسية: وإنّما كانت بالأحرى نظرة دهشة وتردّد، كما لو أنّها ترى ابنها للمرّة الأولى. وكانت قد وضعت على مقربة منها الجورب الذي كانت تلفقه، وكانت تنظر إلى هذا الأجنبيّ الصغير، هذا الوحش الصغير السليم الذي كان يطلق على الرؤوس ويشجّ الجماجم، ولا بدّ أنّها كانت تفكّر مذعورة: «أنا الذي صنعته». وأحسّ غوميز بالخجل، وفكّر: «ثمانية أيّام. كانت ثمانية أيّام كافية».

وقالت سارة فجأة: ـ غوميز، هل تعتقد حقًّا بأنّ الحرب واقعة؟

فقال غوميز: ـ أرجو. أرجو أن ينتهي الأمر بهتلر إلى قسر الفرنسيِّين على القتال.

قالت سارة: ـ أتعرف ما الذي أدركتهُ يا غوميز هذه الأيّام؟ أدركتُ أنّ الرجال أشرار.

فهزّ غوميز كتفيه:

ـ إنّهم ليسوا أشرارًا ولا أخيارًا. فكلّ امرئ يتبع صالحه.

قالت سارة: ـ لا، لا، إنّهم أشرار.

ولم تكن تنزع بصرها عن بابلو الصغير. كان يبدو أنّها تتنبّأ له بقدره، وأضافت: ـ أشرار، ومندفعون لإيذاء بعضهم بعضًا.

قال غوميز: ـ لست شرّيرًا.

فقالت سارة من غير أن تنظر إليه:

ـ بلى، أنت شرّير، يا عزيزي غوميز، أنت شرّير جدًّا. وليس لك عذر: فإنّ الآخرين أشقياء. أمّا أنت، فشرّير وسعيد.

وساد صمت طويل. وكان غوميز ينظر إلى تلك الرقبة القصيرة السمينة، وإلى هذا الجسم الذي فقد رونقه والذي أمسكت به ذراعاه طوال الليالي، وكان يفكّر: «إنّها لا تكنّ لي الودَّ، ولا الحنان. ولا الاحترام. إنّها تحبّني، بكلّ بساطة، فأيّنا أشدّ شرًّا من الآخر؟».

على أنّ الندم ما لبث أن استبدّ به فجأة: لقد وصل ذات مساء من برشلونة سعيدًا، هذا صحيح، سعيدًا جدًّا. وكان قد أخذ إذنًا لثمانية أيّام، وكان سيرجع في الغد. وفكّر: «لست إنسانًا طيّبًا».

ـ هل هناك ماء حارّ؟

فقالت سارة: ـ ماء فاتر. الصنبور الأيسر.

قال غوميز: ـ حسنًا. سأحلق ذقني.

ودخل غرفة التواليت تاركًا الباب مفتوحًا على مصراعيه، فأجرى الماء واختار شفرة، وفكّر: «حين أذهب. ستنفذ ذخيرة الأسلحة في وقت قصير». ولا شكّ في أنّ سارة، بعد ذهابه، ستخفيها في خزانة الأدوية الكبيرة، إلّا إذا وجدت من الأيسر أن تنساها هنا. وفكّر: «إنّها لن تعلّمه إلّا على ألعاب البنات». تُرى متى يشاهد بابلو مرّة أخرى، وماذا تراها تكون قد صنعت به؟ إنّ هيئة الصبيّ على أيّ حال، هيئة مقاومة! واقترب

من المغسلة، ورآهما عبر المرآة. كان بابلو واقفًا في وسط الغرفة، لاهثًا، متورِّدًا، متباعد الساقين، ويداه في جيبه. أمّا سارة، فكانت قد جثت أمامه تنظر إليه من غير أن تنبس بكلمة. وفكّر غوميز: «تريد أن تعرف إن كان يشبهني». وأحسّ بالضيق فأغلق الباب من غير ضجّة.

«. . . لحقت بي مع الصغير. انتظرني في قطار الساعة الرابعة يوم الأحد واحجز لي. . . » وحطّت يدٌ قويّة على كتفه اليسرى، ويدٌ أخرى على كتفه اليمنى. ضغطةٌ حارّة وودّيّة. هو ذا إذن: وأعاد الرسالة إلى جيبه ورفع عينيه.

ـ مرحبًا.

قال جاك وهو يُغرق نظره في عينيّ ماتيو:

ـ لقد قالت لي أوديت. . . يا عزيزي المسكين!

ومن غير أن ينزع عينيه عن أخيه، جلس على الأريكة التي غادرتها أوديت منذ لحظة، وشدّت يدٌ لا تكاد تنتسب إليه بنطلونه ببراعة، واشتبكت ساقاه وحدهما. كان يجهل هذه الأحداث المحلّيّة الدقيقة: فهو لم يكن بعد إلّا نظرًا. قال ماتيو:

ـ أنت تعلم، أنّني لن أذهب اليوم.

ـ أعرف ذلك. ألا تخشى أن يسبّبوا لك المتاعب؟

ـ أوه. . . قضيّة بضع ساعات. . .

وتنفّس جاك بعمق: ـ ماذا تريد أن أقول لك؟ في الزمن الماضي، كان بالإمكان أن يُقال لمن يرحل إلى القتال: دافع عن أولادك، دافع عن حرّيّتك أو بيتك، دافع عن فرنسا. . . كان بالإمكان على أيّ حال إيجاد أعذار ليجازف بنفسه. أمّا اليوم. . .

وهزّ كتفيه. وكان ماتيو قد خفض رأسه وراح ينكث الأرض بكعبه. وقال جاك بصوت نفّاذ: ـ أراك لا تجيب. إنّك تؤثر ألّا تتكلّم خشية أن

تقول أكثر ممّا ينبغي قوله. ولكنّي أعرف ما تفكّر به. قلْ.

وكان ماتيو ما يزال يحكّ حذاءه بالأرض. فقال من غير أن يرفع رأسه: ـ كلّا، إنّك لا تعرفه.

ومضت فترة صمت قصيرة، ثم سمع صوت أخيه المتردّد:

ـ ماذا تعني؟

ـ إنّني لا أفكّر في شيء على الإطلاق.

فقال جاك في انزعاج لم يكد يبين: ـ قد يكون هذا، إنّك لا تفكّر في شيء، ولكنّك يائس، فالأمران سيّان.

وجهد ماتيو في أن يرفع رأسه ويبتسم:

ـ بل إنّي لست يائسًا كذلك.

قال جاك: ـ مهما يكن، فإنّك لن تقنعني بأنّك ذاهب وأنت مستسلم، كالخروف الذي يُساق إلى المسلخ؟

قال ماتيو: ـ الواقع أنّي، مع ذلك، أُشبه قليلاً، هذا الخروف، ألا ترى ذلك؟ أنا ذاهب لأنّي لا أستطيع أن أفعل شيئًا آخر. وأن تكون هذه الحرب عادلة أو غير عادلة، بعد ذلك، فهذا في نظري أمرٌ ثانويّ جدًّا.

وقلب جاك رأسه إلى خلف ليتأمّل ماتيو بعينيه نصف المغمضتين:

ـ إنّك يا ماتيو تدهشني. تدهشني بصورة هائلة، فأنا لم أعد أعرفك. كيف؟ كان لي أخٌ متمرِّد، وقح، لاذع، لا يريد قطّ أن يكون مخدوعًا، ولا يستطيع أن يرفع خنصره من غير أن يبحث لماذا يرفع سبّابته، خنصر اليد اليمنى لا خنصر اليد اليسرى. وهنا تأتي الحرب، فيرسلونه في الخطّ الأمامي، ويذهب متمرِّدي و(الصخّاب) الذي أعرفه، يذهب بكلّ وداعة، من غير أن يتساءل، وهو يقول: أنا ذاهب لأنّي لا أستطيع أن أفعل شيئًا آخر.

قال ماتيو: ـ ليس الذنب ذنبي، فأنا لم أستطع قطّ أن أنجح في

تكوين رأي لي حول هذا النوع من المسائل.

فقال جاك: ـ ولكنّ المسألة واضحة: إنّنا أمام سيِّد ـ وأقصد به بنيش ـ يتعهّد تعهّدًا جازمًا بأن يجعل من تشيكوسلوفاكيا اتّحادًا على الطراز السويسري. لقد التزم ذلك وردَّد بقوَّة، وهذا ما قرأته في محاضر جلسات مؤتمر السلام، وأنت ترى أنّي أذكر لك مصادري. وكان هذا الوعد يعني منح ألمان السوديت سيادة حقيقيّة أقواميّة. حسنًا. ولكن هذا السيِّد ينسى تعهّداته تمامًا، فينصِّب تشيكيِّين على الألمان يديرونهم ويحكمونهم ويراقبونهم. والألمان لا يحبّون ذلك: وهذا حقّهم الصراح. وإنِّي أعرفهم، أنا، هؤلاء الموظّفين التشيكيِّين، فقد كنت في تشيكوسلوفاكيا: كم هم مزعجون! وإذن، فالمراد هو أن تريق فرنسا، وهي بلد الحرِّيّة كما يقولون، دمها ليستمرّ الموظّفون التشيكيّون في ممارسة عنَتِهم على السكّان الألمان. ومن أجل هذا تراك أنت، أستاذ الفلسفة في ليسيه باستور، ذاهبًا لتقضي آخر سنوات شبابك على عمق عشرة أقدام تحت الأرض، بين «بتتش» و«ويسمبورغ». فإذا أتيت تقول لي بأنّك ذاهب في استسلام، وأنّه لا يهمّك كثيرًا أن تكون هذه الحرب عادلة أو غير عادلة، فإنّ ذلك يغيظني قليلاً.

كان ماتيو ينظر إلى أخيه في تململ؛ وكان يفكِّر: «سيادة أقواميّة، ما كنت لأفكّر في هذا أبدًا» ومع ذلك، فقد قال، إراحة لضميره:

ـ ليست هي السيادة الأقواميّة ما يريده السوديت الآن، وإنّما يريدون الارتباط بألمانيا.

فبدت على وجه جاك كزازة ألم:

ـ أرجوك يا ماتيو، لا تتكلّم كحارس بنايتنا، ولا تُسمِّهم السوديت. السوديت هي جبال. وإنّما قل: ألمان السوديت إذا أردت، أو الألمان فقط. ماذا إذن؟ يريدون الارتباط بألمانيا؟ ذلك لأنّهم قد دُفعوا حتى نفد صبرهم. فلو أنّهم أُعطوا في البدء ما كانوا يطلبون، لما بلغنا ما نحن فيه

الآن. ولكن بنيش قد خدع وتثعلب، لأنّ بعض الأعيان الطراطير عندنا تورّطوا فجعلوه يعتقد بأنّ فرنسا تقف وراءه: وهذه هي النتيجة.

ونظر إلى ماتيو في حزن، وأضاف:

ـ قد أحتمل هذا كلّه: فإنّي أعرف منذ وقت طويل ما الذي يساويه السياسيّون. أمّا أن تفقد، أنت الرجل العاقل، الجامعي، حسّ ردود الفعل الأكثر بدائيَّة، بحيث تنقل إليّ بكلّ هدوء بأنّك ذاهب إلى المسلخ لأنّك لا تستطيع أن تفعل شيئًا آخر، فإنّي لا أستطيع أن أحتمل ذلك. فإذا كنتم كثيرين تفكّرون على هذا النحو، فإنّ فرنسا هالكة يا عزيزي المسكين!

فسأله ماتيو: ـ ولكن ما الذي تريدنا أن نفعله؟

ـ ماذا؟ إنّنا ما زلنا، يا ماتيو، في عهد ديموقراطي. وأعتقد أنّه ما يزال في فرنسا رأي عام.

ـ وبعد ذلك؟

ـ حسنًا! لو أنّ ملايين من الفرنسيّين، بدلاً من أن يستنفدوا قواهم في منازعات عابثة، انتصبوا جميعًا ليقولوا لحكّامنا: «إنّ ألمان السوديت يريدون العودة إلى أحضان جرمانيا! فليعودوا إليها: فهذا إنّما يعنيهم وحدهم!»، لما وُجد رجل سياسي واحد يجازف بإشعال حرب من أجل هذه الترّهة.

ووضع يده على ركبة ماتيو، وأضاف بلهجة مصالحة:

ـ أنا أعرف أنّك لا تحبّ العهد الهتلري. ولكن يمكن للناس مع ذلك ألّا يقاسموك آراءك المسبقة ضدّه: فهو عهد فتيّ ناشط قدّم أدلّته، وهو يمارس على أمم أوروبا الوسطى جاذبيّة لا جدال فيها. ثم إنّ هذا، على أيّ حال، قضيّتهم: فليس لنا أن نتدخّل فيها.

وخنق ماتيو تثاؤبة، وردّ ساقيه تحت كرسيّه، ثم ألقى نظرة خفيّة على وجه أخيه المترهّل بعض الشيء، وفكّر بأنّه كان يشيخ، وقال بوداعة:

ـ ربّما، ربّما كنتَ على حقّ.

وهبطت أوديت السلّم وجلست بالقرب منهما في صمت. وكانت على جمال حيوان وديع وعلى هدوئه: كانت تجلس وتنهض وتعود إلى الجلوس، وهي واثقة من أنّها لم تكن لتُرى. والتفت إليها ماتيو في ضيق: إنّه لم يكن يحبّ أن يراهما معًا. فإذ يكون جاك موجودًا، لا يتغيّر وجه أوديت، بل يبقى أملس هاربًا، كوجه تمثال ذي عينين بلا حدق. ولكنّ المرء يكون مضطرًّا إلى أن يتمعّن فيه بطريقة أخرى.

وقال وهو يبتسم: ـ إنّ جاك يرى أنّي لست حزينًا، من جرّاء ذهابي، بما فيه الكفاية. وهو يحاول أن يبثّ الحزن العميق في نفسي بأن يوضح لي بأنّي إنّما أذهب للموت من أجل لا شيء.

فبادلته أوديت بسمة. ولم تكن بسمة المجاملة التي كان ينتظرها، بل كانت بسمة له وحده. وفي لحظة، كان البحر هناك من جديد، وذبذبة الماء الخفيفة والظلال الصينيّة التي كانت تعدو على الأمواج، ودفقة الشمس التي تخفق في البحر، والنبات الأخضر، والإبر الخضر التي تغطّي الأرض، والظلّ المدبّب لشجر الصنوبر، والحرّ المُدوَّر الأبيض النافذ ورائحة القطران، وكلّ كثافة صبيحة أيلوليّة في «جوان ليبان». أوديت، أيّتها العزيزة. متزوِّجة زواجًا سيِّئًا، ومحبوبة حبًّا سيِّئًا؛ ولكن هل يحقّ القول بأنّها قد أضاعت حياتها، حين يكون بوسعها أن تولِّد من جديد، إذ تبتسم، حديقةً على ضفّة الماء، وحرارةَ الصيف على البحر؟ ونظر إلى جاك، فألفاه سمينًا ممتقع الوجه؛ وكانت يداه ترتجفان، وكان يصفّق بيده الجريدة في حماس؛ وفكّر ماتيو: «ممّ تراه يخاف؟» في الساعة الحادية عشرة من صباح السبت ٢٤ أيلول، كان باسكال مونتاستروك، المولود في نيم يوم ٦ شباط ١٨٩٩، والملقّب بـ «لوبورنيو»[١] لأنّه زرع سكّينًا في عينه اليسرى يوم ٦

---

(١) تعني بالعربيّة «الأعور». (هـ. م).

آب ١٩٠٧، وهو يحاول أن يقطع حبل الأرجوحة التي كان يجلس فيها رفيقه الصغير جولو تروفييه ليرى ما عسى يحدث من ذلك ـ كان باسكال مونتاستروك يبيع كعادته كلّ يوم سبت سوسنًا وأزرارًا ذهبيّة على رصيف «باسي»، قرب محطّة المترو؛ وكان له تكنيكه الخاصّ، إذ يأخذ الباقات الجميلة في سلّته الخيزرانيّة الموضوعة على مقعد قابل للطيّ، ويهبط إلى الطريق، والسيّارات تجري وهي تطلق زماميرها، فيصيح: «الباقات، الباقات الجميلة لسيِّدتك» وهو يشهر الباقة الصفراء؛ فتهجم السيّارة عليه، كالثور في الحلبة، ولا يتحرّك هو، بل يتراجع بالسلّة، ويلقي رأسه إلى خلف، ويدع للسيّارة أن تمرّ إزاءه كحيوان ضخم بليد، ويصيح من الباب المفتوح: «الباقات، الباقات الجميلة!» وكان السائقون عادة يقفون، فيصعد إلى الموطئ، وتأتي السيّارة لتقف بإزاء الرصيف، لأنّ ذلك كان عطلة نهاية الأسبوع، ولأنّهم كانوا يحبّون أن يعودوا إلى مساكنهم الجميلة في شارع «فيني» أو في شارع «رانولا» وهم يحملون لنسائهم باقات. «الباقات الجميلة». ويقفز إلى الخلف ليتفادى السيّارة، السيّارة المئة التي تمرّ من غير أن تقف، «ابتعد إذن!» لا أدري ما بالهم هذا الصباح. إنّهم يسوقون بسرعة وبوحشيّة، وهم منحنون على مقاودهم، صمٌّ كأنّهم طرشان بالفعل. إنّهم لم يكونوا ليدوروا إلى هذا الحدّ في شارع «شارلز ديكنز» أو في جادّة «لامبال»، بل كانوا يدخلون إلى المحطّات بأبّهة كبيرة، كما لو أنّهم يريدون المضيّ حتى «بونتواز»، وأنّ باسكال لوبورنيو لم يعد يفهم من ذلك شيئًا: «ولكن إلى أين هم ذاهبون؟ إلى أين يذهبون؟» فأن يمضي هو متأمّلاً سلّته الملأى بالأزهار الصفر والورديّة، إنّ ذلك ليثير الشفقة. وقال: ـ إنّ ذلك جنون محض. أجمل انتحار في التاريخ. لماذا؟ لقد أصيبت فرنسا بمذبحتين مريعتين خلال مئة عام، الأولى في أثناء حروب «الأمبراطوريّة» والأخرى عام ١٩١٤. وبالإضافة إلى ذلك، فإنّ نسبة المواليد تتدنّى كلّ يوم. وها هم يختارون هذه الفترة ليشنّوا حربًا تكلِّفنا ثلاثة ملايين رجل أو

أربعة! وقال وهو يدقّ كلماته دقًّا: ثلاثة ملايين رجل أو أربعة لن يكون بإمكاننا بعدُ أن نصنعهم مرّة أخرى. وسواء خرجنا منتصرين أو مهزومين، فإنّ البلاد ستنتقل إلى صفّ الدرجة الثانية من الأمم: فهذا أمر يقينيّ. ثم إنّ هناك أمرًا آخر سأقوله لك: سوف تُبتلع تشيكوسلوفاكيا قبل أن يُتاح لنا أن نقول «أوف». ليس أمامنا إلّا أن ننظر إلى خارطة: إنّها تشبه قطعة لحم بين شدقيّ الذئب الألمانيّ. فإذا شدّ الذئب قليلاً على أسنانه...

قالت أوديت: ـ ولكن ذلك لن يكون إلّا موقّتًا، فإنّ الدولة التشيكوسلوفاكيّة ستبُنى من جديد بعد الحرب.

قال جاك وهو يضحك بوقاحة:

ـ هكذا إذن؟ آه: إنّني أصدّقك تمامًا! هناك كلّ المظاهر في الواقع بأنّ الإنكليز سيسمحون بإعادة بناء أتون الحريق. خمسة عشر مليون نسمة. تسع جنسيّات مختلفة، إنّ ذلك تحدٍّ للعقل السليم. (وأضاف في قسوة) ينبغي على التشيك ألّا يخطئوا، فإنّ مصلحتهم الحيويّة هي أن يتفادوا هذه الحرب بأيّ ثمن.

«ممّ هو خائف؟» كان ينظر إلى السيّارات تجري، وهو يشدّ في يده باقته اللّامجدية، وكانت الطريق تشبه طريق شانتيي، ذات أمسية من أمسيات التبضّع، إذ يكون ثمّة من يحملون صناديق وفراشًا وعربات أطفال وماكينات خياطة على سقوف سيّاراتهم؛ والسيّارات كلّها تكون ملأى بالمحافظ والرزم والسلال حتى لتنفجر. وقال باسكال لبورنيو: «كفى!» كانت السيّارات تجري وهي محمّلة جدًّا، حتى إنّ الحدائد التي تقي من الوحل كانت تصدم العجلات لدى كلّ ارتجاجة. وفكّر بأنّهم يهربون، إنّهم يهربون. وقفز قفزة خفيفة إلى الخلف ليتجنّب سيّارة «سالمسون»، ولكنّه لم يكن يفكّر في الصعود إلى الرصيف. كانوا يهربون ـ أولئك السادة ذوو الوجوه الملوّنة بالمساحيق، المدلّكة، والأولاد السمان، والسيّدات الجميلات ـ كأنّما كانت النار في إستهم، كانوا يفرّون أمام الألمان، وأمام

قصف الغارات، وأمام الشيوعيّة. وكان يفقد هناك كلّ زبائنه. ولكنّه كان يجد ذلك مضحكًا جدًّا: هذا الصفّ من السيّارات، وهذا الهرب المجنون نحو مقاطعة نورماندي. وكان ذلك يجزيه عن أشياء كثيرة، حتى إنّه ظلّ واقفًا في عرض الطريق، تلامسه السيّارات الفارّة وهو آخذ في القهقهة من كلّ قلبه.

ـ وكيف نستطيع، من فضلك، أن ننجدهم؟ الواقع أنّه ينبغي علينا في آخر الأمر أن نهاجم ألمانيا. ولكن من أين؟ في الشرق يقوم خطّ سيغفريد، وسوف نحطّم عليه أنفنا. وفي الشمال، تقوم بلجيكا، فهل ترانا سننتهك حياد بلجيكا؟ إذن، قل لي: من أين؟ أم علينا أن نقوم بالدورة من طريق تركيا؟ إنّ ذلك أمر لا يُمكن وقوعه. وكلّ ما نستطيع أن نفعله هو أن نبقى على سلاحنا، في انتظار أن تصفّي ألمانيا حسابها مع تشيكوسلوڤاكيا. وبعد ذلك، ستأتي لتصفّي حسابنا...

قالت أوديت: وإذن، ففي تلك الفترة...

فأدار إليها جاك نظرة زوج، وسألها ببرود:

ـ ماذا؟ (وانحنى على ماتيو) هل حدّثتك عن «لوران» الذي كان رئيسًا أعلى في شركة «إير فرانس» والذي بقي مستشار «كوت» و«غي لاشمبر؟» اسمع إذن: إنّني أقدّم لك من غير تعليق ما قاله لي في تمّوز الماضي: إنّ كلّ ما يملكه الجيش الفرنسيّ أربعون قاذفة وسبعون مطاردة. فإذا كان هذا صحيحًا، فإنّ الألمان سيكونون في باريس في رأس السنة!».

قالت أوديت غاضبة: ـ جاك!

«ممّ هو خائف؟» كان باسكال يضحك ويضحك، وكان قد ترك باقته تسقط ليضحك على كيفه، وقفز قفزة إلى الخلف، فمرّت عجلة على سوق الباقة. ممّ هو خائف؟ إنّها غاضبة لأنّ هناك من سمح لنفسه بأن يواجه هزيمة فرنسا. إنّها ليست قريبة إلى النفس تمامًا: فالكلام يخيفها. إنّهم يخافون

المناطيد، وقد رأيتها أنا عام ١٩١٦، فلم تكن تذهب بعيدًا، ويعود الأمر من جديد؛ كانت السيّارات تمرّ بأقصى سرعتها على السوق المطحونة، وكان باسكال يُحسّ الدمع في عينيه لفرط ما كان يجد ذلك باعثًا على الضحك. غير أنّ موريس لم يكن يجد هذا ممتعًا على الإطلاق. كان قد دفع للرفاق تكاليف الدورة، وكان راسلاه ما يزالان يحرقانه من الضربات الكثيرة التي تلقّاها. وها هو الآن وحده، وينبغي له عمّا قليل أن يُطلع زيزيت على ذلك. ورأى المنشور الأبيض في أعلى الجدار الرماديّ لمصانع «بينهويت» فاقترب، وكان محتاجًا إلى قراءته وهو وحده، وفي بطء:

«بأمرٍ من وزير الدفاع الوطنيّ والحرب ومن وزير الطيران». الموت، إنّ ذلك لم يكن شيئًا مريعًا جدًّا، وإنّما كان حادثًا من حوادث العمل، وكانت زيزيت قاسية، وكانت من الفتوّة بحيث تستطيع أن تستأنف حياتها من جديد، فإنّ الأمر يكون يسيرًا جدًّا دائمًا حين لا يكون ثمّة أطفال. أمّا فيما عدا ذلك، فهو سيذهب، ثم يحتفظ في النهاية ببندقيّته، فهذا أمر متّفقٌ عليه. ولكن متى تجيء النهاية؟ بعد عامين؟ بعد خمس سنوات؟ لقد دامت الحرب الأخيرة اثنين وخمسين شهرًا. وطوال اثنين وخمسين شهرًا يجب إطاعة الرقباء والمعاونين، وجميع أولئك الأبقار الذين طالما كرههم. يجب إطاعتهم على الرأس والعين، وتحيّتهم في الشارع بينما يكون مضطرًّا إلى إدخال يديه في جيوبه، إذ يلتقي بأحدهم، حتى يمنع نفسه من الانقضاض عليه ولكمه في وجهه. فإذا كانوا في القطاع، كان عليهم أن يقفوا مرتبكين، كأنّهم يستشعرون في ظهورهم رجفة الرصاص؛ وإذا كانوا في الراحة، وجب عليهم أن يتظاهروا بالطيبة والطاعة كما لو كانوا في الثكنة. أوه! متى يأتي يوم الهجوم الأوّل لأطلق عليه رصاصي، ذلك المعاون الذي سيمشي أمامي! واستعاد مشيته، وكان يستشعر الحزن والرقّة كما كان يُحسّ في عهد الملاكمة، إذ هو في غرفته يخلع ثيابه، قبيل الحفلة بربع ساعة. لقد كانت الحرب دربًا طويلة، طويلة جدًّا، فلا ينبغي التفكير

بها أكثر ممّا ينبغي، وإلّا لانتهى الأمر بأن يجد الإنسان أنّه لم يكن لشيء معنى، حتى ولا النهاية، حتى ولا العودة وفي يده البندقيّة. درب طويلة، طويلة جدًّا. وربّما مات وهو في منتصف الطريق، كما لو لم يكن له هدف آخر غير أن يَدَعهم يثقبون جلده ليدافع عن مصانع شنايدر أو عن صندوق السيِّد «دو واندل». كان يمشي في الغبار الأسود بين جدار مصانع «بينهويت» وجدار ورشات «جيرمان»؛ وكان يرى عن يمينه، في البعيد، السقوف المائلة لمشاغل عمّال السكك الحديديّة للشمال، وأبعد من ذلك، المدخنة الكبيرة الحمراء للمحرقة، وكان يفكِّر: «درب طويلة، طويلة جدًّا» وكان «لوبورنيو» يضحك بين السيّارات، وموريس يمشي في الغبار، وماتيو جالسًا على شاطئ البحر، يستمع إلى جاك، ويقول لنفسه: «لعلّه على حقّ»، وكان يفكِّر بأنّه سيتجرّد من ثيابه، ومن مهنته، ومن هويّته، ويذهب عاريًا ليخوض أكثر الحروب عبثيَّة، حربًا خاسرة مقدَّمًا، وكان يُحسّ نفسه يسيل في أعماق الغفليَّة؛ إنّه لم يكن بعد شيئًا، لا الأستاذ القديم لبوريس، ولا العشيق القديم لمارسيل القديمة، ولا العاشق الأقدم لإيفيش؛ لا شيء إلّا اسمًا غفلاً، بلا عمر، سُرق منه المستقبل، وأصبحت أمامه أيّام لا يمكن التنبّؤ بها. وفي الساعة الحادية عشرة والنصف، توقّف الباص في «سافي» فنزل منه «بيار» ليزيل خدر ساقيه. وكان ثمّة أكواخ مسطّحة صفراء على حافّة الطريق المزفّتة: وخلفها كانت «سافي» تتدرّج بخفاء نحو البحر. وكان ثمّة عربٌ يطبخون، وهم مقرفصون فوق رقعة واسعة من الأرض المحمرّة، وكانت الطائرة تحلّق فوق رقعة صفراء رماديّة، كانت هي فرنسا. وفكّر بيار في حسد: «كم يستطيع هؤلاء ألّا يبالوا!»، وكان يمشي بين العرب، ويستطيع أن يلمسهم، ومع ذلك فهو لم يكن حاضرًا بينهم: لقد كانوا يدخّنون «كيفهم» في الشمس بهدوء، أمّا هو فكان ذاهبًا ليحطّم رأسه في الألزاس، وتعثّر بمدرة من الأرض، وسقطت الطائرة في جيب هوائي، وفكّر الشيخ: «إنّني لا أحبّ الطائرة». كان هتلر ينحني فوق الطاولة،

والجنرال يشير إلى الخارطة ويقول: «خمس فرق من الدبّابات، ألف طائرة تنطلق من «دريسد» و«تمبلهوف» و«ميونيخ». وكان شمبرلن يضغط منديله على فمه ويفكّر: «هذه هي رحلتي الثانية في الطائرة. إنّني لا أحبّ السفر في الطائرة». إنّهم لا يستطيعون أن يساعدوني، فهم مقرفصون، تحت الشمس، شبيهون بأوعية صغيرة من الماء المدخَّن، وهم مسرورون، وهم وحدهم على الأرض.. وفكّر في يأس: «آه! يا إلٰهي! يا إلٰهي! ليتني أستطيع أن أكون عربيًّا!».

في الساعة الحادية عشرة والدقيقة الخامسة والأربعين، صعد «فرنسوا هانوكين»، وهو صيدليّ من الدرجة الأولى في «سانت ـ فلور»، طوله متر وسبعون، ذو أنف مستقيم وجبين متوسط، وحَوَل خفيف، ولحية في شكل إكليل، ورائحة قويّة للفم ولشعر الفرج، والتهاب في الإِمعاء استمرّ حتى السابعة من عمره، وعقدة أوديب صُفيت حوالى الثالثة عشرة، وحائز للبكالوريا في السابعة عشرة، واستمناء حتى فترة الخدمة العسكريّة بمعدّل مرّتين أو ثلاث في الأسبوع، مشترك في جريدتي «تان» و«ماتان». زوج بلا أولاد لـ «إسبيرانس ديولافوا»، كاثوليكي ممارس لواجبات التناول بمعدّل مرّتين أو ثلاث كلّ ثلاثة أشهر ـ صعد فرانسوا هانوكين إلى الطابق الأوّل، فدخل غرفة الزواج حين كانت امرأته تجرِّب قبّعة، وقال: «هذا هو حقًّا ما كنت أقوله لك، إنّهم يستدعون حملة الكرّاسة رقم ٢»، ووضعت امرأته القبّعة على طاولة الزينة، ونزعت الدبابيس من فمها وقالت: «أنت ذاهب إذن بعد ظهر اليوم؟» فقال: «نعم، في قطار الساعة الخامسة». قالت زوجته: «تبًّا لك! إنّني مضطّربة جدًّا، ولن يكون لديّ الوقت لأعدّ لك كلّ شيء. ماذا ستأخذ معك؟ قمصان طبعًا وسراويل طويلة، فأنت تملك منها ما هو صوفي وما هو قطنيّ وما هو من الموسلين، وأفضلها الصوفي. أوه! ثم زنانير من الفلانيل، حبّذا لو تأخذ منها خمسة أو ستّة بعد أن تلفّها». فقال هانوكين: لا حاجة للزنانير، فهي أعشاش للقمل» «أيّة فظاعة»، ولكن

لن يدركك القمل، فأرجوك أن تأخذها، إرضاءً لي، حتى إذا كنت هناك عرفت ماذا تصنع بها، ومن حسن الحظّ أنِّي ما زلت أحتفظ ببعض المعلّبات، تلك التي اشتريتها عام ١٩٣٦، في فترة الإضرابات، فكنت تسخر منِّي، وعندي علبة كرنب بالخمر الأبيض، ولكنّك لن تحبّ ذلك. . .»، فقال وهو يفرك يديه: «إنّ ذلك يحدث لديّ حموضة، ولكن إذا كان لديك علبة فاصولياء. . .» قالت إسبيرانس: «علبة فاصولياء، ولكن كيف لك أن تسخّنها يا صديقي المسكين؟» قال هانوكين: «هكذا!» «كيف هكذا؟ إنّها تسخن على البخار». «هل عندك إذن فراخ مجمّدة؟» «نعم عندي، بالإضافة إلى مورتاديلّا بعث بها الأقارب في كليرمون». وحلم لحظة، وقال: «سآخذ سكّيني السويسري». «نعم، وأين تراني سأضع زجاجة الترموس لقهوتك؟» «آه، نعم، قهوة، يجب أن يكون هناك شيء حارّ ليتماسك به بطني (وأضاف وهو يبتسم بكآبة) هذه هي المرّة الأولى التي سآكل فيها، منذ تزوّجت، من غير حساء. ضعي لي بعض الخوخ، وزجاجة كونياك». «هل تأخذ الحقيبة الصفراء؟» فانتفض: «الحقيبة؟ على الإطلاق، إنّ هذا غير مناسب، ثم إنِّي لست حريصًا على إضاعتها. إنّ كلّ شيء يُسرق هناك. سوف آخذ مزماري ذا القربة» «أيّ مزمار؟» «المزمار الذي كنت آخذه حين أذهب للصيد، قبل زواجنا. فماذا فعلت به؟» «ماذا فعلت به؟ آه، لا أدري يا عزيزي المسكين، لقد أضعتَ لي رأسي، أعتقد أنِّي وضعته في «العلّيّة» «في العلِّيّة؟ يا إلٰهي! مع الفئران! سيكون ذلك رائعًا!» «إنّك تحسن صنعًا إذا أخذت الحقيبة معك، فهي ليست كبيرة، وبوسعك أن تراقبها جيِّدًا. آه! أنا أعرف أين هي: عند ماتيلد. لقد أعرتها إيّاها للنزهة». «أعرت ماتيلد مزماري؟» «ولكن لا، أنت تحدِّثني عن المزمار؟ قلت لك زجاجة الترموس». فقال هانوكين بحزم: «مهما يكن، فأنا أريد مزماري». «آه يا عزيزي! ما الذي تريده أن أقول لك، انظر إلى ما لديّ من عمل. ساعدني قليلاً، وابحث عنه بنفسك، مزمارك، وبوسعك أن

تنظر في العلّيّة»! وصعد السلّم، فدفع باب العلّيّة، وأحسّ برائحة الغبار، ولم يكنِ يميّز شيئًا. فرّت فأرة بين ساقيه، ففكّر: «لعنة الله عليها! لا بدّ أنّ الجرذان قد التهمته!».

وكان ثمّة صناديق، وتمثال من خيزران، وخريطة للكرة الأرضيّة، وفرن قديم، وأريكة طبيب أسنان، وأرغن، وكان ينبغي إزاحة هذا كلّه. ليتها خطر لها أن تضعه في صندوق، بمنحى من كلّ شيء. وفتح الصناديق واحدًا بعد الآخر، وكان يغلقها في غضب. لقد كان المزمار لطيفًا سهل الاستعمال، جلديًّا، وله فتحة، وكان يمكن أن تدخل فيه أشياء كثيرة، وكان له قطاعان. والحقّ، أنّ هذه الأشياء هي التي تساعدك على تمضية اللحظات السيّئة، ولا يشكّ أحد في أهمّيّة ذلك. وفكّر في غضب: «مهما يكن من أمر، فلن أذهب والحقيبة معي، فأنا أفضّل ألّا أحمل شيئًا».

وجلس على صندوق، وكانت يداه سوداوين من الغبار، كان يُحسّ الغبار كصمغ جافّ خشن على جسمه كلّه، وكان يرفع يديه في الهواء حتى لا يلطّخ معطفه الأسود. خُيِّل إليه أنّه لن يملك الشجاعة أبدًا ليخرج من العلّيّة، لم يبق لي ميلٌ لشيء، وهذه الليلة التي سيقضيها من غير أن يتناول حتى حساء حارًّا يمسك عليه بطنه، كانت تشعره بأنّ كلّ شيء عبث، وكان يستشعر الوحدة والضياع، وهو هناك، فوق، على صندوقه، مع تلك المحطّة الصاخبة المظلمة التي كانت تنتظره على مئتي متر تحته، ولكن صرخة إسبيرانس المرتعشة جعلته ينتفض، وكانت صرخة انتصار: «لقد وجدته! لقد وجدته!» ففتح الباب وأسرع إلى السلّم: «أين هو؟» «وجدت مزمارك، كان موجودًا تحت، في خزانة القبو»، وهبط السلّم فتناول المزمار من يديّ زوجته، ففتح قربته وتأمّلها ومسح عليها بظاهر كفّه، ثم وضعه على السرير، وقال: «اسمعي يا عزيزتي: كنت أتساءل إذا كنت أحسن صنعًا بأن أبتاع لي زوجًا من الأحذية؟».

إلى المائدة! إلى المائدة! وكانوا قد دلفوا إلى نفق الظُهر المغشي

للأبصار، أمّا في الخارج، فكانت السماء بيضاء من الحرارة، والشوارع الميِّتة البيضاء، والأرض الحرام، في الخارج كانت الحرب، وخلف المصاريع المغلقة، كانوا يطبخون على البخار. ووضع دانيال منشفته على ركبتيه، وعقد هانوكين منشفته على عنقه، وتناول برونيه منشفة الورق من على الطاولة فدعكها ومسح شفتيه، ودفعت جلين شارل إلى قاعة الطعام الكبيرة الخالية تقريبًا، ذات الزجاج المخطّط بالأشعّة الطبشوريّة، وعلّقت له المنشفة على صدره، كانت تلك هي الهدنة: الحرب، أجل، الحرب، ولكنّ الحرارة! الزبدة في الماء، والمدرة الضخمة في القاع، ذات جوانب فضفاضة زيتيّة، والماء الرمادي من فوق، وأطراف الزبدة الصغيرة الميِّتة التي تطفو وبطنها في الهواء، وكان دانيال ينظر إلى فقّاعات الزبدة تذوب في صحيفة الفجل، ومسح برونيه جبينه، وكان الجبن يعرق في صحيفته كما يعرق الرجل النشيط في عمله، وكانت بيرة موريس فاترة، فدفع قدحه وقال: «تفه! لكأنّها بول!» وكانت قطعة ثلج تسبح في خمر ماتيو، فشرب، وأحسّ أوّلاً بماء بارد في فمه، ثم ما لبث مستنقع صغير من الخمر الطائش الذي ما يزال حارًّا بعض الشيء أَن ذاب ماءً، وأدار شارل رأسه قليلاً وقال: «وأيضًا حساء؟ لا بدّ أنّهم مجانين حتى يقدِّموا لنا الحساء في عزّ الصيف». ووضعوا صحيفته على صدره، فكانت تبعث الحرارة في جلده عبر المنشفة والقميص، وكان لا يرى أكثر من طرف الخزف المطليّ، فأغرق ملعقته بعد تقدير سريع، ثم رفعها عموديًّا، ولكن من يضطّجع على ظهره لا يكون واثقًا قطّ من الوضع العموديّ، ولذلك سقط بعض الحساء في الصحن وهو يقرقر، وأعاد شارل الملعقة بهدوء إلى ما فوق شفتيه، وأمالها من جهة، ثم طزّ! هكذا يحدث له دائمًا، وسال المائع الساخن على خدّه فأغرق ياقة قميصه. الحرب، آه، نعم، الحرب. قالت زيزيت: لا، لا، ليس الراديو، لا أريد بعد أن أفكّر فيه. قال موريس: بلى، قليل من الموسيقى، شيرسو، غودب، ث شرر، يا نجمي، أخبار، أغنية

«القبّعات والغلالات»، وأغنية «سأنتظر» بطلب من هوغيت أرنال، ومن بيار دو كروك وزوجته وابنتيه في «لاروش كانيلاك» ومن الآنسة إليان في «كالفي» وجان فرانسوا روكيت لصغيرته ماري مادلين ومن فريق من الضاربات على الآلة الكاتبة في تول لأصدقائهنّ الجنود. سأنتظر الليل والنهار، خذ مزيدًا من السمك المطبوخ، فقال ماتيو: لا، شكرًا، لا يمكن للقضيّة إلّا أن تُسوّى، وكان الراديو يفرقع. ويدرج فوق الساحات البيضاء الميّتة، ويحطّم الواجهات، ويدخل في المدينة إلى المخانق المظلمة، وكانت أوديت تفكّر: لا يمكن للقضيّة إلّا أن تُسوّى، فقد كان هذا يقينًا، وكان الطقس حارًّا جدًّا. وكانت الآنسة إليان وزيزيت وجان فرانسوا روكيت وأسرة دو كروك من بلدة «روش كانيلاك» يفكّرون: لا يمكن للقضيّة إلّا أن تُسوّى، وكان الطقس حارًّا جدًّا. وسأل دانيال: ما تريد أن يفعلوا، وكان شارل يفكّر بأنّها كانت غارة كاذبة، وهم سيتركوننا هنا، ووضعت إيلّا بيرنانشاتز شوكتها، وارتدّت برأسها إلى خلف، وقالت: أمّا أنا، فإنّي لا أؤمن بالحرب. سأنتظر دائمًا عودتك، وكانت الطائرة تحلّق فوق زجاج مُغبرٍّ ملقًى، وعلى طرف الزجاج، بعيدًا جدًّا، كان يُرى بعض ملاط، وانحنى هنري نحو شمبرلن وصاح في أذنه: إنّها إنكلترا، إنكلترا والجمع الذي يتدافع عند حواجز المطار، منتظرًا رجوعه، يا حبيبي، دائمًا، وحدث له وهنٌ قصير، وكان الطقس حارًّا جدًّا، وكانت به رغبة لأن ينسى الفاتح الذي يشبه رأسه رأس الذبابة، وفندق دريسن والمذكّرة، رغبة لأن يصدّق، يا إلٰهي، يصدّق بأنّ القضيّة يمكن أن تُسوّى بعد، وأغمض عينيه، يا لعبتي الحبيبة، بناء على طلب السيّدة دورانتي وحفيدتها الصغيرة، من بلدة دو كازفيل، الحرب يا إلٰهي أجل، الحرب والحرارة والقيلولة الحزينة الخاضعة، كازا، هذه كازا، وتوقّف الباص في ساحة بيضاء مقفرة، فكان بيار أوّل الخارجين ودخلت في عينيه الدموع المحرقة، وكان ما يزال في الباص بعض آثار الصباح، أمّا في الخارج، حيث الشمس مشعّة، فقد كان

ثمّة موت الصباح. انتهى الصباح، يا لعبتي الحبيبة، انتهى الشباب، وانتهت الآمال، وهذه كارثة الظُهر الكبرى. وكان جان سيرفان قد دفع صحنه، وكان يقرأ الصفحة الرياضيّة في «باري ـ سوار»، ولم يكن قد بلغه قرار التعبئة الجزئيّة، فقد كان في عمله، وعاد منه ليتناول الغداء، وسيعود إليه حوالى الساعة الثانية، وكان لوسيان رينيه يكسر جوزًا بين كفّيه، وكان قد قرأ المناشير البيضاء، ويفكِّر: إنّ ذلك خداع، وكان فرانسوا ريستوت، فتى المختبر في معهد «ديريان»، يمسح صحنه بالخبز ولا يفكِّر بشيء، وكانت زوجته لا تفكِّر بشيء. رونيه مالّوفيل، بيار شارتيه لا يفكِّران بشيء. في الصباح، كانت الحرب قطعة ثلج صغيرة قاطعة في رؤوسهم ثم ذابت، فأضحت مستنقعًا صغيرًا فاترًا. يا لعبتي الحبيبة، الطعم السميك المظلم للحم البقر البورغونيوني، ورائحة السمك، وجذر اللحم بين ضرسين، وبخار الخمر الأحمر، والحرارة، الحرارة! مستمعيّ الأعزّاء، إنّ فرنسا التي لا تتزعزع، على كونها مسالمة، تواجه مصيرها بحزم.

كان تعبًا، وسادرًا، وقد أمرّ يده ثلاث مرّات أمام عينيه، وكان النهار يؤذيه، وقال داوبورن الذي يمصّ رأس قلمه لزميله في «المورننغ بوست»: «لقد أصيب بضربة الخيزران». ورفع يده وقال بوهن: ـ إنّ واجبي الأوّل، الآن وقد عدت، هو أن أكتب تقريرًا للحكومتين الفرنسيّة والإنكليزيّة عن نتائج مهمّتي، وإلى أن أنجزه، يصعب عليّ أن أقول عنه شيئًا.

وكان الظهر يلفّه بكفنه الأبيض، وكان داوبورن ينظر إليه ويفكِّر في دروب طويلة مقفرة بين صخور رماديّة وصدئة تحت نار السماء. وأضاف العجوز بصوت أكثر وهنًا:

ـ سأكتفي بما يلي: إنّني على ثقة من أنّ المعنيين جميعًا سيواصلون جهودهم ليحلّوا مسألة تشيكوسلوفاكيا حلًّا سلميًّا، لأنّ سلام أوروبا في عصرنا هذا متوقّف على هذا الحلّ.

كانت تنقر فتات خبز على الخوان نقرًا دقيقًا. وهي منزعجة قليلاً،

كما يحدث إذ تكون مصابة بزكام العلف، وقد قالت لي: إنّ في معدتي كرة من الهواء، وذرفت بعض الدمع، من الذعر: إنّ ذلك سيعكّر كلّ عاداتها. فقلت لها: «في الأوقات الأولى. في الأوقات الأولى فقط». وهي تفكّر بأنّها شقيّة، وهذا البرد الخفيف الغامض في رأسها، تحسبه شقاء. وهي تقف مستقيمة، وتفكّر بأنّه لا يحقّ لها أن تسترخي، وأنّ جميع نساء فرنسا شقيّات مثلها. إنّها لائقة، هادئة، مهيبة، وهي تبدو إذ تضع ذراعيها الجميلتين على الخوان، كأنّها جالسة بأُبّهة على صندوق حانوت كبير. وهي لا تفكّر، ولا تريد أن تفكّر بأنّها ستصبح أهدأ كثيرًا ممّا هي، بعد ذهابي. بمَ تفكّر؟ بأنّ هناك لطخة صدأ على مقبض سكّينها. وتقطّب حاجبيها، وتحكّ اللطخة بطرف ظفرها الأحمر. ستكون أهدأ كثيرًا. أمّها، صديقاتها، المعمل، السرير الكبير الخاصّ بها وحدها، إنّها لا تكاد تأكل، وهي ستقلي البيض فوق ركن من الفرن، أمّا الصغيرة فلا يصعب تغذيتها، فهناك الحساء، الحساء دائمًا، وكنت أقول لها: ولكن اعطيني أيّ شيء، الشيء نفسه دائمًا، ولا تحاولي أن تؤلّفي لوائح مختلفة، فأنا لا أنتبه قطّ لما آكل، فكانت تعاند: لقد كان ذلك واجبها.

- جورج؟

- عزيزتي؟

- هل تريد بزورًا مغليّة؟

- لا، شكرًا.

وشربت بذورها المغليّة وهي تتنهّد، وعيناها حمراوان. ولكنّها لا تنظر إليّ، وإنّما تنظر إلى الخزانة، لأنّها هناك، تجاهها تمامًا. وليس لديها ما تقوله لي، أو أنّها ستقول لي: حذار من البرد. ولعلّ الأمر يبلغ بها أن تتخيّلني هذا المساء في القطار، شكلاً صغيرًا هزيلاً مركومًا في جوف القاطرة، غير أنّ الأمر يتوقّف هنا، إذ إنّه بعد ذلك أصعب ممّا ينبغي: إنّها

تفكِّر بحياتها هنا. بأنّ ذلك سيخلّف فراغًا. فراغًا صغيرًا جدًّا، يا أندريه: إنِّي قليلاً ما أترك ضجّة. كنت في أريكة ومعي كتاب، وكانت ترتّق الجوارب، ولم يكن لدينا ما نقوله. ستكون الأريكة هنا دائمًا ـ المهمّ، هو الأريكة. وستكتب لي. ثلاث مرّات في الأسبوع. بكلّ دقّة. وستكون رصينة كلّ الرصانة، وستبحث طويلاً عن الحبر والريشة ونظّارتيها الشقراوين، ثم تجلس بهيئة مهيبة أمام هذه الطاولة غير المريحة التي ورثتها عن جدّتها «فاسور»: «الصغيرة تنبت أسنانُها، أمِّي تزورنا بمناسبة الميلاد، ماتت السيِّدة أنسولان، أميليان تتزوّج في أيلول، الخطيب ممتاز، مسنٌّ بعض الشيء، يعمل في «التأمينات». أمّا إذا أصيبت الصغيرة بالشهاق، فإنّها ستخفي عنِّي النبأ، حتى لا تورث لديّ القلق. «مسكين جورج، ليس هو بحاجة إلى ذلك، فهو يقلق من أجل لا شيء». سوف ترسل لي رزمة المقانق والسكّر وكيس القهوة وكيس التنباك وزوج الجوارب الصوفيّة، وعلبة السردين، وأقراص الميتا، والزبدة المملّحة. رزمة بين عشرة آلاف، شبيهة بالعشرة الآلاف الأخرى؛ فإذا أخطأوا وأعطوني رزمة جاري، فلن أتنبّه إلى ذلك، الرزم والرسائل وحساء جانيت المطبوخ، واللطخات على مقبض السكِّين، والغبار على الخزانة، إنّ ذلك كلّه يكفيها؛ وسوف تقول، في المساء: إنّني تعبة، ولا أستطيع بعد أن أصمد. ولن تقرأ الصحف؛ لن تقرأها أكثر ممّا تقرأها الآن: فهي تكرهها لأنّها ورق منثور هنا وهناك ولا يمكن استعماله للمطبخ أو للمرحاض قبل مضي ثمان وأربعين ساعة. وستأتي السيِّدة هيبرتو حاملة لها الأنباء: لقد أحرزنا نصرًا كبيرًا، أو أنّ الأمور لا تسير على ما يرام، يا صديقتي الصغيرة، الأمور لا تسير. إنَّها تراوح مكانها. وقد سبق لهنري وباسكال أن اتّفقا مع زوجتيهما على لغة مرقّمة لينبّئاهما أين يكونان: وذلك بوضع خطوط تحت بعض الأحرف. غير أنّ الأمر مع أندريه لم يكن مجديًا. ومع ذلك فقد حاول، ليرى النتيجة:

ـ بوسعي أن أبلغك أين أكون.
فسألته في دهشة: ـ ولكن أليس ذلك ممنوعًا؟
ـ طبعًا، غير أنّنا سنتدبّر الأمر. فأنت ستقرأين مثلاً الأحرف الكبيرة، كما كان يحدث في حرب ١٩١٤.
فقالت وهي تتنهّد: ـ إنّ هذا معقّد جدًّا.
ـ ولكن لا، سترين، إنّه سهل جدًّا.
ـ نعم، غير أنّهم سيكتشفون أمرك، فيضعون رسائلك في السلّة، ويأخذني القلق.
ـ إنّ الأمر يستحقّ المخاطرة.
ـ أوه! إذا شئت، ولكنّك تعلم يا عزيزي، أنا والجغرافية... سأنظر في خارطة، فأرى دائرة تحتها اسم، فماذا يجديني ذلك؟
وهكذا. وهذا أفضل، على نحو ما، هذا أفضل كثيرًا، فهي ستقبض راتبي...
ـ هل أعطيتك التوكيل؟
ـ نعم يا حبيبي، لقد وضعته في الخزانة.
هذا أفضل كثيرًا، فلا بدَّ أنّه أمرٌ مزعج أن نترك شخصًا شديد نفاد الصبر، كثير القلق، ولا بدَّ أن نُحسّ أنّنا مخطئون. ورفعت كرسيّي.
ـ أوه، كلّا، لا حاجة بك يا حبيبي أن تطوي منشفتك.
ـ صحيح.
ولم تسألني إلى أين أنا ذاهب. إنّها لا تسألني قطّ ذلك. وقلت لها:
ـ إنّني ذاهب لأرى الصغيرة.
ـ لا توقظها.
ـ لن أوقظها، كنت إذا رغبت في ذلك، أخفق في إحداث ضجّة كافية لإيقاظها، فأنا أخفّ ممّا ينبغي. ودفع الباب. وكان مصراع قد انفتح،

فدخل منه أصيل طبشوريّ باهر، وكان نصف الغرفة لمّا يزل في الظلّ، غير أنّ النصف الآخر كان يبعث الشرارات تحت نورِ مُغبرٍّ، وكانت الصغيرة نائمة في مهدها، فجلس جورج بقربها. شعرها الأشقر، فمها الصغير النقيّ، وهاتان الوجنتان المليئتان المتهدِّلتان قليلاً، واللتان تجعلانها شبيهة بقاضٍ إنكليزيّ. لقد بدأت تحبّني. وكانت الشمس تزداد انتشارًا، فدفع المهد إلى الوراء قليلاً. أجل، هكذا! إنّها لن تكون جميلة، فهي تشبهني. يا للطفلة المسكينة! حبّذا لو كانت تشبه أمّها. إنّها ما تزال طريّة، فكأنّها بلا عظام. ومع ذلك، فهي تحمل في نفسها هذا القانون الصارم الذي كان قانوني، إنّ الخلايا ستتكاثر وفق قانوني، وستتصلَّبُ الغضاريف وفق قانوني، وستتعظّم الجمجمة وفق قانوني. طفلة صغيرة هزيلة ذات ملامح فاقدة المعنى، وشعر كاب، وانحراف جانبي في الكتف اليمنى، ونظر حسير، إنّها ستعيش بلا ضجّة، ومن غير أن تلامس الأرض، متجنِّبة الناس والأشياء بحيل عظيمة، لأنّها ستكون أخفّ وأضعف من أن تزيحهم عن أمكنتهم. يا إلٰهي! يا لجميع هذه الأعوام التي ستجيئها، واحدًا بعد الآخر، من غير هوادة، وكلّ ذلك بلا جدوى، ولا فائدة، لأنّ كلّ شيء مكتوبٌ هنا، في لحمها، وينبغي أن تعيش قدرَها دقيقة دقيقة، وأن تظنّ أنّها تخترعه، وهو في الواقع موجود هنا، برمّته، يثير الاشمئزاز لسهولة التنبّؤ به، لقد أعديتها، فلماذا ينبغي أن تعيش قطرةً قطرة كلّ ما سبق لي أن عشته، ولماذا ينبغي دائمًا أن يتكرّر كلّ شيء، إلى ما لا نهاية؟ طفلة هزيلة، روح صغيرة متبصِّرة متورِّعة، تملك كلّ ما ينبغي لتتعذّب جيِّدًا. أمّا أنا، فإنّي ذاهب، فأنا مدعوّ لأعمال أخرى، وسوف تنمو. هنا، بعناد، وبلا حكمة، وسوف تمثِّلني. والشُهاق، وفترات النقاهة الطويلة، وذلك التعلُّق المسعور الشقيّ برفيقاتها الجميلات السمينات ذوات اللحم الورديّ، والمرايا التي ستنظر فيها وهي تفكِّر: هل أكون من القبح بحيث لا أُحَبّ؟ هذا كلّه، يومًا بعد يوم، مع الإحساس بسابق الرؤية، أتكون يا إلٰهي العظيم

بحاجة إليه؟ واستيقظت لحظة، ونظرت إليه بفضول رصين، وقد كانت هذه في نظرها لحظة جديدة تمامًا، وهي تعتقدها جديدة كلّ الجدّة. أخرجها من المهد وشدّها بين ذراعيه بكلّ قواه: «يا صغيرتي! يا طفلي الصغير! يا صغيرتي المسكينة!» ولكنّها خافت، فبدأت تصرخ.

«جورج!» قال من خلف الباب صوت مليء بالعتاب. وأعاد الصغيرة بكلّ هدوء إلى مهدها. نظرت إليه لحظة أخرى، نظرة قاسية شرسة ثم انغلقت عيناها، وانفتحتا من جديد وهما تطرفان، ثم انغلقتا تمامًا. لقد بدأت تحبّني. ينبغي أن أكون موجودًا هناك في كلّ ساعة، أن أعوِّدها على حضوري بعمق كبير حتى لا تستطيع بعد أن تراني. فكم يدوم هذا الفراق؟ خمسة أعوام، ستّة أعوام؟ سأجد فتاة حقيقيّة صغيرة تنظر إِليّ مذعورة وتفكِّر: «أهذا بابا؟» وستشعر بالخجل منِّي أمام صديقاتها الصغيرات. هذا أيضًا، قد عشته. حين عاد أبي من الحرب، كنت في الثانية عشرة، وكان بعد الظهر قد اكتسح الغرفة كلّها تقريبًا. بعد الظهر، الحرب. لا بدّ أن تشبه الحرب بعد ظهرٍ لا نهاية له. ونهض بلا ضجّة، وفتح النافذة برفق وسحب المصراع البرّاني.

الغرفة ١٩، هذه هي. لم تكن تجرؤ على الدخول، وظلّت واقفة أمام الباب، وحقيبتها في يدها، وهي تجهد في إقناع نفسها بأنّها كانت تحتفظ ببعض الأمل. ولنفرض أنّها كانت بالمصادفة غرفة صغيرة جميلة، مع بساط تحت السرير، وزهور في قدح، مثلاً، على لوحة المغسلة! إنّ هذه الأمور تحدث، فغالبًا ما تلتقي بأشخاص يقولون لك: «في هذه الباخرة أو تلك، لا حاجة بك إلى أن تستأجر درجة ثانية، فالثالثة لا تقلّ فخامة وأناقة عن الأولى».

وفي تلك اللحظة، ربّما كانت «فرانس» هادئة، وربّما قالت: «آه! حسنًا! هذه غرفة ليست كالأخرى. حبّذا لو كانت الدرجة الثالثة هكذا دائمًا...» وخُيّل إِلى «مود» أنّها كانت «فرانس». فرانس مصالِحة، مائعة،

تقول: «أوه! يمكننا أن نتدبّر الأمر هكذا» ولكنّها تظلّ مجلّدة، في أعماق نفسها، مجلّدة وخاضعة. وسمعت خطى، ولم تكن تحبّ أن تفاجأ وهي تتسكّع في الممرّات، فقد حدثت يومًا سرقة فاستجوبوها بطريقة مزعجة. حين يكون المرء فقيرًا، فيجب أن يتنبّه للأمور الصغيرة، لأنّ الناس لا يعرفون الشفقة. ووجدت نفسها فجأة في وسط الغرفة، ولم تُصب بالخيبة، فقد كانت تتوقّع ذلك. ستّة أمكنة: ثلاثة أسرّة بعضها فوق بعض إلى يمينها، وثلاثة أخرى إلى يسارها: «أجل... ها نحن ذا!» ولم يكن ثمّة زهور على المغسلة، ولا بساط تحت السرير، فهذا لم تصدِّقه قطّ. ولم يكن ثمّة كرسيّ، ولا طاولة. وسوف يشعر أربعة أشخاص بالضيق فيها، ولكنّ المغسلة كانت نظيفة. وكانت بها رغبة للبكاء، ولكن لم يكن في ذلك فائدة: ما دام الأمر متوقَّعًا. لم تكن فرانس تستطيع أن تسافر بالدرجة الثالثة، فذلك هو الواقع الذي ينبغي الانطلاق منه، وليس فيه مجال للنقاش، كما أنّه لا مجال للنقاش بأنّ «روبي» لم تكن تستطيع السفر بالسكّة الحديديّة، وهي تولي ظهرها للمحرِّك. وربّما كان ممكنًا أن يميل المرء إلى التساؤل لماذا كانت فرانس تصرّ على قطع تذاكر في الدرجة الثالثة! ولكنّ فرانس لم تكن تستحقّ أيّ عتاب في هذا المجال: كانت تقطع تذاكر في الدرجة الثالثة، لأنّها كانت تملك حسّ التوفير، ولأنّها كانت تدير ماليّة جوقة «بابيس» بحكمة، فمنذا الذي يستطيع إذن أن يُنحي عليها باللائمة؟ ووضعت «مود» حقيبتها على الأرض، وحاولت لحظة أن تثبِّت جذورها في الغرفة، وأن تتظاهر بأنّها نازلة فيها منذ يومين، بحيث تبدو لها السرر والنافذة الصغيرة ورؤوس الحلزونات المطليّة باللون الأصفر والتي تشوِّك الجدران، مألوفةً حميمة. وتمتمت في قوّة: «إنّها جيِّدة جدًّا، هذه الغرفة» ثم شعرت بالتعب، فتناولت حقيبتها وظلّت واقفة بين السرر من غير أن تعرف ما يجب أن تفعله. فإذا بقيتُ فيجب أن أُخرج أمتعتي من الحقيبة، ولكنّني لن أبقى بالتأكيد؛ وإذا رأت فرانس أنّي بدأت أرتِّب إقامتي، وهي

تملك روح المناقضة، فستجد سببًا آخر لتعزم على الذهاب. كانت تحسّ نفسها موقّتة في الغرفة، وفوق هذه الباخرة، وعلى الأرض. كان الربّان طويلاً سمينًا ذا شعر أبيض. وارتعشت، وفكّرت: «سنكون مع ذلك في وضع مريح، نحن الأربع، ولكن ليتنا نستطيع أن نظلّ وحدنا». غير أنّها كانت تكفيها نظرة لتفقد هذا الأمل: فقد وضع أحدهم أمتعته على السرير الأيمن: سلّة من خيزران مقفلة بقضيب صدئ وحقيبة من ليف ـ لا، بل من ورق مقوّى ـ ذات زوايا مفتّقة. ثم إنّها سمعت، زيادة في النحس، صوتًا خفيفًا، فرفعت عينيها فرأت امرأة في الثلاثين من عمرها، ممتقعة جدًّا، مقروصة المنخرين، مغمضة العينين، متمدِّدة على السرير الأعلى من الجهة اليمنى. إذن، فقد انتهى الأمر. لقد نظر إلى ساقيها حين كانت تمرّ على ظهر السفينة، وكان يدخِّن سيكارًا.. وهي تعرف جيِّدًا هذا النوع من الرجال الذين تنبعث منهم رائحة السيكار وماء الكولونيا. هكذا، سيأتين غدًا، صاخبات متزيّنات، إلى سطح الدرجة الثانية، حين يكون الناس قد أخذوا أمكنتهم، وتعارفوا فيما بينهم واختاروا كراسيِّهم الطويلة القابلة للطيّ، وستسير روبي باستقامة، رافعةً رأسهت الضاحك الحسير النظر، يتهادى مؤخّره، بينما تقول دوسيت بصوت ثاقب: «ولكن لا، تعال يا ذئبي، ما دام الربّان هو الذي يريد ذلك»، وسيتابعها بالنظر السادة المحترمون الجالسون على السطح، وعلى ركبهم أغطية، سيتابعونهما بنظر بارد، وستطلق النساء أفكارًا خبيثة لدى مرورهما، وفي المساء، سيلتقيان في الممرّات ببعض السادة المفرطين في الودّ الذين لهم في كلّ مكان يد. فإذا بقينا، يا إلٰهي، هنا، بين هذه السرر المصفّحة الأربعة المطليّة باللون الأصفر، كنّا في وضع طيّب، يا إلٰهي، وأصبحنا فيما بيننا.

دفعت فرانس الباب، ودخلت روبي خلفها. وسألت فرانس بأقوى صوتها: «ألم يُنزلوا الأمتعة؟».

فأومأت لها مود بأن تصمت، وهي تشير إلى المريضة. ورفعت فرانس

عينيها الكبيرتين الصافيتين اللتين لا جفون لهما نحو السرير الأعلى، وظلّ وجهها متصلِّفًا لا تعبير فيه، على مألوف عادتها، ولكن مود فهمت أنّ القضيّة كانت خاسرة. وقالت مود في حماسة:

ـ لن نكون هنا في وضع سيّئ جدًّا، فالغرفة قائمة في الوسط تقريبًا: والإحساس بالتمايل والاهتزاز أدنى من أمكنة أخرى.

فلم تجب روبي إلَّا بهزّ كتفيها، وسألت فرانس بصوت متجرِّد:

ـ وكيف نتقاسم السرر؟

ـ كما تشائين. (وأضافت مود باندفاع) هل تريدين أن آخذ السرير التحتانيّ؟

ولم تكن فرانس تستطيع أن تنام، إذا كانت تحسّ شخصًا فوقها، فقالت: ـ سنرى، سنرى...

وكان للربّان عينان صافيتان مثلَّجتان في وجه أحمر. فُتح الباب، فبرزت سيِّدة ترتدي ثوبًا أسود. فتمتمت ببضع كلمات وذهبت تجلس على سريرها، بين الحقيبة والسلّة. وكانت تبدو في الخمسين من عمرها، وهي ترتدي ثيابًا فقيرة جدًّا فوق جلد مصفرّ متشقِّق، وعيناها تبدوان وكأنّهما خارجتان من رأسها. نظرت إليها مود وفكّرت: «انتهى الأمر». وأخرجت إصبع حُمرةٍ من محفظتها فأخذت تُعيد صبغ شفتيها. ولكنّ فرانس نظرت إليها من زاوية العين نظرة رضى، حتى إنّ مود أحسّت بالانزعاج فتركت إصبع الحمرة يسقط في محفظتها. وساد صمت طويل لم يكن غريبًا على مود: فقد سبق أن ساد في غرفة شبيهة كلّ الشبه، حين كانت في الباخرة «سان جورج» إلى طنجة، وقبل ذلك بعام، على ظهر «تيوفيل غوتيه» حين ذهبن يمثِّلن على مسرح «البوليتبون» في «كورانتيا». وتعكّر الصمت فجأة من جرّاء خنّة خفيفة غريبة: كانت المرأة ذات الثوب الأسود قد سحبت منديلها ونشرته، ثم وضعته على وجهها: كانت تبكي بغير عنف، ولكن بغير احتراس أيضًا، كمن يستسلم لأزمة قادمة تدوم طويلاً. وبعد فترة، فتحت

سلّتها وأخرجت منها قطعة خبز مزبدة، وقطعة لحم مشويّ وزجاجة ترموس ملفوفة بمنشفة. وأخذت تأكل وهي تبكي، وفتحت الزجاجة فسكبت منها قهوة حارّة في الغطاء، وفمها ممتلئ، ودموع كبيرة ملتمعة تسيل على خدّيها. نظرت مود إلى الغرفة بعينين جديدتين: إنّها قاعة انتظار، لا أكثر من قاعة انتظار في محطّة صغيرة حزينة من محطّات الريف. المهمّ ألّا يكون داعرًا. ونشقت، وارتدّت برأسها إلى الخلف بسبب «الريمل»، وكانت فرانس تنظر إليها، من جانب، ببرود. قالت فرانس بصوت مرتفع:
ـ هذه الغرفة أصغر ممّا ينبغي، فلن نرتاح فيها أبدًا. كانوا قد وعدوني في كازابلانكا بأن نكون وحدنا في غرفة لستّة أمكنة.

كانت المشكلة تبتدئ، وكان في الجوّ شيء ينذر بالشؤم وبقليل من الاحتفاليّة؛ وقالت مود بصوت منخفض:

ـ بوسعنا أن ندفع على التذاكر مبلغًا إضافيًّا.

فلم تجب فرانس. وكانت قد جلست على السرير الأيسر، وبدت كأنّها تفكّر بشيء ما. وبعد لحظة، أشرق وجهها وقالت بمرح:

ـ إذا اقترحنا على الربّان أن نقدِّم حفلة مجّانيّة في قاعات الدرجة الأولى، فربّما وافق على نقل أمتعتنا إلى غرفة أفضل؟

فلم تجب مود: كان على روبي أن يجيب. وقال روبي بحيويّة:

ـ فكرة ممتازة.

فارتعشت مود فجأة، وشعرت بالاشمئزاز من نفسها. التفتت إلى فرانس وقالت بصوت مبتهل: ـ هيّا يا فرانس! أنت رئيسة فرقتنا، وعليك أنتِ أن تذهبي لرؤية الربّان.

فقالت فرانس في دعابة: ـ كلّا يا عزيزتي.. فماذا تأملين من امرأة مسنّة مثلي إذا ذهبت لترى الربّان؟ سيكون أوفر لطفًا مع غندورة صغيرة في مثل عمرك.

رجل طويل أحمر الوجه ذو شعر أبيض وعينين رماديّتين. ولا بدّ أنّه نظيف إلى حدٍّ بعيد من الدقّة، فقد كان يبدو كذلك دائمًا. ومدّت فرانس ذراعها وضغطت على زرّ الجرس، وقالت:

ـ الأفضل أن ننهي المسألة على الفور.

كانت المرأة ذات الثوب الأسود ما تزال تبكي. ورفعت رأسها فجأة، وبدت كأنّها تلاحظ وجودهم، ثم سألت في قلق: ـ أتراكم ستغيّرون غرفتكم؟

فنظرت إليها فرانس نظرة مثلّجة. وأجابت مود بحيويّة: ـ إنّ معنا أمتعة كثيرة يا سيِّدتي. فسوف يضيق بنا المكان وسوف نزعجك.

قالت السيِّدة: ـ إنّكم لا تزعجونني. فأنا أحبّ الرفقة.

وطُرق الباب، فدخل الخادم، وفكّرت مود «انتهى الأمر» وأخرجت إصبع الحمرة وعلبة البودرة، فاقتربت من المرآة وأخذت تتزيّن باهتمام؛ وقالت فرانس: ـ هل لك أن تسأل الربّان إذا كانت لديه دقيقة ليستقبل الآنسة مود أسيني من جوقة «بابيس».

فقال: ـ كلّا، كلّا. أراهنك أن لا.

أرائك الخيزران، ظلّ شجر الدلب. كان دانيال يستحمّ في ذكريات قديمة ضجرة؛ في فيشي، عام ١٩٢٠، كان غافيًا في أريكة من خيزران، تحت أشجار الحديقة الكبيرة، وكانت على شفتيه بسمة المجاملة نفسها، وكانت أمّه تسرد بالقرب منه، كانت مارسيل تسرد بالقرب منه جوارب للصغير، وكانت تحلم أحلامًا حول الحرب: فكان نظرها غائمًا شاردًا. الطنين الأبديّ للذبابة الضخمة، كم انقضى من الوقت منذ أيّام فيشي وهذه الذبابة ما تنفكّ تطنّ، وتنبعث رائحة النعنع، وخلفهم، كان في صالون الفندق من يوقِّع على البيانو، منذ عشرين عامًا، منذ مئة عام! بعض أشعّة الشمس على الأصابع، تجعِّد زغب السلاميّات، وكانت بعض أشعّة الشمس تسخِّن، في قعر الفنجان الفارغ، مستنقع قهوة وصخرة سكّر سمراء

دقيقة ذات ألف رأس ملتمع. وسحق دانيال قطعة السكّر، بدافع من رغبة شرسة، لأنّه يحسّ تحت ملعقته هذا الانهيار للرمل وهو يصرّ. وكانت الحديقة تتداعى للانحدار برفق نحو النهر، والماء فاتر بطيء، ورائحة النباتات مسخنة، ومجلّة «لاريفو دي دوموند» قد تركها السيِّد دولسيتراغ، الكولونيل المتقاعد، على طاولة تقوم في الناحية الأخرى من الدرج. الموت، الخلود، لن نفلت منه، الخلود العذب الناعم، الأوراق الخضر الدبقة، فوق الرؤوس؛ التلّة الصغيرة الخالدة للأوراق الأولى الميِّتة. وكان إميل، الحيّ الوحيد، يقلِّب الأرض تحت شجر الكستناء. كان ابن أصحاب الملك، وكان قد رمى بالقرب منه، على حافّة الحفرة، كيسًا من الكتّان الرماديّ. وكان في الكيس «زيزي» الكلبة الميِّتة: كان إميل يحفر لها قبرها، وعلى رأسه قبّعة كبيرة من القشّ؛ وكان العرق يلتمع على ظهره العاريّ. كان فتّى صغيرًا متوحّشًا ذا وجه فظّ، صخرة من شقّين أفقيين مزبدين بدلاً من العينين، وكان في السابعة عشرة. وقد بدأ يرفع تنانير الفتيات، وكان بطلاً مجلِّيًا في لعبة البليار، ويدخّن السيكار: ولكنّه كان يملك هذا الجسم اللذيذ الذي لا يستحقّه.

قالت مارسيل: ـ آه، ليتني أجرؤ على تصديقك...

طبعًا. طبعًا لم تكن تجرؤ على أن تصدِّقه. ومع ذلك، فما عسى أن يؤثر فيها، تلك، أن تقع الحرب؟ إنّها تزداد سمنًا في ثقب ما من الريف. أتراها لن تهرب؟ وسوف تفوِّت ساعة القيلولة. كان يضغط قدمه على المقلب ويثقل بكلّ قواه. ما أشهى أن توضع اليدان بعذوبة على الجنبين، وأن تصعدا، وهما تضغطان قليلاً، كما يفعل المدلِّك، فيما هو يقلب الأرض، وأن تلامسا العضلات الظهريّة في الذهاب والإياب، وأن تغمسا أطراف الأصابع في ظلّ الإبطين الرطب. إنّ عرقه يشبه رائحة الصعتر. وشرب جرعة من عصير الفاكهة.

قالت مارسيل: ـ ستقع أشياء جميلة جدًّا: وها هي التعبئة تبتدئ.

ـ ولكن كيف يمكن لكِ يا عزيزتي مارسيل، أن تنخدعي بذلك؟ إنّ «الهوم فليت» ستقوم برحلتها الصغيرة في بحر الشمال، وسيجنَّد مئتا ألف رجل في فرنسا، وسيحشد هتلر أربع فرق مصفَّحة على الحدود التشيكيّة، وبعد ذلك تقرّ عيون هؤلاء السادة، ويسعهم أن يتحادثوا بهدوء حول طاولة.

أجساد النساء، يمكن الإِمساك بها. مطّاط، لحم منزوع عظمه، تمتلئ منه يداك بأكثر ممّا تودّ. أمّا ذلك الجسم، فقد كان ينادي أصابع نحّات تلامسه، وينبغي اتّخاذه نموذجًا للنحت. واستقام دانيال فجأة في أريكته، وأدار نحو مارسيل عينين ملتمعتين. هذا لا يُعمل، فتلك دعارة، وأنا لم أبلغ بعدُ سنّها. إنّني أشرب قدح عصير، وأتحدّث بجدّ عن الحرب الآتية، وفي هذه الأثناء يلامس النظر، في غير ما اكتراث، ظهرًا فتيًّا عاريًا، ردفًا مشرئبًّا بعض الشيء، ويتطفّل على جميع الحظوظ التي يمنحها أصيل يوم صيفيّ. فلتأت الحرب، لتأت إذن، كي تقهر عينيّ وتغرقهما في محجريهما، لتكشف لهم أخيرًا عن أجسام ملطّخة، دامية، مقطّعة، لتنزعني من الأيدي، من الشهوات الأبديّة الصغيرة المائعة، من البسمات، من ظلال الأوراق، من طنين الذباب. نبع من نار يصعد إلى السماء، لهب يحرق الوجه والعينين، حتى ليحسب المرء أنّ خدّيه يُنتزعان. لتأتِ أخيرًا اللحظة التي ليس لها من اسم ولا تذكّر بشيء.

وقالت مارسيل في تسامح لطيف، ولم تكن تقدِّر قطّ كفاءتها السياسيّة: ـ ولكن لنفكِّر: إنّ ألمانيا لا تستطيع أن تتراجع، أليس كذلك؟ وقد وصلنا نحن إلى حدّ التنازلات، فماذا بعد؟

فقال دانيال بمرارة: ـ لا تخافي، سنقدم على جميع التنازلات الواجبة، فليس هناك من حدّ. ثم إنّ ألمانيا يمكنها أن تسمح لنفسها بترف التراجع، فمن ذا الذي يجرؤ على أن يسمّي ذلك تراجعًا؟ سيُقال إنّه كرم وتسامح.

كان إميل قد نهض، فمسح جبينه بظاهر يده، وكان إبطه يلتهب تحت الشمس وهو ينظر إلى السماء باسمًا، كأنّه «ربٌّ»، «ربّ» فتيّ! جرح دانيال ذراع أريكته بظفره: كم مرّة، يا إلٰهي، كم مرّة يا إلٰهي قال: «ربّ» فتيٌّ، وهو يتأمّل مراهقًا في الشمس. كلمات تكتمها عمّة عجوز في صدرها؛ إنّني لوطيّ، كان يقولها، وكانت ما تزال كلمات، فلم تكن لتمسّه، وفكّر فجأة: ماذا تستطيع الحرب أن تغيّر في ذلك؟ سيكون هنا، جالسًا على حافّة منحدر، في فترة هدأة موقّتة، وسينظر في شرود إلى ظهرٍ عارٍ لجنديٍّ يقلّب الأرض أو يبحث عن قملهِ، فَتُتَمْتِمُ شفتاه من تلقاء نفسهما، وهما ممطوطتان: «ربّ» فتيٌّ؛ إنّ الجميع يثورون في كلّ مكان.

وقال فجأة: ـ ثم إنّنا قائمون هنا نُقلق أنفسنا. وحين تبدأ الحرب؟ أتصوّر أنّنا ينبغي أن نعيش كلّ أسبوع بأسبوعه آنذاك.

قالت مارسيل وقد بدا عليها الذعر: ـ أوه! دانيال... كيف يمكنك أن تقول ذلك؟ سيكون الوضع... سيكون مريعًا.

كلمات. دائمًا. كلمات.

وقال دانيال وهو يبتسم: ـ إنّ ما هو مريع، أن ليس هناك قطّ ما هو مريع حقًّا. ليس ثمّة درجات قصوى.

ونظرت إليه مارسيل في شيء من الدهشة، وكانت عيناها كابيتين متورّدتين: كان النعاس يستولي عليها، هذا ما فكّر به دانيال في رضى.

ـ لو قلت لي إنّ هذه آلام نفسيّة، لفهمت. ولكنَّ هناك آلامًا جسديّة يا دانيال..

قال دانيال وهو يهدّدها بإصبعه: ـ آه! لقد بدأت منذ الآن تفكّرين بآلامك القادمة. حسنًا، سترين! سترين! أنا أتصوّر أنّ هذا أيضًا مغالى به جدًّا.

فابتسمت له مارسيل وهي تخنق تثاؤبة. وقال دانيال وهو ينهض:

ـ هيّا، المهمّ ألّا تعذّبي نفسك يا مارسيل. انظري، ها أنت، من أجل لا شيء، تفوّتين عليك ساعة القيلولة. إنّك لا تنامين نومًا كافيًا؛ وعلى من كان في وضعك أن ينام كثيرًا.

فقالت مارسيل وهي تتثاءب وتضحك معًا: ـ أنا لا أنام نومًا كافيًا؟ على العكس، إنّني خجلة لأنّي لا أقرأ بعد شيئًا، وإنّما أقضي النهار فوق سريري.

ففكّر دانيال: «من حسن الحظّ» وهو يقبّل طرف أصابعها، وقال:

ـ أراهن أنّكِ لم تكتبي للسيِّدة أمّك.

قالت: ـ هذا صحيح. إنّني ابنة رديئة (وتثاءبت وأضافت) سأفعل ذلك قبل أن أنام.

فقال دانيال بحيويّة: ـ لا، لا. استريحي على الفور. فأنا الذي سأرسل لها كلمة.

قالت مارسيل متأثّرة مفتونة: ـ أوه! يا دانيال: كلمة من صهرها، كم ستكون فخورًا!

ورقيت الدرج وهي تتهادى، فعاد يجلس في أريكته. وتثاءب، وسال الزمن، ثم لاحظ أنّه كان يستمع إلى البيانو. ونظر إلى ساعته: كانت الساعة الثالثة والخامسة والعشرين، وسوف تهبط مارسيل في الساعة السادسة لتقوم بنزهتها المشهّية للأكل. وقال لنفسه في شيء من الخوف المبهم: إنّ أمامي ساعتين ونصف الساعة. فيما مضى كانت وحدته كالهواء الذي يتنفّسه الإنسان، وكان ينعم بها من غير أن يراها، أمّا الآن، فإنّه يُعطاها أطرافًا صغيرة لاهثة، ولا يعرف بعد ما عساه يفعل بها. غير أنّ أعجب ما في الأمر، أنّ ضجري يخفّ بالأحرى حين تكون مارسيل حاضرة. وقال في نفسه: لقد أردت ذلك، لقد أردته! وكان ما يزال في كأسه بعض شراب العصير فشربه، حين قرّر ذلك المساء من حزيران أن

يتزوَّجها؛ كان يختنق من الضيق، وكان يحسب أنّه يغرق في الهول. حدث ذلك كلّه لينتهي إلى ما انتهى إليه هنا، في أريكة الخيزران، إلى مذاق العصير يفسُد رويدًا رويدًا في فمه، وإلى هذا الظهر العاري، وسيكون الشأن في الحرب شبيهًا، إنّ الهول مرصود دائمًا لليوم التالي. أنا المتزوِّج، أنا الجنديّ: إنّني لا أجد سواي. حتى ولا أنا: وإنّما سلسلة من الجري العجيب، من الحركات الصغيرة المبعدة عن المركز ولا مركز. ومع ذلك، فهنالك مركز: هو أنا، أنا ـ والهول هو في المركز. ورفع رأسه، وكانت الذبابة تطنّ على مستوى عينيه، فطردها. فرار آخر. حركة صغيرة من يده، لا شيء تقريبًا، ومع ذلك كان يفرّ، ماذا تهمّني هذه الذبابة؟ ليتني أكون من حجر، جامدًا، لا أحسّ، بلا حركة، ولا ضجّة، أعمى، أصمّ، والذباب وأبو المقصّ والدعسوق تصعد على جسمي وتهبط، تمثالاً فظًّا ذا عينين بيضاوين، بلا هدف ولا همّ؛ فربّما نجحت في أن أتطابق مع نفسي. ليس ذلك من أجل أن أقبل نفسي، كلّا، وإنّما من أجل أن أكون أخيرًا موضوع كرهي بالذات. وحدث تمزُّق، أربع أنغام من إحدى معزوفات البولونيز، وبرق هذا الظهر، هناك، وتآكل في ربلة الإبهام، ثم تتجمَّع من جديد. ليتني أكون ما أنا، أكون لوطيًّا، شرِّيرًا، جبانًا، أكون أخيرًا هذا القذر الذي لا يبلغ حتى أن يوجد. وقرّب ما بين ركبتيه، ووضع باطن يديه على فخذيه، وأخذته الرغبة في أن يضحك: لا بدَّ أنّ هيئتي هيئة عاقلة، وهزّ كتفيه: أبله! ليتني أكفّ عن الاهتمام بهيئتي، وعن النظر إلى نفسي خصوصًا، فأنا اثنان حين أنظر إلى نفسي. ليتني أوجد في الظلام اتّفاقًا. وأكون لوطيًّا، كما تكون السنديانة سنديانة. وأنطفئ. وأطفئ النظر الداخلي. وفكّر «أطفئ»، وانفجرت الكلمة كالرعد وانتشرت أصداؤها في قاعات فارغة هائلة. ليت بالإمكان طرد الكلمات، فهي تفرخ طائفة من وقف التنفيذ، وكان كلّ منها يعطيه موعدًا في نهاية نفسه... وحدث تمزّق جديد، فوجد دانيال نفسه وسنان ضجرًا، شخصًا ليس أمامه إلّا ساعتان،

وهو يتلهّى كما يطيق. ليتني أكون كما يرونني، كما يراني ماتيو ـ ورالف برأسه الصغير القذر، وأطرد الكلمات كما أطرد البرغش. وأخذ يعدّ في ذهنه: واحد، اثنان، وجاءته كلمات: تسلية مصطاف. ولكنّه عدّ بأسرع من ذي قبل، وقرَّب حلقات السلسلة فعجزت الكلمات عن المرور. خمسة، ستّة، سبعة، ثمانية. الأعماق البحريّة، كانت هناك صور متلبِّدة، قبيحة، تألفها تلك الأعماق السفلى، عنكبوت بحريّ، وكانت تتفتّح، اثنان وعشرون ثلاثة وعشرون، ولاحظ دانيال أنّه كان يحبس نفسَه، فحرّره، سبعة وعشرون، ثمانية وعشرون، وكان الآخر ما يزال يقلِّب الأرض، هناك على صفحة الماء: الصورة كانت جرحًا مفتوحًا، فمًا مرًّا، وكانت تنزف، إنّها أنا، أنا الشفتان المفترّتان، والدم الذي يقرقر بين الشفتين، ثلاثة وثلاثون، وكانت الصورة مألوفة لديه، ومع ذلك فهو يكوِّنها للمرّة الأولى. لا بدّ من طرد الصور أيضًا، كان مأخوذًا بخوف خفيف غريب. ليتني أستطيع أن أنسرب، أن أتداعى للانسراب، كما يحدث حين يودّ المرء أن ينام. ولكنِّي سأنام! ونفض نفسه، وعام على السطح. أيّ سكوت في الخارج، هذا السكوت الساحق، نصف الميِّت، الذي كان يبحث عنه عبثًا في نفسه، كان هناك في الخارج، وكان يبعث على الخوف. وكانت الشمس المتناثرة تغطِّي الأرض بدوائر متحرِّكة صفراء، الكلبة الميِّتة، ضجّة النهر هذه على رؤوس الشجر، الظهر العاري، القريب جدًّا، البعيد جدًّا، وكان يشعر أنّه غريب عن نفسه غرابة مريعة حتى إنّه ترك نفسه يمضي من جديد، ويسيل إلى خلف، وها هو ذا الآن يرى الحديقة من تحت، كغاطس يرفع رأسه وينظر إلى السماء عبر الماء. لا ضجّة، ولا صوت، أيّ صمت حوله، فوقه، تحته، وهو وحده ثقب صغير ثرثار وسط هذا الصمت. واحد، اثنان، ثلاثة، لا بدّ من طرد الكلمة، وليعبر صمت الحديقة. ولينضمّ وليتوحّد عبري، حتى يساوي نفَسي. وليسحق كلّ عمود هوائي رويدًا وبعمق، الكلمات التي تحاول أن تولد، يسحقها على غرار المكبس،

ليتني أكون كالشجرة، كالظهر العاري، كالدوائر الهلاليّة المرتعشة فوق الأرض الورديّة. حبّذا لو أغمض عينيّ: فإنّ العيون تنفذ إلى أبعد ممّا ينبغي، خارج اللحظة، خارج نفسي، فتحطّ هناك على الورق، على هذا الظهر: إنّ النظر المطارد، الهارب، المنسرب، المنتهي في نهاية نفسه أبدًا، يجسّ من بعيد. ولكنّه لم يجرؤ على إغماض جفنيه: فلا بدّ أنّ إميل كان ينظر إليه من تحت، بين الفينة والفينة، فإذا فعل، فسوف يظهر بهيئة سيّد مسنٍّ أخذه النعاس الهضمي، فالأفضل أن يركّز نفسه على شيء، وأن يعطي عجينته للنظر، فيضبطه ويغذّيه وينسرب في داخله ذاته، متحرِّرًا من العيون، في ليلي الكثيف، وحدّق في حاشية الحديقة، إلى الشمال، فإذا هي حركة كبيرة خضراء مسمّرة: موجة مجمّدة في اللحظة التي تنتثر فيها، والنظر الشارد، المرتدّ بلا انقطاع من ورقة إلى أخرى. كان يذيب نفسه في هذه البرقشة النباتيّة، واحد «شهيق» اثنان «زفير» ثلاثة «شهيق» أربعة «زفير». وكان يهبط وهو يستدير، والتقى في الطريق برغبة ناغلة بالضحك، إنّني أقوم بدور الدرويش، شريطة ألّا أبتلع لساني، وكان قد أصبح فوقه، وكان يتوغّل فيلتقي بكلمات في أسمال: خوف، تحدّ، كانت تصعد من جديد إلى السطح. تحدّ نحو السماء الصافية، يفكّر فيه من غير صورة، ولا كلام. وهو يأتي منفتحًا كفم ميزاب. وتحت الشفق، طلب مرّ، ابتهال غير مجدٍ. إيلي، إيلي، لاما ساباشتاني، تلك كانت آخر الكلمات التي التقى بها، وكانت تصعد كفقّاعات خفيفة، وكانت تلاوين حاشية الحديقة الخضراء هناك، غير مرئيّة ولا مسمّاة، امتلاء حضور إزاء عينيه، يجيء ويستمرّ في المجيء. وشقّه ذلك كالمنجل وكان عجيبًا، مونسًا، لذيذًا. مفتوح، مفتوح، القشرة تنفجر، مفتوح، مفتوح، ممتلئ، أنا نفسي للأبد، لوطيّ، شرّير، جبان. إنّهم يرونني، لا، حتى هذا لا: وإنّما ذاك يراني. كان موضوع نظر. نظر. كان يعيث فيه حتى الأعماق، ينفذ إليه كضربات سكّين، ولم يكن نظرَه. نظر كثيف، هو الليل بذاته، ينتظره هناك، في

أعماق نفسه ويحكم عليه بأن يكون هو نفسه، جبانًا، منافقًا، لوطيًّا إلى الأبد. هو نفسه، خافقًا تحت هذا النظر ومتحدّيًا هذا النظر. النظر. الليل. كما لو أنّ الليل كان نظرًا. إنّني مرئي. شفّاف، شفّاف، مختَرَق. ولكن من قبل من؟ قال دانيال بصوت مرتفع: لست وحدي. فاستقام إميل. وسأل:

ـ ماذا هناك، يا سيِّد سيرينو؟

فقال دانيال: ـ كنت أسألك عمّا إذا أوشكت أن تنتهي.

فقال إميل: ـ أكاد أنتهي. بعد دقيقتين.

ولم يكن يتعجّل العودة إلى قلب الأرض، بل كان ينظر إلى دانيال في فضول وقح. ولكن ذلك كان نظرًا إنسانيًّا. نظرًا كان من الممكن النظر إليه. ونهض دانيال، وكان يرتعش خوفًا:

ـ ألا يرهقك أن تعمل في وضح الشمس؟

فقال إميل: ـ لقد اعتدت.

وكان له صدر جذّاب، ممتلئ بعض الشيء، ذو نقطتين صغيرتين ورديّتين، وكان يستند على مقلبه بهيئة إثارة، في ثلاث خطوات... ولكن كان ثمّة ذلك التلذّذ الغريب، الغريب الذي كان أعنف من جميع الشهوات، كان هناك ذلك النظر. وقال دانيال:

ـ إنّ الحرّ أثقل من أن أطيقه. وأظنّ أنّي صاعد لأرتاح لحظة.

وحنى رأسه قليلاً ورقي الدرج. كان فمه جافًّا، ولكنّه كان مصمّمًا: ففي غرفته، بعد إسدال الستائر، وإغلاق المصاريع، سيعيد التجربة.

الساعة ١٧,١٥ في سان فلور، كانت السيِّدة هانوكين تصطحب زوجها إلى المحطّة، وكانا قد سلكا الطريق الشديدة الوعورة. وكان السيِّد هانوكين يرتدي بذلته الرياضيّة ويحمل مزماره على جنبه، وقد انتعل حذاء جديدًا كانت فرعته تجرحه. وفي منتصف الطريق، التقيا بالسيِّدة كالفيه التي كانت واقفة بالقرب من بيت كاتب العدل لتلهث قليلاً. وقالت حين لمحتهما:

ـ آه! يا للساقين المسكينتين! إنّني أصبح امرأة عجوزًا.

قالت السيِّدة هانوكين: ـ بل أنت أنضر من أيّ وقت آخر. إنّني لا أعرف كثيرين يسلكون الطريق الوعرة من غير أن يستردّوا أنفاسهم.

وسألت السيِّدة كالفيه: ـ وإلى أين تراكما تركضان هكذا؟

قالت السيِّدة هانوكين: ـ آه يا عزيزتي جان. إنّني أصحب زوجي، فهو ذاهب. لقد استدعاه الجيش.

فقالت السيِّدة كالفيه: ـ غير ممكن. إنّني لم أكن أعرف هذا! إذن، إذن (وخيّل إلى السيِّد هانوكين أنّها كانت تنظر إليه باهتمام خاصّ): «لا بدّ أن يكون أمرًا قاسيًا أن تذهب في مثل هذا اليوم الجميل».

قال السيِّد هانوكين: ـ من يدري! لا بأس!

وقالت السيِّدة هانوكين: ـ إنّه شجاع جدًّا.

قالت السيِّدة كالفيه وهي تبتسم للسيِّدة هانوكين: ـ من حسن الحظّ. هذا ما كنت أقوله أمس لزوجي: سيذهب الفرنسيّون جميعًا بشجاعة.

واستشعر السيِّد هانوكين الفتوّة والشجاعة، وقال:

ـ اعذرينا، لقد آن لنا أن نذهب.

فقالت السيِّدة كالفيه: ـ إذن إلى اللقاء القريب.

قالت السيِّدة هانوكين وهي تهزّ رأسها: ـ آه إلى اللقاء القريب.

فقال السيِّد هانوكين بقوّة: ـ بلى إلى اللقاء القريب! إلى اللقاء القريب!

واستعادا سيرهما، وكان السيِّد هانوكين يمشي بخطوة حيّة، فقالت له السيِّدة هانوكين: ـ مهلاً يا فرانسوا، فإنّي لا أستطيع أن أتبعك، بسبب قلبي.

والتقيا الماري التي كان ابنها يؤدّي الخدمة العسكريّة. فصاح بها السيِّد هانوكين: ـ أليس لديك ما تريدين أن تقوليه لابنك، أيّتها الماري؟

فربّما التقيت به، إنّني أعود جنديًا.

فبدت الماري مبهوتة، وقالت وهي تضمّ يديها: ـ يا يسوع!

فبعث لها السيِّد هانوكين بإشارة خفيفة ودخلا المحطّة.

وكان شارلو هو الذي يثقب التذاكر، فسأل:

ـ وإذن يا سيِّد هانوكين، إنّه اليوم يوم الكبير، هذه المرّة؟

فأجابه السيِّد هانوكين وهو يبسط له التذكرة:

ـ بل هو الزيمبادابوم، وروميا الحبّ.

وكان كاتب العدل، السيِّد بينو، على المحطّة، فصاح بهما من بعيد:

ـ إذن أنت ذاهب للقصف في باريس؟

فقال السيِّد هانوكين: ـ نعم! أو لألقي القنابل في نانسي (وأضاف باقتضاب): لقد استُدعيت.

قال كاتب العدل: ـ هكذا إذن! هكذا إذن! ولكن قل لي: هل لديك الكرّاسة رقم ٢؟ أنت؟

ـ أجل.

قال: ـ هيّا، ستعود إلينا عمّا قريب، فهذا كلّه شيء مصطنع.

فأجاب السيِّد هانوكين بجفاء: ـ لا أعتقد هذا. فعندك في الدبلوماسيّة، كما تعلم، من تلك الظروف التي تبدأ بالمزاح وتنتهي بالدم.

ـ وهل... يدفعك هذا إلى القتال من أجل التشيكيِّين؟

فأجاب السيِّد هانوكين: ـ من أجل التشيكيِّين أو غير التشيكيِّين، إنّ الناس يقاتلون دائمًا من أجل ملك بروسيا.

وضحكا وتبادلا السلام. وكان قطار باريس يلج المحطّة، ولكنّ السيِّد بينو تمهّل ليقبّل يد السيِّدة هانوكين.

وصعد السيِّد هانوكين إلى حافلته من غير أن يستعين بيديه، ورمى بمزماره على مدى يده في الركن الذي كان قد حجزه، وعاد إلى الممرّ

فأخفض الزجاج وابتسم لزوجته، وقال:

ـ كوكو، هأنذا! إنّني في حالة جيِّدة، وهنا مكان متّسع جدًّا، فإذا ظلّ كذلك، كان بإمكاني أن أمدّ ساقيَّ لأنام.

ـ أوه! سيصعد ركّاب في كليرمون.

ـ أخشى ذلك.

وقالت له: ـ اكتب لي. كلمة صغيرة كلّ يوم: ولا حاجة لأن تكون طويلة.

ـ اتّفقنا.

ـ لا تنسَ أن تلبس زنّارك الفلانيل، إرضاءً لي.

فقال في مهابة ضاحِكة: ـ أقسم لك بذلك.

ونهض فعبر الممرّ وهبط إلى العتبة، وقال: ـ قبّليني يا عزيزتي.

وقبّلها على خدّيها المترهّلين. فذرفت دمعتين. وقالت:

ـ يا إلٰهي... هذه المتاعب كلّها... هل كنّا بحاجة إلى هذا؟

فقال: ـ هيّا! هيّا! شت! شت! هل تريدين أن...

وصمتا. وكان يبتسم لها، وكانت تنظر إليه وهي تبتسم وتبكي قليلاً. ولم يبق لديهما شيء يقولانه. وكان السيِّد هانوكين يتمنّى لو ينطلق القطار بأسرع ما يمكن.

الساعة السابعة عشرة والدقيقة الثانية والخمسون في «نيور». عقرب الساعة الكبير يتحرّك في رعشات كلّ دقيقة وينوس قليلاً ثم يقف. القطار أسود، المحطّة سوداء. السناج. لقد حرصت على المجيء بدافع الواجب. وقد قلت لها: «لا حاجة بك إلى المجيء، فنظرت إليّ نظرة مدهوشة: «ولكن كيف يا جورج؟ إنّ هذا غير معقول» فقلت لها: «لا تبقي أطول ممّا ينبغي. إنّك لا تستطيعين أن تتركي الصغيرة وحدها». قالت: «سأطلب من الأمّ كورنو أن تسهر عليها. سأضعك في القطار، ثم أعود». وهي الآن

هنا، انحنى عند نافذة حافلتي ونظر إليها. إنّ بي رغبة للتدخين، ولكنِّي لا أجرؤ، وأفكِّر بأنّ ذلك لن يكون محتشمًا. وهي تنظر إلى نهاية الرصيف، حامية بيدها عينيها، بسبب الشمس، ثم تذكر بين الفينة والفينة أنِّي هنا، وأنّ عليها أن تنظر إليّ. وترفع رأسها وتضع عينيها عليّ، وتبتسم لي، وليس لديها ما تقوله لي. والحقّ إنّي كنت قد ذهبت.

ـ وسائد، أغطية، برتقال، عصير، سندويش.

ـ جورج!

ـ حبيبتي؟

ـ هل تريد برتقالاً؟

إنّ قربة مزماري مليئة حتى لتنفجر. ولكنّها راغبة في أن تعطيني شيئًا. لأنِّي ذاهب. فإذا رفضت، انتابها الندم. إنّني لا أحبّ البرتقال.

ـ لا، شكرًا.

ـ أوه، لا؟

ـ حقًّا لا. أنت لطيفة جدًّا.

بسمة ممتقعة. لقد قبّلت منذ لحظة هاتين الوجنتين الباردتين الريّانتين، وزاوية هذه البسمة. وقد قبّلتني، فشعرت من ذلك ببعض الخجل: لِمَ هذه القصص كلّها؟ ألأنِّي ذاهب يا إلٰهي؟ هناك كثيرون ذاهبون، صحيح أنّ هناك من يقبِّلهم أيضًا. فما أكثر النساء الجميلات الواقفات هكذا، عند الشمس الغاربة، في الدخّان والسناج، رافعات بسمة مصبوغة نحو رجلٍ منحنٍ عند نافذة حافلته! ثم ماذا؟ إنّنا نحن، لا بدّ أن نبدو مضحكين بعض الشيء: فهي جميلة أكثر ممّا ينبغي، باردة أكثر ممّا ينبغي، وأنا قبيح أكثر ممّا ينبغي.

وقالت، وكانت قد قالتها، ولكن لا بدّ من ملء الوقت: «اكتب لي، ما استطعت إلى ذلك. لا حاجة إلى أن تكون الرسائل طويلة جدًّا..».

لن تكون طويلة. فلن يكون عندي ما أقوله، ولن يحدث لي شيء، ذلك أنّه لا يحدث لي شيء قطّ. ثم إنِّي سبق أن رأيتها تقرأ الرسائل، بهيئتها الجادّة، المهتمّة المضجرة؛ إنّها تضع نظّارتيها على طرف أنفها، وتقرأ بصوت منخفض، لنفسها، وتجد وسيلة لتقفز عن بعض الأسطر.

ـ إذن، سأقول لك يا حبيبي المسكين إلى اللقاء. حاول أن تنام قليلاً، هذه الليلة.

أجل، يجب أن يُقال شيءٌ ما. ولكنّها تعلم أنِّي لا أنام أبدًا في القطار. وهي سوف تردِّد ذلك بعد حين للأمّ كورنو: «لقد ذهب. كان القطار غاصًّا. يا لجورج المسكين، أرجو مع ذلك أن يستطيع النوم».

إنّها تنظر حولها، نظرة شقيّة؛ وقبّعتها القشيّة الكبيرة تتحرّك على رأسها. وتوقّف بالقرب منها شابّ وشابّة.

ـ يجب أن أذهب، من أجل الصغيرة (تقول هذا بصوت مرتفع بعض الشيء، بسببهما. إنّهما مهيبان لأنّهما جميلان، ولكنّهما لا ينتبهان لها).

ـ طبعًا يا عزيزتي. إلى اللقاء. عودي بسرعة. سأكتب فور تمكّني من ذلك.

دمعة صغيرة، مع ذلك. لماذا، يا إلٰهي، لماذا؟ إنّها تتردَّد. ولنفرض أنّها فجأة تمدّ لي ذراعيها، وتقول لي: «إنّ هذا كلّه ليس إلّا سوء تفاهم، إنِّي أحبّك، أحبّك!».

ـ حذار من البرد.

ـ نعم. نعم. إلى اللقاء.

ومضت. إيماءة يسيرة من يدها، وها هي تمضي، رويدًا، وهي تؤرجح قليلاً ردفها الجميل الصلب. إنَّها الساعة السابعة عشرة والدقيقة الخامسة والخمسون. ليس لديّ بعد رغبة في التدخين. وظلّ الشابّ والشابّة على رصيف المحطّة. إنِّي أنظر إليهما، هو يحمل مزمارًا بقربة،

وقد تحدّثا عن نانسي: فهو أيضًا من المجنَّدين. إنّهما لا يقولان بعد شيئًا، وإنّما يتبادلان النظر، وأنا أنظر إلى يديهما، يديهما الجميلتين، يديهما اللتين لا تحملان خاتمًا. المرأة ممتقعة، فارعة دقيقة، ذات شعر أسود متشعِّث؛ أمّا هو فطويل أشقر، ذو بشرة مذهّبة، وذراعاه العاريتان تخرجان من قميص حريري أزرق. اصطفقت الأبواب وهما لا يسمعانها، بل لقد كفّا عن تبادل النظر، لم تبق لهما حاجة إلى تبادل النظر، إنّهما معًا من الداخل.

ـ إلى السيّارة نحو باريس.

هي ترتعش من غير أن تقول شيئًا. وهو لا يقبّلها، وإنّما يحبس في يديه الذراعين الجميلتين العاريتين، على مستوى الكتفين؛ ثم يهبط بيديه رويدًا على طولهما ويقف لدى المعصمين. معصمان هزيلان واهنان. ويبدو أنّه يشدّهما بكلّ قواه. وتدَعه هي يفعل، وذراعاها متدلّيان بسكون؛ ووجهها مستنيم.

ـ إلى السيّارة.

وينطلق القطار، فيقفز إلى العتبة، ويظلّ متشبّثًا بقضبان النحاس. تلتفت هي إليه، فتبيِّض الشمس وجهها، وتغمز بعينيها وتبتسم. إنّها بسمة عريضة حارّة، واثقة جدًّا، هادئة جدًّا، رقيقة جدًّا: حتى إنّه لا يمكن لرجل مهما بلغ من الجمال والقوّة أن يحمل لنفسه وحده بسمة مثل هذه. إنّها لا تراني، وهي لا ترى غيره، وتطرف بعينيها، وتقاتل الشمس لتراه لحظة أخرى. وأنا أبتسم لها، أبادلها بسمتها. الساعة الثامنة عشرة. غادر القطار المحطّة، وهو داخلٌ في الشمس، فجميع واجهاته تلتمع. وقد ظلّت على المحطّة، صغيرةً غامضة. هناك مناديل يُلوَّح بها حولها. وهي لا تتحرّك ولا تلوِّح بمنديل، وتتدلّى ذراعاها على طول جسمها، ولكنّها تبتسم، وكأنّها تستنفد نفسها بالابتسام. وهي ما تني الآن تبتسم، من غير شكّ، ولكن بسمتها لا تُرى بعد. وإنّما هي التي تُرى. إنّها هنا من أجله، من

أجل جميع الذين يذهبون، من أجلي أنا. إنّ زوجتي في بيتنا الهادئ، جالسة بالقرب من الصغيرة، والصمت والسلام يتشكّلان حولها من جديد. أمّا أنا، جورج المسكين، فذاهب، لقد ذهب، وأرجو أن يستطيع النوم. إنّني أذهب، أهرب من الشمس وأبتسم بكلّ قواي لشكل صغير مظلم ظلّ على رصيف المحطّة.

الساعة الثامنة عشرة وعشر دقائق. كان «بيتو» يذرع الطريق في شارع «كاسيت»، فقد كان لديه موعد في الثامنة عشرة، ونظر إلى ساعة يده، الساعة الثامنة عشرة والدقيقة العاشرة، سأصعد بعد خمس دقائق. وعلى بعد خمسمئة وثمانية وعشرين كيلومترًا جنوب غرب باريس، كان جورج مرتفقًا قضيب الاستناد؛ يدلف بين المراعي، وينظر إلى أعمدة التلغراف، ويعرق ويبتسم؛ وكان بيتو يقول لنفسه: «أيّة حماقة يمكن لهذا المزعج أن يكون قد ارتكبها بعد؟» وانتابته رغبة عنيفة بأن يصعد ويدقّ ويصيح: «ما الذي فعله بعد؟ أنا لا دخل لي في الأمر». ولكنّه قسر نفسه على أن يستدير، سأذهب حتى ذلك المصباح، هناك؛ ومشى، المهمّ ألّا يبدو بمظهر المستعجل، بل كان يأخذ على نفسه أنَّه قد جاء وكان عليه أن يجيب، على ورق معنون، إذا كنت ترغبين يا سيِّدتي في التحدّث إليّ، فأنا في مكتبي كلّ يوم من العاشرة حتى الظهر. وأوْلى المصباح ظهره، وحثّ خطاه، بالرّغم منه. باريس: خمسمئة وثمانية عشر كيلومترًا. مسح جورج جبينه، وكان ينحدر نحو باريس، كالسرطان، وكان «بيتو» يفكِّر: إنّها قضيّة قذرة، وكان يعدو تقريبًا، وخلفه القطار، واستدار في شارع «رين» ودخل البناية رقم واحد وسبعين، وصعد إلى الطابق الثالث ودقّ الجرس؛ وعلى بعد ستمئة وثمانية وثلاثين كيلومترًا في باريس، كان هانوكين ينظر إلى ساقيْ جارته، وكانتا ساقين كبيرتين بارزتي الربلات في جوربين حريريين مزغبرين بعض الشيء؛ كان بيتو قد دقّ الجرس، وينتظر على الدرج وهو يمسح جبينه، وكان جورج يمسح جبينه، في ضجيج الشاحنات؛ أيّة حماقة عساه

قد ارتكب، فتلك حكاية قذرة؛ وكان بيتو يشقّ عليه أن يلتهم، وكانت معدته خصوصًا مبهمة مقرقرة؛ ولكنّه كان يقف باستقامة، ورأسه مرفوع بصلابة، وهو ينفخ منخريه قليلاً، وكان يمطّ شفتيه ذلك المطّ المريع؛ انفتح الباب، ودلف قطار هانوكين إلى نفق، ودلف بيتو إلى ظلام رطب كانت تنبعث منه رائحة الغبار؛ وقالت له الخادمة: «تفضّل بالدخول». فإذا بامرأة بضّة معطّرة، ذراعاها عاريتان رخوتان، رخاوة البشرات الأربعينيّة اللذيذة النضرة، ووسط شعرها الأسود خصلة بيضاء، تهرع إليه فيشمّ رائحتها الناضجة.

ـ أين هو؟

وانحنى، كانت قد بكت. وفكّت جارة هانوكين ساقيها المتشابكتين، فرأى طرفًا من فخذها فوق ربطة الساق، ومطّ شفتيه مطّتهما المريعة، وقال:

ـ عمّن تتحدّثين يا سيِّدتي؟

قالت: ـ أين فيليب؟

وأحسّ بحنان شديد، فلعلّها ستبكي أمامه، وهي تلوي ذراعيها الجميلتين، ولا بدّ أنّ امرأة من وسطها تحلق شعر إبطيها.

وانبعث صوت رجل، فجعله ينتفض، وكان صادرًا من غرفة الانتظار: «إنّنا يا صديقتي العزيزة نضيِّع وقتنا. فإذا شاء السيِّد بيتو أن يدخل مكتبي، أطلعناه على الأمر».

سقط في الشَّرَك! ودخل، وهو يرتجف من الغضب، وغرق في الحرارة البيضاء، وكان القطار يخرج من النفق، ودخل سهم من الشعاع الأبيض إلى الحافلة. جلسوا وقد أولوا النهار ظهورهم بالطبع، وأنا في وضح النور. وكانا اثنين.

وقال الرجل السمين المرتدي الثياب العسكريّة: «أنا الجنرال لاكاز»

وأشار إلى جاره، وهو عملاق كئيب، وأضاف:

ـ هو ذا السيِّد جاردي، طبيب عقلي، تفضّل بفحص فيليب والاعتناء به قليلاً، في هذه الفترة الأخيرة.

وعاد جورج إلى قاطرته وجلس، وكان رجل قصير أسمر ينحني إلى الأمام، ويتحدّث، وكانت له هيئة الإسبان: «إنّ معلِّمك يساعدك، هذا جميل جدًّا، وهذا حسنٌ بالنسبة للمستخدَمين وللموظّفين. أمّا أنا، فليس لي راتب ثابت، إنّني خادم مقهى، وكلّ ما أصيبه تبرّعات الزبائن. تقول لي إنّ هذا لن يدوم، وإنّما القصد منه إخافتهم، أريد كثيرًا أن أصدِّقك، ولكن إفترض أنَّ ذلك يدوم شهرين، فكيف يتأتّى لها أن تأكل، زوجتي؟».

قال الجنرال: ـ إنّ فيليب، ابن زوجتي، ترك البيت، في ساعات الصباح الأولى من غير أن يعلمنا، وحوالى العاشرة وجدت أمّه هذه الرسالة على طاولة غرفة الطعام (ومدّها له من فوق المكتب وهو يضيف بلهجة متسلِّطة): اطّلع عليها، أرجوك.

وتناول بيتو الرسالة في اشمئزاز، ذلك الخطّ القذر، المنقّط، غير المنتظم، المليء بالشطب واللطخ. كان قادمًا، وكان ينتظر ساعات برمّتها، وكنت أسمعه يذرع الطريق جيئة وذهابًا، ثم يذهب تاركًا قصاصات مدعوكة من الورق، مليئة بأحرفه الذبابيّة، في كلّ مكان، على الأرض، وعلى الكرسي، وتحت الباب؛ وكان بيتو ينظر إلى الخطّ من غير أن يقرأه، شبيهًا بسلسلة من الرسوم العجيبة الذائعة التي تثير قرفه؛ كم أودّ لو أنّي لم ألتقِ به قطّ.

«أمّي الصغيرة. هو ذا زمن القَتَلة. أمّا أنا، فأختار الاستشهاد، ربّما أُصبتِ ببعض الهموم الشاقّة: وهذا ما أتمنّاه لنفسي. فيليب».

ووضع الرسالة على المكتب وابتسم، وقال:

ـ زمن القَتَلة. إنّ تأثير رامبو قد أحدث خسائر مريعة.

فنظر إليه الجنرال، وقال: ـ سنعود عمّا قليل إلى قضيّة التأثيرات. هل تعرف أين ابن زوجتي؟

ـ وكيف تريدني أن أعرف ذلك؟

ـ متى رأيته للمرّة الأخيرة؟

وفكّر بيتو. «هكذا إذن! إنّهم يستجوبونني»، والتفت إلى السيِّد لاكاز، وقال في لهجة تتّسم بعدم الكلفة:

ـ لم أعد أذكر. ربّما منذ ثمانية أيَّام.

وكان صوت الجنرال يأتيه الآن مجانبًا:

ـ هل أطلعك على نيّاته؟

فقال بيتو، وهو يبتسم للأمّ: ـ كلّا، أنت تعرفين فيليب، فهو يتصرّف تصرّفات مفاجئة. وأنا مقتنع بأنّه لم يكن يعرف مساء أمس ما سيفعله هذا الصباح.

وأضاف الجنرال: ـ ومنذ ذلك الحين، هل كتب أو اتّصل بك؟

وتردّد بيتو، ولكنّ اليد كانت قد انطلقت، يدًا وديعة، خاضعة، غرقت في جيب الثوب الداخلي، وتبعها القرار، فمدّت اليد قصاصة الورق. وخطفت السيِّدة لوكاز الورقة بشراهة، إنّني لا أستطيع بعد أن أحكم على يدي. كان ما يزال يستطيع أن يُحكم وجهه، فمطّ شفتيه تلك المطّة المريعة، وهو يرفع حاجبًا:

ـ تلقّيت هذا صباح اليوم.

فقرأت السيِّدة لوكاز بجهد: ـ «ليتوس أي إيراباندوس». من أجل السلام.

كان القطار يجري، وكانت الباخرة تهتزّ، وكانت معدة بيتو تغنّي، فنهض في مشقّة، وقال موضحًا في تأدّب:

ـ إنّ هذا يعني: فرِحٌ ومتسكِّعٌ. إنّه عنوان قصيدة لفيرلين.

فرماه الطبيب النفسي بنظرة.

ـ قصيدة خاصّة بعض الشيء.

وسألت السيِّدة لاكاز: ـ هذا كلّ شيء؟

وكانت تقلِّب الورقة بين يديها.

ـ مع الأسف، نعم يا سيِّدتي العزيزة، هذا كلّ شيء.

وسمع صوت الجنرال القاطع:

ـ ماذا تريدين أكثر من ذلك يا صديقتي العزيزة؟ إنّني أجد هذه الرسالة واضحة كلّ الوضوح، ويدهشني أن يدّعي السيِّد بيتو عدم معرفة نوايا فيليب.

والتفت بيتو فجأة إليه، ونظر إلى الثوب العسكريّ ـ لا إلى وجهه بل إلى الثوب العسكريّ ـ وصعد الدم إلى رأسه. وقال:

ـ اسمع يا سيِّدي، لقد كان فيليب يكتب لي مثل هذه الأوراق الأنيقة ثلاث مرّات أو أربعًا في الأسبوع، فانتهى بي الأمر إلى عدم الاهتمام بها. وتعذرني إذا قلت لك عندي شواغل أخرى.

قال الجنرال: ـ لقد كنت يا سيِّد بيتو تدير منذ ١٩٣٧ مجلّة عنوانها «لوباسيفيست»[١] اتّخذت فيها موقفًا محدَّدًا، ليس ضدّ الحرب فقط، بل ضدّ الجيش الفرنسيّ أيضًا. وقد تعرّفت إلى ابن زوجتي في تشرين الأوّل ٣٧ في ظروف أجهلها، فأقنعته بآرائك. ولقد تبنّى تحت تأثيرك مسلكًا غير مقبول تجاهي، لأنّني ضابط، وتجاه أمّه لأنّها تزوّجتني، وقد ظهر أمام الجمهور بمظاهر واضحة العداء للنزعة العسكريّة. وهو اليوم يهجر بيتنا في أحرج ساعات التوتّر العالميّ، وهو يخبرنا، بواسطة الكلمة التي قرأتها، أنّه يريد أن يكون شهيد السلام، أنت في الثلاثين من عمرك يا سيِّد بيتو،

(١) «المسالم».

وفيليب لم يبلغ العشرين، ولن أدهشك إذا قلت لك إنّني أعتبرك شخصيًّا مسؤولاً عن كلّ ما يحدث لابن زوجتي على أثر فراره.

قال هانوكين لجارته: «اسمعي، سأقول لك: أنا مجنَّد». فقالت: آه، يا إلٰهي. وكان جورج ينظر إلى خادم المقهى، فيجده لطيفًا، وكانت به رغبة لأن يقول له: وأنا كذلك مجنَّد، ولكنّه لم يجرؤ، وذلك بدافعٍ من الحشمة، وكان القطار يهزّه هزًّا مريعًا، وفكّر: إنّني جالس فوق العجلات.

قال بيتو بصوت حاسم: ـ إنّني أرفض كلّ مسؤوليّة. أنا أفهم مصابك، ولكنِّي لا أستطيع مع ذلك أن أقبل أن أكون بالنسبة إليك كبش المحرقة. لقد جاء فيليب غريزيني إلى مقرّ المجلّة في تشرين الأوّل ٣٧، وهذا واقع لا أفكِّر في إنكاره. وقد أعطانا قصيدة بدت لنا مليئة بالوعود، فنشرناها في عدد كانون الأوّل. وعاد بعد ذلك مرارًا، فاستعملنا كلّ شيء لثنيه: فقد كان متحمِّسًا لنا أكثر ممّا ينبغي، وأصارحك القول إنّنا لم نكن نعرف ما نفعل به. (كان يجلس على طرف فخذيه، ويُحدُّ في «بيتو» نظره الأزرق المزعج. وينظر إليه يشرب ويدخِّن، وينظر إلى شفتيه تتحرّكان، ولم يكن يدخِّن، ولم يكن يشرب، وكان يضع بين الفينة والفينة، إصبعًا في أنفه أو ظفرًا بين أسنانه من غير أن يكفّ عن النظر إليه).

وصاحت السيِّدة لاكاز فجأة: ـ ولكن أين يمكن أن يكون؟ أين يمكن أن يكون؟ وماذا يفعل؟ إنّك تتحدّث عنه كما لو أنّه مات.

وصمتوا. وكانت قد انحنت إلى الأمام بوجه قلق يملأه الاحتقار؛ كان بيتو يرى منبت صدرها من فتحة القميص؛ وكان الجنرال متصلِّبًا في أريكته، ينتظر. كان يمنح بضع دقائق من الصمت لألم أمٍّ مشروع. ونظر الطبيب النفسيّ إلى السيِّدة لاكاز في هيئة ودّ متنبِّه، كما لو أنّها كانت إحدى مريضاته. ثم هزّ رأسه الكبير الكئيب، والتفت نحو بيتو وعاد إلى الهجوم:

ـ إنّني أقرّك يا سيِّد بيتو، إنّ فيليب لم يكن قد فهم جميع أفكارك.

غير أنّ هذا لا ينفي أنّه كان فتى شديد القابليّة للتأثّر، وكان يكنّ لك إعجابًا هائلاً.

ـ أهذه غلطتي؟

ـ ربّما لم تكن غلطتك. ولكنّك كنت تستغلّ تأثيرك استغلالاً سيّئًا.

قال بيتو: ـ عجيب! ولكنْ ما دمت قد فحصت فيليب، فأنت تعلم أنّه كان مريضًا.

فقال الطبيب وهو يبتسم: ـ ليس تمامًا. لا شكّ في أنّ وراثته كانت ثقيلة، من جهة أبيه (أضافها وهو يرمي الجنرال بنظرة)، ولكنّه لم يكن تمامًا مريضًا نفسيًا. كان فتى متوحِّدًا، غير متأقلم، كسولاً ومُغْترًّا. كان ذا عادات مضحكة طبعًا، ومخاوف جنونيّة، مع طغيان الأفكار الجنسيّة. وقد جاء يراني عدّة مرّات، في هذه الفترة الأخيرة، وقد ثرثرنا، فاعترف لي بأنّه... كيف يمكنني القول؟ (وتوجّه إلى السيِّدة لاكاز) اعذري خشونة الأطبّاء. بالاختصار: استنماء متكرِّر ومنتظم. أنا أعرف أنّ كثيرًا من زملائي لا يرون في هذا إلّا نتيجة. أمّا أنا، فأميل مع الدكتور اسكيرول إلى اعتباره سببًا. لقد كان ـ بكلمة واحدة ـ يجتاز بمشقّة ما يسمّيه السيِّد ماندوس، أزمة فرادة المراهقين: كان بحاجة إلى مرشد. وقد كنت راعيًا رديئًا يا سيِّد بيتو، كنت راعيًا رديئًا.

وكان يبدو على نظر السيِّدة لاكاز أنّه مستقرّ على بيتو بالاتّفاق، ولكنّه كان غير قابل للتحمّل. وقد آثر بيتو أن يلتفت بصراحة إلى الطبيب النفسيّ وقال: ـ أعتذر عمّا سأقول أمام السيِّدة لاكاز، ولكن ما دمت تلجئني إلى ذلك، فأصارحك بكلّ وضوح أنّي كنت وما أزال أعتبر فيليب نموذجًا كاملاً للمتحلِّل. فلئن كان بحاجة إلى مرشد، فلماذا لم تهتمّ به؟ كان ذلك واجبك.

فابتسم الطبيب النفسي بكآبة، وامتصّ شفتيه وهو يتنهّد. كانت تبتسم

مستندة إلى باب الغرفة، وقد وقف شعرها، وكانت تبسم بسمة فاتنة، وقال لها الربّان: ـ ينبغي يا صغيرتي أن تعودي إليّ في الساعة التاسعة، فأقول للكِ ما أمكنني أن أفعله لك ولصديقاتك (وكانت له عينان فارغتان صافيتان، وكان شديد الحمرة، وقد لامس صدرها وعنقها وأضاف) لا تنسي، موعدنا، هنا، الساعة التاسعة مساء.

ـ شاء الجنرال لاكاز أن يعطيني بضع صفحات من مذكّرات فيليب، فظننت أنّ من واجبي أن أطّلع عليها. اسمع يا سيِّد بيتو: ينتج من قراءة هذه المذكّرات أنّك كنت تمارس نوعًا من «الشانتاج» على هذا الفتى المسكين. كان يبدو أنّك، بعد وثوقك من مدى حرصه على تقديرك، كنت تستغلّ ذلك لتطلب منه بعض الخدمات التي لا يوضحها في مذكّراته. وقد نزع في الفترة الأخيرة نحو التمرُّد، فأظهرت له احتقارًا ساحقًا كان من نتيجته أن أفضى به إلى اليأس.

ماذا تراهم يعرفون؟ ولكنّ الغضب كان الأقوى، فابتسم بدوره. وكانت مود تبسم وتسلِّم، كانت مؤخّرتها قد أصبحت في الخارج، في الهواء الطلق، بينما كانت قامتها تنحني وتغطس في هواء الغرفة المعطَّر الحارّ:

ـ ولكن طبعًا، يا كابتن. إلى الساعة التاسعة إذن، الساعة التاسعة، هذا مفهوم.

ـ من أفضى به إلى اليأس؟ من كان يُذلُّه كلّ يوم؟ أأنا الذي صفعته يوم السبت الماضي والجميع على المائدة؟ أأنا الذي كنت أتظاهر باعتباره مريضًا وأرسله إلى طبيب نفسيّ، واضطرّه إلى الإجابة على أسئلة مذلّة؟

وسأل خادم المقهى: ـ أأنت أيضًا مجنَّد؟

فابتسم له جورج ابتسامة مسْكنة، ولكن كان عليه أن يتكلّم، أن يجيب على أسئلة المرأتين الشابّتين، فقال: ـ لا، أنا ذاهب إلى باريس لشؤوني.

وانتفض لصوت السيِّدة لاكاز الثاقب:

ـ أتراكما لن تصمتا؟ ألا تستطيعان أن تسكتا؟ ما أشدّ ما تحتقرانه! فتًى في العشرين قد نزعتما ثيابه ولطّختماه، أفلا تحترماني أنا؟ ربّما يكون قد ألقى نفسه في السّين، وأنتما هنا تتبادلان تحمّل المسؤوليّات. إنّنا جميعًا مذنبون ـ كان يقول: لا يحقّ لكم أن تدفعوني إلى النهاية. ولقد دفعناه جميعنا إلى النهاية.

كان الجنرال محمرّ الوجه كلّ الاحمرار، وكانت مود محمرّة الوجه كلّ الاحمرار، وقالت: ـ حسنًا، سنأتي لنأخذ أمتعتنا، وسننام هذه الليلة في الدرجة الثانية.

قالت فرانس: ـ أترين يا عزيزتي، لقد عقّدت الأمور، وهي لم تكن من الصعوبة كما كنت تتخيّلين.

قال من غير أن يرفع صوته، وهو يُحِدُّ فيها عينيه الخشبيّتين: «روزا!» فارتعشت، ونظرت إليه فاغرة الفم، وقالت: ـ هذا قذر... إنّني خجلة!

ومدّ يده القويّة وأطبقها على ذراع زوجته وردّد: «روزا!» بصوت لا لحن له. وتجمّع جسم السيِّدة لاكاز، وأطبقت فمها، وهزّت رأسها وبدأت تستيقظ، فنظرت إلى الجنرال وبسم لها الجنرال، وكان كلّ شيء قد عاد إلى نصابه. وقال: ـ إنّني لا أشاطر زوجتي قلقها، إنّ ابن زوجتي قد ذهب بعد أن سرق عشرة آلاف فرنك من خزانة أمّه. فيصعب عليّ إذن أن أصدِّق أنّه يريد أن يضع حدًّا لأيَّامه.

وساد صمت. كانت الباخرة قد بدأت ترقص قليلاً، وأحسّ بيار بأنّه دبق، وكان قد انزرع بالقرب من سريره وفتح حقيبته، فانبعثت منها رائحة من عطر الخزامى ومعجون الأسنان، وتبغ أشقر شعر لها بالدوار، وفكّر: ـ لقد قال لنا الخادم «إنّ سفرتنا ستكون سيِّئة»! كان الجنرال يتأمّل، وكان يبدو على زوجته مظهر الصبيَّة العاقلة، وكان بيتو لا يفهم، وقد غرّدت

معدته، وكان رأسه يؤلمه، وكان لا يفهم. كان يحسّ الصعود، هوب، ثم يشعر بالسكْر، والأرض الخشبيّة تهتزّ تحت قدميه. كان الهواء حارًّا ودبقًا، وكان ينظر إلى الجنرال، فلا يحسّ بعد بالقوّة على كرهه. وقال الجنرال، كما لو أنّه ينهي هذا الحديث:

ـ أرى يا سيِّد بيتو أنّ بوسعك ومن واجبك أن تساعدنا على العثور على ابن زوجتي. لقد اكتفيتُ حتى الآن بإعلام مراكز الشرطة، ولكن إذا لم نجد فيليب بعد ثمان وأربعين ساعة، فإنّ في نيّتي أن أضع القضيّة بين يدي صديقي المدّعي العامّ ديترن، وأن أطلب إليه بالمناسبة نفسها، إذا كان لا يحسن بالعدالة أن تحقّق قليلاً في المورد المادّي لجريدة «الباسيفيت».

قال: ـ إنّني. . . طبعًا سأساعدك. وبوسع الجميع أن يحشروا أنفسهم في حسابات «الباسيفيت»، ونحن نستطيع أن ننشرها في وضح النهار.

وغطست الباخرة، وكانت هي الجبال الروسيّة، وأضاف وهو يدفع صوته عبر حنجرته المنقبضة:

ـ ولكن. . . ولكنّي لا أرفض أن أساعدكم، وبدافع إنساني محض، يا جنرالي.

وحنى الجنرال رأسه، وقال: ـ هكذا أفهم القضيّة.

كانت تصعد رويدًا رويدًا، بالخفية، ثم تهبط كذلك، ولم يكن ثمّة من يستطيع أن يمتنع عن النظر إلى السرر أو المغسلة ليميّز شيئًا يرتفع أو يهبط، ولكن لم يكن يُرى شيء، باستثناء موجة زرقاء مظلمة تلامس، بين الفترة والفترة، طرف النافذة السفلى، وما تلبث أن تختفي. لقد كانت حركة صغيرة حيّة حيية، خفقة قلب، وكان قلب بيار يخفق منسجمًا؛ ولن تكفّ طوال ساعات وساعات عن أن تصعد وتهبط؛ وكان لسان بيار ثمرة كبيرة ذات عصير في فمه: وكان يسمع، لدى كلّ ابتلاع، طقطقةً غضروفيّةً في مكان ما من أذنيه، ثم إنّه كان ثمّة ذلك الطوق الحديدي الذي كان يشدّ

صدغيه، وتلك الرغبة في التثاؤب.. ولكنّه كان هادئًا جدًّا: لن يصاب بدوار البحر إلَّا من يريده. وما كان له إلَّا أن ينهض، وأن يخرج من غرفته، وأن يقوم بنزهة صغيرة على السطح، حتى يجد نفسه من جديد، ويذهب هذا الاشمئزاز الخفيف. وقال: «سأرى مود» وترك الحقيبة ونهض صلبًا جامدًا على حافّة السرير، وكان هذا يشبه اليقظة. كانت الباخرة الآن تصعد وتهبط تحت قدميه، ولكنّ المعدة والرأس كانا متحرِّرين؛ وعادت عينا مود المستهينتان فظهرتا من جديد ـ والخوف. والعار. سأقول لها إنِّي كنت مريضًا، ضربة شمس يسيرة، شربت أكثر ممّا ينبغي. يجب أن أوضح الأمر، سوف يتكلّم، سوف تخرقه بنظرها القاسي. وكم أنّ ذلك متعب! وابتلع رضابه على مشقّة، فانسرب إلى أعماق حنجرته في حسيس حريريّ فظيع، وكان ماء تفه قد بدأ يسبح في فمه، متعبًا، متعبًا، وفرّت أفكاره فلم يجد بعدُ إلَّا عذوبة كبيرة مهجورة، رغبة في الصعود والهبوط بانتظام، وفي التقيّؤ المتمهِّل الطويل، وفي أن يستلقي على الوسادة، هوهيس هوهيس؛ بلا أفكار: محمولاً في اهتزاز العالم الكبير؛ وسوف يستدرك نفسه قبل فوات الأوان: فلن يُصاب بدوار البحر إلَّا من يريده. ووجد نفسه برمّته، صلبًا وجافًّا، جبانًا، عاشقًا محتقرًا، ميِّتًا مقبلاً من أموات الحرب، وجد من جديد كلّ خوفه المتبصِّر المثلَّج. أخذ الحقيبة الثانية من فوق السرير الأعلى، فوضعها على السرير الأسفل وباشر فتحها. وقد ظلّ مستقيمًا، من غير أن ينحني، بل من غير أن ينظر إلى الحقيبة، وكانت أصابعه المخدَّرة تتلمّس القفل على غير هدى. هل القضيّة تستحقّ؟ هل تستحقّ الصراع؟ إنّه لن يكون بعد إلَّا عذوبة واسعة، ولن يفكِّر بعد في شيء، ولن يشعر بعد بالخوف، كان حسبه أن يستسلم. «يجب أن أذهب لأرى مود». رفع يدًا، فجال بها في الهواء بعذوبة مهتزّة احتفاليّة بعض الشيء. حركات عذبة، خفقات عذبة لأهدابي، ومذاق عذب في جوف فمي، ورائحة عذبة للخزامى ولمعجون الأسنان، والباخرة ترتفع بعذوبة، وتهبط بعذوبة؛

وتثاءب فأبطأ الزمن، وأصبح سُكّريًّا حوله، كان حسبه أن يتصلّب وأن يخطو ثلاث خطوات خارج الغرفة، في الهواء الطلق، ولكن ما الغاية من ذلك؟ أمن أجل أن يجد الخوف مرّة أخرى؟ وكنس الحقيبة بظاهر يده وتداعى للسقوط على السرير. شراب. شراب سُكَّريّ، إنّه لا يشعر بعدُ بالخوف، ولا يشعر بعدُ بالخجل، وكم هو لذيذ أن يشعر بدوار البحر.

جلس على حافّة الرصيف، وكانت ساقاه تتدلّيان فوق الماء: كان تعبًا، وقال: «لن تكون مارسيليا رديئة لو لم يكن فيها هذه البيوت الكثيرة». وكانت القوارب تتحرّك تحته قليلاً، لا كثيرًا، وكانت قوارب صغيرة، كثيرة العدد، وعليها زهور أو ستائر جميلة حمراء أو تماثيل عارية.

كان ينظر إلى القوارب، بعضها يقفز كالماعز وأخرى لا تتحرّك، وينظر إلى الماء شديد الزرقة، ويرى في البعيد جسرًا حديديًّا كبيرًا؛ وما هو بعيد يجد المرء لذّة في النظر إليه؛ فهو يريح العينين. كانت عيناه تؤلمانه: تحت قاطرته ينام، رجال قد أتوا يحملون المصابيح، فسلّطوا عليه الضوء وطردوه بكلمات جارحة؛ وبعد ذلك وجد تلّة من الرمل، ولكنّ النوم لم يعاوده. وتساءل: «أين تراني سأنام هذه الليلة؟» وكان ثمّة بالتأكيد أمكنة جيِّدة، مع قليل من العشب، ولكن كان ينبغي معرفتها: عليه أن يسأل الزنجيّ. كان جائعًا، وقد وقف، فأحسّ ركبتيه متصلِّبتين، وقد فرقعتا، وقال موضحًا: «لا أملك بعد ما آكله، ينبغي أن أذهب إلى المطعم». واستعاد سيره، وكان قد مشى طوال النهار. كان يدخل ويسأل: «هل عندكم عمل؟» ثم يمضي؛ كان الزنجيّ قد قال: «ليس هناك من عمل» والسير في المدن متعب، بسبب البلاط. وقد اجتاز الرصيف، مواربًا، بهدوء، وهو ينظر ذات اليمين وذات اليسار، ليتجنّب الترام، فحين كان يسمع جرسه، يرتعب. وكان ثمّة ناس كثيرون، رقعاء يمشون بسرعة وهم ينظرون إلى أقدامهم، كما لو كانوا يبحثون عن شيء ما، وكثيرًا ما كانوا يصطدمون به إذ يحاذونه فيعتذرون له، حتى من غير أن يرفعوا إليه عيونهم؛

وقد كان يودّ لو يوجِّه إليهم الكلام، ولكنّهم كانوا يبدون من رخاصة العود، بحيث إنّهم يخجلون من ذلك. وصعد إلى الرصيف فرأى مقاهيَ ذات أسطحة جميلة، ثم رأى، مطاعم، ولكنّه لم يدخل: كان على الطاولات خوانات، والخوانات معرَّضة للتلطيخ. ودلف إلى زقاق مظلم كانت تنبعث منه رائحة الغوط، وسأل: «ولكن أين تراني سآكل في هذه الحالة كلّها؟» وفي تلك اللحظة بالذات وجد ما كان يناسبه: فقد رأى، أمام بيت صغير منخفض، عشر طاولات خشبيّة تقريبًا؛ وُضع على كلّ طاولة صحنان أو أربعة، ومصباح صغير مستدير لا بدَّ أنّه لا يضيء كثيرًا، ولم يكن ثمّة خوانات. كان خلف إحدى الطاولات رجل قد بدأ يأكل مع سيِّدة يبدو عليها أنّها شريفة جدًّا، فاقترب غرو ـ لويس منهما وجلس إلى الطاولة المجاورة وابتسم لهما. فنظرت إليه السيِّدة برصانة وأرجعت كرسيّها قليلاً. ونادى غرو ـ لويس الخادمة، وكانت امرأة قصيرة جميلة هزيلة بعض الشيء، ولكن لها مؤخِّرة صلبة نشيطة.

ـ ماذا تقدِّمون هنا من طعام، يا جميلتي؟

كانت حلوة، ورائحتها طيِّبة، ولكنّها لم تكن تبدو مسرورة برؤيته. نظرت إليه متردِّدة، وقالت وهي تومئ إلى ورقة على الطاولة.

ـ إنّ لائحة الطعام أمامك.

قال غرو ـ لويس: ـ آه، حسنًا.

وأخذ اللائحة وتظاهر بأنّه ينظر إليها، ولكنّه كان يخشى أن يمسكها بالمقلوب. وكانت الخادمة قد ابتعدت، وراحت تتحدّث إلى سيِّد كان قد انزرع على عتبة الباب. وكان السيِّد يستمع إليها وهو يهزّ رأسه فيما هو ينظر إلى غرو ـ لويس. وأخيرًا، تركها واقترب من غرو ـ لويس بهيئة حزينة، فسأله:

ـ ماذا تريد يا صديقي؟

فقال غرو ـ لويس مندهشًا: ـ ولكنّني أريد أن آكل. لا شكّ أنّ لديكم حساءً وقطعة من شحم خنزير.

فهزّ السيِّد رأسه في حزن وقال: ـ لا، ليس لدينا حساء.

قال غرو ـ لويس: ـ إنّ معي مالاً. فأنا لا أطلب دينًا.

قال السيِّد: ـ أنا متأكِّد من ذلك. ولكن لا بدّ أنّك قد أخطأت، فأنت لن تكون هنا على كيفك، وسوف تزعجنا.

فنظر إليه غرو ـ لويس، وسأله:

ـ ولكن أليس هذا مطعمًا؟

قال المعلِّم: ـ بلى، بلى، ولكنّ لنا نوعًا معيّنًا من الزبائن... وأنت تحسن صنعًا بأن تذهب إلى الناحية الأخرى من «الكانوبيير»، فستجد هناك عددًا من المطاعم الصغيرة التي تناسبك تمامًا.

وكان غرو ـ لويس قد نهض، فحكّ رأسه بارتباك، وقال:

ـ إنّ معي مالاً. وأستطيع أن أريك إيّاه.

قال السيِّد بحيويَّة: ـ ولكن لا، لا، فأنا أصدِّق كلامك.

وأخذه بلطف من ذراعه وخطا معه بضع خطوات في الطريق، وقال:

ـ اذهب من هنا، فستجد الرصيف وتتبعه إلى اليمين، ولا يمكن أن تضلّ.

قال له غرو ـ لويس وهو يلامس قبَّعته، ويحسّ بالارتباك:

ـ أنت رجل شريف.

ووجد نفسه ثانية على الرصيف، وسط رجال قصار سود كانوا يركضون بين الأقدام، وكان يسير ببطء شديد، خشية أن يصدم أحدهم. كان حزينًا؛ وفي تلك الساعة، كان يهبط من «كانيغو» إلى «فليفرانش»، والقطيع يقفز أمامه، فيشعر بالرفقة، وغالبًا ما كان يلتقي السيِّد باردو صاعدًا إلى مزرعة «الفتيل» والذي لم يكن يمرّ من غير أن يقدِّم له سيكارًا

وضربتين لطيفتين على جنبيه؛ كان الجبل أحمر صامتًا، وفي جوف الوادي يُرى دخان «فليفرانش». لقد كان ضائعًا، فجميع هؤلاء الأشخاص كانوا يسيرون بسرعة مفرطة، ولم يكن يرى إلَّا أعلى رؤوسهم أو قلانسهم، وكانوا من الجنس القزم. وفرّ صبي بين ساقيه، فنظر إليه ضاحكًا، وقال لرفيقه:

ـ أنظر إلى هذا، ألا تظنّ أنّه يضجر وحده، هناك في الأعالي؟

ورآهما غرو ـ لويس يركضان، فشعر بالارتباك، لقد كان يخجل من أن يكون طويلاً إلى ذلك الحدّ. وقال: «إنّ لهم عاداتهم» واستند إلى الجدار. كان حزينًا ورقيقًا، لا يقلّ حزنًا عن اليوم الذي كان فيه مريضًا. وفكّر بالزنجيّ الذي كان لطيفًا ومرحًا إلى ذلك الحدّ، صديقه الوحيد، وقال: «كان عليّ ألَّا أدعه يذهب». ثم اخترقت رأسه فجأة فكرة صغيرة مرحة بعض الشيء: إنّ الزنجيّ يمكن أن يُرى من بعيد، فليس العثور عليه بالأمر الصعب، ثم استعاد سيره، وهو يحسّ أنّه أقلّ وحدة ممّا كان، وكان يبحث عنه بعينيه ويفكّر: «سوف أدعوه إلى قدح».

كنّ جميعًا في الساحة، وقد تورّدت وجوههنّ بالشمس الغاربة. كانت هناك جان وأورسول والشقيقات كلابو والماري وجميع الأخريات. وكنّ قد بدأن بالانتظار في بيوتهنّ، وإذ لاحظن أنّ الوقت يمرّ، عدن إلى الساحة، الواحدة تلو الأخرى، ورحن ينتظرن، وقد رأين، عبر المرآة التي ذهب التماعها، المصابيح الأولى تضيء في مقهى الأرملة «ترامبلان»، فتُحدث ثلاث لطخات مُضبّة في أعلى الواجهة. رأين هذه اللطخات فشعرن بالحزن: كانت الأمّ ترامبلان قد أضاءت مصابيحها في مقهاها المقفر، وجلست إلى طاولة من المرمر، ووضعت على المرمر سلّتها وراحت تلفق جواربها القطنيّة من غير قلق، لأنّها كانت أرملة. أمّا هنّ، فكنّ يبقين خارجًا في انتظار رجالهنّ، وكنّ يشعرن خلفهنّ ببيوتهنّ الفارغة ومطابخهنّ التي كان الظلام يغمرها رويدًا رويدًا، وكانت أمامهنّ تلك الدرب الطويلة

الخطرة و«كاين» في نهاية الطريق. ونظرت الماري إلى الساعة في برج الكنيسة، فقالت لأورسول: «ستبلغ الساعة التاسعة، فربّما احتفظوا بهم»، وكان رئيس البلديّة قد قال إنّ ذلك كان مستحيلاً، ولكن ما أدراه، فهو لم يكن يعرف خيرًا منهنّ عادات المدن. فلماذا تراهم قد صرفوا شبّانًا أشدّاء أتوا يعرضون أنفسهم؟ ربّما قيل لهم: «آه حسنًا! ما دمتم هناك...» ثم احتفظوا بهم. وصلت روز الصغيرة وهي تركض، وكانت تلهث وتصيح: «ها هم أولاء! ها هم أولاء!» فأخذت جميع النساء يركضن أيضًا؛ ولقد ركضن حتى مزرعة «داربوا»، حيث كان يطلّ درب طويل، فرأينهم على الطريق البيضاء، بين البراري، وكانوا على عرباتهم يسيرون في صفّ طويل، كما في الذهاب؛ وكانوا عائدين على مهل، يغنّون. على رأسهم شابان، يبدو منهارًا على مقعده، ويداه ممسكتان بالأعنّة في استرخاء، كان ينام، بينما الحصان يمشي بدافع العادة. ورأت الماري أنّ إحدى عينيه كانت تحيط بها هالة سوداء. ففكّرت بأنّه تنازع مرّة أخرى مع أحدهم. وكان واقفًا خلفه، على عربة، رونار الابن يغنّي بأعلى صوته، ولكن لم يكن المرح باديًا عليه. كان الآخرون يعقبونه، فقد أصبحوا أشباحًا سوداء في السماء الصافية. والتفتت ماري نحو الأمّ كلابو وقالت لها:

«لقد ثملوا، كانوا بحاجة إلى هذا». كانت عربة شابان تتهادى على مهل وهي تصرّ، فأفسحت لها النساء المكان لتمرّ. ومرّت، فأطلقت لويز شابان صرخة ثاقبة: يا إلٰهي، إنّه لا يعود إلّا بحيوان واحد، فماذا فعل بالآخر، لقد باعه ليشرب». وكان رونار الإبن يغنّي بأعلى صوته، وعربته ترتجّ بين حفرة وأخرى، وكان وراءه آخرون يغنّون وقوفًا في عرباتهم، والسوط في أيديهم. رأت الماري رَجُلها، ولم يكن يبدو عليه أنّه سكران، ولكن حين رأت عن كثب وجهه المقطّب، أدركت أنّه شرب وأنّه سيضرب. وفكّرت منقبضة القلب: «إنّه أسوأ من حيوان». ولكنّها كانت مع ذلك مسرورة أنّه عاد، فقد كان في المزرعة عمل كثير، ومن الأفضل أن يضرب

بين وقت وآخر، أيّام السبت، وأن يكون موجودًا للعمل الكبير. كان قد تداعى للسقوط على كرسيّ، على سطيحة حانة، فطلب قدحًا، وقدّموا له خمرًا أبيض في كأس صغيرة جدًّا، وكانت ساقاه تؤلمانه، فمدّهما تحت الطاولة وحرّك أصابعه في حذائه، وقال: «هذا طريف»، وشرب وقال: «هذا طريف. لقد بحثت عنه طويلاً مع ذلك،»، لو جاء لأجلسه قبالته، ولنظر إلى وجهه الطيّب الأسود، وكان حسبه أن يراه حتى يضحك، ويضحك الزنجيّ أيضًا، وكانت تبدو عليه هيئة الاطمئنان والرقّة كالبهيمة: «سوف أعطيه تبغًا يدخّنه وخمرًا يشربه».

وكان جاره ينظر إليه: إنّه يجدني غريبًا لأنّي أتكلّم وحدي، وكان شابًّا في العشرين من عمره، سيّئ النموّ، هزيلاً، ذا بشرة بناتيّة، وكان جالسًا مع شابّ أسمر جميل، أفطس الأنف، في أذنيه زغب وعلى ساعده الأيسر سرطان موشوم. وأدرك غرو ـ لويس أنّهما كانا يتحدّثان عنه بلغتهما المحلّيّة، فبسم لهما ونادى الخادم: ـ قدح آخر من الخمر نفسه يا صغيري. وإذا كان لديك أقداح أكبر، فلا تتردّد.

ولم يكن الخادم ليتحرّك، ولم يكن ليقول شيئًا، ولكنْ كان ينظر إليه بهيئة من له هيئتان. وأخرج غرو ـ لويس محفظة نقوده ووضعها على الطاولة.

ـ ما بك يا صغيري؟ أتظنّ أنّي لا أستطيع أن أدفع؟ خذ!

وأخرج الأوراق الثلاث ذات الألف وأمرّها تحت أنفه.

ـ ماذا أقول لك؟ هيّا، أعطني قدحًا من خمرك القذر.

وأعاد محفظته إلى جيبه، ولاحظ أنّ الفتى القصير المجعّد كان يبسم له بأدب. وسأله: ـ كيف الحال؟

ـ ماذا؟

ـ كيف الحال؟

قال غرو ـ لويس: ـ لا بأس. إنّني أبحث عن أسودي.

ـ ألست من هنا؟

قال غرو ـ لويس وهو يضحك: ـ لا. لست من هنا. أتريد أن تشرب قدحًا؟ أنا الذي أدعو.

فقال المجعّد: ـ إنّ هذا لا يُرفض. ولكن هل أستطيع أن أصحب رفيقي؟

وقال بضع كلمات لرفيقه، بلغتهما المحلِّيَّة. وابتسم الرفيق ونهض في صمت، وأقبلا يجلسان تجاه غرو ـ لويس. وكانت تنبعث من القصير رائحة عطر. قال غرو ـ لويس: ـ أشمّ منك رائحة عطر.

ـ كنت عند الحلّاق.

ـ آه! هذا هو السبب. ما هو اسمك؟

فقال القصير: ـ اسمي ماريو، والرفيق إيطالي، واسمه ستاراس. إنّنا بحريّان.

وضحك ستاراس وسلّم من غير أن ينبس بكلمة. وقال ماريو:

ـ إنّه لا يعرف الفرنسيّة، ولكنّه ظريف. هل تعرف الإيطاليّة؟

قال غرو ـ لويس: ـ لا.

ـ لا بأس. سترى: إنّه على كلّ حال ظريف.

وتحدّثا فيما بينهما يالإيطاليّة. كانت لغة جميلة، وكانا يبدوان وكأنّهما يغنّيان. وكان غرو ـ لويس مسرورًا بعض الشيء أن يكون معهما، لأنّ ذلك كان يحقّق له رفقةً، ولكنّه ظلّ يشعر، في أعماقه، بأنّه وحيد.

ـ ماذا تشربان؟

قال ماريو: ـ أنيسون.

قال غرو ـ لويس: ـ ثلاثة أنيسون. ما هذا، أهو خمر؟

ـ لا، لا، أفضل من هذا. وسترى!

وملأ الخادم ثلاثة أقداح من مشروب، وسكب ماريو ماءً في الأقداح، يتحوّل المائع إلى غيمة بيضاء أخذت تدور. قال ماريو:

ـ بصحّتك.

وشرب بصخب، ثم مسح فمه بكمّه. وشرب غرو ـ لويس أيضًا: لم يكن ذلك رديئًا جدًّا، وكان فيه مذاق الأنيسون. وقال ماريو:

ـ انظر إلى ستاراس، فهو سوف يجعلك تتلوّى من الضحك.

وكان ستاراس قد بدأ يحوِّل عينيه، وكان في الوقت نفسه يقطّب أنفه، ويمطّ شفتيه ويحرّك أذنيه كالأرنب. ضحك غرو ـ لويس، ولكنّه شعر بأنّه مصدوم ومستاء: وفكّر بأنّه لم يكن يحبّ ستاراس. وكان ماريو يضحك حتى لتسيل دموعه، ويقول وهو ما يفتأ يضحك: ـ لقد أنبأتك. إنّه ظريف، هذا الأخ. وهو الآن سيقدِّم لك فصل الصحن.

ووضع ستاراس قدحه على الطاولة، وقبض على صحنه في كفِّه العريضة، ثم أمرّ ثلاث مرّات متواليات يده اليسرى مبسوطة على يده اليمنى. وبعد المرّة الثالثة، كان الصحن قد اختفى. وانتهز ستاراس دهشة غرو ـ لويس، فأدخل يده بين ساقيه، وأحسّ غرو ـ لويس بأنّ شيئًا صلبًا كان يلامس ساقيه، ثم ظهرت اليد، وهي تحمل الصحن. وضحك غرو ـ لويس باعتدال، بالرّغم من أنّ ماريو ضرب على فخذيه وهو يبكي من الفرح.

وكان ماريو يقول بين شهقتين: ـ آه أيّها القذر! أقول لك؟ ألن تنتهي من المزاح معنا؟

وهدأ تدريجيًّا؛ وحين استردّ رصانته، سقط على الرجال الثلاثة صمت ثقيل. كان غرو ـ لويس يجدهما متعبيْن، وكان راغبًا بعض الرغبة في أن يذهبا، ولكنّه فكّر بأنّ الليل يوشك أن يهبط، وأنّ عليه أن يستعيد مشيه على غير ما هدى في الشوارع الطويلة الغارقة في الظلام، وأن يبحث بحثًا

لا ينتهي عن مكان يأكل فيه وعن آخر ينام فيه، فانقبض قلبه وطلب دورةً أخرى من الأنيسون. وانحنى ماريو إليه، فشمّ غرو ـ لويس رائحته. وسأله ماريو:

ـ هكذا إذن، أنت لست من هنا؟

قال غرو ـ لويس: ـ لست من هنا ولا أعرف أحدًا. والشخص الوحيد الذي أعرفه لا أستطيع أن أعثر عليه (ثم فكّر وقال) إلّا إذا كنتما تعرفانه. إنّه الأسود.

فهزّ ماريو رأسه هزّة غامضة.

وانحنى فجأة نحو غرو ـ لويس وهو يغضّن عينيه، وقال:

ـ مارسيليا هي البلد التي يهزل فيها الناس ويضحكون. فإذا لم تعرف مارسيليا، لم تضحك في حياتك قطّ.

فلم يجب غرو ـ لويس. فقد هزل كثيرًا في فيلفرانش، ثم في مواخير «بيربينيان» حين أدّى خدمته العسكريّة: ولقد انتهى ذلك. ولكنّه لم يكن ليتصوّر أنّ بوسع المرء أن يهزل في مارسيليا. وسأل ماريو:

ـ أراك غير راغب في الهزل... ألست تحلم أحيانًا باللُّعب الجميلة؟

قال غرو ـ لويس: ـ ليس الأمر كذلك. ولكنّي أفضّل الآن أن آكل. فإذا كنت تعرف مطعمًا، فإنّي أدعوكما إلى الطعام بسرور.

حين هبط الليل، كانت الأجرام قد تبخّرت، فلم يبقَ إلّا كتل غازيّة غامضة، سحائب مظلمة؛ وكانت تمشي بسرعة، خافضة الرأس، مخسوفة الكتفين، وخائفة من الاصطدام فجأة بالحبال، تسير بحذاء الحاجز؛ تودّ لو يتأكّلها الليل، ولا تكون إلّا بخارًا معلّقًا في هذا البخار الهائل، وأن تتمزّق شيئًا فشيئًا بالأطراف. ولكنّها كانت تعلم جيّدًا أنّ ثوبها الأبيض كان فانوسًا. كانت تعبر سطح الدرجة الثانية، فلا تسمع ضجّة، باستثناء شكوى البحر السرمديّة؛ ولكنْ، كان في كلّ مكان رجال جامدون صامتون ينفذون

فوق ظلّ البحر المنبسط، وكانت لهم عيون. وبين الفترة والفترة كانت نارٌ مدبّبة تثقب الليل، فيحمرّ منها وجه، وتلتمع عينان، تنظران إليها، ثم تغيبان. لقد ودّت لو أنّها تموت.

كان لا بدّ من هبوط درج، وعبور سطح الدرجة الثالثة، وارتقاء درج آخر، وهي صلبة كأنّها سلّم، شديدة البياض؛ إذا رآني أحد، فلن يكون ثمّة مجال للشكّ، إنّ غرفته فوق، وحيدة؛ ولدى هذا الرجل عمل، فلا يمكن أن يحتفظ بي طوال الليل. وكانت تخشى أن يجد في ذلك لذّة، فيرسل في كلّ مساء خادمًا يبحث عنها في الصالون، كالربّان اليوناني، ولكن لا ، فأنا مفرطة الهزال بالنسبة لرجل سمين مسنّ مثله، فهو سيصاب بالخيبة، إذ لن يجد إلّا عظامًا. ولم تكن بها حاجة للطرْق، فقد كان الباب مشقوقًا، وكان ينتظرها في الظلام، وقال: ـ ادخلي، يا جميلتي.

فتردّدت لحظة، وهي منقبضة الحلق؛ فجذبتها إلى الغرفة يدٌ، وانغلق الباب. وألصقت فجأة ببطن كبير، وانسحق على فمها فمّ مسنّ تنبعث منه رائحة الفلّين. واستسلمت وكانت تفكّر في خضوع متكبّر: «تلك هي المهنة، وهذا جزء من مهنتي». وضغط الربّان على الزرّ فخرج رأسه من الظلام، وكان بياض عينيه مائعًا مزرقًا، مع نقط حمراء في العين اليسرى. وتخلّصت وهي تبتسم؛ كان كلّ شيء قد أصبح أصعب جدًّا منذ أن أُضيئت المصابيح؛ كانت حتى ذلك الحين تتصوّره بكتل كبيرة، أمّا الآن، فقد أخذ يوجد حتى في أدقّ التفاصيل، إنّها ستضاجع كائنًا فريدًا في العالم، كجميع الكائنات، وستكون هذه اللّيلة ليلة فريدة، كجميع الليالي، ليلة حبّ فريد غير قابل للتعويض، ضائع ضياعًا لا يعوّض. وكانت مود تبتسم، وتقول:

ـ مهلاً يا كابتن: مهلاً، فأنت كثير الاستعجال: يجب أن نتعارف.

ما هذا؟ واستقام على مرفق، مرتابًا: كانت الباخرة تبدو جامدة. وأخذته ثلاثة تقيّؤات أو أربعة، كان أحدهما قويًا جدًّا فخرج من أنفه، وكان يُحسّ بأنّه فارغ ولكنّه صافي الذهن. وفكّر: ما هذا؟ ووجد نفسه

فجأة جالسًا على سريره، ودائرة حديديّة تحيط رأسه، وذلك الضيق الذي كان يألفه أشدّ الألفة يعضّ قلبه. كان الزمن قد عاد يجري، وكان آليّةً متصلِّبة متقطِّعة، وكانت كلّ لحظة تمزِّقه كأنّها سنّ منشار، وكلّ لحظة تقرّبه من مرسيليا ومن الأرض الرماديّة التي سيموت فيها. ومن جديد، كان العالم هنا، حول غرفته، عالم محطّات فظيع، عالم دخان وأثواب عسكريّة وأرياف مكتسحة، عالم لم يكن يستطيع أن يعيش فيه، ولم يكن يستطيع أن يتركه، وفيه ذلك الثقب الموحل الذي كان ينتظره في «فلاندر». جبان، ابن ضابط يخشى خوض الحرب: كان يشمئزّ من نفسه، ومع ذلك يتشبّث بالحياة تشبّثًا يائسًا. وهذا أشدّ سوءًا: لا أريد أن أعيش لما أنا عليه من قيمة؛ بل... من أجل لا شيء، من أجل لا شيء، لأنّي أعيش. وكان يحسّ نفسه قادرًا على كلّ شيء، لينقذ جلده، على الفرار، وعلى طلب الإعفاء، وعلى الخيانة، ومع ذلك فإنّه لم يكن حريصًا إلى هذا الحدّ على جلده. ونهض: ماذا سأقول له؟ إنِّي كنت مصابًا بضربة شمس، أو بنوبة ملاريا، أو إنِّي لم أكن في حالتي الطبيعيّة؟ واقترب من المرآة وهو يتهاوى، فرأى أنّه كان ممتقعًا كالليمونة. اكتمل الأمر: لا أستطيع أن أعوِّل بعد حتى على وجهي. ولا بدّ أنّ رائحة القيء تنبعث منِّي، فوق كلّ ذلك. ورشّ ماء الكولونيا على وجهه وتغرغر بماء «بوتو». وفكّر منفعلاً: ما أكثر المشاكل! هذه هي المرّة الأولى التي أهتمّ فيها بما يمكن لامرأة أن تفكِّر به عنِّي. نصف بغيّ، عازفة كمان في فرقة مبتذلة؛ ولقد عرفت نساء متزوِّجات، وربّات أسر. وفكّر وهو يرتدي معطفه: أمّا هذه، فإنّها تمتلكني، وهي تعرف ذلك.

وفتح الباب وخرج، كان الربّان عاريًا تمامًا، وكانت له بشرة شمعيّة ملساء، بلا شعر، ما عدا خمس أو ستّ شعرات بيضاء، على الثديين، ولا بدّ أنّ الشعر الباقي قد سقط بسبب السنّ.. وكان يضحك، ويشبه صبيًّا سمينًا عفريتًا؛ ولامست مود بطرف أصابعها فخذيه الكبيرتين الملساوين،

فتلوّى وهو يقول:

ـ إنّك تدغدغينني!

وكان يعرف رقم الغرفة: ٢٧؛ وسلك ممرًّا إلى اليمن، ثم آخر إلى اليسار. وكان يسمع ضربات كبيرة منتظمة على الحاجز؛ هذه هي الغرفة ٢٧. كانت ثمّة امرأة شابّة متمدِّدة على ظهرها، صفراء كالميِّتة؛ وكانت سيِّدة عجوز جالسة على السرير محمرّة العينين متورِّمتهما، تأكل خبزًا وجبنًا.

قالت: ـ أوه! السيِّدات الثلاث هنا؟ لقد كنّ لطيفات جدًّا، وقد ذهبن إذ نقلوهنّ إلى الدرجة الثانية؛ سوف أشتاق لهنّ.

وكان ينظر إليها في دهشة، ووضع يده على عظمتها الحرقفيّة.

ـ كنت تكونين ملتفّة التكوين، مع هذا الوجه الجميل، ولكنّك في الواقع هزيلة.

وضحكت؛ حين كان أحد يلمس عظمتها الحرقفيّة، كان ذلك يضحكها:

ـ ألا تحبّ الهزيلات يا كابتن؟

فسارع يجيب: ـ آه! أنا لا أَكره هذا. لا أكرههنّ على الإطلاق.

وصعد الدرج وهو يركض؛ كان يجب أن يرى مود. وهذا هو الآن ممرّ الدرجة الثانية، ممرّ جميل ذو سجّادة، وكانت الأبواب والحواجز ملمّعة بالأزرق الرماديّ. وكان محظوظًا: فقد ظهرت روبي فجأة، يتبعها خادمٌ يحمل حقائبها. قال بيار: ـ مرحبًا، أنت في الدرجة الثانية؟

قالت روبي ـ نعم! إنّ فرانس تخشى أن تكون مريضة. وقد اتّفقنا جميعًا على ذلك: فحين تكون الصحّة معرّضة، فيجب أن نتحمّل التضحيات.

ـ أين هي مود؟

كانت مود مضطجعة على جنبها، وكان الربّان يربت على فخذيها بلطف وشرود؛ كانت تحسّ نفسها مهانةً عميق الإهانة: «لو لم أكن الشخص الذي يناسبه، لما كان مضطرًّا إلى مثل ذلك». وأمرّت يدها على خاصرتيه لتبادله ملاطفته: كانت بشرته مترهِّلة. وقال بيار بصوت ثاقب:

ـ مود؟ من يعرف أين هي؟ إنّكم تعرفونها: لقد أخذتها الرغبة بأن تمضي لمغازلة البحّارة، إلّا أن تكون المغازلة للربّان! إنّها تعشق السفر بالبحر، وهي لا تنفكّ تعدو في الباخرة من طرف إلى طرف.

قال الربّان: ـ أيّتها الفضوليّة الصغيرة!

وضحك، وقبض على معصمها، وقال: ـ أريد أن أطوف بك طوفة الملّاك. والتمعت عيناه للمرّة الأولى. فاستسلمت مود، وهي متأثِّرة، بسبب تغيير غرفتهنّ، فيجب على أيّة حال أن يُعوّض عن ذلك، وكانت آسفة أشدّ الأسف لكونها مفرطة الهزال، فهي تشعر كما لو أنّها خدعته؛ وكان الربّان يبتسم، وهو يخفض عينيه، وكانت هيئته بريئة وداخليّة، فيما هو يشدّ معصم مود ويقودها من يدها في رقّة صلبة. كانت مود مسرورة وهي تفكِّر: «من اللؤم جدًّا أن أرفض شيئًا يرغب فيه، بعد الإزعاج الذي سبّبناه له، لا سيّما وأنّه لا يحبّ الهزيلات».

ـ شكرًا! شكرًا جدًّا!

أخفض رأسه واستعاد ركضه. كان يجب العثور على مود؛ ستكون على سطح الباخرة. ورقي سطح الدرجة الثانية في الظلام، وكان شبه مستحيل أن يُعرف الأشخاص، إلّا أن ينظر إليهم المرء عن كثب. إنّني بليد، فما عليّ إلّا أن أنتظرها هنا: فمن حيث أتت، لا بدّ أن تسلك هذا السلّم. وكان الربّان قد أغمض عينيه تمامًا، وبدا في هيئة هادئة دينيّة راقت كثيرًا لمود، التي كانت تحسّ بمعصمها متعبًا، ولكنّها كانت مسرورة أن ترضيه، ثم إنّها تحسّ نفسها وحيدة، كما كان يحدث وهي صغيرة إذ

يأخذها الجدّ «تيغينور» على ركبتيه، وينام فجأة وهو يترنّح برأسه. كان بيار ينظر إلى البحر ويفكّر: «إنّني جبان». وكان هواء رطب يسيل على خدّيه ويصفّق خصلة شعره. كان ينظر إلى البحر يهبط ويرتفع، وينظر إلى نفسه في دهشة ويفكّر: «جبان. لم أكن لأصدّق ذلك قطّ». جبان إلى حدّ يدعو إلى البكاء. كان حسبه يومًا واحدًا حتى يكتشف كينونته الحقيقيّة، ولولا أخطار الحرب هذه، لما عرف شيئًا أبدًا. لو كنت وُلدت في عام ١٨٦٠ مثلاً، لكان انطلق يتنزّه في الحياة بيقين هادئ، ولكان انتقد بقسوة جبن الآخرين، ولما كان لشيء، لشيء على الإطلاق، أن يكشف له طبيعته الحقيقيّة. لا حظّ. يوم، يومٌ واحد: أمّا الآن فقد كان يعرف، وكان وحده. كانت السيّارات والقطارات والقوارب تحرث هذا اللّيل الصافي الرنّان، وتتّجه جميعًا نحو باريس، حاملةً شبابًا مثله لم يكونوا ينامون، وهم يُطلّون من فوق المترسة، أو يلصقون الأنف بالزجاج المظلم. وفكّر: ليس هذا بالعدل. إنّ هناك ألوفًا من الناس، وربّما ملايين، عاشوا في عصور سعيدة ولم يعرفوا قطّ حدودهم: لقد تُرك لهم ربحُ الشكّ. ربّما كان ألفريد دوفيني جبانًا. وموسيه؟ وسانت بوف؟ وبودلير؟ لقد كانوا محظوظين. وتمتم وهو يضرب بقدمه: «أمّا أنا! ما كان لها قطّ أن تعرف، وقد كانت تمضي في أن تنظر إليّ نظرة العبادة، وما كانت لتبقى أكثر من الأخريات، وكنت سأهجرها بعد ثلاثة أشهر. ولكنّها الآن تعلم. إنّها تعلم. القحبة. وهي تمسكني».

وكان الظلام سائدًا في الخارج، ولكن في الحانة كان النور غزيرًا جدًّا، حتى إنّ غرو ـ لويس كان مبهورًا به. وكان ذلك أدعى إلى الضحك، إذ إنّ الناس لم يكونوا يرون مصابيح: وإنّما كان ثمّة أنبوب طويل أحمر يتلوّى حول السقف، ثم أنبوب آخر، أبيض، وكان الضوء صادرًا من هناك؛ وكانوا قد ألصقوا مرايا في كلّ مكان؛ وفي المرآة المواجهة، كان غرو ـ لويس يرى رأسه برمّته، وجمجمة ستاراس، ولم يكن يرى ماريو ولا

ديزي اللذين كانا قصيرين جدًّا. كان قد دفع ثمن الطعام وثمن أربع دورات لأقداح الأنيسون؛ وطلب عرقًا، إذ هم جالسون في جوف الحانة تجاه المشرب، وكان ذلك لذيذًا، يحيط بهم صخب قطنيّ مهدهد. وكان غرو ـ لويس يتفتّح، وكانت به رغبة لأن يصعد على الطاولة ويغنّي، ولكنّه لم يكن يعرف الغناء. كان في أحيان أخرى يغمض عينيه، فيسقط في ثقب ويشعر بأنّه مرهق، كما لو أنّ شيئًا فظيعًا قد حدث له، فيفتح عينيه ثانية، ويحاول أن يتذكّر ما وقع، ولكنّه يتأكّد آخر الأمر أنّه لم يحدث له شيء قطّ. ومهما يكن من أمر، فقد كان راضيًا على الأغلب، متوتّرًا بعض الشيء بكلّ بساطة، ولكنّه مرتاح؛ ويجهد في أن يُبقي عينيه مفتوحتين. كان قد مدّ ساقيْه الطويلتين تحت الطاولة، إحداهما بين ساقيْ ماريو والأخرى بين ساقيْ ستاراس. وكان يتطلّع إلى نفسه في المرآة فيضحك، وحاول أن يقلّد ستاراس، ولكن لم يكن يستطيع أن يُحوّل عينيه ولا أن يحرّك أذنيه. وتحت المرآة، كان ثمّة سيّدة صغيرة رصينة تدخّن بتفكير، ولا بدّ أنّها ظنّته يوجّه إليها حركات وجهه، لأنّها مدّت له لسانها، ثم حبست قبضتها اليمنى في يدها اليسرى، وأغلقت القبضة اليمنى ثم أخذت تُديرها وهي تقهقه. وصرف غرو ـ لويس عينيه مبهوتًا، وقد أخذه الخوف من أن يكون قد جرحها.

كانت ديزي جالسة بلصقه، صغيرة، صلبة، حارّة. ولكنّها لم تكن تنشغل به. كانت رائحتها طيّبة، وكانت مزيّنة كما ينبغي، ولكنّ غرو ـ لويس كان يجدها أرصن ممّا يجب، فهو يحبّ المغندرات الصغيرات الضاحكات قليلاً اللواتي يقمن ببعض المضايقات، كأنْ ينفخن في أذنك، أو يهمسن بكلام بذيء لا تفهمه على الفور. كانت ديزي منتعشة وجادّة، وتتحدّث عن الحرب مع ماريو بلهجة جدّيّة، وتقول:

ـ سنخوضها هذه الحرب. فإن وجب أن نخوضها، خضناها.

كان ستاراس جالسًا باستقامة على الكرسي، تجاه ديزي، وكان يبدو

حفيًّا، ولكن، ولا شكّ، في أنّ ذلك كان بدافع المجاملة، إذ لم يكن يفهم شيئًا. وكان غرو ـ لويس قد بدأ يميل إليه لالتزامه الهدوء وعدم إغضابه. وكان ماريو ينظر إلى ديزي نظرة خبث، ويهزّ رأسه، ويقول:

ـ أنا لا أقول لا، لا أقول لا.

ولكن، لم يكن يبدو عليه أنّه مقتنع. وقالت ديزي: ـ أنا أفضّل الحرب على الإضراب، ألا تفضِّل أنت الحرب على الإضراب؟ ما عليك إلّا أن ترى إضراب عمّال أحواض السفن، كم كلّف الجميع، نحن والآخرين.

قال ماريو: ـ أنا لا أقول لا.

وكانت ديزي تتكلّم باجتهاد وبلهجة شقيّة؛ وكانت تهزّ رأسها وهي تتكلّم، وقالت بقسوة: ففي الحرب تنتهي الإضرابات. الجميع يعملون. آه! آه! ليتك رأيت البواخر عام ١٩١٧، كنتَ آنذاك طفلاً. وأنا أيضًا كنت طفلة، ولكنّي لا زلت أذكرها، كما ترى. كانت هي «النوبة»، إذ كنت ترى النيران حتى «الاستاك»، وتلك الرؤوس التي كانت تُرى في الشوارع؟ لقد كنت تحسب نفسك لا أدري أين، فتشعر بالاعتزاز، والصفوف الطويلة في شارع بوتاريل، كان هناك إنكليز وأميركان وطليان وألمان وحتى هندوس... آه! وكم كانت أمّي تجمع من المال!!

قال ماريو: ـ ولكن لم يكن هناك ألمان، فقد كنّا في حرب معهم.

قالت ديزي: ـ أقول لك إنّه كان هناك ألمان، وفي ثياب عسكريّة أيضًا، وعلى قبّعاتهم شيء ما. ألا تظنّ أنّي رأيتهم؟

قال ماريو: ـ كنّا في حرب معهم.

فهزّت ديزي كتفيها:

ـ هذا صحيح، ولكن هناك، في الشمال. أمّا هؤلاء فلم يكونوا يأتون من الفنادق، وإنّما يصلون من البحر، ليتاجروا.

ومرّت بغيٌ طويلة، سمينة شقراء كالزبدة، ولكن هيئتها كانت أرصن ممّا ينبغي هي أيضًا. وفكّر غرو ـ لويس: «إنّما تأتيهم هذه الهيئة من السكنى في المدينة» وانحنت نحو ديزي، وهي تبدو غاضبة:

ـ أمّا أنا، فلا أحبّ الحرب، هل تفهمين؟ لأنّ إستي مليئة بالحرب، وأخي قد خاض حرب ١٤، فلعلّك تريدين أن يعود إليها؟ ومزرعة خالي؛ ألم تحترق؟ ألا يعني هذا شيئًا في نظرك؟

وبدت ديزي مبهوتة لحظةً ما، ولكنّها ما لبثت أن استعادت رباطتها، وسألتها: ـ أنتِ إذن تفضّلين الإضرابات؟ قوليها إذن؟

ونظر ماريو إلى الشقراء الطويلة، فمضت من غير أن تلوي، وهي تهزّ رأسها. وجلست غير بعيدة عنهم، وأخذت تتحدّث بحماسة إلى رجل قصير حزين كان يمضغ قشّة. كانت تومئ إلى ديزي وتتحدّث بسرعة مدهشة. ولم يكن الرجل القصير ليجيب، وكان يمضغ قشّته من غير أن يرفع بصره، بل كان لا يبدو أنّه يسمعها. وقال ماريو موضحًا: ـ إنّها من «سيدان».

فسألت ديزي: ـ أين هي؟

ـ في الشمال.

فهزّت كتفيها:

ـ إذن لماذا تراها تهذي غاضبة؟ إنّهم معتادون في الشمال.

وتثاءب غرو ـ لويس بكلّ قواه، وتدحرجت دموع على خدّيه. كان ضجرًا، ولكنّه مسرور، لأنّه كان يحبّ كثيرًا أن يتثاءب. ورماه مارو بنظرة سريعة، وأخذ ستاراس يتثاءب أيضًا.

وقال ماريو، وهو يشير إلى غرو ـ لويس: ـ إنّ الرفيق منزعج، فكوني لطيفة معه يا ديزي.

والتفتت ديزي إلى غرو ـ لويس، ووضعت ذراعها حول عنقه. ولم تكن بعد قطّ على هيئتها الرصينة:

ـ صحيح يا حبّوبي أنّك ضجر، وإلى جانبك فتاة جميلة؟

وكان غرو ـ لويس يهمّ بإجابتها حين لمح الزنجيّ. كان واقفًا أمام المشرب، يشرب مائعًا أصفر في قدح كبير، وكان يرتدي ثوبًا أخضر وقبّعة من قشّ ذات شريط متعدِّد الألوان. قال غرو ـ لويس: «آه! حسنًا» وكان ينظر إلى الزنجيّ وكان سعيدًا. وسألته ديزي مندهشة: ـ ما بك؟

فأدار رأسه نحوها ونحو ستاراس، ونظر إليهما في ذهول. كان خجلاً من وجوده معهم. ونفض كتفيه، ليُسقط ذراع ديزي، نهض واقترب من الزنجيّ يسترقّ الخطى. كان الزنجيّ يشرب، وغرو ـ لويس يضحك من فرط السرور. وكانت ديزي تقول خلفه بلهجة مُرّة: «ما الذي دهاه، هذا المثقوب؟ لقد آلمني»، ولكنّ غرو ـ لويس لم يكن يكترث بها: لقد تحرّر من ماريو وستاراس. ورفع يده اليمنى فوق الزنجيّ وأرسل له ضربةً كبيرة بين الراسلين، فأوشك الزنجيّ أن يختنق؛ وقد سعل وبصق ثم استدار إلى غرو ـ لويس بهيئة غاضبة. وقال غرو ـ لويس: ـ هذا أنا.

فقال الزنجيّ بصوت ثاقب: ـ ألست مجنونًا، أحيانًا؟

فردّد غرو ـ لويس: ـ أنت ترى أنّ هذا هو أنا.

قال الزنجيّ: ـ أنا لا أعرفك.

فنظر غرو ـ لويس إلى الزنجيّ في حزن:

ـ ألا تذكر؟ لقد التقينا أمس، وكنت قد سبحت في البحر.

وسعل الزنجيّ وبصق. وكان ستاراس وماريو قد نهضا، ووقفا إلى جانبي غرو ـ لويس. وفكّر غرو ـ لويس في غضب: «أتراهما لن يحلّا عن ظهري؟» وشدّه ماريو برفق من كمّه، وقال:

ـ هيّا، تعال. أنت ترى جيّدًا أنّه غير راغب فيك.

فقال غرو ـ لويس بلهجة تهديد: ـ بل هو الزنجيّ الذي أبحث عنه.

قال الزنجيّ: ـ خذاه، ففي أيّة ساعة تقودانه إلى النوم؟

وكان غرو ـ لويس ينظر إلى الزنجيّ وهو يُحسّ بأنّه شقيّ: لقد كان هو نفسه، وكان جميلاً جدًّا ومرحًا جدًّا بتلك القبّعة القشّيّة الجميلة، فما الذي يدعوه إلى أن ينسى وأن يكون عاقًّا؟ وقال: لقد سقيتك جرعة خمر.

وردّد ماريو: ـ هيّا، تعال. ليس هو زنجيّك: إنّهم جميعًا متشابهون.

وشدّ غرو ـ لويس على قبضتيه، والتفت إلى ماريو:

ـ حُلّ عن ظهري، أقول لك. هذا لا يعنيك.

فتراجع ماريو خطوة، وقال بلهجة قلقة: ـ إنّ جميع الزنوج متشابهون.

وصاحت ديزي: ـ دعه يا ماريو. إنّه وحش. وتعال إلى هنا.

وكان غرو ـ لويس يهمّ بأن يَضرب، حين فُتح الباب وظهر زنجيّ آخر يشبه الأوّل كلّ الشبه، وهو يضع قبّعة من قشّ ويرتدي ثوبًا ورديًّا. ونظر إلى غرو ـ لويس في غير اكتراث، واجتاز الحانة بخطوة راقصة وذهب يرتفق المشرب. وفرك غرو ـ لويس عينيه، ثم راح يجيل نظره بين الزنجيّين، وأخذ يضحك، وقال:

ـ لكأنّه هو نفسه مرّتين.

وعاد ماريو يقترب:

ـ أترى إذن؟

وكان غرو ـ لويس مرتبكًا. ولم يكن يحبّ كثيرًا ستاراس ولا ماريو، ولكنّه كان يشعر أنّه مذنب نحوهما. فأخذهما من ذراعيهما وقال موضحًا:

ـ كنت أحسب أنّه الزنجيّ الذي أبحث عنه.

وكان الزنجيّ قد أولاه ظهره وعاد إلى الشرب. ونظر ماريو إلى ستاراس، ثم التفتا كلاهما إلى ديزي. وكانت ديزي واقفة، ويداها على خاصرتيها، وكانت تنتظرهما. ولم يكن يبدو عليها أنّها مطمئنّة. قال ماريو: ـ هِمْ!

فقال ستاراس: ـ هِمْ!

واستدارا على عقبيهما، فأمسك كلّ منهما بإحدى ذراعي غرو ـ لويس وسحباه. وقال ماريو: سوف نبحث عن زنجيِّك.

كان الشارع ضيّقًا مقفرًا، تنبعث منه رائحة الملفوف. وفوق السطوح كانت النجوم تلتمع. وفكّر غرو ـ لويس بحزن: «إنّهم جميعًا متشابهون». وسأل:

ـ هل هناك كثير منهم في مارسيليا؟

ـ كثيرٌ ممّن يا صديقي؟

ـ كثير من الزنوج؟

فقال ماريو وهو يهزّ رأسه: ـ لا بأس بعددهم.

وفكّر غرو ـ لويس: إنّي أسود تمامًا، وقال الربّان: سوف أساعدك وسأكون وصيفك. وكان ماريو قد أمسك غرو ـ لويس من قامته، وكان الربّان قد أمسك القميص من حمّالته، ولم تستطع مود أن تمتنع عن الضحك: «ولكنّك تمسك به على المقلوب!» وكان ماريو ينحني إلى أمام، ويشدّ بقوّة قامة غرو ـ لويس ويفرك رأسه بمعدته، ويقول: «أنت صديقي، أليس كذلك يا ستاراس؟ إنّه صديقي الصغير، وأحدنا يحبّ الآخر». وكان ستاراس يضحك في صمت، ورأسه يدور ويدور، وأسنانه تلمع، كان ذلك كابوسًا، ورأسه يضجّ بالصراخ وبالأضواء، وهو يمضي نحو صراخ آخر وأضواء أخرى، وهما لن يتركاه طوال الليل. ضحكة ستاراس، ووجهه الأسمر الذي كان يصعد ويهبط، وفم ماريو الصغير الذي يشبه فم نمس، لقد كانت به رغبة في التقيّؤ، وكان البحر يصعد ويهبط في معدة بيار، وهو يعرف جيّدًا أنّه لن يعثر بعد أبدًا على زنجيّه، وكان ماريو يدفعه، وستاراس يجذبه، كان الزنجيّ ملاكًا، وأنا في الجحيم. وقال:

ـ كان الزنجيّ ملاكًا.

وتدحرجت دمعتان كبيرتان على خدّيه، وكان ماريو يدفعه، وستاراس

يجذبه، وانعطفا إلى زاوية الشارع، وأغمض بيار عينيه، ولم يكن ثمّةُ بعد إلّا أشعّة المصباح الغامزة على البلاط وخرير المياه المزبد عند صدر السفينة.

المصاريع مغلقة، والنوافذ مغلقة، وكانت تنبعث رائحة البقّ والفرمول. وكان منحنيًا فوق جواز السفر، والشمعة تضيء شعره الرمادي المجعّد، ولكنّها كانت تعكس ظلّ رأسه على الطاولة برمّتها، «لماذا تراه لا يضيء الكهرباء، فهو سوف ينتزع عينيه». وتنحنح فيليب: كان يحسّ نفسه غارقًا في الصمت والنسيان؛ أنا هناك موجود، موجود أخيرًا، إنّني صلب، أفرض نفسي. إنّها لم تستطع أن تبلع لقمة واحدة، ففي حلقومها كتلة دمع، وهو مشدوه. فاليد التي رفعها عليّ تجفّ، وهو لم يكن ليتصوّرني قادرًا على ذلك، أنا هناك قد ولدت، ومع ذلك فأنا هنا موجود، تجاه هذا الشيخ القصير ذي الشارب الرمادي الذي نسيني تمامًا. هنا، هنا! هنا حضوري الرتيب وسط العُمي والصُمّ، أذوب ظلًّا، وهناك، تحت نيران الشمعدان، بين الكرسيّ والأريكة، أنا موجود، ولي شأن. وضرب بقدمه، فرفع الشيخ عينيه، عينيه الحسيرتين، القاسيتين، الدامعتين والمتعبتين.

ـ هل كنت في إسبانيا؟

قال فيليب: ـ نعم. منذ ثلاث سنوات.

ـ إنّ الجواز غير صالح بعد، وكان ينبغي تجديده.

قال فيليب بنفاد صبر: ـ أعرف ذلك.

ـ بالنسبة لي، الأمر عندي سواء. هل تتكلّم الإسبانيّة؟

ـ كالفرنسيّة.

ـ إذا ظنّوك إسبانيًّا، كنت محظوظًا، بشعرك المصفرّ.

ـ هناك إسبان شقر.

فهزّ الشيخ كتفيه:

ـ أنا، أقول لك، لا يهمّني...

وكان يقلّب صفحات الجواز بشرود. «إنّني أنا هنا عند مزوّر». ولم يكن يبدو ذلك صحيحًا. منذ هذا الصباح، لم يكن يبدو على شيء أنّه صحيح. لم يكن المزوّر يشبه مزوّرًا، وإنّما كان يشبه دركيًا.

ـ إنّك تشبه دركيًا.

فلم يُجب الشيخ؛ وأحسّ فيليب بالانزعاج. اللّامعنى. لقد عاد إلى هنا مرّة أخرى، اللّامعنى الشفّاف لعشيَّة البارحة، حين كنت أمرّ عبر نظراتهم، حين كنت زجاجًا متمايلاً على ظهر زجّاج، وكنت أمرّ عبر الشمس. إنّني الآن، هنا، كثيف كالميِّت، وتساءلت: «أين هو؟ ماذا يفعل؟ أتراه مع ذلك يفكّر بي؟» ولكن لم يكن يبدو على الشيخ أنّه يعرف أنّ ثمّة على الأرض مكانًا أكون فيه جوهرة ثمينة. قال فيليب: ـ وإذن؟

فوضع الشيخ عليه نظره المتعب:

ـ أيكون بيتو هو الذي أرسلك؟

ـ هذه هي المرّة الثالثة التي تسألني فيها هذا. (وأضاف فيليب في إقدام) أجل، إنّ بيتو هو الذي أرسلني.

قال الشيخ: ـ حسنًا. في العادة أقوم بذلك مجّانًا. أمّا أنت، فهو يكلّفك ثلاثة آلاف فرنك.

فمطّ فيليب شفتيه على شاكلة بيتو:

ـ أرجو ذلك. لم تكن لديّ نيّة بأن أطلب منك خدمة مجّانيّة.

وقهقه الشيخ. وفكّر فيليب في غيظ: إنّ رنّة صوتي مزيّفة. لست أملك بعد الوقاحة الطبيعيّة. لا سيّما تجاه الشيوخ. فبيني وبينهم حساب قديم جدًّا من الصفعات التي لم يوفَ ثمنها. ويجب أن أردّها كلّها قبل أن أستطيع التحدُّث إليهم ندًّا لندّ.

وفكّر في فورة: «ولكنّ الصفعة الأخيرة، الأخيرة في الزمن، قد

مُحيت». وقال: ـ تفضّل.

وسحب محفظته بحيويّة ووضع ثلاث أوراق على الطاولة. فقال الشيخ: ـ يا لك من أبله صغير! إنّني الآن سأقبضها وأرفض أن أقوم بعملك.

فنظر إليه فيليب في قلق، وتحرّك ليستردّ الأوراق. فانفجر الشيخ ضاحكًا. وقال فيليب: ـ كنت أحسب...

وكان الشيخ ما ينفكّ يضحك، وسحب فيليب يده في ما يشبه الغضب وأخذ يبتسم، وقال: ـ إنّني أعرف الناس. أعرف أنّك ما كنت لتفعل ذلك.

وكفّ الشيخ عن الضحك. وكان يبدو عليه المرح والاستياء.

ـ إنّه يعرف الناس. يا للممحون المسكين! إنّك تأتي إليّ، ولم يسبق لك أن رأيتني من قبل، وتخرج فلوسك فتضعها على الطاولة، وهذا عمل يفضي بك إلى الهلاك. هيّا. هيّا، دعني أعمل. إنّني آخذ منك ألف فرنك على الفور، فقد يخطر لك أن تغيِّر رأيك. وستحمل لي الباقي حين تأتي لتأخذ أوراقك.

صفعة أخرى، وسأردّها كلّها. وجاءته الدموع في عينيه. وكان على حقّ بأن يغضب، ولكنْ ما كان يشعر به إنّما هو الذهول. كيف تراهم يفعلون جميعًا ليكونوا قساة إلى هذا الحدّ، إنّهم لا يلقون السلاح قطّ، فهم أبدًا مترصِّدون، وعند أدنى غلطة ينقضّون عليك ويؤذونك. ماذا فعلت له؟ ولهم هم، هناك، في الصالون الأزرق، ماذا فعلت لهم؟ سأتعلّم قواعد اللعب، وسأكون قاسيًا، وسوف أجعلهم يرتجفون.

ـ متى يكون جاهزًا؟

ـ غدًا صباحًا.

ـ كنت أظنّ... لم أكن أظنّ أنّ ذلك يقتضيك هذا الزمن الطويل.

قال الشيخ: ـ نعم؟ والأختام، أتظنّ أنّني اخترعتها؟ هيّا، اذهب، وعد صباح الغد، فليس الليل أطول ممّا ينبغي للقيام بعملك.

وفي الخارج، كان الليل، الليل المغثي الفاتر بكلّ شياطينه؛ والخطى التي ترنّ طويلاً خلفك، من غير أن تجرؤ على أن تدير رأسك، ليلاً، في سانت أوان؛ إنّ الحيّ غير مأمون.

وسأل فيليب بصوت غير مميَّز:

ـ في أيّة ساعة أستطيع أن أجيء؟

ـ في الساعة التي تريد، ابتداء من السادسة.

ـ هل هناك... هل هناك فنادق قريبة؟

ـ جادة سانت أوان، وما عليك إلّا أن تختار. هيّا، اذهب.

قال فيليب في حزم: ـ سأعود في الساعة السادسة.

وأخذ صندوقه الصغير، فأغلق الباب وهبط الدرج. وانبثقت دموعه عند سطيحة الطابق الثالث، وكان قد نسي أن يأخذ منديلاً، فمسح عينيه بكمّه، وتنشّق مرّتين أو ثلاثًا، إنّني لست جبانًا. كان اللئيم فوق يظنّه جبانًا، وكان احتقاره يتبعه كأنّه نظر. إنّهم ينظرون إليّ. وسارع فيليب يهبط الدرجات الأخيرة. «الباب من فضلك»، وانفرج الباب على رسم لزجاج رماديّ عكر وفاتر، فغطس فيليب في ماء غسيل الأواني هذا. إنّني لست جبانًا، وليس ثمّة من يفكّر بهذا إلّا ذلك الشيخ القذر. والحقّ أنّه لا يفكّر به بعد، هكذا قال مقرّرًا. إنّه لا يفكّر بي بعد، فقد بدأ العمل. وانطفأ النظر، وحثّ فيليب خطوه. «ماذا، فيليب؟ هل أنت مذعور؟» «لست مذعورًا، لا أستطيع». «ألا تستطيع يا فيليب؟ ألا تستطيع؟» وكان قد انزوى ثانية لدى الجدار. كان بيتو يلامس جنبيه وصدره، ويمسّ حلمة ثدييه عبر القميص، ثم يرسل له ضربة على فمه بإصبعين من يده اليمنى «وداعًا يا فيليب، اذهب، فإنّي لا أحبّ المذعورين». وكان الشارع قد عمر بالتماثيل

الليليّة، هؤلاء الرجال المستندين إلى الجدران الذين لا يقولون شيئًا، ولا يدخّنون، وينظرون إليك تمرّ، بلا حركة، بعيونهم المغشّاة بالليل. كان يعدو تقريبًا، وكان قلبه يخفق خفقًا أسرع، «إنّ من يراك يعرف أنّك جبان صغير، اذهب، اذهب». سيرون، سيرون جميعًا، سيأتيه كالآخرين، سيقرأ اسمي، وسيقول: «عجبًا! بالنسبة لولد من أسرة غنيّة، بالنسبة لشابّ صغير، ليس الأمر سيّئ إلى هذا الحدّ».

إلى يمينه، خيط من نور، فندق مضيء. كان الخادم واقفًا على العتبة، وكان يُحوِّل عينيه، أتراه ينظر إليّ؟ وأبطأ فيليب في مشيته، ولكنّه خطا خطوة أخرى فعبر الباب، ولا بدّ أنّ الخادم يُحوِّل الآن في ظهره، وكانت الحشمة تقتضيه ألّا يعود أدراجه. خازن الكحول يُحوِّل أو مبارزة العمالقة ذوي العين الواحدة. أو هذا أيضًا: حكاية قذرة للعملاق ذي العين الواحدة. إنّه ينظر إلى نفسه في المرآة، ذات يوم، لأنّه كان يشعر بتآكل فوق الخدّين: إنّ عينًا أخرى قد نبتت له بجانب الأولى! أيّ يأس! من المستحيل أن ندعوهما إلى القيام بمناورات جماعيّة، وبالطبع، ظلّت العين الأولى وحدها أطول ممّا ينبغي، كانت عصابة وحدها. وكان على الرصيف المقابل فندق آخر، فندق «كونكارنو»، بناء صغير من طابق واحد. هل أذهب إليه؟ وفكّر: وإذا سألوني عن أوراقي؟ ولم يجرؤ على العبور، فاستعاد سيره على الرصيف نفسه. لا بدّ من الجرأة، ولكنّي هذا المساء لا أملك منها ذرّة، فقد أرهقني الشيخ. ونظر إلى لافتة «قهوة، خمر، مشروبات» وفكّر: أو ربّما كان أنفي مصابًا بضربة. ودفع الباب.

كان مقهى صغيرًا فيه مشْرب وطاولتان فحسب، وكانت نشارة الخشب تَعْلَق بالنعل. ونظر إليه صاحب المقهى بحذر، وفكّر فيليب في غيظ: «إنّ ثيابي آنق ممّا يجب». وقال وهو يقترب من المشرب: «قدح خمر»، فتناول صاحب المقهى زجاجة كانت سدادتها مزوّدة بصنبور من التنك، فسكب الخمر، وكان فيليب قد وضع صندوقه الصغير وراح ينظر إليه مسرورًا: كان

خيط من الخمر يسيل من صنبور التنك، كأنّه يسقي خضارًا. وشرب فيليب جرعة وفكّر: «لا بدّ أنّه خمر رديء»، ولم يكن يشرب منه قطّ، فقد كان له مذاق خمر مشيَّط، وقد حرق له حنجرته. وسارع يضع القدح. وكان صاحب المقهى ينظر إليه. أكان في عينيه الهادئتين سخرية؟ وأخذ فيليب القدح ثانية وحمله إلى شفتيه بحركة مهملة: كان حلقومه يلتهب، وكانت عيناه تتبلّلان، وشرب القدح جرعة واحدة. وحين وضعه، أحسّ أنّه غير مكترث، وجذل بعض الشيء. وفكّر: «هذه فرصة للمراقبة». وكان قد اكتشف منذ خمسة عشر يومًا، أنّه لم يكن يحسن المراقبة، فأنا شاعر، وأنا لا أحلِّل. ومنذ ذلك الحين يقسر نفسه على رسم البيانات والجردات، حيث كان يستطيع، فكان يقوم مثلاً بعدّ الأشياء المعروضة في واجهة. ورمى نظرة دائريّة، سأبدأ بآخر صفّ من الزجاجات، فوق، خلف المشرب. أربع زجاجات «بير»، زجاجة «غودرون»، زجاجتا «نوالي»، كوز «روم».

وكان شخص قد دخل، عامل ذو قبّعة. وفكّر فيليب: «إنّه بروليتاري». ولم تتح له الفرصة من قبل أن يلتقي بكثيرين، ولكنّه كان يفكّر كثيرًا بهم. كان رجلاً في حوالى الثلاثين، ذا عضلات، ولكنّ بنيته غير متناسقة. ذراعاه أطول ممّا ينبغي وساقاه ملتويتان، ولا شكّ في أنّ العمل اليدوي هو الذي شوّهه! وكان له تحت أنفه زغب صلب أصفر، وكان يضع على قبّعته شارة مثلّثة الألوان، ويبدو مستاءً ومضطربًا. وقال:

ـ قدح من الخمر الأبيض، بسرعةٍ يا معلِّم.

فقال صاحب المقهى: ـ سنُغلق.

فسأله العامل: ـ لن ترفض تقديم قدح أبيض لمجنَّد؟

وكان يتكلّم بمشقّة، وبصوت أبحّ. كما لو أنّه قضى نهاره وهو يصيح. وقال موضِّحًا وهو يغمز بعينه اليمنى! ـ إنّني ذاهب صباح الغد.

وتناول صاحب المقهى قدحًا وزجاجة، وسأله وهو يضع القدح على المشرب: ـ وأين أنت ذاهب؟

فقال الرجل: ـ إلى سواسون. فأنا تابع للدبّابات.

ورفع القدح حتى فمه، كانت يده ترتعش، فسال خمر على الأرض. وقال: ـ سوف ننفذ إلى لحومهم.

فقال صاحب المقهى: ـ هيه!

قال الرجل: ـ نعم، هكذا.

وضرب ضربتين بظاهر يده اليمنى على قبضته اليسرى. وقال صاحب المقهى: ـ يجب أن تحسن ذلك. فالخنازير أقوياء.

ـ أقول لك هكذا.

وشرب، وطقطق بلسانه، وغنّى. كان يبدو مهتاجًا متعبًا، وكانت ملامحه تنهار كلّ لحظة، وعيناه تغتمضان، وشفتاه تتدلّيان: ولكنْ سرعان ما كانت ترفع جفنيه قوّةٌ شديدة لا هوادة فيها، وتشدّ إلى الأعلى زوايا شفتيه، فكان يبدو فريسة منهكة لمرح لم يكن يريد بعد أن ينتهي. والتفت إلى فيليب:

ـ وهل أنت مجنَّد؟

فقال فيليب وهو يتراجع: ـ بعد...

ـ وماذا تنتظر؟ يجب أن ننفذ إلى لحومهم.

كان بروليتاريًا: وابتسم له فيليب، وجهد في أن يخطو نحوه خطوة. وقال البروليتاريّ... ـ إنّني أقدِّم لك جرعة خمر أبيض. قدحان يا معلِّم: واحد لك، وواحد له: إنّها دورتي.

فقال صاحب المقهى بقسوة: ـ لست عطشًا. ثم إنّها ساعة الإغلاق، فأنا أنهض في الرابعة.

ومع ذلك، فقد دفع أمام فيليب قدحًا، وقال البروليتاريّ:

ـ سوف ندقّ أقداحنا.

ورفع فيليب قدحه. كان منذ لحظة في غرفة مزوَّر، وها هو يشرب مع عامل. لو كانوا يرونني! وقال: ـ نخبك!

فقال البروليتاري: ـ نخب النصر!

فنظر إليه فيليب في دهشة: كان يريد بلا شكّ أن يمزح؛ فالعمّال من أنصار السلام.

وقال الرجل: ـ قلْ مثلي. قلْ: نخب النصر!

وكان يبدو عليه الجدّ والاستياء. قال فيليب:

ـ لا أريد أن أقول ذلك.

قال الرجل: ـ لماذا؟

استجمع قواه وقطعت جُشأةٌ كلامَه. فبيّض عينيه، وأرخى فكّه وتمايل رأسه لحظة بميوعة.

قال صاحب المقهى: ـ قلْ مثله!

وكان البروليتاريّ قد تماسك، فجاء يكلِّمه عن كثب، وكانت رائحة الخمر تنبعث منه. لن أقول: نخب النصر:

ـ ألا تريد أن تقول: نخب النصر؟ وتفعل هذا لي أنا؟ أنا المجنَّد؟ وأنا عسكري الـ ٣٨؟

وقبض عليه البروليتاريّ من ربطة عنقه، ودفعه إلى المشرب:

ـ أتفعل ذلك معي: ألا تريد أن تدقّ قدحك بقدحي؟

ما عساه كان يفعل، بيتو؟ ما عساه كان يفعل، لو كان مكاني؟

وقال صاحب المقهى بصوت قاسٍ: ـ هيّا، افعل ما يقوله لك: فأنا لا أريد مشاكل، ثم أرجوكما أن تخليا المكان، فأنا أنهض في الساعة الرابعة.

وأخذ فيليب قدحه، وتمتم: ـ نخب النصر.

وشرب، ولكنّ حنجرته كانت منقبضة، وحسب أنّه لن يستطيع أن يبتلع. كان الرجل قد تركه وهو يقهقه بهيئة مدّعية، ماسحًا شاربه بظاهر يده. وقال موضّحًا لصاحب المقهى:

ـ لم يكن يريد أن يقول: نخب النصر. ولقد أمسكته لك من ربطة العنق: أتفعل ذلك معي، أيّها الفرنسيّ الرديء؟ مع مجنَّد، مع عسكري الـ ١٤؟

ورمى فيليب قطعة من أربعين فلسًا على الطاولة، وتناول صندوقه، وعجّل بالخروج. كان ذلك رجلاً عربيدًا، وكان لا بدّ من الاستسلام، وقد كان بيتو يستسلم: إنّني لست جبانًا.

ـ هيه! اسمع، أيّها الشاب الصغير!

وكان الرجل قد خرج في أعقابه، وسمع فيليب صاحب المقهى يغلق الباب ويدير المفتاح. فأحسّ بأنّه مثلّج: كان يخيّل إليه أنّهما يُحبسان معًا. وقال الرجل: ـ لا تهرب هكذا. قلت لك إِنّ علينا أن ننفذ إلى لحومهم. وهذا يستحقّ الاحتفال.

واقترب من فيليب ولفّ عنقه بذراعه، وكان ماريو قد أخذ ذراع غرو ـ لويس وراح يشدّه بحنان، كان ذلك هو الجحيم، وكانوا يمشون في الأزقّة المظلمة، ولم يكونوا ليقفوا قطّ، فإنّ غرو ـ لويس كان متضايقًا جدًّا، وبه رغبةٌ في التقيّؤ، وكانت أذناه تطنّان، قال فيليب:

ـ الواقع أَنّي مستعجل بعض الشيء.

سأل غرو ـ لويس: ـ أين نذهب؟

ـ سنبحث عن زنجيِّك.

ـ إنّك لن تخدعني. فحين أدفع للشرب، فيجب أن تشرب. مفهوم؟

ونظر غرو ـ لويس إلى ماريو فأخذه الخوف. قال ماريو: «وإذن يا صديقي، يا صديقي الصغير، أنت متعبٌ يا صديقي!» ولكنّ وجهه كان قد

تغيّر. وكان ستاراس قد أخذ ذراعه اليسرى، كان ذلك هو الجحيم. وحاول أن يحرِّر ذراعه اليمنى، لكنّه أحسّ ألمًا شديدًا في مرفقه، فقال:

ـ ولكنْ، اسمع أنت، إنّك تحطّم لي ذراعي.

وغطس فيليب فجأة وأخذ يعدو. إنّه عربيد، ولا بأس من الفرار أمام عربيد. ترك ستاراس ذراعه فجأة وتراجع خطوة. وأراد غرو ـ لويس أن يلتفت ليرى ما كان يدبِّره، ولكنّ ماريو كان متشبِّثًا بذراعه، وكان فيليب يسمع خلفه نَفَسًا قصيرًا: «عكروت صغير قذر، أنا لا أخاف، وسوف أؤدِّبك.. أنا!» «ماذا دهاك، يا صديقي الصغير، ماذا دهاك؟ ألسنا بعد أصدقاء؟» وفكّر غرو ـ لويس: سوف يقتلانني، وكان الخوف يثلجه حتى العظام، فقبض على ماريو من عنقه بيده الفارغة ورفعه عن الأرض؛ ولكنْ في اللّحظة نفسها، انشقّ رأسه حتى ذقنه، فترك ماريو وسقط على ركبتيه، وكان دمه يسيل على حاجبيه. حاول أن يتماسك بأن يتعلّق بمعطف ماريو، ولكنّ ماريو قام بقفزة إلى الخلف، ولم يره غرو ـ لويس بعد ذلك. كان يرى الزنجيّ الذي ينزلق على الأرض، ولكن من غير أن يمسّها، ولم يكن يشبه قطّ سائر الزنوج، كان قادمًا نحوه، مفتوح الذراعين، ضاحكًا، فمدّ غرو ـ لويس يديه، وكان في رأسه ذلك الألم النحاسيّ الهائل، وصاح به: النجدة!! فتلقّى ضربة أخرى على أمّ رأسه وسقط وأنفه في الساقية، وكان فيليب ما يزال يركض؛ فندق كندا، وتوقّف، واستعاد نَفَسه ونظر خلفه، فإذا هو قد تخلّص منه. شدّ ربطة عنقه، ثم دخل إلى الفندق بخطى موزونة.

تمايل، ارتجاج؛ تمايل، ارتجاج. كانت اهتزازات الباخرة تصعد لولبيًّا في ربلاته وفخذيه، وتنتهي ميِّتة في أسفل بطنه وقد أصبحت ارتعاشات كثيفة. ولكنّ رأسه ظلّ حرًّا، وكل ما حدث تقيّؤ أو تقيّؤان حامزان بعض الشيء. كان يشدّ بقوّة على درابزون المترسة بين يديه. الساعة الحادية عشرة؛ كانت السماء تنغل بالنجوم، وكانت نارٌ حمراء

ترقص بعيدًا فوق البحر؛ ربّما كانت هذه هي الصورة الأخيرة التي تعود إلى عينيَّ، وتثبت فيهما إلى الأبد، حين أكون في حفرتي مقلوبًا، وفكّي منتزَع، تحت سماء وامضة اللمع. هذه الصورة الصافية السوداء، مع هذا الحفيف من النخيل، وهذا الحضور للناس، البعيد جدًّا خلف نارهم الحمراء، في الظلام. لقد رآهم، في الثياب العسكرية، متلاصقين كالسردين خلف منارتهم، منسربين بصمت نحو الموت. كانوا ينظرون إليه من غير أن ينبسوا بكلمة، وكانت النار الحمراء تنسرب على الماء، وهم ينسربون، ويمشون صفًّا أمام بيار وهم ينظرون إليه. إنّه يكرههم جميعًا، وهو يحسّ نفسه وحيدًا مصدومًا تحت أعين اللّيل المزدرية؛ وقد صاح بهم: أنا المحقّ، أنا المحقّ، إنّني على حقّ بأن أخاف، فقد صُنعت لأعيش، لأعيش، لأعيش! لا لأموت: فلا شيء هناك يستحقّ أن أموت من أجله. إنّها لا تجيء، فأين عساها تكون؟ وانحنى فوق الجسر المقفر. أيّتها القذرة! ستدفعين لي ثمن هذا الانتظار. لقد عرف موديلات و عارضات وفتيات رائعات الجسم، ولكنّ هذه الهزيلة الصغيرة الأقرب إلى التشوّه، كانت أوّل امرأة يشتهيها بهذا العنف. إنّه يتوق أن يلامس رقبتها، عند منبت الشعر الأسود، وأن يُصعِدَ اغتلام البطن إلى الرأس بهدوء، وأن يعكّر أفكاره الصغيرة الواضحة، سأضاجعك، سأضاجعك، وسأدخل في احتقارك فأثقبه كأنّه فقّاعة؛ وحين تمتلئين منّي وتصرخين «يا حبيبي بيار» وأنت تديرين عينين بيضاوين، فسنرى ماذا يحلّ بنظرك المحتقِر، سنرى إذا كنت ستسمّينني جبانًا.

«إلى اللقاء أيّتها العزيزة، أيّتها الصديقة العزيزة، إلى اللقاء، عودي، عودي!».

كان ذلك همسًا نثره الهواء، وأدار بيار رأسه فدلف الهواء إلى أذنه. هناك، فوق الجسر الأمامي، كان ثمّة مصباح صغير معلّق فوق غرفة الربّان يضيء ثوبًا أبيض قد نفخه الهواء. وهبطت ذات الثوب الأبيض الدرج

بهدوء، وهي تمسك بالحاجز، بسبب الهواء والارتجاج؛ كان ثوبها المنتفخ تارة والملتصق تارة أخرى بفخذيها يشبه جرسًا يدقّ. واختفت فجأة، ولا بدّ أنّها تعبر ما بين الجسرين، وسقطت الباخرة في ثقب، وكان البحر فوقها، أبيض وأسود، ثم صعد بمشقّة، فبدا رأس المرأة من جديد وهي ترقى سلّم الدرجة الثانية. لهذا السبب إذن غيّروا لهنّ الغرفة. كانت عَرِقَة دَبِقة، مبعثرة الشعر قليلاً، وألمّت ببيار من غير أن تراه، بهيئتها الشريفة الرصينة.

وتمتم بيار: «قحبة!» وأحسّ نفسه غارقًا في ضجر شديد، ولم تكن له فيها رغبة بعد، ولم تكن له رغبة في أن يعيش، وكانت الباخرة تسقط وتسقط في جوف البحر.. وكان بيار يسقط خفيفًا كالقطن رخوًا، وتردّد لحظة، ثم ترك لفمه أن يمتلئ بالصفراء، فانحنى على الماء الأسود، وقاء من فوق الجسر.

قال الخادم: «القُسيمَة الصغيرة، الآن».

ووضع فيليب صندوقه، وأخذ الريشة فغطّها في الحبر. كان الخادم ينظر إليه، ويداه متشابكتان خلف ظهره. أكان يخنق تثاؤبة أم ضحكة؟ وفكّر فيليب في غضب: لأنّي أنيق اللباس. إنّ جميع الناس يقفون عند الملبس، أمّا الباقي فلا يرونه. وكتب بيدٍ ثابتة:

إيزيدور دوكاس.

رحّالة تجارة.

قال للخادم وهو ينظر في عينيه: «إصحبني».

فتناول الخادم عن اللوحة مفتاحًا كبيرًا، وصعدا، أحدهما خلف الآخر. وكان الدرج مظلمًا، فقد كانت المصابيح الزرق تضيئه من بعيد لبعيد. وكان حذاء الخادم يخفق على الدرجات الحجريّة. وخلف أحد الأبواب، كان طفل يبكي. وكانت رائحة المراحيض منبعثة. وفكّر فيليب

«إنّه نيت مؤنّث». بيت مؤنّث، تلك كانت عبارة حزينة غالبًا ما قرأها في روايات طبيعيّة، فكان دائمًا ينفر منها. وقال الخادم وهو يضع المفتاح في قفل: ـ هذه هي.

كانت غرفة واسعة ذات أرض مربّعة وجدران مطليّة بالمغرة حتى منتصفها، وبعد ذلك بالأصفر الكابي حتى السقف. كرسيٌّ واحدة، وطاولة واحدة: تبدوان ضائعتين في وسط الغرفة. نافذتان ومغسلة تشبه بلُّوعة مطبخ، وسرير كبير عند الجدار. وفكّر فيليب: «لقد وضعوا سرير العرس في المطبخ».

ولم يكن الخادم ليذهب. وقال في بسمة:

ـ الأجرة عشرة فرنكات. وسأطلب إليك أن تدفع فورًا.

فمدّ له فيليب عشرين فرنكًا، وقال:

ـ احتفظ بها كلّها، وأيقظني عند الساعة الخامسة والنصف.

فلم يبدُ على الخادم أنّه متأثّر، وقال وهو يمضي:

ـ مساء الخير يا سيِّدي. ليلة سعيدة.

وأرهف فيليب أذنه لحظة، وحين كفّ عن سماع صوت الحذاء الخفيف على الدرجات، أدار المفتاح مرّتين في القفل، ووضع المزلاج وحمل الطاولة فأسندها إلى الباب، ثم وضع الصندوق على الطاولة ونظر إليه مرتخيّ الذراعين. انطفأ شمعدان الصالون، وانطفأت شمعة المزوِّر، وأكل الظلام كلّ شيء. ظلام مغفّل. وهذه الغرفة الطويلة العارية، كانت وحدها تلمع في الظلام، فاقدة الشخصيّة كالليل. وكان فيليب ينظر إلى الطاولة مخدَّرًا، لا عمل له. وتثاءب. ولم يكن مع ذلك ناعسًا: كان فارغًا. ذبابة منسيّة تستيقظ في بدء الشتاء، إذ يكون جميع الذباب الآخر ميّتًا، ولا تملك بعد القدرة على الطيران. كان ينظر إلى الصندوق الصغير ويقول لنفسه: يجب أن أفتحه، فينبغي أن آخذ منامتي. ولكنّ الرغبات

كانت تتخدَّر في رأسه، فلا يتأتّى له حتى أن يرفع ذراعه. كان ينظر إلى الصندوق الصغير. وينظر إلى الجدار ويفكّر: ما الفائدة؟ ما جدوى الامتناع عن الموت ما دام هذا الجدار موجودًا هنا، قبالتي، بألوانه القذرة المزدهية؟ ولم يكن حتى خائفًا بعد.

هوب! إنّه يرتفع، هوب! إنّه يهبط! لم يكن خائفًا بعد. كان الطست يصعد ويهبط، مليئًا بالزبد، وكان هو يصعد ويهبط، متمدِّدًا على ظهره، ولم يكن خائفًا بعد. وسوف يغضب الخادم حين يدخل، لأنّي تقيَّأت على الأرض، ولكن طزّ فيه. كان كلّ شيء عذبًا جدًّا، الماء في فمه، ورائحة القيء، وهذه الكرة في صدره، لم يكن جسمه إلّا عذوبة، ثم هذه العجلة التي كانت تدور وتدور وتدور وهي تسحق جبينه، كان يراها وكان يتسلّى بأن يراها، كانت عجلة سيّارة تاكسي مع دولاب رماديّ مستعمل. كانت العجلة تدور، والأفكار المألوفة تدور وتدور، ولكنّه لم يكن يكترث بها، فهو يستطيع أخيرًا أن لا يكترث بها، فبعد ثمانية أيّام سيطلقون عليّ النار في «أرغون»، ولكن لا يهمّني، إنّها تحتقرني، وتفكّر بأنّي جبان، ولكن طزّ، ما عسى ذلك أن يهمّني اليوم، ما عساه يهمّني؟ طزّ، طزّ، إنّي لا أفكّر بشيء، ولا أخاف شيئًا، ولا آخذ على نفسي شيئًا.

هوب! إنّه يرتفع، هوب! إنّه يهبط. ما ألذّ أن لا يكترث الإنسان بشيء!

الساعة الحادية عشرة، إحدى عشرة ضربة في السكون. ومدّ يده ففتح الصندوق الصغير، وكان خدّه الأيمن يحرقه كالمشعل. الساعة الحادية عشرة، وأضاء الشمعدان في الليل، كانت جالسة في الأريكة، متكوّمة ممتلئة، بذراعيها الجميلتين العاريتين، وكان خدّه يحرقه، وكان العذاب يعود من جديد؛ كانت اليد ترتفع، والخدّ يحرق. لست جبانًا، لست جبانًا، ونشر منامته. الساعة الحادية عشرة، ليلة سعيدة يا ماما، كنت أقبّل محظيّة الجنرال على وجنتيها المعطّرتين، وأنظر إلى ذراعيها.. وأنحني

أمامه، ليلة سعيدة يا أبي، ليلة سعيدة يا فيليب، ليلة سعيدة يا فيليب. هذا بالأمس. هذا بالأمس أيضًا. وكان يفكِّر في ذهول: كان هذا بالأمس!؟ ولكن ما الذي فعلته؟ ما الذي حصل منذ ذلك الحين؟ لقد وضعت منامتي في صندوقي الصغير، وخرجت كما أخرج كلّ يوم، فإذا بكلّ شيء يتغيّر: لقد سقطت صخرة خلفي على الطريق فحفرتها، فليس في مكنتي بعد أن أعود أدراجي. ولكن متى، متى حدث هذا؟ لقد أخذت صندوقي الصغير وفتحت الباب بهدوء، وهبطت الدرج... كان ذلك بالأمس. كانت جالسة على الأريكة، وهو واقف أمام المدفأة.. أمس. الجوّ لذيذ ورائق في الصالون، أنا فيليب غرازيني، ابن زوجة الجنرال لاكاز، ليسانس أدب، شاعر المستقبل، أمس، أمس، أمس، إلى الأبد. كان قد نزع ثيابه، فارتدى منامته: وفي الغرفة المؤنّثة، كانت حركاته حركات جديدة متردِّدة. وكان ينبغي تعلّمها. كان الـ «رامبو» في الصندوق الصغير، فتركه فيه، ولم تكن له رغبة في القراءة. مرّة واحدة، لو صدّقتني مرّة واحدة، ولو وضعت ذراعيها الجميلتين حول عنقي، ولو قالت لي: إنّي واثقة، فأنت شجاع، وستكون قويًا، لما ذهبت. إنّها محظيّة، كانت تحمل إلى غرفتي كلمات الجنرال، كلمات متحجِّرة، وكانت تلقيها، فهي أثقل من أن تتحمّلها، وتدحرجت الكلمات تحت السرير، ولقد تركتها تتكدّس طوال خمسة أعوام، يكفي إزاحة السرير للعثور عليها جميعًا: وطن، شرف، فضيلة، أسرة، في الغبار، وأنا لم أُسئ استعمال أيّ منها لمصلحتي. وكان قد ظلّ عاري القدمين على البلاط، فعطس. سآخذ بردًا، وكان الزرّ بالقرب من الباب، فأطفأه وتوجّه إلى السرير متلمِّسًا، وكان يخشى أن يسير على حشرات، من مثل العنكبوت الكبير الذي له أرجل كأصابع الإنسان، والذي يشبه يدًا مقطوعة، أو رتيلاء! ماذا لو كانت هنا واحدة، ماذا لو كانت هنا واحدة؟ واندسّ تحت الغطاء، فصرّ السرير. كان خدّه يحترق، مشعل في الليل، لهب أحمر، فأسنده على الوسادة، إنّهم ينامون، وقد ارتدت هي

قميصها الورديّ ذا التخاريم. تصوّر ذلك، هذا المساء، هو أقلّ مشقّة وألمًا. إنّه لن يستطيع هذا المساء أن يمسّها، فيشعر بالخجل، وهي، المحظيّة، لن تتداعى لذلك مهما كان، بينما يكون ابنها يتضوّر بردًا وجوعًا في الطرقات، إنّها تفكّر فيّ، وهي تتظاهر بالنوم، إنّها تراني ممتقعًا صلبًا، متشنِّج الشفتين، جافّ العينين، تراني أمشي في الليل، تحت النجوم. إنّه ليس جبانًا، ليس صغيري جبانًا.. صغيري، ولدي، حبيبي. ليتني هناك، ليتني أستطيع أن أكون هناك، من أجلها وحدها، فأشرب هذه الدموع التي تتدحرج على خدّيها، وألامس تينك الذراعين الجميلتين الرقيقتين.. ماما، يا أمّي الصغيرة. وقال صوت غريب في أذنيه: إنّ الجنرال مستثار. وأنفك مثلّث أخضر، وأخذ يدور، الجنرال مستثار.

كان المثلّث يدور، إنّه «رامبو»، وكبُر كالفطر، وأصبح جافًّا متصلِّب القشرة، التهابًا في الخدّ، في النصر، في النصر «نخب النصر». لست جبانًا، صاح فيليب، وقد استيقظ منتفضًا. كان جالسًا على السرير، والعرق يسيل منه، وعيناه ثابتتان، وكان ينبعث من الغطاء رائحة الكبريت، بأيّ حقّ هم شهودي؟ الغلاظ! إنّهم يحكمونني وفق قواعدهم، وأنا لا أقبل إلّا قواعدي. إنّ لي أعيادي الزاهية! ولي كبريائي! فأنا من جنس السادة. وفكّر في غضب: آه! فيما بعد! فيما بعد! يجب الانتظار! فيما بعد سيضعون لوحة مرمريّة على جدار هذا الفندق: هنا قضى فيليب غرازيني ليلة ٢٤ ـ ٢٥ أيلول ١٩٣٨. ولكنّي سأكون ميّتًا. وتسرّب من تحت الباب همس غامض عذب. وفجأة مات الليل. كان ينظر إليه من أعماق المستقبل، بعيون هؤلاء الرجال اللابسين المعطف الأسود، والذين كانوا يخطبون تحت اللوحة المرمريّة. كانت كلّ دقيقة تتسرّب، في الظلام، ثمينة مقدَّسة منصرمة. وذات يوم، ستكون هذه الليلة قد انصرمت، مجيدةً منصرمةً كليالي مالدورور. كليالي رامبو. ليلي. وقال صوت رجل: «زيزيت»، فتهاوت الكبرياء، وتمزّق الماضي. وكان الحاضر. ودار المفتاح في

القفل، فقفز قلبه إلى صدره. «لا، هذا في الباب المجاور»، وسمع باب الغرفة المجاورة يصرّ، وفكّر: «إنّهما على الأقلّ اثنان، رجل وامرأة».

كانا يتكلّمان. ولم يكن فيليب يسمع كلّ ما يقولانه. ولكنّه فهم أنّ الرجل كان يُدعى موريس، فطمأنه ذلك قليلاً. وعاد إلى النوم، فمدّ ساقيه، وأبعد عن ذقنه الغطاء خشية أن يلتقط بثورًا. وارتفعت أغنية صغيرة على الناي، أغنية صغيرة غريبة.

قال الرجل بلطف: ـ لا تبكي، لا تبكي، فهذا لا يفيد شيئًا...

وكان له صوت حارّ قاسٍ يتناول الكلمات بجفاء واندفاع، فتخرج من جوف حلقه مسرعة تارة، بطيئة تارة، خشنة حامزة، ولكنّها كانت تمتدّ كلّها في تموّج غامض عذب. وانقطع الناي بعد خرّة أو خرّتين. وانحنى عليها، فأخذها من كتفيها. وكان فيليب يحسّ يدين قويّتين على كتفيه، وثمّة وجهٌ ينحني فوقه، وجه هزيل أسمر، أسود تقريبًا، ذو خدّين مزرقّين، وأنف يشبه أنف ملاكم، وفم جميل مرّ، فم زنجيّ. وردّد الصوت:

ـ لا تبكي يا صغيرتي، لا تبكي، هدّئي نفسك.

وهدأ فيليب تمامًا. كان يسمعهما يروحان ويجيئان، وكأنّهما في غرفتي. وسحبا شيئًا ثقيلاً على الأرض، ربّما كان السرير أو صندوقًا، ثم خلع الرجل حذاءه.

قالت زيزيت: ـ الأحد القادم.

وكان لها صوت أكثر ابتذالاً، ولكنّه أكثر غناءً. وكان يراها رؤية أسوأ: ربّما كانت شقراء ذات وجه ممتقع جدًّا، كسونيا في «الجريمة والعقاب».

ـ وإذن؟

ـ أوه! موريس، لقد نسيت! كنّا متّفقين على أن نذهب إلى «كورباي»، لدى جان.

ـ ستذهبين بدوني.

قالت: ـ لن تكون لديّ الرغبة في الذهاب إليها.

وخفضا صوتهما، فلم يكن فيليب يفهم ما كانا يقولان، ولكنّه كان يستشعر السعادة لأنّهما كانا حزينين. كانا من البروليتاريا. بروليتاريين حقيقيين. أمّا ذاك فقد كان عربيدًا فظًّا.

وسألت زيزيت: ـ هل كنت في نانسي؟

ـ في الماضي، نعم.

ـ وكيف هي؟

ـ لا بأس.

ـ أرسل لي رزمة من البطاقات البريديّة. أريد أن أتصوّر حيث تكون.

ـ ولكنّهم لن يتركونا فيها، لو تعلمين!

بروليتاري حقيقيّ. إنّه لم يكن راغبًا في خوض الحرب، ولم يكن يفكّر في النصر: كان ذاهبًا، في حزن عميق، لأنّه لم يكن يستطيع أن يفعل شيئًا آخر. قالت زيزيت: ـ يا حبيبي الكبير.

وصمتا. وكان فيليب يفكّر: «إنّهما حزينان». وبلّلت عينيه دموعٌ عذبة. ملاكان حزينان رقيقان. سأدخل وأمدّ لهما يدي، وأقول لهما: «أنا أيضًا حزين، بسببكما، من أجلكما. ومن أجلكما تركت بيت أهلي. من أجلكما ومن أجل جميع الذين يذهبون إلى الحرب». سنقف أنا وموريس إلى جانبها، وسأقول لهما: «إنّني شهيد السلام». وأغمض عينيه وقد هدأ: إنّه لم يكن بعد وحده، فقد كان هناك ملاكان حزينان يحرسان نومه: الشهيد، نائمًا على ظهره، كطريح[1] من حجر، وملاكان حزينان عند سريره، ومعهما غصون النخيل. كانا يتمتمان، يا حبيبي الكبير، يا حبيبي

---

(١) طريح: شاهد قبرٍ على شكل إنسان راقد.

الكبير، لا تتركني، أحبّك وكلمة أخرى عذبة وثمينة، لا يذكرها بعد، ولكنّها كانت أرقّ الكلمات الرقيقة، كلمة دارت واشتعلت كإكليل من نار، وحملها فيليب في نومه.

قال غرو ـ لويس «هكذا إذن، هكذا إذن!!» وكان قد جلس على الرصيف، ولم يكن ليتصوّر قطّ أنّ بإمكانه أن يعاني مثل هذا الألم في جمجمته، كان كلّ وجع يوقظ فيه خدَرًا جديدًا. وقال: «أوه! ما ذاك، آه طزّ إذن!» وحمل يده إلى خدِّه. فأحسّ باللزوجة وكان ذلك يدغدغه، ولا بدّ أنّه دم. وقال: «إذن سأضمِّد نفسي برباط. أين تراهما قد وضعا كيسي؟» وتلمّس في ما حوله، فالتقت يده شيئًا قاسيًا، وإذا هي محفظة، وتساءل: «أتراهما قد فقدا محفظتهما؟» فأخذها وفتحها، فإذا هي فارغة. وبحث في جيبه فأخذ عود ثقاب وحكّه بالزفت: وكانت المحفظة محفظته. وقال ملاحظًا: «إذن حسنًا، ليس الأمر رديئًا الآن» وكان دفتره العسكريّ قد بقي في جيب صدارته، ولكنّ المحفظة كانت خالية. «ما الذي سأعمله؟» وكان ما يزال يفتِّش الأرض بيديه، وقال: «لن أذهب إلى رجال الشرطة، فهذا ما لا يُعمل»، وأغمض عينيه لحظة وأخذ ينفخ: كان رأسه يؤلمه جدًّا، حتى إنّه كان يتساءل عمّا إذا لم يكن في داخله ثقب، ولمس رأسه في حيطة، فلم يكن يبدو عليه أنّه مشقوق، ولكنّ الشعر كان قد تجمّد في طاقات لزجة، ثم إنّه كان يكفيه أن يشدّ قليلاً حتى يحسّ كما لو أنّه كان يُطرق بمطرقة، وقال: «لا يروق لي أن أذهب إلى الشرطة، ولكن ما الذي سأفعله؟» وكانت عيناه تألفان الظلام، فميّز كتلة غامضة، على بعد أمتار منه، على الطريق، إنّه كيسي. ومشى على أربع، لأنّه لم يكن يستطيع أن يتماسك على ساقيه: «ما هذا؟» كان قد وضع يده في مستنقع، وفكّر بقلب منقبض: «لقد كسروا زجاجتي». وأخذ الكيس، فإذا القماش مبلّل والزجاجة شظايا. وقال غرو ـ لويس: «أوه! لقد بالغا كثيرًا!»، وترك الكيس، وجلس على الرصيف وسط الشارع، وأخذ يبكي، وكانت

الغصّات تمرّ من أنفه وتهزّه، وكان لديه إحساسٌ بأنّ رأسه ينفجر: إنّه لم يبك مثل هذا البكاء منذ موت العجوز. كان شارل عاريًا تمامًا، وساقاه في الهواء، أمام ستّ ممرِّضات، خفقت أشدّهنّ خضرة جناحيها وحرّكت فكّيها، وكان هذا يعني: صالح للخدمة. وتضاءل ماتيو واستدار، وكانت مارسيل تنتظره، منفرجة الساقين، كانت لعبةً كبيرة الفم. وحين أصبح ماتيو كومة كلّه، قذفه جاك، فسقط في ثقب الصواريخ الأسود، سقط في الحرب، وكانت الحرب مستعرة، وحطّمت قنبلةٌ الزجاج وتدحرجت عند أسفل السرير، وانتصبت إيفيش، فتفتّحت القنبلة، فإذا هي باقة زهر، خرج منها أوفانباخ، وقالت إيفيش: «لا ترحل، لا تذهب إلى الحرب، وإلّا فما هو مصيري؟» نصر، ويهتف بالنصر، النصر، نخب النصر، فهرب القياصرة الاثنا عشر، وكانت القيصرة محرَّرة، وحلّ قيودها، كانت عارية، قصيرة وسمينة، وتُحوِّل نظرها، وكانت المتفجّرات والمفرقعات تعدو نحو الربّان بكلّ قوّة أوتيتها قدماها، وكان بيار يقبض عليها من ظهورها ويضعها في حزمته، التي كانت المستودع، ولكنّ الرابعة أرادت أن تطير، فقبض عليها من أغمادها، وهي ضاجّة مرتعشة، فانفجر ضاحكًا وأخذ ينتف ريشها، وكان الربّان ينظر إليه مستلقيًا على ظهره، وكانت المفرقعات قد أكلت خدّيه ولثّتيه، ولكن بقيت عيناه، عيناه الكبيرتان المليئتان بالاحتقار، وفرّ بيار مطلقًا لساقيه العنان.. كان يهرب من الجنديّة، ويهرب، ويعدو في الصحراء، وسألته مود: «هل أستطيع أن أرفع المائدة؟» وكان فيغيه ميّتًا، وتنبعث منه رائحة نتنة، ونزع دانيال بنطلونه، وكان يفكّر: هناك نظر، وكان ينتصب أمام نظر، جبان، لوطيّ، لئيم؛ كأنّه تحدٍّ. إنّه يراني، يراني كما أنا. ولم يكن هانوكين يستطيع النوم، كان يفكّر: إنّني مجنَّد، وكان ذلك يبدو له غريبًا، وكان رأس جارته يثقل على كتفه، وكانت رائحته شعرًا وزيتًا ملمّعًا. يترك ذراعه تسقط وتلامس فخذها، وكان ذلك لذيذًا، ولكنّه متْعِب بعض الشيء. كان قد سقط على بطنه، ولم يبق له بعد ساقان. وصاحت:

«حبيبي»، وقال الصوت النائم: «ماذا تروين؟» قالت أوديت: «كنت أحلم، نمْ يا حبيبي، نمْ». واستيقظ فيليب منتفضًا: لم تكن تلك صيحة الديك، وإنّما كان أنين امرأة رقيقًا.. هاه، هاه، هاه، وظنّ أوّلاً أنّها كانت تبكي، ولكن لا، فقد كان يعرف جيّدًا تلك الشكاوى، وقد استمع إليها غالبًا، إذ كان يلصق أذنيه بالباب، وهو ممتقع من الغضب والبرد. ولكن ذلك لم يكن يثير اشمئزازه هذه المرّة. كان شيئًا جديدًا ورقيقًا: موسيقى الملائكة.

قالت زيزيت بصوت أبحّ: ـ هاه، كم أحبّك، أوه، أوه، أو هوهو هاها! وساد صمت. كان يثقل عليها بكلّ جسمه الصلب، الملاك الجميل ذو الشعر الأسود والفم المرّ. فكانت مسحوقة ريّا. واستقام فيليب فجأة وجلس، وفي فمه مرارة، والحسد يفري قلبه. ومع ذلك فقد كان يحبّ كثيرًا زيزيت.

«ها أأه».

وتنفّس: كانت صرخة قاطعة ونهائيّة: لقد انتهيا. وبعد لحظة، سمع صفقًا مبلّلاً: كانت أقدام عارية تركض على البلاط؛ وغنّى الصنبور، عصفور في الأغصان، وأجريت جميع مجاري الماء بقرقرات مريعة. وكانت زيزيت قد عادت إلى موريس، نضرة كلّ النضارة، باردة الساقين؛ وصرّ السرير، واستلقت بالقرب منه، في السرير المحرق الرطب، وشدّت جسدها إلى جسده، وكانت تشمّ رائحة عرقه الحمراء.

ـ إذا متّ، فلن يبقى لي إلّا أن أنتحر.

ـ لا تقولي هذا.

ـ لن يبقى لي إلّا أن أنتحر يا مومو.

ـ سيكون هذا مؤسفًا، فأنت رشيقة وأنت عاملة، تحبّين أن تأكلي جيّدًا، وتحبّين أن تضاجعي جيّدًا: فانظري كلّ ما سوف تفقدينه.

قالت زيزيت بهوس: ـ معك أنت، أحبّ أن أضاجعك أنت، ولكنّك أنت لا تهتمّ بذلك، فأنت ترحل، وأنت مسرور.

قال موريس: ـ لا، لست مسرورًا، ويغيظني أن أذهب.

سوف يذهب، سيرحل وسيستقلّ القطار إلى نانسي، ولن أراهما أبدًا، لن أرى وجهه، ولن يعرف أبدًا من أنا. وخمشت قدماه الغطاء: أريد أن أراهما.

ـ ليتك لا تذهب، ليتك تستطيع ألّا تذهب...

وقال لها موريس بلطف: ـ لا تبكي...

أريد أن أراهما. وقفز من السرير، وكانت الرتيلاء تترصّده، قابعة تحت السرير، ولكنّه ركض بأسرع منها، وضغط على الزرّ، فتلاشت في النور. أريد أن أراهما.

ولبس بنطلونه، ووضع قدميه العاريتين في حذائه وخرج.. كان ثمَّة مصباحان أزرقان يضيئان الممرّ. وعلى الباب التاسع عشر، كانت ورقة رماديّة قد عُلِّقت بمسمار: «موريس غونو»، واستند فيليب إلى الجدار وكان قلبه يثب في صدره، ويلهث كما لو أنّه يعدو. ماذا أستطيع أن أفعل؟ ومدّ يده ولمس الباب لمسًا خفيفًا: كانا هناك، وراء الجدار. إنّني لا أطلب شيئًا، إلّا أن أراهما. انحنى، وألصق عينيه على ثقب القفل. فتلقّى لفحة باردة على قرنيّته، وخفق جفنيه ولم ير شيئًا على الإطلاق، لقد أطفأا النور. وطرق الباب وهو يفكّر: «أريد أن أراهما»، فلم يجيبا. وانقبض حلقه وطرق طرْقًا أشدّ. وقال الصوت: «من هناك؟» وكان صوتًا مفاجئًا قاسيًا، ولكنّه سيتغيّر. سيفتح الباب وسيتغيّر الصوت. وطرق فيليب: إنّه لم يكن يستطيع أن يتكلّم. فقال الصوت نافد الصبر:

ـ ماذا؟ من هناك؟

فكفّ فيليب عن الطرْق، وكاد أن يختنق، فأخذ نَفَسًا طويلاً ودفع صوته عبر حلقومه المنقبض، قائلاً: ـ أودّ أن أتحدّث إليك.

وساد صمت طويل. وكان فيليب يفكّر في أن يذهب، حين سمع وقع

خطى، ونَفَسًا إزاء الباب، وطقّة. إنّه يُشعل النور. وابتعدت الخطى، إنّه يرتدي بنطلونه. وتراجع فيليب واستند إلى الجدار، كان خائفًا. ودار المفتاح في القفل، ثم انفتح الباب فرأى من انفراجاته رأسًا منفوشًا ذا وجنتين عريضتين وبشرة مجعّدة. وكان للرجل عينان فاتحتان بلا أهداب، وكان ينظر إلى فيليب في دهشة هزليّة، وقال: ـ لقد أخطأت الباب.

كان ذلك صوته، ولكنّه إذ يمرّ في فمه، يصبح متغيّرًا. وقال فيليب:

ـ كلّا، لم أخطئ.

ـ وإذن، فماذا تريد منّي؟

كان فيليب ينظر إلى موريس، ويفكّر: «إنّ الأمر لا يستحقّ بعد». ولكن كان قد فات الأوان، وقال: ـ أريد أن أحدّثك.

كان موريس متردّدًا، ورأى فيليب في عينيه أنّه موشك على أن يغلق الباب، فاستند بقوّة إلى المصراع، وردّد:

ـ أريد أن أحدّثك.

قال موريس: ـ أنا لا أعرفك.

وكانت عيناه الصفراوان قاسيتين خبيثتين. يشبه المرصّص الذي كان قد جاء يصلح الحوض. وقال صوت زيزيت القلق:

ـ ماذا يا موريس؟ ماذا يريد؟

وكان الصوت حقيقيًّا، وكذلك كان الوجه الرقيق الذي لا يُرى. وسحنة موريس الضخمة هي التي كانت حلمًا. كابوسًا. وانطفأ الصوت؛ وانطفأ الوجه الرقيق، وخرج رأس موريس من الظلام، قاسيًا كثيفًا، حقيقيًّا. قال موريس: ـ إنّه شخص لا أعرفه، ولا أدري ما الذي يريده منّي.

فتمتم فيليب: ـ يمكنني أن أكون نافعًا لك.

وكان موريس يجسّه بعينه في حذر. وفكّر فيليب: إنّه يرى بنطلوني الفلانيل، ويرى حذائي المصنوع من جلد العجل، ويرى صدارة منامتي

السوداء ذات الياقة الروسيّة. وقال وهو يتقوّس عند الباب:

ـ كنت... كنت في الغرفة المجاورة. وإنّي... أقسم لك أنّ بإمكاني أن أكون نافعًا لك.

وصاحت زيزيت: ـ عد، واتركه يا موريس.. اتركه.

وكان موريس ما يزال ينظر إلى فيليب. وفكّر لحظة، ثم أشرق وجهه المكفهرّ قليلاً، فسأله وهو يخفض صوته بعض الشيء:

ـ أيكون إميل هو الذي أرسلك؟

فصرف فيليب عينيه، وقال: ـ نعم، إنَّه إميل.

ـ وماذا يريد؟

فارتعش فيليب:

ـ لا أستطيع أن أتكلّم هنا.

فتابع موريس كلامه متردِّدًا:

ـ وكيف حدث أنّك تعرف إميل؟

فقال فيليب مبتهلاً: ـ دعني أدخل، فماذا يضيرك أن تدعني أدخل؟ ثم إنّني لا أستطيع أن أقول شيئًا في هذا الممرّ.

وفتح موريس الباب، وقال:

ـ ادخل. ولكن لا لأكثر من خمس دقائق. إنّني أريد أن أنام.

فدخل فيليب. كانت الغرفة شبيهة كلّ الشبه بغرفته، ولكن كان على الكراسي ثياب وجوارب وسروال صغير وحذاء امرأة على البلاط الأحمر، بالقرب من السرير، وعلى الطاولة موقد غاز وقِدر. وكانت تنبعث رائحة شحم قد برد. وكانت زيزيت جالسة في السرير، وهي تشدّ غلالة من صوف بنفسجيّ حول كتفيها. إنَّها قبيحة ذات عينين غارقتين متحرِّكتين. تنظر إلى فيليب نظرة عداء. وأغلق الباب، فارتعش.

ـ نعم، ماذا يريد منّي إميل؟

فنظر فيليب إلى موريس بضيق: لم يكن يستطيع بعد أن يتكلّم. وقالت زيزيت بصوت غاضب: ـ هيّا، عجّل. إنّه ذاهب صباح الغد، وليس هذا وقتًا مناسبًا لإزعاجنا.

وفتح فيليب فمه وبذل جهدًا كبيرًا، ولكن لم يخرج منه أيّ صوت. وكان يرى نفسه بعيونهما، فيجد ذلك شيئًا لا يُطاق. وسألت زيزيت:

ـ إنّني أتحدّث إليك بالفرنسيّة، أليس كذلك؟ أقول لك إنّه ذاهب صباح الغد.

والتفت فيليب إلى موريس، فقال بصوت مختنق: ـ يجب ألّا تذهب.

ـ أذهب إلى أين؟

ـ إلى الحرب.

وكان موريس يبدو بهيئة مشدوهة، وقالت زيزيت بصوت ثاقب:

ـ هذا شرطيّ.

وكان فيليب ينظر إلى البلاط الأحمر، وذراعاه متدلّيتان، فيحسّ نفسه مخدَّرًا كلّ التخدير، حتى ليشعر من ذلك بما يشبه اللذّة. وأخذه موريس من كتفيه يهزّه:

ـ هل أنت تعرف إميل؟

فلم يجب فيليب، فعاد موريس يهزّه هزًّا أشدّ:

ـ أتراك ستجيب؟ أسألك إن كنت تَعرف إميل؟!

فحدَّق فيليب بعينين يائستين، وقال بصوت خافت سريع:

ـ أعرف شيخًا يزوِّر الأوراق.

فتركه موريس فجأة، وخفض فيليب رأسه وأضاف:

ـ ويمكنه أن يزوِّر أوراقك.

وساد صمت طويل، ثم سمع فيليب صوت زيزيت المنتصر:

ـ ما الذي كنت أقوله لك؟ إنّه مخبر.

فجرؤ على رفع عينيه، وكان موريس ينظر إليه نظرة مريعة، وقد مدّ رجله الكبيرة المشعّرة، فتراجع فيليب واثبًا إلى خلف، وقال وهو يرفع مرفقه: ـ ليس هذا صحيحًا، ليس هذا صحيحًا، فأنا لست شرطيًّا.

ـ ماذا جئت تفعل هنا إذن؟

فقال فيليب وهو يوشك أن يبكي: ـ إنّني مسالِم!

فردّد موريس في ذهول: ـ مسالم! لم يكن ينقصنا غير هذا.

وحكّ رأسه لحظة، ثم انفجر ضاحكًا وقال: ـ مسالم! أتسمعين يا زيزيت؟

فأخذ فيليب يرتجف، وقال بصوت منخفض: ـ أمنعك من الضحك.

وعضّ على شفتيه ليمنع نفسه من البكاء، ثم أضاف بمشقّة: «فحتى لو لم تكن مسالمًا، فعليك أن تحترمني».

فردّد موريس: ـ أحترمك، أحترمك؟

قال فيليب بهدوء رصين: ـ إنّني فراري. وإذا عرضت عليك أوراقًا مزوَّرة، فلأنّي حصلت على مثلها. وبعد غدٍ، سأكون في سويسرا.

وتطلّع إلى موريس مواجهة: كان موريس قد قرّب ما بين حاجبيه، فتشكّل على جبينه ثلم بشكل Y، وكان يبدو وكأنّه يفكّر. وقال فيليب:

ـ تعال معي، فأنا أملك مالاً لشخصين.

ونظر إليه موريس في اشمئزاز، وقال:

ـ قذرٌ صغير! أرأيت يا زيزيت كم هو رخو؟ إنّ الحرب بالتأكيد تثير رعبك، وأنت لا تريد بالطبع أن تحارب الفاشيست، بل أنت أمْيل إلى معانقتهم، أليس كذلك؟ إنّهم هم الذين يحمون فلوسك، يا غلام الأغنياء!

قال فيليب: ـ لست فاشستيًّا.

فقال موريس: ـ لا، بل أنا. هيّا، حلّ عن ظهري أيّها القذر! وإلّا ارتكبت جريمة.

وكان ساقا فيليب هما اللتين تريدان أن تهربا. ساقاه وقدماه. إنّه لن يهرب. وجرّ ساقيه إلى الأمام، واقترب من موريس، وأخفض قسرًا هذا المرفق الطفولي الذي كان يرتفع من تلقاء نفسه. ونظر إلى ذقن موريس، ولم يكن يتوصّل إلى رفع نظره حتى العينين الصفراوين اللذين لا أهداب لهما. وقال: ـ لن أذهب.

وظلّا لحظة وجهًا لوجه، ثم انفجر فيليب:

ـ ما أقساكم جميعًا! جميعًا. لقد كنت هنا، أسمعكما تتحدّثان، فاؤمّل... ولكنّك كالآخرين، أنت جدار. تدينون دائمًا، من غير أن تحاولوا أبدًا الفهم؛ هل تعرف من أكون؟ إنّما من أجلكم، قد هربت، وكان بوسعي أن أبقى في بيتي، حيث آكل حين أجوع وحيث أعيش في وسط دافئ، بين أثاث جميل وتحت إمرتي الخدم، ولكنّي تركت كلّ شيء من أجلكم. وأنتم، يرسلونكم إلى المسلخ، فتجدون ذلك جيّدًا، ولا ترفعون إصبعكم، ويضعون بندقيّة بين أيديكم فتفكّرون بأنّكم أبطال، وإذا حاول أحد أن يتصرّف تصرّفًا آخر، وصفتموه بأنّه «الصبيّ المدلَّل»، وبأنّه فاشيستي، وبأنّه جبان، لأنّه لا يفعل كما يفعل جميع الناس. أنا لست جبانًا، فأنت تكذب، ولست فاشستيًا، وليس الذنب ذنبي إذا كنت صبيًا مدلَّلاً. إنّ هذا لو تعلم أسهل، أسهل جدًّا أن أكون ابن فقراء.

قال موريس في صوت غير مميَّز:

ـ أنصحك بأن تذهب، لأنّي لا أحبّ الفوضى كثيرًا، وقد أغضب.

فقال فيليب وهو يضرب الأرض بقدمه: ـ لن أذهب. لقد كفاني، أخيرًا! حسبي من جميع هؤلاء الأشخاص الذين يتظاهرون بأنّهم لا يرونني، أو الذين ينظرون إليّ من علٍ، وبأيّ حقّ. بأيّ حقّ؟ إنّني أنا موجود، وأنا أساويكم في القيمة. ولن أذهب، سأبقى طوال الليل، إذا لزم الأمر، أريد أن أشرح وجهة نظري مرّة وإلى الأبد.

قال موريس: ـ آه! إنّك لن تذهب! لن تذهب إذن!

وأمسك به من كتفيه، ودفعه نحو الباب؛ وأراد فيليب أن يصمد، ولكن ذلك كان محبطًا: لقد كان موريس قويًا كالجاموس. وصاح فيليب:

ـ دعني، دعني. وإذا أخرجتني، بقيت أمام بابك، وأحدثت ضجّة، أنا لست جبانًا، وأريد أن تستمعوا إليّ. (وأضاف وهو يرفسه بقدمه) دعني، دعني، أيّها الوحش.

ورأى يد موريس المرفوعة، فكفّ قلبه عن الخفقان، وقال:

ـ لا! لا!

وصفعه موريس مرّتين بقبضته. وقالت زيزيت: ـ مهلاً، مهلاً، إنّه طفل.

وترك موريس فيليب، ونظر إليه في شيء من الاندهاش. وتمتم فيليب:

ـ إنّني... إنّني أكرهك.

وقال موريس بلهجة متردّدة: ـ اسمع، يا بنيْ...

قال فيليب: سترون، سترون جميعًا، وسوف تخجلون.

وخرج وهو يركض، فعاد إلى غرفته وأقفل الباب بالمفتاح مرتين. كان القطار يمضي، والباخرة تصعد وتهبط. كان هتلر نائمًا، وإيفيش نائمة، وشمبرلن نائمًا، وارتمى فيليب على سريره وأخذ يبكي، وكان غرو ـ لويس يترنّح، بيوت وأيضًا بيوت، كان رأسه مشتعلاً، ولكنّه لم يكن يستطيع أن يتوقّف، وكان ينبغي له أن يمشي في الليل على حذر، في الليل المريع الهامس، وكان فيليب يبكي، بلا حوْل، يبكي ويسمع همسهما عبر الجدار، لا يتوصّل حتى إلى بغضهما، كان يبكي، منفيًّا، في الليل البارد الذي يُرثى له، في ليل الطرقات الرمادي. وكان ماتيو قد استيقظ، فنهض ووقف إزاء النافذة، وكان يستمع إلى همسات البحر، وابتسم للّيل الجميل الرائق.

الأحد ٢٥ أيلول

يومَ عارٍ، يوم راحة، يوم خوف، يوم الربّ، كانت الشمس تشرق على يوم أحد. المنارة، الفانوس، الصليب. الخدّ، «الخدّ». إنّ الربّ يحمل صليبه في الكنائس، وأنا أحمل خدّي في الشوارع المزيّنة بزينة يوم الأحد، عجبًا، أنت مصاب بورم، ولكن لا: الواقع أنّهم جلدوني على خدّي، يا للشخص الصغير الدنيء الذي يحمل إليتيه على وجهه، والرأس الضخم المشقوق، المرتبك، المضمّد، القرعة، اليقطينة، لقد ضربوا من الخلف، واحدة، اثنتان، كان يمشي في رأسه، وكان النعل يخفق في رأسه، اليوم أحد، فأين أبحث عن العمل، كانت الأبواب مغلقة، الأبواب الحديديّة الكبيرة، مسمّرة، صدئة، مغلقة على ظلام، على فراغ ذي رائحة نشارة، وزيت مسودّ وحديد قديم، على سطح الأرض المزروع نحاتة صدئة، كانت مغلقةً الأبوابُ الخشبيّة الصغيرة المريعة، مغلقة على امتلاء، على غرف ملأى حتى الانفجار بالأثاث، والذكريات، والأولاد، والأحقاد، مع تلك الرائحة الكثيفة لبصل عفن، والياقة المستعارة اللامعة على السرير والنساء المتأمّلات خلف النوافذ، كان يمشي بين النوافذ، بين

الأنظار، وقد حجّرته الأنظار وصلّبته. كان غرو ـ لويس يمشي بين الجدران القرميديّة والأبواب الحديديّة، كان يمشي بلا فلس ولا شيء يأكله، ورأسه يخفق كأنّه قلب، كان يمشي ونعلاه يضربان في رأسه، فليك فلاك، كانا يمشيان، وقد عرقا، في الشوارع التي اغتالها الأحد، وكان خدّه يضيء الجادّة أمامه. وهو يفكِّر: «أصبحت شوارع حرب إذن» ويفكِّر: «كيف لي أن آكل؟» وكانوا يفكِّرون: «أليس ثمّة من يساعدني؟» ولكنّ الرجال الصغار السمر، والعمّال الكبار ذوي الوجوه الصخريَّة يحلقون ذقونهم وهم يفكِّرون في الحرب، يفكِّرون بأنّ أمامهم يومًا بطوله يفكِّرون فيه بالحرب، يومًا فارغًا بطوله يجرّون فيه قلقهم عبر الشوارع المغتالة. الحرب: الحوانيت المغلقة، الشوارع المقفرة، ثلاثمئة وخمسة وستّون أحدًا في العام؛ كان فيليب يُدعى «بيدرو كازاريس» وكان يحمل اسمه على صدره. كان بيدرو كازاريس، بيدرو كازاريس، بيدرو كازاريس، بيدرو كازاريس يرحل في المساء نفسه إلى سويسرا، وكان يحمل إلى سويسرا خدًّا كبيرًا مزدهرًا موسومًا بخمسة أصابع؛ وكانت النساء ينظرن إليه من نوافذهنّ.

وكان الربّ ينظر إلى دانيال.

أأدعوه الربّ؟ كلمة واحدة ويتغيّر كلّ شيء. كان مستندًا إلى المصراعين الرماديين اللذين يغلقان حانوت السرّاج، وكان الناس يسرعون نحو الكنيسة سودًا على الطريق الورديّة، سرمديين. كلّ شيء كان سرمديًّا. ومرّت امرأة شابّة، شقراء رشيقة، شعرها مسرَّح بعناية مجنونة، وكانت تسكن في الفندق، يأتي زوجها ليراها يومين كلّ خمسة عشر يومًا، وهو صناعي من «بو»؛ وكانت قد ألقت على وجهها قناع النعاس لأنّ اليوم يوم أحد، وقدماها الصغيرتان تكردحان نحو الكنيسة، وروحها بحيرة من فضّة. الكنيسة: ثقب؛ وكانت الواجهة ذات طراز روماني، وثمّة تمثال من حجر للمشاهدة، في المعبد الثاني، إلى اليمين وأنت داخل. وابتسم لزوجة

العقّاد وابنها الصغير. أأدعوه الربّ؟ لم يكن مندهشًا، وكان يفكّر: لا بدّ أن يحدث هذا. عاجلاً أو آجلاً. كنت أحسّ جيّدًا أنّه كان ثمّة شيء. كلّ شيء، لقد فعلت دائمًا كلّ شيء كشاهد. فنحن نتبخّر، بلا شاهد.

قالت نادين بيشون: ـ صباح الخير، سيِّد سيرينو. أنت ذاهب إلى القدّاس؟

فقال دانيال: ـ أنا مسرع لذلك.

وتبعها بعينيه، وكانت تعرج أكثر من المعتاد، ولحقت بها فتاتان صغيرتان وهما تركضان ودارتا حولها بفرح. ونظر إليهما. إنّني أرشقهما بنظري المنظور! إنّ نظري مجوّف، فنظر الربّ يخترقه من الطرفين. وفكّر فجأة: «إنّني أُنشئ أدبًا». ولم يكن الربّ بعدُ هنا. كان ثمّة حضوره هذه الليلة، في عرق الغطاء، وكان دانيال قد أحسّ نفسه قايين: هأنذا، هأنذا كما خلقتني، جبان، أجوف، لوطيّ. وبعد ذلك؟ كان النظر هنا، في كلّ مكان، أصمّ، شفّافًا، مليئًا بالأسرار، وانتهى دانيال إلى النوم، ولدى اليقظة، كان وحده. ذكرى نظر. كان الجمع يتدفّق من جميع الأبواب الفاغرة، قفّازات سوداء، وياقات مزيّفة من خزف، جلود أرانب، وكتب قدّاس العائلة في أطراف الأصابع. وقال دانيال في نفسه: آه، لا بدّ من مخطَّط. لقد تعبت من أن أكون هذا التبخّر الذي لا انقطاع له نحو السماء الفارغة، فأنا أريد سقفًا. ولامسه الجزّار في مروره، وكان رجلاً سمينًا قرمزيّ الوجه يلبس النظّارات، يوم الأحد، ليتميّز بطابع خاصّ. وكانت يده المُشعرة تقبض على كتاب قدّاس. وفكّر دانيال: سيجتلب إليه النظر، فيقع عليه من زجاجيّات الكنائس؛ إنّهم جميعًا سيجتلبون إليهم النظر؛ إنّ نصف البشر يعيشون تحت النظر. أتراه يُحسّ بالنظر عليه، حين يضرب بالسكّين على اللحم الذي يتفتّح تحت الضربات، فيكشف العظْمة المستديرة المزرقّة؟ إنّه يُرى، تُرى قسوته كما أرى يديه، ويُرى بُخله كما أرى شعره النادر، وهذا الطرف من الشفقة الذي يلتمع تحت البخل كما تلتمع الصلعة

تحت الشعر؛ إنّه يعرف ذلك، وسوف يقلب الصفحات المقرَّنة في كتاب القدّاس، وسوف يئنّ: مولاي، مولاي، إنّي بخيل. وسيسقط نظر «ميدوز» من فوق محجَّرًا. فضائل من حجر، عيوب من حجر: أيّة راحة! إنّ لهؤلاء الناس أساليب معاناة، هكذا قال دانيال في نفسه غاضبًا، وهو ينظر إلى الظهور السوداء، التي كانت تنغمر في ظلمات الكنيسة. وكانت ثلاث نساء تكردح معًا في إشراق الصباح الأحمر. ثلاث نساء حزينات مستغرقات، مسكونات. لقد أشعلن النار، وكنَّسن الأرض، وسكبن الحليب في القهوة، ولم يكنّ شيئًا بعدُ، إلّا ذراعًا في طرف المكنسة، أو يدًا منغلقة على أذن إبريق الشاي.. أو هذه الشبكة من الضباب التي تتدفّع على الأشياء عبر الجدران، من الحقول والغابات. وهنّ الآن يذهبن إلى هناك، في الظلّ، وسيكنَّ ما هنّ. وتبعهنّ من بعيد، ماذا لو ذهبت إلى حيث يقصدن؟ قصّة للضحك: هأنذا، هأنذا كما صنعتني، حزين، جبان، غير قابل للشفاء.
إنّك تنظر إليّ فيفرّ كلّ أمل: لقد تعبت من فرط الفرار من نفسي، ولكنّي أعلم تحت نظرك أنّي لا أستطيع بعدُ أن أفرّ من نفسي، سوف أدخل، وسوف أنتصب واقفًا، وسط هاتيك النسوة الراكعات، كصرح من الظلم والطغيان. سوف أقول: «أنا قايين، وإذن؟ أنت الذي صنعتني، فاحملني».
نظر مارسيل، نظر ماتيو، نظر بوبي، نظر قططي، كلّها كانت تحطّ دائمًا على جلدي. إنّني لوطيّ يا ماتيو. إنّني، إنّني، إنّني لوطيّ، يا إلٰهي. كانت الدمعة في عين العجوز ذي الوجه المجعّد، وكان يمضغ شاربه المحمرّ بالتبغ، بهيئة شرّيرة. ودخل الكنيسة منهوكًا، عاجزًا، مغلقًا، فدخل دانيال خلفه. وكانت تلك هي الساعة التي يأتي فيها ريبادو إلى الملعب وهو يصفِّر، فكان الفتيان يقولون له: «وإذن، يا ريبادو، هل أنت اليوم على ما يُرام». كان ريبادو يفكِّر في هذا وهو يلفّ سيكارة، ويُحسّ يديه خاويتين، وكان ينظر بكآبة إلى القاطرات وإلى صفوف البراميل، فيشعر بأنّ شيئًا ما كان يعوز يديه، وزن كرة مسمّرة تستقرّ في راحته؛ كان ينظر إلى البراميل

ويفكّر: «يوم أحد، يا للحسرة!» كان ماريوس وكلوديو وريمي قد ذهبوا كلٌّ بدوره، يلعبون لعبة الجنديّ الصغير؛ وكان جول وشارلو يعملان ما يستطيعان، فيدحرجان براميل على الخطوط الحديديّة، ويتعاونان لرفعها ويؤرجحانها في القاطرات؛ كانا قويين ولكنّهما شيخان، وكان ريبادو يسمعهما يلهثان والعرق يسيل على ظهرهما العاري؛ وهما لن ينتهيا من ذلك أبدًا. وكان ثمّة شخص طويل مضمّد الرأس يذرع المستودع منذ ربع ساعة جيئة وذهابًا؛ وقد انتهى بالاقتراب من جول، ورأى ريبادو شفتيه تتحرّكان. وكان جول يستمع إليه بهيئته المخدَّرة، ثم نهض نصف نهضة وأطبق راحتيه على خاصرتيه، وأومأ إلى ريبادو بحنية من رأسه. وسأل ريبادو:

ـ ما هذا؟

فاقترب الرجل على تردّد، وكان يمشي كالبطّة، قدماه إلى الخارج. لصّ حقيقيّ. ولمس ضماده بمثابة تحيّة، وسأل:

ـ هل لديكم عمل؟

فردّد ريبادو: ـ عمل؟

وكان ينظر إلى الرجل: لصّ حقيقي، كان ضماده مسودًّا، وكان يبدو عليه أنّه قويّ، ولكن وجهه كان ممتقعًا حتى ليثير الخوف. وقال ريبادو:

ـ عمل؟

وكان أحدهما يتفرّس في وجه الآخر بتردّد، وكان ريبادو يتساءل عمّا إذا كان الرجل لن يسقط مغمى عليه. وقال وهو يحكّ رأسه:

ـ عمل؟ ليس هذا ما ينقصنا.

فطرف الرجل بعينيه. لم تكن هيئته عن قرب رديئة جدًّا. وقال:

ـ أستطيع أن أعمل.

فقال ريبادو: ـ لا يبدو عليك أنّك سليم.

قال الرجل: ـ من أيّ شيء؟

ـ أقول إنّك تبدو مريضًا.

فنظر إليه الرجل في دهشة، وقال: ـ لست مريضًا.

ـ إنّك مصفرّ جدًّا. ثم ما هذا الضمّاد؟

فأوضح الرجل قائلاً: ـ لقد ضربوني على رأسي. وليس هذا بذي بال.

ـ ومن الذي ضربك على رأسك؟ الشرطة؟

ـ كلّا. رفاق. أستطيع أن أعمل فورًا.

قال ريبادو: ـ سوف نرى.

فانحنى الرجل، وتناول برميلاً فرفعه بذراعه. ثم قال وهو يعيده إلى الأرض: ـ أستطيع أن أعمل.

قال ريبادو في إعجاب: ـ يا ابن القحبة! (وأضاف) ما هو اسمك؟

ـ اسمي غرو ـ لويس.

ـ هل معك أوراقك؟

قال غرو ـ لويس: ـ معي دفتري العسكريّ.

ـ أرني إيّاه.

وفتّش غرو ـ لويس في جيب صدارته الداخليّ، وسحب دفتره بحيطة ومدّه إلى ريبادو. ففتحه ريبادو وأخذ يصفّر، وقال: ـ ولكن ما هذا! ولكن ما هذا!

قال غرو ـ لويس بلهجة قلقة: ـ إنّها أوراق قانونيّة.

ـ قانونيّة؟ هل تعرف القراءة؟

فنظر إليه غرو ـ لويس نظرة خبيثة:

ـ لا حاجة لمعرفة القراءة من أجل حمل البراميل.

ومدّ له ريبادو دفتره:

ـ إنّ معك الكرّاسة رقم ٢ يا بنيّ، إنّهم ينتظرونك في مونبلييه، في الثكنة. وأنصحك بأن تدبّر أمرك، وإلّا اعتبروك متمرِّدًا.

فقال غرو ـ لويس مشدوهًا: ـ في مونبلييه! ليس لديّ ما أفعله في مونبلييه.

فغضب ريبادو، وصاح به:

ـ أقول لك إنّك مجنَّد، فمعك الكرّاسة ٢. أنت مجنَّد.

وأعاد غرو ـ لويس دفتره إلى جيبه، وسأله:

ـ إنّك إذن لا تستخدمني؟

ـ لا أريد أن أستخدم فراريًّا.

وانحنى ريبادو ورفع برميلاً، فقال ريبادو بحيويّة:

ـ حسنًا، حسنًا، أنت قويّ من غير شكّ، ولكن لن يجديني شيء على الإطلاق إذا أوقفوك بعد ثمان وأربعين ساعة.

وكان غرو ـ لويس قد وضع البرميل على كتفه، وكان يحدِّق في ريبادو وهو يقطِّب حاجبيه الكبيرين. وهزّ ريبادو كتفيه، وقال: ـ آسف.

ولم يكن ثمّة ما يُقال بعد. وابتعد، وفكّر: «أنا لا أريد متمرِّدًا» وقال: ـ إيه شارلو!

فقال شارلو: ـ ماذا؟

ـ انظر إلى الرجل هناك، إنّه متمرِّد.

قال شارلو: ـ مؤسف. كان بإمكانه أن يساعدنا قليلاً.

فقال ريبادو: ـ لا أستطيع أن أوظِّف متمرِّدًا.

قال شارلو: ـ طبعًا لا.

والتفتا معًا: كان الرجل الطويل قد وضع البرميل على الأرض، وكان يقلِّب بهيئة شقيّة دفتره العسكري بين أصابعه.

كان الجمع يحيط بهم، يحملهم، يطوف حولهم ويكثّف وهو يطوف، ولم يكن رينيه يعلم بعد إذا كان جامدًا أو إذا كان يدور مع الجمع. كان ينظر إلى الأعلام الفرنسيّة التي ترفرف فوق مدخل «غار دوليست»؛ كانت الحرب هناك، في نهاية الخطوط الحديديّة، ولم تكن لتزعج، وكان يستشعر تهديدًا بكارثة أشدّ قربًا: إنّ الجموع شيء رخص، فهناك دائمًا مصيبة تطفو فوقها. «دفن غاليانى، إنّه يزحف، يجرّ ثوبه الصغير الأبيض بين جذور الجموع السوداء، تحت فظاعة الشمس، وينهار البناء، ولا ينظر، لقد أخذوا المرأة، الصلبة، وقدمٌ مخرّمة حمراء تخرج من حذائها المنفجر» كان الجمع يحيط به، تحت السماء الصافية الخالية، إنّي أكره الجموع، وكان يشعر عيونًا في كلّ مكان، شموسًا تفتّح زهورًا في ظهره، وعلى بطنه، وتشعل أنفه الطويل الأصفر، الرحيل إلى الضاحية في الآحاد الأولى من نوّار، وفي اليوم التالي تكتب الصحف: «الأحد الأحمر». ويبقى منها دائمًا بعض الأعداد على البلاط. كانت إيرين تحميه بجسمها الصغير الملتفّ «لا تنظر، إنّها تجرّني من يدي، إنّها تشدّني والمرأة تمرّ خلفي، تنزلق على الجمع، كما ينزلق ميِّت على نهر الغانج». كانت تنظر في توبيخ إلى القبضات المرتفعة، في البعيد، تحت الرايات المثلّثة الألوان، فوق القبّعات. وقالت: ـ الأغبياء!

وتظاهر رينيه بعدم السماع، ولكن أخته تابعت ببطء مقتنع:

ـ الأغبياء. يرسلونهم إلى المسلخ ويكونون مسرورين.

وكانت فاضحة. ففي الأوتوبيس وفي السينما وفي المترو، كانت فاضحة، إذ كانت تقول دائمًا ما لا ينبغي أن يُقال، كان صوتها الصريح يلقي كلمات فاضحة. وألقى نظرة خلفه، فكان ذلك الرجل ـ وجهه يشبه وجه النمس بعينين ثابتتين أكثر ممّا ينبغي وأنف متآكل ـ كان يستمع إليهما. وضعت إيرين يدها على كتفه، وكانت تبدو وهي تفكّر. لقد تذكَّرتْ أنّها كانت أخته الكبرى، وفكّر بأنّها ستعطيه نصائح مضجرة، ولكن مهما يكن

من أمر، فقد أزعجت نفسها لتصحبه إلى المحطّة، وها هي الآن وحدها وسط هؤلاء الرجال الذين لا تصحبهم نساء، كما كان يحدث إذ كان يصحبها لمشاهدة مباراة في الملاكمة في «بوتو»، فينبغي ألّا أؤذيها. كانت تقرأ، متمدِّدة على ديوانها، وهي تدخِّن كثيرًا، وكانت تكوِّن آراءها بنفسها، كما تصنع قبّعاتها. وقالت له: ـ استمع إليّ جيّدًا يا رينيه، إنّك لن تفعل كهؤلاء الأغبياء.

قال رينيه بصوت منخفض: ـ لا، لا، لا.

وأضافت: ـ استمع إليّ جيّدًا، إنّك لن تتحمّس.

وكان صوتها، إذ تكون مقتنعة، يُسمع بعيدًا. وقالت:

ـ ما الذي يجديك ذلك؟ اذهب، ما دمت لا تستطيع تجنُّب الأمر. ولكن لا تدعهم يلاحظونك إذ تكون هناك، لا خيرًا ولا شرًّا: فالأمر سيّان. واحم نفسك كلّما كان في وسعك أن تحمي نفسك.

قال: ـ نعم، نعم.

كانت تمسكه بقوّة من كتفيه؛ وتنظر إليه بتمعّن، ولكن من غير شغف؛ كانت تتابع فكرتها:

ـ لأنّي أعرفك يا رينيه، فأنت مغرور صغير، تعمل كلّ شيء ليتحدّث الناس عنك. ولكن أحذِّرك منذ الآن: إذا عدت ومعك وسام استحقاق، فلن أكلِّمك بعد ذلك أبدًا. إنّ ذلك أغبى ممّا ينبغي. وإذا عدت بساق أقصر من الأخرى، أو بثقب في الوجه، فلا تعتمد عليّ لأرثي لك، ولا تأت لتروي لي أنّ ذلك حدث بالاتِّفاق: فهذه أمور يمكن تفاديها بسهولة، وبقليل من الحكمة.

قال: نعم، نعم.

وكان يفكِّر بأنّها على حقّ، ولكن ذلك شيء لا يُقال، ولا يُفكَّر به. وإنّما هو يُفعل تلقائيًّا، وبهدوء، من غير كلام، وبقوّة الأشياء، بحيث لا

يكون ثمّة بعد ما يؤاخذ به المرء نفسه. قبّعات، بحر من القبّعات، قبّعات صباح الاثنين، قبّعات أيّام العمل، قبّعات الورش، اجتماعات السبت، كان موريس على راحته، وهو بين الجمهور الكثيف. وكان المدّ يتقاذف القبضات المرفوعة، ويحملها بهدوء، مع وقفات مفاجئة، وتردّدات، وانطلاقات جديدة، نحو الأعلام المثلّثة الألوان «أيّها الرفاق، أيّها الرفاق، قبضات أيّار، القبضات المزدهرة تسيل نحو «غارش». نحو الساحات الحمراء في سهول «غارش»، اسمي زيزيت والصقور تغنّي، تغنّي جمال شهر أيّار، العالم الذي يولد». وكانت تنبعث رائحة المخمل والخمر. كان موريس في كلّ مكان، يتكاثر، وتنبعث منه رائحة المخمل، ورائحة الخمر، وكان يحكّ كمّه بقماشة معطف خشنة، وكان شابّ قصير مجعّد يدفع له مزماره في جنبيه، وكان وطء آلاف الأقدام يتسلّل من ساقيه إلى بطنه، وكان ثمّة شخير في السماء، فوق رأسه، ورفع أنفه فنظر إلى الطائرة، ثم أطرقت عيناه ورأى تحته وجوهًا مقلوبة، انعكاسات لوجهه، فبسم لها. بحيرتان صافيتان في جلد مدبوغ، شعر قَطّ، ندبة، وابتسم. وابتسم لصاحب النظّارات الذي كان يبدو عليه الاجتهاد، وابتسم لصاحب اللحية الهزيل الممتقع الذي كان يقرص شفتيه ولا يبتسم. كان ذلك يصرخ في أذنيه، ويضحك ويضحك، بلا مزاح يا جوجو، هذا أنت، أيجب أن تقوم الحرب حتى نلتقي؟ كان اليوم يوم أحد. حين تغلق المصانع، وحين يجتمع الناس وينتظرون، فارغي الأيدي، والأكياس على ظهورهم، في المحطّات، تحت قَدَرٍ حديديّ، يكون اليوم يوم أحد، وليس من أهمّيّة كبيرة أن يكونوا ذاهبين إلى الحرب أو إلى غابة فونتنبلو. كان دانيال واقفًا أمام مركع يشمّ رائحة كهفيّة وبخوريّة هادئة، وينظر إلى هذه الرؤوس العارية تحت نور بنفسجيّ؛ وكان موريس واقفًا وحده وسط هؤلاء الرجال الراكعين، يحيط به رجال واقفون، رجال بلا نساء في رائحة الخمر المحمومة، ورائحة الفحم والتبغ، ناظرًا إلى القبّعات تحت نور الصباح،

وهو يفكِّر: هذا يوم الأحد، كان بيار نائمًا، وضغط ماتيو على أنبوب، فخرج معجون ورديّ وهو يهسهس، ثم التوى وسقط على شعر الفرشاة. ودفع صبيٌّ صغير موريس وهو يضحك: «هيه سيمون! سيمون!» فالتفت سيمون، وكان خدّاه أحمرين وكان يضحك، فقال: «اسمع! يمكننا أن نقول إنّه أحدٌ مظلم». وأخذ موريس يضحك، وردّد «أحدٌ مظلم»! فبادله بسمته شابّ جميل كانت بجانبه امرأة ليست ساذجة أكثر ممّا ينبغي، وهي أنيقة الملبس؛ وكانت تتشبّث بذراعه وتنظر إليه نظرة ابتهال، ولكنّه لم يكن ينظر إليها، ولو كان نظر إليها لانغلق أحدهما على الآخر وأصبحا شخصًا واحدًا. زوج وحده. كان يضحك، وكان ينظر إلى موريس، وكانت المرأة غير موجودة في نظره، وزيزيت غير موجودة «إنّها تلهث، ورائحتها عنيفة، وهي رخوة جدًّا تحتي، حبيبي، حبيبي، أدخل فيّ» وكان ما يزال ثمّة بعض الليل، كأنّه نضح، بين جسمه وقميصه، بعض سناج، بعض قلق تَفِه ورقيق، ولكنّه كان يضحك في حرّيّة، وكانت النساء فائضات عن اللزوم؛ كانت الحرب هنا، الحرب، الثورة، النصر. سنحتفظ ببنادقنا. جميع هؤلاء: المجعّد وصاحب اللحية وصاحب النظّارات، والشابّ الطويل، سيعودون ببنادقهم وهم ينشدون «الأنترناسيونال» وسيكون يوم أحد. أحدًا إلى الأبد. ورفع قبضته.

ـ إنّه يرفع قبضته. هذا ذكي.

والتفت موريس، وقبضته في الهواء، فسأل: ـ ماذا؟ ماذا؟

كان هو صاحب اللحية الذي سأله:

ـ أتريد أن تموت من أجل السوديت؟

قال موريس: ـ اخرس.

فنظر إليه صاحب اللحية نظرة استياء وتردّد، فكأنّه كان يحاول أن يتذكّر شيئًا ما.

وصاح فجأة: ـ لتسقط الحرب!

فتراجع موريس إلى خلف، واصطدم مزماره بأحد الظهور، فقال:

ـ هل ستغلقه؟ هل ستغلقه بوزك الكبير؟

فصاح صاحب اللحية: ـ لتسقط الحرب! لتسقط الحرب!

وكانت يداه قد بدأتا ترتجفان وعيناه تقلبان، فلم يكن يستطيع أن يكفّ بعد عن الصراخ. وكان موريس ينظر إليه في ذهول حزين، على غير غضب، وقد فكّر لحظة أن يسدِّد قبضته في وجهه، ليحمله فقط على الصمت، كما يُضرب الأولاد إذ يصابون بالفُواق، ولكنّه كان ما يزال يُحسّ لحمًا طريًّا بين أصابعه، فلم يكن فخورًا: لقد ضرب فتى صغيرًا؛ ولن يعيد ذلك. وأدخل يديه في جيبيه، واكتفى بالقول:

ـ حلّ عنّي، أيّها القذر!

فظلّ صاحب اللحية يصرخ بصوت متعب ومصالح ـ صوت ثريّ. وشعر موريس فجأة شعورًا مزعجًا بأنّ المشهد كان مزوَّرًا. ونظر فيما حوله فاختفى فرحه. كانت تلك غلطة الآخرين، فإنّهم لم يكونوا يعملون ما كان عليهم أن يعملوه. في الاجتماعات، حين يأخذ أحدهم ينهق حماقات، يرتدّ عليه الجمع فيمحوه، وتُرى ذراعاه في الهواء لحظة، ثم لا شيء على الإطلاق. وبدلاً من هذا، كان الرفاق قد تراجعوا، وخلّوا المكان حول صاحب اللحية، وكانت المرأة الشابّة تنظر إليه في فضول، وقد تركت ذراع رجلها، وكان الفتية ينصرفون ولم تكن هيئتهم صريحة، بل كانوا يتظاهرون بأنّهم لا يسمعون.

وصاح صاحب اللحية:

ـ لتسقط الحرب!

وكان استياء غريب قد سقط على ظهر موريس. كان ثمّة تلك الشمس، وذلك الشخص الذي كان يصيح وحده، وجميع هؤلاء الرجال

الصامتين الذين يخفضون رؤوسهم. . . وأصبح استياؤه ضيقًا، فأبعد الجمع بضربات من كتفه، وتوجّه إلى مدخل المحطّة، نحو الرفاق الحقيقيين الذين كانوا يرفعون قبضاتهم تحت الأعلام. وكان شارع مونبارناس مقفرًا. الأحد. وعلى سطيحة «الكوبول» كان ثمّة خمسة أشخاص أو ستّة يشربون أو يأكلون؛ وكانت بائعة ربطات العنق واقفة على عتبة بابها؛ وفي الطابق الأوّل من البناية ذات الرقم ٩٩، فوق «كوسموس»، ظهر رجل في قميص قصير على النافذة وارتفق الدرابزون. وأطلق موبير وتيريز صيحة فرح، كان هناك منشور. هناك، هناك، هناك، على الجدار، بين «الكوبول» والصيدليّة، كان هناك منشور كبير أصفر مؤطّر بالأحمر «أيّها الفرنسيّون»، وما يزال رطبًا. ودلف موبير، وقد دخل عنقه في كتفيه وبرز رأسه، وتبعته تيريز، وكانت فرِحة كمجنونة صغيرة: كانا قد مزّقا ستّة مناشير، تحت أنظار البورجوازيين الطيِّبين، كان رائعًا أن يكون للمرء معلِّم شابّ ورياضيّ طويل القامة يعرف ما يريد.

قال موبير: ـ قذارة!

ونظر حوله: وكانت فتاة صغيرة قد توقّفت، يمكن أن تكون في العاشرة، وكانت تنظر إليهما وهي تداعب خصلاتها، وردّد موبير بصوت مرتفع: ـ قذارة!

وقالت تيريز بصوت قويّ خلف ظهر موبير:

ـ كيف تسمح الحكومة بلصق هذه القذارات؟

ولم تجب بائعة ربطات العنق: كانت امرأة سمينة ناعسة، وكانت بسمة مهنيّة مبهمة تتثاءب بين خدّيها.

«أيّها الفرنسيّون

إنّ المطالب الألمانيّة غير مقبولة. لقد فعلنا كلّ شيء للمحافظة على السلام، ولكن لا يستطيع أحد أن يطلب من فرنسا أن تنكر تعهّداتها وتقبل

بأن تصبح أمّة من الدرجة الثانية. فإذا تركنا اليوم التشيكيين، فإنّ هتلر سيطلب منّا الألزاس غدًا...

وأمسك موبير المنشور من طرف، ونزع منه شريطًا من الورق الأصفر، شبيهًا بشريحة من لحم البطّ. وأخذت تيريز المنشور من زاويته اليمنى، ونزعته، فاستقرّت منه في يدها قطعة كبيرة:

فرنسا أن

وتقبل بأن

أمّة من

فإذا ترك

سيط

وكانت باقيةً على الجدار نجمةٌ صفراء غير منتظمة. وتراجع موبير لحظة لينظر إلى صنيعه: نجمة صفراء، نجمة صفراء تمامًا، مع كلمات محطَّمة غير مؤذية. وابتسمت تيريز ونظرت إلى يديها بقفّازيهما؛ فكان عليهما أثر من المنشور، ورقة رقيقة ملتصقة بقفّازها الأيمن: «جمهو...» ففركت إبهامها بسبابتها، فالتفّت الجلدة الصغيرة الصفراء في كريّة، وجفّت وهي تلتفّ، وأصبحت قاسية كرأس دبّوس. فرجت تيريز ما بين أصابعها، فسقطت الكريّة، وأحسّت بشعور مسكر من القدرة.

ـ إنّني أطلب قطعة بفتاك صغيرة، يا سيِّد ديزيريه؛ قطعة بفتاك صغيرة بثلاثمئة غرام، شيء جميل، ولكن اقطعها لي كما ينبغي: أمس، أعطاني وكيلك لحمتي، فلم أكن مسرورة، كانت ملأى بالأعصاب. ولكن قل لي، ماذا هناك، قبالتنا؟ إذن، بعد أربع وعشرين ساعة، تكون الستائر سوداء. هل مات أحد؟

فقال اللحّام: «لست أدري. بعد أربع وعشرين ساعة، لن يكون لديّ زبائن، فهم يشترون بضاعتهم من محلّ «برتيه». انظري هذه إن كانت

تعجبك: إنّها ورديّة، طريّة، وهي تزبد كالشمبانيا، ثم ليس فيها عصب، حتى إنّي لآكلها نيئة». قالت السيِّدة ليوتيه: «بعد أربع وعشرين ساعة، أنا أعرف، إنّه السيِّد فيغييه؟ لا أعرفه، أيكون مستأجرًا جديدًا؟» ـ «أوه، كلّا، إنّه السيِّد القصير، ولا تعرف غيره، الذي كان يعطي تيريز ملبّسًا». ـ «أوه، ذلك الذي كان لائقًا جدًّا؟ يا للخسارة! سأحزن عليه أنا، السيِّد فيغييه، هل هذا ممكن!» «ولكن اسمع: فقد كان عجوزًا بما فيه الكفاية، حتى يموت». قالت السيِّدة ليوتيه: ـ «أوه، لقد قلت لزوجي، لو كنت تعلم، أنّه مات في وقت مناسب، هذا العجوز القصير، إنّ لديه حاسّة شمّ جيّدة، فربّما ندمنا نحن الآخرين، بعد ستّة أشهر، لأنّنا لم نكن في مكانه. أتدري أنّهم سجَّلوا اختراعًا؟» ـ «أوه! من هم؟» ـ «هم، الألمان. اختراع يقتل الأشخاص كالذباب، وفي آلام فظيعة». «أيكون هذا ممكنًا يا إلٰهي؟ يا لقطّاع الطرق! ولكن ما هو؟ ما هو؟» ـ «آه، هو نوع من الغاز، أو من الأشعّة إذا شئت، هكذا شرحوا لي». فقال اللَّحّام وهو يهزّ رأسه: «إنّها إذن أشعّة الموت!» ـ «نعم، شيء من هذا القبيل، أليس من الأفضل أن نكون تحت الأرض؟» ـ «أنت على حقّ تمامًا. هذا ما أقوله دائمًا، فليس ثمّة بيت بعد، ولا همّ. هكذا أودّ لو أموت: أنام مساء، فلا أستيقظ في الصباح». ـ «ويبدو أنّه مات هكذا». ـ «من؟» ـ «العجوز القصير». «هناك أشخاص محظوظون، أمّا نحن، فيجب أن نعاني كلّ شيء، بالرّغم من أنّنا نساء. لقد رأيت كيف كانت الأمور تجري في إسبانيا. كلّا. أريد ضلعًا. ثم أليس عندك معاليق لقطّتي؟ حين أفكّر: وهذه حرب أخرى! لقد اشترك زوجي في حرب ١٤، وقد أتى الآن دور ابني، أؤكّد لك أنّ الرجال مجانين. أيكون التفاهم صعبًا إلى هذا الحدّ؟» ـ «ولكن هتلر لا يريد أن يتفاهم الناس، يا سيِّدة بونوتان؟» ـ «ماذا؟ هتلر؟ إنّه يريد السوديت الذين يخصّونه، ذلك الرجل؟ أمّا أنا، فأعطيه إيّاهم! ولكنّي لا أدري إن كانوا بشرًا أم جبالاً، وابني سيذهب ليحطِّم رأسه من أجل ذلك. نعم، أعطيه إيّاهم! أعطيه إيّاهم! أتريدهم؟ ها

هم! وهنا يقع في الشرك. وأضافت بجدّ: ولكن قل لي، اليوم هو موعد الدفن؟ ألا تعرف في أيّة ساعة؟ لأنّني سأقف على النافذة لأراهم يمرّون». ماذا يريدون جميعًا منّي، بحربهم هذه؟ كان يمسك الدفتر وكان يشدّه بكلّ قواه، ولم يكن يستطيع تقرير إعادته إلى جيبه: كان هذا كلّ ما يملكه في الدنيا. وفتحه من غير أن يكفّ عن السير، ورأى صورته فاستشعر بعض الاطمئنان، هذه الرسوم الصغيرة السوداء التي تتحدّث عنه، ما دام ينظر إليها، كانت أقلّ إثارة للقلق، ولم تكن تبدو رديئة إلى حدّ بعيد. وقال: «مهما يكن! مهما يكن! مهما يكن! هي مصيبة ألّا يعرف المرء القراءة!» فراري، الشابّ الصغير المرهق الذي كان يصعد جادّة كليشي وهو يجرّ صورته من مرآة إلى مرآة، هذا الشابّ الصغير الذي لا حقد له، كان رجلاً عاصيًا، فراريًّا، حازمًا كبيرًا ومريعًا، ذا رأس حليق، يعيش في برشلونة، في «الباريو شينو» تخفيه فتاة تحبّه. ولكن كيف يمكن للإنسان أن يكون فراريًّا؛ بأيّة عينين ينبغي أن يرى نفسه؟

كان واقفًا في صحن الكنيسة، وكان الكاهن يغنّي له، وفكّر: «الراحة، الهدوء، الهدوء، الراحة، كما «يغيّره الخلود أخيرًا في ذاته»، لقد خلقتني كما أنا، وغاياتك لا تُدرك، إنّني أوفر أفكارك عارًا، أنت تراني وأنا أخدمك، أنتصب ضدّك، أشتمك، وإذ أشتمك أخدمك، إنّني مخلوقك، وأنت تحبّ ذاتك فيّ، وتحملني أنت الذي خلقت المسوخ والغيلان. ورنّ جرس صغير، فأحنى المؤمنون رؤوسهم ولكن دانيال بقي مستقيمًا، محدّق النظر. أنت تراني، وتحبّني. وكان يحسّ نفسه هادئًا ومقدّسًا».

توقّفت مركبة الموتى أمام باب البناية رقم ٢٤. وقالت السيّدة بونوتان: «ها هم أولاء، ها هم أولاء» وقالت البوّابة: «الطابق الثالث»، وعرفت موظّف موكب الدفن، فقالت له: «صباح الخير، يا سيّد رينيه، كيف الحال؟» فقال رينيه: «صباح الخير. إنّ من يريد أن يُدفن يوم أحد لا

يفكِّر كم سيزعج الآخرين!» قالت البوّابة: «ذلك أنّنا نؤمن بحرّيّة التديّن». كان جاك ينظر إلى ماتيو، وضرب على الطاولة وقال: «مع ذلك، فإذا ربحناها، هذه الحرب، أتدري من يفيد منها؟ ستالين». فقال ماتيو بهدوء: «وإذا لم نتحرّك ذهبت الفائدة لهتلر»، «وبعد ذلك؟ هتلر، ستالين، الأمر سواء. ولكنّ التفاهم مع هتلر يوفِّر علينا مليوني رجل ويجنِّبنا الثورة». هكذا إذن. ونهض ماتيو وذهب يلقي نظرة من النافذة: لم يكن حتى معْتاظًا، كان يفكِّر: «ما جدوى هذا كلّه»؟ لقد فرّ، وكانت السماء تحتفظ بمظهر أيّام الأحد الطيِّب، وكانت تنبعث من الشوارع رائحة الطبخ اللذيذ، اللوز المزبّد، الدجاج، الأُسرة. ومرّ رجل وامرأة، وكان الرجل يحمل حلوى مغطّاة بورق صقيل، وكان يحملها بخيط ورديّ لفّ طرفه على خنصره. كجميع الآحاد. «هذه ترّهات، ولا قيمة لذلك، انظر كيف يسود الهدوء كلّ شيء، ليس من حركة، إنّه الموت الصغير الخاصّ بيوم الأحد، الموت الصغير ضمن العائلة. فليس عليك إلّا أن تستردّ عملك، السماء موجودة، وحانوت التغذية موجود، والحلوى موجودة، أمّا الفراريّون فلا يوجدون». الأحد الأحد، الطابور الأوّل أمام مبولة ساحة كليشي، وحرارة النهار الأولى، إنّه يدخل المصعد الذي هبط من جديد منذ لحظة، ويشمّ في القفص المظلم رائحة شقراء الطابق الثالث، ويضغط على الزرّ الأبيض، الاهتزاز اليسير، الانزلاق العذب، ويضع المفتاح في القفل، ككلّ أيّام الأحد، ويعلِّق قبّعته على المشجب الثالث، ويسوّي ربطة عنقه أمام مرآة المدخل، ويدفع باب الصالون وهو يصرخ: «هأنذا!» فماذا تراها ستفعل؟ أتراها لن تأتي إليه، ككلّ أيّام الأحد، وهي تتمتم: «يا حبيبي الجميل؟» كم كان ذلك متوقّعًا، وكم كان حانقًا من فرط التوقّع، ومع ذلك، فقد فَقَد ذلك كلّه إلى الأبد. ليتني أستطيع فقط أن أغضب! وفكّر: لقد صفعني، لقد صفعني. وتوقّف، وكان يشعر بوجع في الخاصرة، فاستند إلى شجرة، ولم يكن غاضبًا، وفكّر في يأس: «آه! لماذا يجب ألّا أكون بعد صبيًّا؟»

وعاد ماتيو يجلس قبالة جاك. كان جاك يتكلّم، وماتيو ينظر إليه، وكان كلّ شيء شديد الإضجار، المكتب في الظلّ، والموسيقى الخفيفة المنبعثة من الجهة الأخرى من شجرات الصنوبر، وقطع الزبدة في صحن الفجل، والأقداح الفارغة على الصينيّة: سرمديّة لا أهمّيّة لها.

وأخذته الرغبة في أن يتكلّم بدوره. من أجل لا شيء، لكي لا يقول شيئًا، ليحطّم هذا الصمت السرمديّ الذي لا ينجح صوت أخيه في خرقه. وقال له: ـ لا تدوِّخ رأسك. الحرب أو السلم سيّان.

قال جاك مندهِشًا: ـ سيّان؟ إذهب فقل هذا إذن لملايين الرجال الذين يتهيّأون لمواجهة الموت.

قال ماتيو في طيبة ساذجة: ـ وماذا إذن؟ إنّهم يحملون موتهم في نفوسهم منذ مولدهم. وحين ينتهي ذبحهم عن آخرهم، ستظلّ الإنسانيّة ممتلئة كامتلائها في السابق: بلا فجوة ولا نقص.

قال جاك: ـ باستثناء اثني عشر إلى خمسة عشر مليونًا من الرجال.

قال ماتيو: ـ ليست القضيّة قضيّة عدد، إنّها ليست ممتلئة إلّا بنفسها، فليس ثمّة من ينتقصها، وهي لا تنتظر أحدًا. ستظلّ ماضية إلى لا مكان، وسيطرح الرجال أنفسهم الأسئلة نفسها على ذواتهم، ويفوّتون عليهم الحيوات نفسها.

كان جاك ينظر إليه ويبتسم، ليظهر أنّه لم يكن مخدوعًا:

ـ وإلى أين تريد أن تنتهي؟

قال ماتيو: ـ إلى لا شيء، بالضبط.

وصاحت السيِّدة بونوتان منتعشة جدًّا: «ها هم أولاء، ها هم أولاء! سيضعون النعش في مركبة الموتى». ليست الحرب شيئًا، كان القطار ينطلق، مقنفذًا بالقبضات المرتفعة. وكان موريس قد التقى بالرفاق: كان دوباش ولوران يسحقانه على النافذة، وكان يغنّي، «سيكون نشيد

الأنترناسيونال هو الجنس البشري». فقال له دوباش: «إنَّك تغنّي كإستي»، فقال موريس: «حبّذا!» وكان يشعر بالحرّ وصدغاه يؤلمانه، وكان ذلك أجمل أيّام حياته. كان يشعر بالبرد وكان بطنه يؤلمه، وقد دقّ الجرس للمرّة الثالثة، وكان يسمع وقع أقدام مستعجلة في الممرّ، وأبواب تصطفق، ولكن لم يكن أحد ليأتي: «ماذا تراهنّ يعملن؟ سيتركنني أبوّل في لباسي» وركض أحدهم بتثاقل، ومرّ أمام الغرفة، فصاح به شارل:

ـ هي هو!

استمرّ الركض وانطفأ الوقع، ولكنّهم جعلوا يدقّون دقّات كبيرة فوق رأسه. ليذهبن فيولجْ بهنّ، فلو لم تكن «دورلياك» الصغيرة التي تمدّ لهنّ خمس أوراق كلّ شهر على سبيل الهبة فقط، لتضاربن من أجل الدخول إلى غرفته. وارتعش، لا بدّ أنّ ثمّة نوافذ مفتوحة، فقد كان تيّار هوائي مثلج يندفع تحت الباب، إنّهنّ يُهوين، نحن لم نذهب بعد، وها هنّ يُهوين، كانت الضجّة والهواء البارد والصراخ تدخل كما تدخل في مطحنة، إنّني في ساحة عامّة. إنّه لم يعرف مثل هذا القلق، منذ أُخذت له الصورة التخطيطيّة الأولى للقلب. وصاح:

ـ هي هو! هي هو!

الساعة الحادية عشرة إلّا عشر دقائق، لم تكن جاكلين قد جاءت، وقد تركوه وحيدًا طوال الليل. أتراهم لن ينتهوا قريبًا، فوق؟ كانت ضربات المطرقة تصدي في جوف عينيه، فكأنّهم كانوا يسمّرون نعشي. وكان يشعر بعينيه جافّتين مؤلمتين، وقد استيقظ منتفضًا، في الساعة الثالثة صباحًا، بعد حلم مزعج، أو ما يشبه الحلم. على أيّ حال: كان باقيًا في «بيرك»، الشاطئ، المستشفيات، العيادات، كلّ شيء كان خاليًا: ليس من مرضى بعد، ولا ممرّضات، وإنّما نوافذ سوداء وقاعات مقفرة، والرمل الرماديّ العاري على مدى النظر. ولكنّ ذلك الفراغ لم يكن مجرّد فراغ، فإنّ هذا لا يُرى إلّا في الأحلام. كان الحلم مستمرًّا، وعيناه مفتوحتان على

سعتهما، وكان الحلم مع ذلك مستمرًّا: لقد كان فوق محمله في وسط غرفته، ومع ذلك فإنّ غرفته كانت خالية، لم يكن لها بعد أسفل ولا أعلى، ولا يمين ولا شمال. كان باقيًا أربعة حواجز، أربعة حواجز فقط تتصادم على زاوية مستقيمة، وشيء من الريح البحريّة بين أربعة جدران. كنّ يسحبن في الممرّ شيئًا ثقيلاً خشنًا، لا شكّ في أنّه صندوق كبير لرجل غنيّ. وصاح:

ـ هي هو! هي هو!

وفُتح الباب، فدخلت السيِّدة لويز، وقال: ـ أخيرًا!

قالت السيِّدة لويز: ـ آه! دقيقة! إنّ عندنا مئة مريض يجب إلباسهم. فلكلٍّ دوره.

ـ أين جاكلين؟

ـ أتظنّ أنّ لديها الوقت للانشغال بك؟ إنّها تُلبس فتيات «بوتيه» الصغيرات.

قال شارل: أعطيني المبولة بسرعة! بسرعة!

ـ ماذا يحدث لك؟ ليست هذه ساعتك!

قال شارل: ـ أشعر بضيق. لا بدّ أنّ هذا هو السبب.

ـ صحيح، ولكن عليّ قبل ذلك أن أهيِّئك، على الجميع أن يكونوا مستعدِّين عند الساعة الحادية عشرة. مهما يكن من أمر، لا بدّ من أن تعجِّل.

حلّت رباط منامته، وشدّت على بنطلونه، ثم رفعته من جنبيه ودسّت المبولة تحته. كان الخزف باردًا وقاسيًا، وفكّر شارل في ضجر: «إنّ معي إسهالاً».

ـ ما الذي سأفعله إذا جاءني الإسهال في القطار؟

ـ لا تهتمّ لذلك. لقد احتطنا لكلّ شيء.

كانت تنظر إليه وهي تداعب سلسلة مفاتيحها. وقالت له: ـ سيكون الطقس جميلاً لذهابكم.

فأخذت شفتا شارل ترتجفان، وقال: ـ لم أكن أودّ أن أذهب.

قالت السيِّدة لويز: ـ عجبًا! عجبًا! هيّا! هل انتهيت؟

وبذل شارل جهدًا أخيرًا.

وفتّشت في جيب مريولها، فأخرجت منه غطاء من ورق ومقصًّا، وقصّت الورق إلى ثماني قطع، وقالت: ـ انهض قليلاً.

وسمع صوت دعك الورق، وأحسّ بحكّ الورق، وقال: ـ أوف!

قالت: حسنًا! استلق على بطنك، بينما أضع المبولة، سأنتهي من مسحك.

فاستلقى على بطنه، وسمعها تمشي في الغرفة، ثم أحسّ بملامسة أصابعها الصِّناع. وكانت تلك هي اللحظة التي يفضِّلها. شيء. شيء مسكين صغير مهجور. وصَلُب قضيبه تحته، فلامس به الغطاء الرطب.

وقلبته السيِّدة لويز كأنّه علبة، ونظرت إلى بطنه، فأخذت تضحك:

ـ آه! يا لك من مزّاح! هيّا! سنتحسّر عليك يا سيِّد شارل، لقد كنت ناشرًا حقيقيًّا للمرح والفرح!

وردّت الغطاء ونزعت منامته، وقالت له وهي تدلِّكه:

ـ بعض ماء الكولونيا على الوجه. ستكون التواليت اليوم مقتضبة. ارفع ذراعيك. حسنًا. القميص. السروال الآن. لا تتلوَّ هكذا، فلن أستطيع أن ألبسك جوربك.

وتراجعت لتحكم على صنيعها، وقالت في رضى:

ـ ها أنت ذا نظيف كالفلس.

وسأل شارل بصوت معتكر: ـ أتكون الرحلة طويلة؟

فقالت له وهي تلبسه معطفه: ـ على الأرجح.

ـ وأين نذهب؟

ـ لا أدري. أعتقد أنّكم ستتوقّفون أوّلاً في ديجون.

ونظرت حولها، وقالت: ـ أنظر لأرى إذا نسيت شيئًا. آه! طبعًا، وفنجانك، فنجانك الأزرق! إنّك حريص عليه كلّ الحرص.

وتناولته من على الرفّ وانحنت فوق الحقيبة. كان فنجانًا من الخزف الأزرق ذا فراشات حمراء. وكان جميلاً جدًّا.

ـ سأضعه بين القمصان حتى لا ينكسر.

قال شارل: ـ إعطيني إيّاه.

نظرت إليه بدهشة ومدّت له الفنجان. فأخذه، واستقام على مرفقه ثم قذفه على الجدار. فصاحت السيِّدة لويز غاضبة:

ـ مخرِّب! كان يجب أن تعطيني إيّاه إذا كنت لا تريد أن تأخذه.

قال شارل: ـ لم أرد أن أعطيه ولا أن آخذه.

فهزّت كتفيها، واتّجهت إلى الباب ففتحته على مصراعيه. وسألها:

ـ إذن، سنذهب؟

قالت: ـ نعم. أنت لا تريد أن تفوِّت القطار؟

قال شارل: ـ بهذه السرعة؟ بهذه السرعة؟

وعادت تقف خلفه؛ ودفعت المحمل؛ ومدّ يده ليلمس الطاولة في طريقه، ورأى لِلحظة النافذة وطرفًا من الجدار عبر المرآة المثبّتة فوق رأسه، ثم لم يرَ بعد ذلك شيئًا، كان في الممرّ، خلف حوالى أربعين عربة مصطفّة على طول الجدار؛ وخُيِّل إليه أنّ قلبه كان يُلوى.

وبدأ موكب الموت يمشي. وقالت السيِّدة بونوتان: «ها هم أولاء يذهبون. ولكن عجبًا! ليس هناك كثيرون يصحبونه إلى مقرّه الأخير». كانوا يتقدّمون ببطء، وقفة بعد كلّ دورة عجلة، وكانت الحفرة المظلمة في النهاية، وكنّ يدفعن إليها المحامل اثنين اثنين؛ ولكن لم يكن ثمّة إلّا مصعد

واحد، وكان هذا يقتضي وقتًا. وقال شارل: ـ ما أطول الزمن!

قالت السيِّدة لويز: ـ لن يذهبوا بدونك.

كانت مركبة الموتى تمرّ تحت النافذة؛ السيِّدة القصيرة المرتدية السواد، لا بدّ أنّها من الأسرة، وكانت البوّابة قد أغلقت غرفتها بالمفتاح، وراحت تتبع الممرِّضة، إلى جانب امرأة قويّة ترتدي ثوبًا رماديًّا مع قبّعة زرقاء. وارتفق السيِّد بونوتان الشرفة بالقرب من زوجته، وقال: «الأب فيغييه، كان أخا ثلاث نقاط». ـ «وما يدريك؟» ـ فقال بلهجة مزهوّة: ـ «ها! ها!» ثم أضاف بعد لحظة: «كان يرسم لي مثلّثات على باطن كفّي، بإبهامه، حين كان يشدّ على يدي». وصعدت إلى صدغيّ السيِّدة بونوتان موجة من الغضب، لأنّ زوجها كان يتحدّث بمثل هذا الاستخفاف عن ميِّت. وتابعت الدفن بنظرها، وفكّرت: «يا للرجل المسكين!» كان متمدِّدًا هناك، بطوله، على ظهره، وكانوا يحملونه نحو الحفرة، وقدماه أمامه. يا للرجل المسكين، إنّ من المحزن أن لا يكون للإنسان أسرة. ورسمت إشارة الصليب. بطوله كانوا يدفعونه نحو الحفرة المظلمة، سيشعر بالمصعد يفرّ من تحته. وسأل:

ـ من يصحبنا؟

فقالت السيِّدة لويز: ـ لا أحد من عندنا. لقد عيّنوا الممرِّضات الثلاث التابعات للمقصورة النورمانديّة، بالإضافة إلى جورجيت فوكيه، السمراء الطويلة التي تعرفها بكلّ تأكيد. وهي تعمل في عيادة الدكتور روبرتال.

قال شارل، بينما كانت تدفعه بهدوء نحو الحفرة: ـ آه، لقد تذكّرتها. سمراء ذات ساقين جميلتين. إنّها لا تبدو دمثة الأخلاق.

وكان قد لاحظها غالبًا على الشاطئ، وهي تراقب جماعة من الكسحى الصغار وتوزِّع الصفقات بالعدل؛ وكان لها ساقان عاريتان،

وتنتعل حذاء مطّاطًا. ساقان جميلتان عصبيّتان مُشعرتان، وكان قد حدّث نفسه بأنّه يودّ لو تعتني هي بصحّته. سينزلونه في الحفرة بالحبال، ولن ينحني أحد فوقه، إلّا هذه المرأة القصيرة التي لا تبدو بمظهر مناسب، فما أحزن أن يموت الإنسان هكذا! ودفعته السيِّدة لويز إلى القفص، وكان قد صُفّ فيه محمل، في الظلّ، لصق الجدار. وسأل شارل وهو يغمز بعينيه:
ـ من هناك؟

فقال صوت: ـ أنا بتروس.

قال شارل: ـ آه، أيّها الإست العجوز! إنّنا إذن ننتقل؟

فلم يجب بتروس؛ وحدثت صدمة صغيرة، فخُيّل لشارل أنّه كان يعوم على ارتفاع بضعة سنتمترات فوق محمله؛ كانوا ينغمرون في الحفرة، وكانت أرض الطابق الثالث قد أصبحت فوق رأسه، فكان يترك حياته من تحت، من ثقب بلُوعة. وقال في نشيج مقتضب:

ـ ولكن أين هي؟ أين جاكلين؟

فلم يبد على السيِّدة لويز أنّها تسمع، وابتلع شارل دموعه بسبب بتروس. وكان فيليب يمشي. ولم يكن يستطيع بعد أن يتوقّف، فإذا كفّ عن السير، أُغمي عليه؛ وكان غرو ـ لويس يمشي، وكان قد جُرح برجله اليسرى. ومرّ سيِّدٌ في الشارع المقفر، رجل سمين قصير ذو شارب وقبّعة من قشّ، فمدّ غرو ـ لويس يده وقال له:

ـ قل لي، هل تعرف القراءة؟

فوثب السيِّد وثبة جانبيّة صغيرة وحثّ خطاه، فقال غرو ـ لويس:

ـ لا تهرب. فلن آكلك.

ووسّع السيِّد خطوته، فأخذ غرو ـ لويس يعرج خلفه، وهو يمدّ له الدفتر العسكري، وانتهى الأمر بالسيِّد إلى أن يركض وهو يطلق صرخة حيوان مفزع. وتوقّف غرو ـ لويس ونظر إليه يبتعد، وهو يحكّ رأسه فوق

ضمّاده: وكان السيِّد قد أصبح صغيرًا جدًّا ومستديرًا كالكرة، وقد تدحرج حتى منعطف شارع، ثم نطّ مرّة أخرى، واستدار واختفى. وقال غرو ـ لويس: ـ آه! هناك هناك! آه! هناك هناك!

قالت السيِّدة لويز: ـ يجب ألّا تبكي.

وكفكفت عينيه بمنديلها، إنّني لم أكن أتصوّر أنّي أبكي. واستشعر شيئًا من الحنان، كان لذيذًا أن يبكي المرء على نفسه:

ـ كنت كثير السعادة هنا.

قالت السيِّدة لويز: ـ ما كنت تبدو كذلك. بل كنت دائم الغضب من هذا أو ذاك.

وثنت حاجز المصعد ودفعته إلى الخارج. وتحامل شارل على مرفقيه، فرأى توتور والطفلة غافالدا. كانت غافالدا ممتقعة كالخرقة، وكان توتور قد اندسّ تحت غطائه وهو يغمض عينيه. كان رجالٌ ذوو قبّعات يمسكون بالعربات لدى خروجها من المصعد ويجتازون بها عتبة العيادة، ويختفون معها بالحديقة. واقترب رجل من شارل.

وقالت السيِّدة لويز: «هيّا، وداعًا وسفرًا سعيدًا». «أرسل لنا بطاقة صغيرة لدى وصولك. ولا تنسَ: إنّ الحقيبة الصغيرة مع أمتعة التواليت هي عند قدميك، تحت الغطاء».

كان الرجل ينحني فوق شارل، فصاح شارل: ـ ها! انتبه جيّدًا. من السهل أن يكون المرء شرسًا إذا لم يكن متعوِّدًا.

قال الرجل: ـ كفى، ليس من البراعة أن تتمّ قصّتك. لم أفعل في حياتي شيئًا غير أن أدفع الشياطين إلى محطّة دانكرك، والقاطرات إلى لنز، والعربات إلى إنزان.

وصمت شارل، كان خائفًا: إنّ الفتى الذي كان يدفع محمل الطفلة غالفالدا انعطف به على عجلتين اثنتين، فصدمه بالجدار. قالت جاكلين:

ـ انتظر! انتظر! أنا التي سوف أقوده إلى المحطّة.

وكانت تهبط السلّم وهي تعدو، وتلهث، فقالت:

ـ السيِّد شارل.

وكانت تنظر إليه في نشوة حزينة، وكان صدرها يرتفع بقوّة. تظاهرت بأنّها تسوّي غطاءه حتى تستطيع لمسه، كان ما يزال يملك شيئًا على الأرض، فحيث يكون سيملك بعدُ هذا: هذا القلب الكبير الحفيّ المقدّر الذي سيظلّ يخفق من أجله، في بيرك، في عيادة مقفرة. قال:

ـ لقد تخلّيت عنّي!

ـ أوه! يا سيِّد شارل، كان الوقت ينقصني، ولم أستطع، ولا بدّ أنّ السيِّدة لويز قد أخبرتك.

وكانت تدور حول المحمل، حزينة منهمكة، مستقرّة على ساقيها، وكان هو يرتجف من الحقد. كانت «واقفة» مع الواقفات، وكانت لها ذكريات عموديّة، وهو لن يبقى زمنًا طويلاً بمنجى، في هذا القلب، وقال بجفاء:

ـ هيّا، هيّا. لنعجِّل، قوديني.

قال صوت ضعيف: ـ ادخلي.

فدفعت مود الباب، فانقلبت حنجرتها لرائحة قيء تنبعث. كان بيار متمدِّدًا بطوله فوق السرير، وممتقعًا، وعيناه تأكلان له وجهه، ولكنّه كان يبدو هادئًا. وتراجعت قليلاً، ولكنّها جهدت في الدخول إلى الغرفة. وعلى كرسيّ، عند رأس بيار، كان ثمّة طست مليء بماء مزبد عكِر. وقال بيار بصوت متوازن:

ـ إنّني لا أقيء بعد إلّا البلغم. فقد أخرجت كلّ ما في معدتي منذ وقت طويل. أبعدي الطست واجلسي.

وحملت مود الطست، وهي تمسك أنفاسها ووضعته بالقرب من

المغسلة وجلست. كانت قد تركت الباب مفتوحًا لتهوّي الغرفة. وساد صمت، وكان بيار ينظر إليها في فضول مزعج، وقالت:

ـ لم أكن أعلم أنّك مريض، وإلّا لجئت قبل الآن.

فتحامل بيار على مرفقه وقال: ـ إنّني الآن أفضل قليلاً، ولكنّي ما زلت واهنًا جدًّا. وأنا لم أنقطع عن القيء منذ أمس. وربّما كان من الأفضل أن آكل شيئًا عند الظهر، فما رأيك؟ كنت أفكّر في أن تطلبي لي صدر دجاجة.

فقالت مود متضايقة: ـ لا أدري على الإطلاق. فأنت نفسك تشعر جيّدًا إن كنت جائعًا.

وكان بيار يحدِّق بالغطاء في هيئة قلقة، وقال:

ـ طبعًا، إنّ هذا يُثقل معدتي، ولكن يمكنه أيضًا أن يثبتها، ومن جهة أخرى، إذا أخذني الغثيان من جديد، فيجب أن يكون لديّ ما أقيئه.

فنظرت إليه مود في ذهول. كانت تفكّر: «كم نحتاج إلى وقت لمعرفة إنسان».

ـ سأقول للخادم إذن أن يأتيك بحساء من الخضار وقطعة صدر من الدجاجة.

وضحكت ضحكة مغتصبة، وأضافت:

ـ إذا فكّرت أن تأكل، فهذا يعني أنّك لست مريضًا.

وساد صمت. وكان بيار قد رفع عينيه، وراح يراقبها بمزيج مزعج من الاهتمام واللامبالاة.

ـ احكي لي إذن: إنّكنّ الآن في الدرجة الثانية؟

فسألته مود مستاءة: ـ من قال لك هذا؟

ـ روبي. لقد لقيتها أمس في الممرّات.

قالت مود: ـ أجل. نعم، نحن في الدرجة الثانية.

ـ كيف تدبّرتنّ الأمر؟

ـ لقد اقترحنا أن نقدّم حفلة موسيقيّة.

قال بيار: ـ آه! هكذا إذن!

ولم يكن يكفّ عن النظر إليها، ومدّ يديه على الغطاء، وقال باسترخاء:

ـ ثم إنّك نمت مع الربّان.

قالت مود: ـ ماذا تزعم؟

قال بيار: ـ لقد رأيتك خارجة من غرفته، فليس هناك مجال للانخداع.

كانت مود منزعجة. لم يكن لديها، على نحو ما، حساب تؤدّيه له: ولكن كان مناسبًا، من جهة أخرى، أن تخبره. وأخفضت عينيها وسعلت، وكانت تشعر بأنّها مذنبة، وهذا ما كان يردّ لها بعض الحنان تجاه بيار. وقالت: ـ اسمع، لو رفضت لما فهمت فرانس.

فقال صوت بيار الهادئ: ـ ولكن ما دخل فرانس في الأمر؟

فرفعت رأسها فجأة: كان يبتسم، وكان قد احتفظ بهيئة الفضول المسترخي. أحسّت بأنّها مهانة، وكانت تفضّل أن يصرخ. وقالت بجفاف: ـ إذا حرصت على أن تعرف، فاعرف أنّي حين أكون على ظهر باخرة، أنام مع الربّان، لتستطيع جوقة بابيس أن تقوم بالرحلة في الدرجة الثانية.. هكذا.

وانتظرت لحظة أن يحتجّ، ولكنّه لم ينبس بكلمة، وانحنت فوقه وأضافت بقوّة: ـ أنا لست قحبة.

ـ ومن الذي قال إنّك كنت قحبة؟ إنّك تفعلين ما تريدين أو ما تطيقين. وأنا لا أجد ذلك سيّئًا.

وخُيّل إليها أنّه يضربها بسوط ملأ وجهها، فنهضت فجأة وقالت: ـ

آه! إنّك لا تجد ذلك سيّئًا! إنّك لا تجد ذلك سيّئًا؟

ـ كلّا.

فقالت في اضطراب: ـ إذن أنت على خطأ. أنت على خطأ أكبر.

فسألها بيار بلهجة مرح: ـ أهذا إذن رديء؟

ـ آه! لا تحاول أن تخلط عليّ الأمور. كلّا، ليس هذا رديئًا: ولِمَ يكون رديئًا؟ من الذي يطالبني بأن أمتنع؟ ليسوا هم الأشخاص الذين يدورون حولي، طبعًا، ولا رفاقي الذين يفيدون منّي، ولا أمّي التي لا تكسب بعدُ شيئًا، والتي أرسل لها فلوسًا. ولكن عليك أنت أن تجد ذلك رديئًا، لأنّك عشيقي.

وكان بيار قد شبك يديه فوق غطائه؛ وكانت هيئته هيئة مريض خفيَّة هاربة، وقال بهدوء: ـ لا تصرخي. إنّ بي صداعًا.

فتمالكت نفسها ونظرت إليه ببرودة، وقالت بصوت منخفض:

ـ لا تخف، فلن أصرخ بعد. ولكنّي أحبّ مع ذلك أن أقول لك إنّ الأمور قد انتهت فيما بيننا، نحن الإثنين. لأنّه يثير اشمئزازي أن أنام مع هذا العجوز ذي الكرش الضخم، ولو كنت قد وبّختني أو رثيت لي، لحسبت أنّك متعلّق بي بعض الشيء، ولكان ذلك قد عزّاني قليلاً. ولكن إذا كان بوسعي أن أنام مع من أريد، من غير أن يؤثّر ذلك على أحد، حتى ولا عليك أنت، فهذا يعني أنّي كلبة جرباء، وأنّي بغيّ. حسنًا يا عزيزي، ولكنّ البغايا يركضن وراء زبائنهنّ، ولا حاجة بهنّ إلى أن يرتبكن بالمتسكّعين من نوعك!

فلم يجب بيار: كان قد أغمض عينيه، فدفعت كرسيّها بقدمها وخرجت، وهي تصفق الباب.

كان ينسرب، متحاملاً على مرفقه، بين مقاصير وعيادات ونزل: كان كلّ شيء فارغًا. وكانت المئة والاثنتان والعشرون نافذة في فندق «بران»

مفتوحة؛ وفي ممرّ مقصورة «مون ديزير» وفي حديقة مقصورة «أوازيس»، كان ثمّة مرضى ينتظرون، وهم مستلقون في توابيتهم، رافعي الرؤوس؛ وكانوا ينظرون في صمت صفّ المحامل؛ جمهور برمّته من المحامل كان يجري نحو المحطّة. ولم يكن ثمّة من يتكلّم، ولم يكن يُسمع إلّا أنين المحاور، وأصوات العجلات الصمّاء وهي تهبط من الرصيف إلى الطريق. كانت جاكلين تسير بسرعة؛ وتجاوزت المحامل عربة قديمة ضخمة يدفعها عجوز قصير كان يبكي، وتجاوزت زوزو الذي كانت أمّه تقوده إلى المحطّة، عرجاء مقصورة المحتاجين. وصاح شارل:

ـ هي، هو!

فانتفض زوزو، وتحامل قليلاً، فنظر إلى شارل بعينيه الفاتحتين الفارغتين، وقال وهو يتنهّد: ـ لسنا محظوظين!

وتداعى شارل للسقوط على ظهره؛ وكان يحسّ إلى يمينه وإلى يساره هؤلاء الحاضرين الأفقيين، عشرة آلاف عمليّة دفن صغيرة. وفتح عينيه ثانية، فرأى قطعة من السماء، ثم مئات من الناس، مطلّين من نوافذ «الغراندرو» وهم يلوّحون بمناديلهم. قذرون! القذرون! ليس هذا عيد ١٤ تمّوز! ودوَّم رفّ من زمّج الماء فوق رأسه وهو يتصايح، وتمخّطت جاكلين خلفه. كانت تبكي تحت غلالتها الحريريّة، وكانت الممرِّضة تحدِّق في الإكليل الوحيد الذي كان يرتجّ خلف مركبة الموتى، ولكنّها كانت تسمعها تبكي، ولا بدّ أنّها لم تكن متحسِّرة عليه كثيرًا، فقد انقضى أكثر من عشرة أعوام دون أن تراه، ولكنّها كانت تحتفظ دائمًا، في ناحية ما من أعماقها، بحزن خجول غير مرتو ينتظر بتواضع دفن شخص ما، أو مناولة أولى، أو زواجًا، لتحصل أخيرًا على الدموع التي لم تجرؤ قطّ على المطالبة بها؛ وفكّرت الممرِّضة بأمّها الكسيحة، وبالحرب، وبابن أختها الذي سيرحل، وبوضع الممرِّضة القاسي، فأخذت تبكي أيضًا، كانت مسرورة. وكانت المرأة القصيرة تبكي، وخلفهما كانت البوّابة قد بدأت تبكي.. يا للعجوز

المسكين، قليلون جدًّا هم الذين يصحبونه، فليظهروا على الأقلّ بمظهر الحزن؛ كانت جاكلين تبكي وهي تدفع المحمل، وكان فيليب يمشي، سوف يغمى عليّ، وكان غرو ـ لويس يمشي، الحرب، المرض، الموت، الرحيل، البؤس؛ كان اليوم يوم أحد، وكان موريس يغنّي أمام نافذة حافلته، ودخلت مارسيل إلى حانوت الحلويات لتشتري حلوى بالزبدة.

قالت جاكلين: ـ إنّك لا تتكلّم قطّ. كنت أظنّ أنّك ستجد بعض المشقّة في تَركي.

وكانا قد سلكا طريق المحطّة، فسألها شارل:

ـ ألا تجدين أنّي لست متضايقًا بما فيه الكفاية في وضعي هذا؟ إنّهم يرزمونني، ويحملونني لا أدري إلى أين، من غير أن يسألوني رأيي، وتريدين فوق هذا أن أتحسّر عليك؟

ـ أنت لا قلب لك.

فقال في جفاء: ـ كَفى. أودّ لو كنتِ مكاني، إذن لرأينا ما الذي تفعلينه بقلبك.

فلم تجب، ورأى سقفًا مظلمًا فوق رأسه، فقالت جاكلين:

ـ لقد وصلنا.

بمن أستنجد؟ من الذي أبتهل إليه حتى لا يأخذونني؟ إنّني أفعل كلّ ما يريدون شريطة أن يتركوني هنا، إنَّها تعتني بي وتنزّهني، وفي المساء تعمل لي مداعبتي الصغيرة... وقال لها:

ـ آه! أحسّ أنّي سأموت في أثناء هذه الرحلة.

فقالت جاكلين، وقد استطار لبّها: ـ ولكنّك مجنون. أنت مجنون تمامًا، فكيف تستطيع أن تنطق بمثل هذه الأشياء؟

وطافت حول المحمل ثم مالت عليه، فأحسَّ نَفَسَها الحارّ. وقال وهو يضحك لها: ـ هيّا! هيّا! بلا مظاهرات. فلستِ أنتِ التي ستصابين

بالمضايقات، إذا متّ. وإنّما هي السمراء الجميلة! تعرفينها، ممرّضة الدكتور روبرتال.

فاستقامت جاكلين فجأة، وقالت:

ـ إنّها جَمَل. وأنت لا تستطيع أن تتصوّر جميع القصص التي صنعتها مع لوسيان. (وأضافت متمتمة بين أسنانها المنقبضة) آه! سترى حالك معها، ولا حاجة بك إلى أن تدبّل لها عينيك، فهي أقلّ بلاهة منّي.

واستقام شارل، ونظر حوله في قلق. كان ثمّة أكثر من مئتي محمل مصفوفة في الباحة. وكان الحمّالون يدفعونها إلى المحطّة، واحدًا بعد الآخر. وتمتم بين أسنانه: ـ لا أريد أن أذهب.

ونظرت إليه جاكلين نظرة شاردة، وقالت له فجأة:

ـ وداعًا. وداعًا يا لعبتي.. يا لعبتي العزيزة.

وأراد أن يجيب، ولكنّ المحمل كان قد اندفع. وانتابته رعشة من قدميه إلى رقبته، فارتدّ رأسه إلى خلف، فرأى وجهًا محمرًّا منحنيًا فوق رأسه، وصاحت جاكلين: ـ اكتب لي، اكتب لي.

وكان قد أصبح على المحطّة، في خليط من صرخات الوداع وطلقات الصفّارة.

وسأل في ضيق: ـ أليس... أليس هذا القطار؟

فقال الموظّف في سخرية: ـ كلّا! وما الذي تحتاجه إذن؟ قطار الشرق السريع؟

ـ ولكن هذه حافلات لنقل البضائع؟

فبصق الموظّف بين قدميه، وقال موضحًا: ـ إنّكم لن تتماسكوا جيّدًا في قطار للمسافرين. فيجب نزع المقاعد، أنت تفهم الوضع؟

كان الحمّالون يأخذون المحامل من أطرافها، فيفصلونها عن عرباتها ويحملونها إلى الحافلات. وفي الحافلات، كان موظّفون ذوو قبّعات

ينحنون ويلتقطون المحامل كما يطيقون، ويحملونها في الظلام. ومرّ صموئيل الجميل، دون جوان «بيرك»، الذي كان يملك ثماني عشرة بذلة، مرّ بالقرب من شارل، بين ذراعي حمّالَيْن، واختفى في العربة، وساقاه في الهواء.

قال شارل في غيظ: ـ هناك، على كلّ حال، قطارات صحّيّة.

ـ آه! إنّني أصدِّقك! كأنّهم، ونحن في عشيّة الحرب، سيرسلون قطارات صحّيّة إلى «بيرك» لتلمّ المشلولين.

وأراد شارل أن يجيب، ولكن محمله تأرجح فجأة، وحُمل في الهواء ورأسه في الأسفل، وصاح:

ـ احملوني كما يجب! احملوني كما يجب!

فأخذ الحمّالون يضحكون، واقترب الثقب الفارغ، وكبُر، ومدّوا في الحبل، فسقط التابوت على الأرض الرطبة بضجّة مائعة. وانحنت الممرِّضة والبوّابة فوق حافّة الحفرة، وأخذتا تبكيان بلا تحفّظ.

قال بوريس: ـ أنتِ ترين، أنتِ ترين: إنّهم يقطّعون بعضهم بعضًا.

كانا جالسيْن في باحة الفندق، بالقرب من رجل يحمل الأوسمة ويقرأ في الجريدة. وأنزل الحمّال حقيبتين من جلد الخنزير، ووضعهما قرب المدخل، بالقرب من الحقائب الأخرى. وقال بصوت محايد:

ـ خمسة رحلوا هذا الصباح.

قال بوريس: ـ انظري إلى هذه الحقائب، إنّها من جلد الخنزير. (وأضاف بقسوة) وهؤلاء الناس لا يستحقّونها.

ـ ولماذا يا جميلي؟

ـ كان يجب أن تكون مغطّاة بالبطاقات.

قالت لولا: ـ وإذن؟ إنّنا لن نرى بعدُ جلد الخنزير.

ـ تمامًا. يجب على المترَف الحقيقيّ أن يخفي نفسه، ثم إنّهم

سيستعملونها كمفارش. ولو كان لديّ أنا إحداها، لما كنت هنا.

ـ أين كنت تكون؟

ـ في أيّ مكان.. في المكسيك أو الصين (وأضاف: معك).

واجتازت الباحة امرأة طويلة ترتدي قبّعة سوداء، وكانت تصرخ باحتداد: ـ مارييت! مارييت!

قالت لولا: ـ إنّها السيِّدة دولاريف. وهي راحلة بعد ظهر اليوم.

قال بوريس: ـ سنبقى وحدنا في الفندق، وسيكون هذا طريفًا: فسنغيّر غرفتنا كلّ مساء.

قالت لولا: ـ أمس في الكازينو، كانوا عشرة فقط يستمعون إليّ، فلم أعد أُحطِّم نفسي. وقد طلبت أن يجمعوهم معًا، على طاولات الوسط، وأنا أهمس لهم أغانيّ في آذانهم.

ونهض بوريس لينظر إلى الحقائب عن كثب. جسَّها بالخفية، ثم عاد بالقرب من لولا، وسألها فيما يجلس:

ـ لماذا هم ذاهبون؟ إنّهم هنا سيكونون في وضع آمنٍ كذلك، وقد يحدث أن تُقصف منازلهم في اليوم التالي من عودتهم.

قالت لولا: ـ هذا صحيح، ولكن ذلك منزلهم، ألا تفهم ذلك؟

ـ لا.

قالت: ـ هكذا. إنّ الناس إذا بلغوا سنًّا معيّنة، أخذوا ينتظرون المضايقات في بيوتهم!

فأخذ بوريس يضحك، واستقامت لولا في قلق، وكانت قد احتفظت بذلك منذ القديم: كان إذا ضحك ظنّت دائمًا أنّه يهزأ بها.

ـ لماذا تضحك؟

ـ لأنّي أجدك شجاعة. أنتِ هنا تشرحين لي ما يشعر به الناس إذا بلغوا سنًّا معيّنة. ولكنّك لا تفهمين من ذلك شيئًا يا عزيزتي لولا: فأنتِ لم

تسكني منزلاً قطّ.

قالت لولا بحزن: ـ هذا صحيح.

فتناول بوريس يدها وقبّل باطن كفِّها، فاحمرّت لولا.

ـ كم أنت لطيف معي! أؤكِّد لك أنّك لست بعد بوريس الذي أعرفه.

ـ اشتكي إذن!

فشدّت لولا يده في قوّة.

ـ أنا لا أشتكي، ولكنّي أودّ أن أعرف لماذا أنت لطيف إلى هذا الحدّ.

قال: ـ ذلك أنّي أتقدّم في السنّ.

وكانت قد تركت يده، وتبتسم وهي مستلقية في الأريكة. وكان مسرورًا أن يجدها سعيدة، فقد كان يريد أن يترك لها ذكرى طيّبة. ولامس يدها وفكّر. عام! وليس أمامي بعد إلّا عام واحد أقضيه معها، وأستشعر الحنان. لقد بدأت قصّتهما تحمل سحر الماضي. كان من قبل يعاملها بقسوة، ولكن ذلك كان يُعزى إلى أنّهما كانا على تعاقد غير محدود. وكان ذلك يزعجه، فهو يحبّ كثيرًا التعهّدات ذات المدّة المحدودة. عام! وسيمنحها كلّ السعادة التي كانت تستحقّها، وسيصلح كلّ أخطائه، ثم يتركها، ولكن لا بصورة غادرة، وليس من أجل امرأة أخرى، أو لأنّه شبع منها. إنّ ذلك سيتمّ من تلقاء نفسه، بقوّة الأشياء، لأنّه سيكون بالغًا، وسيرسلونه إلى الجبهة. ونظر إليها من زاوية عينه. كانت تبدو شابّة، وكان صدرها الجميل يرتفع من النشوة، وفكّر في كآبة. «وهكذا سأكون رجل امرأة واحدة». مجنَّد في عام ٤٠، مقتول عام ٤١، لا بل ٤٢، لأنّه كان ينبغي أن يُتاح له الوقت لينهي دراسته، وهكذا سيعرف امرأة واحدة في اثنين وعشرين عامًا. منذ ثلاثة أشهر، كان ما يزال يحلم أن يضاجع نساء من الطبقة الراقية! ذلك أنّي كنت طفلاً، بهذا فكّر من غير ما تسامح. سوف

يموت من غير أن يكون قد عرف الدوقات، ولكنّه لن يتحسّر على شيء. فسوف يمكنه، على نحو ما، في الأشهر القادمة، أن يجمع ثروات طيّبة، ولكنّه لم يكن حريصًا على ذلك أكثر ممّا ينبغي. فإنّني سأتوزّع بهذا الشكل. إن من ليس أمامه إلّا عامان يعيشهما، خير له أن يتركّز برصانة. لقد سبق لجول رونار أن قال لابنه: «لا تدرس إلّا امرأة واحدة، ولكن ادرسها جيّدًا، وسوف تعرف المرأة». كان ينبغي أن يدرس لولا بعناية، في المطعم، وفي الشارع، وفي السرير. وأمرّ إصبعه على معصم لولا، وفكّر: إنّني لا أعرفها بعد كما ينبغي. كان في جسمها زوايا يجهلها، ولم يكن يعرف دائمًا ما كان يمرّ في رأسها. ولكنْ، كان أمامه عام واحد، وسوف يبدأ في التعرّف عليها حالاً. وأدار رأسه نحوها وتأمّلها بانتباه، فسألته لولا:

ـ لماذا تنظر إليّ؟

قال بوريس: ـ إنّني أدرسك.

ـ لا أحبّ أن تنظر إليّ أكثر ممّا ينبغي، فأنا أخشى دائمًا أن تجدني عجوزًا.

فبسم لها بوريس: ـ إنّها تظلّ حذرة، وهي لم تكن تألف سعادتها، وقال لها: ـ لا تخشي شيئًا.

وحيّتهما أرملةٌ بجفاء، وتداعت للسقوط على أريكة بالقرب من حامل الأوسمة.

وقال لها الرجل: ـ اسمعي يا سيِّدتي العزيزة. إنّ هتلر سيلقي خطابًا.

فسألت الأرملة: ـ أوه، متى؟

ـ سيخطب غدًا مساء، في ساحة الرياضة.

قالت وهي ترتعش: ـ بررررر. إذن سآوي إلى فراشي باكرًا، وسأضع رأسي تحت الغطاء، فأنا لا أريد أن أسمعه. أتصوّر أنّه ليس لديه شيء لطيف يقوله لنا.

قال الرجل: ـ هذا ما أخشاه جدًّا.

وساد صمت، ثم استطرد:

ـ اسمعي. لقد ارتكبنا غلطتنا الكبيرة عام ٣٦، في فترة تنظيم المنطقة الرينانيّة تنظيمًا عسكريًّا. كان ينبغي أن نرسل عشر فرق إلى هناك. فلو كشفنا عن نواجذنا، لنفّذ الضبّاط الألمان أمر التراجع الذي كان في جيوبهم. ولكن «سارو» كان ينتظر رضى «الجبهة الشعبيّة»، وكانت «الجبهة الشعبيّة» تفضّل أن تعطي سلاحنا للشيوعيّين الإسبان.

فقالت الأرملة ملاحظة:

ـ ولكن إنكلترا ما كانت لتحذو حذونا.

فردّد الرجل، فاقد الصبر: ـ ما كانت لتحذو حذونا! ما كانت لتحذو حذونا! حسنًا، إنّي أريد أن أطرح عليك سؤالاً يا سيّدتي. أتعلمين ما كان سيفعله هتلر، لو لجأ «سارو» إلى التعبئة؟

قالت الأرملة: ـ لا أدري.

ـ كان سينـ ـ تـ ـ حر، يا سيّدتي. إنّي أعرف ذلك من مصدر موثوق. فأنا أعرف ضابطًا من المكتب الثاني، منذ عشرين عامًا.

وهزّت الأرملة رأسها بحزن، وقالت: ـ كم من فرصٍ ضائعة!

ـ ومن هو المسؤول، يا سيّدتي؟

قالت: ـ آه!

قال الرجل: ـ أجل! أجل! هذه هي نتيجة التصويت الأحمر. إنّ الفرنسيّ غير قابل للإصلاح. إنّ الحرب على أبوابه، وهو يطالب بعطل مدفوعة الأجرة.

ورفعت الأرملة أنفها: كان يبدو عليها مظهر قلق حقيقي.

ـ أنت تعتقد إذن أنّ الحرب واقعة؟

وقال الرجل مشدوهًا: ـ الحرب! آه، لا نتعجّل الأمور. لا، إنّ

دلاديه ليس طفلاً. فهو سيقوم حتمًا بالتنازلات الضروريّة. ولكنّنا سنجابه أصعب المصاعب.

قالت لولا بين أسنانها: ـ قذرون!

فابتسم لها بوريس في ودّ. كانت قضيّة تشيكوسلوڤاكيا في نظرها بسيطة جدًّا. بلدٌ صغير قد هوجم، فعلى فرنسا أن تدافع عنه. كانت ساذجة ومضحكة بعض الشيء، في السياسة، ولكنّها كانت كريمة. وقالت:

ـ تعال لنتغدّى. إنّهما يثيران أعصابي.

ونهضت، فنظر إلى خاصرتيها الجميلتين القويّتين، وفكّر في «المرأة». كانت «المرأة»، «المرأة كلّها» هي التي سيمتلكها الليلة. وأحسّ بأنّ شهوة طاغية تحرّ أذنيه.

خلف ظهره، المحطّة ـ وغوميز، في القطار، قدماه على المقعد الطويل. كان قد فاجأ التوديعات. «إنّني لا أحبّ العناق والقبل على المحطّة». وكانت تهبط الدرج العظيم، والقطار لا يزال في المحطّة، وكان غوميز يقرأ وهو يدخّن، وقدماه على المقعد الطويل، كان ينتعل حذاء جميلاً جديدًا من جلد البقر. وقد رأت الحذاء على قماش المقعد الرماديّ؛ كان في الدرجة الأولى، فالحرب تُثري. وفكّرت: إنّي أكرهه. كانت جافّة وفارغة. ورأت فترة أخرى البحر المشرق والمرفأ والبواخر، ثم لا شيء بعد. فنادق مظلمة، سقوف وقطارات.

ـ لا تنزل بهذه السرعة يا بابلو، فسوف تسقط!

فظلّ الصغير على الدرجة، وقدمه في الهواء. سيرى ماتيو. كان بإمكانه أن يبقى يومًا آخر معي، ولكنّه فضّل عليّ ماتيو. كانت يداها محرقتين. ما دام هنا، فإنّه العذاب. أمّا وقد ذهب الآن، فلست أدري أين أذهب بعد!

ونظر إليها بابلو الصغير برصانة، وسأل:

ـ هل ذهب بابا؟

كان ثمّة ساعة، قبالتهما، تشير إلى الواحدة والخامسة والثلاثين. كان القطار قد سار منذ سبع دقائق. قالت سارة:

ـ نعم، لقد ذهب.

قال بابلو، وعيناه ملتمعتان: ـ هل سيقاتل؟

فقالت سارة: ـ لا، وإنّما ذهب يرى صديقًا له.

ـ نعم، وبعد ذلك، هل يقاتل؟

قالت سارة: ـ بعد ذلك، سيذهب لقتال الآخرين.

وكان بابلو قد وقف على الدرجة قبل الأخيرة، فثنى ركبتيه وقفز مضموم القدمين إلى الرصيف؛ ثم التفت ينظر إلى أمّه وهو يبسم لها في زهو. وفكّرت: «مهرِّج»، والتفتت من غير أن تبسم له، وأجالت نظرها في الدرج العظيم. كانت القطارات تجري وتقف ثم تنطلق من فوق رأسها. وكان قطار غوميز يتّجه نحو الشرق، بين كثبان طبشوريّة، أو ربّما بين بيوت. وكانت المحطّة مقفرة، فوق رأسها، فقّاعة رماديّة كبيرة، ملأى بالشمس والدخان، رائحة خمر وسناج، وكانت الخطوط الحديديّة تلتمع. وخفضت رأسها، ولم يكن يروق لها أن تفكّر بهذه المحطّة المهجورة فوق، في حرارة الأصيل البيضاء.. ففي نيسان ٣، كان قد سافر، في هذا القطار نفسه، وكان يرتدي بذلة من التويد الرماديّ، وكانت الآنسة سمبسون تنتظره في «كان»، كانا قد أمضيا خمسة عشر يومًا في «سان ريمو». وفكّرت: إنّني ما زلت أفضِّل ذلك العهد. ولامست يدها قبضة صغيرة متلمّسة، ففتحت يدها وحبست فيها معصم بابلو. وخفضت عينيها ونظرت إليه. كان يرتدي قميصًا ذا ياقة بحريّة وقبّعة من القماش. سألها بابلو:

ـ لماذا تنظرين إليّ هكذا؟

أدارت سارة رأسها، ونظرت إلى الطريق. كانت مذعورة بأن تحسّ

نفسها قاسية إلى هذا الحدّ. وفكّرت: ليس هو إلّا صبيًّا. أجل، ليس هو إلّا صبيًّا! ونظرت إليه من جديد وهيَ تحاول أن تبتسم له، ولكنّها لم تنجح في ذلك، كان فكّاها منقبضين، وكان فمها من خشب. وأخذت شفتا الصغير ترتجفان، فأدركت أنّه يوشك أن يبكي، فجذبته فجأة وأخذت تمشي بخطى كبيرة. نسي الصغير دموعه، في دهشة، وكان يكردح إلى قربها.

ـ أين نذهب يا ماما؟

قالت سارة: ـ لا أدري.

وسلكت الشارع الأوّل إلى يمينها. كان شارعًا مقفرًا، وكانت جميع الحوانيت مقفلة. حثّت خطاها وانعطفت في شارع إلى اليسار، بين بيوت مرتفعة، مظلمة وقذرة. والشوارع ما تزال مقفرة. قال بابلو:

ـ إنّك تجعلينني أركض.

وشدّت سارة يده من غير أن تجيب وجرّته، فسلكا شارعًا طويلاً مستقيمًا، شارعًا يمرُّ فيه الترام. ولم يكن يُرى فيه سيّارات ولا ترام، لا شيء إلّا ستائر حديديّة مسدلة، ثم الخطوط الحديديّة التي كانت تنسرب نحو المرفأ. وفكّرت بأنّ اليوم كان يوم أحد، فانقبض قلبها. وضغطت بعنف على معصم بابلو. وأنّ بابلو:

ـ ماما! أوه، يا ماما!

وكان قد أخذ يعدو للّحاق بها، ولم يكن يبكي، ولكن كان أبيض ممتقعًا، وتحت عينيه هالات كابية، وكان يرفع نحوها وجهًا مندهشًا متحدّيًا. توقّفت سارة في الطريق، وقد بلّلت الدموع وجنتيها، فقالت:

ـ يا للطفل المسكين! يا للصغير المسكين البريء!

أَقْعَتْ بالقرب منه. ماذا يهمّها ما عساه يكون فيما بعد؟ لقد كان الآن هنا، بريئًا، بشعًا غير مؤذ مع ظلّ صغير عند قدميه، يبدو وحيدًا في العالم،

وفي عينيه هذا الاندهاش كلّه، ومهما يكن من أمر، فليس هو الذي طلب أن يولد.

وسأل بابلو: ـ لماذا تبكين؟ ألأنّ البابا قد ذهب؟

فانقطعت دموع سارة على التوّ، وأخذتها الرغبة في الضحك. ولكنّ بابلو كان ينظر إليها مهمومًا. ونهضت فقالت وهي تدير رأسها: ـ نعم، نعم، لأنّ البابا قد ذهب.

وسأل: ـ هل نعود بعد قليل إلى البيت؟

فقالت: ـ هل تعبت؟ إنّنا ما نزال بعيدين عن البيت.. تعال، تعال، سنمشي على مهل.

ومشيا بضع خطوات ثم توقّف بابلو، ومدّ إصبعه، وقال في نشوة تكاد تكون مؤلمة: ـ أوه! انظري!

كان ذلك إعلانًا ملصقًا على باب دار للسينما زرقاء، فاقتربا. وكانت رائحة فرمول تنبعث من القاعة المظلمة الرطبة. وكان على الإعلان بعض رعاة البقر يلاحقون فارسًا مقنّعًا وهم يطلقون رصاص مسدّساتهم. طلقات ناريّة أيضًا، ومسدّسات أيضًا! كان ينظر لاهثًا، سيضع عمّا قليل قبّعته، وسيأخذ بندقيّته ويعدو في الغرفة، وهو يمثّل دور اللصّ المقنَّع. ولم تؤاتها الجرأة في أن تسحبه، واكتفت بأن أدارت رأسها. كانت قاطعة التذاكر تتروّح في غرفتها الزجاجيّة، وكانت امرأة سمينة سمراء، ذات لون ممتقع، وعينين من نار. وكان على الطاولة، خلف الزجاج، زهور في آنيّة، مثبّتة على الجدار بمسامير صغيرة، وصورةٌ لروبرت تايلر. خرج من القاعة رجل بين الشباب والكهولة، فاقترب من الصندوق وسأل عبر النافذة: ـ كم؟

قال: ـ الدخول ثلاثة وخمسون.

ـ هذا ما حسبته. وأمس سبعة وستّون. فيلم جميل كهذا، مع مطاردات!

قالت قاطعة التذاكر وهي تهزّ كتفيها: ـ الناس يبقون في بيوتهم.

وقف رجل آخر بالقرب من بابلو، ونظر إلى الإعلان وهو يلهث، ولكن لم يكن يبدو عليه أنّه يراه. كان شخصًا طويلاً شاحبًا ذا ثياب ممزّقة، وحول رأسه ضمّاد ملطّخ بالدم ووحل جافّ على خدّه ويديه. ولا بدّ أنّه كان قادمًا من بعيد. وأخذت سارة بابلو من يده، وقالت: ـ تعال.

وجهدت في أن تسير ببطء شديد بسبب الصغير، ولكنْ كانت لديها رغبة للركض، إذ كان يُخيّل إليها أنّ أحدًا ينظر إليها من خلف. أمامها كانت الخطوط الحديديّة تلتمع، والقطران يذوب تحت الشمس على مهل، والهواء يرتعش قليلاً، حول فانوس. ليس هو بعدُ الأحد نفسه. «الناس يبقون في بيوتهم». كانت ما تزال منذ لحظة تتخيّل خلف صفوف البيوت جادات فرحة غاصّة بالناس، الذين تنبعث منهم رائحة مسحوق الرزّ والتبغ الأشقر؛ كانت تمشي في شارع هادئ من شوارع الضاحية، يرافقها جمع كبير، قريب وغير مرئيّ. وكانت كلمة واحدة كافية لتقفر الطرق. إنّهم الآن يجرون نحو المرفأ، بيضًا، مقْفَريْن؛ وكان الهواء يرتعش بين الجدران العمياء. قال بابلو: ـ ماما. إنّ الرجل يتبعنا.

قالت سارة: ـ لا. إنّه يتنزّه مثلنا.

وانعطفت إلى اليسار، فإذا هو الطريق نفسه الذي لا ينتهي، ولم يكن ثمّة بعد إلّا طريق يتيه عبر مارسيليا. وكانت سارة في هذا الطريق، خارجة مع صبيّ، وكان جميع المارسيليين في الداخل. ثلاثة وخمسون مدخلاً. كانت تفكّر في غوميز، في ضحكة غوميز، بالطبع، جميع الفرنسيّين جبناء. ولماذا؟ إنّهم يبقون في بيوتهم، هذا طبيعيّ. إنّهم يخافون الحرب، وهم على حقّ في ذلك. لكنّها كانت مع ذلك مستاءة. ولاحظت أنّها قد حثّت خُطاها، فأرادت أن تبطئ سيرها، بسبب بابلو. ولكنّ الصغير جذبها إلى الأمام، وقال بصوت مختنق: ـ أسرعي، أسرعي، أوه! يا ماما.

قالت بجفاء: ـ ماذا هناك؟

ـ إنّه ما يزال خلفنا . . .

وأدارت سارة رأسها قليلاً فرأت المتشرِّد، كان يتبعهما، بدون ريب، وأخذ قلبها يخفق في صدرها. وقال بابلو: ـ لنركض!

وفكّرت بالضمّاد الدامي، فاستدارت فجأة على عقبيها. توقّف الشخص تمامًا، ورآهما قادمين بعينيه المُضبتين. كانت سارة خائفة، وكان الصغير قد تشبّث بها بكلتا يديه وهو يجرّها إلى خلف بكلّ قواه. «الناس يبقون في بيوتهم»، فمهما حاولت أن تنادي أو تصرخ طلبًا للنجدة، فلن يأتي أحد! ونظرت إلى المتشرِّد في عينيه، وسألته:

ـ هل أنت بحاجة إلى شيء؟

فبسم بسمة تثير الشفقة، وتلاشى خوف سارة. فسأل:

ـ هل تعرفين القراءة؟

ومدّ لها دفترًا قديمًا ممزَّقًا، فأخذته، وكان دفترًا عسكريًّا. وكان بابلو يحيط ساقيها بذراعيه، فتحسّ جسمه الصغير الحارّ. وقالت:

ـ ماذا تريد أن تعرف؟

قال الرجل وهو يشير بإصبعه إلى ورقة: ـ أريد أن أعرف ما هو مكتوب هنا.

كان يبدو عليه الطيبة، بالرّغم من عينه البنفسجيّة المنغلقة نصف انغلاقة. ونظرت إليه سارة لحظة، ثم نظرت إلى الورقة. وتمتم الرجل بتأثّر: ـ كم هي مصيبة، كم هي مصيبة ألّا يُحسن الإنسان القراءة!

قالت سارة: ـ إنّ معك ورقة بيضاء، فيجب أن تذهب إلى مونبلييه.

ومدّت له الدفتر، ولكنّه لم يأخذه على التوّ، بل سأل:

ـ صحيح أنّ الحرب ستقع؟

قالت سارة: ـ لا أدري.

وفكّرت، سوف يذهب. ثم فكّرت في غوميز، وسألت:

ـ من الذي عمل لك الضمّاد؟

فقال الرجل: ـ أنا نفسي.

وفتّشت سارة في حقيبتها، وكان معها دبابيس ومنديلان نظيفان. وقالت له بلهجة آمرة: ـ اجلس على الرصيف.

فجلس الرجل بمشقّة، وقال في ضحكة اعتذار:

ـ إنّ ساقيَّ مخدَّرتان.

ومزّقت سارة المنديلين. وكان غوميز يقرأ «الأومانيته» في الدرجة الأولى، وقدماه على المقعد الطويل. سوف يرى ماتيو ثم يذهب إلى تولوز ليستقلّ الطائرة إلى برشلونه. وحلّت الضمّاد الدامي ونزعته بشدّات قصيرة. وَأَنَّ الرجل قليلاً. وكان ثمّة قشرة سوداء لزجة تمتدّ وسط رأسه. بسطت سارة منديلاً لبابلو:

ـ اذهب فبلِّله من ماء النبع.

فركض الصغير وهو سعيد بالابتعاد. ورفع الرجل عينيه إلى سارة، وقال لها: ـ إنّني غير راغب في القتال.

فوضعت سارة يدها بلطف على كتفه. وكان بودِّها لو تطلب منه الصفح. وقال: ـ أنا راعٍ.

ـ وماذا تفعل في مرسيليا؟

فهزّ رأسه، وردّد: ـ لست راغبًا في القتال.

وكان بابلو قد عاد، فغسَّلت سارة الجرح كيفما اتّفق، ثم لفّت الضمّاد بخفّة، وقالت: ـ انهض.

فنهض، وكان ينظر إليها بعينيه المبهمتين.

ـ يجب إذن أن أذهب إلى مونبلييه؟

فبحثت في محفظتها وأخرجت منها ورقتين من ذوات المئة فرنك،

وقالت: ـ هذا من أجل رحلتك.

ولم يأخذها الرجل على التوّ: كان ينظر إليها في اهتمام. وقالت سارة بصوت منخفض سريع:

ـ خذ، خذ، ولا تقاتل، إن كان بوسعك أن تتجنّب ذلك.

فأخذ الورقتين، وشدّت سارة بقوّة على يده، وردّدت:

ـ لا تقاتل، افعل ما بدا لك، عد إلى بيتك، إختبئ، فكلّ شيء خير من القتال.

وكان ينظر إليها من غير أن يفهم؛ وتناولت يد بابلو، واستدارت ثم استعادا سيرهما. وبعد لحظة، التفتت: كان ينظر إلى الضمّاد والمنديل المبلَّل الذي كانت سارة قد ألقتهما على الطريق. وانتهى بأن انحنى، فلمّهما متلمِّسًا، ثم دسّهما في جيبه.

كانت قطرات العرق تتدحرج على جبينه حتى صدغيه، وتسيل على خدّيه من منخريه حتى أذنيه. وكان قد حسب أوّلاً أنّها هوام، فصفع وجهه، فإذا يده تسحق دموعًا دافئة. وقال رفيقه الجالس إلى يساره:

ـ أوف! ما أشدّ هذا الحرّ.

وعرف صوته، إنّه بلانشار، الوحش السمين. قال شارل:

ـ إنّهم يفعلون ذلك عمدًا. فهم يتركون الحافلات في الشمس طوال ساعات.

وساد صمت، ثم سأل بلانشار: ـ أهذا أنت يا شارل؟

قال شارل: ـ هذا أنا.

وكان يأسف لأنّه يتكلّم. كان بلانشار يحبّ المزاح كثيرًا، ويرشّ الناس بمسدّس مائي، أو يتدحرج عليهم، أو يعلّق رتيلاء من الورق المقوّى على أغطيتهم. قال بلانشار: ـ ما أكثر ما نلتقي!

ـ نعم.

ـ العالم صغير.

وتلقّى شارل دفعة ماء في وجهه، فمسح جفنيه وبصق، وكان بلانشار يقهقه.

قال شارل: ـ أيّ فرج أنت!

وسحب منديله ومسح عنقه، وهو يجهد في أن يضحك.

ـ إنّه مسدّسك المائيّ!

قال بلانشار وهو يضحك: ـ عظيم! لقد أصبتك، أليس كذلك؟ في وسط وجهك! لا تغضب. إنّ جيوبي ملأى بالحيل الصغيرة: وسوف نضحك كثيرًا في أثناء هذه الرحلة.

قال شارل في ضحكة سعيدة: ـ أيّ فرج! أيّ فرج! أيّ أزعر أنت!

كان بلانشار يخيفه: إن المحامل تتلامس، فإذا أراد أن يقرصني أو يلقي شَعْرًا يشوّك تحت غطائي، فليس له إلّا أن يمدّ يده. وفكّر: لا حظّ لي. يجب أن أبقى على حذر طوال الرحلة. وتنهّد، ولاحظ أنّه كان ينظر إلى السقف، كان جدارًا كبيرًا مظلمًا، مقنفذًا بالمسامير المثنّاة، وكان قد أدار مرآته نحو الخلف، فكانت سوداء كصفيحة من الزجاج المدخَّن. وتحامل شارل قليلاً، وألقى حوله نظرة. كانوا قد تركوا باب الممرّات مفتوحًا على مصراعيه، وكان نور أشقر يزبد في القاطرة، راكضًا على الأجسام المتمدِّدة، مجعِّدًا الأغطية، مصفِّرًا الوجوه. ولكنّ المنطقة المضاءة كانت محدَّدة تمامًا بإطار الباب، أمّا إلى اليمين واليسار، فكان الظلام شبه تامّ. يا للأردياء! لا بدّ أنّهم رشوا الحمّالين، وسوف يستمتعون بالهواء كلّه، وبالضياء كلّه، وإذا تحاملوا على مَرافقهم بين الفينة والفينة، رأوا شجرة خضراء تمرّ. واسترخى، مجهدًا، وكان قميصه مبلَّلاً. ليت بالإمكان أن نذهب على الأقلّ. ولكنّ القطار كان باقيًا هناك، مهجورًا، تكتنفه الشمس من كلّ جانب. وكانت رائحة غريبة ـ

قشّ عفن وعطر هوبيغان ـ تأسَّن على الأرض، وقد أَطال عنقه ليتجنّبها، لأنّها كانت تحفِّزه على التقيّؤ، ولكنّ العرق أغرقه، فاستسلم للأمر، وعاد مستنقع الرائحة يتشكّل فوق أنفه؛ وفي الخارج، كان ثمّة خطوط حديديّة، والشمس، وحافلات فارغة على طرق للمرائب ودوّامات من الغبار بيضاء: الصحراء. ثم أبعد من ذلك: كان الأحد. أحدٌ في «بيرك»: أطفال يلعبون على الشاطئ، وعائلات تتناول القهوة بالحليب في المقاهي. وفكّر: هذا طريف، هذا طريف. وارتفع صوت من طرف الحافلة الآخر:

ـ دنيس! هو، دنيس!

فلم يجب أحد.

ـ موريس، هل أنت هنا؟

وساد صمت، ثم ختم الصوت قائلاً: ـ القذرون!

قُطع الصمت. وأنَّ أحدهم بالقرب من شارل:

ـ ما أشدّ الحرّ!

فأجاب صوت ممتقع مخنّ، صوت مريض كبير:

ـ سيتحسّن الوضع عمّا قليل، حين ينطلق القطار.

وكانوا يتحادثون على غير بصيرة، من غير أن يعرف بعضهم بعضًا. وقال أحدهم بضحكة صغيرة: ـ على هذا النحو، يسافر الجنود.

ثم سقط الصمت من جديد. الحرّ، الصمت، الضيق. ورأى شارل فجأة ساقين جميلتين في جوربين من الخيط الأبيض، وصعد نظره إلى قميص أبيض: كانت هي الممرِّضة الجميلة. لقد صعدت لتوِّها إلى الحافلة، وكانت تمسك حقيبة في يد، وكرسيًّا يُطوى في الأخرى؛ كانت تُجيل حولها نظرة مغيظة، وقالت: ـ إنّ هذا جنون، هذا جنون محض!

فقال صوت خشن كان يصدر عن الخارج: ماذا؟ ماذا؟

ـ لو كنتم قد فكّرتم دقيقة واحدة! فربّما أدركتم أنّه ينبغي ألّا يوضع الرجال مع النساء.

ـ لقد وضعناهم كما حمّلوهم إلينا.

ـ وكيف تريدون أن أعتني بهم، وبعضهم أمام بعض؟

ـ كان ينبغي أن تكوني هناك ساعة صعدوا بهم.

ـ لا أستطيع أن أكون في كلّ مكان في آن واحد. كنت منهمكة بتسجيل الأمتعة.

قال الرجل: ـ أيّة فوضى!

ـ بوسعك أن تقول ذلك.

وساد صمت ثم استطردت:

ـ أرجو أن تتفضّل بدعوة رفاقك، فسوف ننقل الرجال إلى حافلات الذيل.

ـ تستطيعين أن تضربي نفسك! هل أنت التي ستدفعين أجرة العمل الإضافي؟

قالت الممرِّضة بجفاف: ـ أرفع شكوى.

قال: ـ حسنًا. ارفعي شكوى يا جميلتي. إنّني أنا أبعصك، أتفهمين؟

فهزّت الممرِّضة رأسها واستدارت، سارت بحذر بين الأجسام، ثم أقبلت تجلس على كرسيِّها، غير بعيدة عن شارل، على حافّة المستطيل المضيء. وقال بلانشار: ـ هو، شارل!

فقال شارل مرتعشًا: ـ ماذا؟

ـ توجد هنا إناث.

فلم يجب شارل. وقال بلانشار بصوت مرتفع:

ـ كيف تراني أفعل إذا أردت أن أخرأ؟

فاحمرّ شارل غضبًا وخجلاً، ولكنّه فكّر في الشَعْر الذي يشوِّك،

وأطلق ضحكة صغيرة مشاركة.

وندّت حركة على الأرض، إنّهم بلا شكّ أشخاص يلوون رؤوسهم ليروا إذا كانت لهم جارات. ولكنْ، كان لون من الانزعاج يثقل إجمالاً على الحافلة. وتمدّدت الهمسات وانطفأت... «ماذا تُراني أفعل إذا أردت أن أخرأ؟».

كان شارل يُحسّ نفسه قذرًا، في داخله، رزمة من الأمعاء اللزقة المبتلّة: أيّ عار إذا كان ينبغي أن نطلب المبولة أمام الفتيات. وأغلق على نفسه، وفكّر: «سأقاوم حتى النهاية». وكان بلانشار يتنفّس بقوّة، وكان أنفه يُحدث موسيقى صغيرة بريئة، يا إلٰهي، ليته يستطيع أن ينام. وأخذت شارل لحظة أمل، فأخرج سيكارة من جيبه وأشعل عودًا، وسألت الممرِّضة:

ـ ما هذا؟

وكانت قد وضعت نسيجًا على ركبتيها، وكان شارل يرى وجهها الغاضب، عاليًا جدًّا وبعيدًا جدًّا فوقه، في ظلّ أزرق. وقال:

ـ إنّني أشعل سيكارة.

وبدا له صوته غريبًا ومبتذلاً، فقالت:

ـ أوه لا، لا. إنّ التدخين هنا ممنوع.

ونفخ شارل على العود وتلمّس فيما حوله بأطراف أصابعه. فالتقى بين غطاءين بلوحة رطبة وخشنة، حكّها بظفره قبل أن يضع عليها العود الخشبي الذي احترق نصفه؛ وفجأة أذعره هذا التماسّ، فردّ يديه إلى صدره وفكّر: إنّني على سطح الأرض، على سطح الأرض. تحت الطاولات والكراسي. تحت أكعاب الممرِّضات والحمّالين، مسحوقًا، مختلطًا نصف اختلاط بالوحل والقشّ، تستطيع جميع الهوام التي تركض في شقوق الأرض الخشبيّة أن تتسلّق بطنه. وحرّك ساقيه، وسحب كعبيه على المحمل بهدوء، حتى لا يوقظ بلانشار. كان العرق يسيل على صدره، وأعاد ركبتيه تحت

الغطاء. إنّ هذه التنمّلات القلقة في الفخذين والساقين، وهذه التمرّدات العنيفة المبهمة لجسمه كلّه كانت قد عذّبته بلا انقطاع، في أوّل عهده ببيرك. ثم هدأت: كان قد نسي ساقيه، ووجد من الطبيعي أن يُدفع ويُدحرج ويُحمل، لقد أصبح شيئًا. وفكّر في ضيق: «إنّ ذلك لن يعود. يا إلٰهي، أترى ذلك سيعود؟» ومدّ ساقيه وأغمض عينيه. كان ينبغي أن يفكّر: لست إلّا حجرًا، لست قطّ إلّا حجرًا. وانفرجت يداه المتشنّجتان، وأحسّ جسمه يتحجَّر رويدًا رويدًا تحت الغطاء. حجر بين الأحجار.

وانتصب منتفضًا، وعيناه مفتوحتان، وعنقه متصلّب: لقد حدثت رجّة وضجّة، وتدحرج رتيب مهدِّئ كالمطر: لقد تحرّك القطار، وكان يمرّ محاذيًا شيئًا ما؛ وكان في الخارج أشياء صلبة مثقلة بالشمس تنسرب إزاء الحافلات: ظلال غير متميِّزة، بطيئة أوّلاً ثمّ متسارعة شيئًا فشيئًا، تركض على الجدار المضيء، في مواجهة الباب المفتوح، فكأنّها شاشة سينما. واصفرّ الضوء على الجدار قليلاً ثم ارمدّ، وحدث بعد ذلك فجأة انفجار: «خرج القطار من المحطّة». كان شارل يُحسّ بألم في رقبته، ولكنّه كان يستشعر بعض الهدوء؛ فعاد إلى الاضطّجاع، ورفع ذراعيه وأدار مرآته تسعين درجة. كان يرى إذ ذاك، في زاوية المرآة اليسرى، قطعة من المستطيل المضيء. وكان ذلك يكفيه: كانت تلك المساحة الملتمعة تعيش؛ وكانت منظرًا برمّته؛ كان الضوء يرتجف تارة ويصفرّ، كما لو أنّه سيتلاشى، وتارة أخرى يقسو فيتجمَّد ويتّخذ هيئة طلاء طينيّ أحمر، ثم إنّه كان يرتعش برمّته بين وقت وآخر، إذ تلمّ به تموّجات منحرفة كأنّما الريح تجعّدها. وقد نظر إليه شارل طويلاً: فأحسّ بعد فترة أنّه قد تحرّر، كما لو أنّه جلس على درجة الحافلة، فدلّى ساقيه وراح ينظر إلى الأشجار والحقول والبحر تترى.. وتمتم:

ـ بلانشار.

لا جواب. وانتظر لحظة وهمس:

ـ هل تنام؟

فلم يجب بلانشار. وأرسل شارل تنهّدة رضى صغيرة ثم تبسّط وتمدّد تمامًا، من غير أن ينتزع بصره عن المرآة. إنّه ينام، إنّه ينام. وحين دخل، لم يكن يتماسك في وقوفه، وقد تداعى للسقوط على المقعد الخشبيّ، ولكنَّ عينيه كانتا قاسيتين، وكانتا تقولان: لن تتغلّبوا علينا. وقد طلب قهوته بلهجة سيِّئة جدًّا، إنّ هناك من يأخذ الخدم هكذا كالأعداء، شبّان صغار: يظنّون أنّ الحياة صراع، لقد قرأوا ذلك في الكتب، فهم لذلك يصارعون في المقاهي، فيطلبون كأسًا من شراب الرمّان، وهم يحدِّجونك بنظرة كافية بأن ترعشك.

قال فليكس: كأسًا واحدة! وقدحان صينيّان للسطيحة.

ضغطت على الزرّ وأدارت المحرِّك. وغمزها فليكس وأومأ إلى الشابّ القصير الذي كان نائمًا. ليس هو صراعًا، وإنّما هو مستنقع، فما إن يفعل المرء حركة، حتى يغرق، ولكنّهم لا يعرفونه على الفور. فهم يضطّربون كثيرًا في السنوات الأولى، وهذا هو السبب في أنّهم يهبطون هبوطًا أسرع؛ وقد حدث لي ذلك، حدث لي ذلك، أمّا وأنّي الآن عجوز فإنّي أبقى هادئة، وذراعاي ملتصقتان بجسمي، فأنا لا أتحرّك. . إنّ من يبلغ عمري لا يغرق بعد أبدًا. كان نائمًا، فاغر الفم، وكان فكّه يتدلّى على صدره، ولم يكن بعد جميلاً على الإطلاق، وكانت جفونه المتورِّمة الحمراء وأنفه الأحمر تجعله شبيهًا بخروف. أمّا أنا، فقد حزرت فورًا حين رأيته داخلاً إلى القاعة الفارغة، كأنّه أعمى، والشمس في الخارج، وجميع هؤلاء الزبائن على السطيحة، فقلت في نفسي: إنّ عنده رسالة يريد أن يكتبها، أو أنّه ينتظر امرأة، أو أنّ هناك شيئًا ما محطّمًا. ورفع يده الطويلة الصفراء، فطرد الذباب من غير أن يفتح عينيه. لم يكن ثمّة ذباب. إنّه مهموم حتى في نومه، إنّ الهموم تلاحقك في كلّ مكان. كنت جالسة على المقعد، وكنت أنظر إلى الخطوط الحديديّة وإلى النفق، وكان عصفور

يغنّي، وأنا ملأى، حبلى، مطرودة، ولم يتبقَّ لي بعدُ عينان حتى أبكي، ولا مال في حقيبتي، تذكرتي فحسب، وقد نمت، وحلمت بأنّهم يقتلونني، وأنّهم كانوا يشدّون لي شعري ويصفونني بالفاجرة، ثم جاء القطار فصعدت إليه. أقول تارة إنّه سيحصل على منحته، فهو عامل مسنّ عاجز، ولا يمكن أن تُمنع عنه هذه المنحة، وأقول تارة أخرى إنّهم سيتدبّرون أمرهم كي لا يعطوه إيّاها، فهم قساة؛ إنّني هناك، وأنا عجوز، لا أتحرّك بعد، ولكنّي أفكّر. إنّه يلبس ثيابًا تشبه ثياب الشباب، ولا شكّ في أنّ له أمًّا تُعنى بشؤونه، ولكن حذاءه أبيض من الغبار، فماذا تراه قد فعل؟ وأين تُراه قد تسكّع؟ إنّ الدم يشتغل لدى الشبّان، ولو أنّه قد قال لي اضربي، لقتلت أبي وأمّي، فكم يمكن للمرء أن يكون عنيدًا، وإذا قتل عجوزًا، امرأة في سنّي، فسوف يعتقلونه، إنّه غير قوي، وربّما جاؤوا يحشرونه هنا، وسوف تنشر «الماتان» صورته، فيرى الناس وجهًا صغيرًا قذرًا لداعرٍ لا يشبهه أبدًا، وسيكون ثمّة من يقول إنّ له وجهًا جديرًا بأن يفعل هذا. حسنًا، أمّا أنا فأقول لكي ندينهم، فيجب ألّا نكون قد نظرنا إليهم عن كثب، لأنّنا حين ننظر إليهم يغرقون كلّ يوم أكثر فأكثر، نفكّر بأنّه ليس ثمّة من يستطيع شيئًا، وأنّه سيّان بعد ذلك أن يأخذ الإنسان قهوة بالحليب على سطيحة مقهى، أو أن يقتصد ليشتري بيتًا أو ليقتل أمّه. وكان التلفون يدقّ، فانتفضت وقالت: ـ آلو؟

ـ أريد أن أتحدّث إلى السيِّدة كوزان.

قالت: ـ أنا هي. ماذا؟

قال جولو: ـ لقد رفضوا إعطائي المنحة.

قالت: ـ ماذا؟ ماذا؟ ماذا؟

ـ لقد رفضوا إعطائي المنحة.

ـ ولكن هذا غير ممكن.

ـ لقد رفضوها.

ـ ولكنْ.. رجل عاجز، عامل قديم، ماذا قالوا لك؟

ـ قالوا أن ليس لي حقّ بها.

قالت: ـ أوه! أوه!

قال جولو: إلى هذا المساء.

وأعادت السمّاعة. لقد رفضوا منحه إيّاها. رجل عاجز، عامل مسنّ، وقالوا له إنّه لا حقّ له فيها، وفكّرت: أراني الآن سأغضب. كان الشابّ يشخر، وكانت هيئته هيئة بلهاء متكلّفة. وخرج فليكس حاملاً القدحين الصينيين والشراب الأسود، ودفع الباب فدخلت الشمس وشعّت المرآة فوق النائم، ثم انغلق الباب، وانطفأت المرآة، وبقيا وحدهما معًا. ماذا فعل؟ أين تراه قد ذهب؟ ماذا يحمل في حقيبته؟ سوف يدفع الآن: طوال عشرين سنة، طوال ثلاثين سنة، إلّا أن يُقتل في الحرب، يا للشابّ المسكين، لقد بلغ سنّ الذهاب. إنّه ينام ويشخر، وإنّه لمهموم، وعلى السطيحة يتحدّث الناس عن الحرب، ولن يُعطى زوجي منحته. وقالت: آه! الشفقة والرحمة، الرحمة لنا نحن الناس المساكين!

وصاح الشابّ: ـ بيتو!

كان قد استيقظ منتفضًا. ونظر إليها لحظة، وعيناه ورديّتان، وفمه فاغر، ثم صفّق فكّيه، وقرص شفتيه، وكان يبدو عليه هيئة الذكاء والرداءة.

ـ غارسون!

ولم يكن فليكس يسمع. كانت تراه، على السطيحة، وكان يروح ويغدو، ويأخذ الطلبات. وفقد الشابّ اطمئنانه، فضرب الطاولة وهو يدير رأسه ذات اليمين وذات اليسار كأنّه مطارَد. وأشفقت عليه، فقالت له:

ـ عشرون فلسًا، من فوق الصندوق.

ورماها بنظرة حقد، وألقى قطعة من خمسة فرنكات على الطاولة،

وتناول حقيبته ومضى وهو يعرج. والتمعت المرآة، فدخلت القاعة موجة من الصراخ والحرّ: دخلت الوحدة. ونظرت إلى الطاولات والمرايا والباب. جميع هذه الأشياء المفرطة الألفة التي لم تكن تستطيع بعد أن تمسك أفكارها. وقالت في نفسها: «سيبدأ الأمر، وسوف يثور غضبي».

لُطِّخ بالنور. كان ثمّة من يصوِّب عليه، من جانب، مصباح جيْب، فأدار رأسه وهمهم. وكان المصباح يطفو على سطح الأرض، فأخذ يطرف بعينيه. كانت وراء هذه الشمس عين هادئة حاقدة تنظر إليه، وكان هذا غير مقبول. فقال: ـ ما هذا!

قال صوت مغنٍّ: ـ إنّه هو.

امراة. إنّ الرزمة المتطاولة، إلى يميني، هي امرأة. وشعر لحظة بالرضى، ثم فكّر في غضب بأنّها قد أضاءته كأنّه شيء، لقد أمرّت ضوءها عليّ كما لو كنت جدارًا. وقال بجفاء: ـ إنّني لا أعرفك.

قالت: ـ لقد التقينا مرارًا.

وانطفأ المصباح. وظلّ مبهورًا، ودوائر بنفسجيّة تدور في عينيه.

ـ لا أستطيع أن أراكِ.

قالت: ـ أمّا أنا، فأراك. حتى بلا المصباح، أراك.

كان الصوت فتيًّا وجميلاً، ولكنّه كان هو على حذر. وردّد:

ـ إنّني لا أراك، فقد بهرتني.

قالت بزهو: ـ إنّني أرى في الليل.

ـ هل أنت مُغربة؟

فأخذت تضحك:

ـ مغربة؟ إنّ عينيَّ ليستا حمراوين ولا شعري أبيض، إن كان هذا ما تقصده.

وكانت لها لهجة واضحة تضفي على جميع عباراتها جرسًا استفهاميًّا.

ـ من أنتِ؟

قالت: آه، إحزر. ليس الأمر صعبًا جدًّا: لقد التقيت بي أمس الأوّل فقط، فرميتني بنظرة حقد.

ـ حقد؟ إنّني لا أحقد على أحد.

قالت: أوه، بلى! بل أنا أظنّ أنّك تحقد على جميع الناس.

ـ انتظري! ألم يكن على كتفيك فرو؟

وكانت ما تزال تضحك، فقالت: ـ مُدّ يدك. إلمس.

ومدّ ذراعه، فلمس كتلة ضخمة لا شكل لها. وكان ذلك فروًا، وكان تحت الفرو بالتأكيد أغطية ورزم من الثياب، ثم الجسم الأبيض الرخو، بزّاقة في صدفتها. لا بدّ أنّها كانت تشعر بالحرّ الشديد!

ولامس الفرو قليلاً، فانبعث منه عطر فاتر ثقيل. هذا إذن هو الذي كان يُشمُّ منذ لحظة. وكان يلامس الفرو على عكس الزغب، وكان مسرورًا. وقال بلهجة المنتصر: ـ أنت شقراء. إنّك تلبسين أقراطًا من ذهب.

فضحكت وأضاءت المصباح من جديد. ولكنّها كانت قد أدارته هذه المرّة إلى وجهها بالذات، وكان ارتجاج القطار يهزّ المصباح في يدها، والضوء يصعد من الصدر حتى الجبين، ويلامس شفتين مصبوغتين ويذهِّب زغبًا خفيفًا أشقر، عند زاوية الشفتين، ويكسب المنخرين بعض الاحمرار، وكانت الأهداب الملويّة المسودّة تنتصب كأرجل صغيرة فوق الأجفان المقبّبة، كأنّهما حشرتان مقلوبتان على ظهرهما. كانت شقراء: وكان شعرها يزبد في سحابةٍ خفيفةٍ حول رأسها. وأحسّ بضربة في قلبه. وفكّر: إنّها جميلة؛ وسحب يده فجأة.

ـ لقد عرفتكِ. كان ثمّة دائمًا رجل مسنّ يدفعك، وكنتِ تمرّين من غير أن تنظري إلى أحد.

ـ كنت أنظر إليك جيّدًا، من خلال أهدابي.

ورفعت رأسها قليلاً، فعرفها تمامًا، وقال:

ـ لم أكن لأظنّ قطّ أنّه كان بوسعك أن تنظري إليّ. كان يبدو عليك الغنى الشديد، وكنت تبدين فوقنا بدرجات، وكنت أحسبك نازلة في نزل «بوكير».

قالت: ـ كلّا، بل كنت في «مونشاليه».

ـ لم أكن أتوقّع أن أجدك في قاطرة للدواب.

وانطفأ الضوء، وقالت: ـ إنّني فقيرة جدًّا.

ومدَّ يده وضغط بلطف على الفرو:

ـ وهذا؟

فضحكت:

ـ هذا كلّ ما يبقى لي.

كانت قد دخلت في الظلام من جديد. رزمة ضخمة، مظلمة وبلا شكل. ولكنّه كان ما يزال يحتفظ بصورتها في عينيه. وردّ يديه كلتيهما إلى بطنه، وأخذ ينظر إلى السقف. كان بلانشار يشخر بهدوء، وكان المرضى قد أخذوا يتحدّثون فيما بينهم، كلّ اثنين، أو كلّ ثلاثة؛ القطار يجري وهو يئنّ. كانت فقيرة ومريضة، وممدّدة في حافلة للدوابّ، وكانوا يلبسونها ثيابها وينزعون ثيابها كاللُّعبة. كانت جميلة، جميلة كنجمة سينمائيّة. بالقرب منه كلّ هذا الجمال المُهان، هذا الجسم النقي الملطَّخ. كانت جميلة. كانت تغنّي على المسارح، وقد نظرت إليه من بين أهدابها، ورغبت في التعرّف إليه. كان الأمر كما لو أنّهم أوقفوه من جديد، على قدميه الاثنتين.. وسألها فجأة:

ـ هل كنت مغنّية؟

ـ مغنّية؟ كلّا. بل أحسن العزف على البيانو.

ـ كنت أحسبك مغنّية.

قالت: ـ إنّني نمساويّة. وكلّ مالي هناك، بين أيدي الألمان. لقد تركت النمسا بعد الأنشلوس.

ـ وهل كنت مريضة آنذاك؟

ـ كنت فوق لوحة. وقد صحبني أهلي في القطار. في يوم شبيه بهذا اليوم، باستثناء أنّ الجوّ كان مشرقًا. وأنّني كنت ممدَّدة على مقعد في الدرجة الأولى. وكان فوقنا طائرات ألمانيّة، وكنّا نظنّ دائمًا أنّها ستلقي قنابل. كانت أمّي تبكي، وكنت أنا مرفوعة الرأس، أشعر بالسماء تثقل عليّ عبر السقف، إنّه آخر قطار تركوه يمرّ.

ـ وبعد ذلك؟

ـ جئت إلى هنا. أمّي موجودة في إنكلترا، فيجب أن تكسب لنا القوت.

ـ وذلك السيِّد المسنّ الذي كان يدفعك؟

فقالت بقسوة: ـ إنّه أبله عجوز.

ـ أنت إذن وحدك؟

ـ وحدي.

وردّد:

ـ وحدك في العالم. وشعر بأنّه قويّ وقاسٍ كشجرة سنديان.

ـ ومتى عرفت أنّني أنا؟

ـ حين حككت عود ثقابك.

ولم يكن يريد أن يستسلم لفرحه. لقد كانت هناك في الحفظ، وازنة وغير مميَّزة، شبه متروكة؛ كانت هي التي تضفي على صوته هذا الاهتزاز الحامز. ولكنّه كان يحفظها لليل، وكان يريد أن يستمتع بها وحده.

ـ هل رأيت النور على الجدار؟

قالت: ـ نعم، لقد نظرت إليه طوال ساعة.

ـ انظري، انظري، هذه شجرة تمرّ.

ـ أو عمود تلغراف.

ـ القطار لا يسير بسرعة.

قالت: ـ نعم، هل أنت مستعجل؟

ـ لا، فلسنا ندري أين نحن ذاهبون.

قالت بجذل: ـ طبعًا لا. وكان صوتها يرتجف أيضًا.

وقال: ـ في الحقيقة، لسنا هنا في وضع سيّئ جدًّا.

قالت: ـ هناك نسيم. ثم إنّ هذه الظلال التي تمرّ تُسلّي.

ـ هل تذكرين أسطورة الغار؟

ـ لا، ما هي أسطورة الغار؟

ـ إنّهم عبيد موثقون في جوف غار، وهم يرون ظلالاً على جدار.

ـ ولماذا أوثقوهم هناك؟

ـ لا أدري. إنّ أفلاطون هو الذي كتب ذلك.

قالت بلهجة مبهمة: ـ آه! نعم! أفلاطون.

وفكّر في نشوة: «سأعلّمها من هو أفلاطون»، وكان يُحسّ ببعض الألم في بطنه، ولكنّه كان يتمنّى ألّا تنتهي الرحلة.

هزّ جورج مقبض الباب. وكان يرى عبر الزجاج رجلاً طويلاً ذا شارب، وامرأة شابّة ذات غلالة معقودة حول رأسها تغسل الصحون والأقداح خلف مشرب خشبيّ. وكان ثمّة جنديّ ينعس أمام طاولة، وشدّ جورج بعنف على المقبض فاهتزّ الزجاج. ولكنّ الباب لم ينفتح. ولم يكن يبدو على المرأة والرجل أنّهما يسمعان.

ـ لن يفتحوا.

والتفت: كان ثمّة رجل سمين ناضج ينظر إليه مبتسمًا. وكان يرتدي معطفًا أسود فوق بنطلون عسكريّ، وطماقات، وقبّعة طريّة وياقة مكسورة. فأراه جورج اللوحة: «المطعم يفتح الساعة الخامسة»، وقال:

ـ إنّها الساعة الخامسة وعشر دقائق.

فهزّ الآخر كتفيه. وكان مزمار ضخم ذو قربة يثقل على جنبه الأيسر، وقناع غازٍ «واق» على جنبه الأيمن، وكان يباعد ما بين ذراعيه ويرفع مرفقيه في الهواء.

ـ يفتحون حين يشاؤون.

كانت ساحة الثكنة غاصّة بالرجال الذين تتراوح أعمارهم بين الشباب والكهولة، والذين كانوا يبدون ضجرين. وكان ثمّة كثيرون منهم يتنزّهون وحدهم، وهم ينظرون إلى الأرض. بعضهم يرتدي معطفًا عسكريًّا، أو بنطلونًا كاكيًّا، بينما كان البعض الآخر في ثياب مدنيّة وأحذية جديدة تصفق أرض الساحة المعبَّدة. وثمّة رجل طويل أصهب كان من حظِّه أنّه حصل على بذلة كاملة، يسير بتفكُّر، ويداه في جيبيّ معطفه العسكريّ، وقبّعته على أذنيه. شقّ ملازم هذه الجموع، واتّجه بسرعة نحو الحانوت. وسأل السمين القصير، وهو يشدّ على سيور مزماره ليدفعه خلف ظهره:

ـ ألم تذهب لتحصل على ثياب؟

ـ إنّهم لا يملكون بعدُ شيئًا.

وبصق الرجل بين قدميه:

ـ أمّا أنا، فقد أعطوني هذا. وإنّي لأختنق في داخله، والإنسان يكاد يموت في هذه الشمس. أيّة فوضى!

وأشار جورج إلى الضابط:

ـ هل نسلِّم عليه؟

ـ بِمَ نسلّم عليه؟ إنّني لا أستطيع على أيّ حال أن أرفع له قبّعتي.

ومرّ الضابط أمامهما من غير أن ينظر إليهما. فتابع جورج بعينيه ظهره الهزيل، فأحسّ أنّه منهَك. كان الحرّ شديدًا، وزجاج الأبنية العسكريّة مطليًّا بالأزرق، وخلف الجدران البيضاء طرق بيضاء، وساحات للطيران، خضراء على مدى النظر تحت الشمس. كانت جدران الثكنة ترسم في وسط الحقول ساحة صغيرة جرداء مغبرّة، يدور فيها رجال متعبون كما لو أنّهم يدورون في شوارع مدينة. كانت تلك هي الساعة التي تشقّ فيها امرأته النوافذ، فتدخل الشمس إلى قاعة الطعام؛ كانت الشمس في كلّ مكان، في البيوت والثكنات والأرياف، وقال في نفسه: «الأمور دائمًا متشابهة». ولكنّه لم يكن يعرف على الضبط ما هو متشابه. وفكّر في الحرب، فلاحظ أنّه لم يكن يخشى أن يموت. وصفّر قطار في البعيد، فأحسّ كما لو أنّ هناك من يبسم له، وقال: ـ اسمع.

ـ ما هذا؟

ـ القطار.

فنظر إليه السمين القصير من غير أن يفهم، ثم سحب منديلاً من جيبه وبدأ يمسح جبينه. وصفّر القطار ثانية. كان يجري مليئًا بالمدنيين وبالنساء الجميلات وبالأولاد، وكانت الأرياف تتسرّب وديعة، عبر الزجاج. وصفّر القطار وأبطأ، فقال شارل: ـ سوف يقف.

وصرّت المحاور فتوقّف القطار، وسالت الحركة من شارل، فظلّ جافًّا وفارغًا كما لو أنّه فقد دمه كلّه، فكان ذلك موتًا صغيرًا. وقال:

ـ لا أحبّ أن تقف القطارات.

كان جورج يفكّر في قطارات المسافرين التي تتّجه إلى الجنوب، نحو البحر، وفي البحر، وفي مقصورات بيضاء على شاطئ البحر، وكان شارل يحسّ العشب الأخضر الذي كان ينمو تحت لوائح الخشب، بين الخطوط الحديديّة، ويشعر من خلال الصفائح الحديديّة، ويرى فوق المستطيل

المضيء الذي يرتسم على الحاجز حقولاً خضراء على مدى النظر. كان المرج قد أخذ القطار، كما تأخذ كتلة الجليد باخرة، وكان العشب يتسلّق حتى يبلغ الدواليب ويمرّ بين اللوائح الخشبيّة المنفصلة. وكان الريف يخترق القطار الجامد من طرفيه. والقطار الذي سقط في الشرَك يصفِّر، يصفِّر بنواح، والصفير البعيد يمتدّ بشاعريّة كبيرة، وكان القطار يجري على مهل، ورأس جار موريس يهتزّ في ياقته الباجيّة؛ كان رجلاً سمينًا تنبعث منه رائحة الثوم؛ وكان قد غنّى «الأنترناسيونال» منذ بدء الرحلة، وشرب لترين من الخمر. وانتهى به الأمر إلى الاستسلام على كتف موريس وهو يهدل. كان موريس يشعر بالحرّ الشديد، ولكنّه لم يجرؤ على التحرّك، فقد كان قلبه على شفتيه بسبب هذا الحرّ والخمر الأبيض والشمس البيضاء التي تعميه عبر الزجاج المغبرّ، كان يفكِّر: «أودّ لو أكون قد وصلت». ودغدغته عيناه، وأصبحتا كبيرتين قاسيتين، فأغمض جفنيه، كان يسمع دمه يضجّ في أذنيه، والشمس تخرق جفونه؛ وكان يشعر بقدوم نوم أبيض يرشح عرقًا ويُغشي النظر، وكان شَعر الرفيق يدغدغ عنقه وذقنه، كان ذلك بعد ظهر أحدٍ لا أمل فيه. وأخرج الرجل السمين صورة من محفظته وقال: ـ هذه امرأتي.

وكانت امرأة بلا سنّ، كهاتيك اللواتي نراهنّ في الصور، ولم يكن ثمّة ما يُقال عنها.

فقال جورج: ـ إنّ صحّتها جيّدة.

قال الرجل: ـ إنّها تأكل كأربعة.

وكانا جالسين، أحدهما مقابل الآخر، متردِّدين. ولم يكن جورج يشعر بالودّ لهذا الرجل الضخم المحمرّ أكثر ممّا ينبغي، والذي كان يلهث وهو يتكلّم، ولكن كانت لديه رغبة بأن يريه صورة ابنته.

ـ متزوّج؟

ـ نعم.

ـ أولاد؟

فنظر إليه جورج من غير أن يجيب، وهو يقهقه قليلاً. ثم وضع يده فجأة في جيبه، وأخرج محفظته، فتناول منها صورة مدّها له وهو يخفض عينيه:

ـ هذه ابنتي!

قال الرجل وهو يأخذ الصورة:

ـ إنّ لديك حذاء عاليًا جميلاً، وسوف يخدمك طويلاً.

قال جورج في مذلّة: ـ إنّ قدميّ مصابتان بالكنّب. أتعتقد أنّهم سيتركون لي الحذاء؟

ـ سيكونون مسرورين أكثر ممّا ينبغي، فربّما لم يكن لديهم أحذية للجميع.

ونظر لحظة أخرى إلى حذاء جورج، ثم انصرف عنه على مضض، ورمى بصره على الصورة. وشعر جورج أنّه كان يحمرّ. وقال الرجل:

ـ ما أجمل هذه الطفلة! كم وزنها؟

قال جورج: ـ لا أدري.

وكان يتأمّل في ذهول هذا الرجل الضخم الذي كان يمسك بالصورة بين أصابعه، ويُسقط عليها نظره الذي يُحيل الألوان. وقال:

ـ حين أعود، فلن تعرفني.

قال الرجل: ـ هذا ممكن. إلّا إذا. . .

ـ قال جورج: ـ نعم، إلّا إذا. . .

سأل سارو: ـ وإذن هل أذهب إلى هناك؟

كان يقلّب الورقة بين أصابعه. وكان دلاديه قد برى عود ثقاب بسكّينه ودسّه بين سنّين. كان مكوّمًا فوق كرسيّه، مثنيًا، لا يجيب. وردّد سارو:

ـ هل أذهب إلى هناك؟

قال بونيه على مهل: ـ إنّها الحرب، والحرب الخاسرة.

فارتعش دلاديه، وألقى على بونيه نظرًا ثقيلاً، فاحتمله بونيه في براءة بعينيه الفاتحتين اللتين لا أعماق لهما. وكانت له هيئة آكل النمل. وكان شامبوتيه دوريبس ورينو واقفين في الخلف، صامتين وغير موافقين. واسترخى دلاديه تمامًا. وتمتم بحركة مائعة:

ـ اذهب.

فنهض سارو وخرج من القاعة، وهبط السلّم وهو يفكّر أنّه كان مصابًا بالصداع. كانوا جميعًا هناك، فصمتوا لرؤيته واتّخذوا هيئتهم المهنيّة. وفكّر سارو: «أيّة عصابة من البُلهاء!». وقال:

ـ سأقرأ عليكم البلاغ.

فحدثت ضجّة، وانتهزها ليمسح نظّارتيه، ثم قرأ:

ـ استمع مجلس الوزراء إلى تقارير السيِّد رئيس الوزارة، والسيِّد جورج بونيه حول المذكَّرة التي سلّمها مستشار الريخ إلى السيِّد تشمبرلن. «وقد وافق بالإجماع على التصريحات التي ينوي السيِّدان إدوار دلاديه وجورج بونيه حملها إلى الحكومة الإنكليزيّة في لندن».

فكّر شارل: «أريد أن أغوّط» وحدث ذلك فجأة: لقد امتلأ بطنه حتى ليفيض.

قال: ـ نعم، نعم. إنّي من رأيك. نعم.

كان الصوتان يرتفعان متوازيين، هادئين. وقد ودّ لو يلتجئ برمّته إلى صوته، فلا يكون إلّا صوتًا ثقيلاً بالقرب من الصوت الجميل، المغنّي، الأشقر. ولكنّه كان أوّلاً ذلك الحرّ، وذلك القلق الخافق، وتلك الرزمة من الموادّ المبلَّلة التي كانت تقرقر في أمعائه. وساد صمت؛ كانت تحلم بالقرب منه، ناضرة ثلجيّة، ورفع يده في حيطة وأمرّها على جبينه اللزج، وأنّ فجأة «هان!».

ـ ماذا هناك؟

فقال: ـ لا شيء. إنّه جاري الذي يشخر.

وكان شيء قد أخذه من بطنه كضحكة مجنونة، هذه الرغبة المبهمة الكئيبة العنيفة في أن ينفتح، وأن يُمطر من تحت؛ وكانت فراشة مهووسة تخفق جناحيها بين إليتيه. وشدّ إليتيه فسال العرق على جبينه، وجرى نحو أذنيه وهو يدغدغ خدّيه. وفكّر مذعورًا: «سأفلت كلّ شيء».

وقال الصوت الأشقر: ـ أراك لا تقول شيئًا بعد.

فقال: إنّني.. كنت أتساءل.. لماذا أنتِ راغبة في التعرّف إليّ؟

قالت: ـ إنّ لك عينين جميلتين متعجرفتين! ثم إنّي كنت أريد أن أعرف لماذا كنت تكرهني؟

وحرّك جنبيه قليلاً ليخدع حاجته، وقال:

ـ كنت أكره جميع الناس، لأنّي كنت فقيرًا. إنّ لي طبعًا لئيمًا.

وكان الأمر قد أفلت منه تحت تأثير رغبته؛ لقد انفتح من فوق؛ من فوق أو من تحت، كان لا بدّ له من أن ينفتح. وردّد وهو يلهث:

ـ مسلك لئيم. فأنا حسود.

ولم يكن قد قال مثل ذلك قطّ، لأيّ إنسان. ولامست يده بطرف أصابعها.

ـ لا تكرهني: فأنا أيضًا فقيرة.

فجالت دغدغةٌ في قضيبه. ولم يكن ذلك بسبب الأصابع الهزيلة الحارّة على ظاهر يده، وإنّما كان ذلك صادرًا من مكان أبعد، من الغرفة الكبيرة العارية، على شاطئ البحر. كان يدقّ الجرس، فتصل جانين، وتُبعد الغطاء، وتدسّ الطست تحت جنبيه وتنظر إليه يتميّع، وتأخذ أحيانًا مستر جاك بين السبّابة والإبهام، وكان يحبّ ذلك كثيرًا. وها هو الآن قد رُوِّض لحسّه جيّدًا، فاكتُسبت العادة. كانت جميع رغباته في التغويط

مسمّمة باسترخاء حامز، برغبةٍ جذلة بأن ينفتح تحت نظر، بأن ينفغر تحت عيون ممتهنة. وفكّر: «هذا أنا» وانتابه الخوف. كان يشمئزّ من نفسه، ونفض رأسه فأحرق العرق عينيه. «تُرى، ألن يسير القطار»؟ لو عادت الحافلة إلى السير، لخُيّل إليه أنّه كان يُنتزع من نفسه، ولكان يخلّف في مكانه رغباته المشتبهة الأليمة، ولكان يتماسك فترة أخرى. وخنق أنّة جديدة: كان يتألّم، وكان يوشك أن يتمزّق كقطعة من قماش؛ وأغلق في صمت يده على اليد الرقيقة الهزيلة جدًّا. «يدان من معجون اللوز تأخذان مستر جاك في براعة، فيبتهج مستر جاك مسترخيًا، ورأسه مائلٌ قليلاً، فتاة تعمل في حانوت لبيع اللحوم تأخذ بين أصابعها مصرانًا موضوعًا على سرير مَرقه المجمّد. عاريًا تمامًا، مشقوقًا، مرئيًّا. قشرة منفجرة. إنّه الربيع، فظاعة! كان يكره جانين.

وقال الصوت: ـ ما أشدّ الحرارة في يديك!

ـ إنّني محموم.

وأنّ أحدهم بلطف تحت الشمس، مريضٌ من المرضى ممدَّدٌ بالقرب من الباب. ونهضت الممرِّضة فاتّجهت نحوه وهي تتجاوز الأجسام. ورفع شارل ذراعه اليسرى وحرّك مرآته بسرعة، فالتقطت المرآة الممرِّضة فجأة، وهي منحنية على مراهق ضخم ذي خدّين أحمرين وأذنين متباعدتين. وكان يبدو أمرًا مستعجلاً. ونهضت ثانية وعادت إلى مكانها، فرآها شارل تبحث في حقيبتها، وواجهتهم وهي تمسك مبولة بين أصابعها. وسألت بصوت مرتفع:

ـ أليس هناك من راغب؟ إذا كان هناك من يرغب، فالأفضل أن يقول في أثناء التوقّف لأنّ ذلك أنسب. والمهمّ ألّا تتماسكوا، ولا يخجل بعضكم أمام البعض الآخر. فليس هنا رجال ولا نساء، ليس هنا إلّا مرضى.

وأجالت فيهم نظرها القاسي؛ ولكن لم يجب أحد. وتناول الفتى

الضخم المبولة في شراهة وأخفاها تحت غطائه. وكان شارل يشدّ بقوّة على يد صديقته. وحسبه أن يرفع صوته، أن يقول: «أنا، أنا، راغب». وانحنت الممرِّضة، فتناولت المبولة ورفعتها. وكانت تلمع في الشمس، وهي ملأى بماء جميل أصفر ومزبد. اقتربت الممرِّضة من الباب، وأطلّت إلى الخارج، ورأى شارل ظلّها على الحاجز، وقد رفعت ذراعها، فبرز على المستطيل المضيء. وكانت تُميل المبولة، فيُفلت منها ظلٌّ مائع ذو شرر.

وقال صوت ضعيف: ـ يا سيِّدتي.

قالت: ـ آه، لقد قرّرتم؟ هأنذا قد جئت.

سيستسلمون الواحد بعد الآخر؛ سوف تتماسك النساء أطول ممّا يتماسك الرجال. إنّهم سيُنْتِنُون جاراتهم؛ فهل يجرؤون بعد ذلك على محادثتهنّ؟ وفكّر: «القذرون!»، وحدثت حركة على الأرض، نداءات مهموسة، خجلة، كانت ترتفع من جميع الزوايا. وعرف شارل بعض أصوات النساء. وقالت الممرِّضة:

ـ انتظروا. لكلٍّ دوره.

«ليس هنا إلّا مرضى». إنّهم يحسبون كلّ شيء مسموحًا به، لأنّهم مرضى. لا رجال ولا نساء: وإنّما مرضى. كان يتألّم، ولكنّه كان فخورًا بأن يتألّم. لن أستسلم؛ إنّني أنا، رجل. وكانت الممرِّضة تنتقل بينهم، ويُسمع صوت حذائها يطقّ على الخشب، وبين لحظة وأخرى، دَعْك ورق. وكانت رائحة تفهةٌ حارّة تملأ القاطرة، وفكّر وهو يتلوّى من العذاب: «لن أستسلم».

قال الصوت الأشقر: ـ يا سيِّدتي.

وحسب أنّه لم يسمع جيّدًا، ولكنّ الصوت ردّد النداء، وهو خجول يغنّي.

ـ يا سيِّدتي! يا سيِّدتي! هنا.

قالت الممرِّضة: ـ هأنذا.

والتوت اليد الدقيقة الحارّة في يد شارل، ثم أفلتت منه. وسمع طقّة حذاء. كانت الممرِّضة فوقهما، هائلة قاسية، ملاكًا. وقال الصوت المبتهل:

ـ أدِرْ وجهك.

ثم همست مرّة أخرى. . «أدر وجهك». فأدار رأسه، وودّ لو يسدّ أذنيه وأنفه. وغطست الممرِّضة، في رفيف هائل لطيورٍ سوداء، فأظلمت منها مرآته. ولم ير بعدُ شيئًا. وفكّر: «هذه مريضة». ولا بدّ أنّها كانت قد ألقت عنها فروها. فقد غطّت لحظة عطرٍ كلّ شيء، ثم نفذت شيئًا فشيئًا رائحة زنخة قويّة أفغمت منخريه. هذه مريضة، هذه مريضة؛ كانت البشرة الجميلة الملساء مشدودة على أعصاب مائعة، على أمعاء متقيِّحة. وتردّد، متوزِّعًا بين الاشمئزاز وبين رغبة قذرة. ثم أقفل على نفسه، دفعةً واحدة، فانغلقت أحشاؤه كالقبضة، ولم يشعر بعد بجسمه. هذه مريضة. كانت جميع الرغبات والشهوات قد امّحت، وكان يحسّ نفسه نظيفًا جافًّا، فكأنّما قد استعاد صحّته كلّها. مريضة، وفكّر في حبّ: «لقد قاومت ما وسعها» واندعكت الورقة، ونهضت الممرِّضة، وكانت بضعة أصوات تناديها من الجهة الأخرى من الحافلة. أمّا هو، فلن يناديها أبدًا؛ كان يطفو على بعد بضع بوصات من الأرض، فوقهم. إنّه لم يكن شيئًا من الأشياء، لم يكن طفلاً رضيعًا. وفكّر في رقّة شديدة جدًّا، حتى إنّ الدموع ترقرقت في عينيه: «لم تستطع أن تقاوم» وكانت قد كفّت عن الكلام، ولم تكن تجرؤ بعد على أن توجّه إليه الحديث؛ إنّها خجلة. وفكّر في حبّ: «سأحميها». وقوفًا، وقوفًا، منحنيًا فوقها، متأمِّلاً وجهها الشارد العذب. وكانت تلهث قليلاً، في الظلّ. ومدّ يده وأمرّها في تلمُّس على الفرو. وتشنّج الجسم الفتيّ، ولكن شارل ألفى يدًا فأمسك بها. وقاومت اليد، فجذبها إلى قربه، وضغط عليها بكلّ قواه. مريضة. وكان هو هناك، جافًّا وقاسيًا، متحرِّرًا؛ سوف يحميها. وسألها:

ـ ما هو اسمك؟

قال شمبرلن نافد الصبر: ـ ولكن اقرأ.

فأخذ لورد هاليفكس رسالة مازاريك وأنشأ يقرأ؛ وفكّر شمبرلن: «لا حاجة به إلى قراءتها بلهجتها»، وقرأ هاليفاكس:

«لقد درست حكومتي الآن الوثيقة والخارطة. إنّه إنذار «عملي» كالإنذار الذي يوجَّه عادة إلى دولة مهزومة، وليس هو عرضًا على دولة ذات سيادة أظهرت كلّ الاستعدادات الممكنة للقيام بتضحيات من أجل تهدئة أوروبا. ولكن حكومة السيِّد هتلر لم تُظهر بعد أدنى أثر لمثل هذا الاستعداد للتضحيات. وإنّ حكومتي تعجب من محتوى المذكَّرة. فالاقتراحات تتجاوز ما أقررناه فيما سُمّي بالمشروع الأنكلوفرنسيّ. وهي تحرمنا من جميع ضمانات المحافظة على وجودنا القومي. فعلينا أن نتنازل عن قواعد واسعة من تحصيناتنا المعدَّة بدقّة، وأن نترك للجيوش الألمانيّة أن تدخل إلى أماكن عميقة من أرضنا، قبل أن نكون قد تمكّنّا من تنظيمها على أساس جديد أو استطعنا أن نقوم بأقلّ التجهيزات الدفاعيّة. وإنّ استقلالنا الوطني والاقتصادي سيزول آليًّا مع تبنّي مشروع السيِّد هتلر. وخطّة نقل السكّان ستتحوّل إلى ذُعر قويّ بالنسبة لجميع الذين لن يقبلوا النظام النازيّ الألمانيّ. فعليهم أن يتركوا منازلهم حتى من غير أن يكون لهم الحقّ بنقل ممتلكاتهم الخاصّة، حتى ولا أبقارهم، إذا كانوا من الفلّاحين.

«وإنّ حكومتي تتمنّى أن أعلن بكلّ احتفاليَّة ممكنة أنّ مطالب السيِّد هتلر بشكلها الحالي مرفوضة مطلقًا وبلا قيد أو شرط، وتحسّ حكومتي بأنّها تجاه هذه المطالب الجديدة الطاغية ستلتزم مقاومة عظمى، وسوف تفعل ذلك بمعونة من الله. إنّ أمّة القدّيس وانسسلاس وجان هوس وتوماس مازاريك لن تكونَ أمّة عبيد. ونحن نعوّل على الدولتين الديموقراطيّتين الغربيّتين الكبيرتين اللتين تبعنا مشيئتهما ضدّ اجتهادنا الخاصّ لتكونا إلى

جانبنا في ساعة محنتنا».

وسأل شمبرلن: ـ هذا كلّ شيء؟

ـ هذا كلّ شيء.

قال: ـ ها نحن ذا إذن أمام مصاعب جديدة.

ولم يكن اللورد هاليفاكس يجيب، وكان واقفًا باستقامة كأنّه نَدَم، متحفّظًا محترمًا. وقال شمبرلن بجفاء: ـ إنّ الوزراء الفرنسيّين قادمون بعد ساعة. وأنا أجد هذه الوثيقة على أقلّ تقدير... في غير أوانها.

فسأل هاليفاكس في لهجة تهكّم:

ـ أتعتقد أنّ من شأنها أن تؤثّر على مقرّراتهم؟

فلم يجب الشيخ، وأخذ الورقة بيديه وجعل يقرأ وهو يهمهم. وصرخ فجأة مغتاظًا:

ـ الأبقار! ما شأن الأبقار هنا؟ إنّ هذا أخرق إلى حدٍّ بعيد.

قال اللورد هاليفاكس: ـ لا أجد ذلك أخرق إلى هذا الحدّ. بل لقد تأثّرت شخصيًّا.

قال الشيخ في ضحكة قصيرة: ـ تأثّرت؟ إنّنا يا عزيزي نعالج قضيّة. والذين سيتأثّرون سيخسرون اللعبة.

أقمشة حمراء ووردّية وبنفسجيّة، أثواب بنفسجيّة، أثواب بيضاء، صدورٌ عارية، نهود جميلة تحت المناديل، بقعٌ من الشمس على الطاولات، أيدٍ، سوائل لزجة ومذهّبة، أيدٍ أخرى، أفخاذٌ نابعة من السراويل القصيرة، أصوات مرحة، أثواب حمراء ووردّية وبيضاء، أصواتٌ مرحة تدور في الهواء، أفخاذ، فالس «الأرملة الطروب»، رائحة الصنوبر، والرّمل الحارّ، رائحة البحر بنكهة الفانيليا، جميع جزر العالم غير المرئيّة والحاضرة في الشمس، الجزيرة «تحت الريح»، «جزيرة الفصح»، جزائر «ساندويش»، حوانيت فاخرة على طول الشاطئ، مشمّع السيّدة ذو الثلاثة

آلاف فرنك، الدبابيس، الزهور الحمراء والورديّة والبيضاء، الأيدي، الأفخاذ. «الموسيقى صادرةٌ من هنا»، الأصوات المرحة التي تدور في الهواء، سوزان وحميتك؟ آه، طزّ، ولو لمرّة. الأشرعة فوق البحر والمتزلّجون الذين يقفزون وأذرعتهم ممدودة، من موجة إلى موجة، رائحة الصنوبر في نفحات، السلام. السلام في جوان ليبان. كان باقيًا هناك، مسترخيًا، منسيًا، يحمز طعمه. وكان الناس يتداعون فيه للاسترخاء، وكانت أشواك من الألوان وغابات من الموسيقى تخفي عنهم قلقهم الصغير المرتبك؛ كان ماتيو يمشي الهوينى على أرصفة المقاهي، وأرصفة الحوانيت، والبحر إلى شماله. ولم يكن قطار غوميز ليصل إلّا في الثامنة عشرة وسبع عشرة دقيقة؛ وكان ينظر إلى النساء، على مألوف عادته، وإلى أفخاذهنّ المسالمة، وإلى نهودهنّ المسالمة. ولكنّه كان على خطأ. إنّه منذ الساعة الثالثة وخمس وعشرين دقيقة على خطأ: ففي الساعة الثالثة وخمس وعشرين دقيقة انطلق قطار إلى مارسيليا. «إنّني لست هنا بعد، فأنا في مارسيليا، في مقهى من مقاهي جادّة «لاغار»، أنتظر قطار باريس، إنّني في قطار باريس. إنّني في باريس ذات صباح مشمس، أنا في ثكنة، أدور وأدور في باحة الثكنة، في «إيسي لينانسي». وفي إيسي لينانسي كفّ جورج عن الكلام، لأنّه كان مضطرًا إلى رفع صوته عاليًا، ورفعوا رؤوسهم، وكانت الطائرة تلامس السطوح في هدير راعدٍ، وتابع جورج الطائرةَ، فوق الجدران، فوق السطوح، فوق نانسي، في «نيورت. . ، كان في نيورت، في غرفته مع الصغيرة، وفي فمه ذلك المذاق من الغبار. ما عساه يقول لي؟ سينبثق من القطار، نشيطًا أسمر كمصطافي جوان ليبان، إنّي الآن في مثل سمرته، ولكن ليس لديّ ما أقوله له. كنت في طليطلة، وفي غوادالاجارا، وماذا كنت تفعل؟ كنت أعيش. . كنت في مالاغا، وقد تركت المدينة مع آخر من تركها، وماذا فعلت؟ لقد عشت. وفكّر في انزعاج، آه، إنّه صديق، هذا الذي أنتظره، وليس هو قاضيًا على أيّ حال.

كان شارل يضحك، ولم تكن تقول شيئًا، كانت ما تزال خجلة بعض الشيء، وكان يمسك بيدها ويضحك، وقال لها في رقّة: «إنّ كاترين اسم جميل». هو محظوظ، في آخر المطاف، فلقد خاض الحرب في إسبانيا، استطاع أن يشارك فيها، بلا أسلحة، بل هناك قنابل وديناميت ضدّ الدبّابات، أعشاش نسور «سيارا»، الحبّ في فنادق مدريد المقفرة، الدخان الشخصي اليسير في السهل، المعارك الفرديّة، إنَّ إسبانيا لم تخسر رائحتها؛ أمّا أنا، فتنتظرني حرب حزينة، حرب احتفاليّة ضجرة؛ فضدّ الدبّابات المدافعة، تقوم حرب جماعيّة وتكتيكيّة، وباء. وكانت إسبانيا هنا، خطأ يعدو في البعيد على صفحة الماء الزرقاء. وكانت مود مرتفقة المترسة تنظر إلى إسبانيا. إنّهم يتقاتلون هناك. وكانت الباخرة تنزلق في محاذاة الشاطئ؛ إنّهم هناك يسمعون المدفع؛ وكان هدير الموج يُسمع، وقفزت سمكة طائرة خارج الماء. كان ماتيو يسير باتّجاه إسبانيا، البحر إلى يساره، وفرنسا إلى يمينه. وكانت مود تنزلق في محاذاة الشاطئ، الجزائر إلى يسارها، وهي محمولة نحو اليمين، نحو فرنسا. وكانت إسبانيا ذلك النَّفَس الملتوي وذلك الضباب. كانت مود وماتيو يفكّران في الحرب الإسبانيّة، وهذا ما كان يريحهما من الحرب الأخرى، الحرب الجنزاريّة التي تُعَدّ إلى يمينهما. كان ينبغي الانزلاق نحو جدار الخرائب، والطواف به ثم العودة، وإذ ذاك تُنجز المهمّة. كان المراكشي يزحف بين الأحجار المسودَّة، وكانت الأَرض حارّة، وكان ثمَّة رملٌ تحت أظافر يديه وقدميه، وكان خائفًا يفكّر في طنجة. ففي أعلى طنجة، كان ثمّة بيت أصفر بطابق واحد يُرى منه التماع البحر السرمديّ. وكان يسكنه زنجيّ ذو لحية بيضاء، يضع في فمه حيّات ليسلّي الإنكليز. كان ينبغي التفكير بهذا البيت الأصفر. كان ماتيو يفكّر بإسبانيا، ومود تفكّر بإسبانيا، والمراكشي يزحف على أرض إسبانيا المشقّقة، يفكّر بطنجة ويحسّ نفسه وحيدًا. وانعطف ماتيو في طريق معميّة، وتهاوت إسبانيا واشتعلت، فلم تكن بعد إلّا بخار نار غير متميّز،

إلى يساره. نيس إلى اليمين، وفيما وراء نيس، ثقب، هو إيطاليا. المحطّة قبالته؛ قبالته فرنسا والحرب، الحرب الحقيقيّة، نانسي. كان في نانسي؛ كان، فيما وراء المحطّة، يسير نحو نانسي. ولم يكن به عطش، ولم يكن يشعر بالحرّ، ولم يكن تعبًا. كان جسمه تحته، غفلاً وقطنيًا؛ الألوان والأصوات، إشراقات الشمس، كانت الروائح تأتي لتدفن نفسها في جسمه؛ وهذا كلّه لم يكن يعنيه بعد. وفكّر: هكذا يحسّ المرء حين يداهمه المرض. ونقل فيليب صندوقه الصغير إلى يده اليسرى، كان مرهقًا، ولكن كان عليه أن يقاوم حتى المساء. حتى المساء: سأنام في القطار. وكانت سطيحة «تور دارجان» تطنّ كالخليّة، أثواب حمراء ورديّة وبنفسجيّة، جوارب من الحرير الصناعي، خدودٌ محمرّة، سوائل مسكِّرة، حشدٌ مائعٌ لزجٌ، وكان قلبه ينبض بالشفقة: سوف يُنتزعون من المقاهي ومن غرفهم، ومعهم ستقوم الحرب. كان مشفقًا عليهم، ومشفقًا على نفسه؛ كانوا يتألّمون في النور وهم لزجون، مكتظّون، يائسون. وأخذ فيليب فجأةً دوار من التعب والكبرياء: إنّني ضميرهم.

مقهى آخر. كان ماتيو ينظر إلى هؤلاء الرجال الجميلين السمر، السمينين، الممتلئين ثقة وتوازنًا، فكان يشعر بأنّه منفصل. كان الكازينو إلى يمينهم، وإلى يسارهم البريد، وخلفهم البحر، هذا كلّ شيء: ففرنسا وإسبانيا وإيطاليا مصابيح لا تضيء لهم أبدًا. إنّهم هناك، مركومون هناك جميعًا، والحرب شبح، وفكّر: إنّني شبح. سوف يكونون ملازمين ورؤساء، وسينامون في السرر، وسيحلقون ذقونهم كلّ يوم، ثم إنّ كثيرين منهم سيعرفون كيف يبتعدون عن خطّ النار. ولم يكن ليأخذ عليهم ذلك أحد. فما الذي كان يمكن أن يمنعهم من ذلك؟ أهو التضامن مع الذين يذهبون إلى الحرب؟ ولكنّي أنا ذاهب إلى الحرب. ولا أطلب أيّ تضامن. وفكّر فجأة: ولكن لماذا أذهب إليها؟ صاح فيليب، وقد دفعه أحدهم، «انتبه!»، وانحنى ليلمّ صندوقه، ولم يتنازل الشخص الطويل ذو الحذاء

البالي إلى الالتفات، فتمتم فيليب: «وحش!» وواجه المقهى، ونظر إلى الناس بعينين مريعتين. ولكن لم يكن ثمّة من لاحظ الحادث. كان هناك طفل يبكي، وكانت أمّه تمسح له عينيه بمنديل. وعلى الطاولة المجاورة، كان ثلاثة رجال جالسين أمام أقداح من عصير الليمون، والإرهاق بادٍ عليهم. وفكّر وهو يجيل نظره الذي لا يُحتمل في الحشد، إنّهم ليسوا أبرياء إلى هذا الحدّ. لماذا يذهبون؟ ليس عليهم إلّا أن يقولوا لا. وكانت السيّارة تجري. وكان دلادييه غارقًا في الوسائد يمصّ سيجارة مطفأة، وهو ينظر إلى المارّة.

كان يغيظه أن يذهب إلى لندن، فليس هناك أوپرا، وسوف يأكل كالخنزير. كانت امرأة مبعثرة الشعر تضحك فاغرة الفم، وفكّر: «إنّهم لا يدركون»، وهزّ رأسه. وفكّر فيليب: «يأخذونهم إلى المسلخ ولا يدركون. إنّهم يتقبّلون الحرب كما يتقبّلون المرض. وفكَّر بقوَّة: الحرب ليست مرضًا. إنّها شرّ لا يُحتمل، لأنّه يصدر عن الناس ويتّجه إلى الناس». ودفع ماتيو الباب الصغير، وقال للموظّف: «إنّني في انتظار صديق». وكانت المحطّة ضاحكة، مقفِرَة وصامتة كالمقبرة. لماذا تراني أذهب إلى الحرب؟ وجلس على مقعد أخضر. هناك من يرفض الذهاب. ولكن ليس هذا من شأني. يرفضون أو يشبكون أذرعتهم أو يهربون إلى سويسرا. لماذا؟ إنّني لا أفهم ذلك. وهذا ليس من شأني. والحرب في إسبانيا نفسها لم تكن من شأني، ولا الحزب الشيوعي. وتساءل في نوع من القلق: فما هو من شأني إذن؟ كانت الخطوط الحديديّة تلتمع، سوف يأتي القطار من الشمال. وإلى الشمال، في البعيد، تلك البحيرة اللامعة، حيث تلتقي الخطوط، كانت تولون ومارسيليا وبوربو وإسبانيا. حرب لا معقولة، وغير مبرَّرة، ويقول جاك إنّها خاسرة سلفًا. وفكّر: الحرب مرض. وشأني أن أحتملها كالمرض. من أجل لا شيء. بدافع من النظافة. سأكون مريضًا شجاعًا، هذا كلّ ما في الأمر. لماذا أخوضها؟ إنّني لا أقرّها. ولماذا لا أخوضها؟

إنّ جلدي لا يستحقّ حتى أن يُنقذ. وفكّر: هكذا، هكذا: إنّني مسوق! موظّف. والذي كانوا يتركونه له، إنّما هو صمود الموظّفين الحزين، أولئك الذين يحتملون كلّ شيء، الفقر والمرض والحرب، احترامًا منهم لأنفسهم. وابتسم، وقال في نفسه: «حتى هذا لا: إنّني لا أحترم نفسي». وفكّر فيليب: «شهيد، إنّهم بحاجة إلى شهيد». كان عائمًا، وكان يسبح في التعب، ولم يكن ذلك قبيحًا، ولكن كان ينبغي الاستغراق فيه، كلّ ما هنالك أنّه لم يكن يرى بعد بتبصّر، فقد كان إلى يمينه وإلى يساره مصراعان يسدّان عليه الطريق. كان الجمع يحاصره، والناس يخرجون من كلّ مكان، وأولاد يعدون بين ساقيه، وسحن تطرف عيونها من الشمس تنزلق فوق رأسه، تحت رأسه، السحنة نفسها دائمًا، مهتزّة، متهادية من أمام إلى وراء، نعم ـ نعم ـ نعم. نعم، سوف نقبل هذه الرواتب المجوّعة، نعم، سنذهب إلى الحرب، نعم، سندع أزواجنا يذهبون، نعم سنقف في الصفّ أمام المخابز وأولادنا بين أذرعتنا. الجمع، كان الجمع، هذا القبول الهائل الصامت. وفكّر فيليب، وخدّه ملتهب: وإذا شرحت لهم حطّموا رأسك، وركلوك بأقدامهم في غضب، وهم يصرخون: نعم. كان ينظر إلى هذه الوجوه الميّتة، ويقيس عجزه: لا يمكن أن نقول لهم شيئًا، فإنّما هم بحاجة إلى شهيد. إلى من ينتصب دفعة واحدة على أطراف أصابعه ويصرخ: «لا»، فيرتمون عليه ويمزّقونه. ولكن هذا الدم المراق من أجلهم، وعلى أيديهم، سيمنحهم قوّة جديدة، فتعمر نفوسهم روح الشهيد، وسيرفعون رؤوسهم، من غير أن تطرف عيونهم، ويتدحرج هدير رفض من طرف الجمع إلى طرفه الآخر، كالرعد. وفكّر: وأنا هو هذا الشهيد. وغمرته فرحةُ معذَّب، فرحةٌ أشدّ من أن تُحتمل، فانحنى رأسه، وترك الصندوق، وسقط على ركبتيه، وقد ابتلعه الإذعان العامّ.

وصاح ماتيو: ـ مرحبًا.

ركض غوميز إليه، عاري الرأس، ما يزال على جماله؛ وعلى عينيه

غمامة تجعله يخفض جفنيه، أين أنا؟ وكانت أصوات تقول فوقه: «ما به؟ إنّه مُصاب بدوار، ما هو عنوانك؟» وكان رأس ينحني فوقه، رأس امرأة عجوز، أتراها ستعضّني؟ عنوانك! كان ماتيو وغوميز يتبادلان النظر وهما يضحكان من فرط الجذل.. عنوانك، عنوانك، وبذل جهدًا عنيفًا ونهض. كان يبتسم، وقال: ـ ولكن ليس ثمّة شيء يا سيِّدتي، وإنّما هو الحَرّ. إنّي أسكن قريبًا جدًّا، وسأعود إلى البيت.

وقال أحدهم خلفه:

ـ يجب أن يُرافَق، فهو لا يستطيع أن يعود وحده (وضاع الصوت في هسيس أوراق): «نعم، نعم، نعم، يجب أن يُرافَق، يجب أن يُرافَق».

وصاح: ـ دعوني، دعوني لا تمسّوني. كلّا! كلّا! كلّا! كلّا! (ونظر إليهم مواجهة، نظر إلى عيونهم المتعبة، المصدومة وصاح): «كلّا» كلّا للحرب، كلّا للجنرال، كلّا للأمّهات المذنبات، كلّا لزيزيت وموريس، كلّا، دعوني وشأني. وابتعدوا، فأخذ يركض بحذاء من رصاص. كان يركض ويركض، فوضع أحدهم يده على كتفه، فحسب أنّه سينفجر باكيًا. كان شابًّا نضرًا ذا شارب صغير، مدّ له صندوقه الصغير، وقال وهو يضحك: ـ لقد نسيت صندوقك.

وتوقّف المراكشيّ: كانت حيّة، ظنّها غصنًا ميّتًا. حيَّة صغيرة، تحتاج إلى حجر لسحق رأسها. ولكنّ الحيّة اِلْتَوَت فجأة، وثلّمت الأرض بومضة سمراء ثم اختفت في الحفرة. وكان ذلك بشيرًا، لم يكن ثمّة شيء يتحرّك خلف الجدار. وفكّر: ستهدأ نفسي.

وأمسك ماتيو بكتفيْ غوميز قائلاً: ـ مرحبًا، مرحبًا كولونيل!

فبسم غوميز بسمة متكبِّرة غامضة، وقال: ـ بل جنرال.

فترك ماتيو يديه تسقطان: ـ جنرال؟ هكذا إذن، إنّكم تتقدّمون هناك بسرعة.

فقال غوميز من غير أن يكفّ عن الابتسام:

ـ إنَّ الملاكات ناقصة. ما أشدّ سمرتك يا ماتيو!

فقال ماتيو منزعجًا: ـ إنّها سمرة الرفاهية، يكسبها الإنسان على الشواطئ، حين لا يفعل شيئًا.

وكان يبحث على يديّ غوميز ووجهه آثار تجاربه ومحنه؛ وكان مستعدًّا لجميع ألوان الندم. ولكن غوميز لم يكن يكشف نفسه بهذه السرعة، وهو في حيويّته ودقّته وبذلته الفلانيل وجسمه الصغير المركوم: فقد كان يشبه في تلك اللحظة مصطافًا.

وسأل: ـ أين نذهب؟

قال ماتيو: ـ سنبحث عن مطعم صغير هادئ. إنّني أسكن في منزل أخي وزوجته، ولكنّي لا أدعوك إلى تناول العشاء عندهما: فليسا هما طريفين.

قال غوميز: ـ أريد مكانًا فيه موسيقى ونساء (ونظر إلى ماتيو في غير احتراس وأضاف) لقد قضيت ثمانية أيّام مع الأسرة.

قال ماتيو: ـ آه، حسنًا. سنذهب إذن إلى «البروفنسال».

وكان الخادم ينظر إليهما قادمين من غير قسوة، في هيئة مهنيّة. وكان واقفًا بجمود، مقوّس الظهر قليلاً، بين موزّعتي القسائم الآليّتين، وكانت الشمس تحمّر بندقيّته وقبّعته. فناداهما لدى مرورهما: ـ إلى أين؟

قال موريس: ـ «إيسي لينانسي».

ـ تخرج فتأخذ الترام إلى يسارك وتهبط إلى آخر الخطّ.

وخرجا. وكانت ساحة كئيبة كالتي تُرى أمام المحطّات، وفيها مقاهٍ وفنادق. وكان في السماء دخان. وقال دورنييه وهو يتنهّد:

ـ من الضروري تحريك الساقين.

ورفع موريس رأسه وابتسم، وهو يطرف بعينيه. قال بيير:

ـ ليس هناك من الترامات، ليس هناك من شيء!

ونظرت إليهما امرأة في ودّ:

ـ إنّه لم يصل بعد! إلى أين أنتما ذاهبان؟

قال موريس: ـ إلى إيسي لينانسي.

ـ لا بدّ أن تنتظر ربع ساعة طويلة. فهو يمرّ كلّ عشرين دقيقة.

قال دورنييه لموريس: أمامنا وقت لشرب قدح.

كان الجوّ رطبًا، والقطار يجري، والهواء أحمر، وأخذته رعشة سعادة فشدّ غطاءه، وقال: «كاترين!» فلم تجب. ولكن شيئًا ما لامس صدره، عصفورًا، وصعد على مهل إلى عنقه، ثم طار العصفور وحطّ فجأة على جبينه. كانت يدها، يدها الرقيقة المعطّرة، وقد انسربت على أنف شارل، ولامست الأصابعُ الخفيفة الشفتين. وكان ذلك يدغدغه. تناول اليد وشدّها إلى فمه. كانت دافئة. وأمسك المعصم بأصابعه، فأحسّ خفق النبض. وكان مغمضًا عينيه، يقبّل هذه اليد الدقيقة والنبض يخفق تحت أصابعه كقلب عصفور، وضحكت «كما لو أنّنا كنّا من العميان: التعرّف يحدث بالأصابع». ومدّ ذراعه بدوره، وكان يخشى أن يؤذيها، ولمس قضيب المرآة الحديدي ثم لمس شعرًا متدلّيًا على الغطاء، أشقر في أطراف أصابعه، ثم صدغًا ثم وجنة، رقيقة ريّا كجسم امرأة برمّته، ثم نشق أصابعه فم حارّ، وعضّتها أسنان، بينما كان ألف عقرب تنمّله من خاصرتيه حتى رقبته، وقال: «كاترين!» وفكّر: «إنّنا نتضاجع» وتركت يده وتنهّدت. نفخ موريس على قدحه، فأطار الزبد إلى الأرض الخشبيَّة، وشرب، وقالت: «ما هي تلك القوارب التي ينام فيها الناس جنبًا إلى جنب؟»، وشرق موريس شفتها العليا، فلحسها، وقال: «إنّها منعشة!» قال شارل: «لا أدري، لعلّها قوارب الغندول؟» «لا، ليس الغندول، على كلّ حال، لا بأس، سنكون في أحد هذه القوارب». فأخذ يدها، ودلفا جنبًا إلى جنب،

فوق الماء، وكانت عشيقته، النجمة ذات الشعر الذهبي الأصفر، وكان رجلاً آخر، وكان يحميها. قال لها: «أودّ لو أنّ القطار لا يصل أبدًا». كان دانيال يعضّ ريشته، وطُرق الباب، فأمسك نَفَسه، وكان ينظر إلى الورقة البيضاء على القرطاس من غير أن يراها. وقال صوت مارسيل: «دانيال! هل أنت هنا؟»، فلم يجب. وابتعدت خطى مارسيل الثقيلة، كانت تهبط السلّم، والدرجات تطقّ واحدة واحدة، وابتسم، وغطّ ريشته في الحبر وكتب: «عزيزي ماتيو» يد مشدودة في الظلّ، هسيس ريشة، وجه فيليب يخرج من الظلّ ويأتي للقائه، أصفر في ظلمات المرآة، حركة اهتزاز صغيرة، البيرة المثلّجة تقرقر في حنجرته وتقطع صفرته. السيّارة القاطرة تجتاز ثلاثة وثلاثين مترًا بين باريس وروان، لحظة إنسان، وثلاثة على الألف من لحظة الساعة العشرين من الرابع والعشرين من أيلول ١٩٣٨. لحظة ضائعة، متدحرجة خلف شارل وكاترين في الريف الحارّ، بين الخطوط، خلَّفها موريس في نشارة القهوة المظلمة الرطبة، سابحة في الثلم الذي تركه قارب شركة «باكيه» مأخوذة في بحيرات الحبر الرطب، لامعة ومتجفّفة بين ساقيْ حرف ـ M في اسم ماتيو. فيما تحكّ الريشة الورق وتمزّقه، بينما يمصّ دالادييه، وهو غارق في الوسائد، سيكارة مطفأة وهو ينظر إلى المارّة. كان يزعجه أن يكون في لندن، وكان يدير بعناد عينيه نحو الباب حتى لا يرى وجه بونيه القذر، والوجه المغلق لهذا الإنكليزي الأبله. كان يفكّر «إنّهم لا يدركون!» ورأى امرأة مبعثرة الشعر تضحك فاغرة الفم. وكانوا جميعًا ينظرون إلى السيّارة بهيئة لامُعبِّرة، وبينهم اثنان أو ثلاثة يصيحون «هوراه!» ولكنّهم لم يكونوا بالتأكيد يدركون أنّ السيّارة السوداء، التي كانت تجري في طريق لندن وهي تزمّر، إنّما كانت تحمل الحرب والسلم إلى داوننغ ستريت، الحرب أو السلم، وجه الفلس أو قفاه. كان دانيال يكتب. وكان الربّان قد وقف أمام باب صالة الدرجة الأولى ليقرأ: «هذا المساء في الساعة التاسعة، تقدِّم جوقة بابيس النسائيّة حفلة سمفونيّة

في الدرجة الأولى. جميع المسافرين، بلا تمييز في الدرجة، مدعوون إلى حضورها بترحاب». ونشق نَفَسًا من غليونه، وفكّر: «إنّها أهزل ممّا ينبغي»، وفي تلك اللحظة بالذات شمّ عطرًا دافئًا، وسمع خفق أجنحة صغيرًا، وكانت هي مود، فالتفت؛ وفي مدريد كانت الشمس الغاربة تذهّب الواجهة الخربة «للمدينة الجامعيّة»، وكانت مود تنظر إليه، فخطا خطوة، وكان المراكشيّ يدلف إلى الخرائب، وصوّب إليه البلجيكيّ، وكانت مود والربّان يتبادلان النظر. رفع المراكشيّ رأسه، فرأى البلجيكيّ، فتبادلا النظر، ثم فجأة، بسمت مود بسمة جافّة وأدارت رأسها، وضغط البلجيكيّ على الزناد، فمات المراكشيّ، وخطا الربّان خطوة نحو مود ثم فكّر: «إنّها أهزل ممّا ينبغي»، وتوقّف. قال البلجيكيّ «أيّها القذر الملعون!»، وكان ينظر إلى المراكشيّ الميِّت، ويقول «أيّها القذر الملعون!».

قال غوميز: ـ إذن، ومارسيل؟ لقد قالت لي سارة إنّ الأمر قد انتهى.

قال ماتيو: ـ نعم، لقد انتهى، وتزوَّجت دانيال.

قال غوميز: ـ دانيال سيرينو؟ إنّها فكرة عجيبة. على كلّ حال، لقد تحرّرت.

قال ماتيو: ـ تحرّرت، تحرّرت مِمّ؟

قال غوميز: ـ لم تكن مارسيل تناسبك.

قال ماتيو: ـ ربّما! يعني!

وكانت الطاولات المغطّاة بالخوانات البيضاء تحيط في شكل نصف دائرة حلبة رمليّة مزروعة بالصنوبر. وكان مقهى «البروفنسال» مقفرًا، وثمّة رجل واحد يأكل صدر دجاجة وهو يشرب ماء فيشي. صعد الموسيقيّون باسترخاء إلى المنصّة، وجلسوا في صخب للكراسي كبير، وأخذوا يهمسون فيما بينهم، بينما هم يوتّرون آلاتهم، وكان البحر ما يزال يُرى أسود عبر شجر الصنوبر. مدّ ماتيو ساقيه تحت الطاولة وشرب جرعة بورتو. للمرّة

الأولى منذ ثمانية أيّام، كان يشعر أنّه في بيته، وكان قد تجمّع دفعة واحدة، فأقام برمّته في هذا المكان الغريب الذي كان نصفه صالة خاصّة والنصف الآخر من الخشب المقدّس. وكان شجر الصنوبر يبدو مقتطعًا في ورق مقوًّى، وكانت المصابيح الورديّة الصغيرة، في وسط الليل الطبيعي الرقيق، تُسيل على الخوان ضوءًا أنيقًا؛ وأضاء بين الأشجار كشّافٌ للنور، فبيّض الحلبة فجأة، فبدت من الإسمنت. ولكنْ، كانت فوق رؤوسهم تلك الغيبة، وفي السماء، النجوم التي تشبه حيوانات صغيرة مجهدة، وكانت ثمّة تلك الرائحة الصمغيّة، ثم ريح البحر تلك المتحرّكة القلقة، كأنّها روح مرهقة، تتطاير لها الخوانات وترسل دفعة واحدة خطمها البارد في عنقك.

قال ماتيو: ـ لنتحدّث عنك.

فبدا غوميز مندهشًا، وسأل: ـ ألم يحدث لك شيء آخر؟

قال ماتيو: ـ لا.

ـ منذ عامين؟

ـ لا. ستجدني كما تركتني.

فضحك غوميز، وقال: ـ يا للفرنسيّ الملعون! إنّكم جميعًا خالدون.

كان عازف الساكسفون يضحك: وكان عازف الكمان يهمس في أذنه، وانحنت روبي نحو مود التي كانت توتّر كمانها؛ وقالت:

ـ انظري إلى العجوز؛ في الصفّ الثاني.

فانفجرت مود ضاحكة: كان العجوز أصلع كالبيضة، وجال بصرها في المستمعين، فكانوا يزيدون عن الخمسمئة. ورأت بيار واقفًا بالقرب من الباب، فكفّت عن الضحك. ونظر غوميز إلى عازف الكمان بهيئة غامضة، ثم ألقى نظرة على الكراسي الفارغة، وقال بصوت مستسلم:

ـ أظنّ أنّنا لن نجد زاوية صغيرة هادئة أفضل من هذه!

قال ماتيو: ـ وهناك موسيقى.

قال غوميز: ـ أرى ذلك. أراه جيّدًا.

وكان ينظر إلى الموسيقيين نظرة توبيخ. وكانت مود تقرأ التوبيخ في جميع هذه العيون، وكانت وجنتاها ملتهبتين، كشأنها كلّ مرّة، وكانت تفكّر: «أوه! يا إلهي! ما جدوى ذلك؟ ما جدوى ذلك؟»، أمّا فرانس، فكانت واقفة ثلاثيّة الألوان، تعطي جميع علامات السعادة. كانت تبتسم وتعطي إشارة القيادة سلفًا، وتمسك قوسها مرفوعة الخنصر، كما لو كان شوكة. قال غوميز: ـ لقد وعدتني بالنساء.

فقال ماتيو آسفًا: ـ أي نعم. لا أدري ماذا هناك: في الأسبوع الماضي، في مثل هذه الساعة، كانت جميع الطاولات مأخوذة. وأمّا النساء، فأقسم لك أنّهنّ كنّ كثيرات.

قال غوميز بصوته الرقيق: ـ إنّها الأحداث.

ـ بلا شكّ.

الأحداث، إنّ ذلك صحيح: فبالنسبة إليهم أيضًا، هناك، كانت «الأحداث» موجودة: إنّهم يقاتلون، مستندين إلى جبال البيرينيه، وعيونهم ملتفتة إلى فالانس، وإلى مدريد، وإلى تاراغون، لكنّهم يقرأون الصحف ويفكّرون بهذه الحركة الضاجّة للرجال والسلاح، خلف ظهورهم، وأنّ لهم آراءهم عن تشيكوسلوفاكيا وفرنسا وألمانيا. وتململ قليلاً فوق كرسيِّه: كانت سمكة قد اقتربت من زجاج حوض الأسماك. وأخذت تنظر إليه بعينيها المستديرتين. ومنح غوميز ضحكة صغيرة متواطئة، وقال بصوت غير مطمئن: ـ ذلك أنّ الناس بدأوا يفهمون.

قال غوميز: ـ بل هم لا يفهمون شيئًا على الإطلاق. يمكن للإسبانيّ أن يفهم وللتشيكيّ أيضًا، وربّما للألمانيّ، لأنّهم مشتركون في العمليّة. أمّا الفرنسيّون فليسوا في العمليّة، إنّهم لا يفهمون شيئًا: ولذلك فهم خائفون.

وأحسّ ماتيو بأنّه مجروح، فقال بحيويّة: ـ لا نستطيع أن نلومهم على

ذلك. أنا مثلاً ليس لي ما أخسره، ولا يزعجني كثيرًا أن أذهب، إنّ ذلك يغيِّرني. ولكن إذا كان المرء يحرص بشدّة على شيء، فأعتقد أنّه ليس من اليسير أن ينتقل من السلم إلى الحرب.

قال غوميز: ـ فعلت ذلك في ساعة واحدة. أتظنّ أنّني لم أكن حريصًا على رسمي؟

قال ماتيو: ـ الأمر عندك مختلف.

فهزّ غوميز كتفيه، وقال: ـ إنّك تتكلّم كسارة.

وصمتا. ولم يكن ماتيو يحترم غوميز إلى حدّ بعيد، كان يحترمه أقلّ ممّا يحترم برونيه أو دانيال. ولكنّه كان يشعر بأنّه مذنب أمامه، لأنّه كان إسبانيًّا. وارتعش. سمكة عند زجاج الحوض. وقد كان فرنسيًّا تحت هذا النظر، فرنسيًّا حتى العظم. مذنب، مذنب وفرنسيّ، وكانت به رغبة لأن يقول له: «ولكنّي كنت من دعاة التدخّل!» غير أنّ هذه لم تكن هي القضيّة. إنّ ما كان يتمنّاه شخصيًّا لا أهمّيّة له. لقد كان فرنسيًّا، وما كان يجديه شيئًا أن ينفصل عن سائر الفرنسيّين. لقد قرّرت عدم التدخّل في إسبانيا، ولم أرسل أسلحة، وأغلقت الحدود دون المتطوّعين. كان ينبغي أن أدافع عن نفسي مع الجميع؛ أو أدين نفسي مع الجميع، مع خادم المقهى، والسيِّد المتخوم الذي كان يشرب ماء فيشي، وقال:

ـ إنّي أحمق، فقد تصوّرت أنّك ستأتي بالثوب العسكريّ.

فابتسم غوميز:

ـ بالثوب العسكريّ؟ أتريد أن تراني بالثوب العسكريِّ؟

وأخرج رزمة الصور من محفظته، فمدّها لماتيو واحدة بعد الأخرى.

ـ هوذا الرجل.

ـ كان ضابطًا قاسي الملامح، واقفًا على درجات كنيسة.

ـ إنّ هيئتك غير لطيفة.

قال غوميز: ـ يجب ذلك.

ونظر إليه ماتيو وأخذ يضحك؛ وقال غوميز: ـ نعم، إنّها نكتة.

قال ماتيو: ـ لم أكن أظنّ ذلك، وإنّما كنت أتساءل عمّا إذا كانت هيئتي ستكون متوحِّشة كهيئتك لو لبست الثوب العسكريّ.

وسأل غوميز في اهتمام: ـ هل أنت ضابط؟

ـ بل عسكريّ عاديّ.

فندّت عن غوميز حركة انزعاج.

ـ إنّ جميع الفرنسيّين عساكر عاديّون.

فقال ماتيو بحيويّة: ـ وجميع الإسبان جنراليّة.

فضحك غوميز من كلّ قلبه، وقال وهو يمدّ له صورة: ـ انظر إلى هذه.

كانت فتاة صغيرة سمراء، جميلة جدًّا. وكان غوميز ممسكًا بقامتها وهو يبتسم تلك الابتسامة الراضية التي يطلقها دائمًا في الصور. وقال:

ـ مارس وفينوس.

قال ماتيو: ـ إنّني هنا أجدك على حقيقتك. ولكن قل لي: إنّك تأخذهنّ صغيرات.

ـ في الخامسة عشرة، ولكنّ الحرب تنضجهنّ. . وهأنذا في القتال.

ورأى ماتيو رجلاً صغيرًا قابعًا تحت شقّ جدار متهدِّم.

ـ أين هذا؟

ـ في مدريد. المدينة الجامعيّة. ما زال القتال دائرًا فيها.

لقد قاتل. لقد استلقى حقًّا خلف هذا الجدار، وكانوا يطلقون عليه النار. وكان آنذاك في رتبة نقيب، وربّما كان يفتقر إلى طلقات، فيفكِّر: «يا للفرنسيّين القذرين!»، كان غوميز قد انقلب على كرسيّه، ينهي شرب قدحه، وتناول علبة الثقاب بحركة هادئة فأشعل سيجارته، وانبثقت ملامحه المزهوّة

الهزليّة من الظلّ، ثم انطفأت. لقد قاتل؛ ولم يبق من ذلك شيء في عينيه. كان الليل يهبط فيلفّه بالعذوبة، وكان يزرقّ فوق المصباح الورديّ، والجوقة تعزف «نوتي كياروس ماس»، والهواء يحرِّك الخوان بهدوء. ودخلت امرأة، غنيّة ووحيدة، فجلست بالقرب منهما. طفا عطرها حتى أنفيهما، وشمّه غوميز بنهم وهو يمدِّد منخريه، وقسا وجهه، وأدار رأسه بهيئة باحث، فقال ماتيو: ـ إلى اليمين.

وحدَّد فيها غوميز نظرة ذئبيَّة، وكان قد أصبح جادًّا، فقال: ـ فتاة جميلة.

قال ماتيو: ـ إنّها ممثّلة. ولديها اثنا عشر تبّانًا للبحر، وهناك صناعيّ من ليون يُنفق عليها.

قال غوميز: ـ هِمْ!

وبادلته نظرته، ثم أدارت عينيها وهي تبتسم نصف ابتسامة. وقال ماتيو:

ـ إنّك لن تضيّع أمسيتك.

فلم يجب. وقد وضع مرفقه على الخوان، وكان ماتيو ينظر إلى يده المشعرة ذات الخاتم، التي كان ضوء المصباح يورِّدها. إنّه هنا، أزرق كلّ الزرقة، بيديه الورديّتين، وهو يتنشّق رائحة الشقراء هذه، . ويناديها بالنظر. لقد قاتل. وإنّ خلفه مدنًا محمرّة، ودوّامات من الغبار الأحمر، وقشرات مبشورة، وانفجارات صواريخ لا تلمع حتى في عينيه. لقد قاتل؛ وسيعود إلى القتال، وها هو هنا يرى هذه الخوانات البيضاء التي أراها. وحاول أن ينظر إلى شجر الصنوبر والحلبة والمرأة بعينيّ غوميز، هاتين العينين اللتين أحرقهما لهيب الحرب؛ ونجح في ذلك لحظة، ثم تلاشت الخشونة القلقة البازخة التي كانت قد اخترقته. لقد قاتل، وهو... كم هو حالم! وفكّر ماتيو: أمّا أنا، فلست حالمًا. قالت أوديت: «كلّا، صحنان فقط. إنّ

السيِّد ماتيو لن يعود لتناول العشاء». واقتربت من النافذة المفتوحة، وكانت تسمع موسيقى «البروفنسال» وكان موسيقى تانغو. كانوا يستمعون إلى الموسيقى: وكان ماتيو يفكِّر: «إنّه يمرّ مرورًا عابرًا». وقدّم لهما الخادم الحساء، فقال غوميز «لا، لا حساء». كنّ يعزفن «تانغو القطّة»؛ وكان كمان فرانس يقفز في النور ويغطس فجأة في الظلّ كسمكة طائرة. كانت فرانس تبتسم، وهي مغمضة الجفنين نصف إغماض، وكانت تغطس خلف كمانها والقوس يحتكّ، والكمان يموء، وكانت مود تستمع إلى الكمان يموء عند أذنها، وتستمع إلى السيِّد الأصلع يسعل، وكان بيار ينظر إليها، وأخذ غوميز يضحك، ولم تكن هيئته راضية، فقال:

ـ تانغو، تانغو! لو كان فرنسيّون يفكِّرون بأن يعزفوا تانغو كهذا، في مقهى بمدريد. . .

فسأله ماتيو: ـ لرموهم بتفّاح مطبوخ؟

فقال غوميز: ـ بل بالحجارة!

وسأله ماتيو: ـ ألا يحبّوننا كثيرًا هناك؟

فقال غوميز: ـ بلى!

دفع الباب: كان «البار الباسكي» خاليًا. وقد دخله بوريس مساءً بسبب اسمه: «البار الباسكي»، وكان ذلك يذكِّر بكلمة «بارباك»، وهي كلمة لا يستطيع أن يلفظها من غير أن يضحك. ثم حدث أنّ البار كان فاخرًا تمامًا، فأضحى بوريس يتردّد إليه كلّ مساء، بينما تكون لولا في عملها. ومن النوافذ المفتوحة، كانت تُسمع موسيقى الكازينو البعيدة؛ بل لقد حسب مرّة أنّه يسمع صوت لولا، ولكن ذلك لم يحدث مرّة أخرى. وقال صاحب الحانة: ـ مرحبًا، يا سيِّد بوريس.

قال بوريس: ـ مرحبًا يا معلِّم. أعطني من فضلك قدح روم أبيض.

وكان يحسّ نفسه تقيًا، ويفكِّر بأن يشرب قدحين من الروم الأبيض

وهو يدخّن غليونه؛ وحوالى الساعة الحادية عشرة، يمنح نفسه سندويشًا بالمقانق، وقرابة منتصف الليل، سيذهب ليصحب لولا. انحنى المعلّم عليه وملأ قدحه، فسأله بوريس: ـ أليس المارسيلي هنا؟

قال المعلّم: ـ لا. لديه وليمة مهنيّة.

ـ أوه! عفوًا!

كان المارسيليّ وكيلاً للبيع، وكان هناك أيضًا شخص يُدعى شارليه، وهو عامل مطبعة. وكان بوريس يلعب معهما أحيانًا بالورق، وأحيانًا أخرى يتحدَّثون بالسياسة والرياضة أو يبقون جالسين من غير أن يقولوا شيئًا، بعضهم عند المشرب، والبعض الآخر على الطاولات الداخليّة. وبين الفينة والفينة، كان شارليه يقطع الصمت ليقول: «نعم، نعم، نعم الأمر هكذا»، وهو يهزّ رأسه، وكان الوقت يمرّ بمرح، وقال بوريس: ـ الزبائن قليلون اليوم.

فهزّ المعلّم كتفيه، وقال وهو يعود إلى المشرب:

ـ إنّهم جميعًا يفرنقعون. وأنا عادة أبقى فاتحًا حتى عيد جميع القدّيسين. ولكن إذا استمرّ الحال هكذا، أغلقت الحانة في تشرين الأوّل وعدت إلى أرضي.

فانقطع بوريس عن الشرب وظلّ مأخوذًا، على كلّ حال، فإنّ عَقْد لولا ينتهي أجله في أوّل تشرين الأوّل، وسيكونان آنذاك قد ذهبا. ولكنّه لم يكن يحبّ أن يفكّر بأنّ «البار الباسكي» سيُغلق أبوابه خلف ظهرهما. والكازينو أيضًا سيُغلق، وجميع الفنادق، ويظلّ بياريتز مقفرًا. كان ذلك يشبه التفكير بالموت: فلو أنّك واثق بأنّ رجالاً آخرين سيشربون بعدك أقداح روم أبيض، وسيأخذون حمّامات شمس، وسيسمعون ألحان جاز، إذن لأحسست بالعزاء؛ ولكن إذا وجب أن تفكّر بأنّ الجميع سيموتون في الوقت نفسه، وأنّ الإنسانيّة بعدك ستغلق أبوابها، فلن يكون في ذلك أيّ

شيء مفرح. وسأل ليطمئنّ:

ـ ومتى تعود إلى الفتح؟

قال المعلِّم: ـ إذا وقعت الحرب، فلن أعود إلى الفتح أبدًا.

وعدّ بوريس على أصابعه: ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠، سأعود إلى هنا خمس مرّات أخرى، ثم ينتهي كلّ شيء، فلا أرى بعد البار الباسكي أبدًا. كان ذلك مضحكًا. خمس مرّات. سيشرب الروم الأبيض خمس مرّات أخرى على هذه الطاولة، ثم تقع الحرب، ويغلق البار الباسكي، وفي تشرين الأوّل ٣٩، سيكون بوريس مجنَّدًا. وكانت مصابيح بشكل الشمع مزروعة على تعليقات من خشب السنديان تلقي على الطاولات ضوءًا جميلاً أحمر. وفكّر بوريس: لن أرى بعدُ أبدًا هذا الضوء، هذا الضوء بالذات: أحمر على أسود. سيرى طبعًا أضواء كثيرة أخرى، فالصواريخ الليليّة فوق ساحات القتال ليست شيئًا رديئًا. ولكن هذا الضوء بالذات سينطفئ أوّل تشرين، ولن يراه بوريس بعد أبدًا. وتأمّل في هيبة بقعة ضياء كانت تمتدّ فوق الطاولة، وفكّر بأنّه كان مذنبًا. كان يعامل الأشياء دائمًا على طريقة الملاعق والشوكات، كما لو أنّها كانت دائمًا قابلة للتجديد: وكان ذلك خطأ فاضحًا. إنّ هناك عددًا محدودًا من الحانات ودور السينما والبيوت والمدن والقرى، ولم يكن فرد معيّن يستطيع أن يذهب إلى أيّ منها إلّا عددًا محدودًا من المرّات.

وسأل المعلِّم: ـ هل تريد أن أدير الراديو؟ إنّ ذلك يُذهب عنك الملل!

قال بوريس: ـ لا، شكرًا. هكذا لا بأس.

في لحظة موته، عام ٤٢، سيكون قد تغذّى ٣٦٥ × ٢٢ مرّة تساوي ٨٠٣٠، إذا حسب وقعاته أيضًا كرضيع. وإذا أقررنا بأنّه قد أكل عجّة بالبيض مرّة على كلّ عشر مرّات؛ يكون قد أكل ٨٠٣ عجّات. وقال في

نفسه مندهشًا: ٨٠٣ عجّات فقط؟ آه كلّا! هناك أيضًا العشاء، ممّا يجعل الوقعات ١٦٠٦٠ و١٦٠٦ عجّات. مهما يكن من أمر، فليس ذلك بالشيء العظيم، بالنسبة لهاوٍ. وتابع: والمقاهي؟ بوسعي أن أعدّ المرّات التي أقصد فيها المقاهي بعد. فلنفرض أنّي أقصدها مرّتين اثنتين كلّ يوم، وأنّي سأجنَّد بعد عام، فتكون ٧٣٠ مرّة. ٧٣٠ مرّة! كم هو قليل! ولقد أحسّ من ذلك بصدمة، ولكنّه لم يكن مندهشًا بصورة استثنائيّة. لقد كان يعرف دائمًا بأنّه سيموت شابًا. وقد حدَّث نفسه غالبًا بأنّه سينتهي مسلولاً أو مقتولاً بيد لولا. ولكنّه لم يكن يشكّ في أعماق نفسه لحظة بأنّه لن يموت في الحرب. كان يعمل ويُعدُّ شهادة البكالوريا أو الليسانس، ولكنّ ذلك كان غالبًا بدافع تمضية الوقت، كالفتيات اللواتي يحضرن دروسًا في السوربون بانتظار أن يتزوَّجن. وقال في نفسه: هذا طريف. لقد جاءت عهود كان الشبّان يُعدّون فيها شهادة الحقوق أو الأغريغاسيون بالفلسفة، وهم يفكِّرون بأنّهم سيكون لهم مكتب كاتب عدل في الأربعين، أو تقاعد أستاذ في الستّين. وأنّ المرء ليتساءل عمّا عساه يمكن أن يدور في رؤوسهم. أشخاص ستكون أمامهم ١٠,٠٠٠ أو ١٥,٠٠٠ أمسية في المقهى، و٤٠٠٠ عجّة، و٢٠٠٠ ليلة غرام! وإذا كانوا يتركون مكانًا يروق لهم، فإنّ بوسعهم أن يقولوا لأنفسهم بالتأكيد: سنعود إليه في السنة القادمة، أو بعد عشر سنوات. إنّنا لا نستطيع أن نقود حياتنا على بعد أربعين عامًا. وقال مقرِّرًا في قسوة: لا بدّ أنّهم يرتكبون حماقات! أمّا هو، فقد كان أكثر تواضعًا. كانت لديه مشاريع لعامين، وبعد ذلك، سينتهي كلّ شيء. يجب أن يكون الإنسان متواضعًا. ومرّت سفينة شراعيّة فوق «النهر الأزرق»، فحزن بوريس فجأة. إنّه لن يذهب أبدًا إلى الهند أو الصين أو المكسيك، حتى ولا إلى برلين، وأنّ حياته لأشدّ تواضعًا ممّا يتمنّى. بضعة أشهر في إنكلترا، في لاون، في بياريتز، في باريس ـ وهناك من طافوا حول العالم. امرأة واحدة. لقد كانت حياة صغيرة جدًّا؛ وهي تبدو الآن وكأنّها قد انتهت

بالفعل، لأنّنا نعرف سلفًا كلّ ما لن تحتوي عليه، يجب أن يكون المرء متواضعًا. ونهض، فشرب جرعة روم وفكّر: هذا أفضل، إنّ المرء لا يتعرّض للتبذير.

ـ قدح روم آخر.. يا معلِّم.

رفع رأسه، وتأمل المصابيح الكهربائيّة في تدقيق.

دقّت الساعة تجاهه، فوق المرآة؛ وكان يرى وجهه في المرآة. وفكّر: إنّها التاسعة والخامسة والأربعون. وفكّر: «عند الساعة العاشرة»، ونادى الخادمة: ـ واحد آخر.

فذهبت الخادمة، وعادت بزجاجة الخمر مع صحن صغير. وسكبت الخمر في قدح فيليب، ووضعت الصحن على الأقداح الثلاثة الأخرى. كانت على شفتيها بسمة ساخرة، ولكن فيليب نظر إليها محدِّقًا في عينيها بتبصّر؛ وتناول القدح بحزم ورفعه من غير أن ينثر منه قطرة؛ وشرب جرعة ثم وضع القدح من غير أن يغادر بعينيه عينيِّ الخادمة:

ـ كم؟

فسألته: ـ أتريد أن تدفع؟

ـ أريد أن أدفع فورًا.

ـ إذن، اثنا عشر فرنكًا.

وأعطاها خمسة عشر فرنكًا، وطردها بيده. وفكّر: لست مدينًا لأحد بشيء بعد! وضحك قليلاً، خلف يده. وفكّر: لست مدينًا لأحد أبدًا! ورأى نفسه يضحك عبر المرآة، فأضحكه ذلك. حين تنتهي آخر دقّة من الدقّات العشر، سينهض، وينتزع من المرآة صورته، ويبدأ الاستشهاد. أمّا الآن، فهو يشعر أنّه يميل إلى المرح، وكان يتأمّل الموقف كهاوٍ. كان المقهى حفيًا، وكانت المدينة «كابو»، وكان المقعد طريًّا كفراش من ريش، وكان غارقًا فيه، وموسيقى ناعمة تأتيه من خلف المشرب، وكذلك ضجّة

صحون تذكّره بأجراس البقر في ساليسبورغ. كان يرى نفسه في المرآة، وقد كان بوسعه أن يظلّ جالسًا ينظر إلى نفسه ويستمع إلى هذه الموسيقى إلى الأبد. عند الساعة العاشرة، سينهض ويأخذ صورته بين يديه، فينتزعها من المرآة كجلدٍ ميِّت، كقذى في عين. «مرايا الشلّال...».

شلّالات النهار.

في مرايا الشلّال.

أو:

غار النهار شلّالاً في مرآة الشلّال.

أو:

نياغارا النهار شلّال في مرآة الشلّال.

وسقطت الكلمات رمادًا، وتشبّث بالمرمر البارد. إنّ الريح تحملني، وكان في حلقه ذلك الطعم الخمري اللزج. «الشهيد». ونظر إلى نفسه في المرآة، وفكّر بأنّه كان ينظر إلى الشهيد؛ وبسم لنفسه وحيّا نفسه. الساعة العاشرة إلّا عشر دقائق. وفكّر في رضى: ها! إنّي أجد الوقت طويلاً. خمس دقائق قد مضت، وكأنّها أبد. يبقى بعد أبدان، بلا حركة، بلا تفكير، بلا ألم وهو يتأمّل وجه الشهيد الجميل الضامر، ثم يغور الزمن هادرًا في سيّارة، في القطار، حتى جنيف.

طمأنينة الروح.

نياغارا الزمن.

نياغارا النهار.

في مرايا الشلّال.

أنا ذاهب في سيّارة.

إلى كوبورج، إلى بييراكت.

ومنها أكت، ومنها أكت.

ومنها كاتاراكت[1].

وضحك، وكفّ عن الضحك، ونظر فيما حوله، وكان المقهى يبعث رائحة المحطّة، والقطار والمستشفى؛ وكانت به رغبة إلى طلب النجدة. سبع دقائق. وفكّر: ما الذي سيكون أكثر ثورويّة؟ الذهاب أم عدم الذهاب؟ إذا ذهبت، قمت بالثورة ضدّ الآخرين، وإذا لم أذهب قمت بها ضدّ نفسي، وهذا أقوى. أكون قد أعددت كلّ شيء، سرقت، وحُملت على تزوير الأوراق، وقطعت جميع الصلات، ثم في آخر لحظة: مساء الخير، إنّني غير ذاهب! الحرّيّة في درجتها الثانية؛ الحرّيّة التي تنكر الحرّيّة. وعند الساعة العاشرة إلّا عشر دقائق، قرّر أن يُخضع ذهابه لقُرعة وجه الفلس أو قفاه. وكان يرى بوضوح ساعة محطّة «دورساي» وهي مقفرة تسيل نورًا، والسلّم الذي يغور تحت الأرض، في دخان المحرّكات، وكان في فمه مذاق دخان؛ وتناول قطعة الأربعين فلسًا: القفا أذهب؛ وقذفها في الهواء، قفا، أذهب! قفا، أذهب! فسقطت قفا. وقال لصورته: إنّني إذن أذهب! لا لأنّي أكره الحرب، ولا لأنّي أكره أسرتي، ولا لأنّني قرّرت أن أذهب: وإنّما بدافع الصدفة المحض؛ لأنّ قطعة نقود سقطت على وجهٍ دون الوجه الآخر. وفكّر: رائع؛ إنّني في ذروة الحرّيّة القصوى. الشهيد المجّاني؛ حبّذا لو رأتني أرمي الفلس في الهواء! دقيقة بعدُ. ضربة زهر! دنغ، أبدًا؛ دنغ، دنغ ضربة، دنغ، زهر، دنغ، لا تهـ، دنغ، دنغ، لدم، دنغ، دنغ، الصدفة. دنغ! ونهض، وكان يمشي باستقامة، وكان يضع قدميه إحداهما وراء الأخرى، وعلى حزّ من الأرض الخشبيّة، وكان يشعر بنظر الخادمة على ظهره، ولكنّه لن يسمح لها بالضحك. ونادته:

ـ يا سيِّد!

---

(١) الكلمة الأخيرة تعني «الشلّال»، وواضح أنّ هنا تلاعبًا على الألفاظ بالأصل الفرنسي بقصد السجع. (المترجم).

فاستدار مرتجفًا.

ـ صندوقك.

خراء! واجتاز القاعة وهو يعدو، فتناول صندوقه وأخذ يترنّح. وبلغ الباب على مشقّة وسط الضحك، وخرج، فنادى سيّارة تاكسي. وكان يمسك صندوقه بيده اليسرى، وكان يشدّ بيده اليمنى على قطعة الأربعين فلسًا. وتوقّفت السيّارة أمامه.

ـ إلى أين؟

وكان للسائق شارب، وعلى خدّه تؤلؤل. قال فيليب:

ـ شارع بيغال. إلى «الكابان كوبين».

قال غوميز: ـ لقد خسرنا الحرب.

كان ماتيو يعرف ذلك، ولكنَّه كان يفكِّر بأنّ غوميز لم يكن يعرفه بعد. وكانت الجوقة تعزف «إنّني أبحث عن سالي»، وكانت الصحون تلمع تحت المصباح، وضوء كاشف النور يسقط على الحلبة كضوء قمر ممسوخ، ضوء قمر ـ إعلاني من أجل هونولولو. وكان غوميز جالسًا هنا، وضوء القمر يرقد إلى يمينه، وإلى يساره امرأة تبسم له نصف بسمة؛ كان موشكًا على العودة إلى إسبانيا، ويعلم أنّ الجمهوريين قد خسروا الحرب. وقال ماتيو:

ـ إنّكم لا تستطيعون أن تكونوا واثقين من ذلك. لا يستطيع أحد أن يكون واثقًا.

قال غوميز: ـ بلى، إنّنا نحن واثقون من ذلك.

ولم يكن يبدو حزينًا: كلّ ما في الأمر أنّه كان يُبدي ملاحظة. وكان ينظر إلى ماتيو نظرة هادئة متحرِّرة، وقال:

ـ إنّ جميع جنودي واثقون من أنّنا خسرنا الحرب.

فسأله ماتيو: ـ وهم مع ذلك يقاتلون؟

ـ وماذا تريدهم أن يفعلوا؟

وهزّ ماتيو كتفيه:

ـ طبعًا.

إنّني آخذ قدحي، وأشرب جرعتين من «شاتو مارغو»، ويُقال لي: إنّهم يقاتلون حتى آخرهم، فليس لهم بعدُ شيء آخر يفعلونه، وأشرب جرعة من شاتو ـ مارغو، وأهزّ كتفيّ، وأقول: طبعًا. قذر.

سأل غوميز: ما هذا؟

قال الخادم: ـ إنّهما شريحتا روسيني.

قال غوميز: ـ آه، نعم، هاتهما.

وتناول منه الصحن ووضعه على الطاولة، وقال:

ـ لا بأس، لا بأس.

الشريحتان على الطاولة، واحدة له والأخرى لي. وله الحقّ في أن يتذوّق قطعته، وله الحقّ في أن يمزّقها بأسنانه البيضاء الجميلة، وله الحقّ بأن ينظر إلى الفتاة الجميلة إلى يساره وأن يفكّر: الشيطانة الجميلة! أمّا أنا، فلا. فإذا أكلت، قفز إلى حلقي مئة إسبانيّ ميّت. إنّني لم أدفع.

قال غوميز: ـ إشرب. إشرب.

وتناول الزجاجة فملأ قدح ماتيو. وقال ماتيو وهو يطلق ضحكة صغيرة:

ـ أنت الذي تدعوني إلى ذلك راجيًا.

وأخذ القدح، فأفرغه. فإذا بالشريحة فجأة في صحنه. وأخذ شوكة وسكّينًا، وتمتم:

ـ فلو كانت إسبانيا هي التي تدعوني...

فلم يبد على غوميز أنّه يسمعه. وكان قد سكب لنفسه قدحًا من «شاتو ـ مارغو» فشرب وابتسم، وقال: ـ اليوم شريحة، وغدًا حمّص. إنّها

الأمسية الأخيرة التي أقضيها في فرنسا. وهذا هو العشاء الوحيد اللذيذ الذي تناولته فيها.

قال ماتيو: كيف، وفي مرسيليا؟

قال غوميز: ـ إنّ سارة نباتيّة.

وكان ينظر باستقامة أمامه، وكان مظهره يُشعر بالودّ. وقال:

ـ حين ذهبت في مأذونيّتي، كان قد مضى على برشلونة ثلاثة أسابيع وهي بلا تبغ. فما رأيك بمدينة برمّتها لا تدخِّن؟

وأدار عينيه إلى ماتيو، وبدا فجأة وكأنّه يراه. واستعاد نظره ملاءمة مزعجة، وقال:

ـ ستعرف هذا كلّه.

قال ماتيو: ـ ليس ذلك أكيدًا. لا يزال من الممكن تجنّب الحرب.

قال غوميز: ـ أوه! طبعًا. من الممكن دائمًا تجنّب الحرب.

وضحك ضحكة قصيرة، وأضاف:

ـ يكفي أن تتخلّوا عن التشيكيين.

وفكّر ماتيو: «كلّا يا عزيزي، كلّا يا عزيزي! إنّ بوسع الإسبان أن يعطوني درسًا بالنسبة لإسبانيا، فهذا فرعهم. أمّا بالنسبة للدروس التشيكوسلوفاكيّة، فإنّي أطلب تشيكيًّا».

وسأل: ـ بصراحة، يا غوميز، هل يجب أن نساعدهم؟ إنّه لم يمض وقت طويل على مطالبة الشيوعيين بمنح ألمان السوديت استقلالهم.

فسأل غوميز مقلّدًا ماتيو:

ـ هل يجب أن نساعدهم؟ هل كان يجب أن تساعدونا؟ هل كان يجب أن تساعدوا النمسويين؟ وأنتم، من الذي يساعدكم حين يأتي دوركم؟

قال ماتيو: ـ نحن غير واردين.

فقال غوميز: ـ بل أنتم واردون. من هم الواردون؟

وقال ماتيو: ـ كلّ شريحتك يا غوميز. إنّني أفهم جيّدًا لماذا تحتقروننا. ولكنْ، هذه آخر أمسية من مأذونيّتك، واللحم يبرد في صحنك. هناك امرأة تبتسم لك، ثم إنّني بعد كلّ حساب كنت من دعاة التدخّل.

قال غوميز مبتسمًا: ـ أعرف، أعرف جيّدًا.

وقال ماتيو: ـ ثم اسمع: كان الوضع في إسبانيا واضحًا. ولكن حين جئت تحدِّثني عن تشيكوسلوڤاكيا، فإنّي لا أتابعك، لأنّ الوضع هنا أشدّ غموضًا. هناك مسألة حقوقيّة لا أتوصّل إلى البتّ فيها: فماذا يكون الأمر إذا لم يرد ألمان السوديت أن يكونوا تشيكيين؟

قال غوميز وهو يهزّ كتفيه: ـ دع المسائل الحقوقيّة. هل تبحثون عن سبب لخوضكم القتال؟ ليس هناك إلّا سبب واحد: إذا لم تقاتلوا كنتم هالكين. إنّ ما يريده هتلر ليس هو براغ ولا ڤيينّا ولا دانتزيغ: وإنّما يريد أوروبا.

نظر دالادييه إلى شمبرلن، ونظر إلى هاليفاكس، ثم صرف عينيه لينظر إلى ساعة مذهّبة موضوعة على منضدة بهو، وكان عقرباها يشيران إلى العاشرة وخمس وثلاثين؛ وتوقّفت السيّارة أمام الكبان كوبين، وانقلب جورج على ظهره وأنّ قليلاً، فقد كان شخير جاره يمنعه من النوم.

قال دالادييه: ـ لا يسعني إلّا أن أكرِّر ما سبق أن صرّحت به: لقد أخذت الحكومة الفرنسيّة التزامات تجاه تشيكوسلوڤاكيا. فإذا ظلّت حكومة براغ على رفضها للعروض الألمانيّة، وإذا أصبحت، بنتيجة هذا الرفض، ضحيّة هجوم، فإنّ الحكومة الفرنسيّة ستجد نفسها مضطرّة إلى القيام بالتزاماتها.

وسعل، ونظر إلى شمبرلن، وانتظر.

قال شمبرلن: ـ نعم. نعم. طبعًا.

وبدا مستعدًّا لإضافة بضع كلمات، والكلمات لم تأتِ، وكان دالادييه

ينتظر وهو يخطّ بطرف قدمه دوائر على السجّادة. وانتهى به الأمر إلى أن يرفع رأسه ويسأل بصوت متعب:

ـ ما عساه يكون موقف الحكومة البريطانيّة في هذه الحالة؟

نهضت فرانس وءمود ودوسيت وروبي، وألقين التحيّة. وحدث في الصفوف الأولى تصفيق مائع، ثم انسرب الجمع وسط ضجّة كبيرة للكراسي. وبحثت مود بنظرها عن بيار، ولكنّه كان قد اختفى. والتفتت فرانس نحوها، وكان خدّاها ملتهبين، فيما كانت تبتسم.

وقالت: ـ كانت أمسية ناجحة. أمسية ناجحة حقًّا.

كانت الحرب هنا، على الحلبة البيضاء.. كانت الإشراق الميِّت لضوء القمر الاصطناعي، والحموضة المزيّفة للبوق المسدود، وهذا البرد على الخوان في رائحة الخمر الأحمر، وهذه الشيخوخة الخفيّة في ملامح غوميز: الحرب، الموت، الهزيمة. كان دالادييه ينظر إلى شمبرلن، وكان يقرأ الحرب في عينيه؛ وكان هاليفاكس ينظر إلى بونيه، وبونيه ينظر إلى دالادييه، كانوا صامتين؛ وكان ماتيو ينظر إلى الحرب في صحنه، وفي مرقة الشريحة السوداء المعظّمة.

ـ وإذا خسرنا نحن أيضًا الحرب؟

قال غوميز في خفّة: ـ ستصبح أوروبا فاشيّة إذن. وليس هذا إعدادًا رديئًا للشيوعيّة.

ـ وما يكون مصيرك يا غوميز؟

ـ أعتقد أنّ أنصارهم سيقتلونني في غرفة مفروشة، أو أنّني أهرب إلى أميركا. فماذا في ذلك؟ أكون قد عشت.

ونظر ماتيو إلى غوميز في فضول، وسأله:

ـ ولن تتحسّر على شيء؟

ـ إطلاقًا.

ـ حتى ولا على الرسم؟

ـ حتى ولا على الرسم.

هزّ ماتيو رأسه في حزن. كان يحبّ لوحات غوميز، وقال:

ـ كنت ترسم لوحات جميلة.

ـ لن أستطيع أبدًا أن أرسم.

ـ لماذا؟

ـ لا أدري. القضيّة جسميَّة. لقد فقدت الصبر؛ وسيبدو لي ذلك مضجرًا.

ـ ولكنّ الحرب تقتضي الصبر أيضًا!

ـ ليس هو الصبر نفسه.

وصمتا. وأتى الخادم بأقراص المعجّنات على آنيّة من قصدير، فرشَّها بالروم والخمر، ثم أدنى من الآنية عودًا مشتعلاً. وتأرجح طيف من لهب ذات لحظة في الهواء.

وقال ماتيو فجأة: ـ غوميز! إنّك، أنت، أَنت قويّ، وأنت تعرف لماذا تقاتل.

ـ أتعني أنّك لن تعرف ذلك أنت؟

ـ بلى. أعتقد أنّي سأعرفه. ولكنّي لم أكن أقصد نفسي. إنّ هناك أشخاصًا لا يملكون إلّا حياتهم يا غوميز. وليس ثمّة من يفعل شيئًا من أجلهم. ليس هناك أيّ شخص، ولا أيّة حكومة، ولا أيّ نظام. فإذا حلّت الفاشيّة هنا محلّ الجمهوريّة، فلن يلاحظوا ذلك. خذ راعيًا من منطقة «سيفين». أتعتقد أنّه يعرف لماذا هو يقاتل؟

قال غوميز: ـ إنّ الرعاة عندنا أشدّ المقاتلين حماسة.

ـ لماذا يقاتلون؟

ـ هذا يتوقّف. لقد عرفت منهم من يقاتل لتعلّم القراءة.

قال ماتيو: ـ أمّا في فرنسا، فالجميع يعرفون القراءة. فإذا التقيت في فرقتي راعيًا من «سيفين»، ورأيته يموت إلى جانبي ليحافظ على جمهوريّتي وعلى حرّيّاتي، فأقسم لك بأنّي لن أكون فخورًا. أوه يا غوميز، ألا تشعر أحيانًا بالخجل: جميع هؤلاء الذين ماتوا في سبيلك؟

قال غوميز: ـ إنّ هذا لا يزعجني. فأنا أعرّض حياتي مثلهم.

ـ إنّ الجنراليّة يموتون في سررهم.

ـ لم أكن دائمًا جنرالاً.

قال ماتيو: ـ مهما يكن من أمر، فليست القضيّة متشابهة.

وقال غوميز: ـ إنّني لا أرثي لهم. ولا تأخذني عليهم الشفقة.

ومدّ يده فوق الخوان وقبض على معصم ماتيو، وقال بصوت منخفض بطيء: إنّ الحرب شيء جميل يا ماتيو.

وكان وجهه يشتعل. حاول ماتيو أن يتخلّص، ولكن غوميز شدّ ذراعه بقوّة، وأضاف:

ـ أحبّ الحرب.

ولم يكن ثمّة بعد ما يُقال. وضحك ماتيو ضحكة قصيرة منزعجة، فترك غوميز يده. وقال ماتيو: ـ لقد تركت تأثيرًا قويًّا على جارتنا.

وألقى غوميز نظره إلى يساره، من بين أهدابه الجميلة. وقال:

ـ أجل. يجب ضرب الحديد حاميًا. أتكون هذه الحلبة للرقص؟

ـ طبعًا.

ونهض غوميز وهو يزرّر سترته. وتوجّه إلى الممثّلة، فرآه ماتيو ينحني فوقها. ارتدّت برأسها إلى الخلف، ونظرت إليه في ضحكة مدروسة، ثم ابتعدا وأخذا يرقصان. كانا يرقصان؛ ولم تكن تشبه الزنجيّات قطّ، ولا بدّ أنّها كانت من المارتينيك. كان فيليب يفكّر: «مارتينيكيّة» وكانت كلمة «مالاباريه» هي التي طفرت على شفتيه، وتمتم:

ـ يا مالاباريَّتي الجميلة.

فأجابت: ـ إنّك ترقص جيّدًا.

وكان في صوتها موسيقى ناي خفيفة، ولم يكن يخلو ذلك من عذوبة.

وقال: ـ أنت تتكلّمين الفرنسيّة جيّدًا.

فنظرت إليه في غضب:

ـ لقد وُلدت في فرنسا.

قال: ـ لا بأس. أنتِ مع ذلك تتكلّمين الفرنسيّة جيّدًا.

وفكّر: «إنّني سكران» ثم ضحك. وقالت له، بلا غضب: ـ إنّك سكران تمامًا.

قال: ـ نعم.

ولم يكن يشعر بعد بتعبه، كان مستعدًّا للرقص حتى الصباح، ولكنّه كان قد قرّر أن ينام مع الزنجيّة، وكان ذلك أكثر رصانة. إنّ ما هو ممتع حقًّا في السكر، هو هذه القدرة التي كان يمنحها على الأشياء، فأنت لست بحاجة إلى لمسها؛ نظرة واحدة، فإذا أنت تمتلكها. كان يملك ذلك الجبين، وذلك الشعر الأسود، وكان يداعب عينيه على هذا الوجه الأملس. أمّا أبعد من ذلك، فقد كانت الرؤية مائعة. كان ثمّة ذلك السيِّد الضخم الذي كان يشرب الشمبانيا، وأشخاص آخرون يميل بعضهم على بعض فلا يميّزهم جيّدًا. وكان الرقص قد انتهى، فعادا إلى الجلوس.

ـ ما أبرعك في الرقص! ولا بدّ أنّك، وأنت على هذا الجمال، قد عرفت نساء كثيرات!

قال فيليب: ـ بل أنا بكر.

ـ كذّاب!

ورفع يده: ـ أقسم لك بأنّي بكر. أقسم برأس أمّي!

قالت خائبة: ـ آه! هذا يعني أنّ النساء لا يثرن اهتمامك.

قال: ـ لا أدري. يجب أن نجرِّب.

ونظر إليها؛ فامتلكها بعينيه، وكزّ وجهه وقال: ـ إنّني أعتمد عليكِ.

فنفثت دخان سيجارتها في وجهه:

ـ سترى ما أعرف أن أعمله.

وأمسكها من شعرها، فجذبها إليه؛ وكانت تنبعث منها عن قرب بعض رائحة الشحم.

وقبّلها قبلة خفيفة في شفتيها. وقالت: ـ بِكر! سأربح الجائزة الكبرى.

قال: ـ تربحين؟ إنّ الإنسان يخسر دائمًا.

ولم يكن يشتهيها على الإطلاق. ولكنّه كان مسرورًا، لأنّها كانت جميلة ولم تكن تخيفه.

واستشعر الرضى التامّ، وفكّر: «إنّني أُحسن محادثة النساء» وتركها، فانتصبت واقفة، وسقط صندوق فيليب على الأرض، فقال: ـ حذار! أنتِ سكرانة!

فلمَّت الصندوق.

ـ ماذا في داخله؟

ـ هس! لا تلمسيه: إنّها حقيبة دبلوماسيّة.

قالت، وهي تقلّد الأولاد: ـ أريد أن أعرف ما في داخله يا حبيبي، قل لي ما في داخله؟

وأراد أن ينتزع منها الصندوق، ولكنّها كانت قد فتحته. ورأت المنامة وفرشاة الأسنان، وحين اكتشفت الـ «رامبو» قالت: ـ كتاب؟ ما هذا؟

قال: ـ هذا؟ إنّه شخص قد ذهب.

ـ إلى أين؟

قال: ـ ماذا يهمّك من ذلك؟ لقد ذهب.

واستعاد الكتاب من يديها، وأرجعه إلى الصندوق، وقال في سخرية:

ـ إنّه شاعر. أتراكِ فهمتِ الآن فهمًا أفضل؟

قالت: ـ طبعًا. كان ينبغي أن تقول ذلك من البدء.

وأغلق الصندوق، وفكّر: «لم أذهب»، وسقط سُكره. «لماذا؟ لماذا لم أذهب؟» وكان قد أصبح الآن يميِّز جيّدًا السيِّد الضخم، قبالته: لم يكن ضخمًا إلى الحدّ الذي تخيّله، وكانت له عينان مخيفتان. وانفرطت العناقيد البشريّة من تلقاء نفسها: كان ثمّة نساء، سوداوات وبيضاوات، ورجال أيضًا. وخُيّل إليه أنّهم كانوا ينظرون إليه مليًّا، «لماذا أنا هنا؟ كيف تراني قد دخلت؟ ولماذا لم أذهب؟» كان في ذكرياته ثقب: كان قد رمى الفلس في الهواء، ونادى سيّارة تاكسي؛ وها هو ذا الآن: إنّه جالس إلى هذه الطاولة، أمام قدح شمبانيا، مع هذه الزنجيّة التي تنبعث منها رائحة صمغ السمك. كان ينظر إلى هذا الفيليب الذي كان يقذف الفلس في الهواء، ويحاول أن يسبر غوره، ويفكِّر: «أنا واحد آخر»؛ كان يفكِّر: «إنّني لا أعرفني»، وأدار رأسه نحو الزنجيّة.

وسألته: ـ لماذا تنظر إليّ؟

ـ هكذا.

ـ هل تجدني جميلة؟

ـ بين بين.

فبلعت ريقها واشتعلت عيناها. ورفعت مؤخّرتها بضعة بوصات فوق المقعد، فيما ضغطت بيديها الخوان.

ـ إن كنت تجدني قبيحة، فيمكنني أن أذهب: فلسنا متزوِّجين.

وبحث في جيبه، فأخرج ثلاث أوراق مدعوكة من فئة الألف فرنك، وقال: ـ خذي. خذيها وابقي.

فأخذت الأوراق وفتحتها وملّستها، ثم جلست وهي تضحك. وقالت:

ـ إنّك صبيّ وسخ. صبيّ صغير وسخ.

وكانت قد انفغرت أمامه هوّة من الخجل: وما كان عليه إلّا أن يتداعى للسقوط فيها. إنّه مصفوع، مضروب، مطرود.. ولم يذهب. وكان ينحني فوق الثقب فيأخذه الدوار. كان العار ينتظره في القعر، وما كان عليه إلّا أن يختار أن يشعر بالعار. وأغلق عينيه، فارتدَّ عليه تعب النهار كلّه. التعب، العار، الموت، اختيار الشعور بالعار. لماذا لم أذهب؟ لماذا اخترت ألّا أذهب؟ وخُيّل إليه أنّه كان يحمل العالم على كتفيه. وقالت له:

ـ لست أراك ثرثارًا.

فوضع إصبعه تحت ذقنها:

ـ ما اسمك؟

ـ فلوسّي.

ـ ليس هو اسمًا مالاباريًّا!

قالت في غيظ: قلت لك إنّي وُلدت في فرنسا.

ـ اسمعي يا فلوسّي: لقد أعطيتك ثلاث أوراق، أفلا تريدين أن أتحدّث إليك فوق ذلك؟

فهزّت كتفيها وأدارت رأسها. كان الثقب الأسود ما يزال هناك، وفي قعره العار. كان ينظر إليه وينحني فوقه، ثم إذا به فجأة يفهم، فيلوي القلق قلبه: إنّ هذا شَرَك، فإذا وقعت فيه، كففتُ عن احتمال نفسي. إلى الأبد. ونهض، وفكّر في قوّة: «إنّما عدلت عن الذهاب لأنّي كنت ثملاً». ثم انغلقت الهاوية: لقد اختار. «إنّما عدلت عن الذهاب لأنّي كنت ثملاً». لقد لامس العار عن كثب، ولقد شعر بخوف مفرط: أمّا الآن فقد اختارَ ألّا يحسّ بالعار. إلى الأبد.

ـ تصوّري أنّه كان عليّ أن أستقلّ القطار. ولكنّي كنت ثملاً جدًّا.

فقالت بلهجة طفوليّة: ـ ستستقلّه غدًا.

فانتفض: ـ لماذا تقولين لي ذلك؟

فقالت مندهشة: ـ إنّ من يفوّت قطارًا يأخذ التالي.

قال، وهو يقطّب حاجبيه: ـ إنّني لن أذهب. فقد غيّرت رأيي. أتعرفين ما هي العلامة؟

فردّدت: ـ العلامة؟

ـ إنّ العالم مليء بالعلامات. فكلّ شيء علامة. وينبغي أن نعرف فكّ ألغازها. يكون عليكِ أن تذهبي، فتثملين ولا تذهبين بعد: لماذا لم تذهبي؟ ذلك أنّه وُجب عليكِ ألّا تذهبي. تلك علامة: إنّ عندك هنا عملاً أفضل تقومين به.

وهزّت رأسها، وقالت: ـ هذا صحيح. صحيح جدًّا ما تقوله.

عمل أفضل. جمع الباستيل، ينبغي القيام بالدليل أمامه. في مكانه. ينبغي أن أمزّق نفسي حيث أنا. أورفيه. «لتسقط الحرب!» من ذا الذي يستطيع أن يقول إنّي جبان؟ سأريق دمي من أجلهم جميعًا، من أجل موريس وزيزيت، من أجل بيتو، ومن أجل الجنرال، ومن أجل جميع الناس الذين ستمزّقني أظفارهم. والتفت إلى الزنجيّة، فنظر إليها بحنان: ليلة، ليلة واحدة. ليلتي الغراميّة الأولى. ليلتي الأخيرة.

ـ إنّك جميلة يا فلوسّي.

فبسمت له:

ـ تستطيع أن تكون لطيفًا حين تشاء.

قال لها: ـ تعالي لنرقص. سأكون لطيفًا حتى صياح الديك.

كانا يرقصان. كان ماتيو ينظر إلى غوميز، وكان يفكّر: «ليلته الأخيرة»، ثم يبتسم. كانت الزنجيّة تحبّ الرقص، وتغمض عينيها نصف

إغماضة؛ وكان فيليب يرقص، ويفكّر: «ليلتي الأخيرة، ليلتي الغراميّة الأولى». ولم يكن يشعر بعد بالعار؛ كان تعبًا، وكان الحرّ شديدًا، غدًا سأريق دمي من أجل السلام. ولكنّ الفجر كان ما يزال بعيدًا. كان يرقص، ويستشعر الرضى والتبرير، ووجد نفسه خياليًّا. انزلقت الأضواء على طول الجدار، وكان القطار يتمهّل، صرير، هزّتان، وتوقّف، ولطّخ النور الحافلة، فطرف شارل بعينيه وترك يد كاترين، وصاحت الممرِّضة:

ـ لاروش ميجين. لقد وصلنا.

قال شارل: ـ لاروش ميجين؟ ولكنّنا لم نمرّ بباريس؟

قالت كاترين: ـ لقد ضلّلونا.

وصاحت الممرِّضة: ـ اجمعوا حوائجكم. سوف ينزلونكم.

وكان بلانشار قد استيقظ منتفضًا، فقال: ـ ماذا، ماذا؟ أين نحن؟

فلم يجب أحد. وأوضحت الممرِّضة:

ـ سنستقلّ القطار مرّة أخرى غدًا. سنقضي الليل هنا.

قالت كاترين وهي تضحك: ـ إنّ عينيّ تؤلمانني. بسبب هذا النور.

فأدار رأسه نحوها، وكانت تضحك وهي تحمي عينيها بيدها. وكانت الممرِّضة تصرخ: ـ اجمعوا حوائجكم، اجمعوا حوائجكم.

وانحنت على رجل أصلع، كانت جمجمته تلمع:

ـ هل انتهيت؟

قال الرجل: ـ دقيقة! يا للشيطان!

قالت: ـ عجِّل. سوف يصل الحمّالون.

قال: ـ هيّا، هيّا، تستطيعين أن تأخذيها، لقد قطعتِ لي القابليّة!

فنهضت، وكانت تحمل الطست على مدى ذراعيها، وتخطّت أجسامًا فاتّجهت نحو الباب.

قال شارل: ـ إنّنا هنا هادئون. ربّما كانوا دزّينة من الرجال، وهنا

عشرون حافلة ينبغي إفراغها. فحتى يصلوا إلينا...

ـ إلّا إذا بدأوا بالذَنَب.

ووضع شارل معصمه أمام عينيه:

ـ أين تراهم سيضعوننا؟ في قاعات الانتظار؟

ـ أتصوّر ذلك.

ـ يزعجني قليلاً أن أترك هذه الحافلة. لقد أقمت فيها ركني. وأنتِ؟

قالت له: ـ يكفيني أن أكون معك...

وصاح بلانشار: ـ ها هم أولاء.

ودخل رجال إلى الحافلة. وبدوا سودًا، لأنّهم كانوا يولون النور ظهرهم، وقد ارتسمت ظلالهم على الجدار، فكأنّما كانوا يدخلون من الجهتين في وقت واحد. وساد الصمت، فقالت كاترين بصوت منخفض:

ـ قلت لك إنّهم سيبدأون بنا.

فلم يجب شارل. ورأى رجلين ينحنيان فوق مريض، فانقبض قلبه. كان جاك نائمًا، وكان أنفه يغنّي. ولم تكن تستطيع النوم؛ إنّها لن تنام قبل أن يعود. ورأى شارل أمام قدميه تمامًا ظلًّا ضخمًا ينحني، إنّهم ينقلون الرفيق الأمامي، وبعد ذلك يأتي دوري، والليل، والدخان، والبرد، والاهتزاز، والمحطّات المقفرة.. كان خائفًا. وكان تحت الباب شعاع من نور، وسمعت ضجّة في الطابق الأرضي. ها هو ذا. وعرفت مشيته في السلّم، فهبط السلام في أعماقها: إنّه هنا، تحت سقفنا، إنّي أملكه. ليلة أخرى. الأخيرة. وفتح ماتيو الباب، ثم أغلقه، وفتح النافذة فأغلق المصاريع، وسمعت الماء يجري. سوف ينام. في الطرف المقابل لهذا الجدار، تحت سقفنا.

قال شارل: ـ هذا دوري. قولي لهم أن ينقلوك فورًا بعدي.

وشدّ بقوّة على يدها، بينما كان الرجلان ينحنيان عليه فيتلقّى في وجهه نَفَسًا خمريًّا.

قال الرجل: ـ هان! خلفه.

وأخذه الخوف فجأة، فحرّك مرآته بينما كانا يحملانه، وكان يريد أن يرى إذا كانت تتبعه. ولكنّه لم يلحظ إلّا كتفيّ الحمّال ورأسه الشبيه برأس طير الليل.

وصرخ: ـ كاترين.

فلم يتلقَّ أيّ جواب. وكان يتأرجح فوق العتبة، وكان الرجل يُصدر الأوامر خلفه، وانخفض ساقاه، فحسب أنّه يسقط، وقال:

ـ على مهل، على مهل.

ولكنّه كان قد بدأ يرى النجوم في السماء السوداء، وكان الطقس باردًا.

وسأل: هل هي تتبعني؟

فسأله الرجل ذو الرأس العصفوري: ـ من هي؟

ـ جارتي. إنّها صديقة.

قال الرجل: ـ سنهتمّ بالنساء فيما بعد. ولن نضعكم في مكان واحد.

فأخذ شارل يرتجف، وقال: ـ ولكنّي كنت أظنّ...

ـ ولكنكم لا تريدون على أيّ حال أن يَبُلْن أمامكم؟

قال شارل: ـ كنت أظنّ... كنت أظنّ...

وأمرّ يده على جبينه، وجعل فجأة يهدر:

ـ كاترين! كاترين! كاترين!

كان يتأرجح على أذرعتهما، وهو يرى النجوم، وكان مصباح ينبثق في عينيه، ثم النجوم، ثم مصباح.. وكان يصيح:

ـ كاترين! كاترين!

قال الحمّال الخلفي: ـ إنّ هذا مجنون! هل تراك ستخرس؟

فقال شارل بصوت تخنقه الدموع:

ـ ولكنّي لا أعرف حتى اسمها. سوف أفقدها إلى الأبد.

ووضعاه على الأرض، ثم فتحا بابًا، وحملاه من جديد، فرأى سقفًا أصفر كئيبًا، وسمع الباب ينغلق، ووقع في الشَرَك. وقال، بينما كانوا يضعونه أرضًا: ـ قذرون! قذرون!

فقال الرجل صاحب الرأس العصفوري: ـ ولكن، اسمع أنت!

قال الآخر: ـ دعْه. فأنت ترى أنّه جُنَّ.

وسمع خطاهما تتلاشى، وانفتح الباب ثم انغلق. وقال صوت بلانشار: ـ عجبًا، كيف نلتقي من جديد.

وفي اللحظة نفسها، تلقّى شارل دفقةً من ماء في وجهه، ولكنّه صمت، وظلّ جامدًا، كالميِّت، ينظر إلى السقف، وعيناه مفتوحتان على سعتهما، بينما كان الماء يسيل في أذنيه وعلى عنقه. لم تكن تريد أن تنام، وظلّت جامدة، على ظهرها، في الغرفة المظلمة؛ إنّه ينام، ولن يلبث طويلاً حتى يستغرق في النوم، فأحرسه أنا. إنّه قوي، إنّه نقيّ، وقد علم هذا الصباح أنّه ذاهب إلى الحرب، فلم يرتعش حتى جفناه. أمّا الآن، فهو منزوع السلاح؛ سوف ينام، وهذه هي الليلة الأخيرة. وفكّرت: آه، كم هو خياليّ.

كانت غرفة معطّرة دافئة، ذات أضواء أطلسيّة وأزهار في كلّ مكان. قالت: ـ ادخل.

فدخل غوميز، ونظر فيما حوله، فرأى دميةً على ديوان، وفكّر في «ترويل». لقد سبق له أن نام في غرفة شبيهة كلّ الشبه، ذات مصابيح ودمى وأزهار، ولكن بلا عطر ولا سقف. وكان في وسط الأرض الخشبيّة ثقب.

ـ لماذا تبتسم؟

فقال: هذا مكان لطيف.

واقتربت منه:

ـ إذا كانت الغرفة تعجبك، فبإمكانك أن تعود إليها متى شئت.

قال غوميز: إنّي ذاهب غدًا.

قالت: ـ غدًا؟ وأين أنت ذاهب؟

وكانت تنظر إليه بعينيها الجميلتين اللتين لا تعبير فيهما.

ـ إلى إسبانيا.

ـ إلى إسبانيا؟ إنّك إذن...

قال: ـ نعم، أنا جنديّ في مأذونيّة.

وسألته: ـ ومع أيّ جانب أنت؟

ـ مع أيّ جانب تريدين أن أكون؟

ـ مع جانب فرانكو؟

ـ طبعًا!

فأحاطت عنقه بذراعيها:

ـ يا جنديّ الجميل!

وكان لها نَفَسٌ لذيذ؛ فقبّلها. وقالت:

ـ ليلة واحدة. ليس هذا بالكثير. التقيت أخيرًا برجلٍ يروق لي!

قال: ـ سوف أعود، حين يكون فرانكو قد ربح الحرب...

وقبّلته مرّة أخرى، ثم تخلّصت بلطف:

ـ انتظرني. إنّ على الطاولة زجاجتيْ «جنّ» وويسكي.

وفتحت باب غرفة التواليت واختفت. وذهب غوميز إلى الطاولة، فملأ قدحًا من الجنّ. كانت الشاحنات تجري، وكان الزجاج يهتزّ، وأفاقت سارة منتفضة، فجلست على السرير، وهي تتساءل: «ولكن كم يبلغ عددها؟ إنّها لا تكاد تنتهي». شاحنات ثقيلة، سبق أن طُليت للتضليل،

وعلى ظهرها أغطية رماديّة وخطوط خضراء وسمراء، ولا بدّ أنّها ملأى بالجنود والأسلحة. وفكّرت: «إنّها الحرب» وأخذت تبكي. «كاترين! كاترين!» لقد بقيت عامين، وهي جافّة العينين، وحين صعد غوميز إلى القطار، لم تجد دمعة واحدة. أمّا الآن، فإنّ الدمع يسيل. «كاترين!» كانت الغصّات تهزّها، فارتمت على الوسادة، وكانت تبكي وهي تعضّها حتى لا توقظ الصغير. وشرب غوميز جرعة جنّ فوجده لذيذًا. وخطا بضع خطوات في الغرفة ثم جلس على الديوان. وكان يمسك قدحه بيد، وباليد الأخرى قبض على الدمية من رقبتها وأجلسها على ركبتيه. كان يسمع ماء صنبور يجري في غرفة التواليت، وعذوبة معهودة تصعد في خاصرتيه، كيدين ملساوين. كان سعيدًا، وشرب، وفكّر: «إنّني قويّ». وكانت الشاحنات تجري، والزجاج يهتزّ، وماء الصنبور يجري، وغوميز يفكّر: «إنّني قويّ، وأنا أحبّ الحياة، وأخاطر بحياتي، وأنتظر الموت غدًا، وفي هذه الساعة، ولا أخشاه. أحبّ الترف، وسوف أجد البؤس والجوع. أعرف ما أريد، أعرف لماذا أقاتل، آمر فأطاع، زهدت في كلّ شيء، في الرسم والمجد، وإنّني لسعيد». وفكّر في ماتيو، وقال في نفسه: «إنّني لا أودّ أن أكون في جلده». وفتحت الباب، وكانت عارية في ثوبها الوردي، وقالت:

ـ هأناذي.

قال: ـ هكذا إذن! آه! خراء إذن!

وكانت قد قضت نصف ساعة في غرفة التواليت وهي تغتسل وتتعطّر، لأنّ البيض لم يكونوا يحبّون رائحتها دائمًا، واقتربت منه مبتسمة مفتوحة الذراعين، وكان ينام عاريًا في السرير، ورأسه غارق في الوسادة. فأخذته من كتفه وهزّته بغضب، وقالت بصوت مصفّر:

ـ أتريد أن تستيقظ، أيّها القذر الصغير، أتريد أن تستيقظ؟

وفتح جفنيه ونظر إليها بعينيه المبهمتين. وضع القدح على الرفّ،

والدمية على الديوان. فنهض على غير عجل وأخذها بين ذراعيه. وكان سعيدًا.

سأل غرو ـ لويس: ـ هل تستطيع أن تقرأ هذا؟

فدفعه العامل: ـ هذه هي المرّة الثالثة التي تطرح عليّ فيها السؤال. قلت لك إنّك ذاهب إلى مونبلييه.

ـ وأين هو قطار مونبلييه؟

ـ إنّه يتحرّك في الساعة الرابعة صباحًا، وهو لم يصل.

فنظر إليه غرو ـ لويس في قلق: ـ ما الذي ينبغي أن أعمله إذن؟

ـ التصق بقاعة الانتظار، وخذ لك غفوة حتى الساعة الرابعة. هل معك تذكرتك؟

قال غرو ـ لويس: ـ لا.

ـ إذهب إذن، فاقطعها. لا، ليس من هناك! آه! أيّ حمار صغير: بل عند النافذة يا مجنون.

فاتّجه غرو ـ لويس إلى النافذة. وكان ثمّة موظّف ذو نظّارات يغفو خلف الزجاج. قال غرو ـ لويس: ـ هيه!

فانتفض الموظّف. وقال غرو ـ لويس: ـ إنّي ذاهب إلى مونبلييه.

وكان يبدو الاندهاش على الموظّف، ولا ريب في أنّه لم يكن قد أفاق تمامًا. ومع ذلك، فقد انتاب روح غرو ـ لويس شكّ جديد.

ـ هل هي مونبلييه المكتوبة هنا؟

وأراه دفتره العسكريّ. فقال الموظّف:

ـ مونبلييه. ربع محلّ. خمسة عشر فرنكًا.

فمدّ غرو ـ لويس المئة فرنك التي أعطته إيّاها المرأة، وقال:

ـ والآن، ما الذي ينبغي أن أعمله؟

ـ إذهب إلى قاعة الانتظار.

ـ في أيّة ساعة يسير القطار؟

ـ في الساعة الرابعة. ألا تعرف القراءة؟

قال غرو ـ لويس: ـ لا.

وتردّد في الذهاب وسأل: ـ أصحيح أنّ الحرب ستقع؟

فهزّ الموظّف كتفيه:

ـ ما الذي يدريني؟ إنّ هذا غير مكتوب في الدليل، أليس كذلك؟

ونهض واتّجه نحو داخل الغرفة، وكان يتظاهر بأنّه يراجع أوراقًا، ولكنّه لم يلبث بعد لحظة أن جلس، ووضع رأسه بين يديه وعاد إلى غفوته. نظر غرو ـ لويس فيما حوله، وكان يودّ لو يجد شخصًا يدلي له بالمعلومات عن قصص الحرب هذه، ولكنّ الساحة كانت مقفرة، فقال: «إذن سأذهب إلى قاعة الانتظار»، وعَبَر الساحة وهو يجرّ قدميه: كان ناعسًا، وكانت إليتاه تؤلمانه.

وأنّ فيليب: ـ دعيني أنام.

قالت فلوسّي: ـ فيما بعد. بِكْر! يجب أن تنتهي منها، وسوف يسعدني ذلك.

ودفع الباب فدخل القاعة. وكانت ملأى بالناس الذين ينامون على المقاعد وبالحقائب والرزم ملقاة على الأرض. كان النور حزينًا، والباب الزجاجيّ ينفتح في الداخل على ظلام. واقترب من مقعد، فجلس بين امرأتين. كانت إحداهما تعرق وتنام فاغرة الفم، والعرق يسيل على وجنتيها، فيخلّف آثارًا ورديّة. أمّا الأخرى، فقد فتحت عينيها ونظرت إليه، فقال غرو ـ لويس شارحًا:

ـ لقد دُعيت إلى الجنديّة، ويجب أن أذهب إلى مونبلييه.

فابتعدت المرأة بحيويّة، ورمته بنظرة مليئة بالتوبيخ. وفكّر غرو ـ لويس بأنّها لم تكن تحبّ الجنود، ولكنّه سألها مع ذلك:

ـ ترى هل ستقع الحرب؟

فلم تجب: كانت قد قلبت رأسها إلى الوراء، وعادت إلى النوم. وكان غرو ـ لويس يخشى أن ينام. وقال: «إذا نمت، فلن أستيقظ أبدًا». ومدّ ساقيه، وكان يودّ لو يأكل شيئًا ما صغيرًا، خبزًا أو مقانق مثلاً؛ ما يزال معه مال، ولكنّ الوقت كان ليلاً، وجميع الحوانيت كانت مغلقة. وقال: «ولكن نحن في حرب مع من؟» لا ريب في أنّ ذلك كان مع الألمان. وربّما كان هذا بسبب الألزاس واللورين. وكان ثمّة جريدة ملقاة على الأرض، عند قدميه؛ فلمّها ثم فكّر بالمرأة الطيّبة التي ضمّدت له رأسه، وقال: كان ينبغي ألّا أذهب. وقال: حسنًا، ولكن أين كنت سأكون، فليس معي مال بعد. وقال: أمّا في الثكنة فإنّهم يطعمونني. ولكنّه لم يكن يحبّ الثكنات، ولا قاعات الانتظار. وأحسّ دفعة واحدة أنّه كان حزينًا ومُفرغًا. لقد أسكروه وضربوه، وها هم الآن يرسلونه إلى مونبلييه، وقال: يا ربّي! إنّي لا أفهم شيئًا من ذلك. وقال: ذلك لأنّي لا أعرف القراءة. وجميع هؤلاء الذين ينامون كانوا يعرفونها خيرًا منه؛ كانوا قد قرأوا الجريدة، ويعرفون لماذا ستقع الحرب. أمّا هو، فقد كان وحيدًا في الليل، وحيدًا وصغيرًا، لم يكن يعرف شيئًا، ولم يكن يفهم شيئًا، فكأنّه كان قادمًا على الموت. ثم إنّه أحسّ بالجريدة تحت أصابعه. كان ذلك مكتوبًا هنا. لقد كتبوا كلّ شيء: الحرب، الطقس غدًا، أسعار الحاجيّات، ساعات القطارات، وفتح الجريدة ونظر، فرأى ألوفًا من اللطخات السوداء الصغيرة، وكانت تشبه ملفّات الأراغن البربريّة، مع هذه الثقوب في الورق التي تُحدث أصواتًا حين يُدار المحرّك. إنّ من ينظر إليها طويلاً يُصاب بالدوار. وكان ثمّة صورة أيضًا. رجل نظيف مسرَّح الشعر يضحك. وترك الجريدة تسقط، وأخذ يبكي.

الاثنين ٢٦ أيلول

الساعة ١٦,٣٠. الجميع ينظرون إلى السماء، وأنا أنظر إلى السماء. وقال دومور: «إنّهم لم يتأخّروا». وقد أخرج آلته التصويريّة، وهو ينظر إلى السماء، فيكزّ وجهه، بسبب الشمس. وكانت الطائرة تارة سوداء، وتارة ملتمعة، وقد تضخّمت، ولكنَّ هديرها ظلّ هو نفسه، هدير جميل مليء يروق سماعه. وقلت: «لا تدفعوني». وكانوا جميعًا هنا، يتدافعون خلفي. والتفتّ: إنّهم يقلبون رؤوسهم إلى الوراء، فتكزّ وجوههم، ويبدون خُضُرًا تحت الشمس، وتتحرّك أجسامهم حركات مبهمة كحركات الضفادع المقطّعة الأوصال. وقال دومور: «سيأتي يومٌ نكون فيه هكذا مرفوعي الأنف في الهواء، ونحن في حقل؛ غير أنّنا سنكون مرتدين الثوب الكاكيّ، وستكون الطائرة من طراز مسرشميت». فقلت: «لن يكون هذا غدًا، إذا تذكّرنا جميع هؤلاء الجبناء ذوي هذه البيضات الرخوة». ورسمت الطائرة دوائر في السماء، وهبطت وهبطت واصطدمت بالأرض، وصعدت واصطدمت مرّة أخرى، ودرجت على العشب وهي تقفز، وتوقّفت وركضنا نحو الطائرة، ونحن خمسون، وركض سارو أمامنا منحنٍ نصفه؛ وهناك

زهاء عشرة من السادة بطاقيّاتهم يَعْدون على العشب وهم يلوون أقدامهم، وتتجمّد الطائرة، فننظر إليها صامتين، وباب المقاعد ما يزال مقفلاً، فكأنّهم جميعهم قد ماتوا في الداخل. وحمل شخص في ثوب أزرق سلّمًا فأسنده إلى الطائرة، وانفتح الباب، فنزل شخص على السلّم، ثم آخر، ثم دلادييه. ويخفق قلبي في رأسي، ويرفع دلادييه الكتفين ويخفض الرأس، ويقترب منه سارو، فأسمعه يقول: ـ ماذا جرى؟

فأخرج دلادييه يدًا من جيبه وقام بحركة غامضة، ويدلف وهو خافض الرأس فيرتمي عليه القطيع ويغطّيه. ولا أتحرّك، فأنا أعرف أنّه لن يقول شيئًا. ويقفز الجنرال غاملان من الطائرة. إنّه نشيط، وهو ينتعل حذاء جميلاً، ويحمل رأسًا شبيهًا برأس كلب الحراسة. وينظر أمامه نظرة فتيّة قارصة.

وسأل سارو: ـ وإذن، ماذا يا جنرالي؟ هل هي الحرب؟

قال الجنرال: ـ إيه، يا إلٰهي.

وجفّ فمي، سأموت في ذلك! وصرخت إلى دومور: «إنّني أفرنقع. خذ صُورك وحدك». وعدوت إلى باب الخروج، وعدوت في الشارع، وناديت سيّارة تاكسي، وقلت: «إلى الأومانيته»، فابتسم السائق، وابتسمت له، فقال: ـ وإذن، أيّها الرفيق؟

فأجبته: ـ انتهى الأمر، إنّها في إستهم هذه المرّة، ولن يستطيعوا أن يتراجعوا.

وجرى التاكسي بأقصى سرعته، وجعلت أنظر إلى البيوت والناس. إنّ الناس لا يعرفون شيئًا، وهم لا يتنبّهون للتاكسي، والتاكسي يجري بينهم بأقصى سرعة حاملاً شخصًا يَعرف. وأضع رأسي على الباب، وتأخذني الرغبة في أن أصيح بهم إنّ الأمر قد انتهى. وأقفز خارج التاكسي، فأدفع وأرقى الدرج بسرعة شديدة. إنّهم كلّهم هنا: دوبريه، شارفيل، رونار

وشابو. وهم بالقمصان ذات الأكمام القصيرة. رونار يدخِّن، وشارفيل يكتب، ودوبريه ينظر من النافذة. وينظرون إليّ في دهشة. فأقول لهم:

ـ تعالوا أيّها الرفاق، انزلوا، إنّها نوبتي.

ولا يكفّون عن النظر إليّ، ويرفع شارفيل رأسه فينظر إليّ، وأقول:

ـ انتهى الأمر، انتهى الأمر، إنّها الحرب، إِنزلوا، إنّها نوبتي، فأنا أدفع ثمن الشراب.

قالت صاحبة الفندق: ـ إنّ لديك قبّعة جميلة.

فقالت فلوسّي: ـ أليس كذلك؟

ونظرت في مرآة المدخل، وقالت برضى: ـ إنّ لها ريشًا.

قالت صاحبة الفندق: ـ أوه، نعم (وأضافت) إنّ لديك شخصًا، ولم تستطع مادلين أن تنظِّف الغرفة.

قالت فلوسّي: ـ أعرف ذلك، ولا بأس: سأنظّفها أنا نفسي.

ورقيت السلّم، فدفعت باب غرفتها. كانت المصاريع مغلقة، والغرفة تبعث رائحة الليل. شدّت فلوسّي الباب على مهل، وذهبت تدقّ على الرقم ١٥.

وقال صوت «زو» الأبحّ: ـ من هناك؟

ـ أنا فلوسّي.

وأتت زو تفتح وهي في سروالها القصير:

ـ ادخلي بسرعة.

فدخلت فلوسّي. ورمت زو شعرها إلى الوراء، وانزرعت في وسط الغرفة، وشرعت تراكم نهديها الضخمين في رافعة. وفكّرت فلوسّي بأنّ عليها أن تحلق شعر إبطيها. وسألت: ـ الآن فقط تنهضين؟

قالت زو: ـ لقد نمت في الساعة السادسة. فماذا هناك!

قالت فلوسّي: ـ تعالي لتري صاحبي العظيم.

ـ ماذا تحكين أيّتها الزنجيّة؟

ـ تعالي لتري صاحبي العظيم.

فارتدت زو معطفًا وتبعتها في الممرّ. وأدخلتها فلوسّي إلى الغرفة، وهي تضع إصبعًا على شفتيها. وقالت زو: ـ إنّني لا أرى شيئًا.

فدفعتها فلوسّي نحو السرير، وهمست: ـ انظري.

انحنتا كلتاهما، وأخذت زو تضحك بصمت، وقالت: ـ طزّ! طزّ! إنّه طفل.

ـ اسمه فيليب.

ـ كم هو جميل!

وكان فيليب نائمًا على ظهره، ويبدو كأنّه ملاك. وكانت فلوسّي تنظر إليه في مزيجٍ من الافتتان والحقد. قالت زو: ـ إنّه أشدّ شُقرة منّي.

قالت فلوسّي: ـ هو بِكْر.

فنظرت إليها زو وهي تضحك بدقّة: ـ كان.

ـ ماذا؟

ـ تقولين: هو بِكْر. فأقول لك: كان بِكْرًا.

ـ آه! آه! نعم، ولكن، أظنّ أنّه بقي كذلك.

ـ بلا مزاح!

قالت فلوسّي بجفاء: ـ إنّه ينام هكذا منذ الساعة الثانية صباحًا.

وفتح فيليب عينيه، فنظر إلى المرأتين اللتين كانتا منحنيتين فوقه، وقال: «هو!» ثم انقلب على بطنه. وقالت فلوسّي: ـ انظري.

ونزعت الغطاء، فبدا الجسم أبيض عاريًا. وأدارت زو عينيها في محجريهما، وقالت:

ـ ميام! ميام! غطّيه، وإلّا ارتكبتُ الحماقات الجنونيّة.

وأمرّت فلوسّي يدًا خفيفة على خاصرتَي الصغير الضيّقتين، وعلى إليتيه الفتيّتين الدقيقتين، ثم ردّت الغطاء وهي تتنهّد.

قال السيِّد بيرنانشاتز: ـ أعطني واحد «نوايي ـ كاسي».

وتداعى للسقوط على المقعد وهو يمسح جبهته. وكان يستطيع أن يراقب عبر مرايا الباب مدخل مكتبه. وسأل «نو»: ـ ماذا تأخذ.

فقال «نو»: ـ الشيء نفسه.

وكان الخادم يبتعد، فناداه «نو»: ـ إجلب لي «الأنفورماسيون».

وتبادلا النظر في صمت، ثم رفع نو ذراعه فجأة في الهواء، وقال:

ـ آي! يا عزيزي بيرنانشاتز!

قال بيرنانشاتز: ـ نعم.

وملأ الخادم قدحيهما ومدّ الجريدة إلى نو. ونظر نو إلى بيان أسعار اليوم، فكزّ وجهه ووضع الجريدة على الطاولة قائلاً: ـ سيّئ.

ـ طبعًا. ماذا تريدهم أن يصنعوا؟ إنّهم ينتظرون خطاب هتلر.

وأجال السيِّد بيرنانشاتز نظرة كئيبة على الجدران والمرايا. وكان في العادة يحبّ هذا المقهى الصغير الناعم، أمّا اليوم، فقد كان يغيظه ألّا يكون فيه على راحته. واستطرد قائلاً:

ـ ليس ثمّة بعد إلّا الانتظار. لقد فعل دلادييه ما في استطاعته، وفعل شمبرلن ما في استطاعته، وليس ثمّة بعد إلّا الانتظار الآن. سوف نتعشّى بلا قابليّة، ومنذ الساعة الثامنة والنصف، سندير مفتاح الراديو لنسمع هذا الخطاب. (وأضاف فجأة وهو يضرب الطاولة) ننتظر ماذا؟ أهواء رجل واحد. رجل واحد! إنّ الأعمال في كساد، والبورصة هابطة، ووكلائي مقلوبو الرؤوس، وقد جُنِّد «سي» المسكين: كلّ ذلك بسبب رجل واحد، فالحرب والسلم هما بين يديه. إنّ ذلك يجعلني أخجل من أجل الإنسانيّة.

نهض برونيه، فنظرت إليه السيِّدة سامبوليه، وكان يروقها قليلاً: فلا

بدّ أنّه يضاجع جيّدًا، خفية وبهدوء وصوت خفيض، وبطء قرويّ، وسألته:

ـ ألا تبقى؟ سوف تتعشّى معي.

وأشارت إلى جهاز الراديو، وأضافت:

ـ سأقدّم لك كمهضّم خطاب هتلر.

قال برونيه: ـ إنّ لديّ موعدًا في الساعة السابعة. ثم بكلّ صراحة: طزّ بخطاب هتلر.

فنظرت إليه السيِّدة سامبوليه من غير أن تفهم. قال برونيه:

ـ إذا أرادت ألمانيا الرأسماليّة أن تعيش، فهي بحاجة إلى جميع الأسواق الأوروبيّة. فيجب إذن أن تزيل بالقوّة جميع منافسيها الصناعيين. (وأضاف بحزم) إنّ على ألمانيا أن تخوض الحرب، وعليها أن تخسرها. فلو قُتل هتلر عام ١٩١٤، لكنّا تمامًا حيث نحن الآن.

قالت السيِّدة سامبوليه، وحلقها منقبض:

ـ هذه القضيّة التشيكيّة ليست إذن خدعة؟

قال برونيه: ـ ربّما كانت خدعة في رأس هتلر. ولكن ما في رأس هتلر لا أهمِّيَّة له على الإطلاق.

وأكّد بيرنانشاتز: ـ إنّه ما يزال يستطيع أن يمنعها. إذا أراد، استطاع منعها. فجميع الوسائل في يده: إنّ إنكلترا لا تريد الحرب، وأميركا أبعد ممّا ينبغي، وبولونيا تمشي معه، فلو أراد، أصبح غدًا سيِّد العالم ومن غير أن يُطلق طلقة مدفع واحدة. لقد قبل التشيكيّون المشروع الفرنسيّ ـ الإنكليزي، فليس له إلّا أن يقبله هو أيضًا، فإذا أعطى دليل الاعتدال هذا...

قال برونيه: ـ إنّه لا يستطيع بعد أن يتراجع. وألمانيا كلّها من ورائه تدفعه.

قالت السيِّدة سامبوليه: ـ ولكنّنا نستطيع نحن أن نتراجع.

فنظر إليها برونيه وأخذ يضحك، ثم قال:

ـ آه، صحيح، نسيت أنّك مسالمة.

وقلب نو العلبة، فسقطت قطع الدومينو على الطاولة، وقال:

ـ أي! أي! إنّي أخاف اعتدال هتلر. هل تتصوّر النفوذ الذي سيُكسبه إيّاه ذلك؟

وكان قد انحنى على السيِّد بيرنانشاتز وهمس في أذنه، وابتعد بيرنانشاتز في انزعاج: إنّ نو لم يكن يستطيع أن يقول ثلاث كلمات من غير أن يهمس بهيئة متآمر، بينما تكون يداه تطيران في الجوّ.

ـ إذا قَبِلَ المشروع الفرنسيّ ـ الإنكليزي، فإنّ دوريو سيتسلّم الحكم بعد ثلاثة أشهر.

قال السيِّد بيرنانشاتز وهو يهزّ كتفيه: ـ دوريو...

ـ دوريو أو سواه.

ـ وبعد ذلك؟

قال نو وهو يخفض صوته: ـ ونحن؟

فنظر السيِّد بيرنانشاتز إلى فمه الأليم الضخم، وأحسّ بأنّ الغضب كان يحرُّ أذنيه، فقال بجفاء: ـ كلّ شيء خيرٌ من الحرب.

ـ أعطني رسالتك، فإنّ الصغيرة ستضعها في البريد.

فوضع الظرف على الطاولة بين آنيّة ووعاء من القصدير: الآنسة إيفيش سرغين، ١٢ شارع الميجيسوري، لاون. وألقت أوديت نظرة على العنوان، ولكنّها لم تعلّق أيّ تعليق، وكانت تنتهي من عقد خيط حول رزمة كبيرة.

قالت: ـ نا! نا! نا! سأنتهي، فلا تفقد صبرك.

كان المطبخ أبيض نظيفًا، دار تمريض. وكانت تنبعث منه رائحة الصمغ والبحر.

قالت أوديت: ـ لقد وضعت صدريْ دجاجة، وبعض الجيليه، لأنّك

تحبّه، ثم بعض قطع من الخبز الأسمر وسندويش الخنزير النيء. وفي زجاجة الترموس خمر. وليس عليك إلّا أن تحتفظ بها، فهي سوف تنفعك هناك.

وبحث عن نظرها، ولكنّها أخفضت عينيها على الرزمة وبدت منهمكة. وركضت إلى الخزانة، فقطعت طرفًا طويلاً من خيط، وعادت إلى رزمتها وهي تعدو.

قال ماتيو: ـ إنّها مربوطة جيّدًا.

وأخذت الخادمة الصغيرة تضحك، ولكن أوديت لم تجب. ووضعت الخيط في فمها، فأمسكته وهي تقرص شفتيها، وقلبت الرزمة بخفّة على ظهرها. وملأت رائحة الصمغ فجأة منخري ماتيو، وخُيّل إليه للمرّة الأولى منذ أمس الأوّل أنّ شيئًا ما كان حوله وسوف يسعه أن يتحسّر عليه. كان سلام هذا الأصيل في المطبخ، وهذه الأعمال المنزليّة الهادئة، وهذه الشمس التي ترقّقها الستارة وتسقط فتاتًا على البلاط، ووراء هذا كلّه ربّما كانت طفولته، ولونٌ من الحياة الهادئة الناشطة رفضه مرّة وإلى الأبد.

قالت أوديت: ـ ضع إصبعك هنا.

فاقترب وانحنى فوق رقبتها، وضغط إصبعه على الخيط. وودّ أن يقول لها بعض كلمات رقيقة، ولكن صوت أوديت لم يكن يدعو إلى الرقّة. ورفعت عينيها عليه:

ـ هل تريد بيضًا مسلوقًا؟ بوسعك أن تضعها في جيبك.

وكانت تشبه فتاة صبيّة. إنّه لن يتحسّر عليها. ربّما لأنّها كانت زوجة جاك. وفكّر في أنّه سينسى سريعًا هذا الوجه المتواضع إلى هذا الحدّ. ولكنّه كان يودّ لو أنّ ذهابه يُحدث لديها بعض الأسى. وقال:

ـ لا، أشكرك. لا أريد بيضًا مسلوقًا.

فوضعت له الرزمة تحت ذراعه، وقالت:

ـ هكذا. رزمة جميلة.

وقال لها: ـ إصحبيني إلى المحطّة.

فهزّت رأسها نفيًا:

ـ كلّا. إنّ جاك هو الذي يصحبك. وأعتقد أنّه يفضّل أن يبقى وحده معك، للدقائق الأخيرة.

قال: ـ إذن وداعًا. هل ستكتبين لي؟

ـ إنّ ذلك سيخجلني. فأنا أكتب رسائل فتاة صغيرة، ملأى بالأخطاء الإملائيّة. كلّا، بل سأبعث لك برزم.

قال: ـ أودّ لو تكتبين لي.

ـ إذن، بين الفترة والفترة، ستجد كلمة صغيرة بين علبة السردين ورزمة الصابون.

ومدّ لها يده فصافحته بسرعة. وكانت لها يد ملتهبة جافّة. وكان يفكّر بغموض: «إنّ هذا مؤسف» لقد سالت الأصابع الطويلة بين أصابعه كرمل حارّ. وابتسم وخرج من المطبخ. كان جاك راكعًا في الصالون أمام آلة الراديو يحرّك أزرارها؛ ومرّ ماتيو أمام الباب وصعد الدرج على مهل. لم يكن مستاءً لذهابه. وإذ كان يقترب من غرفته، سمع خلفه ضجّة خفيفة، فالتفت: فإذا هي أوديت. كانت واقفة على آخر درجة، وكانت تنظر إليه وهي ممتقعة، وقال: ـ أوديت.

فلم تجب، وظلّت تنظر إليه نظرة قاسية. وأحسّ بالضيق، فنقل الرزمة إلى ذراعه اليسرى ليتمالك نفسه، وردّد: ـ أوديت.

فاقتربت منه، فرأى لها وجهًا نبويًا غير متحفّظ لم يكن يعرفه. وقالت: ـ وداعًا.

وكانت قريبة منه كلّ القرب. أغمضت عينيها، ثم وضعت شفتيها فجأة على شفتيه. وتحرّك ليأخذها بين ذراعيه، ولكنّها أفلتت منه. وسرعان

ما استعادت هيئتها المتواضعة، فهبطت السلّم من غير أن تلوي عليه.

ودخل غرفته، فوضع الرزمة في حقيبته. وكانت ملأى، حتى إنّه اضطرّ إلى الركوع على قفلها ليغلقها:

قال فيليب: ـ ما هذا؟

كان قد استقام منتفضًا، وهو ينظر إلى فلوسّي في رعب، فقال:

ـ هذا أنا، يا طفلي الصغير.

فتداعى للسقوط إلى خلف، وهو يرفع يده إلى جبينه. وأنّ قائلاً:

ـ إنّ بي صداعًا.

ففتحت درج طاولة الليل وأخرجت أنبوب إسبرين؛ وفتح درج الطاولة، فأخرج منها قدحًا وزجاجة «برنو» ووضعهما على المكتب الرئيسي، واسترخى في أريكته. كان محرِّك الطائرة ما زال يدور في رأسه؛ وكان لديه ربع ساعة، ربع ساعة بالضبط، ليستردّ هدوءه، وسكب برنو في القدح، وتناول إبريق ماء على الطاولة فقلبه فوق القدح. وكان السائل يتحرّك ويتّخذ لونًا فضّيًا في موجات متلاحقة. نزع عقب سيجارته عن شفته السفلى ورماه في سلّة الأوراق. لقد فعلت كلّ ما في استطاعتي. وكان يستشعر الفراغ. وفكّر: «فرنسا.. فرنسا..» وشرب جرعة من البرنو. لقد فعلت كلّ ما في استطاعتي؛ والكلمة الآن لهتلر. وشرب جرعة من البرنو وطقطق لسانه، وفكّر: «إنّ وضع فرنسا محدَّد بوضوح». وفكّر: «وليس لي الآن إلّا أن أنتظر». وكان مجهدًا، ومدّ ساقيه تحت المكتب، وفكّر في نوع من الرضى: «ليس أمامي إلّا أن أنتظر». كجميع الناس. لقد لُعبت اللعبة. وكان قد قال: «إذا انُتهكت الحدود التشيكيّة، فإنّ فرنسا ستقوم بالتزاماتها». وكان شمبرلن قد أجاب: «إذا كان من نتيجة هذه الالتزامات أن تجد القوّات الفرنسيّة نفسها منخرطة تمامًا في العمليّات الحربيّة ضدّ ألمانيا، فسوف نشعر بواجب مساعدتها».

وتقدّم السير نيفل هندرسون، وكان السير هوراس ويلسون واقفًا خلفه باستقامة، ومدّ السير نيفل هندرسون الرسالة إلى مستشار الريخ؛ فتناول مستشار الريخ الرسالة من يديه، وأخذ يقرأها. وحين انتهى، سأل مستشار الريخ السير نيفل هندرسون:

ـ أهذه هي رسالة السيِّد شمبرلن؟

وشرب دلادييه جرعة برنو، وتنهّد، وأجاب السير نيفل هندرسون بحزم:

ـ نعم، هذه هي رسالة السيِّد شمبرلن.

ونهض دلادييه، وذهب يضع زجاجة البرنو في درج الطاولة؛ وقال مستشار الريخ بصوته الأبحّ:

ـ تستطيع أن تعتبر خطابي هذا المساء جوابًا على رسالة السيِّد شمبرلن.

وكان دلادييه يفكِّر: «أيّ فرْج! أيّ فرْج! ما الذي سيقوله؟» وكان سُكْر خفيف يصعد إلى صدغيه وهو يفكِّر: إنّ الأحداث تفلت منّي. وكان ذلك كراحة كبرى. وفكّر: لقد فعلت كلّ شيء من أجل تجنُّب الحرب، وليست الحرب والسلم الآن بين يديّ؛ لم يكن ثمّة شيء بعد يُقرَّر، لم يكن ثمّة إلّا الانتظار. كجميع الناس. كذلك الفحَّام في الزاوية. وابتسم، لقد كان فحّامَ الزاوية، وكانوا قد جرّدوه من مسؤوليّاته؛ إنّ موقف فرنسا محدَّد بوضوح... كان ذلك راحة كبرى. وكان يحدِّق في زهور السجّادة المعتمة، ويشعر بالدوار يصعد فيه. السلم، الحرب، لقد بذلت كلّ شيء للحفاظ على السلم، ولكنّه كان يتساءل الآن عمّا إذا لم يكن راغبًا في أن يحمله هذا الشلّال الدافق كذرةٍ من القشّ، كان يتساءل عمّا إذا لم يكن راغبًا فجأة بهذه العطلة الهائلة: الحرب.

نظر حوله في ذهول، وصاح: ـ إنّني لم أذهب.

وكانت قد ذهبت تفتح المصاريع، وعادت بالقرب من السرير فانحنت فوقه. كانت تشكو الحرّ، وقد شمّ رائحتها السَّمكيَّة.

ـ ما الذي ترويه أيّها الداعر الصغير، ما الذي ترويه؟

وكانت قد وضعت إحدى يديها القويّتين السوداوين على صدره. وكانت الشمس قد خلّفت لطخة زيت على خدّها الأيسر. نظر إليها فيليب، فأحسّ أنّه ذليل أعمق المذلّة: كان لها تجعّدات حول عينيها وعند زاويتي فمها. وفكّر: «إنّها جميلة جدًّا في وضح النهار»، وكانت تنفخ في وجهه وتدع لسانها الورديّ يسيل في شفتيه. وفكّر: إنّني لم أذهب. وقال لها:

ـ إنّك لست صبيّة بعد.

فكزّت وجهها وأغلقت فمها، وقالت له:

ـ لست أصبى منك يا داعر.

وأراد أن يخرج من سريره، ولكنّها كانت تمسكه بصلابة؛ كان هاربًا عاريًا أعزل؛ وكان يحسّ نفسه بائسًا. وقالت:

ـ أيّها الداعر الصغير، أيّها الداعر الصغير.

وهبطت اليدان السوداوان متمهّلتين على خاصرتيه. وفكّر مهما يكن من أمر، فإنّه لم يُعط للجميع أن يفقدوا بكارتهم مع زنجيّة. وتداعى للسقوط إلى خلف، فرأى تنانير سوداء ورماديّة تدور على بضع بوصات من وجهه. كان الشخص يزعق خلفه بصوت أضعف. وكان ذلك أقرب إلى الحشرجة، نوعًا من القرقرة. وارتفع حذاء فوق رأسه، فرأى نعلاً مدبّبًا، وكانت قطعة من الوحل عالقةً بالكعب؛ وحطّ النعل وهو يطقّ بالقرب من محمله؛ كان حذاء ضخمًا أسود ذا أزرار. رفع عينيه، فرأى جبّة، وفوقها في العالي، منخرين مُشعرين فوق ياقته. وهمس بلانشار في أذنه:

ـ لا بدّ أن يكون الرفيق في حالة سيّئة جدًّا لكي يأتوه بالكاهن.

فسأل شارل: ـ ما به؟

ـ لا أدري، ولكنَّ بيارو يقول إنّه سينتهي.

وفكّر شارل: لماذا لا أكون أنا؟

ورأى حياته، وفكّر: «لماذا لا أكون أنا؟ ومرّ عاملان بالقرب منه، فعرف قماش سرواليهما؛ وكان يسمع خلفه صوت الكاهن العذب الهادئ؛ وكان المريض قد كفّ عن الأنين، ففكّر: «ربّما مات». ومرّت الممرِّضة وكانت تحمل طستًا بين يديها، فقال بخجل:

ـ يا سيِّدتي! ألا تستطيعين أن تذهبي إليها الآن؟

فخفضت نظرها إليه، وهي تحمرّ من الغضب:

ـ أهذا أنت أيضًا؟ ماذا تريد؟

ـ ألا تستطيعين أن ترسلي أحدًا إلى النساء؟ إنّها تُدعى كاترين.

فأجابت: ـ آه! حُلّ عن ظهري! إنّها المرّة الرابعة التي تطلب فيها منّي ذلك.

ـ كلّ ما أطلبه أن أعرف منها اسم عائلتها وأعطيها اسم عائلتي. ولن يزعجك هذا كثيرًا.

فقالت بجفاء: ـ إنّ هنا شخصًا يُحْتَضَر. فأنت ترى كيف أملك الوقت لأهتمّ بسخافتك.

ومضت، فعاد الشخص إلى أنينه؛ وكان ذلك شاقّ الاحتمال. وحرّك شارل مرآته، فرأى جمعًا من الأجسام المتمدِّدة جنبًا إلى جنب، وفي الداخل، رِدْف الكاهن الضخم راكعًا بالقرب من المريض. وكانت فوقهم مدخنة ذات مرآة مؤطّرة. ونهض الكاهن، فانحنى الحمّالون على الجسم وحملوه. وسأل بلانشار:

ـ هل مات؟

ولم يكن لمحمل بلانشار مرآة دوّارة. وقال شارل:

ـ لا أدري.

ومرّ الموكب أمامهم وهو يثير موجة من الغبار. فأخذ شارل يسعل، ثم رأى ظهر الحمّالين المنحني وهم متَّجهون نحو الباب. واستدار ثوب بالقرب منه ثم تجمّد فجأة. وسُمع صوت الممرِّضة:

ـ إنّنا هنا منقطعون عن كلّ شيء، فنحن لا نعرف بعدُ الأخبار، كيف الحال يا سيِّدي الكاهن؟

قال الكاهن: ـ إنّ الحال رديئة تمامًا. رديئة تمامًا. سيتكلّم هتلر هذا المساء، ولست أدري ما سوف يقوله، ولكنّي أعتقد أنّها الحرب.

وكان الصوت يسقط موجات على وجه شارل. وأخذ شارل يضحك. فسأله بلانشار:

ـ ما الذي يضحكك؟

ـ أضحك، لأنّ الكاهن يقول بأنّ الحرب ستقع.

قال بلانشار: ـ إنّني لا أجد ذلك مضحكًا.

قال شارل: ـ أمّا أنا، فأراه مضحكًا.

«ستكون لهم، حربهم؛ ستكون لهم في إستهم». كان ما يزال يضحك: فعلى ارتفاع متر وسبعين كانت الحرب فوق رأسه، كانت الحرب، والاضطرابات والشرف المهان، والواجب الوطني.. أمّا على سطح الأرض، فلم يكن ثمّة حرب ولا سلم، لا شيء إلّا بؤس الرجال الدون وعارهم، الفاسدين، المتمدِّدين. لم يكن بونيه يريدها، وكان شامبوتيه دوريس يريدها؛ وكان دلاديه ينظر إلى السجّادة، وكان ذلك كابوسًا، ولم يكن يستطيع أن يتحرّر من هذا الدوار الذي أمسكه خلف أذنيه: لتنفجر! لتنفجر! ليعلنها هذا المساء، ذئب برلين الشرّير الكبير! وضرب حذاءه بقوّة على الأرض الخشبيّة، وعلى الأرض الخشبيّة، كان شارل يحسّ الدوار يصعد من بطنه إلى رأسه: العار، العار العذب، العذب، المريح، إنّه لم يكن باقيًا له غير هذا. وكانت الممرِّضة قد وصلت قرب الباب، فتخطّت جسمًا، وابتعد الكاهن ليدعها تمرّ. وصاح شارل:

ـ يا سيِّدتي! يا سيِّدتي!

فالتفتت، طويلة قويّة، بوجه جميل ذي شارب وعينين غاضبتين. وقال شارل بصوت واضح أصدى في القاعة كلّها:

ـ يا سيِّدتي! يا سيِّدتي! بسرعة، بسرعة! أعطيني الطست، فإنّي مستعجل.

هوذا! هوذا! كانوا يدفعونهم من الخلف، ودفعوا الشرطيّ الذي تراجع خطوة وهو يبسط ذراعيه، وصاحوا: «هوراه، هوذا!» وكان يمشي بخطى صلبة هادئة، ويتأبّط ذراع زوجته، وكان «فريد» متأثّرًا، أبي، وأمّي، يوم الأحد، في غرينويش، وصاح: «هوراه» كم هو رائعٌ أن نراهما هنا، هادئين مطمئنّين! فمنذا يجرؤ على أن يخاف، حين يراهما يقومان بنزهتهما الصغيرة بعد الظهر، كزوجين قديمين متّحدين كلّ الاتّحاد؟ وشدّ بقوّة على صندوقه، ورفعه فوق رأسه، وصاح: «ليعش السلام، هوراه!» فالتفت كلاهما إليه، وابتسم السيِّد شبمرلن له شخصيًّا، وأحسّ فريد أنّ الهدوء والسلام كانا يهبطان حتى أعماق فؤاده، لقد كان محميًّا، مقودًا، منتعشًا، وكان شمبرلن العجوز ما يزال يجد الوسيلة ليتنزّه بهدوء عبر الطرقات، كأيّ إنسان، وليوجّه له بسمة شخصيّة. كان الجميع يصرخون «هوراه» حوله، وكان «فريد» ينظر إلى ظهر السيِّد شمبرلن الهزيل وهو يبتعد بخطوته الكهنوتيّة، وفكّر: إنّها إنكلترا، وصعدت الدموع إلى عينيه، انحنت سادي الصغيرة وأخذت صورة من تحت ذراع الشرطي.

ـ في الصفّ، يا سيِّدتي، في الصفّ كجميع الناس.

ـ هل يجب أن أقف في الصفّ لأحصل على نسخة من «باري سوار»؟

ـ طبعًا! وحتى في هذا الوضع، سيدهشني أن تستطيعي الحصول على نسخة.

ولم تكن تصدّق أذنيها.

ـ إذن، طزّ! إنّني لن أقف في الصفّ من أجل «باري سوار»، فإنّه لم يحدث لي قطّ أن وقفت في الصفّ من أجل جريدة!

وأولتهم ظهرها، وكان راكب الدرّاجة قادمًا ومعه رزمة الأوراق: فوضعها على الطاولة، بالقرب من الكشك، وأخذوا يعدّونها.

ـ ها هم أولاء! ها هم أولاء!

وحدث اضطراب في الحشد. وقالت البائعة:

ـ وبعد! هل ستتركونني أعدّها؟

قالت السيِّدة الأنيقة: ـ لا تدفعوني! أقول لكم لا تدفعوني!

فقال القصير السمين: ـ إنّني لا أدفع، بل هم يدفعونني، وليس الأمران سواء.

وقال الهزيل: ـ وأنا أرجوك أن تكون مؤدّبًا مع زوجتي.

فالتفتت السيِّدة المرتدية الثوب الأسود نحو إميلي:

ـ إنّه النزاع الثالث الذي أشهده منذ هذا الصباح.

قالت إميلي: ـ آه! ذلك أنّ الناس في هذه الفترة ثائرو الأعصاب.

وكانت الطائرة تقترب من الجبال؛ ونظر إليها غوميز، ثم نظر، فيما تحته، إلى الأنهار والحقول، وكان إلى يساره مدينة مستديرة برمّتها، وكان كلّ شيء صغيرًا يدعو إلى الضحك، إنّها فرنسا، خضراء وصفراء، بسجّادها العشبيّ وأنهارها الهادئة. «وداعًا! وداعًا!» سيدلف بين الجبال، فوداعًا يا شرائح روسيني، ويا تلك النساء الجميلات، سوف يهبط وهو يحلّق نحو الأرض العارية الحمراء، نحو الدم. وداعًا! وداعًا: لقد كان جميع الفرنسيّين هنا، تحته، في المدينة المستديرة، في الحقول، على شاطئ الماء: الساعة ١٨,٣٥، إنّهم يضطّربون كالنمل، إنّهم ينتظرون خطاب هتلر. على ألف متر تحتي، ينتظرون خطاب هتلر. أمّا أنا، فلا

أنتظر شيئًا. بعد ربع ساعة، يكفّ عن رؤية هذه البراري العذبة، وستفصله كتلٌ حجريّةٌ ضخمة عن أرض الخوف والبخل هذه. بعد ربع ساعة، سيهبط نحو الرجال الهزيلين ذوي الحركات الحيّة، والعيون القاسية، نحو «رجاله» هو. كان سعيدًا، وفي حلقه كتلة من القلق. وكانت الجبال تتقارب وقد أضحت الآن سمراء. وفكّر: كيف تراني سألقى برشلونة؟

قالت زيزيت: ـ ادخلي.

وكانت سيِّدة جميلة جدًّا وممتلئة بعض الشيء، تضع على رأسها قبّعة من القشّ، وترتدي «تايورًا» من قماش «برانس دوغال». ونظرت فيما حولها وهي تمدِّد منخريها، وما لبثت أن ابتسمت بلطف:

ـ السيِّدة سوزان تايور؟

قالت زيزيت بفضول: ـ أنا هي.

وكانت قد نهضت. وفكّرت بأنّ عينيها كانتا محمرّتين واستندت إلى النافذة. ونظرت إليها السيِّدة وهي تطرف بعينيها. إنّ من يمعن النظر فيها تبدو له أكبر سنًّا. وكانت تظهر وكأنّها مرهقة.

ـ إنّني لا أزعجك، على الأقلّ.

قالت زيزيت: ـ طبعًا لا. اجلسي.

وانحنت السيِّدة فوق الكرسي، فنظرت إليها، ثم جلست. وكانت تجلس مستقيمة من غير أن يمسّ ظهرها المسند.

ـ لقد صعدت هذا الصباح زهاء أربعين طابقًا. ولم يفكِّر الناس أَبدًا في أن يقدِّموا لك كرسيًّا.

ولاحظت زيزيت أنّها ما تزال تحتفظ بكشتبانها في إصبعها. فنزعته وألقته في علبة الخياطة. وفي تلك اللحظة، بدأ البيفتاك يطقطق في الموقد. فاحمرّت وركضت إلى الفرن وأطفأت الغاز. ولكنّ الرائحة لم تتلاشَ.

ـ يجب ألّا أمنعك من الأكل.

قالت زيزيت: ـ أوه، إنّ أمامي متّسعًا من الوقت.

وكانت تنظر إلى السيِّدة، وتحسّ نفسها موزّعة بين الضيق والرغبة في الضحك.

ـ هل زوجكِ مجنَّد؟

ـ لقد ذهب صباح أمس.

قالت السيِّدة: ـ إنّهم جميعًا يذهبون. هذا مريع. لا بدّ أن تكوني في وضع مادّي... سيّئ...

قالت زيزيت: ـ أعتقد أنّي سأعود إلى مهنتي القديمة. كنت بائعة زهور.

فهزّت السيِّدة رأسها: ـ هذا مريع! هذا مريع!

وكانت حزينة جدًّا، حتى إنّ زيزيت أحسّت لها بالودّ.

ـ وهل ذهب زوجك أيضًا؟

ـ لست متزوِّجة. (ونظرت إلى زيزيت وأضافت بحيويّة): ولكن لي أخوين يمكن أن يذهبا.

وسألت زيزيت بصوت جافّ: ـ ماذا تريدين؟

قالت الآنسة: ـ نعم، هذا (وابتسمت لها) إنّني لا أعرف أفكارك، وما سوف أطلبه منك خارج عن كلّ سياسة. هل تدخِّنين؟ هل تريدين سيكارة؟

وتردّدت زيزيت، ثم قالت: ـ لا بأس.

وكانت واقفة بإزاء فرن الغاز، ويداها تضغطان على طرف الطاولة، خلف ظهرها. وكانت رائحة البيفتاك وعطر الزائرة قد اختلطا الآن. مدّت لها الآنسة علبتها، فخطت زيزيت خطوة إلى الأمام. وكانت أصابع الآنسة دقيقة بيضاء ذات أظافر مصبوغة. وأخذت زيزيت سيكارة بين أصابعها الحمراء، وكانت تنظر إلى أصابعها وإلى أصابع الآنسة، وهي تتمنّى أن

تذهب بأسرع وقت ممكن. وأشعلتا سيكارتيهما، وسألت الآنسة:

ـ ألا تظنّين أنّ من الضروري منع هذه الحرب بأيّ ثمن؟

فتراجعت زيزيت حتى الفرن، ونظرت إليها في حذر. كانت قلقة. ولاحظت على الطاولة زوجًا من المطّاط وسروالاً. وقالت الآنسة:

ـ ألا تعتقدين أنّنا إذا نحن وحّدنا قوانا...

وعبرت زيزيت الغرفة بهيئة عدم اكتراث، وحين وصلت إلى الطاولة سألت:

ـ من تقصدين بـ «نحن»؟

قالت الآنسة في قوّة: ـ نحن النساء.

فردّدت زيزيت: نحن النساء.

ثم فتحت الدرج بسرعة وألقت فيه زوج المطّاط والسروال، ثم عادت إلى الآنسة، هادئة.

ـ نحن النساء؟ ولكن ماذا نستطيع أن نفعل؟

كانت الآنسة تدخّن كأنّها رجل، وهي تنفث الدخان من أنفها؛ وكانت زيزيت تنظر إلى تايورها وإلى عقدها اليشمي، فتجد غريبًا أن تقول لها: «نحن». وقالت الآنسة في طيبة: ـ إذا كنت وحدك، لن تستطيعي شيئًا. ولكنّك لست وحدك: ففي هذه اللحظة خمسة ملايين امرأة يخشين على حياة كائن عزيز لديهنّ. في الطابق التحتيّ، تقيم السيِّدة بانيه التي ذهب أخوها وزوجها والتي لها ستّة أولاد. وعلى الرصيف المقابل حانوت الخبّازة، وفي «باسي» توجد الدوقة دو شوليه.

فتمتمت زيزيت: ـ أوه! الدوقة دو شوليه...

ـ ما بها؟

ـ ليس متشابهًا.

ـ ما هو الذي ليس متشابهًا؟ ما هو الذي ليس متشابهًا؟ أتقصدين أنّ

هناك من يركب السيّارة، بينما تقوم الأخريات بأعمال المنزل بأنفسهنّ؟ آه! يا سيِّدتي، إنّي في طليعة من يطالبون بتنظيم اجتماعيّ أفضل. ولكن أتظنّين أنّ الحرب هي التي ستعطينا هذا التنظيم؟ إنّ قضيّة الطبقات لا أهمّيّة لها بإزاء الخطر الذي يتهدّدنا. إنّنا أوّلاً نساء، يا سيِّدتي، نساء يُصيبونهنّ بأعزّ ما يملكن. افرضي أنّنا تكاتفنا جميعًا وصحنا جميعًا معًا: «لا نريد هذا!» إسمعي: ألا تحبّين أن تريه عائدًا؟

فهزّت زيزيت رأسها: كانت تبدو لها نكتة أن تدعوها هذه الآنسة سيِّدتي. وقالت: ـ لا يمكن منع الحرب.

فاحمرّت الآنسة بعض الاحمرار، وسألت: ـ ولماذا؟

فهزّت زيزيت كتفيها. كانت هذه تريد منع الحرب. وكان آخرون، كموريس، يريدون القضاء على البؤس. وينتهي الأمر بألّا يستطيع أحد أن يمنع شيئًا. وقالت: ـ هكذا. لا يمكن منعها.

فقالت الزائرة في عتاب: ـ ولكن ينبغي ألّا نفكّر على هذا النحو. إنّ من يفكِّر هكذا هم الذين يتعجّلون مجيء الحرب. ثم ينبغي التفكير قليلاً بالآخرين. فمهما فعلتم، تظلّون متضامنين معًا.

فلم تجب زيزيت. كانت تشدّ في قبضتها سيجارتها المطفأة. وكان لديها شعور بأنّها في المدرسة الإداريّة. وقالت الآنسة:

ـ إنّك لا تستطيعين أن ترفضي توقيع اسمك. أليس كذلك يا سيِّدتي: إنّك لا تستطيعين أن ترفضي توقيعًا.

وكانت قد سحبت من محفظتها ورقة، فوضعتها تحت أنف زيزيت، فسألتها زيزيت:

ـ ما هذه؟

قالت الآنسة: ـ عريضة ضدّ الحرب. ونحن نتلقّى التواقيع بالألوف.

وقرأت زيزيت بصوت منخفض:

«إنّ نساء فرنسا الموقّعات على هذه العريضة يصرّحن بأنّهنّ يضعن ثقتهنّ بحكومة الجمهوريّة للمحافظة على السلام بجميع الوسائل. ويؤكّدن اعتقادهنّ المطلق بأنّ الحرب، أيًّا كانت الظروف التي ستنشب فيها، هي دائمًا جريمة. المفاوضات وتبادل وجهات النظر أمرٌ مطلوب دائمًا. أمّا اللجوء إلى العنف، فأمر منكر. وهذا اليوم، ٢٢ أيلول ١٩٣٨ هو من أجل السلام العالمي، ضدّ الحرب بمختلف أشكالها. جامعة الأمّهات والزوجات الفرنسيّات».

وقلبت الصفحة، فكان قفاها مغطّى بالتواقيع الملصق بعضها ببعض، أفقيًّا أو عموديًّا أو صعودًا أو هبوطًا. بالحبر الأسود أو البنفسجي أو الأزرق. وكان بعض التواقيع يمتدّ عريضًا، بحروف كبيرة ذات زوايا. بينما كان البعض الآخر دقيقًا مدبّبًا ينزوي بخجل في زاوية صغيرة. وكان إلى قرب كلّ توقيع عنوان: السيّدة جان بليموا، ٦، شارع دوبينياك؛ السيّدة سولانج بيريس، ١٤٢، جادّة سانت أوان. واستعرضت زيزيت بنظرها أسماء جميع هاتيك السيّدات. لقد انحنين جميعًا على هذه الورقة. كان فيهنّ من كان قطيع الأولاد عندها يصرخ في الغرفة المجاورة، وقد وقّعت أخريات في البهو الأنيق، بقلم حبر ذهبيّ. أمّا الآن، فإنّ أسماءهنّ كانت جنبًا إلى جنب، وهي جميعًا متشابهة. السيّدة سوزان تايور: ما كان عليها إلّا أن تطلب قلمًا من الآنسة، فتصبح، هي أيضًا، سيّدة، وينبسط اسمها هامًّا وقاسيًا تحت الأسماء الأخرى. وسألت:

ـ ماذا ستفعلين بهذا كلّه؟

ـ حين نحصل على عدد كافٍ من التواقيع، سنرحل وفدًا من النساء يحملها إلى رئاسة الوزارة.

السيّدة سوزان تايور. كانت السيّدة سوزان تايور. كان موريس يردّد لها دائمًا أنّ المرء متضامن مع طبقته. وها هي الآن ذات واجبات مشتركة مع الدوقة دو شوليه. وفكّرت: «توقيع. لا أستطيع أن أرفض تقديم توقيع لهنّ».

ارتفقت فلوسّي الوسادة، ونظرت إلى فيليب:

ـ نعم أيّها الداعر، ما رأيك في ذلك؟

قال فيليب: ـ لا بأس. لا بدّ أن يتحسّن الوضع حين يكفّ الصداع.

قالت فلوسّي: ـ يجب أن أنهض. سوف آكل، ثم أذهب إلى المرقص. هل تأتي معي؟

قال فيليب: ـ إنّني متعب أكثر ممّا ينبغي. إذهبي من دوني.

ـ ستنتظرني هنا، أليس كذلك؟ أتقسم لي أنّك ستنتظرني؟

قال فيليب وهو يقطّب حاجبيه: ـ طبعًا. اذهبي بسرعة، اذهبي بسرعة. سأنتظرك؟

قالت الآنسة: ـ هل توقّعين إذن؟

قالت زيزيت: ـ ليس لديّ قلم.

فمدّت الآنسة لها قلم حبر، فتناولته زيزيت ووقّعت في أسفل الصفحة. وخطّت اسمها وعنوانها إلى جانب التوقيع، ثم رفعت رأسها ونظرت إلى الآنسة: كان يُخيّل إليها أنّ شيئًا ما سيحدث.

ولم يحدث شيء قطّ. ونهضت الآنسة، فأخذت الورقة ونظرت إليها بدقّة، وقالت: ـ هذا ممتاز. حسنًا، لقد انتهى نهاري.

وفتحت زيزيت فمها: كان يُخيّل إليها أنّ لديها طائفة من الأسئلة ينبغي طرحها. ولكنّ الأسئلة لم تأت. واكتفت بالقول:

ـ وإذن، فستحملن هذا إلى دلادييه؟

قالت الآنسة: ـ طبعًا، طبعًا.

وحرّكت الورقة لحظة، ثم طوتها وأخفتها في محفظتها. وأحسّت زيزيت بانقباض في قلبها، حين انغلقت تلك المحفظة. ورفعت الآنسة رأسها ونظرت مباشرة في عينيها، وقالت: ـ شكرًا. شكرًا من أجله. شكرًا من أجلنا جميعًا. إنّك امرأة طيّبة، يا سيّدة تايور.

ومدّت لها يدها قائلة: ـ هيّا، يجب أن أذهب.

فشدّت زيزيت يدها، بعد أن مسحت يدها بمريولها. وكانت تستشعر خيبة مريرة، فسألت:

ـ أهذا... كلّ شيء.

فأخذت الآنسة تضحك. وكانت لها أسنان كاللؤلؤ. وردّدت زيزيت لنفسها: «إنّنا متضامنون»، ولكنّ الكلمات كانت قد فقدت معناها.

ـ نعم، هذا كلّ شيء، الآن.

واتّجهت إلى الباب بخطوة نشيطة، وفتحته، وأدارت للمرّة الأخيرة وجهًا مبتسمًا لزيزيت، ثم اختفت. وكان عطرها ما يزال يخفق في الغرفة. وسمعت زيزيت خطاها تتلاشى، فشرقت بأنفها مرّتين أو ثلاثًا. كان يُخيّل إليها أنّ شيئًا ما قد سُرق منها. وقصدت النافذة، ففتحتها وأطلّت إلى الخارج. كان ثمّة سيّارة إزاء الرصيف. وخرجت الآنسة من الفندق، ففتحت الباب وصعدت إلى السيّارة التي أقلعت. وفكّرت زيزيت: «لقد ارتكبتُ حماقة». وانعطفت السيّارة في جادّة سان أوان واختفت، حاملةً إلى الأبد توقيعها والمرأة الجميلة المعطّرة.. وتنهّدت زيزيت، فأغلقت النافذة وأضاءت الغاز من جديد. وأخذ الشحم يطقطق، وطغت رائحة اللحم الحارّ على العطر، وفكّرت زيزيت: «إذا عرف موريس ذلك يومًا، فلا أدري ماذا يحدث».

ـ ماما، إنّي جائع.

وسألت الأمّ ماتيو: ـ كم هي الساعة؟

إنّها مارسيليّة جميلة ممتلئة وعلى شفتها ظلّ شارب. وألقى ماتيو نظرة إلى ساعة يده.

ـ إنّها الثامنة وعشرون دقيقة.

فأخذت المرأة من بين ساقيها سلّة مغلقة بقضيب حديديّ:

ـ افرحي أيّتها المزعجة الصغيرة، سوف تأكلين.

وأدارت رأسها نحو ماتيو:

ـ إنّها جديرة بأن تعذِّب قدِّيسًا.

فوجّه إليها ماتيو بسمة غامضة حفيّة. وفكّر: «الساعة الثامنة والدقيقة العشرون. بعد عشر دقائق يتكلّم هتلر. إنّهما في الصالون، وقد مضى أكثر من ربع ساعة وجاك يحرِّك مفاتيح الراديو».

كانت المرأة قد وضعت السلّة على المقعد، وفتحتها، وصرخ جاك:

ـ لقد التقطتها! التقطتها! هذه شتوتغارت.

وكانت أوديت واقفة بالقرب منه، وقد وضعت يدها على كتفه. وسمعت ضجيجًا، فخُيّل إليها أنّ نفحة قاعة طويلة مقبّبة كانت تصفعها على وجهها. وأزاح ماتيو نفسه قليلاً ليُفسح مكانًا للسلّة: لم يكن قد غادر جوان ليبان. كان بالقرب من أوديت، ملتصقًا بأوديت، ولكنّه أعمى أصمّ، فقد كان القطار يحمل أذنيه وعينيه نحو مرسيليا. لم يكن يكنّ لها حبًّا، وإنّما شيئًا آخر: لقد نظرت إليه كما لو أنّه لم يمت تمامًا. وشاء أن يعطي وجهًا لهذا الحنان الناقص الصورة الذي كان يثقل عليه، وبحث عن وجه أوديت، ولكنّه كان يفرّ. وقد ظهر وجه جاك مرّتين بدلاً منه، وانتهى الأمر بماتيو إلى لمح شكل جامد في أريكة، مع طرف من رقبة منحنية وهيئة تنبّهٍ على وجهٍ لا فم له ولا أنف. قال جاك وهو يلتفت إليها: ـ لقد آن الأوان. إنّه لم يبدأ الكلام.

«عيناي هنا». كان يرى السلّة: وكانت منشفة جميلة بيضاء ذات خطوط حمراء وسوداء تغطّي محتواها. وتأمّل ماتيو لحظة أخرى الرقبة السمراء، ثم تركها: كان ذلك قليلاً جدًّا بالنسبة لهذا الحنان الثقيل. وغرقت في الظلّ، وأخذت المنشفة تتطلّب تطلّبًا شديدًا، فأقامت في عينيه، طاردةً الصور والأفكار أشتاتًا. «عيناي هنا»، وانتفض لسماع جرس مخنوق.

قالت المارسيليّة: ـ كوكوت، أسرعي، أسرعي.

واستدارت نحو ماتيو بضحكة اعتذار:

ـ إنّه المنبّه. فأنا أربطه دائمًا على الساعة الثامنة والنصف.

وفتحت الصغيرة بسرعة صندوقًا صغيرًا، فأدخلت فيه يديها، وسرعان ما توقّف جرس المنبّه. الساعة الثامنة والنصف. سيدخل قصر الرياضة. أنا في جوان ليبان، أنا في برلين، ولكنّ «عينيّ هنا». وفي مكان ما توقّفت سيّارة طويلة سوداء أمام باب، فنزل منها رجال يرتدون القمصان السمراء. وفي كلّ مكان ما من الشمال الشرقي، إلى يمينه وخلفه: ولكن كان هنا هذا الخوان الذي يسدّ عليه النظر. وسحبتها بخفَّةٍ من الزوايا أصابعُ ريّا ذات خواتم، فاختفت، ورأى ماتيو زجاجة ترموس ملقاةً على جانبها وركامًا من معجّنات الحلوى: فأخذه الجوع. إنّني في جوان ليبان، إنّني في برلين، إنّني في باريس، ليست لي من حياة بعدُ، ولا من مصير. غير أنّي هنا جائع، هنا بالقرب من هذه السمراء الضخمة وهذه الفتاة الصغيرة. ونهض، فمدّ يده إلى حقيبته في الشبكة، ففتحها وتلمّس فيها رزمة أوديت. وجلس فأخذ سكّينه وقطع الخيط، وكان يتعجّل الأكل، كما لو أنّه كان لا بدّ أن ينتهي على عجل ليسمع خطاب هتلر. دخل، هدير عظيم جعل الزجاج يرتجف، وهدأ الهدير، ومدّ يده.

وفي مكان ما، كان ثمّة عشرة آلاف رجل مسلّحين، استقامت رؤوسهم وارتفعت أذرعتهم. في مكان ما، في ظهره، كانت أوديت منحنية على جهاز الراديو. وتكلّم، فقال: «يا مواطنيّ».. وكان صوته قد كفّ عن أن يكون له، وأصبح عالميًّا. كان يُسمع في برست ـ ليتوسك، في براغ، في أوسلو، في طنجة، في كان، في مورلي، على الباخرة الكبيرة البيضاء التابعة لشركة «باكيه» التي تسير بين كازابلانكا ومرسيليا.

سألت أوديت: ـ هل أنت متأكّد من أنّك التقطّ شتوتغارت؟ إنّنا لا نسمع شيئًا.

قال جاك: ـ هس، هس، أنا متأكّد من ذلك.

توقّفت لولا أمام مدخل الكازينو، فقالت له: ـ إذن إلى اللقاء بعد حين.

قال بوريس: ـ غنّي جيّدًا.

ـ نعم، أين أنت ذاهب يا حبيبي؟

قال بوريس: ـ أنا ذاهب إلى «البار الباسكي». هناك رفاق لا يعرفون الألمانيّة طلبوا منّي أن أترجم لهم خطاب هتلر.

قالت لولا وهي ترتعش: ـ برررر، إنّك إذن لن تتسلّى.

قال بوريس: ـ أحبّ كثيرًا أن أترجم.

إنّه يخطب! وبذل ماتيو جهدًا عنيفًا ليسمعه، ثم أحسّ بأنّه أجوف فترك كلّ شيء. وكان يأكل، وقبالته، كانت الفتاة الصغيرة تعضّ فطيرة مربّى، ولم يكن يُسمع إلّا لهاث ناقلات السكك الحديديّة الهادئ، وكانت أمسية من عسل، كلّ شيء مغلق. وأدار ماتيو عينيه فنظر إلى البحر عبر الزجاج. كان المساء الورديّ المستدير ينغلق فوقها. ومع ذلك، فقد كان صوت يخرق هذه البيضة من السكّر. إنّه في كلّ مكان، القطار يقتحمه، وهو في القطار، تحت أقدام الطفلة، في شعر السيّدة، في جيبي، ولو كان معي جهاز راديو لفتحته في الشبكة أو تحت المقعد. إنّه هنا، ضخم، يغطّي ضجّة القطار، ويجعل الزجاج يرتجّ ـ ولا أسمعه. كان متعبًا، ولمح في البعيد شراعًا فوق الماء، ولم يفكّر بعد إلّا به. قال جاك منتصرًا:

ـ اسمعي، اسمعي.

وخرج هدير عظيم من الجهاز فجأة. فتراجعت أوديت خطوة، كان ذلك شيئًا لا يُطاق. وفكّرت: «ما أكثر عددهم، وكم هم معجبون به!»

هناك، على بعد آلاف الكيلومترات، عشرات الألوف من المعذَّبين. وكانت أصواتهم تملأ صالون العائلة الهادئ ـ وكان مصيرها نفسه هو الذي يتقرّر هناك. قال جاك:

ـ ها هو! ها هو!

وكانت العاصفة تهدأ رويدًا رويدًا، وكانت تُسمع أصوات أنفيّة وقاسية، ثم ساد الصمت، فأدركت أوديت أنّه سيتكلّم. ودفع بوريس باب الحانة، فأشار له المعلِّم أن يعجِّل، وقال: ـ استعدّوا، سوف يبدأ.

وكانوا ثلاثة قد ارتفقوا المشرب: كان هناك المارسيلي، وشارلييه، عامل المطبعة الرواني، ثم شخص كبير ضخم ذو بنية فظيعة كان يبيع آلات خياطة، ويُدعى شومي.

قال بوريس بصوت منخفض: ـ مرحبًا.

فحيّوه بسرعة، واقترب من الجهاز؛ وكان يقدِّرهم، لأنّهم لم يكونوا يخافون أن يقصِّروا عشاءهم ليأتوا فيتبادلوا فيما بينهم كلامًا غير مستحبّ، كانوا أشخاصًا قساة يواجهون الأشياء على حقيقتها.

كان قد استند إلى الطاولة بيديه الاثنتين، ينظر إلى البحر الهائل، ويسمع هدير البحر. ورفع يده اليمنى فهدأ البحر. وقال:

ـ مواطنيّ الأعزّاء.

«إنّ هناك حدًّا لا يمكن الاستسلام بعده، لأنّ ذلك يصبح ضعفًا مضرًّا. عشرة آلاف ألماني وجدوا خارج الريخ فوق أرضين كبيرتين، وهم الألمان الذين يريدون العودة إلى الريخ. ولن يكون لي الحقّ بأن أظهر أمام تاريخ ألمانيا إذا شئت فقط أن أتركهم بلا اكتراث. ولن يكون لي كذلك الحقّ معنويًّا بأن أكون فوهرر هذا الشعب. ولقد قبلت حتى الآن تضحيات كافية، وتنازلات. وهنا يقوم الحدّ الذي لم أكن أستطيع أن أتجاوزه. وقد أثبت الاستفتاء في النمسا مشروعيّة هذا الإحساس. لقد قُدِّمت آنذاك شهادة

حيّة لم يكن يأملها سائر العالم. ولكن سبق لنا أن رأينا أنّ الاستفتاء في نظر الديموقراطيّات يصبح لا جدوى منه، بل يصبح مشؤومًا، بمجرّد أنّه لا ينتج النتيجة التي يأملونها. ومع ذلك، فإنّ هذه المسألة قد حُلّت لسعادة الشعب الألماني الكبير كلّه.

وأمامنا الآن المسألة الأخيرة التي ينبغي أن تُحلّ، وسوف تُحلّ».

وهاج البحر تحت قدميه، وبقي لحظة من غير أن يتكلّم، وهو ينظر إلى أمواجه الهائلة. وضغطت أوديت يدها على صدرها، كان ذلك الهدير يجعل قلبها يقفز كلّ مرّة. وانحنت فوق أذن جاك الذي ظلّت أهدابه مقطّبة، وهو مستغرق في هيئة تنبّه قصوى، بالرّغم من أنّ هتلر قد انقطع عن الكلام منذ لحظات. وسألته، من غير أمل كبير:

ـ ماذا يقول؟

وكان جاك يزعم أنّه يفهم الألمانيّة، لأنّه قد سبق له أن قضى ثلاثة أشهر في هانوفر، وهو لا يكفّ منذ عشرة أعوام عن الاستماع بانتظام إلى جميع خطباء برلين في الراديو، بل هو قد اشترك في جريدة «فرانكفورتر زايتونغ» بسبب مقالاتها الماليّة. ولكنّ المعلومات، التي كان يعطيها عمّا قرأ أو سمع، كانت تظلّ مبهمة دائمًا. ورفع كتفيه:

ـ الشيء نفسه دائمًا. تكلّم على تضحيات الشعب الألماني وسعادته.

فسألت أوديت بحيويّة: ـ هل يوافق على بذل التضحيات؟ أهذا يعني أنّه سيقوم بتنازلات؟

ـ نعم، لا . . . إنّ ذلك قد بقي في الهواء.

مدّ يده، فكفّ كارل عن الصراخ: كان ذلك أمرًا. والتفت يمينًا وشمالاً وهو يتمتم: «اسمعوا! اسمعوا!»، وكان يُخيّل إليه أنّ أمر هتلر الأبكم يخترقه من الجانبين ويتجسّد في فمه. وقال: «اسمعوا! اسمعوا!». لم يكن بعد إلّا أداة طيّعة، ناقل صدى: وقد جعلته النشوة يرتعش من رأسه

إلى قدميه. وصمت الجميع، وغرقت القاعة كلّها في السكوت وفي الليل، وكان هس، وغورنغ، وغوبلز قد اختفوا، ولم يبقَ ثمّة أحد في الدنيا إلّا كارل وفوهرره. كان الفوهرر يتحدّث أمام العَلَم الكبير الأحمر ذي الصليب المعكوف. كان يتكلّم من أجل كارل، من أجله وحده. صوت، صوت واحد في العالم. إنّه يتحدّث من أجلي، ويفكّر من أجلي، ويقرّر من أجلي. يا فوهرري.

«إنّ هذا هو المطلب الإقليميّ الأخير المتعلّق بالأرض الذي أطالب به في أوروبا، ولكنّه مطلب لن أتزحزح عنه وسوف أحقّقه بمشيئة الله».

وتوقّف لحظة. ففهم كارل أنّه قد أُعطي الإذن بالصراخ، فصرخ بكلّ قواه. وأخذ الجميع يصرخون، وتضخّم صوت كارل، وصعد حتى الأقواس فارتجّ منه الزجاج. كان يحترق فرحًا، وكان له عشرة آلاف فم، وكان يحسّ أنّه تاريخيّ.

وصاح ميميل في الجهاز: «اخرس! اخرس!» والتفت إلى روبير، فقال له: «أترى أيّة عصابة من الفروج! إنّ هؤلاء الأشخاص لا يكونون مسرورين إلّا حين يستطيعون أن يصيحوا معًا، فيبدو أنّ تسلياتهم هي هي نفسها. إنّ لهم قاعات كبيرة في برلين تستطيع أن تستوعب عشرين ألف شخص. فيجتمعون هناك يوم الأحد، ويأخذون في الغناء المشترك وهم يشربون البيرة».

وكان الجهاز ما يزال يهدر. قال روبير:

ـ أوه! ما قولك في أن «نفركشه»؟

وأدارا المفتاح، فانطفأت الأصوات، وخُيّل إليهما فجأة أنّ الغرفة كانت تخرج من الظلّ، وكانت هناك، حولهما، صغيرة هادئة، وكان الخمر في متناول يديهما، لم يكن عليهما إلّا أن يديرا مفتاحًا، فإذا بجميع صرخات هؤلاء المعذّبين تعود إلى جهازها، وإذا بمساء جميل متّزن يدخل

من النافذة، مساء فرنسيّ. . وإذا هما بين الفرنسيّين.

«هذه الدولة التشيكيّة بدأت بكذبة كبيرة. وكان مؤلّف هذه الكذبة يُدعى بنيش».

صواعق في الجهاز.

«لقد مَثُل السيِّد بنيش هذا في ڤرساي، وأكّد أوّلاً أنّه كان ثمّة أمّة تشيكوسلوڤاكيّة».

قهقهات في الجهاز. وأضاف الصوت، بشراسة:

«لقد كان مضطرًّا إلى اختراع هذه الكذبة ليضفي على العدد الهزيل من جنوده المواطنين أهمّيّة أكبر قليلاً، وبالتالي أكثر تبريرًا. ورجال الدولة الأنكلوساكسون الذين لم يألفوا بما فيه الكفاية القضايا العِرقيّة والجغرافيّة، لم يجدوا ضروريًا آنذاك أن يحقّقوا في تأكيدات السيِّد بنيش.

«ولمّا لم تبدُ هذه الدولة قابلة للحياة، فقد أخذوا بكلّ بساطة ثلاثة ملايين ونصف المليون من الألمان، منتهكين حقّهم بتقرير مصيرهم بأنفسهم تقريرًا حرًّا».

وصاح الجهاز: «في! في! في» وصاح السيِّد بيرنانشاتز: «كذّاب! إنَّهم لم يأخذوا هؤلاء الألمان من ألمانيا!» وكانت إيلّا تنظر إلى أبيها محمرًّا من شدّة الغضب، وهو يدخّن سيجارًا في أريكته، وكانت تنظر إلى أمّها وإلى أختها إيفي فتحسّ تجاههما بما يشبه الكراهية: «كيف يستطيعون أن يسمعوا ذلك؟».

«ولمّا لم يكن ذلك كافيًا، وجب إضافة مليون من «الماغيار»، ثم من الروس الكارباتيين، وأخيرًا بضعة مئات من الألوف من البولونيين.

«هذه هي الدولة التي سمّت نفسها فيما بعد تشيكوسلوڤاكيا، منتهكة حقّ الشعوب في تقرير مصيرها بحرّيّة، ورغبة الأمم المغتَصَبة وإرادتها التي عبّرت عنها بوضوح. وإنّي إذ أتحدّث إليكم هنا، فإنّني أعطف طبعًا على

مصير جميع هؤلاء المضطهَدين: أعطف على مصير السلوفاكيين والبولونيين والهنغاريين والأوكرانيين، ولكنّي لا أتكلّم طبعًا إلّا على مصير الألمان التابعين لي».

وملأ القاعة هتاف عظيم. كيف يستطيعون أن يسمعوا ذلك؟ ثم إنّ هذه الـ «يعيش! يعيش!» تلوي لها قلبها. وفكّرت في غيظ: مهما يكن من أمر، فنحن يهود، وليس لنا أن نسمع جلّادنا. قد أحتمله هو، وقد سمعته دائمًا يقول إنّ اليهود غير موجودين. ونظرتْ إلى أمّها وفكّرت: أمّا هي، فهي تعلم أنّها يهوديّة، إنّها تشعر بذلك، وتبقى مع هذا هنا. وكانت السيِّدة بيرنانشاتز، التي تحبّ التنبّؤات، قد قالت مساء البارحة فقط: «إنّها الحرب يا أولادي، وإذا كانت الحرب خاسرة، فليس على الشعب اليهوديّ بعد إلّا أن يأخذ خُرجه». أمّا الآن، فهي تغفو وسط الهتافات، وتغمض بين الفينة والفينة عينيها المطليّتين، وينوس رأسها الضخم المعتم ذو الشعر الأسود. واستأنف الصوت كلامه، وهو يضبط العاصفة:

«والآن تبدأ الوقاحة. إنّ هذه الدولة التي لا تحكمها إلّا أقلّيّة، تجبر وطنييها على سلوك سياسة ستضطرّهم يومًا إلى إطلاق النار على إخوتهم».

ونهضت إيلّا. هذه الكلمات الخشنة التي كانت تُنتزع بمشقّة من حنجرة مستعدَّة دائمًا للسعال، إنّما كانت طعنات سكِّين. لقد عذّب يهودًا: وفيما هو يتكلّم، ثمّة ألوف ينازعون في معسكرات الاعتقال، ومع ذلك يتركون صوته يلعلع عندنا، في هذا الصالون الذي استقبلنا فيه أمس فقط قريبنا داشوير بأجفانه المحترقة.

«إنّ بنيس يطلب هذا من الألمان: إذا «قمت بالحرب ضدّ ألمانيا، فعليك أن تطلق النار على الألمان. وإذا رفضت كنت خائنًا، وسوف أعدمك بالرصاص». ويطلب الشيء نفسه من الهنغاريين والبولونيين».

كان الصوت هنا، فظيعًا، صوت الحقد؛ لقد كان الرجل بإزاء إيلّا.

وكان سهل ألمانيا الكبير وجبال فرنسا قد انهارت، فإذا هو بإزائها تمامًا، من غير مسافة، وكان يتحرّك في جهازه، ينظر إليّ؛ يراني. والتفتت إيلّا نحو أمّها، نحو إيڤي: ولكنّهما كانتا قد قفزتا إلى الخلف، وكان بوسع إيلّا أن تراهما بعد، ولكن لا أن تلمسهما. كانت باريس أيضًا قد تراجعت حتى أصبحت لا تُدرك، وكان النور الذي يدخل من النوافذ يسقط ميِّتًا على السجّادة. لقد حدث تفتُّتٌ لا يُلحظ بين الناس والأشياء، وكانت هي وحيدة في العالم مع هذا الصوت.

«في ٢٠ شباط من هذا العام، صرَّحت في الريخستاغ أنّ من الضروريّ أن يحدث تغيير في حياة الملايين العشرة من الألمان الذين يعيشون خارج حدودنا. وقد تصرّف السيِّد بنيش غير هذا التصرّف، فقد أقام عهدًا من الاضطهاد تامًّا».

كان يحدِّثها وحدها، عيناه في عينيها، بغيظ ينمو وينمو مع رغبة في أن يخيفها وأن يؤذيها. وقد ظلّت مسحورة، ولم تكن عيناها تغادران الصفيحة اللّامعة. ولم تكن تسمع ما يقول، ولكن صوته كان يسلخها.

«وإرهابًا أكبر، وعهدًا من الفساد...».

وانفتلت فجأة، فغادرت الغرفة. ولحقها الصوت إلى الممرّ، مسحوقًا، غير متميِّز، ما يزال ينضح بالسمّ. ودلفت إلى غرفتها وأغلقت بابها بالمفتاح. وهناك، في الصالون، كان ما يزال يتوعّد. ولكنّها لم تسمع بعد إلّا تمتمة مختلطة. وتداعت للسقوط على كرسيّ: أليس ثمّة أحد، ليس من أمّ ليهوديّ معذَّب، ولا من زوجة لشيوعيّ مغتال، يتناول مسدّسًا ويذهب لقتله؟ كانت تستجمع قواها، وتفكِّر في أنّها لو كانت ألمانيّة لأوتيت الشجاعة لقتله.

نهض ماتيو، وأخذ من مشمّعه سيكارًا ممّا أعطاه جاك، ودفع باب الحافلة.

قالت المارسيليّة: ــ إذا كنت خارجًا إكرامًا لي، فلا تُزعج نفسك، إنّ زوجي يدخِّن الغليون: فأنا معتادة.

قال ماتيو: ــ إنّي أشكرك، ولكنّي راغب في تحريك ساقيّ لأزيل خدرهما.

وكان راغبًا خصوصًا في ألّا يراها بعد، وألّا يرى الصغيرة، ولا السلّة. خطا بضع خطوات في الممرّ وتوقّف وأشعل سيكارًا. وكان البحر أزرق هادئًا، وكان يتسلّل بمحاذاة البحر، ويفكِّر: «ماذا يحدث لي؟» وهكذا كان جواب هذا الرجل أكثر من أيّ يوم: «لنُعدِم ولنعتقِل، ولنُسجِن». وكان هذا الجواب موجّهًا لجميع الذين لا يناسبونه لسببٍ أو لآخر. كان يريد أن يجتهد ويفهم. لم يحدث له شيء قبل الآن لم يفهمه. وكانت تلك قوّته الوحيدة، ودفاعه الوحيد، وكبرياءه الأخيرة. كان ينظر إلى البحر ويفكِّر: «إنّني لا أفهم ــ وعند ذلك جاء مطلبي في نورمبرغ، وكان هذا المطلب واضحًا تمامًا: من أجل لولا ــ وقال في نفسه: الذي يحدث لي هو أنّي ذاهب إلى الحرب. ولم يكن ذلك يبدو خبيثًا، ومع ذلك فهو لم يكن واضحًا على الإطلاق. أمّا ما يخصّه شخصيًا، فقد كان كلّ شيء بسيطًا وواضحًا: لقد لعب وخسر، وكانت حياته خلفه قد فسدت، إنّني لا أترك شيئًا، ولست آسفًا على شيء حتى ولا على أوديت ولا على إيفيش، إنّني لست أحدًا. يبقى الحادث نفسه ــ أصرِّح الآن بأنّ حقّ تقرير المصير ينبغي أخيرًا، بعد عشرين سنة من تصريحات الرئيس ويلسون، أن يدخل في حيِّز التطبيق بالنسبة لهذه الملايين الثلاثة والنصف ــ وكلّ ما كان أصابه حتى الآن كان على سويّته كرجل، الإزعاجات الصغيرة والكوارث، لقد رآها مقبلة، فنظر إليها مواجهة. حين ذهب يأخذ المال من غرفة لولا، رأى الأوراق الماليّة ولمسها، وشمّ العطر الذي كان يطفو في الغرفة، وحين تخلّى عن مارسيل، كان ينظر إليها في عينيها فيما كان يتحدّث إليها، ولم تكن

مصاعبه قطّ إلّا مع نفسه، كان بوسعه أن يقول لنفسه: لقد أصبت، ولقد أخطأت، كان يستطيع أن يحكم على نفسه. أمّا الآن، فقد أصبح الأمر مستحيلاً ـ ومن جديد أعطى السيد بنيش جوابه: موتى جدد، تجسيداتٌ جديدة، ـ وفكّر: إنّي ذاهب إلى الحرب، ولم يكن ذلك يعني شيئًا. لقد حدث له شيء ما كان يتجاوزه. كانت الحرب تتجاوزه. ليست القضيّة حقًّا هي في أنَّها تتجاوزني بقدر ما إنَّها لم تكن موجودة هنا. فأين هي؟ في كلّ مكان: إنّها تولد من كلّ مكان، القطار يَلِج الحرب، وغوميز يهبط إلى الحرب، وهؤلاء المصطافون بثيابهم البيضاء يتنزّهون في الحرب، فليس ثمّة خفقة قلب لا تغذّيها، وليس ثمّة وعيٌ لم تخترقه. ومع ذلك، فهي كصوت هتلر الذي يملأ هذا القطار والذي لا أستطيع أن أسمعه: ـ لقد صارحت السيِّد شمبرلن بما نعتبره الآن الإمكانيّة الوحيدة للحلّ؛ ـ يُخيّل إلينا بين الفينة والفينة أنّنا سنلمسها، على أيّ شيء، في مَرَق شريحة، فنمدّ يدنا، فإذا هي تختفي: ولا يبقى إلّا قطعة لحم في مرق. وفكّر: آه! ينبغي أن يكون المرء في كلّ مكان معًا.

يا فوهرري، يا فوهرري، إنّك تخطب فأتحوّل إلى حجر، وأكفّ عن التفكير، ولا أريد بعد شيئًا، فلست إلّا صوتك، سأنتظره لدى الخروج، وسأصوِّب إليه في قلبه، ولكنّي في الدرجة الأولى لسان حال الألمان، ومن أجل هؤلاء الألمان خطبت، مؤكِّدًا أنّي لست مستعدًّا بعد أن أبقى متفرِّجًا صامتًا هادئًا، بينما يحسب معتوه براغ هذا أنّه قادر، سأكون هذا الشهيد، إنّني لم أذهب إلى سويسرا، ولا أستطيع الآن أن أعمل شيئًا إلّا أن أعاني هذا الاستشهاد، وأقسم بأن أكون هذا الشهيد، أقسم، أقسم، أقسم، هسّ، قال غوميز إنّنا نستمع إلى خطاب البهلوان.

«هنا راديو باريس، لا تتركوا السمع: سننقل إليكم بعد لحظة الترجمة الفرنسيّة للقسم الأوّل من خطاب المستشار هتلر».

قال جرمين شابو: ـ آه! أترى! أترى! لم يكن الأمر يستحقّ أن نهبط

ونركض ساعتين بحثًا عن جريدة «الأنترانسيجان». لقد قلت لك: إنّهم يفعلون ذلك دائمًا.

ووضعت السيِّدة شابو نسيجها في السلّة، وقرّبت أريكتها، وقالت:

ـ سنعرف ما الذي قاله. إنّني لا أحبّ هذا. فهو يُحدث لي جوعًا مثل الحفرة في معدتي. ألا يُحدث لك ذلك أنت؟

قال جرمين شابو: ـ بلى.

وكان الجهاز يشخر، ثم ندَّت عنه ثلاث كركرات أو أربع، فأمسك شابو بذراع زوجته، وقال لها: ـ اسمعي.

فانحنيا قليلاً، مرهفيّ السمع، وأخذ أحدهما يغنّي «الكو كاراشا». فسألت السيِّدة شابو:

ـ هل أنت متأكِّد أنّك تأخذ راديو باريس؟

ـ متأكِّد.

ـ إنّ هذا إذن ليطلبوا منّا الصبر.

وغنّى الصوت ثلاثة مقاطع، ثم توقّفت الأسطوانة، فقال شابو:

ـ ها نحن ذا.

وحدثت خربشة خفيفة، ثم أخذت جوقة هوايانيّة تعزف، «هوني مون».

يجب أن يكون المرء في كلّ مكان. وتأمّل في حزن طرف سيكاره: في كلّ مكان، وإلّا كان مخدوعًا. أنا جنديّ ذاهب إلى الحرب، وهذا ما ينبغي أن أراه: الحرب والجنديّ طرف سيكار، مقاصير بيضاء على شاطئ الماء، انسراب الحافلات الرتيب على الخطوط الحديديّة، وهذا الرحّالة المألوف جدًّا، فاس، مراكش، مدريد، بيروز، سيان، روما، براغ، لندن، الذي يدخّن للمرّة الألف في ممرّ حافلة من الدرجة الثالثة. لا حرب، لا جنود: يجب أن يكون المرء في كلّ مكان، يجب أن أرى نفسي من كلّ

مكان، من برلين كواحد على ثلاثة ملايين من الجيش الفرنسيّ، وفي عينيّ غوميز كواحد من هؤلاء الفرنسيّين الكلاب الذين يُركلون ركلاً نحو المعركة، وفي عينيّ أوديت. يجب أن أرى نفسي بعيون الحرب. ولكن أين هي عيون الحرب؟ إنّني هنا، تنسرب أمام عينيَّ مساحات كبيرة مشرقة، إنّني متبصِّر، أرى ـ ومع ذلك فإنّي أتّجه بالتلمّس، وبتحسّس الأعمى، وكلّ حركة من حركاتي تشعل مصباحًا أو تُطلق جرسًا في عالم لا أراه. كانت زيزيت قد أغلقت المصاريع، ولكنّ النهار المنتهي كان ما يزال يتسرّب من الشقوق، وكانت تحسُّ نفسها متعبةً وميِّتة، وقذفت قميصها الداخلي على كرسيّ ثم اندسّت عارية في السرير، إنّني أنام دائمًا براحة حين أُحسّ الأسى؛ ولكنّها حين استقرّت تحت الغطاء، كان مومو في هذا السرير قد داعبها ليلة أمس الأوّل، وكانت ما تكاد تستسلم حتى يقتحمها فيسحقها، فإذا ما فتحت عينيها من جديد، لم يكن هناك بعد، كان ينام بعيدًا في ثكنته، ثم إنّه كان ثمّة هذا الراديو اللعين الذي يزعق باللُّغة الأجنبيّة، وكان هو جهاز أسرة هاينمن، اللاجئين الألمان في الطابق الأوّل، صوت خشن أفعويّ يدقّ أعصابك دقًّا، أتراه لن ينتهي، ألن ينتهي؟ وحسد ماتيو غوميز، ثم قال في نفسه: إنّ غوميز لا يرى من ذلك أكثر ممّا أرى، إنّه يتخبّط ضدّ أشياء غير مرئيّة ـ وكفّ عن حسده إيّاه. ماذا يرى: جدرانًا، جهاز تلفون على مكتبه، وجه ضابطه الآمر. إنّه يخوض الحرب، ولكنّه لا يراها. فإذا كانت القضيّة قضيّة خوض حرب، فإنّنا نخوضها جميعًا، إنّني أرفع يدي، وأسحب نَفَسًا من هذا السيكار، فأخوض الحرب، إنّ سارة تلعن جنون الرجال، وتضمّ بابلو بين ذراعيها، فتخوض الحرب. وأوديت تخوض الحرب حين تلفّ بالورق سندويشات من لحم الخنزير. إنّ الحرب تأخذ كلّ شيء، تلمّ كلّ شيء، ولا تترك شيئًا يضيع، حتى ولا فكرة، ولا حركة، ولا يستطيع أحد أن يراها، حتى ولا هتلر. لا أحد. وردّد: لا أحد ـ ثم فجأة، لمحها. كانت جسمًا غريبًا، لا يمكن تصوّره.

«هنا راديو باريس، لا تتركوا السمع: سننقل إليكم بعد لحظة الترجمة الفرنسيّة للقسم الأوّل من خطاب المستشار هتلر».

ولم يتحرّكا. إنّ أحدهما يحدّج الآخر بطرف عينه، وحين أخذت رينا كيتي تغنّي: «سأنتظر»، تبادلا بسمة. ولكن في نهاية المقطع الأوّل، انفجرت السيِّدة شابو ضاحكة، وقالت:

ـ سأنتظر! هذا مناسب تمامًا... إنّهم يهزأون بنا.

جسم ضخم، كوكب، في فضاء ذي مئة مليون بُعد، حتى إنّ الكائنات ذات الثلاثة الأبعاد لم تكن تستطيع أن تتصوّره. ومع ذلك، فإنّ كلّ بُعد كان تزامنًا مستقلًّا. فإذا كان المرء يحاول أن ينظر إلى الكوكب مواجهة، انهار متفتّتًا، ولم يبقَ بعد إلّا الوعي. مئة مليون وعي حرّ كان كلّ منها يرى جدرانًا، وطرف سيكار محمرًّا، ووجوهًا مألوفة، ويبني مصيره تحت مسؤوليّته الخاصّة. ومع ذلك، فإذا كان المرء وعيًا منها أدرك بتلمّسات غير محسوسة، وبتغيّرات طفيفة، أنّه كان متضامنًا مع حظيرة ضخمة غير مرئيّة للحيوانات البحريّة. الحرب: إنّ كلّ إنسان حرّ، ومع ذلك فقد تمَّت اللعبة. إنّها هنا، هي في كلّ مكان، وهي مجموعة أفكاري كلّها، وكلمات هتلر كلّها، وأفعال غوميز كلّها: ولكن ليس ثمّة أحد هناك ليُجري الجمع. إنّها غير موجودة إلّا بالنسبة لله، ولكنّ الله غير موجود هنا. ومع ذلك، فإنّ الحرب موجودة.

ـ ولم أدع أيّ شكّ حول فكرة أنّ للصبر الألماني بعد الآن حدًّا. لم أدع أيّ شكّ حول فكرة أنّ من خصائص العقليّة الألمانيّة دون ريب التمسّك بالصبر الطويل، ولكن حين يحين الأوان، فيجب أن ينتهي هذا الصبر.

سأل شومي: ـ ماذا يقول؟ ماذا يقول؟

فشرح بوريس: ـ يقول إنّ للصبر الألماني حدودًا.

قال شارليه: ـ وكذلك لصبرنا.

وأخذ الجميع يزعقون في الجهاز، ودخل «هيريرا» إلى القاعة، فقال حين رأى غوميز: ـ آه! مرحبًا! قل لي، هل قضيت مأذونيّة طيّبة؟

قال غوميز: ـ بين بين.

ـ ألا يزال الفرنسيّون حكماء؟

ـ ها! إنّك لا تتصوّر حالتهم. أعتقد أنّها ستصيبهم في إستهم! (وأشار إلى جهاز الراديو) إنّ بهلوان برلين ثائر!

ـ بلا مزاح؟ (واشتعلت عينا هيريرا) ولكن قل لي: إنّ هذا سيغيّر أشياء كثيرة!

قال غوميز: أعتقد ذلك.

ونظر أحدهما إلى الآخر لحظة، وهما يبتسمان، وعاد إليهما تليكان الذي كان على النافذة:

ـ أخفضوا صوت الجهاز، فإنّي أسمع شيئًا.

فأدار غوميز المفتاح، فضعفت الضجّة.

ـ تسمع؟ ماذا تسمع؟

وأرهف غوميز أذنه، فسمع هديرًا أصمّ. وقال هيريرا:

ـ هكذا! إنّها صفّارة الإنذار. الرابعة منذ هذا الصباح.

قال غوميز: ـ الرابعة.

قال هيريرا: ـ نعم. آه! سوف تجدون تغيّرًا.

وكان هتلر قد استأنف كلامه، فانحنوا على الجهاز. وكان غوميز يستمع إلى الخطاب بأذن، ويتابع بالأخرى هدير الطائرات. وحدث انفجار أصمّ في البعيد.

ـ ماذا يصنع؟ إنّه لم يتنازل عن الأرض، وها هو الآن يطرد الألمان! إنّ السيِّد بنيش ما كاد يتكلّم حتى عادت تدابير الاضطّهاد العسكريّة

متفاقمة. ونحن نلاحظ هذه الأرقام المرعبة: ففي يوم واحد عشرة آلاف شخص يهربون، وفي اليوم التالي عشرون ألفًا...

وخفّ الهدير ثم ازداد فجأة، وحصل انفجاران طويلان. وهمس تليكان:

ـ إنّه المرفأ يشتعل...

ـ ... وفي اليوم التالي، سبعة وثلاثون ألفًا، وبعد يومين واحد وأربعون، ثم اثنان وستُّون ألفًا، ثم ثمانية وسبعون ألفًا، والآن تسعون ألفًا، مئة وسبعة آلاف، مئة وسبعة وثلاثون ألفًا. واليوم مئتان وأربعة عشر ألفًا. إنّ مناطق برمّتها قد خلت من سكّانها، وأحياء قد أُحرقت، وهم يحاولون طرد الألمان بالقنابل والغاز. أمّا السيِّد بنيش فهو يقيم في براغ، وهو يقول لنفسه: «لا يمكن أن يحدث شيء، فإنّ ورائي نهائيًّا إنكلترا وفرنسا».

وقرص هيريرا ذراع غوميز، وقال: ـ انتبه! انتبه! سوف يهاجمهما!

وكان وجهه قد تلوَّن، وكان ينظر إلى الجهاز في ودّ. وانبثق الصوت صاعقًا، قاسيًا:

ـ والآن، يا مواطنيّ، لقد آن الوقت كما أعتقد لقول الأشياء بصورة صريحة.

وغطّت سبحة من الانفجارات المتوالية ضجّة التصفيق. ولكن غوميز لم يكد ينتبه إليها: فقد كان محدِّدًا نظره في الجهاز، يستمع إلى هذا الصوت المتوعِّد، فيحسُّ بانبعاث شعورٍ كان مكفّنًا لديه منذ وقت طويل، شعور كان يشبه الأمل.

«أنت الذي تمرّ من غير أن تراني
«بل من غير أن تقول لي مساء الخير
«إعطني بعض الأمل
«فهمومي هذا المساء كثيرة».

قال جرمين شابو: ـ لقد فهمت. لقد فهمت هذه المرّة.

فقالت زوجته: ـ ماذا؟

ـ اسمعي، إنَّها مكيدة مع صحف المساء، فهم لا يريدون إذاعة الترجمة قبل أن تنشرها الصحف.

ونهض، فتناول قبّعته وقال:

ـ أنا هابط. وسوف أجد نسخة من «الإنتران» على جادّة باربس.

آن الأوان. وأخرج ساقيه من السرير، وفكّر: «آن الأوان» سوف تجد العصفور قد طار وستجد ورقة من ألف فرنك مشكوكة بالغطاء، وإذا اتّسع لي الوقت أضفت إليها قصيدة وداع. وكان رأسه ثقيلاً، ولكن لم يكن به صُداع. وأمرّ يديه على وجهه ثم أخفضهما باشمئزاز: كانت تنبعث منهما رائحة الزنجيّة. وعلى الطاولة الزجاجيّة، فوق المغسلة، كان ثمّة صابونة ورديّة، إلى جانب رشّاشة وإسفنجة من المطّاط. وأخذ الإسفنجة، ولكن غثيانًا صعد مرّة أخرى إلى فمه، فذهب يأخذ من الصندوق الصغير قفّازه وصابونته. واغتسل من الرأس إلى القدمين، وكان الماء يجري على الأرض، ولكن لم تكن لذلك أيّة أهمِّيّة. وتسرّح وأخرج من الصندوق قميصًا نظيفًا، فارتداه. قميص الشهيد. وكان حزينًا وحازمًا، وكان على الحاجز فرشاة، فنظّف سترته بعناية. وتساءل: «ولكن أين عساني قد دسست بنطالي؟» ونظر تحت السرير وحتى بين الأغطية: ليس هناك من بنطال. وقال لنفسه: «أتراني ثملاً؟» وفتح الخزانة ذات المرآة، فبدأ القلق ينتابه: إنّ البنطال لم يكن فيها. ومكث لحظة في وسط الغرفة، وهو في قميصه، يحكّ رأسه فيما ينظر حوله، ثم أخذه الغضب، لأنّه كان وضعًا مضحكًا تمامًا بالنسبة لشهيد قادم أن يبقى هكذا مزروعًا بجواربه في غرفة نوم مومس وأطراف قميصه تخفق ركبتيه. وفي تلك اللحظة، لمح إلى يمينه خزانة محفورة في الحائط، فهرع إليها، ولكنّ المفتاح لم يكن في القفل،

وحاول أن يفتحه بأظافره ثم بمقصّ وجده على الطاولة، ولكنّه لم ينجح في ذلك. فقذف بالمقصّ وجعل يضرب بقدمه، وهو يتمتم بصوت غاضب: «يا للقحبة اللعينة! يا للفاجرة! لقد أقفلت على بنطالي لتمنعني من الخروج».

ـ وهنا، لا يسعني الآن إلّا أن أقول شيئًا واحدًا: رجلان يقفان وجهًا لوجه: فهناك السيِّد بنيش، وهنا أنا!

وأخذ الجمع كلّه يهدر. وكانت أنّا تنظر إلى ميلان في قلق. وقد اقترب من الجهاز يتأمّله ويداه في جيبه، ووجهه قد اسودّ، وثمّة شيء يتحرّك في خدّه.

قالت أنّا: ـ ميلان!

ـ ونحن رجلان من نوع مختلف. فحين كان السيِّد بنيش في عهد صراع الشعوب الكبير يروح ويجيء في العالم، مبتعدًا عن الأخطار، أنجزت أنا واجبي كجنديٍّ ألمانيٍّ شريف. وهأنذا واقف اليوم قبالة هذا الرجل كجنديّ لشعبيّ.

فصفّقوا من جديد. ونهضت أنّا فوضعت يدها على ذراع ميلان: كانت عضلته متشنِّجة، وكان جسمه كلّه من حجر. وفكّرت: «سوف يسقط» وقال متثائبًا: ـ يا للقذر!

فشدّت على ذراعه بكلّ قواها، ولكنّه دفعها. وكان في عينيه دم. وتمتم:

ـ بنيش وأنا! بنيش وأنا! لأنّ وراءك خمسة وسبعين مليون نسمة.

وخطا خطوة إلى أمام، وفكّرت: «ماذا يريد أن يفعل؟» واندفع، ولكنّه كان قد بصق مرّتين على الجهاز.

وكان الصوت يتابع:

«ليس لديّ إلّا القليل من الأمور أصرّح به: إنّني أعترف بالجميل للسيِّد شمبرلن على جميع جهوده. وقد أكّدت له أنّ الشعب الألماني لا

يريد شيئًا آخر غير السلام: ولكنّي صرّحت له أيضًا بأنّي لا أستطيع أن أُبعد حدود صبرنا. وأكّدت له كذلك، وأنا أردّد هذا هنا، بأنّه لن يكون لألمانيا، حين تُحلّ هذه المسألة، أيّة قضيّة في أوروبا تتعلّق بالأرض. كما أكّدت له أنّني، بعد أن تحلّ تشيكوسلوفاكيا هذه المسائل، أي بعد أن يتفاهم التشيكيّون مع باقي الأقلّيّات، لا بالضغط، بل بالسلم، لن أهتمّ بالتشيكيين على الإطلاق. وأنّي أضمن له ذلك! ليس لنا لدى التشيكيين أيّ مطمع. ولكنّي أريد الآن أن أصرّح أمام الشعب الألماني بأنّ صبري، فيما يتعلّق بمسألة السوديت، أوشك أن ينفد. لقد قدّمت للسيِّد بنيش عرضًا ليس هو شيئًا آخر غير تحقيق ما أكّده هو نفسه. وهو الآن يملك التقرير: سلم أم حرب. فإمّا أن يقبل هذه الاقتراحات فيعطي الألمان الآن الحرّيّة، وإمّا أن نذهب لنأخذها بأنفسنا».

رفع هيريرا رأسه، وقال متهلّلاً:

ـ يا إلٰهي! يا إلٰهي! هل سمعتم هذا؟ إنّها الحرب.

قال غوميز: ـ نعم. إنّ بنيش رجل صلب، وهو لن يخضع: وإنّها الحرب.

قال تليكان: ـ يا إلٰهي! ليت هذا يحدث! ليت هذا يحدث!

سأل شمبرلن: ـ ما هذا؟

قال وودهاوز: ـ التتمّة.

فأخذ شمبرلن الأوراق وجعل يقرأ. وكان وودهاوز يرقب وجهه في قلق. وبعد لحظة، رفع رئيس الوزارة رأسه وبسم له بتودّد، وقال:

ـ حسنًا، لا شيء جديدًا.

فنظر إلى وودهاوز بدهشة، وقال ملاحظًا:

ـ ولكنّ المستشار هتلر عبّر عن آرائه بعنف كثير.

قال شمبرلن: ـ يعني، يعني. كان مضطرًّا لذلك.

ـ إنّني اليوم أسير أمام شعبي كجنديّه الأوّل، وليعلم العالم الآن أنّ شعبًا يمشي الآن ورائي، شعبًا يختلف عن شعب ١٩١٨. ففي هذه الساعة سيتّحد الشعب الألماني كلّه معي. وسيشعر بإرادتي كإرادته، وكذلك أعتبر مستقبله ومصيره كمحرِّك لعملي! ونحن نريد أن نعزِّز هذه الإرادة المشتركة، كما كانت في عهد النضال، يوم ذهبت كجنديّ بسيط مجهول لأحصل على «ريخ» غير مرتاب قطّ بالنجاح والنصر النهائيّ. لقد تكاتف حولي فريق من الرجال الشجعان والنساء الشجاعات، ثم ساروا معي. والآن أطلب منك يا شعبي الألمانيّ هذا: «سرْ ورائي رَجُلاً بعد رجل، وامرأة بعد امرأة. فنحن نريد في هذه الساعة أن تكون لنا جميعًا إرادة مشتركة. وينبغي أن تكون هذه الإرادة أقوى من أيّة محنة ومن أيّ خطر. وإذا كانت هذه الإرادة أقوى من المحنة والخطر، فسوف نقهر المحنة والخطر. نحن مصمّمون! فعلى السيِّد بنيش الآن أن يختار!

والتفت بوريس إلى الآخرين، وقال لهم: ـ انتهى.

ولم تكن ردود فعلهم سريعة: كانوا يدخِّنون بهيئة متنبِّهة. وبعد لحظة، سأل صاحب المقهى:

ـ هل نلوي رقبته إذن؟

ـ تستطيع أن تفعل.

فانحنى صاحب المقهى فوق الزجاج، وأدار المفتاح، وأحسّ بوريس بالانزعاج لحظة: لقد نتج عن ذلك ما يشبه فراغًا كبيرًا. وكانت نفحة ريح وليل تدخل من الباب المفتوح.

وسأل المارسيليّ: ـ إذن فماذا قال؟

قال في النهاية: إنّ شعبي كلّه ورائي. وأنا مستعدّ للحرب. فعلى السيِّد بنيش أن يختار.

قال المارسيليّ: ـ مأتم! إنّها الحرب إذن؟

فهزّ بوريس كتفيه. وقال المارسيليّ: ـ لقد إنقضت عليّ ستّة أشهر لم أر فيها زوجتي ولا ابنتيّ، فسوف أعود إلى مرسيليا ومساء الخير: تحيّة صغيرة من اليد وأذهب إلى الثكنة.

قال شومي: ـ أمّا أنا، فربّما لم أجد الوقت لرؤية أمّي (وأوضح) إنّني من الشمال.

قال المارسيليّ وهو يهزّ رأسه: ـ هكذا!

وسكتوا. وأفرغ شارلييه غليونه عند كعب حذائه. وقال صاحب المقهى: ـ هل تأخذون شيئًا؟ ما دامت هي الحرب، فإنّي أقدّم لكم النوبة.

ـ هات نوبة.

وكان الهواء الخارج رطبًا أسود، وكانت تُسمع موسيقى الكازينو من بعيد: ربّما كانت لولا هي التي تغنّي. وقال الشماليّ:

ـ لقد كنت أنا في تشيكوسلوڤاكيا. وأنا مسرور أنّي كنت فيها: فهكذا يعرف المرء لماذا يقاتل.

فسأله بوريس: ـ هل مكثت فيها طويلاً؟

ـ ستّة أشهر. في عمليّة قطع غابات. كنت أتفاهم جيّدًا مع التشيكيين. إنّهم نشيطون.

قال صاحب الحانة: ـ فيما يخصّ النشاط، الألمان أيضًا نشيطون.

ـ نعم، ولكنّهم يُخرّئون العالم. بينما التشيكيّون هادئون.

قال شارلييه: ـ نخبكم.

ـ نخبكم.

ودقّوا أقداحهم فيما بينهم، وقال المارسيلي: ـ لقد بدأ الطقس يبرد.

نهض ماتيو منتفضًا، فسأل وهو يفرك عينيه: ـ ما هذا؟

ـ إنّها مارسيليا، محطّة سان ـ شارل، الجميع ينزلون.

قال ماتيو: ـ حسنًا، حسنًا.

وأخذ مشمّعه وتناول حقيبته من الشبكة. وكان يحسّ نفسه مبهمًا، وفكّر في عزاء: لا بدّ أنّ هتلر قد أنهى خطابه.

وقال الشماليّ: ـ لقد رأيتهم يذهبون، شبّان ١٤. وكنت في العاشرة. كان شيئًا مختلفًا عمّا هو الآن.

ـ هل كانوا يريدون الحرب؟

ـ ها! وكم! كانوا يتوهّجون، كانوا يغنّون، كانوا يملأون الدنيا حركة!

قال المارسيليّ: ـ يجب القول بأنّهم لم يكونوا يدركون.

ـ طبعًا لا.

قال بوريس: ـ أمّا الآن، فنحن نُدرك.

وساد صمت. وكان الشماليّ ينظر أمامه مباشرة. وقال:

ـ لقد رأيتهم عن كثب، الألمان. لقد احتلّونا أربعة أعوام. فماذا استفدنا! لقد دُمِّرت القرية، وكان الناس يختبئون أسابيع برمّتها في المقالع. تفهمون إذن رأيي حين أفكِّر: يجب أن يؤجَّل ذلك... (وأضاف) إنّ هذا لا يعني أنّي لن أفعل كالآخرين.

قال صاحب الحانة، وهو يبتسم: ـ أمّا أنا، فإنّي مصابٌ بذعر الموت. منذ كنت صغيرًا. ولكنّي كوّنت لي فكرة، في هذه الأيّام الأخيرة. قلت لنفسي: «أن يموت الإنسان، فهذا قبيح جدًّا. ولكن ليكن بالحمّى الإسبانيّة أو بشظيّة قنبلة»...

وكان بوريس يضحك مفتونًا: كان يجدهم ظرفاء، وفكّر: «إنّي أفضّل الرجال على النساء الطيِّبين».

ولقد كان من مزايا الحرب أنّها تقوم بين الرجال، فهو لن يرى طوال ثلاثة أعوام أو خمسة إلّا رجالاً «وسوف أتنازل عن مأذونيّتي لآباء العائلات».

قال شومي: ـ المهمّ أن نستطيع القول بأنّنا قد عشنا. إنّي أنا في

السادسة والثلاثين، ولم أستمتع دائمًا بالحياة. إنّ هناك قممًا وسفوحًا، ولكنّي عشت، فبوسعهم أن يقطّعوني إربًا، فهم لن يمنعوا ذلك. (والتفت إلى بوريس): «أمّا بالنسبة لفتى مثلك، فلا بدّ أنّ الأمر أشقّ».

قال بوريس بحيويّة: ـ آه، صحيح، منذ اللحظة التي بدأوا يردّدون لي فيها أنّ الحرب ستقع!

واحمرّ قليلاً، وأضاف: «ولكن من يجدها شاقّة رديئة، إنّما هو المتزوّج».

قال المارسيليّ وهو يتنهّد: ـ نعم. إنّ زوجتي شجاعة، ثم إنّ لها مهنة: فهي حلّاقة، والأمر يزعجني بالأحرى بسبب الصغيرتين. غير أنّ من الأفضل أن يكون ثمّة أب، أليس كذلك؟ وليس من الضروريّ أن يموت الإنسان لمجرّد أن يذهب إلى الحرب.

قال بوريس: ـ هذا صحيح.

وكانت الموسيقى قد انطفأت. ودخل إلى الحانة رجل وامرأة. كانت المرأة حمراء الشعر ترتدي ثوبًا أخضر طويلاً ومكشوف الرقبة والكتفين. وجلسا على طاولة في الداخل. قال شارلييه:

ـ مهما يكن، فإنّ الحرب غبيّة. إنّني لا أعرف ما هو أغبى منها.

وقال صاحب الحانة: ـ ولا أنا.

قال شومي: ـ ولا أنا.

قال المارسيليّ: ـ كم أنا مدينٌ لك؟ إنّ عليّ تكاليف نوبة.

قال بوريس: ـ وعليّ أيضًا تكاليف نوبة.

ودفعا. وخرجا، شومي والمارسيليّ، أحدهما يتأبّط ذراع الآخر. وتردّد شارلييه لحظة، واستدار على عقبيه وذهب يجلس وهو يحمل قدحه من الخمر. وكان بوريس قد بقي أمام المشرب، وفكّر: كم هم ظرفاء، وغمره الفرح، سيجد مثلهم في الخنادق، آلافًا وآلافًا، في مثل

ظرفهم. وسوف يعيش بوريس معهم، فلا يتركهم ليلاً ولا نهارًا، سيكون لديه ما يعمله. وفكّر: إنّني محظوظ، حين كان يقارن نفسه بالأشخاص المساكين الذين سُحقوا أو ماتوا بالكوليرا وهم في مثل سنّه، كان مضطرًّا إلى الإقرار بأنّه كان محظوظًا، وهو لم يُعتبر خائنًا، فليست القضيّة قضيّة حرب من هذه الحروب التي تقلب، من غير إعداد، حياة الإنسان، كأنّها حدث بسيط: فإنّ هذه الحرب كانت تبشّر بنفسها منذ ستّة أعوام أو سبعة مقدَّمًا، وقد أُتيح للناس أن يروها قادمة. ولم يشكّ بوريس شخصيًّا أنّها لا بدّ أن تنفجر، لقد انتظرها كوليٍّ عهدٍ يعرف منذ طفولته أنّه وُلدَ ليَحكم. ولقد وضعوه في الدنيا من أجل هذه الحرب، وربّوه من أجلها، فأرسلوه إلى الليسيه وإلى السوربون ومنحوه ثقافة. كانوا يقولون إنّهم يفعلون ذلك لكي يصبح أستاذًا، ولكنّه كان دائمًا يشكّ في ذلك، كان يعلم الآن أنّهم كانوا يريدون أن يجعلوا منه ضابط احتياط، وهم لم يوفّروا شيئًا لكي يتيحوا له ميتة جميلة وجديدة وسليمة. وفكّر: وأظرف ما في الأمر أنّي لم أولد في فرنسا، وإنّما استوطنتها، غير أنّ ذلك لم يكن ذا أهمّيّة في نهاية المطاف، فلو أنّه بقي في روسيا، أو لو لجأ ذووه إلى برلين أو بودابست، لما تغيّر الوضع. فليست القضيّة قضيّة جنسيّة، وإنّما هي قضيّة سنّ. لقد كان الشبّان الألمان والشبّان الهنغاريّون والشبّان الإنكليز، والشبّان اليونان مرصودين للحرب نفسها، للمصير نفسه. وفي روسيا، قام أوّلاً جيل «الثورة» ثم جيل مشروع السنوات الخمس، والآن جيل الصراع العالميّ: فلكلّ جيل نصيبه. والمرء يولد في آخر المطاف إمّا من أجل الحرب أو من أجل السلم، كما يولد عاملاً أو بورجوازيًّا، فليس له في الأمر حيلة، ولم يهب جميع الناس حظّ أن يكونوا سويسريين. وفكّر: إنّ الشخص الذي يملك حقّ الاحتجاج إنّما هو ماتيو: فهو بلا شكّ قد وُلد للسلام؛ لقد وثق كلّ الثقة أنّه سيموت ميتة الشيخوخة، فاكتسب عاداته الصغيرة، ومن كان في

عمره لا يغيِّر عاداته. أمّا أنا، فهذه هي حربي. هي التي صنعتني، وأنا الذي سأخوضها، فنحن لا نفترق؛ بل إنّي لا أستطيع أن أتخيَّل ما عساني أكون إذا لم تنفجر. وفكّر في حياته فلم تَبْد له بعد أنّها كانت أقصر ممّا ينبغي: إنّ الحياة ليست قصيرة ولا طويلة، وإنّما هي حياة، هذا كلّ ما في الأمر. والحرب في نهايتها. واستشعر فجأة أنّ جدارة جديدة تتلبّسه؛ لأنّه كان ذا رسالة في المجتمع، ولأنّه كان كذلك سيهلك في ميتة عنيفة، وشعر بانزعاج في تواضعه. ولا ريب في أنّ الساعة كانت قد أزفت ليذهب إلى اصطحاب لولا. وبسم لصاحب الحانة وخرج مسرعًا.

كانت السماء ملبّدة بالغيوم، ولكن كانت تُرى هنا وهناك نجوم، وكانت الريح تعصف من البحر. وذات لحظة، وكانت ضبابة في رأس بوريس، ثم فكّر: «حربي». وأخذته الدهشة، لأنَّه لم يألف التفكير مدّة طويلة في الأمور نفسها. وقال في نفسه: «كم سيتملّكني الخوف! آه! هناك! هناك! كم سيتملّكني الخوف!» وأخذ يضحك عجبًا ورضى لصورة هذا الرعب الشديد. ولكنّه كفّ عن الضحك بعد بضع خطوات تحت تأثير قلق مفاجئ: ذلك أنّه لا ينبغي أن يخاف المرء أكثر ممّا ينبغي. صحيح أنّه لن يشيخ، ولكن ذلك لم يكن سببًا ليفوّت عليه حياته ويسمح لنفسه بأيّ شيء. لقد رصدوه منذ ولادته، ولكنّهم تركوا له كلّ حظّه، فكانت حربه رسالة أكثر منها قدرًا. كان بوسعه طبعًا أن يتمنّى رسالة أخرى: رسالة فيلسوف كبير مثلاً، أو رسالة دون جوان أو رسالة ماليّ عظيم. ولكنّ المرء لا يختار رسالته: فإمّا أن ينجح فيها أو يخسر، هذا كلّ ما في الأمر، وأغبى ما في رسالته، أنّه لم يكن مسموحًا أن يُستدرَك فيها شيء. كان ثمّة حيواتٌ تشبه البكالوريا: على الطالب أن يقدِّم عدّة مسابقات، فإذا قصّر في مسابقة الفيزياء، كان بإمكانه أن يستدرك نفسه في مسابقة العلوم الطبيعيّة، أو الفلسفة. أمّا حياته هو، فهي تذكِّر بشهادة

الفلسفة العامّة، حيث يُحكم عليك من مسابقة واحدة؛ وقد كان ذلك يثير لديه الخوف الشديد. ولكن مهما كان أمره، فقد كان عليه أن ينجح في هذه المسابقة، لا في سواها ـ وسيكون عليه أن يشقى. ينبغي أن يتصرّف تصرّفًا نظيفًا بالطبع، ولكن ذلك لم يكن كافيًا. فينبغي خصوصًا أن يقيم في الحرب، وأن يحفر فيها زاويته ويحاول أن يفيد من كلّ شيء. وينبغي أن يقول لنفسه: إنّ كلّ شيء يستحقّ شيئًا، على نحو ما: فهجومٌ في الأرغون يستحقّ نزهة في الغندول، والعصير الذي يُشرب في الخنادق صباحًا، يستحقّ قهوة صباحيّة في المحطّات الإسبانيّة. وهناك بعد ذلك الرفاق، والحياة في الهواء الطلق، والرزم ولاسيّما المشاهد؛ فالقصف بالقنابل ليس مشهدًا قذرًا. المهمّ أن لا يخاف الإنسان. فإذا خفت، عرّضت حياتي للسرقة. إنّني الشرغوف، الولد؛ وقرّر: لن أخاف.

وأيقظته أنوار الكازينو من حلمه؛ وكانت لفحات من الموسيقى تتسرّب من النوافذ المفتوحة، وأقبلت سيّارة سوداء تقف بصمت أمام الحاجز. وفكّر في ضيق: لا يزال هناك عام أجرجره.

كان الوقت قد تجاوز نصف الليل، وكان قصر الرياضة مظلمًا مقفرًا، الكراسي مقلوبة، وأطراف السيكارات مسحوقة، وكان السيِّد شمبرلن يتحدّث في الراديو، وكان ماتيو يتيه على رصيف «فيو ـ بور» وهو يفكِّر: «إنّه مرض، مرض ليس إلّا، وقد سقط عليّ اتّفاقًا، فهو لا يعنيني، ويجب أن أعالجه بالشدّة وبالصبر كالنقرس أو وجع الأسنان». وقال السيِّد شمبرلن:

«أرجو أن لا يطرح المستشار هذا العرض الذي صيغ بروح الصداقة نفسها التي قوبلت بها في ألمانيا، والذي، إذا قُبل، أرضى الرغبة الألمانيّة في اتّحاد السوديت مع الريخ، من غير إراقة نقطة دم في

أيّ جزء من أوروبا».

وأشار بيده إشارة تدلّ على أنّه انتهى، وابتعد عن المكروفون. وكانت زيزيت، التي لم تستطيع النوم، قد وقفت أمام النافذة تنظر إلى النجوم فوق السطوح، وكان جيرمان شابو ينزع بنطاله في غرفة التواليت. وبوريس ينتظر لولا في ساحة الكازينو، وكانت زهرة كالحة تحاول، في كلّ مكان من الأجواء، أن تتفتّح، وهي تكاد لا تُسمع: «إذا أصبح القمر أخضر» ـ تعزفها فرقة الجاز في فندق أستوريا، وتنقلها دافانتري.

الثلاثاء ٢٧ أيلول

الساعة ٢٢,٣٠. قالت البوّابة: «السيِّد دولارو! إنّها لمفاجأة! فأنا لم أكن أنتظر وصولك إلّا بعد ثمانية أيّام».

فابتسم لها ماتيو. كان يؤثر لو أنّه دخل من غير أن تلحظه: ولكن كان لا بدّ له من طلب المفاتيح.

ـ إنّك غير مجنَّد، على الأقلّ؟

قال ماتيو: ـ أنا؟ لا، لست مجنَّدًا.

قالت: ـ آه! هذا أفضل! أفضل! فهذا يأتي دائمًا قبل الأوان. ولكن، قل لي، ما هذه الأحداث؟ لقد وقعت أشياء وأشياء منذ ذهابك. وهل تظنّ أنّها الحرب؟

قال ماتيو: ـ لا أدري، أيّتها السيِّدة غارينيه. (وأضاف بحيويّة) هل هناك بريد لي؟

قالت السيِّدة غارينيه: ـ الواقع أنّي أرسلت لك كلّ شيء. وأمس فقط، حوّلت لك مطبوعًا إلى جوان ليبان: فليتك كنت أخبرتني عن عودتك. ثم وصلك هذا، هذا الصباح.

ومدّت له ظرفًا طويلاً رماديًا، فعرف ماتيو خطّ دانيال. وأخذ الرسالة فوضعها في جيبه من غير أن يفضّها. قالت البوّابة:

ـ أتريد المفاتيح؟ آه! من المزعج أنّك لم تستطع أن تخبرني: فلو فعلت لكان أمامي وقت للتنظيف. أمّا الآن... فحتى المصاريع لم تفتح.

قال ماتيو، وهو يأخذ المفاتيح:

ـ لا بأس على الإطلاق، على الإطلاق. مساء الخير يا سيِّدة غارينيه.

وكان البيت ما يزال مقفرًا. وكان ماتيو قد شاهد من الخارج جميع المصاريع مغلقة. وكانت سجّادة الدرج قد نُزعت بسبب الصيف. ومرّ متمهّلاً أمام شقّة الطابق الأوّل. كان أطفال في الماضي يصرخون فيها، فيتململ ماتيو في فراشه، وقد خُرقت أذناه ببكاء المولود الجديد. أمّا الآن، فقد كانت الغرف سوداء خالية خلف المصاريع المغلقة. العطلة. ولكنّه كان يفكّر في أعماق نفسه: الحرب. لقد كانت هي الحرب، هذه العطلة المخدِّرة التي قُصِّرت للبعض، ومُدِّدت للبعض الآخر. وفي الطابق الثاني، كانت تسكن امرأة ينفق عليها رجل: كان عطرها غالبًا ما يتسرَّب من تحت الباب وينتشر حتى سطيحة السلّم. لا بدّ أنّها في بياريتز، في فندق كبير ترهقه الحرارة وكساد الأعمال. وبلغ الطابق الثالث، وأدار المفتاح في القفل. كان تحته وفوقه حجارة، والليل والصمت. ودخل في الظلام، ووضع في الظلام حقيبته ومشمّعه: كانت رائحة الغبار تنبعث من المدخل. وبقي جامدًا وذراعاه ملتصقتان بجسمه مجلببًا بالظلام، ثم أدار المفتاح الكهربائي فجأة، وعَبَر غرف بيته واحدة بعد الأخرى، تاركًا جميع الأبواب مفتوحة؛ وأضاء النور في المكتب، وفي المطبخ، وفي المرحاض، وفي غرفته. كانت جميع المصابيح تلمع، وكان تيّار من النور المتّصل يسري بين الغرف. وتوقّف عند حافّة سريره.

كان ثمّة من نام هناك. فالغطاء كان ملتويًا، وكان غشاء الوسادة متّسخًا ومدعوكًا، وكان فتات من الخبز منتثرًا في الفراش. أحدهم: أنا. كان يفكّر: أنا الذي نمت هنا. يوم ١٥ تمّوز، للمرّة الأخيرة ـ ولكنّه كان ينظر إلى السرير في اشمئزاز: كان نومه القديم قد برد في الأغطية، أمّا الآن، فهو نوم شخص آخر. لن أنام هنا.

واستدار، ودلف إلى المكتب: واستمرّ اشمئزازه. قدح قذر على المدخنة. وعلى الطاولة، بالقرب من العقرب البرونزي، سيكارة مكسورة: وكانت وفرة من السبائب الجافّة خارجة منها. متى كسرت هذه السيجارة؟ وضغط على بطنها، فأحسّ تحت أصابعه بهسيس لأوراق ميّتة. الكتب. مؤلَّف لأربوليه، وآخر لمارتينو، ولامبال، ولوسيان لوين، وذكريات الأنا. هناك من فكّر بكتابة مقال عن ستاندال. كانت الكتب باقية هنا، أمّا المقال، المحجّر، فقد أصبح شيئًا. أيّار ٣٨: لم يكن غير مجد بعد كتابة مقال عن ستاندال. شيء. شيء كأغطيتها الرماديّة، كالغبار الذي حطّ على ظهورها. شيء كثيف، جامد، حضور لا يُنفذ إليه. مشروعي.

مشروعه للشرب، الذي حطّ صفائح كابية على شفافيّة القدح، مشروعه للتدخين، مشروعه للكتابة، كان الرجل قد علّق مشاريعه في كلّ مكان. كان ثمّة تلك الأريكة الجلديّة الخضراء حيث كان الرجل يجلس مساء. كان ذلك في المساء: نظر ماتيو إلى الأريكة، وجلس على طرف كرسيّ. «إنّ أرائكك مفسدة». كان صوت قد قال، هنا بالذات: إنّ أرائكك مفسدة. وعلى الديوان، كانت فتاة شقراء قد نفضت خصلاتها في غضب. في ذلك الوقت، كان الرجل يكاد لا يرى الخصلات، ولا يسمع الأصوات: كان يرى ويسمع مستقبله من جهة إلى جهة. أمّا الآن، فإنّ الرجل كان قد رحل، حاملاً مستقبله القديم الكاذب؛ كانت أشكال الحضور قد بردت، فظلّت هناك، قشرة من شحم مجمّدة على الأثاث، وكانت الأصوات تطفو على مستوى الأعين: كانت قد صعدت حتى

السقف، ثم سقطت، وكانت طافية. وأحسّ ماتيو بأنّه مبذول، فاتّجه إلى النافذة ورفع المصاريع. وكان ما يزال في المساء بعض النهار، إشراق غفل: وتنفّس.

رسالة دانيال. مدّ يده ليأخذها، ثم ترك يده تسقط على عمود الاستناد. كان دانيال قد ذهب من هذه الطريق، ذات مساء من حزيران، وكان قد مرّ تحت هذا الفانوس: وكان الرجل قد وقف على النافذة يتابعه بعينيه. لهذا الرجل كتب دانيال. ولم تكن لدى ماتيو رغبة بقراءة رسالته. واستدار فجأة. فأجال نظره في مكتبه، بفرح جافّ. كانوا جميعًا هنا، محبوسين، أمواتًا، مارسيل، إيفيش، برونيه، بوريس، دانيال. لقد أُخذوا هنا وسيبقون هنا. سورات غضب إيفيش، ومواعظ برونيه، كان ماتيو يتذكّرها كما يتذكّر موت لويس السادس عشر، بالتجرّد نفسه. كانت تنتمي إلى ماضي العالم، لا إلى ماضيه: فإنّه لم يكن له ماض بعد.

وعاد يغلق المصاريع، ثم اجتاز الغرفة، وتردّد، وبعد تفكير، ترك المصباح مضاءً. صباح الغد، سأعود لآخذ حقائبي. وعاد يغلق الباب الخارجيّ عليهم جميعًا، وهبط الدرج خفيفًا. فارغًا خفيفًا. وخلفه، فوق، كانت المصابيح الكهربائيّة تضيء طوال الليل حياته الميّتة.

سألت لولا: ـ بِمَ تفكّر؟

فقال بوريس: ـ بلاشيء.

وكانا جالسين على الشاطئ. ولم تكن لولا لتغنّي ذلك المساء، بسبب حفلة خاصّة تُقام في الكازينو. وكان قد مرّ أمامهما رجل وامرأة، ثم جنديّ. وكان بوريس يفكّر في الجنديّ. وقالت لولا بصوت ملحّ:

ـ كن لطيفًا وقل لي بِمَ تفكّر؟

وهزّ بوريس كتفيه:

ـ كنت أفكّر في الجنديّ الذي مرّ.

قالت لولا مندهشة: ـ آه! وبأيّ موضوع حوله كنت تفكِّر؟

ـ بِمَ تريدين أن يفكِّر المرء حول جنديّ؟

فهمهمت لولا: ـ بوريس، ما بك؟ كنت رقيقًا جدًّا ولطيفًا جدًّا، وها إنّ كلّ شيء يعود كالسابق. إنّك لم تحدِّثني طوال النهار تقريبًا.

فلم يجب بوريس، كان يفكِّر بالجنديّ. كان يفكِّر: «إنّه محظوظ: أمّا أنا، فإنّ أمامي سنة أجرجرها، سنة: سيعود إلى باريس، وسيتنزّه على جادّة مونبارناس، وعلى جادّة سان ميشال التي يعرفها عن ظهر قلب، ويذهب إلى الدوم وإلى الكوبول، وينام في بيت لولا كلّ يوم. ليتني أستطيع أن أرى ماتيو، إذن لسارت الأمور سيرًا رائعًا. ولكن ماتيو سيكون مجنَّدًا. وفكّر فجأة: ودبلومي! فإنّه سيكون ثمّة، فوق ذلك كلّه، هذه النكتة السمجة: دبلوم الدراسات العليا. سوف يطلب منه أبوه بالتأكيد أن يتقدّم إلى امتحانه، وسيكون بوريس مضطرًّا إلى تقديم أطروحة عن «الذاكرة عند رنوفييه» أو عن «العادة عند مين دو بيران». وفكّر في غيظ: لماذا تراهم جميعًا يمثِّلون؟ كانوا قد ربّوه للحرب، وكان هذا حقّهم، ولكنّهم الآن يريدون أن يقسروه على التقدّم لامتحان دبلومه، كما لو كانت أمامه حياة سلام برمّتها. سيكون الوضع مرحًا: سيتردّد طوال عام إلى المكتبات، وسيتظاهر بأنّه يقرأ جميع آثار مين دوبيران في طبعة تيسوان، وسيتظاهر بأنّه يسجِّل ملاحظات، وسيتظاهر بأنّه يعدّ امتحانه، ولن ينقطع عن التفكير بالتجربة الحقيقيّة التي تنتظره، ولن يكفّ عن التساؤل عمّا إذا كان سيخاف أم يصمد. وفكّر وهو يلقي نظرة انزعاج على لولا: «لو لم تكن هذه موجودة لتطوّعت على الفور، وتكون هذه حكاية جميلة أعملها معهم».

وصاحت لولا مذعورة ـ: بوريس! لماذا تنظر إليّ هكذا؟ أتراك لا تحبّني بعد؟

فقال بوريس منقبض الأسنان: ـ على العكس. لا تستطيعين أن

تدركي كم أحبّك. بل أنت لا تقدِّرين مدى ذلك.

كانت إيفيش قد أضاءت مصباحها الليليّ وتمدّدت على سريرها، عارية تمامًا. وكانت قد تركت الباب مفتوحًا وهي تراقب الممرّ. وكان في السقف دائرة مضيئة، وباقي الغرفة كلّها أزرق. وكانت سحابة زرقاء تطفو فوق الطاولة، تنبعث منها رائحة الليمون والشاي والسيكارة.

وسمعت حفيفًا في الممرّ، ثم مرّت كتلة هائلة أمام الباب صامتة. فصاحت: ـ هيب!

وأدار أبوها رأسه، فنظر إليها نظرة توبيخ:

ـ إيفيش! لقد رجوتك قبل الآن: إمّا أن تغلقي الباب أو ترتدي ثيابك.

وكان قد احمرّ قليلاً، وكان صوته أكثر غناء من المألوف.

ـ بسبب الخادمة.

قالت إيفيش من غير أن تتأثّر:

ـ لقد أوت الخادمة إلى فراشها، (وأضافت) كنت أترصّدك. فأنت تحدث ضجّة يسيرة جدًّا حين تمرّ. وقد كنت أخشى أن تفوتني. ارجع.

فرجع السيِّد سرغين، ونهضت فوضعت معطفها. وكان أبوها يقف متصلِّبًا، موليًا ظهره، في فتحة الباب. ونظرت إلى رقبته، وإلى كتفيه العتليّتين، وأخذت تضحك بلا ضجّة.

ـ تستطيع أن تنظر.

وواجهها، ونشق مرّتين أو ثلاثًا، ثم قال: ـ إنّك تفرطين في التدخين.

قالت: ـ بسبب ثورة أعصابي.

وصمت. وكان المصباح يضيء وجهه الكبير المخدَّد. ووجدته إيفيش جميلاً. جميلاً كالجبل، كشلّالات نياغارا. وانتهى إلى القول:

ـ سآوي إلى النوم.

فقالت إيفيش مبتهلة: ـ كلّا، كلّا، يا بابا: أريد أن أستمع إلى الراديو.

وصاح السيِّد سرغين: ـ ماذا؟ في هذه الساعة؟

ولم تستسلم إيفيش لهذا الغضب: كانت تعلم أنّه كان يخرج ثانيةً من غرفته كلّ مساء حوالى الساعة الحادية عشرة ليذهب فيستمع إلى الأخبار في مكتبه، بصوت منخفض، وكان خفيًّا وخفيفًا كأنّه جنّيّ، بالرّغم من كيلوغراماته التسعين.

قال: ـ اذهبي فاستمعي وحدك. أمّا أنا، فإنّي أنهض باكرًا غدًا.

قالت إيفيش بلهجة تدعو إلى الإشفاق:

ـ ولكنّك تعرف يا بابا أنّني لا أعرف إدارة الراديو.

فأخذ السيِّد سرغين يضحك، وقال: ـ ها! ها! ها! ها!

وسألها وهو يستعيد جدّه:

ـ هل تريدين سماع الموسيقى؟ ولكن أمّك المسكينة تنام!

قالت إيفيش غاضبة: ـ كلّا يا بابا. لا أريد سماع الموسيقى، وإنّما أريد أن أعرف أين صاروا في حربهم.

ـ إذن، تعالي.

فتبعته إلى المكتب، وقدماها عاريتان، وانحنى على الجهاز. وكانت يداه الطويلتان القويّتان تحرّكان المفاتيح بلطف شديد، حتى إنَّ إيفيش أحسَّت بقلبها يهتزّ وتأسَّفت على ألفتهما الماضية. حين كانت في الخامسة عشرة، كانا دائمًا معًا، وكانت السيِّدة سرغين تغار. وحين كان السيِّد سرغين يصطحب إيفيش إلى المطعم، كان يجلسها قبالته، على المقعد، وكانت هي تختار وجبتها بنفسها؛ وكان الخدم ينادونها «مدام»، فتضحك مرحًا ويستشعر هو الفخر، وكان يبدو في بحبوحة من العيش. وسمعت آخر

أنغام نشيد عسكريّ، ثم أخذ ألمانيٌّ يتكلّم بصوت مغتاظ. وقالت في عتاب: ـ بابا، إنّني لا أعرف الألمانيّة.

فنظر إليها نظرة ساذجة، وفكّرت: «لقد تقصّد ذلك».

ـ إنّها في هذه الساعة، أفضل الأخبار.

وأصغت إيفيش بتنبُّه لترى إذا كانت ستسمع في هذه الأثناء كلمة «كريغ»، التي كانت تعرف معناها. وصمت الألمانيّ، ثم بدأت الجوقة نشيدًا عسكريًّا آخر تجرّحت منه أذنا إيفيش، ولكنّ السيِّد سرغين استمع حتى النهاية: إنّه لم يكن يحتقر الموسيقى العسكريّة.

وسألت إيفيش، في ضيق:

ـ ماذا هناك؟

فصرّح السيِّد سرغين: ـ الأمور سيّئة جدًّا.

ولكنّه لم يكن يبدو متأثِّرًا أكثر ممّا ينبغي. وقالت، وحلقها جافّ:

ـ آه! دائمًا بسبب هؤلاء التشيكيين؟

ـ نعم؟

قالت بحماسة: ـ ما أشدّ ما أكرههم! (وأضافت بعد لحظة) ولكن إذا كان ثمّة بلد يرفض الحرب، فلن يكون بالإمكان إجباره عليها؟

قال السيِّد سرغين بقسوة: ـ إيفيش، إنّك حقًّا طفلة.

قالت إيفيش: ـ آه؟ آه نعم، طبعًا.

كانت تتّهم أباها بأنّه لم يكن يعرف الموضوع خيرًا منها.

ـ أهذه كلّ الأخبار؟

فتردّد السيِّد سرغين.

ـ بابا!

إنّه غاضب لأنّي جئت، فأنا أفسد عليه حفلته الصغيرة، كان السيِّد سرغين يحبّ الأسرار، وكان لديه ستّ حقائب مقفلة، وصندوقان محكما

الإغلاق، وكان يفتحها أحيانًا إذ يكون وحده. وتأمّلته إيفيش في حنان، كان لطيفًا جدًّا حتى إنّها أوشكت أن تطلعه على قلقها. وقال على مضض:

ـ بعد لحظة، سنسمع الفرنسيّين.

وخفض نحوها عينيه الممتقعتين، فأحسّت بأنّه لم يكن يستطيع أن يعينها في شيء.

واكتفت بالسؤال:

ـ كيف تكون الأمور إذا وقعت الحرب؟

ـ سيُهزم الفرنسيّون.

ـ هكذا! وهل يدخل الألمان إلى فرنسا؟

ـ طبعًا.

ـ ويأتون إلى لاون؟

ـ أفترض ذلك. أفترض أن ينزلوا إلى باريس.

وفكّرت إيفيش: «إنّه لا يعرف من الأمر شيئًا، إنّه مهرِّج». ولكن قلبها كان يقفز في صدرها.

ـ سيأخذون باريس، ولكنّهم لن يهدموها؟

وندمت لإلقائها السؤال. فمنذ أن أحرق البولشفيك قصور أبيها، اكتسب حسّ الكوارث. وهزّ رأسه وهو يغمض عينيه نصف إغماض، وقال: ـ هيه! هيه! هيه!

الساعة ٢٣,٣٠. كان شارعًا ميِّتًا يغرقه الظلام. مصباح من بعيد لبعيد. شارع من لامكان تحفّ به أضرحة مغفلة. جميع المصاريع مغلقة، وليس من شقّ للضوء. «كان ذلك شارع دولامبر». وكان ماتيو قد اجتاز شارع «سيل»، وشارع «فروادفو»، وتابع جادّة دومين وحتى شارع لاغيتيه: كانت كلّها متشابهة، فهي ما تزال دافئة، يكاد المرء لا يعرفها، إذ هي قد أصبحت شوارع حرب. شيء ما فُقِد. فلم تعد باريس بعد إلّا مقبرة كبيرة من الشوارع.

ودلف ماتيو إلى الدوم، لأنّ الدوم كان قائمًا هناك. وأسرع إليه خادم وهو يبتسم بلطف: كان فتى قصيرًا ذا نظّارات، ضعيف الصحّة، يفيض بروح الرضى. إنّه خادم جديد: فقد كان القدامى يتركون زبائنهم ينتظرون طوال ساعة، ثم يقبلون في غير اكتراث ويأخذون الطلب من غير أن يبتسموا.

ـ أين هنري؟

فسأل الخادم: ـ هنري؟

ـ أسمر طويل ذو عينين تجحظان من رأسه.

ـ آه.. لقد جُنِّد.

ـ وجان؟

ـ الأشقر؟ لقد جُنِّد أيضًا. فأنا أحلّ محلَّه.

قال ماتيو: ـ أعطني قدح خمر.

فمضى الخادم وهو يعدو. وطرف ماتيو بعينيه، ثم تأمّل القاعة في دهشة. في تمّوز، لم يكن للدوم حدود دقيقة، كان يسيل في الليل، عبر واجهاته وبابه، وكان ينثر على الطريق، وكان المارّة يسبحون في مصل الحليب، الذي ما يزال يرتجف على أيدي النصف الأيسر من وجه السوّاقين الواقفين في وسط جادّة مونبارناس. وخطوة إلى الأمام، فإذا هم يسبحون في الأحمر، لأنّ الجانب الأيمن من وجوه السوّاقين أحمر: كان هناك مقهى الروتوند، أمّا الآن، فقد كانت ظلمات الخارج تتدافع على الواجهات، فإذا الدوم مقتصر على نفسه: مجموعة من الطاولات والمقاعد والزجاج الجافّ المقبض، المحروم من هذا الإشراق المنتشر الذي كان ظلالها الليليّ. لقد اختفوا، المهاجرون الألمان، وعازف البيانو الهنغاري، والأميركيّة العجوز المدمنة على الكحول. ذهبوا، ذهبوا، جميع أولئك الأزواج اللطفاء الذين كانوا يتماسكون بالأيدي تحت الطاولة، ويتحدّثون

عن الحبّ حتى الصباح، وعيونهم متورِّدة من النعاس. وكان إلى يساره نقيب يتناول العشاء مع زوجته؛ وقبالته كانت مومس صغيرة أناميّة تحلم أمام فنجان قهوة بالحليب، وعلى الطاولة المجاورة نقيب يأكل الكرنب المِهرَّم. وإلى اليمين، كان فتى في الثياب العسكريّة يضمّ إليه امرأة، وكان ماتيو يعرفه بالوجه، فقد كان طالبًا من طلبة البوزار، طويلاً، ممتقعًا، بَرِمًا؛ وكان الثوب العسكريّ يكسبه هيئة متوحِّشة؛ ورفع النقيب رأسه فاخترق نظره الجدار؛ وتابع ماتيو هذا النظر: في البعيد، كانت ثمّة محطّة وأنوار وانعكاسات على خطوط حديديّة، ورجال ذوو وجوه موحلة وقد اتّسعت عيونهم من فرط الأرق، وهم جالسون بتصلّب في القاطرات، وأيديهم على ركبهم. في تمّوز، كنّا جالسين تحت المصابيح في حلقة، لا يترك أحدنا الآخر بنظره، ولم يكن نظر أحدنا ليضيع. أمّا الآن، فهم يضيِّعون بعضهم بعضًا، يمضون نحو ويسمبورغ ونحو مونتميدي، وبين الأشخاص كثير من الفراغ وكثير من السواد. لقد جنّدوا الدوم، وجعلوا منه آنيّة ذات أهمِّيّة أوّليّة: مقصفًا.

وفكّر في فرح: «آه! إنّني أنكر هذا كلّه، ولا أتحسّر على شيء، ولا أخلِّف شيئًا ورائي».

وابتسمت له الفتاة الهند ـ صينيّة. كانت رقيقة، دقيقة، ذات يدين صغيرتين جدًّا؛ وكان قد مضى على ماتيو عامان وهو يَعِدُ نفسه بأن يقضي ليلة معها. وإنّها لفرصة مناسبة. سوف أمرّ فمي على بشرتها الباردة، وسوف أتنشّق رائحتها الحَشَريّة الصندوقيّة، وسأكون عاريًا ومطلق شخص تحت أصابعها الممتهنة؛ وإنَّ فيّ بعض الأشياء البالية التي ستموت على يديها. وكان حسبه أن يبادلها بسمتها.

ـ غارسون.

فهرع الخادم:

ـ عشرة فرنكات.

ودفع ماتيو وخرج. إنّني ما زلت أعرفها أكثر ممّا ينبغي.

وكان الظلام سائدًا. ليلة حرب أولى. كلّا، ليس تمامًا. كان ما يزال هناك كثير من الأنوار المعلَّقة على جنبات البيوت. وبعد شهر، بعد خمسة عشر يومًا، ستطفئها الغارة الأولى؛ أمّا الآن، فليس الأمر إلّا تمرينًا عامًّا، غير أنّ باريس كانت مع ذلك قد فقدت سقفها القطني الموَرَّد. وللمرّة الأولى، كان ماتيو يرى بخارًا كثيفًا معتمًا معلّقًا فوق المدينة: السماء. سماء جوان ليبان، وتولوز، وديجون، وأميان، سماءٌ واحدة للريف والمدينة، لفرنسا كلّها. وتوقّف ماتيو فرفع رأسه ونظر إليها. سماء لمطلق مكان، من غير امتيازات. وأنا تحت هذه المعادلة الكبيرة: مطلق شخص، مطلق شخصٍ في مطلق مكان: إنّها الحرب. كان يحدِّد عينيه في مستنقع نور، وكرّر مرّة أخرى، ليرى: «باريس، جادّة راسباي». ولكنّهم كانوا قد جنّدوها أيضًا، هذه الأسماء المترفة، كانت تبدو وكأنّها تخرج من خارطة أركان حرب أو من بلاغ. لم يكن باقيًا شيء من جادّة راسباي. طرق، ليس غير طرق، تمتدّ من الجنوب إلى الشمال، ومن الغرب إلى الشرق. طرق مرقّمة. وبين فينة وفينة، كانوا يبلِّطونها لمسافة كيلومتر أو اثنين، وكانت أرصفة وبيوت تنبع من الأرض، وكان ذلك يُسمّى طريقًا وشارعًا وجادّة. ولكنّها لم تكن قطّ إلّا طرفًا من درب؛ كان ماتيو يسير، ووجهه ملتفت نحو الحدود البلجيكيّة، على قطعة من درب متفرِّع من الطريق الوطنيّة ١٤. واستدار في طريق المركبات المستقيمة التي كانت تطيل الطرق الحديديّة لشركة الغرب التي كانت في الماضي شارع «رين». وجلبيه لهبٌ قذف خارج الظلّ فانوسًا ثم انطفأ: مرّت سيّارة تاكسي، جارية نحو محطّات الشاطئ الأيمن. وتبعتها سيّارة سوداء تغصّ بالضبّاط، ثم سقط كلّ شيء مرّة أخرى في الصمت. وعلى طرف الطريق، تحت هذه السماء غير المميّزة؛ كانت البيوت قد تقلّصت إلى أخشن ما في رسالتها: مساكن

للإيجار. مخادع ـ مطاعم للمرشّحين للتجنيد، ولأسر المجنَّدين. وإنّ المرء ليستشعر منذ الآن مصيرها النهائي: إنّها ستصبح «نقطًا استراتيجيّة»، وفي النهاية أهدافًا ومرامي. وبعد ذلك، يمكن بيسر هدم باريس: فهي قد سبق وماتت. وكان عالم جديد بسبيل أن يولد، عالم الأواني العمليّ القاسي.

كانت أشعّة من ضوء تتسلّل بين ستائر مقهى «دوماغو». وجلس ماتيو على السطيحة. وكان خلفه أشخاص يهمسون في الظلام: الزبائن الأخيرون. وكان الطقس قد بدأ يرطّب. قال ماتيو: ـ قدح بيرة.

قال الخادم: ـ سيدقّ منتصف الليل. فلا خدمة بعد على السطيحة.

ـ قدح بيرة واحد.

ـ إذن بسرعة.

وفي ظهره، أخذت امرأة تضحك. وكانت تلك هي الضحكة الأولى التي يسمعها منذ عودته: ولهذا أحسّ بصدمة منها. غير أنّه لم يكن يشعر أنّه حزين، ولكن لم تكن به رغبة للضحك. وفي السماء، تمزّقت غيمة وبرزت نجمتان. وفكّر ماتيو: «إنّها الحرب».

ـ هل تريد أن تدفع لي فورًا: وبعد ذلك أتركك وشأنك.

ودفع ماتيو، فعاد الخادم إلى الداخل. ونهض زوجٌ من الظلال، فتسلّل بين الطاولات ثم مضى. وكان ماتيو وحيدًا الآن على السطيحة. ورفع رأسه، فرأى، من الجهة الأخرى للساحة، كنيسة جميلة جديدة كلّ الجدّة، بيضاء في السماء السوداء. كنيسة قرية. كان يرتفع في مكانها أمس بناء باريسي، كنيسة سان جرمان ديبريه، بناء تاريخي، كان ماتيو غالبًا ما يواعد إيفيش على اللقاء عند مدخله المسقوف. لعلّه لن يبقى غدًا، تجاه مقهى «دوماغو»، إلّا آنيّة محطّمة ستصرّ مئة مدفع على إطلاق نارها عليها. أمّا اليوم... اليوم كانت إيفيش في لاون، وكانت باريس ميّتة، وكان

السلام قد دُفن، ولم تكن الحرب قد أُعلنت بعد. لم يكن ثمّة إلّا شكل كبير أبيض موضوع في ساحة، هو قشرة الليل البيضاء. كنيسة قرية. كانت جديدة، وكانت جميلة؛ ولم تكن تنفع شيئًا. وهبّت ريح خفيفة؛ ومرّت سيّارة مطفأة النور، ثم راكب درّاجة، ثم شاحنتان ارتجّت لهما الأرض. وتعكّرت الصورة الحجريّة لحظة، ثم سكنت الريح، وساد الصمت، وتشكّلت من جديد بيضاء غير مجدية، لا إنسانيّة، ناصبةً وسط كلّ هذه الآلات العموديّة، على طرف طريق الشرق، مستقبلَ الصخرة العاري العادم الإحساس. سرمديّة. كان حسبها نقطة صغيرة سوداء في السماء ليفجّرها رمادًا، وقد كانت مع ذلك سرمديّة. رجلٍ وحيد، منسيّ، يأكله الظلام تجاه هذه السرمديّة القابلة للفناء. وارتعش وفكّر: إنّني أنا أيضًا سرمديّ.

ولقد تمّ ذلك من غير ألم. كان ثمّة رجل رقيق معتدل يحبّ باريس ويتنزّه فيها. وقد مات الرجل. مات مثل «والدك ـ روسو» و«تورو دانجان»؛ وكان قد استغرق في ماضي العالم، مع السلام، وكانت حياته قد سُكبت في وثائق «الجمهوريّة الثالثة». وسوف تغذّي نفقاته اليوميّة الإحصائيّات المتعلّقة بمستوى حياة الطبقات الوسطى بعد عام ١٩١٨، وستصلُح رسائله وثائق لتاريخ البورجوازيّة لفترة ما بين الحربين، وسيكون قلقه، وستكون حيراته وتردّداته ونقائصه وندمه ثمينة جدًّا لدراسة الأخلاق الفرنسيّة بعد سقوط الإمبراطوريّة الثانية. كان هذا الرجل قد شقّ لنفسه مستقبلاً على قدّه، مسوّدًا، مدخّنًا، خاضعًا، مثقلاً بالعلامات والمواعيد والمشاريع. مستقبل صغير تاريخيّ وقابل للموت: وكانت الحرب قد سقطت عليه بكلّ ثقلها، فسحقته. ومع ذلك، وحتى هذه اللحظة، كان ما يزال ثمّة شيء يمكن أن يُسمّى ماتيو. شيء كان يتشبّث به بكلّ قواه. ولن يعرف أن يقول ما هو. فربّما كان بعض عادة قديمة جدًّا، أو ربّما كان طريقة ما لاختيار أفكاره على صورته، لاختيار نفسه يومًا فيومًا على صورة أفكاره، لاختيار مآكله وملابسه والأشجار والبيوت التي كان يراها. وفتح

يديه واستسلم؛ كان ذلك يتمّ بعيدًا جدًّا في أعماق نفسه، في منطقة ليس للكلمات فيها من معنى بعد. استسلم، ولم يبق بعد إلّا نظرًا. نظرًا جديدًا كلّ الجِدّة، من غير حماسة، مجرّد شفافية. وفكّر في فرح: «لقد فقدت روحي». وعبرت امرأةٌ هذه الشفافية. كانت على عجل، وكعباها يطقطقان على الرصيف. وانسلّت في النظر الجامد، مهمومة، ميّتة، زمنيَّة، يفترسها ألف مشروع صغير، وأمرّت يدها على جبينها، فيما هي تمشي، لتلقي خصلة إلى الوراء. كنت مثلها، خليّة مشاريع. إنّ حياتها حياتي؛ فتحت هذا النظر، تحت السماء اللامبالية، كانت جميع الحيوات تتعادل. وأخذها الظلام، وكان كعباها يطقطقان في شارع بونابرت؛ وذابت جميع الحيوات البشريّة في الظلام، وانطفأت الطقطقة.

نظري. كان ينظر إلى بياض برج الجرس المخنوق. كلّ شيء ميِّت. نظري وهذه الأحجار. خالدٌ ومعدنيّ، مثلها. كان ثمّة، في مستقبلي القديم، رجال ونساء ينتظرونني يوم ٢٠ حزيران ١٩٤٠، ويوم ١٦ أيلول ١٩٤٢، ويوم ٨ شباط ١٩٤٤، وكانوا يومئون لي. أمّا الآن، فإنّ نظري وحده هو الذي ينتظر نفسه في المستقبل، على مدى النظر، كما تنتظر هذه الأحجار نفسها، تنتظر نفسها أحجارًا، غدًا، وبعد غد، وإلى الأبد. نظرٌ وفرحةٌ هائلة كالبحر، كان ذلك عيدًا. ووضع يديه على ركبتيه، وكان يودُّ أن يكون هادئًا: من ذا الذي يثبت لي أنّني لن أعود غدًا ما كنته بالأمس؟ ولكنّه لم يكن خائفًا، يمكن للكنيسة أن تنهار، ويمكن لي أن أسقط في حفرة قنبلة، وأسقط مرّة أخرى في حياتي: فلا شيء يستطيع أن ينزع منّي هذه اللحظة الخالدة. لا شيء: فإنّ هذا الإشراق الجافّ الذي يُلهب أحجارًا تحت سماء سوداء، سيكون قد وُجد إلى الأبد. المطلق، إلى الأبد. المطلق، بلا سبب، ولا حجّة، ولا هدف، ولا ماضٍ آخر، ولا مستقبل آخر غير الديمومة، مجّانيّ، اتّفاقيّ، رائع. وقال لنفسه فجأة: «إنّني حرّ». وسرعان ما تحوّل فرحه إلى قلق ساحق.

كانت إيرين ضجرة. ولم يكن يحدث شيء، إلّا أنّ الجوقة كانت تعزف. وأنّ مارك كان ينظر إليها بعينيْ فُقمة. والواقع أنّه لم يكن يحدث شيء، قطّ، وإذا اتّفق أنّ شيئًا ما كان يحدث، فإنّه لم يكن يُلحظ على التوّ. كانت تتابع بنظرها امرأة اسكنديناڤيّة، شقراء طويلة، كانت ترقص منذ أكثر من ساعة، حتى من غير أن تجلس بين الرقصات، وفكّرت في تجرّد: إنّ هذه المرأة أنيقة الملبس، ومارك أيضًا كان أنيق الملبس. وجميع الناس كانوا أنيقيّ الملبس باستثناء إيرين التي كانت تُحسّ نفسها قذرة في ثوبها العقيقيّ، وكانت لا تكترث بذلك. فأنا أعرف جيّدًا أنّه لم يكن لي ميل للاهتمام بزينتي، ثم من أين عساي آخذ المال لأجدِّد ملابسي، فمجرّد التردّد على الأغنياء يقتضي إيجاد الوسيلة حتى لا يلاحظ الناس ذلك، وكان ثمّة نصف دزّينة قد أصبحوا ينظرون إليها: ثوب رخيص ملتمع بعض الشيء، كان يثير قابليّتهم، فيشعرون أنّهم أقلّ خوفًا وتهيّبًا. كان مارك مرتاحًا راضيًا، لأنّه كان غنيًّا، وكان يحبّ أن يصحبها إلى بيوت الأغنياء، لأنّ ذلك كان يضعها في موضع التدنّي، فتخفّ مقاومتها كما كان يظنّ.

وسأل: ـ لماذا لا تريدين؟

فانتفضت إيرين:

ـ ما الذي لا أريده؟ آه، نعم. . .

وابتسمت من غير أن تجيب.

ـ بِمَ كنت تفكِّرين؟

ـ كنت أفكِّر بأنّ قدحي كان فارغًا. فاطلب لي قدحًا من «الشيري غوبلر».

فطلب مارك قدح شيري غوبلر آخر. وكان طريفًا بعض الطرافة أن تحمله على الدفع، لأنّه كان يسجِّل نفقاته كلّ يوم بيومه على دفتر. سوف يكتب هذا المساء: خروج مع إيرين، قدح جنّ فز، قدحا شيري غوبلر: مئة

وخمسة وسبعون فرنكًا. ولاحظت أنّه كان يلامس ذراعها بطرف سبّابته، ولا بدّ أنّه كان يتسلّى بذلك منذ حين.

ـ قولي، إيرين، قولي، لماذا؟

قالت وهي تتثاءب: ـ هكذا. لا أدري.

ـ إذن، من أجل هذا بالذات: إذا كنت حقًّا لا تدرين..

ـ آه، كلّا! إنّما هو العكس: فحين أنام مع أحد، أريد أن أعرف لماذا. يكون ذلك من أجل عينيه، أو من أجل عبارة قالها، أو لأنّه جميل.

قال مارك بصوت منخفض: ـ أنا جميل.

فأخذت إيرين تضحك، واحمرّ وجهه. ثم قال بحيويّة:

ـ مهما يكن، فأنت تفهمين ما أقصده.

قالت: ـ أفهمه جيّدًا، جيّدًا جدًّا.

فأمسك بمعصمها:

ـ إيرين، بربّك، ما الذي ينبغي أن أفعله؟

وانحنى عليها في ذلّ مكشّر، وكان الانفعال يعكّر تنفّسه، وفكّرت: «كم أنا ضجرة».

ـ لا شيء. لا فائدة من شيء.

قال: ـ هكذا!

وتركها وارتدّ برأسه إلى الخلف، وهو يكشف عن أسنانه. وكانت ترى نفسها في المرآة، إنسانة متّسخة ذات عينين جميلتين، وكانت تفكّر: «يا إلٰهي! كم من مشاكل من أجل هذا!» كانت خجلة من أجله ومن أجلها، وكان كلّ شيء تَفهًا مضجرًا إلى حدٍّ بعيد؛ إنّها لم تكن لتفهم بعد لماذا كانت تتمنّع: إنّني أحدث كثيرًا من الارتباك، كان أفضل أن تقول له: «أتريد ذلك؟ حسنًا، هيّا بنا: نصف ساعة في غرفة فندق. ماذا! رذالة صغيرة بين غطائين، ثم نعود بعد ذلك لننهي أمسيتنا، وتَدَعني وشأني».

ولكن كان ينبغي أن تؤمن بأنّها كانت ما تزال تعلّق أهمّيّة مفرطة على جسدها المسكين: كانت تشعر جيّدًا بأنّها لن تستسلم.

وقال: ـ إنّني أجدك غريبة.

وكان يدير بتيهٍ في محجريه عينين خبيثتين. إنّه سيحاول أن يؤذيني، وهذا مألوف، ثم يستميحني العذر. وقال في سخرية:

ـ ما أشدّ ما تدافعين عن نفسك! لو لم أكن أعرفك منذ أربعة أعوام، لكان باستطاعتي أن أظنّ أنّك تمثّلين الفضيلة!

ونظرت إليه باهتمام مفاجئ، وأخذت تفكّر. حين كانت تفكّر، يخفّ ضجرها. وقالت: ـ أنت على حقّ، هذا غريب جدًّا: إنّني سهلة، وهذا واقع، ومع ذلك أفضّل أن أقطّع على أن أنام معك. فهل تستطيع أن تشرح لي ذلك؟! (وتفحّصته بتجرُّد وأضافت) بل إنّي لا أستطيع حتى أن أقول إنّي أشمئزّ منك حقًّا.

قال: ـ بصوت منخفض. تكلّمي بلهجة أخفت. (وأضاف بحقد) إنّ لك صوتًا صغيرًا ثاقبًا يُسمع بعيدًا.

وصمتا. وكان الناس يرقصون، والجوقة تعزف «كاراڤان». وكان مارك يدير قدحه على الخوان، فتتصادم في داخله قطع الثلج الصغيرة. وسقطت إيرين مرّة أخرى في ضجرها.

وقال فجأة: ـ الواقع أنّي أظهرت لك أكثر ممّا ينبغي أنّي أشتهيك.

وكان قد وضع يديه على الطاولة يملّسها بهدوء، كان يحاول أن يستردّ عزّته البشريّة، ولم تكن لذلك أهمّيّة، فإنّه سيفقدها مرّة أخرى بعد خمس دقائق. وقد بسمت له مع ذلك، لأنّه كان يتيح لها الفرصة لكي تتساءل عن نفسها. وقالت: ـ صحيح، في هذا شيء من الحقّ. لا بدّ أنّ في ذلك شيئًا من الصحّة.

كان مارك يبدو لها عبر سحابة. سحابة دهشة صغيرة هادئة صعدت

من قلبها إلى عينيها. وكانت تحبّ كثيرًا أن تُحسّ نفسها مندهشة على هذا النحو، مع جميع الأسئلة التي يطرحها الإنسان على نفسه والتي ليس لها من جواب. وشرحت له:

ـ إنّي أُعجب كثيرًا حين أجد أحدًا راغبًا فيّ رغبة مفرطة. اسمع يا مارك إنّني أجدني مضحكة: ربّما يهاجمنا هتلر غدًا، بينما أنت هنا تتململ، لأنّي لا أريد أن أنام معك. لا بدّ أن تكون حقًّا شخصًا مسكينًا حتى تضع نفسك في حالات مثل هذه بصدد امرأة مثلي أنا.

فقال بصوت غاضب: ـ إنّ هذا يعنيني.

ـ وهذا يعنيني أنا أيضًا: فأنا أكره أن يقدِّرني الناس أكثر ممّا أستحقّ.

وساد صمت. إنّنا حيوانات. نضع الكلمات على غريزة. ونظرت إليه من زاوية عينها: حسنًا سوف تزول نفخته. كانت ملامحه تنبسط، وكانت أشقّ لحظة على وشك أن تجيء؛ لقد حدث مرّة في مقهى «الميلوديز» أن بكى. وفتح فمه، فقالت له بحيويّة:

ـ اسكت يا مارك. أرجوك: فإنّك ستقول حماقة أو قذارة.

فلم يسمعها؛ كان يحرِّك رأسه من اليمين إلى الشمال، وكان يبدو بهيئة شؤم، وقال بصوت منخفض: ـ إيرين، سوف أذهب.

ـ تذهب؟ إلى أين؟

ـ لا تتبالهي. لقد فهمتني.

ـ يعني؟

ـ أظنّ أنّ ذلك يؤثر فيكِ، على كلّ حال.

فلم تجب: كانت تحدِّق إليه. وبعد لحظة، استطرد وهو يدير رأسه:

ـ في سنة ١٤، استسلمت نساء كثيرات لرجال كانوا يحبّونهنّ، لمجرّد أنّهم كانوا ذاهبين إلى الحرب.

وصمتت؛ وأخذت يدا مارك تهتزّان.

ـ إنّ هذا يا إيرين أمرٌ لا أهمّيّة كبيرة له عندك، أمّا بالنسبة لي، فإنّ له أهمّيّة كبيرة، ولاسيّما في هذه الفترة...

قالت إيرين: ـ لا فائدة.

فالتفت إليها بعنف، وقال: ـ وأخيرًا، يا الله! إنّما من أجلكِ سأقاتل!

قالت إيرين: ـ قذر!

وسرعان ما تراخى، واحمرّت عيناه.

ـ لا أستطيع أن أحتمل التفكير بأنّي سأموت من غير أن أكون امتلكتك.

ونهضت إيرين:

ـ تعال لنرقص.

ونهض بوداعة، فرقصا. وكان ملتصقًا بها، وقد استدار بها بخطى واسعة حول القاعة، وفجأة انقطع نَفَسها، فسألها:

ـ ما بك؟

ـ لا شيء على الإطلاق.

كانت قد رأت فيليب جالسًا بهدوء قرب امرأة جميلة، ولكنّها بدأت تشيخ. «كان هناك! كان هناك، بينما كانوا يفتّشون عنه في كلِّ مكان!»، ووجدته ممتقعًا، وتحت عينيه دوائر كالحة. ودفعت مارك إلى وسط الجمع: يجب خصوصًا ألّا يراها فيليب. وكفّت الموسيقى، فعادا إلى طاولتهما. وتداعى مارك للسقوط على المقعد. وكانت إيرين توشك أن تجلس، حين رأت رجلاً ينحني أمام الزنجيّة.

قال مارك: ـ اجلسي. لا أحبّ أن أراك واقفة.

قالت بنفاد صبر: ـ دقيقة!

ونهضت الزنجيّة في كسل، فضمّها الرجل. ونظر فيليب إليهما لحظة

بهيئة مذعورة، فأحسّت إيرين بقلبها يقفز في صدرها. وفجأة نهض وتسلّل إلى الخارج.

قالت إيرين: ـ اعذرني لحظة.

ـ أين أنتِ ذاهبة؟

ـ إلى المرحاض. هناك، هل أنت مسرور الآن؟

ـ ستتظاهرين بأنّك ذاهبة إليه، ثم تفرنقعين.

فأشارت إلى محفظتها على الطاولة.

ـ لقد بقيت محفظتي في مكاني.

وهمهم مارك من غير أن يجيب؛ واجتازت الحلبة وهي تزيح الراقصين بضربات من كتفها.

قالت امرأة: ـ إنّ هذه مجنونة!

وكان مارك قد نهض خلفها، فسمعته يصيح:

ـ إيرين!

ولكنّها كانت قد أصبحت خارجًا: مهما يكن من أمر، فهو محتاج إلى خمس دقائق ليدفع ثمن المشروب. كان الشارع مظلمًا، وفكّرت: «شيء مزعج. لقد أضعته». ولكن حين ألفت عيناها الظلام، رأته يسرع في اتّجاه «الترنيته» محاذيًا الجدران. وأخذت تعدو: «لتذهب حقيبتي، فإنّي سأخسر فيها علبة المسحوق، ومئة فرنك ورسالتيْ مكسيم». ولم تكن تُحسّ بعد بالضجر قطّ. واجتازا على هذا النحو زهاء مئة متر وهما يركضان، ثم توقّف فيليب فجأة حتى إنّ إيرين حسبت أنّها تصدمه. وجنحت جنوحًا سريعًا. فتخطّته، واقتربت من باب بناية، فقرعت جرسه مرّتين. وانفتح الباب، إذ كان فيليب قد أدركها. وتلبّثت لحظة ثم صفقت المصراع بعنف، كما لو أنّها دخلت البيت. وكان فيليب يسير الآن ببطء، فكان اللِّحاق به الآن لعبة. وبين الفينة والفينة، كان الظلام يبتلعه، ثم كان بعد ذلك بقليل ينبثق من الليل تحت مطر فانوس مضيء. وفكّرت: «ما أشدّ ما أتسلّى!»

كانت مغرمة بملاحقة الناس، وكانت تستطيع أن تمشي ساعات خلف أشخاص لم تكن حتى لتعرفهم.

كان ما يزال على الجادّات كثير من الناس، وكان الجوّ أكثر إشراقًا بسبب المقاهي والواجهات. توقّف فيليب للمرّة الثالثة، ولكن إيرين لم تدع نفسها تؤخذ على حين غرّة، فظلّت متخفّية خلفه، في زاوية مظلمة، وانتظرت. «لعله على موعد». والتفت إليها، وكان ممتقعًا؛ وأخذ فجأة يتكلّم، فحسبت أنّه قد عرفها؛ غير أنّها كانت واثقة من أنه لم يكن يستطيع أن يراها. وتراجع خطوة، ودمدم بكلمات، وكان يبدو مذعورًا، وفكّرت: «لقد أصبح مجنونًا».

ومرّت امرأتان. شابّة وعجوز، تضعان قبّعتين ريفيّتين. فاقترب منهما. وكان له رأس استعراضي، فقال:

ـ لتسقط الحرب!

فحثّت المرأتان خطاهما. لا بدّ أنّهما لم تفهما. وكان ضابطان يتقدّمان خلفهما؛ وصمت فيليب وتركهما يمرّان. وكانت تتبعهما عن كثب بغيٌّ معطّرة صدمت رائحتها إيرين في أنفها. وانزرع فيليب أمامها بهيئة شرسة، وكانت قد بدأت تبسم له، ولكنّه قال لها بصوت مخنوق:

ـ لتسقط الحرب! ليسقط دالادييه! ليحيى السلم!

وقالت المرأة: ـ أيّ منفوخ مغرور!

ومرّت. هزّ فيليب رأسه، ونظر ذات اليمين وذات اليسار بهيئة غاضبة، ثم اندسّ فجأة في ظلمات شارع ريشيليو. وكانت إيرين تضحك بشدّة، حتى إنّها أوشكت أن تفضح نفسها.

ـ دقيقتان بعد.

كان يُرعش المفتاح، فينبثق نغم جاز، وأربعة ألحان ساكسوفون، ونجمة مذنّبة.

قالت إيفيش: ـ أوه، دعه. هذا جميل.

وأدار السيِّد سرغين المفتاح، فحلّ محلّ شكوى الساكسوفون نغمٌ ممتدّ معقّدٌ، ثم تأمّل إيفيش في قسوة:

ـ كيف تستطيعين أن تحبّي موسيقى المتوحِّشين هذه؟

كان يحتقر الزنوج. وكان قد احتفظ من حياته كطالب في ميونيخ بذكريات ساطعة، وشغف بواغنر. وردّد:

ـ لقد آن الأوان.

وارتجّ الجهاز بصوت، صوت فرنسيّ حقيقي، رزين، ودّي، يجهد في أن يعبِّر بتثنيات منغّمة عن جميع ذبذبات الخطاب، صوت نافذ مقنع لأخ كبير. إنّني أحتقر الأصوات الفرنسيّة. وابتسمت لأبيها وقالت بارتخاء، لتستعيد قليلاً من مشاركتهما القديمة:

ـ إنّني أحتقر الأصوات الفرنسيّة.

وأرسل السيِّد سرغين همهمة خفيفة، ولكنَّه لم يجب، وبيده فرض عليها الصمت.

وكان الصوت يقول: «استقبل المستشار هتلر اليوم، للمرّة الثانية مبعوث رئيس الوزارة البريطانيّة، فأعلمه أنّه إذا لم يتلقَّ قبل الساعة الرابعة عشرة من بعد ظهر الغد جوابًا مرضيًا من براغ بشأن وعد إخلاء منطقة السوديت، فإنّه يحتفظ بحقّ اتخاذ التدابير الضروريّة.

«ويُقدّر بصورة عامّة أنّ المستشار هتلر قد أراد أن يشير إلى التعبئة العامة التي كان الأمر بها منتظرًا ليوم الاثنين، والذي لم يؤخَّر بلا شكّ إلّا بسبب رسالة رئيس الوزارة البريطانيّة».

وصمت الصوت. ورفعت إيفيش، وقد جفّت حنجرتها، عينيها إلى أبيها. وكان قد شرب هذا الكلام في غبطة بليدة كلّ البلادة. وسألت في تجرّد:

ـ ماذا تعني التعبئة تمامًا؟

ـ إنّها تعني الحرب.

ـ هل تعني ذلك بالضرورة؟

ـ يعني! يعني!

قالت بعنف: ـ إنّنا لن نقاتل، لا نستطيع أن نقاتل بسبب التشيكيين.

فابتسم السيِّد سرغين في عذوبة، وقال:

ـ تعرفين أنّه حين يعلنون التعبئة...

ـ ولكن، ما دمنا لا نريد الحرب.

ـ لو كنّا لا نريد الحرب لما أعلنّا التعبئة...

فنظرت إليه في ذهول:

ـ هل أعلنّا التعبئة، نحن أيضًا؟

قال وهو يحمرّ: ـ لا، أعني الألمان.

قالت إيفيش في جفاف: ـ آه؟ أنا كنت أتحدّث عن الفرنسيّين.

وعاد الصوت يقول، مهدِّئًا وديعًا:

«وفي أوساط برلين الخارجيَّة، يرون بصورة عامّة...».

قال السيِّد سرغين: «هسّ».

ثم عاد إلى الجلوس، وقد أدار وجهه إلى الجهاز. وفكّرت إيفيش: «إنّني يتيمة». وغادرت الغرفة على رؤوس أصابعها، فعبرت الممرّ وأغلقت على نفسها باب غرفتها، وكانت أسنانها تصطكّ: سيمرّون في لاون، وسيحرقون باريس، وشارع السين، وشارع لاغيتيه، وشارع لاروزيه، ومرقص جبل سانت جنفياف: إذا احترقت باريس، قتلت نفسي. وفكّرت وهي تتداعى للسقوط على سريرها: «أوه! ومتحف غريفين؟» إنّها لم تقصده قطّ، وكان ماتيو قد وعدها بأن يصحبها إليه في تشرين الأوّل، وهم سيحيلونه بقنابلهم إلى رماد. وإذا حدث ذلك هذه الليلة؟ كان قلبها يقفز في

صدرها، وكانت تشعر بالبرد في ساعديها ويديها، ما الذي يمنعهم من ذلك؟ ربّما كانت باريس في هذه الساعة بالذات قد تحوّلت إلى رماد، وأنّهم يخفون ذلك حتى لا يرعبوا السكّان. إلّا إذا كان هذا ممنوعًا باتّفاقات دوليّة؟ كيف السبيل إلى معرفة ذلك؟ وفكّرت في غضب: «أوه إنّني متأكِّدة أنّ هناك من يعرف، وأنا لا أفهم من الأمر شيئًا، فلقد تركوني في الجهل، كانوا يقسرونني على تعلّم اللاتينيّة، ولم يقل لي أحد شيئًا، وهذا هو الوضع الآن! (وفكّرت بشرود) ولكن لي الحقّ بأن أحيا. لقد ولدت لكي أحيا، إنّ لي الحقّ بذلك». وكانت تحسّ بأنّها مجرّحة تجريحًا عميقًا، حتى إنّها ارتمت على وسادتها تهزّها خمس غصّات، أو ستّ. وتمتمت: «إنّ هذا ظلم لا يُحتمل، فإذا افترضنا أحسن الفروض، فإنّ الحرب ستستغرق ستّة أعوام، عشرة، وسوف تلبس النساء جميعًا مثل ثياب الممرِّضات، حتى إذا انتهت الحرب، أصبحت عجوزًا»، ولكن دموعها لم تنحدر، وكان في قلبها قطعة ثلج صغيرة. انتصبت فجأة: «من؟ من الذي يريد الحرب؟ إنّنا لو أخذنا الناس واحدًا واحدًا لم نجدهم يحبّون الحرب، إنّهم لا يفكِّرون إلّا أن يأكلوا، وأن يربحوا المال. وأن ينجبوا الأطفال. حتى الألمان. ومع ذلك، فإنّ الحرب كانت هناك، وكان هتلر قد أعلن التعبئة. وفكّرت: «غير أنّه مع ذلك لا يستطيع أن يقرِّر هذا وحده». ومرّت عبارة في رأسها، أين تراها قد قرأتها؟ لا بدّ أنّها قرأتها في جريدة. إلّا أن تكون قد سمعتها عند الغداء ينطق بها زبون لأبيها: من تراه يكون خلفه؟ وردّدت بصوت منخفض، وهي تقطِّب حاجبيها وتنظر إلى أطراف حذائها: «من تراه يكون خلفه؟» وكانت تأمل أن ينجلي كلّ شيء، واستعرضت أسماء جميع تلك القوى الكبيرة الغامضة التي تقود العالم، الماسونيّة، اليسوعيين، المئتي أسرة، تجّار المدافع، أسياد الذهب، «جدار» الفضّة، شركات الحصر الأميركيّة، الأنترناسيونال الشيوعي، الكوكلوكلان؛ لا بدّ أنّ ثمّة بعضًا من هذه كلّها، وربّما كان هناك شيء آخر أيضًا، جمعيّة سرِّيّة

تمامًا وقويّة جدًّا يجهل الناس حتى اسمها. وتساءلت، بينما كانت دمعتان من الغضب تسيلان على خدّيها: «ولكن ما عساهم يريدون؟» وحاولت لحظة أن تحزر حججهم، ولكنّها كانت تشعر بأنّها فارغة، وأنّ دائرة من معدن كانت تدور تحت جمجمتها. «ليتني أعرف فقط أين تشيكوسلوڤاكيا!» وكانت قد ثبّتت على الجدار، بمسامير صغيرة، لوحة مائيّة كبيرة زرقاء مذهّبة: تلك هي أوروبا، وكانت قد تسلّت برسمها، في الشتاء الماضي نقلاً عن خارطة، وهي تصحِّح قليلاً زواياها؛ كانت قد رسمت أنهارًا في كلّ مكان، وقعّرت الشطآن المسطّحة أكثر ممّا ينبغي، وحاذرت خصوصًا أن يُكتب أيّ اسم على الخارطة: فذلك كان أوحى بالعلم والإدراك؛ ولم يكن ثمّة حدود أيضًا، فقد كانت تكره خطوط النقط. واقتربت: كانت تشيكوسلوڤاكيا هناك، في مكان ما، في أكثر الأراضي كثافة. هنا، مثلاً، إلّا أن تكون هذه روسيا. وألمانيا، أين هي؟ كانت تنظر إلى الشكل الكبير الأملس الأصفر، المؤطّر بالأزرق، وهي تفكّر: «هذه الأرض كلّها!» ثم تشعر بأنّها ضائعة. وانفتلت، وتركت ثوبها يسقط وترأّت عارية في المرآة. كان ذلك في العادة يُعزّيها كلّما أحسّت بالهموم. ولكنّها رأت نفسها فجأة صغيرة جدًّا، تُرّهة، ذات بشرة محببة، لأنّ شعرها قد اقشعرّ، وحلمتي نهديها قد انتصبتا، وكانت تحتقر جسمها، جسم مستشفى حقيقيًّا، مصنوع للجروح، يُقال إنّهم سيغتصبون جميع النساء، وهم يستطيعون أن يقطعوا لي ساقًا. لئن دخلوا غرفتها ووجدوها عارية تمامًا تحت غطائها: أمامك خمس دقائق لترتدي ثيابك، ثم إنّهم سيديرون ظهورهم، كما حدث لماري أنطوانيت، ولكنّهم سيسمعون كلّ شيء، حفيف القدمين الناعم على سجّادة السرير، وهسهسة القماش على البشرة. وتناولت بنطالها وجوربيها فارتدتهما بسرعة، فعليّ أن أنتظر المصيبة وأنا واقفة لابسة ثيابي. وحين ارتدت تنّورتها وقميصها، أحسّت أنّها محميّة بعض الشيء. ولكنّها سمعت وهي تنتعل حذاءها صوتًا منخفضًا يدمدم بالألمانيّة، في الممرّ.

«إيش هات إينان كاميرادن». . .

فهرعت إيفيش إلى الباب وفتحته، فإذا هي وجهًا لوجه مع أبيها، وكان يبدو مزهوًّا مرحًا. وقالت غاضبة:

ـ ماذا تغنّي؟ ما الذي تسمح لنفسك أن تغنّيه؟

فنظر إليها ببسمة موافقة، وقال: ـ انتظري، انتظري قليلاً يا ضفدعتي الصغيرة: فسوف نراها مرّة أخرى، روسيّتنا القدّيسة.

ودخلت غرفتها، وهي تصفّق الباب: «إنّني أهزأ بروسيا القدّيسة، وأنا لا أريد أن يهدموا باريس، وإذا استباحوا أيّ شيء، فسنرى كيف تنطلق الطائرات الفرنسيّة لإلقاء قنابلها على ميونيخك!

وخفّ صوت القدمين في الممرّ، وسقط كلّ شيء مرّة أخرى في السكون. كانت إيفيش واقفة متصلّبة وسط الغرفة، وهي تتجنّب أن تنظر إلى نفسها في المرآة. وفجأة انطلقت ثلاث صفّارات آمرة، وكانت صادرة من الشارع، فارتعشت من رأسها إلى قدميها. في الخارج، في الشارع. كلّ شيء كان يجري في الشارع: لقد كانت غرفتها سجنًا. كانوا يقرّرون حياتها في كلِّ مكان، في الشمال، في الشرق، في الجنوب، في كلّ مكان في هذه الليلة المسمَّمة، المثقوبة بالبرق، الملأى بالهمس والمُسارّات، في كلّ مكان إلّا هنا، حيث كانت مسجونة، وحيث لم يكن ثمّة ما يحدث قطّ. وأخذت يداها وساقاها ترتجف، فتناولت محفظتها، وأمرّت مشطها على شعرها، وفتحت الباب بلا ضجّة، وانسلّت إلى الخارج.

في الخارج. كلّ شيء في الخارج: الشجر على رصيف المحطّة، بيتا الجسر اللذان يورّدان الليل، عدْو حصان هنري الرابع الجامد فوق رأسي: كلّ ما يثقل. في الداخل، لا شيء، حتى ولا دخان، ليس ثمّة من داخل، ليس ثمّة شيء. أنا: لا شيء. وقال في نفسه وفمه جافّ: إنّني حرّ.

وفي وسط جسر «بونيف»، توقّف وأخذ يضحك: هذه الحرِّيّة، بحثت

عنها بعيدًا جدًّا، وكانت من القرب بحيث لم أكن أستطيع رؤيتها، ولم أستطع لمسها، وهي لم تكن إلّاي، إنّني حرّيّتي. وكان قد أمّل أن يفيض ذات يوم فرحًا، وأن تخترقه الصاعقة من جانب إلى جانب. ولكن لم يكن ثمّة صاعقة ولا فرح: وإنّما كان هناك هذا العوز، هذا الفراغ المأخوذ بالدوار أمام نفسه: هذا الضيق الذي كانت شفافيّته بالذات تمنعه من أن يرى نفسه إلى الأبد. ومدّ يديه وأمرّهما متمهّلاً على حجر الدرابزون، وكان خشنًا، متصدّعًا، إسفنجة متحجّرة، حارّة ما تزال من شمس الأصيل. كان هنا ضخمًا، كثيفًا، حابسًا في نفسه السكون السحيق والظلمات المضغوطة التي هي قلب الأشياء. كان هنا: امتلاء. وقد كان يودّ لو يتعلّق بهذا الحجر، ويمتزج به، ويمتلئ من كثافته، ومن راحته. ولكنّ الحجر لم يكن يستطيع أن ينجده بشيء: كان في الخارج إلى الأبد. ومع ذلك، فقد كانت هناك يداه، على الدرابزون الأبيض: إذا ما نظر إليهما، حسبهما من البرونز. ولكنّهما لم تكونا يديه، لأنّه إنّما كان يستطيع أن يراهما. كانتا يدي رجل آخر، في الخارج، كالأشجار، وكالإشعاعات التي كانت ترتعش في السين، يدين مقطوعتين. وأغمض عينيه، فإذا هما من جديد يداه: ولم يبق من الحجر الحارّ إلّا مذاق حامض مألوف، مذاق نملة تافه. يداي: المسافة الزهيدة التي تكشف لي الأشياء وتفصلني عنها إلى الأبد. إنّني لست شيئًا، وليس عندي شيء. إنّني شديد الالتصاق بالعالم، كالنور، ومع ذلك، منفيٌّ عنه كالنور، منزلق على سطح الحجارة والماء دون أن يربطني أو يرمّلني شيء. في الخارج. في الخارج. خارج العالم، خارج الماضي، خارج نفسي: إنّ الحرّيّة هي المنفى، وأنا محكومٌ عليّ بأن أكون حرًّا.

وخطا بضع خطوات، وتوقّف من جديد، فجلس على الدرابزون ونظر إلى الماء يجري. وماذا تراني سأصنع بكلّ هذه الحرّيّة؟ ماذا تراني سأصنع بنفسي؟ لقد طبعوا مستقبله بطوابع دقيقة: المحطّة، القطار إلى نانسي، الثكنة، استعمال السلاح. ولكن هذا المستقبل وتلك الطوابع لم تكن

لتخصّه بعد. لم يكن ثمّة بعد ما يخصّه: كانت الحرب تحرث الأرض، ولكنّها لم تكن حربَه. كان وحيدًا على هذا الجسر، وحيدًا في العالم، ولم يكن ثمّة من يستطيع أن يُصدر إليه أمرًا. وفكّر في ضجر: «إنّني حرّ من أجل لا شيء». لا علامة في السماء ولا على الأرض، إنّ حربهم قد استغرقت أشياء العالم أكثر ممّا ينبغي، فكانت تدير رؤوسها المتعدِّدة إلى الشرق، وكان ماتيو يركض على سطح الأشياء، فلا تحسّ به. منسيّ. منسيّ من الجسر الذي كان يحمله من غير اكتراث، ومن هذه الدروب التي كانت تنساب نحو الحدود، ومن هذه المدينة التي كانت تتحامل قليلاً على نفسها لتنظر في الأفق حريقًا لم يكن يعنيها. منسيٌّ، مجهول، وحيد: متأخِّر؛ كان جميع المجنَّدين قد رحلوا منذ أمس الأوّل، ولم يكن له هنا ما يفعله بعد. أأستقلّ القطار؟ لا أهمِّيّة لذلك إطلاقًا. أأرحل، أم أبقى، أم أفرّ؟ لم تكن هذه هي الأعمال التي تضع حرِّيّته في خطر. ومع ذلك فقد كان ينبغي أن يخاطر بها. وتشبّث بالحجر، بكلتا يديه، وانحنى فوق الماء. كان حسبه غطسة واحدة، فيلتهمه الماء، وتصبح حرِّيّته ماء. الراحة. ولِمَ لا؟ إنّ هذا الانتحار الغامض سيكون أيضًا مطلقًا. قانونًا برمّته، اختيارًا برمّته، أخلاقًا برمّتها. عملاً فريدًا لا مثيل له يضيء، لمدّة لحظة، الجسر والسين. حسبه أن ينحني أكثر قليلاً، فيكون قد اختار نفسه للخلود. وانحنى، ولكنَّ يديه لم تكونا لتتركا الحجر، وكانتا تحملان ثقل جسمه كلّه. لِمَ لا؟ لم يكن لديه سببٌ خاصّ ليتداعى إلى الغرق، ولكنّه لم يكن لديه كذلك سبب ليمتنع عن ذلك. وقد كان العمل هنا، أمامه، فوق الماء الأسود، وكان يرسم له مستقبله. كانت جميع الحبال قد قُطعت، وما كان لشيء في الدنيا أن يمسكه: وكان ذلك هو الفظيع، الحرِّيّة الفظيعة. كان يشعر بقلبه المستطار يخفق في أعماق نفسه، حركة واحدة، يدان تنفتحان، فأكون ماتيو. وارتفع الدوار ببطء على النهر؛ وانهارت السماء والجسر: فلم يبقَ بعد إلّا هو والماء؛ وكان الماء يصعد إليه، ويلمس قدميه

المتدلّيتين. الماء، مستقبله. هذا صحيح الآن، سوف أقتل نفسي. وفجأة، قرّر ألّا يفعل ذلك. وقرّر: لن تكون هذه إلّا تجربة. وألفى نفسه واقفًا، ماشيًا، منسربًا على قشرة كوكب ميِّت. سيكون ذلك للمرّة القادمة.

كانت تركض في الشارع الكبير، وسمعت مرّة أخرى صفرتين أو ثلاثًا، ثم لا شيء. وها إنَّ الشارع الكبير يصبح هو أيضًا سجنًا: لم يكن يحدث فيه شيء، وكانت واجهات البيوت عمياء مسطَّحة، وجميع المصاريع مغلقة، كانت الحرب في مكان آخر. واستندت لحظة إلى حاجز عين، وكانت قلقة وخائبة، ولكنّها لم تكن تعرف ما أمّلته: ربّما كان أنوارًا، أو مخازن مفتوحة، أو أُناسًا يعلِّقون على الأحداث. لم يكن ثمّة شيء على الإطلاق: كانت الأنوار تضيء السفارات والقصور، في المدن السياسيّة الكبيرة؛ أمّا هي، فكانت محبوسة في ليل يوميّ. وقالت لنفسها وهي تضرب بقدمها الأرض: «كلّ شيء يحدث دائمًا في مكان آخر». وسمعت حفيفًا: فكأنّه كان ثمّة من ينسلّ وراءها. وحبست نَفَسها وتسمّعت طويلاً، ولكنّ الضجّة لم تحدث مرّة أخرى. وكانت تحسّ بالبرد، والخوف يقبض حلقها: وتساءلت عمّا إذا لم تكن تحسن صنعًا بالعودة إلى البيت! ولكنّها لم تكن تستطيع أن تعود، إنّ غرفتها كانت فظيعة، فهنا على الأقلّ، كانت تمشي تحت سماء جميع الناس، وكانت على اتّصال بباريس وبرلين، عبر السماء. وسمعت خربشة متطاولة خلفها، فجرؤت هذه المرّة على الالتفات. ولم يكن إلّا قطًّا: ولقد رأت عينيه تلتمعان، بينما كان يجتاز الطريق من اليمين إلى اليسار، وكانت تلك علامة سيّئة. واستعادت ركضها، فانعطفت إلى شارع «تيير» وتوقّفت، يكاد نَفَسها ينقطع. «الطائرات!» كانت تهدر هديرًا أصمّ، فلا بدّ أنّها ما تزال بعد بعيدة جدًّا. وأرهفت أذنها: لم يكن الصوت قادمًا من السماء. فكأنّ... وفكّرت جَزِعة: «نعم إنّه إنسان يشخر» وكان هو «ليسكا»، كاتب العدل، فقد رأت الأعلام فوق رأسها. كان يشخر والنوافذ مفتوحة، ولم تتمالك نفسها من

الضحك، ثم تسمّرت ضحكتها فجأة: إنّهم ينامون جميعًا. إنّني وحيدة في الشارع، ويحيط بي أشخاص ينامون، وليس ثمّة من يكترث بي.

إنّهم جميعًا على الأرض ينامون أو يهيّئون حربهم في المكاتب، وليس اسمي في رأس واحد منهم. وفكّرت مندهشة: ولكنّي هنا! أنا هنا أرى وأحسّ، وأوجد كما يوجد هتلر!

واستعادت سيرها بعد لحظة، فبلغت الساحة، وكان السهل تحت لاون، يمتدّ كابيًا. وكانوا قد زرعوا فيه أنوارًا. من بعيد لبعيد، ولكنّها لم تكن توفّر الطمأنينة؛ كانت إيفيش تعرف جيّدًا ما كانت تنيره: خطوطًا حديديّة وعوارض خشبيّة وحصًى وقاطرات مهجورة على سكك للمرائب. وكانت باريس قائمة في آخر السهل. وتنفّست: لو كانت تحترق، لرؤي في الأفق ضياء. وكانت الريح تصفق ثوبها على ركبتيها، ولكنّها لم تكن تتحرّك: «إنّ باريس هناك، ما تزال تقطر نورًا، وربّما كانت هذه آخر ليلة لها». وفي هذه اللحظة نفسها، كان أشخاص يصعدون ويهبطون على جادّة سان ميشال، وآخرون في «الدوم»، ربّما كانوا يعرفونها وهم يتحدّثون فيما بينهم: «آخر ليلة، وأنا هنا، في هذا الماء الأسود، وحين أصبح حرّة، لن أجد بعد إلّا ركامًا من الأنقاض وخيمًا بين الحجارة. وقالت: يا إلٰهي، يا إلٰهي! دعني أراها للمرّة الأخيرة». وكانت المحطّة هنا، تحتها تمامًا. إنّها ذلك الاحمرار في أسفل الدرج؛ وكان قطار الليل يسير في الساعة الثالثة وعشرين دقيقة. وفكّرت بزهو: «إنّ معي مئة فرنك، مئة فرنك في محفظتي».

وكانت قد هبطت درج الطريق الوعرة، وهي تركض، وكان فيليب يهبط شارع مونتمارتر وهو يركض، جبان، جبان قذر. آه!! أأنا جبان؟ حسنًا، سوف يرون. وأفضى إلى ساحة. وكان فمٌ كبيرٌ مظلم طنّان ينفتح من جهة الطريق المقابلة، وتنبعث منه رائحة الملفوف واللحم النيء. توقّف أمام حاجز محطّة مترو، وكان على طرف رصيف سلالٌ فارغة؛ ورأى عند

قدميه فتات قشّ وورق خضار ملوّثة بالوحل، وإلى اليمين كانت أطياف تروح وتغدو في ضوء مقهى أبيض. اقتربت إيفيش من نافذة التذاكر.

ـ تذكرة درجة ثالثة إلى باريس.

فسألها الموظّف: ـ ذهابًا وإيابًا؟

فأجابت بحزم: ـ ذهابًا.

تنحنح فيليب وصاح بأعلى صوته:

ـ لتسقط الحرب.

ولم يحدث شيء، واستمرّ ذهاب الأشباح وإيابهم أمام المقهى. وكوّر يديه أمام فمه:

ـ لتسقط الحرب.

وبدا له صوته صوتًا رعدًا. وتوقّفت بعض الأشباح، ورأى رجالاً مقبلين عليه. كان عددهم كبيرًا، ومعظمهم يرتدي قبّعات. كانوا يقتربون بلامبالاة وينظرون إليه باهتمام. وصاح بهم:

ـ لتسقط الحرب.

كانوا يحاذونه تمامًا؛ وكان بينهم امرأتان وشابّ أسمر جميل الهيئة. ونظر إليه فيليب في ودّ، وأخذ يصرخ، من غير أن ينزع عنه عينيه:

ـ ليسقط دالادييه، ليسقط شمبرلن، ليحيى السلام.

وكانوا قد أصبحوا محيطين به، فشعر بالرضى، للمرّة الأولى منذ ثمان وأربعين ساعة. كانوا ينظرون إليه وهم يرفعون حواجبهم ولا يقولون شيئًا. وأراد أن يشرح لهم أنّهم كانوا ضحايا الاستعمار الرأسماليّ، ولكنَّ صوته لم يكن يستطيع بعد أن يتوقّف، فكان يصيح: «لتسقط الحرب!» وكان ذلك نشيد نصر. وتلقّى ضربة عنيفة على أذنه فظلّ يصرخ، ثم ضربة على فمه، وضربة على عينه اليمنى: فسقط على ركبتيه وكفّ عن الصراخ. وكانت امرأة قد وقفت أمامه ـ كان يرى ساقيها وحذاءها ذا الكعب

المسطَّح، وكانت تتخبّط وهي تقول:

ـ قذرون! قذرون.. إنّه طفلٌ فلا تمسّوه.

وسمع ماتيو صوتًا ثاقبًا يصرخ: «قذرون! قذرون! إنّه طفل فلا تمسّوه». وكان ثمّة من يتخبّط وسط زهاء عشرة أشخاص ذوي قبّعات؛ إنّها امرأة قصيرة كانت ذراعاها في الهواء وشعرها يملأ وجهها. وكان شابّ أسمر ذو نُدب تحت أذنه يهزّها بعنف، وهي تصرخ:

ـ إنّه على حقّ، وأنتم جميعًا قذرون؛ كان ينبغي أن تكونوا في ساحة الكونكورد لتتظاهروا ضدّ الحرب، ولكنّكم تفضّلون ضرب طفل، لأنّ هذا أقلّ خطرًا.

وكانت أمام ماتيو قوّادة ضخمة تنظر إلى الحادث بعينين ملتمعتين، فقالت: ـ اقصفوا عمرها!

والتفت ماتيو في انزعاج: لا بدّ أنّ حوادث كثيرة كهذه تقع لدى كلّ منعطف عشيّة الحرب، عشيّة حمل السلاح: إنّ هذا شيء بارز، لم يكن ليعنيه. وفجأة، فكّر بأنّ ذلك كان يعنيه، فأبعد القوّادة بدفعة من يده، ودخل إلى الدائرة، فوضع يده على كتف الشابّ الأسمر، وقال:

ـ شرطة. ماذا هناك؟

فنظر إليه الشابّ في حذر:

ـ إنّ الصبيّ سقط على الأرض. لقد صاح: «لتسقط الحرب!».

فقال ماتيو بقسوة: ـ فهجمت عليه تضربه؟ ألم تكن تستطيع أن تنادي شرطيًّا؟

قالت القوّادة: ـ ليس هناك من شرطيّ يا سيِّدي المفتِّش.

قال ماتيو: ـ أنتِ يا حضرة الكارمن، تتكلّمين حين أوجِّه لك الكلام.

وكان الضيق يبدو على الأسمر، فقال وهو يلحس أصابعه المجروحة:

ـ إنّنا لم نؤذه، وإنّما أرسلنا له صفعة لتسجيل الاحتجاج.

فسأله ماتيو: ـ من الذي أرسل له صفعة؟

فنظر ذو الندب إلى يديه وهو يتنهّد، وقال: ـ أنا.

وكان الآخرون قد تقهقروا خطوة، فاستدار إليهم ماتيو:

ـ هل تريدون أن تسجّلوا كشهود؟

فازدادوا تقهقرًا دون أن يجيبوا. وكانت القوّادة قد اختفت. فقال ماتيو: ـ انفضّوا وإلّا أخذت أسماءكم. أمّا أنت، فابقَ.

قال الشابّ: ـ إذن، يُرسل الفرنسيّون إلى السجن في هذه الساعة إذا ضربوا أحد الدعاة الألمان، الذين يقومون بالإثارة والتحدّي؟

ـ لا تهتمّ بذلك. سوف نحقّق في الأمر.

كان الطفيليّون قد تفرّقوا. وكان اثنان أو ثلاثة منهم واقفين على عتبة مقهى ينظرون. وانحنى ماتيو على الفتى: كانوا قد ضربوه ضربًا قاسيًا.. الدم يسيل من فمه، وعينه اليسرى مقفلة. وكان ينظر إلى ماتيو بعينه اليمنى محملقًا. وقال باعتزاز:

ـ لقد صرخت.

قال ماتيو: ـ ليس هذا أفضل ما صنعت. هل تستطيع أن تنهض؟

فنهض الفتى على مشقّة، وكان قد سقط في الخضار، فعلقت ورقة خسّ في مؤخّرته، وتشبّث بعض القشّ الموحل بسترته. ونفضت المرأة الصغيرة ثيابه بظاهر يدها، فسألها ماتيو:

ـ هل تعرفينه؟

فتردّدت: ـ لا...

فأخذ الفتى يضحك:

ـ طبعًا تعرفني. إنّها إيرين سكرتيرة بيتو.

ونظرت إيرين إلى ماتيو نظرة غامضة.

ـ إنّك لن تقبض عليه من أجل ذلك؟

ـ سوف يزعجني ذلك!!

وشدّه ذو الندب من كمّه: ولم يكن يبدو فخورًا، فقال:

ـ إنّني أكسب حياتي، يا سيّدي المفتّش، أنا أعمل. فإذا صحبتك إلى دائرة الشرطة، فقدت ليلتي.

ـ هويّتك.

فأخرج الرجل جواز سفر، وكان يُدعى كانارو. فأخذ ماتيو يضحك، وقال: ـ مولود في القسطنطينيّة! ولكن اسمع: أينبغي أن تحبّ فرنسا لكي تهدم هكذا أوّل شخص يهاجمها؟

فقال الرجل بوقار: ـ إنّها وطني الثاني.

ـ أظنّ أنّك ستتطوّع؟

فلم يجب الرجل، وسجّل ماتيو اسمه وعنوانه على دفتر صغير، وقال له: ـ حُلّ عن ظهري. سوف تُستدعى. أمّا أنتما، فتعالا.

ودلفوا ثلاثتهم إلى شارع مونمارتر، ومشوا بضع خطى. كان ماتيو يمسك بالفتى الذي كان يترنّح على ساقيه. وسألت إيرين:

ـ قل لي، هل ستُطلق سراحه؟

فلم يجب ماتيو: إنّهم لم يكونوا بعد قد ابتعدوا عن «الهال» بما فيه الكفاية. ومشوا بضع خطى أخرى، وحين وصلوا إلى فانوس، انزرعت إيرين أمام ماتيو ونظرت إليه في حقد، وقالت:

ـ تحرّي قذر!

فأخذ ماتيو يضحك: كانت خصلة من شعرها قد سقطت على وجهها، وكانت تُحوِّل عينيها لتنظر إليه عبر الخصلات التي كانت تتدلّى أمام عينيها. وقال: ـ لستُ تحرِّيًا.

ـ بلا مزاح!

وكانت تنفض رأسها لتتخلّص من شعرها، وانتهى بها الأمر إلى أن قبضت على خصلاتها بغضب وردّتها إلى خلف. وبدا وجهها كامدًا مع عينين كبيرتين. كانت جميلة جدًّا، ولم يكن يبدو أنّها مندهشة جدًّا، وقالت ملاحظة: ـ إذا لم تكن تحرّيًا، فقد انتصرت عليهم.

فلم يجب ماتيو. إنّ هذه الحكاية لم تكن لتسلّيه بعد. وجاءته رغبة جامحة في أن يتنزّه في شارع مونتورغاي. وقال:

ـ اسمعا: سوف أضعكما في سيّارة تاكسي.

وكان ثمّة سيّارتان أو ثلاث واقفة في وسط الشارع، فاقترب ماتيو من إحداها وهو يجرّ الفتى خلفه. وتبعتهما إيرين. وكانت تمسك شعرها بيدها اليمنى، فوق رأسها.

ـ ادخلا هنا.

فاحمرّت.

ـ يجب أن أقول لك: لقد فقدت محفظتي.

وكان ماتيو يدفع الفتى إلى السيّارة، وكان قد ألصق إحدى يديه بين راسليه، بينما كان يفتح الباب بالثانية، وقال:

ـ فتّشي في جيب سترتي، الجيب الأيمن.

وبعد لحظة، أخرجت إيرين يدها من الجيب.

ـ وجدت مئة فرنك ودراهم.

ـ احتفظي بالمئة فرنك.

ودفع الفتى دفعة أخيرة، فاسترخى على المقعد. وصعدت إيرين وراءه وسألت: ـ ما هو عنوانك؟

قال ماتيو: ـ ليس لي بعد من عنوان. إلى اللقاء.

صاحت إيرين: ـ هيه؟

ولكنّه كان قد أدار عقبيه: كان يريد أن يرى مرّة أخرى شارع

مونتورغاي. كان يريد أن يراه على التوّ. ومشى مدّة دقيقة، ثم أقبلت سيّارة تقف بحذاء الرصيف، على مستواه تمامًا، وفُتح الباب، فأطلّت امرأة، وكانت إيرين، فقالت: ـ إصعد، بسرعة.

فصعد ماتيو إلى السيّارة.

ـ اجلس على هذا الكرسي.

فجلس.

ـ ماذا تريدين؟

ـ إنّ الفتى قد فقد رشده. فهو يقول إنّه سيستسلم حتى يُسجن، وهو يعالج الباب طوال الوقت، ويريد أن يرمي نفسه خارجًا. وأنا لست من القوّة بحيث أستطيع أن أمسكه.

وكان الفتى منزويًا فوق المقعد، وكانت ركبتاه أعلى من رأسه. وأوضحت إيرين:

ـ إنّه مُصاب بحسّ الاستشهاد.

ـ ما هو عمره؟

ـ لا أدري: تسع عشرة سنة.

وكان ماتيو يتأمّل ساقيّ الفتى الطويلتين النحيلتين: كان في عمر أقدم تلامذته. وقال: ـ إذا كان راغبًا في سجن نفسه، فليس لكِ الحقّ في أن تمنعيه من ذلك.

قالت إيرين مغتاظة: ـ إنّك عجيب حقًّا. ولا تقدّر ما يعرّض نفسه له!

ـ هل ضرب أحدًا؟

ـ كلّا.

ـ ماذا فعل إذن؟

قالت بهيئة كئيبة: ـ إنّها حكاية طويلة.

ولاحظ أنّها كانت قد عقدت جديلتيها فوق رأسها، وكان ذلك يكسبها

هيئة هزليّة معاندة، بالرّغم من فمها الجميل المتعب. قال ماتيو:

ـ مهما يكن من أمر، فهذا يعنيه. إنّه حرّ.

قالت: ـ حرّا! ما دمت أقول لك إنّه قد فقد رشده.

ولدى كلمة «حرّ» فتح الفتى عينه الواحدة، وتمتم شيئًا لم يفهمه ماتيو، ثم، من غير أن ينبّه أحدًا، ارتمى على مقبض الباب وحاول أن يفتحه. وفي اللَّحظة نفسها كانت سيّارة أخرى تكاد تلامس السيّارة الواقفة. وأسند ماتيو يده على صدر الفتى وألقاه مرّة أخرى على المقعد، وأضاف وهو يلتفت إلى إيرين:

ـ إذا كانت لديّ الرغبة في دخول السجن، فإنّي لا أحبّ أن أُمنع من ذلك.

وصاح الفتى: ـ لتسقط الحرب!

قال ماتيو: ـ نعم، نعم. أنت على حقّ. (وكان ما يزال يشدّه إلى المقعد، ثم التفت نحو إيرين) أعتقد أنّه بالفعل قد فقد رشده.

وفتح السائق الزجاج:

ـ هل نسير؟

قالت إيرين بلهجة انتصار:

ـ ١٥، جادّة بارك موتسوري.

وخمش الفتى يد ماتيو، ولكنّه حين أقلعت السيّارة، اعتزم أن يلتزم الهدوء. وظلّوا صامتين برهة؛ وكانت السيّارة تجري في شوارع سوداء، لم يكن ماتيو يعرفها. وبين الفينة والفينة كان وجه إيرين يخرج من الظلّ، وما يلبث أن يغرق فيه مرّة أخرى. وسألها ماتيو:

ـ هل أنت من بريتاني؟

ـ أنا من متز. لماذا تسألني ذلك؟

ـ بسبب جديلتك.

ـ إنّها بشعة، أليس كذلك؟ إنّ صديقة هي التي تريد أن أسرِّح شعري على هذا النحو.

وصمتت لحظة، ثم سألت:

ـ إنّني لا أفهم كيف لا يكون لك عنوان.

ـ إنّني أنتقل من منزلي.

ـ نعم، نعم... فأنت مجنَّد، أليس كذلك؟

ـ طبعًا، كجميع الرجال.

ـ هل يروقك أن تخوض الحرب؟

ـ لا أدري شيئًا من ذلك: فأنا لم أخضها بعد.

قالت إيرين: ـ أنا ضدّ الحرب.

ـ لاحظت ذلك.

وانحنت نحوه في حركة مشاركة:

ـ قل لي: هل فقدت أحدًا؟

قال ماتيو: ـ لا. هل يبدو عليّ أنّني فقدت أحدًا؟

ـ إنّ لك هيئة غريبة. انتبه! انتبه!

كان الفتى قد مدّ يده خفيةً يحاول أن يفتح الباب، فألقاه ماتيو في مقعده قائلاً:

ـ أتريد أن تظلّ هادئًا؟ (والتفت إلى إيرين) أيّة حقنة!

ـ إنّه ابن جنرال.

ـ آه؟ إذن، لا بدّ أنّه غير فخور بأبيه.

وكانت السيّارة قد توقّفت. فكانت إيرين أوّل النازلين، ثم وجب إخراج الفتى. وكان يتشبّث بالمساند ويركل بقدميه. وأخذت إيرين تضحك:

ـ كم هو مشاكس: إنّه الآن لا يريد أن يخرج.

وتمكّن ماتيو في آخر الأمر من حمله تحت ذراعه ووضعه على الرصيف.

ـ أوف!

قالت إيرين: انتظر لحظة. كان المفتاح في محفظتي، فيجب أن أدخل من النافذة.

واقتربت من بيت صغير ذي طابق واحد، كانت إحدى نوافذه مفتوحة. وكان ماتيو يمسك الفتى بيد، ويفتِّش باليد الأخرى في جيبه، ثم مدّ المال إلى السائق:

ـ احتفظ بالمبلغ كلّه.

وسأل السائق جذلاً: ـ ما باله، الأخ؟

قال ماتيو: لقد نال نصيبه.

وأقلعت السيّارة. وانفتح خلف ماتيو باب، فبدت إيرين في مستطيل من الضوء، وقالت: ـ ادخل.

فدخل ماتيو وهو يدفع الفتى الذي كفّ عن قول شيء. وأغلقت إيرين الباب خلفه.

قالت: ـ إلى اليسار. إنّ المفتاح الكهربائي على يدك اليمنى.

فبحث ماتيو بالتلمّس عن المفتاح، وانبثق النور. فرأى غرفة مغبرّة، فيها سرير مؤطّر، ودلو ماء وطست على الطاولة. وكانت درّاجة بلا عجلات معلّقة في السقف بخيوط.

ـ أهذه غرفتك؟

قالت إيرين: ـ لا، بل هي غرفة الأصدقاء.

فنظر إليها وأخذ يضحك:

ـ جواربك.

كانت مبيضّة من الغبار، وممزّقة لدى الركبتين. وأوضحت في غير اكتراث:

ـ حدث ذلك وأنا أصعد من النافذة.

وكان الفتى قد انزرع في وسط الغرفة، وهو يترنّح بصورة مقلقة وينظر إلى كلّ شيء بعينه الواحدة. وأشار ماتيو إلى الفتى لإيرين: ـ ماذا نفعل به؟

ـ انزع حذائيه ومدِّده: سوف أغسل وجهه. وتركها الصغير تتصرَّف بلا مقاومة: كان يبدو محطَّمًا. وعادت إليه إيرين وهي تحمل طستًا وقطنًا، وقالت:

ـ لا، لا! هيّا يا فيليب، كن عاقلاً!

وكانت قد انحنت فوقه، وأخذت تمرِّر بارتباك قطعة قطن على حاجبيه، وأخذ الفتى يئنّ، فقالت بصوت رؤوم:

ـ نعم، هذا يقرص، ولكنّه يعود بالخير عليك.

وذهبت تضع الطست على الطاولة. ونهض ماتيو قائلاً:

ـ حسنًا، إنّني أنسحب.

قالت بحيويّة: ـ أوه، كلّا (وأضافت بصوت منخفض) إذا كان يريد أن يذهب ثانية، فلست قويّة بما فيه الكفاية لأمنعه من ذلك.

ـ أنت لا تعتقدين مع ذلك أنّي سأسهر عليه طوال الليل؟

قالت في غيظ: ـ ما أقلّ ميلك للإحسان!

وأضافت بعد لحظة بلهجة مصالحة:

ـ انتظر على الأقلّ حتى ينام؛ ولن يتأخّر ذلك.

وكان الفتى يتململ في السرير، وهو يتمتم بكلمات مبهمة. وسألت إيرين: ـ أين تراه كان يجرجر نفسه حتى وقع في مثل هذه الحالة؟

كانت ممتلئة وقصيرة بعض الشيء، ذات بشرة كامدة، رقيقة أكثر ممّا

ينبغي، لزجة بعض الشيء، ولم تكن تبدو نظيفة تمامًا، فكأنّها كانت ناهضة من النوم لتوّها. ولكنّ الوجه كان رائعًا: فم صغير جدًّا ذو زاويتين متعبتين، وعينان كبيرتان وأذنان صغيرتان ورديّتان.

قال ماتيو: ـ حسنًا، لقد نام.

ـ أتظنّ ذلك؟

وانتفضا: كان الفتى قد استقام. وقال بصوت قويّ:

ـ فلوسي! بنطلوني!

قال ماتيو: ـ خراء!

فابتسمت إيرين:

ـ أنت هنا حتى الصباح.

ولكنَّ ذلك كان هذيانًا تمهيديًّا للنوم: فإن فيليب تداعى للسقوط إلى خلف، وتمتم بضع لحظات، وما لبث أن بدأ يشخر.

قالت إيرين بصوت منخفض: ـ تعال.

وتبعها إلى غرفة كبيرة مفروشة بنسيج ورديّ. وكانت قد علّقت على الجدار غيتارًا.

ـ إنّها غرفتي. سأترك الباب مفتوحًا لأسمع الفتى.

ورأى ماتيو سريرًا كبيرًا، غير مرتّب، ذا مظلّة، ومقعدًا محشوًّا، وغرامافونًا وأسطوانات على طاولة من طراز هنري الثاني، وكانت قد ألقيت على أريكة ذات أرجوحة جواربُ مستعملة، سروال نسائيٌّ، ثياب داخليَّة. وتابعت إيرين نظره:

ـ لقد أثّثت بيتي من «سوق البراغيث».

قال ماتيو: ـ لا بأس به، لا بأس به على الإطلاق.

ـ إجلس.

فسأل ماتيو: ـ أين؟

ـ انتظر.

كان على المقعد المحشو سفينة داخل زجاجة، فأخذتها ووضعتها على الأرض، ثم حرّرت الأريكة ذات الأرجوحة من الأغطية التي عليها، والتي حملتها إلى المقعد المحشوّ.

ـ هنا. أمّا أنا، فسأجلس على السرير.

وجلس ماتيو، وأخذ يتأرجح.

كانت آخر مرّة جلست فيها على أريكة ذات أرجوحة، في نيم، في باحة فندق «أرين». وكنت في الخامسة عشرة.

فلم تجب إيرين. واستعاد ماتيو صورة الباحة الكبرى المعتمة ببابها الزجاجيّ المشعّ تحت نور الشمس: كانت تلك الذكرى ما تزال تخصّه، وكانت ثمّة ذكريات أخرى، صميميّة وغير متميِّزة، ترتعش حولها: إنّني لم أفقد طفولتي. كانت السنّ الناضجة، سنّ الرشد، قد انهارت، ولكن كانت الطفولة باقية، حارّة كلّ الحرارة، وهو لم يكن يومًا أقرب إليها ممّا هو الآن؛ وفكّر في الطفل الصغير المضطّجع على رمل البحر في «أركشون»، والذي كان يتطلّب أن يكون حرًّا: وكان ماتيو، أمام هذا الصبيّ العنيد، قد كفّ عن أن يشعر بالعار. ونهض.

قالت إيرين: أنت ذاهب؟

قال: ـ سوف أتنزّه.

ـ ألا تريد أن تبقى قليلاً؟

فتردّد، ثم قال: ـ بكلّ صراحة، كانت لديّ رغبة بأن أكون وحدي.

فوضعت يدها على ذراعه:

ـ سوف ترى. سيكون الأمر معي كما لو كنت وحدك.

ونظر إليها: كانت لديها طريقة غريبة في الكلام، رخوة وساذجة في رصانتها بعض الشيء، كانت لا تكاد تفتح فمها الصغير وتهزّ قليلاً رأسها

لتسّاقط منه الكلمات. وقال: ـ سأبقى.

فلم تبدِ أيّ فرح. وكان وجهها في الحقّ يبدو قليل التعبير. وخطا ماتيو بضع خطوات في الغرفة، واقترب من الطاولة، فأخذ بعض الأسطوانات. وكانت مستعملة جدًّا، وكان بعضها مشعورًا، ومعظمها فقد غلافه. كان ثمّة بعض ألحان الجاز، وأغنية مهترئة لموريس شفالييه، و«الكونسرتو لليد اليسرى»، و«رباعيّة دوبوسي»، و«سيريناد توسيللي» و«نشيد الأنترناسيونال» تغنّيه جوقة روسيّة. وسألها:

ـ أنت شيوعيّة؟

قالت: ـ لا، ليس لي من رأي. وأظنّ أنّي كنت أكون شيوعيّة لو لم يكن الناس أشرارًا أردياء (وفكّرت قليلاً وقالت) إنّني من دعاة السلام.

قال ماتيو: ـ إنّك ظريفة، فإذا كان الناس أشرارًا، فينبغي أن يستوي لديك أن يموتوا في الحرب أو بطريقة أخرى.

فهزّت رأسها برصانة عنيدة، وقالت:

ـ بل من أجل هذا بالذات. فما داموا أشرارًا، فإنّ خوض الحرب مع ذلك أشدّ إثارة للإشمئزاز.

وساد صمت. ونظر ماتيو إلى نسيج عنكبوت في السقف وأخذ يصفّر، قالت إيرين: ـ لا أستطيع أن أقدِّم لك شيئًا للشرب، إلّا إذا كنت تحبّ عصير اللوز. فلا يزال في الزجاجة بقيّة منه.

قال ماتيو: ـ هِمْ.

ـ أجل، كنت أتوقّع ذلك. آه، هناك على المدخنة سيكار، فخذه إذا شئت.

قال ماتيو: ـ أريد ذلك.

ونهض فأخذ السيكار، وكان جافًّا ومكسورًا.

ـ هل أستطيع أن أحشو به غليوني؟

ـ افعل به ما يروق لك.

وعاد إلى الجلوس وهو يفتّت السيكار بين أصابعه، وكان يحسّ نظر إيرين عليه. وقالت:

ـ خذ راحتك. فإذا لم تكن راغبًا في الكلام، فلا تتكلّم.

قال ماتيو: ـ حسنًا.

وبعد برهة، سألت:

ـ ألا تريد أن تنام؟

ـ أوه! كلّا.

وكان يُخيّل إليه أنّه لن يرغب بعدُ أبدًا في النوم.

ـ أين تراك كنت تكون، في هذه اللحظة، لو لم تلتقِ بي؟

ـ في شارع مونتورغاي.

ـ وما الذي كنت ستفعله فيه؟

ـ أتنزّه.

ـ لا بدّ أن يبدو لك غريبًا أن تكون هنا.

ـ لا.

قالت في عتاب مبهم: ـ صحيح، فإنّك قلّما تكون هنا.

فلم يجب: كان يفكّر بأنّها كانت على حقّ. هذه الجدران الأربعة، وهذه المرأة على السرير: كان ذلك حادثًا عارضًا لا أهمّيّة له، وجهًا من وجوه الليل المائعة. كان ماتيو في كلّ مكان يمتدّ فيه الليل، من حدود الشمال إلى الكوت دازور، لم يكن والليل إلّا شيئًا واحدًا، وكان ينظر إلى إيرين بعيون الليل كلّها: فهي لم تكن إلّا نورًا ضئيلاً، في الظلام. وندّت صرخة نافذة جعلته ينتفض.

ـ أيّ سمّ! سأرى ما به.

وخرجت على أطراف أصابعها، وأشعل ماتيو غليونه. ولم تكن به

رغبة بعد لأن يقصد شارع مونتورغاي: فقد كان شارع مونتورغاي هنا، يخترق الغرفة، وكانت جميع طرق فرنسا تمرّ هنا، وجميع الأعشاب تنبت فيها. وكانت قد وُضعت أربعة حواجز خشبيّة حيثما اتّفق. وكان ماتيو في حيثما اتّفق. وعادت إيرين تجلس: وكانت مطلق شخص. ولم تكن لتشبه امرأة من بريتاني. بل كانت أشبه بأناميت، صغيرة مقهى «الدوم». كانت تملك منها البشرة الزعفرانيّة، والوجه اللّامعبّر والجمال الواهن.

قالت: ـ لا شيء. إنّه يحسّ الكوابيس.

وسحب ماتيو بهدوء أنفاس غليونه.

ـ لا بدّ أنّه عاني كوابيس شديدة، هذا الطفل.

فهزّت إيرين كتفيها، وتغيّر وجهها فجأة، فقالت:

ـ أشكّ في ذلك!

قال ماتيو: ـ أراك فجأة تصبحين قاسية.

ـ آه! ذلك أنّه يزعجني أن يُرثى لفتى من جنسه، فهذه كلّها حكايات طفل أغنياء.

ـ إنّ ذلك قد لا يمنع أن يكون شقيًّا.

ـ أنت تجعلني أضحك. لقد طردني أبي حين كنت في السابعة عشرة: أريد أن أقول لك إنّي لم أكن على وفاق معه. ولكنّي لن أقول إنّي كنت شقيّة.

ولمح ماتيو، ذات لحظة، على وجهها المترف، سحنة قاسية واعية لامرأة قد عانت. وكان صوتها يسيل، بطيئًا ضخمًا، مع شيء من الرتابة في الغيظ. قالت:

ـ إنّ الإنسان يكون شقيًّا، حين يشكو البرد أو المرض أو الجوع. وكلّ ما عدا ذلك أبخرة.

فأخذ يضحك: كانت تقطّب أنفها بعناية وتفتح فمها الصغير بقوّة لقيء

الكلمات. وكان لا يكاد يصغي إليها: كان يراها. نظر. نظر هائل، سماء فارغة: كانت تتخبّط في هذا النظر كحشرة في ضوء منارة.

وقالت: ـ لا، أريد طبعًا أن أؤيه وأُعنى به وأمنعه من ارتكاب الحماقات، ولكنّي لا أريد أن يُرثى له. لأنّي أنا، عرفت ما هو البؤس! وحين يزعم البورجوازيّون أنّهم أشقياء. . .

ونظرت إليه بتنبُّه، وهي تستردّ نَفَسها:

ـ صحيح أنّك بورجوازي. أنت.

قال ماتيو: ـ نعم، أنا بورجوازي.

إنّها تراني. وخُيّل إليه أنّه كان يقسو ويصغر بسرعة تامّة. فوراء هذه العينين سماء بلا نجوم، وكذلك نظر، إنّها تراني، كما ترى الطاولة والغيتار. وأنا في رأيها: جزء صغير معلّق في نظر، بورجوازي. صحيح أنّي بورجوازي. ومع ذلك، فإنّه لم يكن ينجح في الإحساس بذلك. وكانت ما تزال تنظر إليه.

ـ ما الذي تفعله في الحياة؟ لا، دعني أحزر. طبيب؟

ـ لا.

ـ محام؟

ـ لا.

قالت: ـ عجبًا. ربّما كنت نشّالاً.

قال ماتيو: ـ إنّني أستاذ.

قالت وهي خائبة بعض الشيء: ـ هذا غريب (ولكنّها أضافت بحيويّة): «لا أهمِّيّة لذلك».

إنّها تنظر إليّ. ونهض فأخذ ذراعها، فيما تحت مرفقها بقليل. وكان اللحم الطريّ الدافئ ينغمس قليلاً تحت الأصابع. وسألته:

ـ ماذا دهاك؟

ـ كانت بي رغبة إلى لمسك، وذلك لسبب واحد: هو أنّك تنظرين إليّ.

وتداعت مقتربة منه، وتغشّى النظر، وقالت: ـ إنّك تروق لي.

ـ وأنت تروقين لي أيضًا.

ـ هل لك امرأة؟

ـ ليس لي أحد.

وجلس بالقرب منها، على السرير:

ـ وأنت، هل من أحدٍ في حياتك؟

ـ في حياتي... آحاد. (وأشارت إشارة أسف وقالت) إنّني سهلة.

وكان النظر قد اختفى. وكان باقيًا لعبةٌ صينيّة صغيرة تنبعث منها رائحة البلاذر.

قال ماتيو: ـ سهلة؟ وبعد ذلك؟

فلم تجب. وكانت قد وضعت رأسها بين يديها، وراحت تنظر إلى الفراغ في رصانة. وقال ماتيو في نفسه: «إنّها امرأة تميل إلى التفكير». وقالت بعد لحظة:

ـ حين تكون امرأة لابسةً ثيابًا رديئة، فلا بدّ أن تكون سهلة.

والتفتت إلى ماتيو في قلق:

ـ إنّني لست مخيفة، أليس كذلك؟

قال ماتيو أسفًا: ـ كلّا. هذا نستطيع أن نؤكّده.

ولكنّها بدت من شدّة الأسى بحيث إنّه أخذها بين ذراعيه.

كان المقهى مقفرًا. وسألت إيفيش الخادم:

ـ إنّها الساعة الثانية صباحًا، أليس كذلك؟

فمسح عينيه بظاهر يده، وألقى نظرة على الساعة المعلّقة. كانت تشير إلى الثامنة والنصف.

وتمتم: ـ ربّما.

وتراكمت إيفيش بوداعة في زاوية وهي تردّ تنّورتها على ركبتيها، سأكون يتيمة تلحق بعمّتها في ضاحية باريس. وفكّرت بأنّ عينيها كانتا تلتمعان أكثر ممّا ينبغي، فأسدلت شعرها على وجهها. ولكن قلبها كان ينبض بهيجان يكاد يكون فرحًا: ساعة انتظار، وشارع يُعبر، ثم تقفز إلى القطار؛ وسأكون حوالى الساعة السادسة في «غاردنور»، فأقصد أوّلاً «الدوم» وآكل برتقالتين، ومن هناك إلى بيت ريناتا لأبلصها بخمسمئة فرنك. وكانت بها رغبة لأن تطلب قدح خمر، ولكنّ اليتيمة لا تشرب الكحول.

وسألت بصوت دقيق: ـ أتريد أن تعطيني فنجان زيزفون؟

فاستدار الخادم على عقبيه، وكان فظيعًا، ولكن كان ينبغي إغراؤه، وحين حمل الزيزفون رفعت إليه نظرًا رقيقًا مجفلاً، وتنهّدت قائلة:

ـ شكرًا.

فانزرع أمامها ونشق في تبرّم:

ـ إلى أين أنت ذاهبة هكذا؟

قالت: إلى باريس، لدى عمّتي.

ـ ألست ابنة السيِّد سرغين، ذاك الذي يملك المنشرة، فوق؟

البليد!

قالت: ـ أوه كلّا! لقد مات أبي عام ١٩١٨، وأنا ربيبة الدولة.

فهزّ رأسه عدّة مرّات وابتعد: لقد كان فلّاحًا فظًّا كالفلّاحين الروس. أمّا في باريس، فإنّ لخدم المقاهي نظرات مخمليّة وهم يصدِّقون ما يُقال لهم. سأرى باريس من جديد. وسوف تُعرف ما إن تبلغ «غاردونور»، فقد كانوا ينتظرونها. كانت الطرق تنتظرها، والواجهات، وأشجار مقبرة مونبارناس و... الأشخاص أيضًا. بعض الأشخاص الذين لا يكونون قد

رحلوا ـ مثل ريناتا ـ أو يكونون قد عادوا. سوف أجد نفسي من جديد. هناك فقط كانت إيفيش، بين جادّة «مين» والأرصفة. وسوف يُرونني تشيكوسلوفاكيا على خارطة. وفكّرت في هوس: أوه! ليقصفوا إذا شاؤوا بالقنابل، فسنموت معًا، ولا يبقى إلّا بوريس ليتحسّر علينا.

ـ أطفئ.

فأطاع، وذابت الغرفة في ليل الحرب الكبير، وامتزج النظران في الليل، ولم يكن باقيًا إلّا خيط من نور، بين مدخل الباب ومصراعه المشقوق، عين مستطيلة كانت تبدو وكأنّها تراهما. واتّجه ماتيو منزعجًا إلى الباب، فقال الصوت في ظهره:

ـ لا، دعه مفتوحًا: بسبب الفتى؛ فإنّي أريد أن أسمعه.

فعاد أدراجه في صمت، ونزع حذاءه وبنطاله، وأحدث الحذاء الأيمن صوتًا وهو يرتطم بالأرض الخشبيّة.

ـ ضع ثيابك على الأريكة.

فوضع بنطاله وسترته ثم قميصه على الأريكة ذات الأرجوحة، فتأرجحت وهي تصرّ. وظلّ عاريًا كلّه، ذراعاه متدلّيتان، وأصابع رجليه مشنّجة، في وسط الغرفة. وكان راغبًا في أن يضحك.ـ تعال.

فتمدّد على السرير لصق جسدٍ حارٍّ عارٍ. وكانت قد استلقت على ظهرها، ولم تأتِ بحركة، وكانت ذراعاها ملتصقتين على جنبيها، ولكنّه حين قبّل صدرها، تحت عنقها بقليل، أحسّ بخفق قلبها، خفقات مطرقة كبيرة كانت تزعزعه من رأسه إلى قدميه. وظلّ فترة من غير أن يتحرّك، وقد شمله هذا الجمود الخافق: وكان قد نسي وجه إيرين؛ ومدّ يده، وأمرّ أصابعه على لحمٍ أعمى. مجرّد إنسانة. ومرّ أشخاص بالقرب منهما، وسمع ماتيو أحذيتهم تطقطق: كانوا يتكلّمون بصوت مرتفع، ويتضاحكون فيما بينهم.

قالت امرأة: ـ قل، يا مارسيل: لو كنت هتلر، أتراك تستطيع أن تنام هذه الليلة؟

وضحكوا، وابتعدت خطاهم وضحكاتهم، وظلّ ماتيو وحيدًا.

وقال صوت ناعس:

ـ إذا كان ينبغي لي أن آخذ احتياطات، فالأفضل أن تقول ذلك فورًا.

قال ماتيو: ـ لا حاجة بك إلى اتّخاذ احتياطات، فأنا لست قذرًا.

فلم تجب. وسمع نَفَسها القوي المنتظم. مرج، مرج في الليل، كانت تتنفّس كالأعشاب، كالأشجار، وتساءل عمّا إذا لم تكن قد نامت. ولكنّ يدًا مرتبكة ومنغلقة نصف انغلاق لامست بسرعة خاصرته وأليتيه: كان يمكن اعتبار ذلك على الأكثر مداعبة. وتحامل قليلاً وانزلق عليها.

انسحب بوريس فجأة، وردّ الغطاء وتداعى للسقوط إلى جانب. ولم تكن لولا قد تحرّكت، وظلّت متمدّدة على ظهرها، مغمضة العينين. وتقوقع بوريس ليتجنّب ما وسعه ملامسة الغطاء لجسمه العَرِق، وقالت لولا من غير أن تفتح عينيها:

ـ بدأت أؤمن بأنّك تحبّني.

فلم يجب. هذه الليلة، كان قد أحبّ جميع النساء من خلالها، الدوقات والأخريات. ويداه اللتان كانت حشمةٌ لا تُقهر قد أمسكتهما حتى ذلك الحين على كتفيّ لولا ونهديها، نزّههما في كلّ مكان؛ ونزّه شفتيه في كلّ مكان، والتمس في جنونٍ الإغماءَ النصفي الذي كان يسقط فيه عادة وهو في إبّان لذّته، والذي كان يثير اشمئزازه: كانت ثمّة أفكار يريد أن يهرب منها. وكان يشعر بنفسه الآن لزجًا ملطّخًا، وقلبه يخفق حتى لينفطر؛ لم يكن ذلك كريهًا: ففي تلك اللحظة، ينبغي التفكير أقلّ ما يمكن. كانت إيفيش تقول له دائمًا: إنّك تفكّر أكثر ممّا ينبغي ـ وكانت على حقّ. ورأى فجأة بعض قطرات تنبثق عند زاويتيّ عينيْ لولا المغمضتين، فتشكّل

بحيرتين صغيرتين كان مستواهما يصعد رويدًا على جانبي الأنف. وتساءل: «ماذا هناك أيضًا؟» كان يعيش منذ أربع وعشرين ساعة مع قلق جافّ في جوف معدته، فلم يكن ذا ميل إلى الرقّة والتعطّف.

وقالت لولا: ـ أعطني منديلي، إنّه تحت الوسادة.

ومسحت عينيها ثم فتحتهما. وكانت تنظر إليه نظرة حذرة قاسية. «ماذا تراني قد فعلت أيضًا؟» ولكن لم يكن الأمر كما يظنّ، فقد قالت بصوت مخنوق: ـ سوف تذهب.

ـ إلى أين؟ آه! نعم... ولكن ليس على الفور، وإنّما بعد عام.

ـ وما هو العام؟

كانت تنظر إليه في إلحاح؛ وأخرج يدًا من تحت الغطاء وردّ خصلته على عينيه، وقال في حكمة: ـ ربّما تكون الحرب بعد عام قد انتهت.

ـ انتهت؟ آه أصدّقك تمامًا: إنّنا نعرف متى تبدأ الحرب، ولكنّنا لا نعرف أبدًا متى تنتهي.

وانبثقت ذراعها البيضاء من تحت الغطاء، فأخذت تجسّ وجه بوريس كما لو كانت عمياء. وملّست صدغه ووجنتيه، وتابعت استدارة أذنيه، ولامست أنفه بطرف أصابعها: وكان يحسّ نفسه مضحكًا. وقال في مرارة:

ـ إنّ العام وقت طويل، فلدينا مجال للتفكير في ذلك.

ـ واضح جدًّا أنّك طفل. ليتك تدري كم ينقضي العام بسرعة بالنسبة لمن كان في سنّي!

قال بوريس في عناد: ـ أمّا أنا، فأجده طويلاً.

ـ هل أنت راغب إذن في القتال؟

ـ ليس الأمر كذلك.

وأصبح أشدّ احتمالاً للحرّ، فانقلب على ظهره ومدّ ساقيه، فالتقتا

طرفًا من قماش في جوف السرير، بنطال منامته. وقال موضحًا، ونظره في السقف:

ـ مهما يكن من أمر، فما دام عليّ أن أخوضها، هذه الحرب، فليكن ذلك على التوّ، ولنكفّ عن الحديث عنها.

وصاحت لولا: ـ ها! وأنا (وأضافت بصوت لاهث) إنّك لا تبالي بأن تتركني، أيّها الوحش الصغير؟

ـ ولكن ما دمت سأتركك على أيّة حال؟

قالت بهوس: ـ آه، في أبعد وقت ممكن. سأموت من ذلك. لاسيّما وأنّك، كما أعرفك الآن، ستظلّ ثلاثة أيّام من غير أن تكتب لي، بداعي الكسل؛ وسوف أظنّك أنا ميتًا. إنّك لا تقدِّر ذلك.

قال بوريس: ـ وأنت أيضًا لا تقدِّرينه. انتظري ريثما يحدث ذلك قبل أن تحطِّمي رأسك تفكيرًا.

وساد صمت، ثم قالت بصوت أجشّ وشرس، كان يعرفه جيّدًا:

ـ مهما يكن من أمر، فإنّه لا يبدو صعبًا جدًّا أن يُهجر إنسان ما، إنّ العجوز تعرف من الناس أكثر ممّا تعتقد.

وانقلب بحيويّة على جنبه، ونظر إليها بغضب:

ـ لولا، إذا ما فعلت ذلك. . .

ـ ماذا يحدث؟

ـ فلن أراكِ في حياتي بعدُ أبدًا.

وكانت قد هدأت، فقالت له ببسمة غريبة:

ـ كنت أحسب أنّ الحرب تثير نفورك؟ لقد كرّرت لي كثيرًا أنّك كنت مناهضًا للعسكريّة.

ـ وما زلت.

ـ وإذن؟

ـ ليس الأمر متشابهًا.

وكانت من جديد قد أغمضت عينيها، وكانت تلتزم الهدوء، ولكن وجهها كان قد تغيّر: فقد بدت على زاويتيّ شفتيها تجعّدات التعب والضيق القديمة. وبذل بوريس جهدًا، فقال بلهجة مصالحة:

ـ إنّي مناهض للعسكريّة، لأنّي لا أستطيع أن أطيق الضبّاط، أمّا الجنود العاديّون فأحبّهم كثيرًا.

ـ ولكنّك ستصبح ضابطًا. سيجبرونك على ذلك.

فلم يجب بوريس: كان الأمر أعقد ممّا ينبغي، حتى إنّه كان هو نفسه يضيع فيه. صحيح أنّه كان يحتقر الضبّاط، ولكن لمّا كانت الحرب حربه، من جهة أخرى، وكان هو مرصودًا لحياة عسكريّة قصيرة، فلا بدّ أن يصبح معاون ملازم. وفكّر: «آه! ليتني أستطيع أن أكون هناك وأتبع الفرقة، بقوّة الأشياء، وأنتهي من كلّ هذه المزعجات».

وقال فجأة:

ـ أتساءل عمّا إذا كنت سأخاف.

ـ تخاف؟

ـ إنّ ذلك يرعدني.

وكان يفكّر بأنّها لن تفهم: كان الأفضل أن يتحدّث في ذلك إلى ماتيو، أو حتى إيفيش، ولكن ما دامت موجودة هنا...

ـ طوال العام، سنقرأ في الصحف: الفرنسيّون يتقدّمون تحت طوفان من الحديد والنار، أو نقرأ شيئًا من هذا القبيل، فهمت ما أقصد. وسوف أتساءل كلّ مرّة: هل تراني سأصمد؟ أو أنّني سأسأل مأذونين: أيكون الأمر قاسيًا؟ وسوف يجيبونني: قاسٍ جدًّا، فأحسّني طريفًا. إنّ ذلك سيبعث على الفرح.

فأخذت تضحك، وقلّدته من غير جذل:

ـ انتظر حتى تمرّ بها قبل أن تحطّم رأسك تفكيرًا، حتى ولو كنت خائفًا، أيّها الساذج الصغير!

وفكّر: «لا حاجة إلى أن أشرح لها: فهي لا تفهم شيئًا». وتثاءب وسأل:

ـ هل نطفئ؟ إنّني ناعس.

قالت لولا: ـ إذا شئت. قبّلني.

فقبّلها وأطفأ. وكان يكرهها، وفكّر: «إنّها لا تحبّني من أجل نفسي، وإلّا لفهمت».

كانوا جميعًا متشابهين، وكانوا يتظاهرون بأنّهم عُمي: لقد جعلوا منّي ديك قتال، ثورًا للصراع، وها هم الآن يسدّون أعينهم.. أبي يريد أن أتقدّم لدبلومي، وهذه تريد أن تجعلني أقع في كمين لأنّها ضاجعت في الماضي كولونيلاً. وبعد لحظة، أحسّ جسمًا ملتهبًا عاريًا يسقط على ظهره. وفكّر: «دائمًا هذا الجسد الملتصق بجسدي طوال عام آخر. إنّها تستثمرني». واستشعر القسوة والانغلاق، واندفع بقرب الجدار. فسألته لولا:

ـ إلى أين تذهب؟ إلى أين تذهب؟ ستسقط على الأرض.

ـ إنّ حرارتك تحرقني.

فابتعدت وهي تدمدم. عام. عام ستسألني فيه إن كنت جبانًا، وطوال عام سأخاف من أن أكون خائفًا. وسمع تنفُّس لولا المنتظم، كانت تنام؛ ثم تدحرج الجسم عليه من جديد؛ ولم يكن الذنب ذنبها، فقد كان في وسط الفراش فجوة؛ ولكن بوريس أحسّ برعشة غضب ويأس: ستسحقني حتى صباح الغد. وفكّر: أوه! أعيش مع الرجال، ولكلّ سريره. وفجأة، أخذه نوع من الدوار، وكانت عيناه مفتوحتين ثابتتين في الظلام، وسرت في ظهره العَرِق رعدة مثلجة: لقد أدرك أنّه قرّر التطوّع في اليوم التالي.

انفتح الباب، وبدت السيِّدة بيرنانشاتز في قميص الليل وعلى رأسها وشاح، فقالت وهي تصيح لتغطّي صوت جهاز الراديو:

ـ غوستاف، أرجوك، تعال فنم.

قال السيِّد بيرنانشاتز: ـ نامي، نامي، ولا تهتمّي بي.

ـ ولكنّي لا أستطيع أن أنام إذا لم تأوِ إلى فراشك.

فقال بحركة ضيق: آه! ترين جيّدًا أنّي أنتظر شيئًا ما.

قالت: ـ ما هو؟ لماذا تحرِّك طوال الوقت هذا الراديو اللعين؟ سينتهي الأمر بالجيران إلى رفع شكوى. فماذا تنتظر؟

فالتفت السيِّد بيرنانشاتز إليها، وقبض على ذراعها بقوّة قائلاً:

ـ أراهن أنّ هذه خدعة. أراهنك أنّ بلاغ تكذيب سيصدر ليلاً.

فسألته مستطارة اللبّ: ـ ولكن ماذا؟ عمّ تتكلّم؟

فأشار إليها أن تصمت. وأخذ صوت هادئ رصين يتكلّم:

«تكذِّب الأوساط المأذون لها في برلين جميع الأنباء التي ظهرت في الخارج، فيما يخصّ إنذارًا قيل إنّ ألمانيا أرسلته إلى تشيكوسلوفاكيا وحدّدت فيه الساعة الرابعة عشرة بعد ظهر اليوم كآخر موعد، وفيما يخصّ تعبئة عامّة مزعومة ستعلن بعد انتهاء هذا الأجل».

وصاح بيرنانشاتز: اسمعي! اسمعي!

«وتعتبر هذه الأنباء وسيلة لبثّ الذعر وخلق جوّ من التشوّش والذهان الحربي».

«ويكذِّبون كذلك تصريحًا زُعم أنّ الوزير غوبلز أدلى به إلى جريدة أجنبيّة حول مدّة هذا الإنذار، ويؤكِّدون أنّ الدكتور غوبلز لم يرَ ولم يستقبل منذ أسابيع أيّ صحفيّ أجنبي».

واستمع السيِّد برنانشاتز لحظة أخرى، ولكنّ الصوت كان قد صمت، فنهض يرقص مع السيِّدة بيرنانشاتز رقصة فالس، وهو يصرخ:

ـ لقد قلت لكِ، لقد قلت لكِ، إنّه التراجع، إنّه التراجع الأصفر، لن تقع الحرب يا كاترين، لن تقع الحرب، وقد بُعِص النازيّون!

النور. وانتصبت الجدران الأربعة فجأة بين ماتيو والليل. فتحامل على يديه، ونظر إلى وجه إيرين الهادئ: كان عُري هذا الجسد الأنثوي قد تقلّص حتى الوجه، وكان الجسم قد استردّه كما تستردّ الطبيعة الحدائق المهجورة؛ ولم يكن ماتيو ليستطيع بعدُ أن يعزله عن الكتفين المستديرتين، والنهدين الصغيرين المقرّنين، إنّه لم يكن إلّا زهرة من لحم، آمنة وغامضة. وسألت:

ـ هل كان الأمر مملاً أكثر ممّا ينبغي؟

ـ مملّاً؟

هناك من يجدني مملّة، لأنّي لست نشيطة جدًّا. وقد حدث مرّة أن شعر أحدهم معي بانزعاج شديد، حتى إنّه ذهب في الصباح ولم يعد بعد ذلك قطّ.

قال ماتيو: ـ إنّني لم أنزعج.

وأمرّت إصبعًا خفيفًا على عنقه:

ـ ولكن يجب ألّا تظنّ أنّي باردة.

قال ماتيو: ـ أعرف. اصمتي.

وأخذ رأسها بين يديه وانحنى على عينيها. كانتا بحيرتين من جليد، شفّافتين وبلا أعماق. إنّهما تنظرني، وكان الجسم والوجه، خلف هذا النظر، قد اختفيا. وفي أعماق هاتين العينين، كان الليل. الليل البكر. لقد أدخلتني في عينيها، فأنا موجود في هذا الليل: رجلاً عاريًا. سأغادرها بعد ساعات، ومع ذلك، فسأبقى فيها إلى الأبد. فيها، في هذا الليل المغفّل. وفكّر: «وهي لا تعرف حتى اسمي». وفجأة، أحسّ بأنّه متعلّق بها تعلّقًا عميقًا، حتى شعر بالحاجة إلى مصارحتها بذلك، ولكنّه صمت: كانت

الكلمات ستكذب؛ فهو إنّما كان متعلِّقًا بهذه الغرفة مثل تعلُّقه بها، بالغيتار على الجدار، وبالفتى الذي كان ينام في السرير المقفص، بهذه اللحظة، بهذا الليل كلِّه.

وابتسمت له:

ـ إنّك تنظر إليّ، ولكنّك لا تراني.

ـ بل أراك.

وتثاءبت:

ـ أودّ أن أنام برهة.

قال ماتيو: ـ نامي، ولكن اربطي منبِّهك على الساعة السادسة، فيجب أن أعود إلى بيتي قبل أن أقصد المحطّة.

ـ أنت ذاهب هذا الصباح؟

ـ هذا الصباح في الساعة الثامنة.

ـ هل أستطيع أن أصحبك إلى المحطّة؟

ـ إذا شئت.

ـ انتظر. يجب أن أخرج من السرير لأربط المنبِّه وأطفئ النور. ولكن لا تنظر، فأنا أخجل من مؤخِّرتي لضخامتها وانخفاضها المفرطين.

فصرف وجهه، وسمعها تروح وتغدو في الغرفة، ثم أطفأت. وقالت له وهي تعود إلى النوم:

ـ يتّفق لي أحيانًا أن أنهض وأنا نائمة، وأن أتنزّه في الغرفة، فما عليك إلّا أن تصفعني.

الأربعاء ٢٨ أيلول

الساعة السادسة صباحًا...

كانت معتزّة جدًّا، فهي لم تغمض عينيها طوال الليل، ومع ذلك فإنّها لم تكن وسنى. كلّ ما هناك حُرقٌ جافّ في جوف المحجرين، وتأكُّل في العين اليسرى، وذلك الرفيف في الجفنين، وبين الفينة والفينة ارتعاشات من التعب تسري في ظهرها، من الصلب حتى الرقبة. كانت قد سافرت في قطار مقفر بصورة فظيعة، وكان آخر مخلوق حيّ رأته رئيس المحطّة في سواسون، وهو يلوّح بقلمه الأحمر. ثم رأت دفعة واحدة الجمهور الحاشد في باحة «غاردوليست»، وكان حشدًا قبيحًا جدًّا، محشوًّا بالعجائز والجنود؛ ولكن كانت له عيون كثيرة وأنظار كثيرة، ثم إنّ إيفيش كانت تحبّ هذا التموّج السرمديّ الصغير وهذه اللكزات من المرافق والظهور والأكتاف، وتأرجح الرؤوس بعضها وراء البعض بعناد؛ وكم كان لذيذًا أن لا تشعر بنفسها وحيدةً بعدُ في تحمّل ثقل الحرب. وتوقّفت عند عتبة أحد أبواب الخروج الكبرى، وتأمّلت بتديّن جادّةَ ستراسبورغ؛ كان ينبغي أن تملأ منها عينيها وتلمّ في ذاكرتها الأشجار، والحوانيت المغلقة،

والباصات، وخطوط الترامواي، والمقاهي التي كانت قد بدأت تُفتح، وهواء الصباح المدخَّن. حتى ولو ألقوا قنابلهم بعد خمس دقائق، بعد ثلاثين ثانية، فإنّهم لن يستطيعوا أن ينتزعوا منّي ذلك. وتأكّدت من أنّها لم تكن تترك شيئًا يفلت منها، حتى ولا الإعلان الكبير ديبون ـ ديبون ـ ديبونيه، إلى اليسار، ثم فجأة أخذها سعْر صغير. يجب أن تدخل المدينة قبل أن يصلوا. ودفعت امرأتين من بريتاني كانتا تحملان أقفاص عصافير، واجتازت العتبة، فوضعت قدمها على رصيف حقيقي لباريس. وخُيِّل إليها أنّها كانت داخلة إلى أتون، وكان ذلك يثير النشوة والشؤم. «سيحترق كلّ شيء، النساء والأطفال والعُجّز، وسوف أهلك في اللهب». ولم تكن خائفة: فعلى أيّ حال كنت سأستفظع أن أشيخ، غير أنّ التعجّل كان يجفِّف حلقها، فليست ثمّة دقيقة للإضاعة: إنّ هناك أشياء كثيرة ينبغي أن تُرى مرّة أخرى، سوق «البراغيث»، المقابر، منيلمونتان وأشياء أخرى لم تكن تعرفها بعد، كمتحف غريفان، فإذا تركوني ثمانية أيّام، إذا لم يأتوا قبل يوم الثلاثاء القادم، سيكون لديّ متّسع من الوقت لأزور كلّ شيء. وفكّرت في هوس: ثمانية أيّام تُعاش؛ أريد أن أتسلّى أكثر ممّا أتسلّى في عام برمّته، أريد أن أموت وأنا أتسلّى. واقتربت من سيّارة تاكسي:

ـ ١٢ شارع هويغنز.

ـ إصعدي.

ـ أرجو أن تمرّ في جادّة سان ميشال، وشارع أوغست كونت، وشارع فافين، وشارع دولمبر، ثم شارع «لاغيته» وجادّة مين.

قال السائق: ـ هذا يطيل الطريق.

ـ لا بأس.

ودخلت السيّارة، وأغلقت الباب. كانت قد خلّفت لاون وراءها، إلى الأبد، إلى الأبد: ستموت هنا. وفكّرت: «ما أجمل الطقس! ما أجمل

الطقس! بعد ظهر هذا اليوم سنذهب إلى شارع ديروزييه وجزيرة سان لويس».

صاحت إيرين: ـ عجِّل، عجِّل، تعال.

كان ماتيو في قميصه القصير، يسرِّح شعره أمام المرآة. ووضع المشط على الطاولة وأخذ سترته تحت ذراعه، ودخل غرفة الأصدقاء.

ـ ماذا هناك؟

فأرته إيرين السرير بحركة مؤثِّرة:

ـ لقد فركها!

قال ماتيو: ـ بلا مزاح، بلا مزاح!

وتأمّل السرير المدعوك لحظة، وهو يحكّ رأسه، ثم انفجر ضاحكًا. ونظرت إليه إيرين نظرة رصينة دهشة، ولكن ما لبث الضحك أن أعداها. وقال ماتيو:

ـ لقد قهرنا تمامًا!

وارتدى سترته. وكانت إيرين ما تزال تضحك.

ـ الموعد في «الدوم» الساعة السابعة.

قالت: الساعة السابعة.

وانحنى عليها وقبّلها قبلة خفيفة.

صعدت إيفيش السلّم وهي تركض، وتوقّفت على سطيحة الطابق الثالث وهي تلهث. وكان الباب مشقوقًا. فأخذت ترتجف. «إلّا أن تكون البوّابة هنا؟» ودخلت. كانت جميع الأبواب مفتوحة، وجميع المصابيح مضاءة. وفي المدخل رأت حقيبة كبيرة: إنّه هنا.

ـ ماتيو!

فلم يجب أحد. وكان المطبخ خاليًا، ولكن في غرفة النوم كان السرير غير مرتّب. «لقد قضى الليل هنا». ودلفت إلى المكتب، ففتحت

النوافذ والمصاريع. وفكّرت في رقّة: «ليس ذلك قبيحًا إلى حدّ بعيد، لقد كنت غير عادلة». ستعيش هنا، وستكتب له أربع مرّات في الأسبوع، لا، بل خمسًا. ثم يقرأ ذات يوم في الصحف: «قصف باريس بالقنابل»، ولا يتلقّى بعد ذلك رسائل على الإطلاق. ودارت حول المكتب، ولمست الكتب، وضاغطة الورق التي تشبه العقرب. وكان ثمّة سيكارة مكسورة بالقرب من كتاب لمارتينو عن ستاندال؛ فأخذتها ووضعتها في محفظتها مع البقايا. ثم جلست بهدوء على الديوان. وبعد لحظة، سمعت أقدامًا على السلّم، فوثب قلبها.

كان هو. وتأخّر لحظة في المدخل، ثم دخل حاملاً حقيبته، وفتحت إيفيش يديها، فسقطت محفظتها على الأرض.

ـ إيفيش!

ولم تكن الدهشة باديةً عليه. ووضع حقيبته، فلمّ المحفظة وأعادها إليها.

ـ أنتِ هنا منذ وقت طويل؟

فلم تجب، كانت عاتبةً قليلاً، لأنّها تركت محفظتها تسقط. وأقبل يجلس بالقرب منها. ولم تكن تراه. كانت ترى السجّادة وطرف حذائها. وقال بفرح: ـ إنّني محظوظ. فلو تأخّرت ساعة لما كنت أدركتني: سأستقلّ قطار نانسي في الساعة الثامنة.

ـ ولكن كيف، هل تذهب على الفور؟

وصمتت مستاءةً من نفسها، كارهة لصوتها بالذات. إنّ أمامهما وقتًا قصيرًا جدًا، وكم ودّت لو تكون بسيطة، ولكن كان ذلك أقوى منها: حين تكون قد بقيت وقتًا طويلاً من غير أن ترى الناس، فلن يكون باستطاعتها أن تلقاهم ببساطة. وكانت قد تركت لخدر قطنيّ يشبه الجهامة أن يغمرها. وكانت تخفي عنه وجهها بعناية، ولكنّها كانت تظهر له اضطرابها، وكانت

تشعر بأنّها أقلّ حياء ممّا لو نظرت إليه في عينيه. وامتدّت يدان نحو الحقيبة ففتحتاها وتناولتا منها منبِّهًا، فربطتاه. ونهض ماتيو ليذهب، فيضع المنبِّه على الطاولة، ورفعت إيفيش عينيها قليلاً ورأته، أسود تمامًا في الظلّ. وعاد إلى الجلوس. كان مستمرًّا في صمته، ولكن إيفيش استعادت بعض الشجاعة. كان ينظر إليها، وكانت تعلم أنّه كان ينظر إليها. لم يسبق لأحد منذ ثلاثة أشهر أن نظر إليها على هذا النحو، كما يفعل في هذه اللحظة، وكانت تحسّ نفسها ثمينة ورخصة: تمثالاً صغيرًا أبكم، كان ذلك لذيذًا، ومزعجًا، وأليمًا بعض الشيء. وفجأة سمعت تكتكة المنبِّه، وفكّرت في أنّه سيذهب. «لا أريد أن أكون رخصة، لا أريد أن أكون تمثالاً». وبذلت جهدًا عنيفًا، فتمكّنت من أن تلتفت إليه. ولم يكن له النظر الذي كانت تتوقّعه.

ـ ها أنت ذي يا إيفيش، ها أنت ذي.

ولم يكن يبدو أنَّه يفكِّر بما كان يقوله. ومع ذلك، فقد بسمت له، ولكنّها كانت مثلوجة من الرأس حتى القدمين. ولم يبادلها بسمتها، بل قال بهدوء: ـ هذه أنت...

وكان يتأمّلها في دهشة، وأضاف بلهجة أكثر انتعاشًا:

ـ كيف تراك قد أتيت؟

ـ بالقطار.

وكانت قد طابقت راحتيها فيما بينهما، وأخذت تشدّهما بقوّة لتجعل أصابعها تطقطق.

ـ كنت أقصد أن أقول: هل يعرف أهلك ذلك؟

ـ لا.

ـ وهل هربت؟

ـ تقريبًا.

قال: ـ نعم، نعم، حسنًا: سوف تسكنين هنا، (وأضاف باهتمام) أكنتِ منزعجة في لاون؟

فلم تجب: كان الصوت يسقط على رقبتها، باردًا مطمئنًا، كساطور.

ـ يا لإيفيش المسكينة!

وبدأت تشدّ شعرها خصلاً. واستطرد:

ـ بوريس في بياريتز؟

ـ نعم.

كان بوريس قد نهض متحسّسًا. فلبس بنطاله وسترته وهو يرتعش، وألقى نظرة على لولا التي كانت نائمة فاغرة الفم، وفتح الباب بلا ضجّة، وخرج إلى الممشى، وحذاؤه في يده.

وألقت إيفش نظرة على المنبِّه، فرأت أنّ الساعة قد أصبحت السادسة وعشرين دقيقة.

فسألت بصوت شاكٍّ:

ـ كم الساعة؟

قال: ـ السادسة وعشرون دقيقة. انتظري سأضع بعض الحوائج في قربتي، وسأفعل ذلك بسرعة، وبعد ذلك أكون حرًّا تمامًا.

وركع بالقرب من الحقيبة. وكانت تنظر إليه جامدة. ولم تكن تحسّ بعد جسمها، ولكن تكتكة الساعة كانت تحطّم أذنيها. وبعد برهة نهض:

ـ كلّ شيء جاهز.

وظلّ واقفًا بالقرب منها، ورأت بنطاله وقد تهرّأ قليلاً لدى الركبتين. وقال في لطف:

ـ إسمعي جيّدًا يا إيفيش. سوف نتحدّث في أمور جدّيّة: إنّ البيت هو لك، المفتاح معلّق بالمسمار، قرب الباب، فاسكني هنا حتى نهاية الحرب. ولقد تدبّرت الأمر من أجل راتبي: لقد أعطيت وكالة لجاك،

وسوف يقبض الراتب ويرسله لك كلّ شهر. ستكون هناك بعض الحسابات التي لا بدّ من تصفيتها بين الفينة والفينة: أجرة البيت مثلاً، ثم الضرائب، إلّا إذا أُعفي الجنود منها ـ ثم ترسلين لي أحيانًا رزمة صغيرة. وما يتبقّى فهو لك. وأعتقد أنّك تستطيعين أن تعيشي.

وكانت تستمع في ذهول إلى هذا الصوت المتساوي الرتيب الذي كان يشبه صوت مذيع الراديو. كيف تراه يجرؤ على أن يكون مملًّا إلى هذا الحدّ؟ إنّها لم تكن تفهم تمامًا ما كان يقوله، ولكنّها كانت تتمثّل بوضوح الهيئة التي كان يبدو عليها: نصف مبتسم، وأجفانه ثقيلة، وسمة غبطة رصينة على وجهه. ونظرت إليه لتتمكّن من الحقد عليه حقدًا أكبر، ولكن حقدها تهاوى: إنّه لم يكن يبدو على الهيئة التي كان يوحي بها صوته. أتراه يتألّم؟ ولكن لا، إنّه لم يبدو شقيًّا. كلّ ما في الأمر أنّ وجهه كان وجهًا لم تكن تعهده قطّ. وسأل وهو يبتسم:

ـ هل تسمعينني يا إيفيش؟

قالت: ـ بالتأكيد. (ونهضت). ماتيو، أريد أن تُريني تشيكوسلوڤاكيا على خارطة.

فقال: ـ ولكن ليس لديّ خارطات. بلى لا بدّ أنّ عندي أطلسًا قديمًا.

وذهب يبحث عن مجموعة مجلّدة في مكتبته، فأتى بها ووضعها على الطاولة وفتحها، وقلّب أوراقها. «أوروبا الوسطى» وكانت الألوان مزعجة: ليس إلّا اللونان البيج والبنفسجي. لا لون أزرق: فلا بحر ولا أوقيانوس. ونظرت إيفيش بتنبّه إلى الخارطة، فلم تكتشف تشيكوسلوڤاكيا.

قال ماتيو: ـ إنّ تاريخ هذه الخارطة يعود إلى ما قبل ١٤.

ـ وقبل ١٩١٤، لم يكن ثمّة من تشيكوسلوڤاكيا؟

ـ كلّا.

وتناول قلمه الحبر ورسم في وسط الخارطة خطًّا مغلقًا وغير منتظم، وقال: ـ إنّها هكذا تقريبًا.

ونظرت إيفيش إلى هذه المساحة العريضة من الأرض الخالية من الماء، ذات الألوان الحزينة، وهذا الخطّ من الحبر الأسود، غير المستقرّ، البشع، بالقرب من حروف المطبعة، فقرأت كلمة «بوهيميا» في داخل الخطّ، وقالت: ـ آه، هكذا! هذه هي تشيكوسلوڤاكيا. . .

وبدا لها كلّ شيء عبثًا، فأخذت تنشج.

قال ماتيو: ـ إيفيش!

وألفت نفسها فجأة نصف ممدّدة على الديوان؛ وكان ماتيو يأخذها بين ذراعيه؛ وقد تصلّبت أوّل الأمر: إنّني لست بحاجة إلى شفقته، إنّني مضحكة، ولكنّها بعد لحظات تداعت للاسترخاء، فلم يكن ثمّة بعد لا حرب، ولا تشيكوسلوڤاكيا، ولا ماتيو، وإنّما هذه الضغطة العذبة الحارّة حول كتفيها. وسأل:

ـ أتراك قد نمتِ هذه الليلة؟

فقالت بين غصّتين: ـ كلّا.

ـ يا لصغيرتي المسكينة إيفيش! انتظري.

ونهض فخرج؛ وكانت تسمعه يروح ويجيء في الغرفة المجاورة. وحين عاد، كان قد استردّ بعض تلك الهيئة الساذجة المغتبطة التي كانت تحبّها. وقال وهو يجلس إلى قربها:

ـ لقد وضعت أغطية نظيفة؛ والسرير مرتّب، فبوسعك أن تنامي بمجرّد ذهابي.

فنظرت إليه:

ـ ألا . . ألا أصحبك إلى المحطّة؟

ـ كنت أحسب أنّك تكرهين الوداع على المحطّات.

قالت بلهجة مصالحة: ـ أوه، في هذه المناسبة الفخمة. . .

ولكنّه هزّ رأسه: ـ إنّني أفضّل أن أذهب وحيدًا. ثم إنّ عليك أن تنامي.

قالت: ـ آه، آه، حسنًا!

وفكّرت: «كم كنت بليدة!» وأحسّت نفسها فجأة باردة مغلقة. وهزّت رأسها بقوّة، فمسحت عينيها وابتسمت.

ـ أنت على حقّ، فأنا ثائرة الأعصاب أكثر ممّا ينبغي. إنّه التعب. . وسأرتاح.

وأخذها من يدها فأنهضها:

ـ يجب أن أطوف بك البيت.

وفي غرفته، توقّف أمام خزانة:

ـ ستجدين هنا ستّة أزواج من الأغطية ورؤوس وسائد وملاحف، وهناك لحاف في مكان ما، ولكنّي لا أدري أين وضعته، وسترشدك البوّابة.

وكان قد فتح الخزانة، وهو ينظر إلى ركام الأقمشة البيضاء. وأخذ يضحك؛ ولم تكن هيئته راضية. فسألته إيفيش بأدب:

ـ ما بك؟

ـ كلّ هذا كان لي. إنّ ذلك مضحك.

والتفت إليها:

ـ سأريك أيضًا خزانة الطعام. تعالي.

ودخلا المطبخ، فأراها خزانة:

ـ هنا. يبقى زيت وملح وفلفل، ثم هذه معلّبات (وكان يرفع العلب الأسطوانيّة الواحدة بعد الأخرى على مستوى نظره ويُديرها تحت المصباح) «هذا سمك سليمان، وهذا مزيج خضار، وهذه ثلاث علب من الكرنب.

تضعينها على البخار . . . ».

وتوقّف. وعاودته ضحكته السيّئة. ولكنّه لم يضف شيئًا، ونظر إلى علبة من البازلّاء بعينيه الميّتتين، ثم أعادها إلى الخزانة.

ـ انتبهي للغاز يا إيفيش. يجب أن تخفضي يد العدّاد، كلّ مساء، قبل أن تنامي.

وكانا قد عادا إلى المكتب. وقال:

ـ بالمناسبة، سأبلّغ البوّابة وأنا هابط أنّني أترك لك البيت. وسترسل لك غدًا السيّدة بالين. وهي منظّفة البيت، وليست رديئة.

قالت إيفيش: ـ بالين، أيّ اسم غريب![1]

وأخذت تضحك، فابتسم ماتيو. وقال:

ـ إنّ جاك لن يعود قبل مطلع تشرين الأوّل. فيجب أن أعطيك بعض المال لأُتيح لك أن تنتظريه.

وكان في محفظته ألف فرنك وورقتان من فئة المئة فرنك، فأخذ ورقة الألف وأعطاها إيّاها. قالت إيفيش: ـ أشكرك جدًّا.

وتناولت الورقة واحتفظت بها في يدها المنقبضة.

ـ إذا حدث أيّ شيء، فنادي جاك. سأكتب له أنّني أعهد إليه فيك.

فردّدت إيفيش: ـ شكرًا، شكرًا، شكرًا.

ـ هل تعرفين عنوانه؟

ـ نعم. نعم. شكرًا.

ـ إلى اللقاء (واقترب منها) إلى اللقاء يا عزيزتي إيفيش. سأكتب لك بمجرّد أن أحصل على عنوان.

وأخذها من كتفيها وجذبها إليه.

---

(١) تعني كلمة «بالين» بالفرنسيّة: الحوت. (المترجم).

ـ يا صغيرتي العزيزة إيفيش.

فمدّت له بوداعة جبينها، فقبّله. ثم شدّ على يدها وخرج. وسمعته يصفّق باب غرفة الدخول؛ عند ذلك بسطت ورقة الألف فرنك ونظرت إلى نقشها الصغير، ثم مزّقتها إلى ثماني قطع ألقتها على السجّادة.

كان معمّر عجوز ذو لحية شقراء واضعًا إحدى يديه على كتف شابّ حديث التجنيد، يشير له باليد الأخرى إلى الشاطئ الأفريقي. «عودوا إلى التطوّع في الفرقة الأجنبيّة». وكان المجنّد الحديث ذا هيئة بليدة تمامًا. لا بدّ بالتأكيد من المرور بهذه المرحلة: فطوال ستّة أشهر، سيبدو بوريس في هيئة الأبله. لنقل طوال ثلاثة أشهر: فإنّ أعوام الحرب تُعدّ مضاعفة. وفكّر وهو يكزّ على أسنانه: «سيقصّون لي غرّتي. المتوحّشون!» ولم يسبق له أن شعر بمناهضته للعسكريّة بمثل هذا الشعور العنيف. وألمّ بحارسٍ منتصب بجمود في محرسه، فرماه بوريس بنظرة خفيّة، فشعر فجأة بالخوف. وفكّر: «خراء!» ولكنّه كان مصمّمًا، وكان يحسّ نفسه شرّيرًا من الرأس حتى القدمين: دخل الثكنة وساقاه رخوتان، وكانت السماء تلتمع، وريح خفيفة جدًّا تحمل رائحة البحر حتى هذه الأحياء البعيدة؛ وفكّر بوريس: «واأسفاه، واأسفاه أن يكون الطقس رائعًا هذه الروعة». وكان شرطيٌّ يرود الطرق عند باب المفوّضيّة. وكان فيليب ينظر إليه. ويشعر أنّه متروك تمامًا، وكان يحسّ بالبرد، وخدّه وشفته العليا يؤلمانه. سيكون استشهادًا بلا مجد. بلا مجد ولا فرح: السجن. ثم ذات صباح، نهاية المطاف في حُفَر برج «فانسين»؛ ولن يعرف أحد ذلك، فلقد رفضوه جميعًا. وسأل:

ـ مفوّض الشرطة؟

فنظر إليه الشرطي:

ـ في الطابق الأوّل.

سأكون شاهدي بالذات، ولست مدينًا بعد بحسابٍ لسواي.

ـ مكتب التطوّع؟

وتبادل الجنديّان نظرة، فأحسّ بوريس بخدّيه يلتهبان، وفكّر: «إنّ صحّتي جيّدة».

ـ البناء في داخل الباحة، الباب الأوّل إلى اليسار.

فسلّم بوريس سلامًا سريعًا بإصبعيه، واجتاز الباحة بقدم ثابتة؛ ولكنّه كان يفكّر: «إنّني أبدو أبله»، وتأثّر لذلك تأثّرًا شاقًّا. وفكّر: «لا بدّ أن يتسلّوا. رجل يأتي من تلقاء نفسه، من غير أن يكون مجبرًا، لا بدّ أن يجدوا ذلك مزاحًا». كان فيليب واقفًا، في وضح النور، وكان ينظر في عينيّ رجل قصير يحمل أوسمة، ذي فكٍّ مربّع، ويفكّر في رسكولنيكوف.

ـ هل أنت المفوّض؟

قال الرجل: ـ أنا سكرتيره.

كان فيليب يتكلّم بصعوبة بسبب شفته المتورّمة، ولكن صوته كان واضحًا. وتقدّم خطوة، وقال بحزم: ـ أنا فراريّ، وأنّي أستعمل هويّة مزوَّرة.

فحدّجه السكرتير بانتباه، وقال بأدب: ـ إجلس.

كانت السيّارة تجري نحو محطّة «غار دوليست». وسألت إيرين:

ـ سوف تتأخّر.

قال ماتيو: ـ لا، ولكنّي سأصل على الوقت تمامًا. (وأضاف على سبيل الإيضاح) كانت لديّ فتاة.

ـ فتاة؟

ـ كانت قادمة من لاون لتراني.

ـ هل تحبّك؟

ـ كلّا.

ـ وأنت، هل تحبّها؟

ـ لا: وإنّما أعطيتها بيتي.

ـ هل هي فتاة جيّدة؟

ـ قال ماتيو: ـ ليست هي فتاة جيّدة، ولكنّها ليست سيِّئة كذلك.

وصمتا. وكانت السيّارة تجتاز سوق «الهال». وقالت إيرين فجأة:

ـ هنا، هنا، كان الأمر هنا.

ـ نعم.

ـ كان ذلك أمس، يا إلٰهي، إنّه بعيد...

وارتمت في جوف السيّارة لتنظر عبر الزجاج، وقالت وهي تستوي في مقعدها: ـ انتهى.

فلم يُجب ماتيو. كان يفكِّر في نانسي: إنّه لم يزرها من قبل قطّ. وقالت إيرين: ـ إنّك لا تتحدّث كثيرًا، ولكنّي لا أضجر معك.

فقال في ضحكة مقتضبة: ـ لقد تحدّثت في الماضي أكثر ممّا ينبغي.

والتفت إليها:

ـ ماذا ستعملين اليوم؟

قالت إيرين: ـ لا شيء. فأنا لا أعمل قطّ شيئًا: إنّ صاحبي ينفق عليّ.

وتوقّف التاكسي، فترجّلا، ودفع ماتيو. قالت إيرين:

ـ إنّني لا أحبّ المحطّات. فهي توحي بالشؤم.

ودسّت يدها فجأة تحت ذراعه. وكانت تمشي بجانبه، صامتةً أليفة: وكان يُخيّل إليه أنّه كان يعرفها منذ عشر سنين.

ـ يجب أن أقطع تذكرتي.

واخترقا الجمع. وكان جمعًا مدنيًّا، بطيئًا صامتًا، مع بعض الجنود:

ـ هل تعرف نانسي؟

قال ماتيو: ـ لا.

ـ أنا أعرفها. قل لي، إلى أين أنت ذاهب؟

ـ إلى ثكنة طيران «إيسي لينانسي».

قالت: ـ أعرفها. أعرفها.

وكان ثمّة رجال يحملون القرب، ويصطفّون أمام نافذة التذاكر.

ـ أتريد أن أذهب فآتيك بجريدة بينما أنت تنتظر في الصفّ؟

قال لها وهو يضغط ذراعها: ـ لا، إبقي بالقرب منّي.

وابتسمت له بهيئة سرور. وتقدّما، خطوة خطوة.

ـ إيسي لينانسي.

ومدّ دفتره العسكري، فأعطاه الموظّف تذكرة. واستدار إليها:

ـ إصحبيني حتى الباب الصغير. ولكنّي أفضّل ألّا تأتي إلى رصيف المحطّة.

وتقدّما بضع خطوات، وتوقّفا. قالت: ـ إذن، وداعًا.

قال ماتيو: ـ وداعًا.

ـ إنّ ذلك لم يدم إلّا ليلة.

ـ ليلة. أجل، ولكنّك ستكونين ذكراي الوحيدة في باريس.

وقبّلها. فسألته:

ـ هل ستكتب لي؟

قال ماتيو: ـ لا أدري.

ونظر إليها برهة من غير أن يتكلّم، ثم ابتعد. قالت له:

ـ هيه!

فالتفت. كانت تبتسم، ولكنّ شفتيها كانتا ترتعشان قليلاً:

ـ ولكنّي لا أعرف حتى اسمك.

ـ اسمي ماتيو دولارو.

ـ ادخلي.

كان جالسًا في سريره، وهو في منامته، مسرّحًا جيّدًا على مألوف عادته، جميلاً على مألوف عادته، وتساءلت عمّا إذا كان لا يضع على رأسه شبكة الليل. وكان ينبعث من غرفته عطر الكولونيا. ونظر إليها بهيئة مذعورة، وتناول على عجل نظّارتيه من على طاولة الليل فوضعهما على أنفه:

ـ إيفيش!

فقالت في طيبة: ـ أي نعم.

وجلست على طرف السرير وابتسمت له. وكان قطار نانسي يغادر محطّة «غار دوليست»، وفي برلين، ربّما كانت القاذفات قد طارت. «أريد أن أتسلّى! أريد أن أتسلّى!»، ونظرت فيما حولها: كانت غرفة فندق، قبيحة وفخمة. ستخترق القنبلة سقف السادس وأرضه: وهنا سوف أموت. وقال في رصانة:

ـ لم أكن أعتقد أنّي سأراك ثانية.

ـ لماذا؟ لأنّك تصرّفت كما يتصرّف القذِر!

ـ كنّا قد شربنا.

ـ كنتُ قد شربت، لأنّي علمت أنّي قد سقطت في شهادة الفيزياء والكيمياء وعلم النبات. أمّا أنت، فلم تكن قد شربت: كنت تريد أن تأخذني إلى غرفتك؛ كنت تترصّدني.

وكان شاردًا ضائعًا تمامًا. وقالت:

ـ حسنًا، هأنذي في غرفتك. فماذا تريد؟

فأصبح لونه قرمزيًا:

ـ إيفيش!

وضحكت في وجهه:

ـ إنّ هيئتك لا تبدو مخيفة جدًّا.

وساد صمت طويل، ثم لامست قامتها يدٌ مرتبكةٌ. كانت القاذفات قد عبرت الحدود. كانت تضحك حتى الدموع: مهما يكن من أمر، فلن أموت وأنا عذراء.

ـ هذا المكان شاغر؟

فقال العجوز الضخم: هون!

ووضع ماتيو قُربته في الشبكة وجلس، وكانت الحافلة ملأى؛ وحاول أن ينظر إلى رفاقه في السفر، ولكنّ الجوّ كان ما يزال معتمًا. وظلّ جامدًا لِلحظة، ثم حدثت هزّة مفاجئة وانطلق القطار. وانتفض ماتيو انتفاضة فرح، لقد انتهى الأمر. فغدًا، نانسي، الحرب، الخوف، وربّما الموت، الحرّيّة. وقال: سنرى، سنرى. ووضع يده على جيبه ليأخذ غليونه، فاندعك ظرف تحت أصابعه. كانت رسالة دانيال. وكانت به رغبة لإعادتها إلى جيبه، ولكن نوعًا من الحشمة منعه من ذلك: كان ينبغي على أيّ حال قراءتها. وحشا غليونه، وأشعله، وفضّ الظرف فأخرج منها سبع أوراق تغطّيها كتابة مستوية ملتصقة، من غير شطب، وفكّر في ضجر: «لقد كتب مسوّدة. ما أطولها!» ومن حسن الحظّ أنّ القطار كان قد خرج من المحطّة، بحيث كانت الرؤية أوضح. وقرأ:

«عزيزي ماتيو.

«إنّني أتصوّر ذهولك أكثر ممّا ينبغي، بحيث لا يمكنني إلّا أن أشعر شعورًا عميقًا بمجيء هذه الرسالة بغير أوانها. والحقّ أنّني لا أدري أنا نفسي تمامًا لماذا أتوجّه إليك: يجب أن تفترض أنّ طريق المسارّاة، هي كالجريمة، منحدر زلق. وحين كشفت لك، في حزيران الماضي، مظهرًا بارزًا من مظاهر طبيعتي، فربّما جعلت منك، على غير علم منّي، شاهدًا ممتازًا. وسأكون من ذلك على أسف، لأنّي إذا كان صحيحًا أنّه كان عليّ

أن أطبع بخاتمك جميع أحداث حياتي، كنت مجبرًا على أن أكنّ لك كراهية فعّالة، ممّا سيجعل الأمر متعبًا لي، وضارًّا لك. إنّك تفكّر جيّدًا بأنّي أكتب هذا وأنا أضحك. فمنذ بضعة أيّام، أعرف خفّة رصاصيّة ـ إذا كان هذا النعت لا يخيفك ـ وقد أعطاني «الضحك» نعمة إضافيّة. ولكن لندع ذلك، ما دام الذي سأرسمه لك ليس هو العادي من حياتي، وإنّما هو مغامرة عجيبة. وهي لن تبدو لي واقعيّة تمامًا من غير شكّ إلّا إذا وُجدت أيضًا بالنسبة لآخرين. وليس مردّ ذلك إلى أنّني أعوِّل كثيرًا على إيمانك، حتى ولا ربّما على حسن ظنِّك. فإنّ العقلانيّة التي هي حرفتك منذ أكثر من عشرة أعوام هي مورد رزقك، إذا طلبت منك أن تضعها جانبًا لفترة من الزمن لكي تتبعني، فإنّي أشكّ بأن توافق على التخلّي عنها. ولكن من أجل هذا، ربّما اخترت أن أنقل هذه التجربة الغريبة إلى واحد من أصدقائي هو أقلّهم استعدادًا لسماعها؛ ربّما وجدت في ذلك حجّة مضادّة. ولست أقصد أن أطلب منك جوابًا: فإنّه يسوؤني أن تعتقد أنّك مجبر على أن تكتب لي هذه النصائح بالعودة إلى العقل التي لم أَنِ أوجّهها لنفسي بصوت مرتفع ـ وأرجو أن تشرِّفني بتصديق ذلك. بل ينبغي أن أعترف لك: إنّما يهبط عليّ مَنُّ الضحك حين أفكِّر غالبًا بالعقل السليم والعلوم الوضعيّة. والحقّ أنّي أعتقد بأنّ مارسيل ستكون مغمومة، إذا وجدت في بريدي رسالة منك. فهي ستظنّ أنّها تكتشف مراسلة سرِّيّة، وربّما تصوّرت، وهي تعرفك كما عرفتك، أنّك تضع نفسك ببذلٍ في خدمتي، لتقود خطواتي الأولى في حياتي الزوجيّة. ولكن اسمع لماذا يمكن لصمتك أن يخدمني كحجّة مضادّة: إذا كان بإمكاني أن أتصوّر «بسمتك الكريهة» من غير أن أضطّرب، وأن أتخيّل السخرية الخفيّة التي ستواجه بها «حالتي» من غير أن أترك الدرب الاستثنائي الذي اخترته، فسأربح اليقين بأنّي في الطريق المستقيم. وأضيف، تفاديًا لكلّ سوء تفاهم، وشاكرًا عالِم النفس الدقيق لمساعيه الحميدة، إنّي هذه المرّة إنّما أتوجّه للفيلسوف، لأنّ من المناسب أن

أموضع الحكاية التي أرسلها لك على الصعيد الميتافيزيقي. سوف تحكم بلا شكّ أنّ هذا من قبيل الادّعاء المغرور، لأنّي لم أقرأ هيغل ولا شوبنهاور، ولكن لا تستأ من ذلك: فإنّي لن أكون قادرًا بالتأكيد على أن أثبت بالتصوّرات الذهنيّة الحركات الحاليّة لفكري، وأدع لك أمر العناية بذلك، ما دامت هذه مهنتك، وسأكتفي بأن أعيش بالتلمُّس ما تتصوّرونه أنتم المتبصِّرين. غير أنّي لا أظنّ أنّك تستسلم بهذه السهولة: فهذا الضحك، وهذه الألوان من الضيق والقلق والحدس الخفيّ، من الأرجح مع الأسف أن تجد نفسك مضطرًّا إلى تصنيفها بين «الحالات» البسيكولوجيّة، وأن تفسّرها على ضوء شخصيّتي وأخلاقي، مستغلًّا الأسرار التي تركت نفسي أفضي بها إليك. إنّ هذا لا يعنيني: فما قيل يبقى مقولاً، فأنت إذن حرّ في أن تستخدمه على هواك، حتى ولو كان من أجل أن ترتكب بحقّي أخطاء هائلة. بل إنّي أصارحك بأنّي مستعدّ بكلّ سرور أن أعطيك جميع المعلومات الضروريّة من أجل إعادة تشكيل الحقيقة، فيما أنا مدرك أنّك ستستعملها لتستغرق عن تصميم في خطأك.

«لنأت إلى الوقائع. إنّ الضحك هنا يسقط القلم من يدي. دموع من فرط الضحك! إنّ ما لا أباشره إلّا وأنا أرتجف، ما لم أحدِّث به نفسي قطّ، بدافع من حشمة واحترام، سوف أصرفه في كلمات عامّة، وهذه الكلمات إنّما أوجِّهها لك أنت، فهي باقية على هذه الأوراق الزرقاء، وسيكون بوسعك أن تعيد قراءتها أيضًا بعد عشرة أعوام التماسًا للمرح. ويُخيّل إليّ أنّي أرتكب خطأ تدنيس ضدّ نفسي، وهذا أشدّ ما لا يُغتفر، ولكنّي تنبّأت بذلك أيضًا، وأنّي أعطيك إيّاه كما أعطيك الباقي: إنّ التدنيس يُضحك. وأشدّ ما أحبّه لن يكون عزيزًا عليّ تمامًا إذا لم أضحك منه مرّة على الأقلّ. حسنًا، سوف أجعلك تضحك من معتقدي الجديد؛ فأنا أحمل في نفسي يقينًا ذليلاً سيتجاوزك بكلّ امتداده، وسيكون مع ذلك بين يديك بكلّيّته، إنّ ما يسحقني هنا سيكون مصغّرًا هناك بمقدار فظاظتك.

اعلم إذن، إذا سُررت بقراءة هذه الرسالة، أنّي قد سبقتك: إنّني أضحك، يا ماتيو، أضحك، إنّ الربّ يصبح إنسانًا متجاوزًا جميعًا الناس، ومستَهْزأ به من الجميع، معلّقًا على الصليب، فاغر الفم، مخضرًّا، أشدّ بُكمًا من شبّوطٍ تحت السخريات، فأيّ شيء أجدر بالضحك؟ هيّا، هيّا، فمهما فعلت، فإنّ أعذب دمعات الضحك لن تسيل على خدّيك.

«لنرَ إذن ما يمكن للكلام أن يفعله. أتراك ستفهمني أوّلاً إذا قلت لك إنّي لم أعرف قطّ ما أنا؟ إنّ أنفي فوق عيوبي وفوق فضائلي، فلا أستطيع أن أراها، ولا أن آخذ قدرًا من التراجع كافيًا ليجعلني أتأمّل نفسي كمجموع. ثم إنّي أحسّ بأنّي مادّة متحرِّكة تدوِّم فيها الكلمات، وما كدت أجرّب أن أسمّي نفسي حتى. كان الذي سُمِّي قد اختلط بالذي يُسمّي، وعاد كلّ شيء من جديد موضع جدال. لقد تمنّيت غالبًا أن أكره نفسي، وأنت تعلم أنّه كان لديّ أسباب وجيهة لذلك. ولكن كنت ما أكاد أجرِّب هذه الكراهية على نفسي حتى تغرق في ميْعي، فلا تكون بعد إلّا ذكرى. ولم يكن باستطاعتي كذلك أن أحبّ نفسي ـ وأنا على يقين من هذا، بالرّغم من أنّي لم أجرِّبه قطّ. ولكن كان ينبغي أبدًا أن أكون أنا نفسي، كنت عبئي بالذات. ولم يكن عبئًا ثقيلاً بما فيه الكفاية، يا ماتيو، لم يكن قطّ كذلك. وقد حسبتني ذات لحظة، في هذا المساء من حزيران الذي راق لي فيه أن أعترف لك، حسبتني ألمس نفسي في عينيك المرعوبتين. كنت تراني، وفي عينيك كنت صلبًا قابلاً للتوقّع، ولم تكن أعمالي ولا حالاتي النفسيّة إلّا نتائج جوهر ثابت. وهذا الجوهر إنّما عرفته أنت بواسطتي، وقد وصفته لك بكلماتي، وكنت قد كشفت لك عن وقائع كنت تجهلها وهي التي أتاحت لك أن تتعرّف عليه. ومع ذلك، فأنت الذي كنت ترى هذا الجوهر، وكلّ ما هو شأني أنّي كنت أراك تراه. وذات لحظة، كنتَ الوسيط بيني وبين نفسي، أثمن وسيط في الدنيا في نظري، ما دام هذا الكائن الصلب الكثيف الذي كنته، والذي كنت أريد أن أكونه، إنّما كنت

تدركه بمثل البساطة والمشاركة اللتين أدركك بهما، لأنّني، في آخر المطاف، موجود، فأنا كائن حتى ولو لم أحسِّني موجودًا، وأنّه لتعذيب نادر أن يجد المرء في ذاته مثل هذا اليقين من غير أدنى أساس، ومثل هذا الفخر من غير مادّة. ولقد فهمت آنذاك أنّ المرء لا يستطيع أن يبلغ ذاته إلّا بحكم من الآخر. بحقدٍ من الآخر. وربّما بحبٍّ من الآخر، ولكن ليست القضيّة هنا هي هذه. فلقد أكننت لك من هذا الاكتشاف عرفانًا معتدلاً. ولست أدري ما هو الاسم الذي تطلقه اليوم على علاقاتنا، فليست هي الصداقة، ولا الحقد تمامًا. لنقل إنّ بيننا جثّة. جثّتي.

«كنت ما أزال في هذه الأوضاع النفسيّة حين سافرت إلى «سوفتير» مع مارسيل. كنت تارة أريد أن ألحق بك، وتارة أحلم بأن أقتلك. ولكنّي ذات يوم جميل خطرت بذهني صفة التبادل في علاقاتنا. فماذا عساك كنت تكون بدوني، إلّا هذا النوع من الميْع الذي هو أنا بالنسبة لي بالذات؟ فإنّما بتدخّلي تستطيع أن تحزر نفسك أحيانًا كما أنت ـ في شيء من الغيظ ـ: عقلانيّ قصير النظر قليلاً، مطمئنّ جدًّا في الظاهر، أمّا في الحقيقة فغير واثق أبدًا، ممتلئ بالرضى عن كلّ ما هو بطبيعته متّصل بعقلك، أعمى وكاذب في كلّ ما دون ذلك. إنّك محاكِم بدافع الحذر، عاطفي بالتذوّق، ضعيف الحسّ الشهواني، وبالإجمال مثقّف متّزن، معتدل، ثمرة عذبة لطبقاتنا الوسطى. وإذا كان صحيحًا أنّي لا أستطيع أن أبلغ نفسي إلّا بواسطتك، فإنّ وساطتي ضروريّة لك إذا أردت أن تعرف نفسك. لقد رأيتنا آنذاك ندعم عدميْنا بالآخر، وللمرّة الأولى ضحكت تلك الضحكة العميقة الطافحة التي تحرق كلّ شيء، ثم سقطت ثانية في نوع من اللّامبالاة أسود، لا سيّما وأنّ التضحية التي قمت بها في شهر حزيران ذاك، والتي كانت تبدو لي ساعتئذٍ بمثابة تكفير مؤلم، قد تكشّفت على مدى الزمن قابلة للاحتمال بصورة فظيعة. ولكن ينبغي هنا أن أصمت: فأنا لا أستطيع أن أتحدَّث عن مارسيل من غير أن أضحك، وأنا لا أريد أن أهزأ بها معك،

وذلك بدافع من الاحتشام لا بدّ من أن تقدِّره. في تلك الفترة وقع لي الحظّ الذي هو أوفر الحظوظ جنونًا وعدم احتمال. إنّ الله يراني يا ماتيو، وأنا أحسّه وأعرفه. هأنذا قد قلت كلّ شيء دفعة واحدة، فأودّ لو أكون بالقرب منك وأستمدّ يقينًا أقوى، إذا أمكن ذلك، من مشهد الضحك الكثيف الذي سيهزّك لفترة طويلة.

«والآن، حسبي ذلك. لقد ضحك أحدنا من الآخر بما فيه الكفاية، وإنّي أستأنف حكايتي. لا شكّ في أنّك عانيت، وأنت في المترو، أو في باحة مسرح، أو في قاطرة، إحساسًا مفاجئًا وغير مُحتمل بأنّ ثمّة خلفك من يترصّدك. وتلتفت، ولكنّ الفضولي يكون قد غطس أنفه في كتابه، فلا تستطيع أن تتوصّل إلى معرفة من ذا الذي كان يراقبك. وتعود إلى وضعك الأوّل، ولكن تعلم أنّ المجهول يكون قد رفع عينيه ثانية، وتحسّه عبر تنمُّل خفيف في ظهرك، شبيه بانقباض عنيف وسريع لجميع أنسجتك. أجل هذا هو الذي شعرت به للمرّة الأولى يوم ٢٦ أيلول، في الساعة الثالثة بعد الظهر، في باحة الفندق. ولم يكن ثمّة أحد، أتسمع يا ماتيو، لم يكن ثمّة أحد. ولكنّ النَّظر كان هناك. افهمني جيّدًا: إنّني لم ألتقطه، كما نلتقط وجهًا جانبيًّا، أو جبينًا أو عينين، لأنّ ميزته الذاتيّة هي عدم قابليّته للالتقاط. كلّ ما هنالك أنّي انقبضت، وتراكمت، فكنت في وقت واحد مخروقًا وكثيفًا، كنت موجودًا في حضور نظر. ومنذ ذلك الحين، لم أكفّ عن أن أكون أمام شاهد. أمام شاهد، حتى في غرفتي المغلقة، وأحيانًا، كان الإحساس بأنّ هذا النصل يخترقني، وبأنّي أنام أمام شاهد، يوقظني منتفضًا. وبالاختصار، فقدت النوم تمامًا. آه! يا ماتيو، أيّ اكتشاف: كان ثمّة من يراني، وكنت أضطَّرب لأعرف نفسي، وكنت أحسبني أنسال من جميع الأطراف، وكنت أطالب بوساطتك الحفيّة، وفي هذه الأثناء، كان ثمّة من يراني، وكان النظر هنا، غير معتكر، فولاذًا لا يُرى. وأنت أيضًا، أيّها الضاحك الجاحد، إنّك تُرى. ولكنّك لا تعرف ذلك. سيكون يسيرًا عليّ أن

أقول لك ما هو النظر: لأنّه لا شيء. إنّه غيبة، خذ مثلاً: تصوّر ليلاً شديد الظلام. إنّ الليل هو الذي ينظر إليك، ولكنّه ليل باهر، الليل في وضح النور، الليل السرّيّ للنهار. إنّني أقطر نورًا أسود، وهو يسيل على يديّ وعينيّ، وفي قلبي، ولا أراه. صدّقني إنّ هذا الانتهاك الأبديّ كان بادئ ذي بدء كريهًا جدًّا لي: فأنت تعلم أنّ أقدم أحلامي هي أن أكون غير مرئيّ، وقد تمنّيت مئة مرّة ألّا أترك أيّ أثر، لا على الأرض ولا في القلوب، فأيّ ضيق في أن أكتشف فجأة هذا النظر كبؤرة كونيّة لا أستطيع أن أفرّ منها. ولكن أيّة راحة أيضًا، إنّني أعرف أخيرًا أنّي موجود. إنّني أحوّل لصالحي، وعلى غيظ شديد منك، كلمة نبيّك البليدة المجرمة، عبارة «أنا أفكّر فأنا موجود» التي عذّبتني طويلاً ـ لأنّي كلّما أمعنت في التفكير، ضعف إحساسي بوجودي ـ وأقول: إنّني أرى، فأنا موجود. إنّه ليس لي بعد أن أتحمّل مسؤوليّة انسيالي الدبق: الذي يراني ويوجدني، إنّني كما يراني. وأدير نحو الليل وجهي المظلم الخالد، وأنتصب كتحدٍّ، وأقول لله: هأنذا. هأنذا كما تراني، كما أنا. فماذا أستطيع: إنّك تعرفني وأنا لا أعرف نفسي. فماذا عساني أفعل إلّا أن أحتمل نفسي؟ وأنت. يا من يلاحقني نظرك أبدًا. احتملني. أيّ فرحة، يا ماتيو، وأيّ عذاب! لقد تغيّرت أخيرًا فأصبحت نفسي. يكرهونني، يحتقرونني، يحتملونني، ولكنّ حضورًا يدعمني في أن أكون ما أنا إلى الأبد. إنّني لامحدود وأنا مذنب إلى ما لا حدّ، ولكنّني موجود، يا ماتيو، موجود أمام الله، وأمام الناس موجود.

«لقد ذهبت أرى كاهن «سوفتير». إنّه فلّاح مثقّف داهية، ذو وجه متحرّك، متعب، يشبه وجوه الممثّلين المسنّين. وهو لا يعجبني قطّ، ولكن لم يكن مزعجًا لي أن يتمّ اتّصالي الأوّل بالكنيسة عن طريقه. وقد استقبلني في مكتب مزيّن بمجموعة من الكتب لم يقرأها كلّها بالتأكيد. وقد أعطيته أوّلاً ألف فرنك برسم فقرائه، ورأيت أنّه يعتبرني مجرمًا تائبًا. وشعرت أنّي أكاد أضحك، فكان عليّ أن أواجه كلّ ما كان في وضعي من طابع

مأساوي حتى أحتفظ برصانتي.

«وقلت له: سيِّدي الكاهن، إنّني لا أتمنّى إلّا معرفة شيء واحد: هل يعلِّم دينكم أنّ الله يرانا؟».

«فأجابني مندهشًا: إنّه يرانا. ويقرأ في قلوبنا».

«فسألته: ولكن ماذا يرى فيها؟ هل يرى هذه الرغوة، وهذا الزبد الذي منه تُصنع أفكاري اليوميّة، أم أنّ نظره يدرك جوهرنا الأبدي؟».

«فقدّم لي الخبيث العجوز هذا الجواب الذي وجدت فيه حكمة سرمديّة:

«يا سيِّدي، إنّ الله يرى كلّ شيء».

«ففهمت أنّ. . .».

ودعك ماتيو الأوراق وقد نفد صبره. وفكّر: «يا لها من أفكار مبتذلة!» وكان الزجاج قد أُخفض، فلفّ الرسالة في كتلة وقذف بها من النافذة من غير أن يمضي في القراءة.

قال المفوّض: ـ لا، لا، خذ الجهاز: فأنا لا أحبّ أن أتحدّث إلى هؤلاء الضبّاط العالين، فهم يتّخذونك خادمًا لهم.

فقال السكرتير: ـ أظنّ أنّ هذا سيكون أوفر لطفًا. ثم إنّنا في نهاية الأمر نُعيد له ابنه، وهو بالإجمال على خطأ: فما كان عليه إلّا أن يحسن مراقبته. . .

قال المفوّض: ـ سترى، سترى، فسيتدبّر أمره ليكون مزعجًا. ولاسيّما في الظروف الحاليّة: ففي عشيّة حرب، تستطيع دائمًا أن تحاول حمل جنرال على الاعتراف بخطأه.

وتناول السكرتير التلفون وطلب الرقم. وأشعل المفوَّض سيكارة، وقال: ـ كن لبقًا يا ميران. لا تتخلّ عن اللهجة المهنيّة، ولا تتكلّم أكثر ممّا ينبغي.

قال السكرتير: ـ آلو؟ آلو؟ الجنرال لاكاز؟

فقال صوت خشن: ـ نعم. ماذا تريد منّي؟

ـ إنّني سكرتير مفوّضيّة شرطة شارع دولامبر.

فبدأ الصوت ينمّ عن اهتمام أكثر:

ـ نعم، ماذا تريد؟

فقال السكرتير بصوت محايد مائع: ـ حضر شابّ إلى مكتبي في الساعة الثامنة من هذا الصباح. وهو يدّعي أنّه فراري وحامل هويّة مزوَّرة. والواقع أنّنا وجدنا معه جوازًا إسبانيًّا مزوَّرًا. وقد رفض أن يعترف بهويّته الحقيقيّة، ولكنّ المحافظة قد أعطتنا صورًا لابن زوجتك فعرفناه على الفور.

وساد صمت، ثم أضاف السكرتير بلهجة حائرة:

ـ بالطبع، ليس هناك، يا جنرالي، أيّ دليل إدانة ضدّه. هو ليس فراريًّا ما دام لم يُدْعَ لخدمة العلم، صحيح أنّه يحمل جوازًا مزوَّرًا، ولكن هذا لا يشكِّل جنحة، لأنّه لم يتح له أن يستعمله. وقد احتفظنا به ليكون تحت تصرّفك، ويمكنك أن تأتي لاصطحابه متى شئت.

وسأل الصوت الجافّ:

ـ وهل ضربتموه؟

فانتفض السكرتير، فسأله المفوَّض:

ـ ماذا يقول؟

فغطّى السكرتير الجهاز بيده:

ـ يسأل عمّا إذا كنّا قد ضربناه.

فرفع المفوَّض ذراعيه إلى السماء، بينما كان السكرتير يجيب:

ـ لا، يا جنرالي، بالطبع، لا.

قال الجنرال: ـ شيء مؤسف.

فسمح السكرتير لنفسه بضحكة مهذّبة. وسأل المفوّض:

ـ ماذا يقول؟

ولكنّ السكرتير أولاه ظهره نافد الصبر، وانحنى على الآلة:

ـ سآتي هذا المساء أو غدًا. فحتى ذلك الحين، احتفظوا به في المركز. وسيكون ذلك درسًا له.

ـ حسنًا، يا جنرالي.

وعلّق الجنرال السمّاعة. فسأل المفوّض:

ـ ماذا كان يقول؟

ـ كان يريد أن نضرب الفتى.

وسحق المفوّض سيكارته في المنفضة، وقال في سخرية:

ـ أعتقد ذلك!

الساعة ١٨,٣٠. الشمس على البحر، وهي لا تكفّ عن الهبوط، ولا تكفّ الدبابير عن الطنين، ولا الحرب عن الاقتراب، وطردت دبّورًا لم يكن ليكفّ، وكان جاك خلفها لا يكفّ عن شرب كأسه من الويسكي جرعات صغيرة، وفكّرت: «إنّ الحياة لا تنتهي». كان الأب والأمّ والأخوة والأعمام والعمّات، قد اجتمعوا طوال خمس عشرة سنة متتالية، في هذا الصالون، في أصائل أيلول الجميلة، قساةً بُكمًا كصور أُسرة، كانت قد انتظرت العشاء كلّ مساء، أوّلاً تحت الطاولات، ثم فوق كرسيّ صغيرة، وهي تخيّط وتتساءل ما جدوى الحياة. لقد كنّ جميعًا هنا، بعد ظهر كلّ يوم ضائع، في الذهب الأحمر لهذه الساعة اللّامجدية. كان الأب هنا، خلفها، يقرأ «التان». ما جدوى العيش؟ ما جدوى العيش؟ وكانت ذبابة تتسلّق في ارتباكٍ على الزجاج، فتتدحرج ثم تصعد من جديد، وكانت أوديت تتابعها بعينيها، وبها رغبة في البكاء.

قال جاك: ـ تعالي اجلسي، سوف يخطب دلادييه.

والتفتت إليه. كان قد أرق في نومه، وكان جالسًا في الأريكة الجلديّة، وهو في تلك الهيئة الطفوليّة التي كان يأخذها حين يكون خائفًا. وجلست على ذراع الأريكة. ستكون جميع الأيّام متشابهة. جميع الأيّام. ونظرت إلى الخارج، وفكّرت: «كان على حقّ، فقد تغيّر البحر».

ـ ما الذي سيقوله؟

فهزّ جاك كتفيه، وقال:

ـ سيخبرنا أنّ الحرب قد أُعلنت.

واهتزّت اهتزازة صغيرة، لا غير. خمس عشرة ليلة. طوال خمس عشرة ليلة قلق كانت قد ابتهلت في الفراغ، كانت مستعدّة لأن تعطي كلّ شيء، بيتها، صحّتها، عشرة أعوام من حياتها لتنقذ السلام. ولكن لتنفجر، يا إلٰهي! لتنفجر الحرب الآن. ليحدث أخيرًا شيء ما: ليدقّ جرس العشاء، لتسقط الصاعقة على البحر، وليعلن صوت معتم: لقد دخل الألمان إلى تشيكوسلوفاكيا. ذبابة. ذبابة غارقة في قعر فنجان، ستتداعى للغرق في هذا الأصيل الهادئ ذي الكارثة، وكانت تنظر إلى شعر زوجها الذي وخطه الشيب، ولم تكن تفهم بعد جيّدًا لماذا كان الأمر يستحقّ وقاية الناس من الموت وبيوتهم من الدمار. ووضع جاك قدحه على الطاولة، وقال بحزن:

ـ إنّها النهاية.

ـ نهاية ماذا؟

ـ نهاية كلّ شيء. إنّني لا أعلم بعد ما الذي ينبغي أن نتمنّاه من النصر أو الهزيمة.

قالت باسترخاء: ـ أوه!

ـ إذا هُزمنا، فسوف «يجرّموننا»، ولكنّني أقسم لك أنّ الألمان سيعرفون كيف يفرضون النظام، ولن يبقى على الشيوعيين واليهود والماسونيين إلّا أن يحزموا حقائبهم. أمّا إذا انتصرنا، فسوف يبلشفوننا،

وسيكون ذلك انتصار الفوضى، وربّما أسوأ (وأضاف بلهجة شاكية) آه! يجب ألّا تُعلن هذه الحرب، يجب ألّا تُعلن!

ولم تكن تسمع كثيرًا ما كان يقوله لها. كانت تفكّر: «إنّه خائف، وهو شرِّير، وهو وحيد». وانحنت فوقه وداعبت شعره. «يا لصغيري المسكين جاك!».

ـ عزيزي الصغير بوريس.

كانت تبتسم له، وكانت تبدو صادقة، وأحسّ بوريس أنّ الندم يخترق قلبه، يجب على أيّ حال أن أخبرها بالأمر. واستطردت لولا:

ـ إنّني ثائرة الأعصاب، وهذا مزعج. وأنا راغبة في معرفة ما سوف يرويه لنا، ولكن ذلك ليس كما لو أنّك ذاهبٌ على الفور.

ونظر بوريس إلى قدميه وأخذ يصفِّر. كان الأفضل التظاهر بأنّه لم يسمع، وإلّا لاتّهمته بالنفاق، بالإضافة إلى كلّ شيء. وكان الوضع يزداد صعوبة بين دقيقة وأخرى. سوف تتّخذ هيئتها المسكينة الشاردة، وستقول له: «لقد فعلت هذا! فعلت هذا ولم تقل لي كلمة عنه؟» (وانتهى إلى القول) إنّني لا أراني مرتاحًا.

قالت لولا: ـ أعطني قدح مارتيني. وأنت، ماذا تأخذ؟

ـ الشيء نفسه.

وعاد يصفِّر. ربّما أُتيحت هناك فرصة، بعد خطاب دلادييه: ستعلم أنّ الحرب قد أُعلنت، وسوف يدوِّخها ذلك قليلاً دون ريب: وإذ ذاك يهجم بوريس، فيقول لها: «لقد تطوّعت!» من غير أن يدع لها مجال استعادة نَفَسها. كانت ثمّة حالات تحدث فيها المصيبة البالغة إرجاعات غير منتظرة: كالضحك مثلاً، سيكون الأمر طريفًا إذا أخذت تضحك. وقال في تجرّد: «سيكون مع ذلك منزعجًا بعض الشيء». وكان جميع زبائن الفندق قد تجمّعوا في الباحة، بمن فيهم الكاهنان. وكانوا غارقين في

أرائكهم يتّخذون هيئات راضية، لأنّهم كانوا يحسّون أنفسهم مراقَبين، ولكنّهم لم يكونوا يمضون طويلاً في ذلك، وقد فاجأ بوريس أكثر من واحد منهم ينظر خفية إلى الساعة. حسنًا! حسنًا! إنّ عليكم أن تنتظروا نصف ساعة أخرى. كان بوريس مستاءً، إنّه لم يكن يحبّ دلادييه، وكان ينفِّره أن يفكِّر بأنّه كان في جميع أنحاء فرنسا مئات الألوف من الأزواج، ومن الأُسر الكثيرة العدد ومن الكهنة، وهم على استعداد لتلقّي كلام هذا الرجل ـ الذي نسف «الجبهة الشعبيّة» ـ على أنّه منٌّ مِنَ السماء، وفكّر: «إنّ ذلك يمنحه أهمِّيّة لا يستحقّها». والتفت إلى جهاز الراديو، وتثاءب علانيّة.

كان الجوّ حارًّا ويدعو إلى العطش، وكان ثمّة ثلاثة ينامون: الاثنان القريبان من الممرّ، والعجوز القصير الذي يبدو وكأنّه يصلّي وهو مضموم اليدين. وكان الأربعة الآخرون قد بسطوا منديلاً على ركبهم يلعبون الورق. كانوا في سنِّ الشباب، ولم يكونوا بشعين أكثر ممّا ينبغي، وقد علّقوا بالشبّاك ستراتهم التي كانت تتأرجح خلف رقابهم وتناثر شعرهم عند مرورها. وبين فترة وفترة، كان ماتيو ينظر من زاوية عينه إلى ساعديّ جاره الأسمرين المجعّدين، وهو قصير أشقر، كانت يداه بأظافرهما العريضة السوداء تتلاعبان بالورق في مهارة. كان عامل مطبعة. أمّا الشخص الذي كان إلى جانبه، فهو صانع أقفال. وأمّا الآخران الجالسان قبالته، فقد كان أحدهما، وهو الأقرب إلى ماتيو، وكيل شركة، وكان الآخر عازف كمان في مقهى في «بوراكولومب». وكانت تنبعث من الحافلة رائحة الرجال والتبغ والخمر، والعرق يسيل على وجوههم القاسية، فيصغِّرها ويجعلها تلتمع. وكان هذا العرق، على ذقن العجوز القصير المترنِّح، بين عروق خدّيه الصلبة البيضاء، يبدو أوفر زيتًا وحموضةً: إفرازًا من الوجه. وكان فيما وراء النافذة، سهل رماديّ منبسط يتمطّى تحت شمس غائمة.

ولم يكن عامل المطبعة محظوظًا، كان يخسر، وكان ينحني فوق الورق وهو يقوِّس حاجبيه في هيئة مندهشة مصدومة، ويقول:

ـ آه! عجيب!

ولمّ الوكيل الورق بخفّة وخَلَطه. وكان عامل المطبعة يتبعه بنظره حين كان ينقله من يد إلى أخرى. وقال في حقد: ـ لا حظّ لي!

ولعبوا في صمت. وبعد لحظة، جمع عامل المطبعة كلّ ما كان أمامهم، قائلاً في لهجة انتصار:

ـ «أتو»! آه، سيتغيّر الوضع قليلاً، أيّها الأولاد! وقد تثور أعصابي قليلاً.

ولكنّ الوكيل بسط أوراقه: «أتو، أتو، وراتاتو. لا مشاكل بعد: الملكة الأمّ لا تريد المشاكل».

فدفع عامل المطبعة أوراقه قائلاً:

ـ إنّني لن ألعب بعد: فأنا أخسر أكثر ممّا ينبغي.

قال صانع الأقفال: ـ أنت على حقّ، ثم إنّ المرء ينزعج أكثر ممّا ينبغي.

وطوى الوكيل المنديل ووضعه في جيبه. وكان رجلاً طويلاً سمينًا ذا سحنة ممتقعة، ورأس ضفدعيّ رخو، وفكّين عريضين، وجبين ضيِّق. كان الثلاثة الآخرون يحدِّثونه بلهجة الاحترام، لأنّه كان متعلِّمًا وكان رقيبًا في الجيش. ولكنّه كان هو يحدِّثهم بلا كلفة. وقد ألقى نظرة استياء إلى ماتيو، ونهض وهو يترنّح:

ـ أريد أن أشرب جرعة.

ـ هذه فكرة طيِّبة.

وأخرج صانع الأقفال وعامل المطبعة زجاجات من قربتيهما، فكرع صانع الأقفال من زجاجته كرعًا، ومدّها إلى عازف الكمان:

ـ جرعة خمر؟

ـ ليس الآن.

ـ أنت لا تعرف ما هو جيّد.

وصمتوا، مرهقين بالحرّ. نفخ صانع الأقفال خدّيه وتنهّد على مهل، وأشعل الوكيل سيكارة «هاي لايف». وكان ماتيو يفكّر: «إنّهم لا يحبّونني، فهم يجدونني متكبّرًا». ومع ذلك، فقد أحسّ نفسه مجذوبًا نحوهم، حتى نحو النائمين، وحتى نحو الوكيل: كانوا يتثاءبون، وينامون، ويلعبون الورق، وكان الارتجاج يمايل رؤوسهم الفارغة، ولكن كان لهم قَدَر، كالملوك وكالأموات. قَدَر ساحق كان يمتزج مع الحرّ والتعب وطنين الذباب: كانت الحافلة، المغلقة كالمخنق، والمحاصرة بالشمس والسرعة، تحملهم وهي تترجّح إلى المغامرة نفسها. وكان التماع من ضوء يطرِّز إذن عامل المطبعة القرمزيّة، فكانت شحمتها تشبه حبّة فريز دمويّة. وفكّر ماتيو: «بمثل هذا تُصنع الحروب». وكانت قد بدت له حتى ذلك الحين خليطًا متشابكًا من الفولاذ الملتوي، والأعمدة المحطّمة، والصلب والحجارة. أمّا الآن، فقد كانِ الدم يرتجف في أشعّة الشمس، وكان إشراق أحمر قد غمر القاطرة: إنّ الحرب كانت قَدَرًا من دم، إنّها ستُصنع بدم هؤلاء الرجال الستّة، بالدم الذي كان يأسن في شحمات آذانهم، بالدم الذي كان يجري أزرق تحت جلودهم، بدم شفاههم. إنّهم سوف يُشَقّون كالقِرَبْ، فتثب جميع القذارات إلى الخارج، وأمعاء صانع الأقفال المضحكة، والتي كانت تقرقر وتترك أحيانًا ضرطةً صمّاء، سوف ترتمي في الغبار، فاجعةً كأمعاء حصانٍ بُقِرَ في الحلبة.

قال عامل المطبعة كأنّما يحدِّث نفسه: ـ إنّني سأتمشّى قليلاً لأُزيل خَدَر ساقيّ.

ونظر إليه ماتيو، وهو ينهض ويخرج إلى الممرّ: لقد أصبحت هذه العبارة تاريخيّة منذ تلك اللحظة. فلقد نطق بها ميِّت بصوت منخفض، في يوم صيف، إذ كان حيًّا. ميّت أو ما يؤدّي إلى النتيجة نفسها، حيّ بين الأموات. أموات ـ أموات انتهوا. من أجل هذا، لا أجد ما أقوله لهم.

كان ينظر إليهم في نوع من الدوار، وقد كان يودّ لو يكون منخرطًا في مغامرتهم التاريخيّة الكبيرة، ولكنّه كان منفيًّا عنها. كان يُنتِن في حرارتهم، وسينزف دمًا على الدروب نفسها، وهو مع ذلك لم يكن معهم، إنّه لم يكن إلّا هالةً ممتقعة وخالدة: إنّه لم يكن له قَدَر.

والتفت عامل المطبعة إليهم فجأة، وكان يدخِّن في الممرّ:

ـ هناك طائرات.

ـ آه؟

وانحنى الوكيل. وكان صدره يلامس فخذيه الضخمتين، وكان يرفع رأسه وحاجبيه.

ـ أين ذلك؟

ـ هناك، هناك! خراء!

قال صانع الأقفال: ـ إنّني... آه! ولكن، عجبًا!

وسأل عازف الكمان، وهو يرفع نحو عامل المطبعة عينيه الجميلتين الشاردتين: ـ أهي طائرات فرنسيّة؟

ـ إنّها مرتفعة أكثر ممّا ينبغي، فهي لا تُرى.

قال صانع الأقفال: ـ لا شكّ في أنّها فرنسيّة. ماذا تريدها أن تكون؟ إنّ الحرب لم تُعلن.

ومال عامل المطبعة عليهم، وهو يستند بكلتا يديه على إطار الباب:

ـ ما يدريك؟ لقد انقضت إحدى عشرة ساعة وأنت في القطار. ربّما كنت تظنّ أنّهم ينتظرون وصولك حتى يعلنوها!

فبدا صانع الأقفال مرتبكًا، وقال:

ـ خراء! إنّك على حقّ، أيّها الحصان الصغير! ما رأي الأخوان: ربّما كنّا في حرب منذ الصباح.

والتفتوا إلى الوكيل:

ـ ما رأيك أنت؟ أتظنّ أنت، أنّنا في حرب؟

وكان الوكيل في هيئة مطمئنّة. وقد هزّ كتفيه بروعة، وقال:

ـ ماذا تراكم تتخيّلون؟ إنّهم سيقاتلون من أجل تشيكوسلوڤاكيا؟ هل نظرتم إلى تشيكوسلوڤاكيا على خارطة؟ كلّا، أمّا أنا، فقد نظرت إليها. وأكثر من مرّة. إنّ هذا خراء، وهو كبير كمنديل جيب. ربّما كان هناك مليونا رجل مسكين لا يتكلّمون حتى اللغة نفسها. أتعتقدون أنّ هتلر تهمّه تشيكوسلوڤاكيا فلا يهزأ؟ ودلادييه؟ إنّ دلادييه ليس هو قبل كلّ شيء دلادييه: بل هو المئتا أسرة. والمئتا أسرة تمسح مؤخّراتها بتشيكوسلوڤاكيا.

وأجال نظره في مستمعيه، وانتهى قائلاً:

ـ الحقيقة أنّ الأمر كان يتحرّك عندنا وعندهم منذ عام ٣٦. فماذا فعل أمثال شمبرلن وهتلر ودلادييه؟ لقد قالوا لأنفسهم: سنغلق عليهم، هؤلاء الناس، ووقّعوا معاهدة صغيرة خفيّة. وكانت حيلة هتلر الكبرى هي أن يحشر العمّال تحت العَلَم إذا احتجّوا، وبذلك تُخاط أفواهم. هل تحتجّ؟ إذن ساعتا تمرين. ما تزال تحتجّ؟ خذ ستّ ساعات إذن. وبعد ذلك، يكون الفتية راكعين على ركبهم، ولا يفكّرون بعد إلّا بأن يطيعوا. حسنًا، أمّا باقي الوزراء فقالوا في أنفسهم: سنفعل مثله. فالأمر هو: ليس هناك من حرب، ليس هناك من شيء على الإطلاق، لا شيء، لا من أجل تشيكوسلوڤاكيا ولا من أجل التركي الكبير. غير أنّنا نحن قد جُنِّدنا، وسوف نجرجر أنفسنا ثلاثة أعوام أو أربعة، وفي هذه الأثناء، سوف يحطّمون من الخلف أضلاع البروليتاريا.

كانوا ينظرون إليه نظرة غير يقينيّة، إنّهم لم يكونوا مقتنعين، أو ربّما كانوا لم يفهموا. وقال صانع الأقفال بلهجة مبهمة:

ـ إنّ ما هو مؤكّد هو أنّ الكبار هم الذين يحطّمون الأقداح، وأنّ

الصغار هم الذين يدفعون ثمنها.

وهزّ عازف الكمان رأسه إيماءة الموافقة، ثم سقطوا في الصمت من جديد، وانتقل عامل المطبعة، فألصق جبينه على إحدى مرايا الممرّ الكبرى. وقال ماتيو في نفسه: «طبعًا ليسوا هم متحمّسين جدًّا للقتال». وكان يفكّر برجال الـ ١٤ بأفواههم الفاغرة وبنادقهم المزدهرة. وبعد ذلك؟ إنّ هؤلاء على حقّ. إنّهم يتكلّمون بالأمثال، ولكنّ الكلام يخونهم، ففي رؤوسهم أشياء لا يمكن التعبير عنها بالكلام. لقد قام آباؤهم بمذبحة لامعقولة، وها قد مرّت عشرون عامًا وهناك من يشرح لهم أنّ الحرب لا تفيد. فهل يُراد بهم، بعد هذا، أن يصرخوا: إلى برلين! الواقع أنّ كلّ ما كانوا يقولونه، وكلّ ما كانوا يفكّرون به لا أهمّيّة له: إنّها التماعات صغيرة خفيَّة على هامش قَدَرهم. سوف يُقال عمّا قريب: جنود الـ ٣٨ ـ كما كان يُقال جنود العام ١١، وجنود الـ ١٤. سوف يحفرون حفرهم كالآخرين، لا أحسن ولا أسوأ، ثم ينامون فيها، لأنّ ذلك كان نصيبهم. وفكّر فجأة: وأنت؟ أنت الذي تجعل نفسك شاهدهم، من غير أن يطلب إليك أحد ذلك، من أنت؟ وماذا ستفعل؟ وإذا نجوت من ذلك، فمن عساك تكون؟

ودقّ عامل المطبعة على الزجاج:

ـ إنّها ما تزال هناك.

فسأله عازف الكمان منتفضًا: ـ من هي؟

ـ الطائرات. إنّها تطوف حول القطار.

ـ تطوف؟ أَلست مجنونًا؟

ـ إنّني لا أراها! لا؟

قال صانع الأقفال: ـ عجيب! عجيب!

وكان العجوز القصير قد أفاق، فسأل وهو يكوّر يده على أذنه:

ـ ماذا هناك؟

ـ طائرات.

ـ آه! طائرات!

ابتسم بشرود وعاد إلى النوم. وقال عامل المطبعة:

ـ تعالوا! تعالوا! ربّما كانت ثلاثين طائرة. إنّني لم أر مثل عددها منذ «ڤيلاكوبلي».

وكان صانع الأقفال والوكيل قد نهضا، فتبعهما ماتيو إلى الممرّ. ورأى زهاء عشرين حشرة صغيرة شفّافة، سمكات في ماء السماء. وكانت تبدو وكأنّها توجد بالتقطّع: فقد كانت تمّحي حين لا تكون في الشمس.

ـ وإذا كانت ألمانيّة؟

ـ لا تتحدّث عن المصائب، إذن سنكون في خير، فأنت تتحدّث عن مرمى.

وكان عدد الأشخاص الذين تجمّعوا في الممرّ الآن قد أصبح زهاء عشرين، وأنوفهم في الهواء.

وقال الوكيل:

ـ يبدو لي أنّ الأمر جدّ.

وكان يبدو أنّهم ثائرو الأعصاب. وكان ثمّة شخص يطبّل على الزجاج، وثمّة آخر يضرب بقدمه في إيقاع. وانعطف سرب الطائرات واختفى فوق القطار.

وقال صوت: ـ أوفّ!

قال عامل المطبعة: ـ انتظروا، انتظروا! لقد سبق أن فعلتْ ذلك، وأؤكّد لكم أنّها تطوف حول القطار.

ـ ها هي ذي! ها هي ذي!

وكان رجل طويل ذو شارب قد أخفض زجاجًا وانحنى بالمقلوب، عبر الباب. كانت الطائرات قد ظهرت مرّة أخرى، وكانت إحداها تترك خلفها خطًّا أبيض.

قال صاحب الشارب وهو يستقيم: ـ إنّها طائرات ألمانيّة.

وانتصب عازف الكمان فجأة خلف ماتيو، وأخذ يهزّ النائمين، ففتح أحدهما عينين ورديّتين، وسأل باسترخاء:

ـ ماذا هناك؟

قال عازف الكمان: ـ لقد أُعلنت الحرب. وستنفجر الأمور: إنّ فوق القطار طائرات ألمانيّة.

شدّت لولا بعصبيّة على معصم بوريس، وقالت:

ـ اسمع، اسمع!

كان جاك قد امتقع وقال: ـ اسمعي، سوف يتكلّم.

وكان صوتًا بطيئًا، منخفضًا، أصمّ، يخنّ قليلاً:

«كنت قد أعلنت أنّني سأصدر هذا المساء بلاغًا للسكّان عن الوضع العالمي، ولكنّي فوجئت بعد ظهر هذا اليوم بدعوة من الحكومة الألمانيّة للاجتماع غدًا في ميونيخ مع المستشار هتلر والسيّدين موسوليني وشمبرلن. وقد قبلت هذه الدعوة.

«وإنّكم لتدركون، في عشيّة مفاوضات هامّة كهذه، لماذا يجب عليّ أن أرجئ الإيضاحات التي كنت أودّ أن أعطيكم إيّاها. ولكن قبل سفري، أحرص على أن أقدّم لشعب فرنسا شكري لموقفه المليء بالشجاعة والكرامة.

«وأحرص خصوصًا على شكر الفرنسيّين الذين دُعوا لخدمة العلم على رباطة الجأش والتصميم اللذين دلّلا عليهما من جديد.

«إنّ مهمّتي قاسية. ومنذ بدء المصاعب التي نجتازها، لم أكفّ عن العمل بكلّ قواي من أجل الحفاظ على السلام وعلى مصالح فرنسا الحيويّة. وسأتابع غدًا هذا الجهد، وأنا واثق بأنّي متّفق تمام الاتّفاق مع الأمّة».

قالت لولا: ـ بوريس! بوريس!

فلم يجب، فقالت له:

ـ أفق يا حبيبي، فماذا دهاك؟ إنّه السلام: سيُعقد مؤتمر عالمي.

وكانت تستدير نحوه محمرّة مهتاجة. فلَعَنَ على مهل بين أسنانه:

ـ دين ملعون! دين ملعون في ماخور خراء!

فسقط فرح لولا:

ـ ولكن ما بك يا حبيبي: إنّك مخضرّ.

قال بوريس: ـ لقد تطوّعت لمدّة ثلاثة أعوام.

كان القطار يسير، والطائرات تدور. وصرخ رجل:

ـ إنّ السائق مجنون. فماذا ينتظر ليتوقّف؟ إنّهم إذا أخذوا يرمون قنابلهم، متنا كالحيوانات.

وكان عامل المطبعة ممتقعًا هادئًا، وكان يحتفظ برأسه مرفوعًا ولا يكفّ عن ترصُّد الطائرات. وقال بين أسنانه: ـ يجب أن نقفز.

قال الوكيل: ـ خراء خراء! نقفز بهذه السرعة، إنّني لا أجرؤ. (وأخرج منديله فمسح جبينه) الأفضل أن نشدّ على إشارة الخطر. وتبادل عامل المطبعة وصانع الأقفال النظر، فقال عامل المطبعة:

ـ افعل ذلك، أنت:

ـ ولكن اسمع: إذا كانت طائرات فرنسيّة، فماذا يحدث لنا؟

وتلقّى ماتيو صدمة في ظهره: كان رجل ضخم يعدو نحوهم وهو يصرخ:

ـ إنّ القطار يبطئ: الجميع على الأبواب!

والتفت عامل المطبعة إلى الوكيل، وكان يأتي بحركات غريبة مرتبكة، وبسم بسمة صغيرة تكشف عن أسنانه. وقال وهو يقلِّد الوكيل:

ـ أنت ترى، إنّ القطار يبطئ في سيره: فهي طائرات ألمانيّة. إنّها

خدعة! إنَّها خدعة. حسنًا! أنظر إن كانت هي خدعة!

فقال الآخر برخاوة: ـ إنّني لم أقل هذا، بل قلت...

فأولاه عامل المطبعة ظهره واتّجه إلى مقدِّمة القطار. وكان الناس يخرجون من جميع الحافلات ويتزاحمون في الممرّات ليكونوا أوّل من يقفز إلى الحقول. ولامس أحدهم ذراع ماتيو، وكان هو العجوز القصير، وكان يرفع رأسه نحوه ويتأمّله في قلق.

ـ ماذا هناك؟ ماذا هناك؟

قال ماتيو منزعجًا: ـ لا شيء. عد إلى النوم.

وأطلّ من النافذة. وكان شخصان قد هبطا على درجة القاطرة، ووثب أحدهما وهو يصرخ، فلامس الأرض، وقام بخطوتين جانبيّتين، وهو مأخوذ بسرعة، فصدم بكتفه عمودًا تلغرافيًّا، وتدحرج على الأكمة، ورأسه إلى الأمام وكان القطار قد تجاوزه. وأدار ماتيو رأسه فرآه ينهض من جديد، فيبدو صغيرًا، ويرفع ذراعيه في الهواء ويعدو عبر الحقول. أمّا الآخر، فكان متردِّدًا وهو منحن إلى أمام، وكان يتماسك بيدٍ عند القضيب النحاسي.

وقال صوت مخنوق: ـ بربّكم لا تدفعوا! إنّنا نختنق.

واستمرّ القطار في تمهله، وكان ثمّة رؤوس مطلَّة من جميع النوافذ؛ وحول الدرجات، كان ثمّة رجال يتأهّبون للقفز. وعند المنعطف، ظهرت محطّة، وكانت على بعد ثلاثمئة متر. ولمح ماتيو مدينة صغيرة في البعيد. وقفز رجلان آخران فتجاوزا طريقًا هناك. وكان القطار قد دخل المحطّة، وفكّر ماتيو: «بمثل هؤلاء، سيصنعون أبطالاً».

وكان ضجيج عظيم يصدر عن المحطّة، وأثواب مشرقة تتلألأ في الشمس، وترتفع أيدٍ ترتدي قفّازات من الخيوط البيضاء، وكان ثمّة فتيات فارعات ذوات قبّعات من قشٍّ يلوِّحن بمناديلهنّ، وأولاد يركضون ضاحكين

صائحين على طول المحطّة. ودفع عازف الكمان ماتيو بعنف وانحنى من النافذة حتى البطن. ثم وضع يديه بشكل بوق حول فمه، وصاح في الجمع:

ـ توقّفوا! توقّفوا! الطائرات!

وكان رجال المحطّة ينظرون إليه من غير أن يفهموا، وهم يبتسمون ويصرخون. ورفع ذراعه فوق رأسه وأومأ بإصبعه إلى السماء. فأجابه صراخ عظيم، ولم يسمع ماتيو بادئ الأمر شيئًا، ثم فهم فجأة:

ـ السلام! إنّه السلام! أيّها الناس!

ورعد القطار برمّته:

ـ الطائرات! الطائرات!

فكانت الفتيات يصرخن: ـ هوراه! هوراه!

وانتهى الأمر بهنّ إلى رفع أبصارهنّ نحو السماء، وأخذن يلوّحن بمناديلهنّ تحيّة للطائرات. وكان الوكيل يقرض أظافره بأعصاب ثائرة ويتمتم:

ـ إنّني لا أفهم، إنّني لا أفهم!

وبعد طقّتين أو ثلاث، توقّف القطار تمامًا. وصعد موظّف في المحطّة على مقعد، وتحت ذراعه علم أحمر، فصاح:

ـ السلام! مؤتمر في ميونيخ. دلادييه يسافر هذا المساء.

ويظلّ القطار صامتًا، جامدًا، لا يُفهم. ثم أخذ فجأة يهدر:

ـ هوراه! ليعش دلادييه! ليعش السلام!

واختفت أثواب التفتا الزرقاء والورديّة في مدٍّ من السترات السمراء والسوداء، واضطرب الجمع وضجّ، كأوراق شجر كثيفة، وكانت إشراقات من الشمس تتلألأ في كلّ مكان، وكانت القبّعات القشّيّة تدور وتدور، فكأنّها في رقصة فالس. وراقص جاك أوديت رقصة فالس في وسط

الصالون، وكانت السيِّدة بيرنانشاتز تضمّ إيلّا إلى صدرها وتئنّ قائلة:

ـ إنّني سعيدة يا إيلّا، يا صغيرتي، يا ابنتي، إنّني سعيدة.

وتحت النافذة وثب فتى أحمر الوجه، يضحك كأنّه مجنون، على فلّاحة فقبّلها من وجنتيها. وكانت هي أيضًا تضحك، مبعثرة الشعر، وقد ارتدَّت قبّعتها القشِّيَّة إلى خلف، وكانت تصرخ: «هوراه!» تحت القبلات. وقبّل جاك أوديت في أذنها، وكان منتشيًا:

ـ السلام. وتأكّدي أنّهم لن يكتفوا بتسوية قضيّة السوديت. الحلف الرباعي، كان ينبغي البدء من هنا.

وشقّت الخادمة الباب:

ـ هل أستطيع يا سيِّدتي أن أقدِّم الطعام؟

قال جاك: ـ طبعًا، قدِّميه، قدِّميه! ثم اهبطي إلى القبو فاجلبي زجاجة شمبانيا وزجاجة شمبرتان.

وكان عجوز طويل ذو نظّارات سوداء قد جلس على مقعد، وهو يرفع بإحدى يديه زجاجة خمر، وبالأخرى قدحًا.

ـ قدح خمر أيّها الإخوان، قدح خمر، نخب السلام؟

فصاح صانع الأقفال: ـ هنا، هنا! ليعش السلام!

ـ آه! يا سيِّدي الأب! إنّني أقبِّلك!

وتراجع الكاهن، ولكنّ العجوز أدركته بسرعة، وفعلت كما قالت، وغمس غريسبيه المغرفة في إناء الحساء: «آه! يا أولادي! يا أولادي. إنّها نهاية كابوس». وفتحت زيزيت الباب: «هذا صحيح إذن، يا مدام إيزيدور؟»

ـ «نعم يا صغيرتي» صحيح، لقد سمعته، وأذاعه الراديو، إنّ حبيبك مومو سيعود، وقد سبق أن قلت لك إنّ الربّ الرحيم لا يريد ذلك». كان يرقص في مكانه، فاقدًا غروره، فاقدًا غروره، لقد فقد هتلر غروره، بل أنا

أعتقد أنّنا نحن الذين فقدنا غرورنا، ولكن كم أنا أتأرجح منذ علمت أنّ القتال لن يقع، ولكن لا، ولكن لا، لقد تنبّهت، فاشتريت كلّ شيء في الساعة الثانية، وكلّفني ذلك مئتي ورقة ماليّة، اسمعني جيّدًا يا صديقي، إنّ هذه مناسبة استث نا . ءيّة، فللمرّة الأولى تستبعد إرادة أربعة رؤساء دول حربًا كانت تبدو لا مفرّ منها، فتتجاوز أهمّيّة قرارهم الساعة الراهنة: إنّ الحرب هي الآن غير ممكنة إطلاقًا، وميونيخ هي أوّل تصريح للسلم، يا إلٰهي، يا إلٰهي، لقد صلّيت وصلّيت، فقلت: «يا إلٰهي، خذ قلبي، خذ حياتي». وقد استجبت دعائي يا إلٰهي، فأنت الأكبر، وأنت الأحكم، وأنت الأرحم». وتخلّص الأب، «ولكنّي قلت لك ذلك دائمًا يا سيّدتي: إنّ الله رائع». وطزّ في التشيكيين. ليتدبّروا أمرهم وحدهم. كانت زيزيت تمشي في الشارع، كانت زيزيت تغنّي، جميع العصافير في قلبي، كان للناس رؤوس طيّبة باسمة، وكانوا يقولون فيما بينهم «مرحبًا» من زاوية العين، وحتى ولو كانوا لا يعرفون بعضهم بعضًا، كانوا يعرفون أنّها كانت تعرف، وكان الجميع يفكّرون بالشيء نفسه، وكان الجميع سعداء، فلم يكن ثمّة مناصّ من أن تفعل كما يفعل الجميع، يا للمساء الجميل. وتلك المرأة التي كانت تمرّ، إنّني أقرأ حتى أعماق قلبها، وهذا العجوز الطيّب يقرأ ما في قلبي، منفتحة كلّ الانفتاح للجميع، فالجميع ليسوا إلّا واحدًا، وأخذت تبكي، كان الجميع متحابّين، والجميع سعداء، والجميعُ كالجميع، ولا بدّ من أنّ مومو هناك مسرور بالرّغم من كلِّ شيء، كانت تبكي، وكان الجميع ينظرون إليها، وكان هذا يبعث الحرارة في ظهرها، وفي صدرها، جميع هذه الأنظار، وكانت تزداد بكاءً ما ازدادوا نظرًا إليها، وتستشعر الاعتزاز والشهرة كأمّ تُرضع طفلها.

قال جاك: ــ ولكنّك تشربينه صرفًا!

وكانت أوديت تضحك وحيدة. وقالت:

ــ أظنّ أنّهم سوف يسرّحون الآن الاحتياطيين؟

قال جاك: ـ من الآن حتى خمسة عشر يومًا، أو شهرًا.

وضحكت أيضًا وشربت جرعة خمر. ثم طفر الدم فجأة إلى خدّيها، فسألها جاك: ـ ما بك؟ لقد احمرّ وجهك تمامًا.

قالت: ـ لا شيء. كلّ ما في الأمر أنّي شربت أكثر قليلاً ممّا ينبغي. لم أكن لأقبّله قطّ، لو كنت أعرف أنّه سيعود بهذه السرعة.

ـ اصعدوا! اصعدوا!

وكان القطار يتحرّك ببطء. وأخذ الناس يركضون وهم يصرخون ويضحكون، وكانوا يتعلّقون عناقيد بالدرجات. وظهر على النافذة وجه صانع الأقفال يقطر عرقًا، وكان متشبِثًا بالحاجز بكلتا يديه، وقال:

ـ يا إلٰهي، ساعدوني بسرعة، سوف أفلت.

فرفعه ماتيو، فتجاوز النافذة ووثب في الممرّ. وقال وهو يمسح جبينه: ـ أوف، حسبت أنّني سأترك ساقيّ تحت!

وظهر عازف الكمان بدوره.

ـ حسنًا، لقد اكتمل العدد.

ـ هل نلعب الورق؟

ـ أحبِّذ ذلك.

ودخلوا إلى الحافلة، وكان ماتيو ينظر إليهم عبر الزجاج. وبدأوا يتبادلون شرب جرعات صغيرة من الخمر، ثم أخرج الوكيل منديله، فبسطوه على رُكبهم:

ـ أنت تُوزِّع.

فضرط صانع الأقفال، وقال: ـ أوه! يا للزرقاء الجميلة (وأشار إلى صاروخ وهمي في السقف).

فقال عامل المطبعة بفرح: ـ يا للممحون!

وفكّر ماتيو: «ماذا يفعلون هنا؟ وأنا ماذا أصنع؟» كان قدَرهم قد

تلاشى، وكان الزمن قد عاد يجري على هيِّنة، من غير هدف، كان القطار يسير بلا هدف، بدافع العادة، وبمحاذاة القطار كانت ثمّة طريق عائمة جامدة: إنّها الآن لا تفضي إلى أيّ مكان، وهي ليست بعد إلّا أرضًا معبَّدة. وكانت الطائرات قد اختفت. وكانت الحرب قد اختفت. سماء صفراء كان السلام يستيقظ فيها مع المساء على مهل، ريفٌ مخدَّر، لاعبو ورق، نائمون، زجاجة مكسورة في الممرّ، أعقاب سجاير في مستنقع من الخمر، رائحة بول قويّة، جميع هذه البقايا التي لا مبرِّر لها.. وفكّر ماتيو منقبض القلب: «لكأنّنا في أعقاب عيد».

كانت دوس ومود وروبي يصعدن إلى «الكانوبير». وكانت دوس منتعشة جدًّا: فقد كانت تميل دائمًا إلى السياسة. وأوضحت:

ـ يبدو أنّه كان ثمّة سوء تفاهم. كان هتلر يظنّ أنّ شمبرلن ودلادييه يريدان به شرًّا، وفي هذه الأثناء، كان شمبرلن ودلادييه يظنّان أنّه كان ينوي مهاجمتهما. فذهب موسوليني إليهما، وأفهمهما أنّهما على خطأ وقد سُوّي الآن كلّ شيء: إنّهم غدًا يتناولون الغداء معًا.

وتنهّدت روبي: ـ يا لها من وليمة فاخرة!

وكانت «الكانوبير» تبدو في حالة عيد، كان الناس يسيرون بخطى صغيرة، وفيهم من يضحك وحده. وكانت مود متشائمة. صحيح أنّها كانت مسرورة أن يُسوّى كلّ شيء، ولكنّها كانت تُسرّ خصوصًا من أجل الآخرين. ومهما يكن من أمر، فعليها أن تقضي بعد ليلةً في غرفتها المنتنة في فندق «جنيافر»، ثم تأتي بعد ذلك المحطّات والقطارات وباريس والبطالة والمطاعم الحقيرة وأوجاع المعدة: إنّ مؤتمر ميونيخ، مهما كانت نتيجته، لن يغيّر في الأمر شيئًا. كانت تستشعر الوحدة. وإذ مرّت أمام مقهى «ريش»، انتفضت، فسألتها روبي:

ـ ما بك؟

فأجابت مود: ـ هذا بيار. لا تنظري. إنّه على الطاولة الثالثة، إلى الشمال. هنا، انتهى الأمر: لقد رآنا.

ونهض وكان يشعّ في بذلته الكتّانيّة، وكان في مظهره الأرجل والأغنى. وفكّرت: «طبعًا، الآن ليس من خطر بعد». وحاولت، فيما هو مقبل عليها، أن تتذكّر وجهه الأخضر في تلك الغرفة التي كانت تنبعث منها في الباخرة رائحة القيء. ولكنّ الرائحة والوجه كانا قد كُنِّسا بريح البحر. وحيّاها، وكان يبدو واثقًا من نفسه كلّ الثقة. وكانت تريد أن توليه ظهرها، ولكن ساقيها المترنِّحتين حملتاها إليه بالرّغم منها. وقال لها باسمًا:

ـ إذن، هكذا نفترق، حتى من غير أن نأخذ شيئًا؟

ونظرت إليه مواجهة، فقالت في نفسها: إنّه جبان. ولكن ذلك لم يكن ليُرى، كانت ترى شفتين ساخرتين جسورين، وخدّين رجوليين، وتلك الحنجرة البارزة.

وتمتم: ـ تعالي. إنّ ذلك كلّه حكاية قديمة.

وفكّرت في غرفتها بالفندق التي كانت تنبعث منها رائحة الأمونياك، فقالت: ـ يجب أن تدعو دوس وروبي.

فتقدّم نحوهما وابتسم لهما، وكانت روبي تحبّه كثيرًا لأنّه كان متميِّزًا. وجلست ثلاث زهرات حول طاولة على سطيحة مقهى «ريش». كانت حديقة زهور، زهور، ووجوه مشمسة ضاجّة، وأعلام ونوافير ماء، وشموس. وخفضت جفنيها وتنفّست بعمق: بين عينيه، كانت شمس تدور، ليس لنا الحقّ بأن ندين رجلاً يحسّ بدوار البحر. من أجلها أيضًا، كان ذلك السلام.

«لماذا لا يحبّونني؟» كان وحده في القاعة الرماديّة، وكان منحنيًا إلى أمام، ومرفقاه على فخذيه، ممسكًا رأسه الثقيل بين يديه. وكان قد

وضع بالقرب منه، على المقعد، الفطائر وركوة القهوة التي كان الشرطي قد جاءه بها ظهرًا. ما جدوى الأكل؟ لقد انتهى أمره، يودّون أن يجنّدوه بالإكراه، وسوف يرفض، وستكون ثمّة المشنقة، أو على الأقلّ، عشرون عامًا في الزنزانة، كانت حياته تقف هنا، كان ينظر إليها في دهشة عميقة: كانت مشروعًا فاشلاً من أوّلها إلى آخرها. وكانت أفكاره تسيل ذات اليمين وذات الشمال، مائعة غير ذات لون، بيد أنّ فكرة واحدة كانت تظلّ ثابتة، سؤالاً لا يحتمل جوابًا: لماذا لا يحبّونني؟ وحدثت في القاعة المجاورة انفجاراتُ ضحك كبيرة، لقد كان رجال الشرطة في جذل. وصاح صوت رصين:

ـ هذا جدير بأن يُشرب نخبه!

ربّما كان هناك شرطة يتحابّون فيما بينهم، ثم الناس، في الخارج، في الشوارع والبيوت، كانوا يتبادلون البسمات، ويعاون بعضهم بعضًا، ويتحادثون في اعتبار ومجاملة، وكان بينهم من يتبادلون الحبّ بكلّ قواهم، كزيزيت وموريس. ربّما كان ذلك لأنّهم كانوا أكبر سنًّا: فقد أُتيح لهم أن يتآلفوا فيما بينهم. أمّا الشابّ، فهو مسافر، يدخل ليلاً إلى حافلة نصف ممتلئة: إنّ الناس يحتقرونه ويتآمرون لحمله على الاعتقاد بأنّه ليس ثمّة بعد من مكان. مع ذلك، فإنّ مكاني كان مسجّلاً، ما دمت قد وُلدت. وإلّا فإنّي قد تعفّنت. وعاد الشرطة يضحكون، خلف الباب، ولفظ أحدهم كلمة «ميونيخ». الشوارع والبيوت والقاطرات ومفوّضيّة الشرطة: عالم غاصّ إلى حدّ الانفجار، عالم الناس، إنّ فيليب لم يكن يستطيع أن يدخله. سوف يبقى طوال حياته في زنزانة كهذه، الحُجر الذي يحفظه الناس لمن لا يريدونهم، ورأى امرأة صغيرة سمينة ضاحكة، ذات ذراعين ملساوين، البغيّ. وفكّر: «مهما يكن من أمر، فسوف تجِدّ عليّ». وفُتح الباب، ودخل الجنرال. وتراجع فيليب على المقعد حتى الزاوية الأكثر ظلمة، وصاح: ـ دعني، أريد أن أنال عقابي، ولست بحاجة إلى حمايتك.

فانفجر الجنرال ضاحكًا. وعبر القاعة بخطواته الجافّة السريعة، وجاء ينزرع أمام فيليب:

ـ تنال عقابك؟ من تظنّ نفسك أيّها الأبله الصغير؟

المرفق. ارتفع المرفق بالرّغم من فيليب، ووقف أمام خدّه، مستعدًّا لتفادي الصفعات. ولكن فيليب أخفضه وقال بصوت حازم:

ـ إنّني فراريّ.

ـ فراريْ! إنّ هتلر ودلادييه سيوقّعان غدًا اتّفاقًا، يا صديقي العزيز: فلن تكون ثمّة حرب، ولم تكن قطّ فراريًّا.

وكان يتأمّل فيليب في سخرية مهينة.

ـ إنّ على المرء أن يكون رجلاً يا فيليب، حتى من أجل أن يفعل الشرّ، يجب عليه أن يتحلّى بالإرادة والتبعات. وأنت لست إلّا صبيًّا عصبيًّا وسيّئ التربية، إنّك لم تحترمني على الإطلاق، وأغرقت أمّك في قلق عنيف: هذا كلّ ما استطعت أن تفعله.

وكان رجال شرطة ضاحكون يمدّون رؤوسهم من فتحة الباب. ووثب فيليب على قدميه. ولكنّ الجنرال أمسكه من كتفه، وقسره على الجلوس.

ـ ما هذا؟ سوف تستمع إليّ حتى النهاية. إنّ تصرّفك المنحرف الأخير يدلّ على أنّك يجب أن تُربّى من جديد. وقد أقرّت أمّك هذه اللحظة أنّها كانت مفرطة الضعف تجاهك. أمّا الآن، فأنا الذي سأتولّى أمرك.

وكان قد زاد قُربًا من فيليب. ورفع فيليب مرفقه وصرخ:

ـ إذا لمستني قتلت نفسي.

قال الجنرال: ـ هذا ما سوف نراه.

وأخفض له مرفقه بيده اليسرى، وباليمنى صفعه مرّتين. فانهار فيليب على المقعد وانخرط في البكاء.

كانت في الممرّ حركة صغيرة مرحة، وكانت ثمّة امرأة تغنّي «اذهب أيّها الضعيف». كان يكرههنّ جميعًا. إنّهنّ يحطّمن رأسي، ودخلت الممرِّضة، حاملة العشاء على صينيّة، فقال: ـ لست جائعًا.

ـ آه! يجب أن تأكل يا سيِّد شارل! وإلّا زدت ضعفًا. ثم ها هي أنباء طيِّبة تمنحك القابليّة: لقد تجنّبنا الحرب. إنّ شمبرلن ودلادييه سيقابلان هتلر.

فنظر إليها في ذهول: هذا صحيح، إنّ قصّتهم المتعلِّقة بالسوديت ما تزال تجرجر نفسها. وكانت محمرّة بعض الشيء وعيناها تلتمعان:

ـ وإذن: ألست مسرورًا؟

لقد جرّوني خارج بيتي، وحملوني كرزمة، وأرهقوني، وهم مع ذلك لا يتقاتلون. ولكنّه لم يكن بعد قد غضب: فإنّ ذلك كلّه أضحى بعيدًا جدًّا. وقال: ـ ماذا تريدين أن يُحدِث لي ذلك؟

ليلة ٢٩ إلى ٣٠ أيلول

الساعة ١,٣٠.

كان السيِّدان هوبرت مازاريك وماستني، عضوا الوفد التشيكوسلوفاكي، ينتظران في غرفة السير هوراس ويلسون بصحبة السيِّد أشتون ـ غواتكن. كان ماستني ممتقعًا؛ يرشح عرقًا، تحت عينيه هالة سوداء. أمّا هوبرت مازاريك، فكان يذرع الغرفة جيئة وذهابًا، وكان السيِّد أشتون ـ غواتكن جالسًا على السرير. وكانت إيفيش قد انزوت في جوف السرير، ولم تكن تحسّ به، ولكنّها تحسّ بحرارته وتسمع نَفَسه؛ لم تكن تستطيع أن تنام، وهي تعلم أنّه هو أيضًا لن ينام. وكانت شحنات كهربائيّة تسري في ساقيها وفخذيها، وكانت تموت رغبة في أن تنقلب على ظهرها، ولكن إذا تحرّكت لمسته، فما دام يظنّ أنّها كانت نائمة، فسيدعها وشأنها. والتفت ماستني نحو أشتون ـ غواتكن، وقال:

ـ لقد طال الأمر.

فأتى السيِّد أشتون ـ غواتكن بحركة اعتذار ولامبالاة. وصعد الدم إلى وجه مازاريك، فقال بصوت أصمّ:

ـ إنّ المتّهمين ينتظرون الحكم.

فلم يبد على السيِّد أشتون ـ غواتكن أنّه سمع، وفكّرت إيفيش: «تُرى، ألا ينقضي الليل؟» وأحسّت فجأة بلحم طريّ أكثر ممّا ينبغي يلامس خاصرتها، كان ينتهز نومها ليحتكّ بها، فيجب ألّا تتحرّك، وإلّا لاحظ أنّي مستيقظة. واندسّ اللحم بهدوء إلى جانبها، وكان محرقًا طريًّا، إنّه ساق. وعضّت بعنف على شفتها السفلى، وتابع مازاريك:

ـ ولكي يكون الشبه كاملاً، وضعوا في استقبالنا رجال الشرطة.

قال السيِّد أشتون ـ غواتكن وهو يتّخذ مظهر الدهشة:

ـ ولكن كيف؟

فأوضح ماستني: ـ لقد أُخذنا إلى فندق «ريجينا» في سيّارة للشرطة.

فقال السيِّد أشتون ـ غواتكن في توبيخ: «تس، تس، تس!».

وأصبحت الآن يدًا؛ وكانت تهبط على طول خاصرتيها، خفيفة شبه شاردة؛ ولامست الأصابع بطنها، وفكّرت: «ليس هذا شيئًا، إنّها حشرة. وأنا أنام، أنام. أحلم، ولن أتحرّك». وتناول مازاريك الخارطة التي كان السير هوراس ويلسون قد سلّمه إيّاها. وكانت الأراضي التي ينبغي أن يحتلّها الجيش الألماني فورًا مخطّطة بالأزرق. فنظر إليها لحظة، ثم رماها على الطاولة في غضب، وقال وهو ينظر إلى السيِّد أشتون ـ غواتكن في عينيه:

ـ إنّني... إنّني ما زلت غير فاهم: أترانا ما زلنا أمّة ذات سيادة؟ فهزّ السيِّد أشتون ـ غواتكن كتفيه، وكان يبدو وكأنّه يريد أن يقول إنّه لم يكن له دخل في القضيّة؛ ولكن مازاريك فكّر بأنّه كان أشدّ انفعالاً ممّا شاء أن يُظهر. وقال ملاحظًا: ـ إنّ هذه المفاوضات مع هتلر صعبة جدًّا، فخذ ذلك بعين الاعتبار.

فأجاب مازاريك بعنف:

ـ إنّ كلّ شيء يتوقّف على حزم الدول الكبرى.

واحمرّ الإنكليزي قليلاً، فاستقام، وقال بلهجة فخمة:

ـ إذا لم تقبلوا هذا الاتّفاق، فيجب أن تتدبّروا الأمر وحدكم مع ألمانيا (وتنحنح وأضاف بلهجة ألطف) وربّما قال لكم الفرنسيّون ذلك في مزيد من اللياقة. ولكن صدّقني أنّهم من رأينا. ففي حال الرفض، سيكفّون عن الاهتمام بكم.

فضحك مازاريك ضحكة استياء، وصمتوا. وهمس صوت:

ـ هل تنامين؟

فلم تجب، ولكنّها سرعان ما أحسّت فمًا لدى أذنها، ثم جسمًا برمّته يثقل بلصق جسمها. وتمتم:

ـ إيفيش! إيفيش!

كان ينبغي ألّا تصرخ ولا تتخبّط؛ فأنا لست فتاة تُغتصب. وانقلبت على ظهرها، وقالت بصوت واضح:

ـ لا، لا أنام. وبعد؟

قال: ـ أحبّك.

قنبلة! قنبلة ستسقط من علوّ خمسة آلاف متر فتقتلهم على الفور! وفُتح باب، فدخل السير هوراس ويلسون، وكانت عيناه خافضتين؛ إنّه منذ وصولهما يخفض عينيه، وكان يحدّثهما وهو مطرق إلى الأرض، وكان لا بدّ أن يشعر بذلك، بين الفينة والفينة: ويرفع رأسه فجأة، ويُغرق في عيونهما نظرًا فارغًا.

ـ أيّها السادة، نحن في انتظاركم.

فتبعه الرجال الثلاثة، واجتازوا ممرّات كبيرة مقفرة. وكان خادم

ينام على كرسيّ، وكان الفندق يبدو ميّتًا؛ كان جسمه محرقًا، وأَطبق صدره على نهديْ إيفيش، فسمعت صوتًا طريًا يشبه صوت المحجم، وكانت غارقة في عرقهما. وقالت: ـ إذا كنت تحبّني فابتعد عنّي. إنّي أشعر بحرّ لا يُطاق.

قال السير هوراس ويلسون وهو يتنحّى: «هنا». ولم يكن ليبتعد، بل نزع الغطاء بيد، وكان يمسك باليد الأخرى كتفها بقوّة، وما لبث أن نام عليها، وكان يعجن كتفيها وذراعيها بيديه العنيفتين، يدي الفريسة، فيما كان صوته الطفولي المبتهل يتمتم:

ـ أحبّك يا إيفيش، حبيبتي، أحبّك.

كانت قاعة صغيرة مضاءة بطريقة حيّة. وكان السادة شمبرلن ودلادييه وليجيه واقفين خلف طاولة محمّلة بالأوراق. وكانت المنافض ملأى بأعقاب السكاير، ولكنّ الجميع كانوا قد كفّوا عن التدخين. ووضع شمبرلن كلتا يديه على الطاولة، وكان يبدو متعبًا. وقال في بسمة وديّة:

ـ أيّها السادة:

فانحنى مازاريك وماستني من غير أن يتكلّما. وابتعد أشتون ـ غواتكن عنهم بسرعة، كما لو أنّه لم يكن يستطيع بعد أن يحتمل صحبتهما، وذهب يقف خلف السيّد شمبرلن مع السير هوراس ويلسون. وكان أمام الرجلين التشيكيين الآن خمسة رجال في الجهة المقابلة من الطاولة، وخلفهما كان الباب وممرّات الفندق المقفرة. وحلّت لحظة صمت ثقيلة. ونظر مازاريك إليهم بالتناوب ثم نظر إلى ليجيه. ولكن ليجيه كان يضع الوثائق في محفظته. وقال السيّد شمبرلن:

ـ تفضّلوا أيّها السادة بالجلوس.

وجلس الفرنسيّون والتشيكيّون، ولكنّ السيّد شمبرلن ظلّ واقفًا.

قال شمبرلن، حسنًا: وكانت عيناه ورديّتين من النعاس. وقد تأمّل يديه في هيئة متردِّدة، ثم استقام فجأة وقال: لقد وقّعت فرنسا وبريطانيا العظمى اتّفاقًا يتعلّق بالمطالب الألمانيّة في موضوع السوديت. ويمكن اعتبار هذا الاتّفاق، بفضل النيّة الحسنة لدى الجميع، تقدّمًا محسوسًا على مذكّرة غودرسبورغ.

وسعل وصمت. وكان مازاريك جالسًا في أريكته جلسة صلبة، كان ينتظر. وبدا على شمبرلن أنّه يريد الاستمرار، ولكنّه عدّل ومدّ لماستني ورقة:

ـ هل تريد أن تطّلع على هذا الاتّفاق؟ ربّما كان الأفضل أن تقرأه بصوت مرتفع.

فتناول ماستني الورقة؛ ومرّ شخص ما في الممرّ بخطى خفيفة، ثم ابتعد صوت القدمين. ودقَّت ساعة، في ناحية ما من المدينة دقَّتين. وبدأ ماستني يقرأ، وكان له جرْسٌ مخنٌّ رتيب؛ كان يقرأ ببطء، كما لو أنّه كان يفكِّر بعد كلّ عبارة، وكانت الورقة ترتعش في يديه:

«إنّ الدول الأربع الكبرى: ألمانيا والمملكة المتّحدة وفرنسا وإيطاليا قد اتّفقت، بعد أن أخذت بعين الاعتبار التسوية التي تمّت مبدئيًّا بشأن التنازل لألمانيا عن أراضي ألمان السوديت، على الترتيبات والشروط التالية التي تُنظِّم هذا التنازل والتدابير التي يحتملها. وتتعهّد كلّ دولة، في هذا الاتّفاق، بتحقيق الطلبات الضروريّة لتأمين تنفيذه:

«١: يبدأ الجلاء في أوّل تشرين الأوّل.

«٢: اتّفقت المملكة المتّحدة وفرنسا وإيطاليا على ضرورة إنجاز الجلاء عن الأراضي المذكورة في ١٠ تشرين الأوّل، من غير أن تُهدم أيّة إنشاءات قائمة فيها. وتتحمّل الحكومة التشيكوسلوفاكيّة مسؤوليّة إتمام هذا الجلاء من غير أن يلحق بهذه الإنشاءات أيّ ضرر.

«٣: تحدَّد شروط هذا الجلاء في تفاصيلها من قبل لجنة دوليّة مؤلّفة من ممثِّلين عن ألمانيا والمملكة المتّحدة وفرنسا وإيطاليا وتشيكوسلوڤاكيا.

«٤: تبدأ فرق الريخ بالاحتلال التدريجي للأراضي ذات الأغلبيّة الألمانيّة في أوّل تشرين الأوّل. والمناطق الأربع المشار إليها على الخارطة المرفقة تحتلّها القوّات الألمانيّة كما يلي:

«المنطقة الأولى، يومي ١ و٢ تشرين الأوّل.

«المنطقة الثانية، يومي ٢ و٣ تشرين الأوّل.

«المنطقة الثالثة، أيّام ٣ و٤ و٥ تشرين الأوّل.

«المنطقة الرابعة، يومي ٦ و٧ تشرين الأوّل.

«أمّا سائر المناطق ذات الأغلبيّة الألمانيّة، فستحدِّدها اللجنة الدوليّة وتحتلّها القوّات الألمانيّة من الآن حتى العاشر من تشرين الأوّل».

كان الصوت الرتيب يرتفع في الصمت، وسط المدينة النائمة. كان يصطدم ويقف بشراسة مرتعشًا بعض الشيء، وكان ملايين من الألمان ينامون على مدى النظر حوله، فيما كان يعرض بدقّة الطرق المختلفة لعمليّة اغتيال سياسيّ. وكان الصوت المبتهل الهامس، حبيبتي، شهوتي، أحبّ نهديك، أحبّ رائحتك، هل تحبّينني، يرتفع في الليل، وكانت اليدان، تحت جسمها المحرق، تغتالان.

قال مازاريك: ـ أريد أن أطرح سؤالاً. ما الذي يُفهم من عبارة «أرض ذات أغلبيّة ألمانيّة؟».

وكان يوجِّه سؤاله لشمبرلن، ولكن شمبرلن تأمّله من غير أن يجيب ـ بهيئة مذهولة بعض الشيء. وكان واضحًا أنّه لم يستمع إلى القراءة.

وأخذ ليجيه الحديث، في ظهر مازاريك. وسجّل مازاريك حركة استدارة في أريكته، فرأى ليجيه من زاوية جانبيّة. قال ليجيه:

ـ المقصود أغلبيّة معدودة وفق اقتراحات قبلتموها.

وسحب ماستني منديله فمسح جبينه، ثم تابع القراءة:

«٥: تحدِّد اللجنة الدوليّة المنصوص عنها في المادّة ٣ الأراضي التي ينبغي أن يجري فيها الاستفتاء.

«وهذه الأراضي ستحتلّها فرق دوليّة حتى انتهاء الاستفتاء...».

وقطع قراءته وسأل:

ـ هذه الفرق، أتكون حقًّا دوليّة، أم أنّها لن تضمّ إلّا فيالق إنكليزيّة؟

وتثاءب السيِّد شمبرلن خلف يده، وتدحرجت دمعة على خدّه. ثم سحب يده:

ـ هذه القضيّة لم توضَّح بعد تمام التوضيح. فإنّ إشراك الجنود البلجيكيّين والطليان أمرٌ وارد.

وتابع ماستني: «كما أنّ اللجنة ستحدِّد الشروط التي يجري فيها الاستفتاء انطلاقًا من شروط استفتاء «السار». وستضرب بالإضافة إلى ذلك موعدًا لبدء الاستفتاء لا يمكن أن يتجاوز آخر تشرين الثاني». وتوقّف مرّة أخرى، وسأل شمبرلن في عذوبة ساخرة:

ـ هل سيتمتّع العضو التشيكوسلوڤاكي في هذه اللجنة بحقّ الاقتراع نفسه الذي يتمتّع به الأعضاء الآخرون؟

فقال السيِّد شمبرلن في لهجة حسنة: ـ طبعًا.

وكانت لزوجة كدِرة كأنّها الدم تلطِّخ فخذيْ إيفيش وبطنها، وانزلق في دمها، لست فتاةً تُغتصب، وانفتحت، وتركت نفسها تُطعن، ولكن

بينما كانت رعشات من ثلج ونار تصعد حتى صدرها، كان رأسها يظلّ باردًا لقد أَنقذت رأسها وكانت تصرخ فيه، في رأسه: إنّني أكرهك!

«٦: تحدِّد اللجنة الدوليّة التخطيط النهائي للحدود. وستكون لهذه اللجنة كذلك صلاحيّة إيصاء الدول الأربع: ألمانيا والمملكة المتّحدة وفرنسا وإيطاليا، في حالات استثنائيّة، بإجراء تعديلات ذات مدى محصور بتحديد المناطق القابلة للانتقال من غير استفتاء تحديدًا إتنولوجيًّا محضًا».

وسأل مازاريك: ـ هل نستطيع أن نعتبر هذه المادّة بندًا يضمن حماية مصالحنا الحيويّة؟

وكان قد استدار إلى دالادييه ينظر إليه في إلحاح. ولكنَّ دالادييه لم يجب؛ كانت تبدو عليه هيئة الشيخوخة والإرهاق. ولاحظ مازاريك أنّه كان قد احتفظ، في زاوية فمه، بعقب سيكارة مطفأ. وقال مازاريك بقوّة:

ـ لقد وُعدنا بهذا البند.

قال ليجيه: ـ يمكن لهذه المادّة، من نحوٍ ما، أن تُعتبر بمثابة البند الذي تتحدّث عنه. ولكن يجب أن يكون المرء متواضعًا، في بدء الأمر، إنّ قضيّة ضمان حدودكم هي من صلاحيّة اللجنة الدوليّة.

فضحك مازاريك ضحكة مقتضبة وشبك ذراعيه، وقال وهو يهزّ رأسه: ـ حتى ولا ضمانة!

وقرأ ماستني: «٧: سيكون هناك حقّ اختيار يتيح للناس أن يُدرجوا في الأراضي المنقولة، أو أن يُبعدوا عنها. وسيجري هذا الاختيار في مهلة ستّة أشهر ابتداء من تاريخ هذا الاتّفاق.

«٨: ـ تحرّر الحكومة التشيكوسلوفاكيّة، في مهلة أربعة أسابيع ابتداء من إنجاز هذا الاتّفاق، جميع الألمان السوديت الذين يريدون،

من التشكيلات العسكريّة أو من الشرطة التي ينتمون إليها.

«وفي المهلة نفسها، تطلق الحكومة التشيكوسلوڤاكيّة الأسرى من الألمان السوديت الذين سُجنوا لأسباب سياسيّة».

ميونيخ، في ٢٩ أيلول ١٩٣٨»

قال: ــ هكذا. انتهينا.

كان ينظر إلى الورقة، كما لو أنّه لم ينته من قراءتها. وتثاءب السيِّد شمبرلن طويلاً، ثم أخذ يربّت على الطاولة.

قال ماستني ثانية: ــ هكذا، انتهى.

كان الأمر قد انتهى، فإنّ تشيكوسلوڤاكيا ١٩١٨ قد كفّت عن الوجود. وتابع مازاريك بعينيه الورقة البيضاء التي كان ماستني يوشك أن يضعها على الطاولة: ثم التفت إلى دالادييه وليجيه، وحدَّ فيهما بصره، وكان دالادييه مسترخيًا في أريكته، وذقنه على صدره. وسحب سيكارة من جيبه، فتأمّلها لحظة، ثم أعادها إلى علبتها. وكان ليجيه محمرًّا بعض الشيء، وكان يبدو نافد الصبر. وقال مازاريك لدالادييه:

ــ هل تنتظرون تصريحًا أو جوابًا من حكومتي؟

فلم يجب دالادييه. وخفض ليجيه بصره، وقال بسرعة:

ــ إنّ السيِّد موسوليني مضطرّ للعودة إلى إيطاليا هذا الصباح، فنحن لا نملك وقتًا طويلاً.

وكان مازاريك ما يزال ينظر إلى دالادييه. وقال: «حتى ولا جواب؟ هل ينبغي أن أفهم أنّنا مجبرون على القبول؟».

فأتى دالادييه بحركة متعبة، وأجاب ليجيه من ورائه:

ــ ماذا تستطيعون أن تفعلوا غير ذلك؟

كانت تبكي ووجهها متَّجه إلى الجدار، كانت تبكي في صمت،

وكانت الشهقات تهزّ كتفيها.

وسأل بصوت حائر: ـ لماذا تضحكين؟

فأجابت: ـ لأنّني أكرهك.

ونهض مازاريك، ونهض ماستني أيضًا. وكان السيِّد شمبرلن يتثاءب حتى ليكاد ينزع فكّه.

الجمعة ٣٠ أيلول

أقبل الجنديّ القصير على غرو ـ لويس وهو يلوِّح بجريدة، وقال:

ـ إنّه السلام.

فوضع غرو ـ لويس دلوه:

ـ ماذا تقول يا صاحبي؟

ـ أقول لك إنّه السلام.

فنظر إليه غرو ـ لويس بارتياب:

ـ لا يمكن أن يكون هذا هو السلام ما دمنا لم نخض الحرب.

ـ لقد وقّعوا يا عزيزي. وليس لك إلّا أن تنظر الجريدة.

ومدّها له، ولكن غرو ـ لويس دفعها بيده:

ـ لا أعرف القراءة.

فقال الرجل القصير في شفقة:

ـ آه، يا للمعتوه! طيّب، انظر الصورة.

فأخذ غرو ـ لويس الجريدة في نفور، واقترب من نافذة الإسطبل

ونظر إلى الصورة. فعرف دالاديه وهتلر وموسوليني الذين كانوا يبتسمون: وكان يبدو أنّهم أصدقاء قدامى.

وقال: ــ طيّب! طيّب!

ونظر إلى الرجل القصير وهو يقطّب حاجبيه، ثم أخذه الجذل فجأة، وقال ضاحكًا:

ــ ها هم قد تصالحوا الآن! ولم أكن أعرف حتى لماذا كانوا متخاصمين.

فأخذ الجنديّ يضحك، وضحك غرو ــ لويس أيضًا. وقال الجنديّ:

ــ إلى اللقاء يا عزيزي!

وابتعد، واقترب غرو ــ لويس من الفرس السوداء وأخذ يلامس مؤخّرتها، وقال: ــ هناك! هناك! يا جميلتي!

وكان يحسّ نفسه غائمًا. وقال:

ــ طيّب، ماذا أفعل الآن؟ ماذا أفعل؟

كان السيِّد بيرنانشاتز يختبئ وراء جريدته، وكان يُرى دخان قليل مستقيم صاعدًا فوق أوراق منشورة. وكانت السيِّدة بيرنانشاتز تتململ في أريكتها.

ــ يجب أن أرى «روز» من أجل حكاية آلة التنظيف.

وكانت هي المرّة الثالثة التي تتحدّث فيها عن آلة التنظيف، ولكنّها لم تكن لتذهب. وكانت إيلّا تتأمّلها في غير ما ودّ. كانت تريد أن تبقى وحدها مع أبيها. والتفتت السيِّدة بيرنانشاتز إلى ابنتها، وسألت:

ــ أتظنّين أنّهم سيأخذونها منّي؟

ــ تسألينني عن ذلك طوال الوقت، ولكنّي لا أدري، يا ماما.

وكانت السيِّدة بيرنانشاتز قد بكت أمس من فرط السعادة، وهي تضمّ ابنتها وأولاد إخوتها إلى صدرها. أمّا اليوم فهي لا تدري ما عساها تفعل

بفرحها؛ كان فرحًا ضخمًا رخوًا مثلها، لن يلبث طويلاً حتى يتحوّل إلى النبوءة، إلّا إذا نجحت في مشاركة سواها به.

والتفتت نحو زوجها وتمتمت: ـ غوستاف!

فلم يجب السيِّد بيرنانشاتز.

ـ أراك لا تحدث اليوم أيّة ضجّة.

قال السيِّد بيرنانشاتز: ـ صحيح.

ومع ذلك، فقد أخفض جريدته ونظر إليها من فوق نظّارتيه، وكان يبدو شائخًا متعبًا: وأحسّت إيلّا بانقباض في قلبها، وكانت بها رغبة لتقبيله، ولكن كان من الأفضل ألّا تبدأ بالتعبير العاطفي أمام السيِّدة بيرنانشاتز التي كانت مفرطة الميل إلى ذلك. وسألت السيِّدة بيرنانشاتز:

ـ هل أنت مسرور على الأقلّ؟

فسأل في جفاء: ـ مسرور مِمّ؟

فقالت وهي تئنّ: ـ ولكن اسمع. لقد قلت لي مئة مرّة إنّك لم تكن تريدها، هذه الحرب، وإنّها ستكون كارثة، وإنّ من الضروري التعاقد مع الألمان، وكنت أحسب أنّك ستكون مسرورًا.

فهزّ السيِّد بيرنانشاتز كتفيه وأخذ جريدته من جديد. وحدّدت السيِّدة بيرنانشاتز نظرها الممتلئ دهشة وعتابًا على هذا المتراس من الورق، وكانت شفتها السفلى ترتجف، ثم تنهّدت ونهضت في مشقّة، وتوجّهت نحو الباب. وقالت وهي تخرج:

ـ إنّني لا أفهم بعد لا زوجي ولا ابنتي!

واقتربت إيلّا من أبيها وقبّلته بلطف في رأسه:

ـ ما بك يا بابا؟

فوضع السيِّد بيرنانشاتز نظّارتيه، ورفع رأسه إليها:

ـ ليس لي ما أقوله. هذه الحرب، لست في سنٍّ تسمح لي بعد في

خوضها، أليس كذلك؟ إذن فلأصمت.

وطوى جريدته بدقّة، وكان يدمدم كأنّما يحدّث نفسه:

ـ كنت من مؤيّدي السلام...

ـ وإذن؟

ـ إذن؟...

وحنا رأسه إلى اليمين، ورفع كتفه اليمنى بحركة طفوليّة غريبة، وقال بصوت كئيب:

ـ إنّني أشعر بالعار.

أفرغ غرو ـ لويس دلوه في المراحيض، واستخرج بعناية كلّ ماء الإسفنجة، ثم وضع الإسفنجة في الدلو وحملها إلى الإسطبل من جديد. وأغلق باب الإسطبل، فاجتاز الساحة ودخل المبنى «ب». كانت الحجرة خالية. وقال غرو ـ لويس: «إنّهم لا يتعجّلون الذهاب قطّ، فكأنّ الإقامة هنا تروق لهم». وسحب من تحت السرير بنطاله وسترته المدنيين، وقال، وهو يبدأ في نزع ثيابه: «أمّا أنا فلا تروق لي». ولم يكن يجرؤ بعد على الابتهاج، وقال: «هذه ثمانية أيّام وهم يبعصونني». وارتدى بنطاله وصفّ بعناية على سريره حاجاته العسكريّة، ولم يكن يعرف إذا كان المعلّم مستعدًّا لأخذه ثانية. «ومن الذي يحرس غنمه الآن؟» وأخذ قربته وخرج. وكان أمام المغسل أربعة أشخاص نظروا إليه وقهقهوا. فحيّاهم غرو ـ لويس بيده وعبر الباحة. ولم يكن معه بعد درهم واحد، ولكنّه سيعود مشيًا على الأقدام. «سأعينهم قليلاً في المزارع فيعطونني ما أكسر به الصفرة». وفجأة، رأى السماء ثانية، مزرقّة صفراء فوق أعشاب الكانيغو، ورأى آليات الخرفان المرتجّة، فأدرك أنّه كان حرًّا.

ـ أنت، هناك، إلى أين أنت ذاهب؟

فالتفت غرو ـ لويس، فإذا هو المعاون الضخم بولتييه، وقد هرع إليه

وهو يلهث، وقال وهو يعدو:

ـ عجبًا! هكذا إذن!

وتوقّف على خطوتين من غرو ـ لويس، وقد احمرّ من فرط الغضب واللهاث، وردّد:

ـ إلى أين أنت ذاهب؟

قال غرو ـ لويس: ـ إنّني راحل.

فقال المعاون وهو يشبك ذراعيه: ـ أنت راحل! أنت راحل! (وأضاف بغيظ يائس) ولكن إلى أين أنت راحل؟

قال غرو ـ لويس: ـ إلى بلدي.

قال المعاون: ـ إلى بلده! إنّه راحل إلى بلده! لا ريب في أنّ لائحة الطعام لا تعجبه، أو أنّ سريره يصرّ. (واستعار لهجة رصينة مهدِّدة وقال): تفضّل وارجع، وبسرعة! وسوف أُعنى أنا بك، يا صاحبي!

وفكّر غرو ـ لويس: «إنّه لا يعرف أنّهم قد تصالحوا» وقال:

ـ ولكنّهم قد وقّعوا على السلام، يا سيِّدي المعاون.

فبدا على المعاون أنّه لا يُصدِّق ما سمع:

ـ هل تتظاهر بالحمرنة. أم أنّك تريد أن تخدعني؟

ولم يكن غرو ـ لويس يريد أن يغضب، فاستدار وتابع سيره. ولكنّ الرجل الضخم لحق به، فشدّه من كمّه، وأقبل يقف أمامه، فلمسه بكرشه وصاح:

ـ إذا لم تطع فورًا، فستحال على المجلس الحربي.

وتوقّف غرو ـ لويس وحكّ رأسه. وفكّر في مارسيليا، فأخذه الصداع، وقال في رقّة: ـ انقضت ثمانية أيّام وهم يبعصونني.

وكان المعاون يهزّه من سترته ويهدر:

ـ ماذا تقول؟

فصاح غرو ـ لويس بصوت راعد:

ـ انقضت ثمانية أيّام وهم يبعصونني.

وقبض على كتف المعاون وأخذ يصفعه على وجهه. وبعد برهة اضطرّ أن يُمرّ ذراعه تحت إبطه ليُسنده، واستمرّ يضربه، وأحسّ بأنّه محاطٌ من الخلف، ثم قُبض على ذراعيه ولُويتا. فترك المعاون بولتييه الذي سقط على الأرض دون ما نبسة، وأخذ ينفض عنه جميع أولئك الأشخاص المتشبّثين به، ولكن أحدهم فركشه فوقع على ظهره. وبدأوا يضربونه، وكان يدير رأسه يمينًا وشمالاً ليتجنّب الضربات، وكان يقول وهو يلهث: «دعوني أذهب يا إخوان، دعوني أذهب، ما دمت أقول لكم إنّه السلام».

حكّ غوميز جوف جيبه بأظافره، فأخرج منه بضع قشّات من التبغ الممزوج بالغبار وبأطراف الخيطان. ووضع ذلك كلّه في غليونه فأشعله، وكان للدخان مذاق حامز خانق. وسأل غارسان:

ـ هل انتهت مؤونة التبغ؟

قال غوميز: ـ منذ مساء الأمس. لو كنت أعلم لجلبت معي كمّيّة أكبر.

ودخل لوبيز، وكان يحمل صحفًا. ونظر إليه غوميز ثم أخفض عينيه على غليونه. كان قد فهم. ورأى كلمة ميونيخ بأحرف كبيرة على الصفحة الأولى من الجريدة. وسأل غارسان:

ـ ماذا هناك؟

وكان يُسمع في البعيد صوت إطلاق المدافع. فقال لوبيز:

ـ لقد بُعصنا.

وضغط غوميز بأسنانه على أنبوب غليونه. كان يسمع المدفع ويفكّر في ليل جوان ليبان الهادئ، وفي موسيقى الجاز على شاطئ الماء: سيكون لماتيو بعد كثيرٌ من هذه الأمسيات.

وتمتم: ـ القذرون.

ظلّ ماتيو لحظة عند باب المستودع العسكريّ، ثم خرج إلى الساحة وأغلق الباب، كان ما يزال يرتدي ثيابه المدنيّة: فإنّه لم يكن باقيًا أيّة سترة عسكريّة في مخزن الثياب. وكان الجنود يتنزّهون زرافات صغيرة، ويبدو عليهم الذعر والقلق. وأخذ رجلان كانا متّجهين إليه يتثاءبان في الوقت نفسه، فقال لهم ماتيو: ـ أراكما تضحكان وتمزحان!

فأغلق أصغرهما سنًّا فمه، وقال في لهجة اعتذار:

ـ إنّنا لا نعلم ما ينبغي أن نفعل.

وقال صوت خلف ماتيو: ـ مرحبًا.

فالتفت، فإذا هو بذلك الذي يُدعى جورج، جاره في السرير، الذي كان ذا رأس قمريّ جميل كئيب. وكان يبتسم له. قال جورج:

ـ وإذن؟ كيف الحال؟

قال ماتيو: ـ لا تشكُ. فما كان ينبغي أن تكون هنا، هذه الساعة، بل كان ينبغي أن تكون في البوم ـ بوم.

قال الآخر: ـ صحيح (وهزّ كتفيه) سواء أكنّا هناك أو في مكان آخر..

قال ماتيو: ـ نعم.

وقال: إنّني مسرور لأنّي سأرى طفلتي، وإلّا... فسأعود إلى المكتب؛ إنّني غير متفاهم تمامًا مع زوجتي... سنقرأ الصحف، وسنقلق بسبب دانتزيغ: فيعود الأمر كما كان في السنة الماضية (وتثاءب وأضاف) إنّ الحياة متشابهة في كلّ مكان، أليس كذلك؟

ـ متشابهة في كلّ مكان.

وتبادلا بسمة رخوة. ولم يكن لديهما بعد ما يقولانه.

قال جورج: ـ إلى اللقاء.

ـ إلى اللقاء.

وكان ثمّة من يعزف على الأكورديون في الجهة المقابلة للحاجز. في الجهة المقابلة، كانت ثمّة نانسي، وباريس، وأربع عشرة محاضرة في الأسبوع. وإيفيش، وبوريس، وربّما إيرين، إنّ الحياة متشابهة في كلّ مكان. متشابهة دائمًا. وتوجّه بخطى بطيئة نحو الحاجز.

ـ أخطأت.

وأشار له بعض الجنود بأن يبتعد: كانوا قد رسموا خطًّا على الأرض وكانوا يلعبون بالدراهم، في غير حماسة كبيرة. وتوقّف ماتيو لحظة: فرأى دراهم تتدحرج، ثم دراهم أخرى، ثم سواها. وبين فترة وأخرى، كان درهم يدور على نفسه كالبلبل ثم يتعثّر على درهم آخر فيغطّي نصفه. وإذ ذاك كانوا ينتصبون ويطلقون الصيحات. واستعاد ماتيو سيره.

كثير من القطارات والشاحنات التي تخدّد فرنسا. وكثير من الهمّ، وكثير من المال، وكثير من الدموع، وكثير من الصياح في جميع إذاعات العالم، وكثير من التهديدات والتحدّيات بجميع اللغات، وكثير من المؤتمرات تنتهي بالدوران في ساحة أو بقذف الدراهم في الغبار. كان جميع هؤلاء الناس قد مارسوا العنف فيما بينهم ليذهبوا وعيونهم جافّة، وكانوا جميعًا قد رأوا الموت فجأة في وجوههم، وكانوا جميعًا، بعد كثير من الارتباك أو التواضع، قد صمّموا على أن يموتوا. أمّا الآن، فقد ظلّوا مذهولين، أيديهم متدلّية، وأقدامهم مقيَّدَة بهذه الحياة التي ارتدّت علهيم، والتي تُترك لهم لفترة أخرى، فترة صغيرة، والتي لا يعلمون بعد ماذا هم صانعون بها. وفكّر: إنّ هذا هو نهار المخدوعين. وقبض بكلتا يديه على قضبان الحاجز ونظر إلى الخارج: الشمس على الشارع الخالي. منذ أربع وعشرين ساعة، كان السلام هو الذي حلّ في شوارع المدن التجاريّة. ولكن كان باقيًا حول الثكنات والقلاع ضباب حرب غامض ينزع إلى التلاشي. وكان الأكورديون الذي لا يُرى يعزف «المادلون». وتهبّ ريح

خفيفة فاترة فتثير على الطريق زوبعة من الغبار. «وحياتي أنا، ماذا عساني أصنع بها»؟ كان الأمر يسيرًا جدًّا: ففي شارع هويغتز، بباريس، كان ثمّة بيت ينتظره، ذو غرفتين وتدفئة مركزيّة. وماء، وغاز، وكهرباء وأرائك خضراء وعقرب برونزي على الطاولة. سيعود إلى بيته، وسيضع المفتاح في القفل. وسيستعيد كرسيّه في ليسيه بوفون. ولا يكون قد حدث شيء. لا شيء على الإطلاق. كانت حياته تنتظره، مألوفة، وكان قد تركها في مكتبه، في غرفة نومه، سينسرب إليها من غير مشاكل ـ لن يفعل أحد مشاكل، ولن يشير أحد إلى اجتماع ميونيخ، وبعد شهر سيُنسى كلّ شيء ـ ولن يبقى بعد إلّا ندب صغير لا يُرى في دوام حياته، كِسْرٌ صغير: ذكرى ليلة حسب فيها أنّه ذاهب إلى الحرب.

وفكّر، وهو يشدّ على القضبان بكلّ قواه: «لا أريد! لا أريد! لن يكون هذا!».

وانتقل فجأة، ونظر وهو يبتسم إلى النوافذ المتلألئة بالشمس. كان يحسّ نفسه قويًّا؛ وكان في أعماقه قلق صغير كان قد بدأ يعرفه، قلق صغير كان يمنحه الثقة. مطلق إنسان، في مطلق مكان. إنّه لم يكن يملك بعد شيئًا، ولم يكن بعد شيئًا. إنّ ليلة أمس الأوّل المظلمة لن تذهب سدى: ولن يذهب ذلك الهياج والاضطراب سدى تمامًا. فيلغمدوا سيوفهم إذا شاؤوا؛ ليخوضوا حربهم أو ليمتنعوا عن خوضها، فأنا أهزأ بذلك، إنّني غير مخدوع، وكان الأكورديون قد صمت، واستعاد ماتيو سيره حول الساحة، وفكّر: «سأظلّ حرًّا».

كانت الطائرة ترسم دوائر عريضة فوق بورجيه، وكان قطرانٌ أسود متموِّج يغطّي نصف أرض الهبوط. وانحنى ليجيه نحو دالادييه، وصاح وهو يشير بأصبعه:

ـ أيّ حشد!

فنظر دالادييه بدوره، وتكلّم للمرّة الأولى منذ ذهابهم إلى ميونيخ.

ـ لقد عادوا ليحطّموا رأسي.

فلم يحتجّ ليجيه. وهزّ دالادييه كتفيه:

ـ إنّني أفهمهم.

فقال ليجيه متنهّدًا: ـ كلّ شيء يتوقّف على رجال الشرطة.

دخل الغرفة، وكان يحمل صحفًا؛ وكانت إيفيش جالسة على السرير، مطرقة الرأس.

ـ انتهى الأمر؛ لقد وقّعوا هذه الليلة.

فرفعت عينيها، وكان يبدو سعيدًا، ولكنّه صمت، وقد أزعجه فجأة النظر الذي كانت تحدّجه به. وسألته:

ـ أتعني أنّه لن يكون هناك حرب؟

ـ طبعًا.

لا حرب؛ لا طائرات فوق باريس، ولن تنفجر السقوف تحت القنابل: فينبغي إذن أن أعيش. وقالت وهي تنشج:

ـ لا حرب، لا حرب، وتبدو أنت مسرورًا!

اقترب ميلان من أنّا، كان يترنّح، وكانت عيناه ورديّتين. ولمس بطنها وقال: ـ وهذا واحد لن يكون له حظّ.

ـ ماذا؟

ـ الطفل. أقول إنّه لن يكون له حظّ.

وبلغ الطاولة وهو يعرج، فصبّ لنفسه قدحًا. وكان القدح الخامس منذ الصباح.

وقال: ـ أتذكرين حين تعثّرتِ على الدرج؟ لقد ظننت أنّك ستجهضين.

قالت بجفاء: ـ وماذا تقصد؟

وكان قد استدار إليها، والقدح في يده، وكان يبدو وكأنّه يحمل نخبًا. وقال وهو يقهقه:

ـ كان ذلك أفضل!

فنظرت إليه: كان يرفع القدح إلى فمه بيد ترتجف قليلاً.

قالت: ـ ربّما. ربّما كان ذلك أفضل.

كانت الطائرة قد حطّت، وخرج دالادييه بمشقّة من بين المقاعد، ووضع قدمه على السلّم، كان ممتقعًا. وحدث ضجيج هادر، وأخذ الناس يركضون، خارقين صفّ رجال الشرطة، مقتلعين الحواجز، وشرب ميلان، وقال ضاحكًا:

ـ نخب فرنسا! نخب إنكلترا! نخب حلفائنا الأمجاد!

ثم قذف القدح بكلّ قواه إلى الجدار. كانوا يصرخون:

ـ لتعش فرنسا! لتعش إنكلترا! ليعش السلام!

وكانوا يحملون أعلامًا وباقات. وكان دالادييه قد توقّف عند الدرجة الأولى: كان ينظر إليهم في ذهول. والتفت إلى ليجيه، وقال بين أسنانه:

ـ يا للفروج الحمير!

إلى جانب أبطالٍ جدد، يعود جميعُ أبطال الجزء الأوّل («سنّ الرشد») في هذا الجزء الثاني، وهم يواجهون فترةً حاسمةً وعصيبةً من تاريخ الإنسانيّة، عشيّةَ اندلاع الحرب العالميّة الثانية. فيضع جان بول سارتر القارئَ، من خلال وصفه للهموم البشريّة العاطفيّة والفكريّة والسياسيّة، أمام أهمّ مسألة وجوديّة، ألا وهي الحرِّيَّة، وما يتبعها من التزام ومسؤوليّة تجاه المجتمع والتاريخ.

رواية «وقف التنفيذ» هي الجزء الثاني من ثلاثيّة «دروب الحرِّيَّة»، التي اعتـبُرتْ أضخمَ الروايات الوجوديّة وأروعها. وقد استطاع سارتر أن يجعل فلسفته الوجوديّة في متناول القرّاء جميعهم حين صبّها في قالب روائيّ فذّ.



دار الآداب
هاتف: ٠١/٨٦١٦٣٣
٠١/٧٩٥١٣٥
ص ب ٤١٢٣-١١ بيروت

تصميم الغلاف ريم الجندي

لوحة الغلاف: ادوارد فويار

ISBN: 978-9953-89-220-7
9789953892207